سلطنة دلهي

تاريخ سياسي وعسكري

بيتر جاكسون

تعريب

فاضل جتكر

مكتبة العبيكان

Original title:
THE DELHI SULTANATE
A Political and Military History
First Published in English by The Press Syndicate of The University of Cambridge
The Pitt Building, Trumpington Street, Cambridge, United Kingdom

طريق الملك فهد، ص.ب. 6672، الرياض 11452 المملكة العربية السعودية
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O.Box 6672, Riyadh 11452, Saudi Arabia
الطبعة العربية الأولى 1424 هـ ـ 2003م
ISBN 9960-40-196-0

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بيتر جاكسون
سلطنة دلهي ـ تعريب: فاضل جتكر
620 ص، 17 × 24 سم
ردمك: ISBN 9960-40-196-0
1 ـ الهند ـ تاريخ
أ ـ جتكر، فاضل (تعريب)   ب ـ العنوان
ديوي 954   23 ـ 3011   رقم الإيداع: 23 ـ 3011

ردمك: ISBN 9960-40-196-0

الطبعة الأولى 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

إلى ريبيكا

المحتوى

الخرائط

تمهيد

تم التخطيط لهذا الكتاب، لكي يكون تاريخاً سياسياً وعسكرياً لسلطنة دلهي «الكبرى»، التي استمرت بعد إيجادها في 1210م، حوالي مئتي سنة، وشكّلت على امتداد ما يقرب من نصف تلك الفترة، المعقل الوحيد للنفوذ الإسلامي في شبه القارة الهندية. أما الحقبة الممتدة من تاريخ قيام تيمورلنك، (تيمورلين)، ذلك الفاتح القادم من آسيا الوسطى، باجتياح دلهي ونهبها سنة 801 هـ / 1398م، وحتى الفتح المغولي، سنة 932 هـ / 1526م، تلك الحقبة التي لم تَعُد فيها السلطنة، إلاَّ واحدة من مجموعة من الممالك الإسلامية المتنافسة في الشمال، فتجري تغطيتها بإيجاز في الذيل.

تبقى المواد المرجعية الخاصة بسلطنة دلهي ـ سردية في الشكل، ومكتوبة بالفارسية أكثر الأحيان، مع إضافة كتابات وصفية عن الهند، من قبل مراقبين خارجيين كتبوا بالعربية ـ أقل إقناعاً من تلك المتوافرة، مثلاً، عن الامبراطورية المغولية التي جاءت بعدها، أو من تلك المؤلَّفة من سلطنة مصر وسورية المملوكية المعاصرة. كان جزء كبير من الأدبيات العامة عن هذه الفترة من التاريخ الهندي، ميالاً إلى المبالغة، حسب ما أرى، في الالتزام بالترتيب المعتمد في المصادر السردية، مما أدّى إلى تزويد القارىء، أحياناً كثيرة، بوجبة، تكاد أن تكون غير قابلة للهضم، من أحداث تبدو غير مترابطة.

لقد قَسَّمت الفترة إلى مرحلتين، جاعلاً من عهد علاء الدين الخَلْجي (695 ـ 715 هـ / 1296 ـ 1316م)، خطاً فاصلاً: فقد شهد هذا العهد، إجراء

جملة من التغييرات الإدارية ذات المدى البعيد، الهادفة، بأكثريتها، إلى تلبية متطلبات، مواجهة التصاعد في الهجمات المغولية من جهة، والتقدم الأكثر حيوية ونشاطاً في كل من راجستان، والجنوب من جهة ثانية. يتصدر كلاً من الجزأين (المرحلتين) فصلٌ عن المصادر، وعن وجهة النظر التي تطرحها عن السلاطين؛ غير أنني، فيما عدا ذلك، حاولت في كل جزء مقاربة المهمة حسب الموضوعات، مبرزاً مسألة تشكل الطبقة الأرستقراطية، وقضية التحكم الإداري، ومشكلة الحرب المزمنة والدائمة ضد خصوم السلطنة، وأعدائها من قوى هندوسية مستقلة، أو مغول أفغانستان وآسيا الوسطى. في الفصول الثاني عشر والثالث عشر والخامس عشر ثمة محاولة بُذلت، للربط بين الشؤون السياسية والعسكرية والتطورات الاقتصادية، على الرغم من ضرورة الاعتراف، بأن المواد المتوفرة لبناء تاريخ اقتصادي للسلطنة، ضئيلة نسبياً. إن فصلين مرتكزين على عهدي محمد بن تُغْلُق (724 ـ 752 هـ / 1324 ـ 1351م)، وفيروز شاه (752 ـ 790 هـ / 1351 ـ 1388م)، يشكّلان خروجاً على الإطار الذي اعتمدته؛ غير أنه بدا مفيداً تكريس دراسة متماسكة، لكل من هذين العهدين الإشكاليين. وأرجو أن يكون الفصل الرابع عشر، وهو حول علاقة السلاطين برعاياهم من السكان الهندوس، قد احتل مكاناً طبيعياً مناسباً بينهما، نظراً لأن محمداً كان يحابي الهندوس ويفضلهم، في حين يقال عن خلفه، إنه كان يتخذ مواقف أشد، وأكثر صرامة في تعامله معهم.

منذ سنوات، وهذا الكتاب في حالة اختمار، وحين كتبتُهُ راكمتُ عدداً غير قليل من وجوه المساعدة والعرفان بالجميل. لذلك يسعدني أن أكون قادراً، آخر المطاف، على التعبير عن الامتنان، لمنحة حصلت عليها من جمعية لفرهولمه Leverhulme، التي ساهمت في تكاليف الذين درّسوا بدلاً مني، لفترتين سنة 1990 ـ 1991م، ولسخاء جامعة كيلي، التي سدَّت النقص في تلك التكاليف من جهة، ومنحتني مكافأة بحث للقيام بدراسات إضافية لفترة ثانية،

مع تمويل نفقات البحث من جهة أخرى. أجدني أيضاً مديناً بالشكر لزملائي المتخصصين بالدراسات القروسطية في قسم التاريخ، لأنهم رصُّوا الصفوف أثناء إجازاتي من أجل البحث. لقد استفدت كثيراً من المعونة التي وفرها لي قسم الإعارة الداخلية في مكتبة جامعة كيلي، ومن التسهيلات التي قدمتها لي مكتبة جامعة كامبردج، والغرفة الشرقية في مكتبة البودليان، والمعهد الهندي في أوكسفورد، ومكتبة جامعة جون رايلاندز في مانشستر، ومكتبة مكتب الهند، وغرفة طلبة الدراسات الشرقية في المكتبة البريطانية (المندمجة الآن)، ومكتبة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، والمكتبة القومية (بيبليوتيك ناسيونال) في باريس، ومكتبة جامعة ريكس بلايدن [هولندا]. ولا يسعني أيضاً إلاّ أن أعبّر عن عميق تقديري، لسعة صدر حافظ مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية في التعامل مع مستعير، أدمن التأخر في رد ما يستعيره بصورة مثيرة للاستنكار. وأنا ممتن للسلطات التركية، ذات العلاقة التي سمحت لي بالعودة إلى مجموعات المخطوطات الموجودة في مكتبتي السليمانية، ونورعثمانية، ومكتبة متحف سراي توب قابي في استانبول. أما الدكتور ريناتوتريني، محافظ المكتبة في أكاديمية لينتشي وكورسينيانا القومية في روما، فقد زوَّدني بصورة فورية وباحترام، بصور الملفات ذات العلاقة، من مخطوطة كايتاني رقم: 21 لـ **الوافي بالوفيات** للصفدي(*). وكذلك فإن كلاً من مكتبة البودليان، والمكتبة البريطانية والمخطوطات القومية بالهند، كانت كريمة إذ زوَّدتني بميكرو أفلام، لعدد من المخطوطات الموجودة لديها.

ثمة عدد من الباحثين ساهموا في إنتاج هذا الكتاب، وإخراجه إلى النور. فقبل بضع سنوات، أبدى السيد سايمون ديغبي كرماً، إذ أعارني صورة عن الجزء الأكبر، من مخطوطة الصياغة المنقحة الأولى لكتاب **تاريخ فيروز شاه** لباراني في مجموعته الخاصة، وقد أثبَتَتْ أنها لا تقدَّر بثمن. وفيما بعد، سمح

(*) طُبع الجزء قبل خمسة أعوام بالمعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ضمن النشرة المستمرة لكتاب الوافي.

لي أن أستخدم نصاً، قارنت فيه الجزء الذي يغطي عهد محمد بن تُغْلُق في هذه المخطوطة مع الفقرة، ذات العلاقة في نسخة مكتبة البودليان. وفي الهند سنة 1991م، قام الدكتور أكبر علي خان عرشي زاده، المدير المتطوِّع لمكتبة الرضا في رامبور، باستضافتي، مع زوجي، بكرم وسخاء، ما زلنا نذكرهما بكثير من الدفء والعرفان. ولدينا أيضاً أسباب وجيهة، تجعلنا نقدِّر معونة فيكرام، سائقنا، وتوني، دليلنا في مدينة دلهي القديمة. أما عن اجتراح الخرائط، فأنا مدين لزميلي آندرو لورنس، من وحدة رسم الخرائط، في قسم علوم البيئة الاجتماعية في كيلي. وفي مطبعة جامعة كامبردج، بَرْهَنَتْ ماريغولد أُكلاند، على أنها محرِّرة صبورة جداً وطويلة البال.

سيتضح من الصفحات التالية، مدى استفادتي من باحثين أكاديميين آخرين نجحوا في جعل العالم الإسلامي الشرقي، والهند الإسلامية خصوصاً، ميداناً يخصهم أكثر مما يخصني. لقد تابع الدكتور بيتر هاردي، والبروفسور إدموند بوزوورث، اللذان قاما بصورة مشتركة، بمعاينة أطروحتي للدكتوراه، سنة 1976م، دعمهما لي بصداقتهما واهتمامهما وكرمهما. كذلك كسبت من الفرصة التي أتيحت لي، لمقابلة الدكتور خُرَّم قادر، من جامعة بهاء الدين زكريا بملتان، ومناقشته حول سلطنة دلهي. ومن الطبيعي أن أكون مسؤولاً وحدي، عن أية أخطاء تمكَّنت من التسلُّل إلى الكتاب.

ليس الإهداء كافياً للتعبير، عن مدى ضخامة ما أدين به من جميل لزوجي. فرغم مشاغلها الكثيرة، المرتبطة بعملها الخاص، لم تتأخر ريبيكا قط في توفير التشجيع والدعم المعنوي لمؤلف بدا أحياناً، معلَّقاً يتأرجح عند حافة الجنون. لولاها لما كُتِب هذا الكتاب.

ملاحظة عن النقل إلى الحروف اللاتينية

لنقل الكلمات العربية، والفارسية إلى الأحرف اللاتينية، اعتمدت النظام المتبع في **الموسوعة الإسلامية**، عدا استخدام ch بدلاً من c، j بدلاً من dj وح بدلاً من k. وتوخياً للاتساق والتماثل، تجري تهجئة الأسماء، والتعابير الفارسية المأخوذة من العربية، كما لو كانت عربية: يقال محدث بالثاء بدلاً من Mahaddis بالسين، ذمة بدلاً من زمة Zimma، حضرة بدلاً من هزرت Hazrat، ووقف بدلاً من ڤقف Vagaf. وباستمرار، جرى تحويل **الإضافة** إلى (ي) [Y]i.

أما فيما يخص أسماء العلم، والعبارات التركية والمغولية، فقد اعتمدت نظام اليونسكو، كما هو مستخدم في ج. آ. بويل، **ورثة جنكيزخان** (نيويورك، 1971م). تأتي إعادة الهيكلة التجريبية لأي من أسماء الأعلام، مميزة بنجمة كما في آلتونابا أو تَرْتَق. والقراءة الدقيقة كما هي واردة في المخطوطات، أو النصوص المطبوعة تتم إعادة إنتاجها بأحرف كبيرة، مع استبدال kh بـ x، وgh بـ r، وch بـ Ĉ، وsh بـ Ŝ، وZh بـ Ẑ، مع تمثيل الأحرف الصوتية الطويلة بـ A وW وY (و«سن» دون أطراف تظهر وكأنها نقطة).

تشكّل الأسماء الهندية مشكلة أكبر، وقد وقعت هنا، دون شك، في خطأ عدم الاطّراد والاتساق. فأسماء تلك الأماكن، التي وجدت طريقها إلى التراث الجغرافي العربي المتداول، ترد في صيغتها العربية ـ الفارسية مثل قِنَوْج وبداؤون بدلاً من كنياووج وبوداون؛ أما فيما عدا ذلك، فثمة شكل هجين

(يرجى أن يكون قابلاً للتعرُّف عليه)، جرى استخدامه، مثل كول وتشاندري وإيراتش، بدلاً من كوول وتشانديري وإراتش. وحيث باتت التهجئة الأوروبية راسخة، كما هي الحال مع دلهي ولاهور، أوردت الصياغة الفارسية ـ العربية (**ديلي، ديهلي؛ لاهَوْر**) جنباً إلى جنب مع التهجئة الأوروبية في المرة الأولى، ملتزماً بعد ذلك بالاستخدام الدارج.

لائحة الرموز المختزلة

آ. الدوريات والمراجع

AEMA	محفوظات أوراسيا القروسطية آرخيفوم يواراسياي ميدي آفي.
AOH	آكتا أورنيتاليا أكديمياي سينتيا روم هونغاريكاي
ARIE	المسح الآثاري للهند. التقرير السنوي عن النقوش الهندية.
BEO	بوليتن إيتود أورينتال دوليبسنتبتوت فرانسي دو داماس (نشرة الدراسات الشرقية ـ المعهد الفرنسي ـ دمشق)
BI	المكتبة الهندية بيبليوتيكا إنديكا
BL	المكتبة البريطانية
BN	المكتبة القومية، باريس (بيبيوتيك ناسيونال)
BSO [A] S	نشرة معهد الدراسات الشرقية (والإفريقية)، جامعة لندن
CAJ	مجلة آسيا الوسطى
CCIM	هـ. نلسون رايت (محرراً)، دليل القطع النقدية في المتحف الهندي، كالكوتا
CMSD	هـ. نلسون رايت (محرراً)، نقود وموازين سلاطين دلهي
DGUP	معاجم الأقاليم الجغرافية لإقليمي آغرا وأوده المتحدين (عبد الله آباد، 1903 ـ 1922)، 48 جزءاً.
ED	سير هنري إليوت، تاريخ الهند كما رواه مؤرخوها، تحرير ج. دوسون (لندن، 1867 ـ 1877، 8 أجزاء
EIAPS	ابيغرافيا أنديكا
EIAPS	ابيغرافيا أنديكا. ملحق عربي وفارسي
EIM	ابيغرافيا أندو ـ مسلميكا

Enc. Ir.	إ. يارشاتر (محرراً)، الموسوعة الإيرانية (أنسيكلوبيديا إيرانيكا) (لندن وكوستا ميسا، كاليفورنيا، 1982 ـ قيد الإنجاز والاستكمال)
Enc. Isl.	تش. بيلاّن وآخرون (محررين)، الموسوعة الإسلامية، طبعة جديدة، (لايدمي، 1954 ـ قيد الإنجاز)
GMS	سلسلة تخليد ذكرى جيب
HI	هامدارد إسلاميكوس
HJAS	مجلة هارفارد للدراسات الآسيوية
HN	م. حبيب وك. آ. نظامي (محررين)، سلطة دلهي (1206 ـ 1526م)
HS	جميعة هاكليوت
IA	انديان آنتيكواري (آثار الهند)
IG	و. س. مير وآخرون (محررين)، المعجم الجغرافي الأمبراطوري للهند، طبعة جديدة (أكسفورد 1907 ـ 1909، 26 جزءاً)
IHQ	الفصلية التاريخية الهندية
IHR	المجلة التاريخية الهندية
IOL	مكتبة مكتب الهند، لندن
IO [N] S	دراسات [وملاحظات] شرقية إسرائيلية
Iran	مجلة المعهد البريطاني للدراسات الفارسية
IS	الدراسات الإسلامية
IU	اسلامكوندليشه أونترزوخنغن
JA	جورنال آسيتيك (المجلة الآسيوية)
JAH	مجلة تاريخ آسيا
JAOS	مجلة جمعية الاستشراق الأمريكية
JAS [B]	مجلة الجمعية الآسيوية [في السنغال]
JASP	مجلة الجمعية الآسيوية [الباكستان]
JB [O] RS	مجلة جمعية بحوث بيهار [وأوريسا]
JCA	مجلة آسيا الوسطى
JIH	مجلة تاريخ الهند
JIS	مجلة الدراسات الإسلامية

JNSI	مجلة جمعية النقود والميداليات في الهند
JPHS	مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية
JRAS	مجلة الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا العظمى وإيرلندا
JSS	مجلة الدراسات السامية
JUPHS	مجلة الجمعية التاريخية للأقاليم المتحدة
MASI	يوميات المسح الآثاري للهند
MIM	هند العصر الوسيط: متفرقات
MIQ	فصلية هند العصر الوسيط
NIA	نيو إنديان آنتيكواري (الآثار الهندية الجديدة)
PFEH	مقالات حول تاريخ الشرق الأقصى
PHC	محاضر... مؤتمر تاريخ الهند [تشير الأرقام إلى رقم الجلسة]
PL	سي. آ. ستوري، الأدب الفارسي: مسح مكتبي ـ سِيَري (لندن، 1927 ـ قيد الإنجاز)
PPV	بامياتنيكي يسمنوستي فوستوكا
PSMI	محاضر ندوة المنقوشات القروسطية (6 ـ 8 شباط 1970م) (اليغاره، 1974م)
PUJ	مجلة جامعة باتنا
QGIA	معهد الآثار الألماني، القاهرة، كُوَلْنْ تسور غشيخته ديس إسلاميش ايجبتسن
RCEA	ات. كومبه، ج. سافواجيه، وج. ويت (محررين)، ريبورتوار كرونولوجيك دوابيغرافي آراب (القاهرة 1931م ـ قيد الصدور)
RRL	مكتبة رامبور رازا
SK	مكتبة السليمانية، استانبول
SOAS	معهد الدراسات الشرقية والإفريقية، جامعة لندن
TMENP	ج. دويرفر، العناصر التركية والمغولية في الفارسية الحديثة
TSM	متحف سراي توب قابي، استانبول
TVOIRAO	أعمال فرع الشرق في جمعية الآثار الملكية الروسية
WZKM	فيندزايتشريفت فوردي كونده دس مورغنلاندس
ZS	دراسات آسيا الوسطى

ب ـ النصوص

AHG	أولوغخاني، ظفر الواله، تحقيق، Ross، تاريخ عربي لگوجرات
AH	فخري مدبر، آداب الحرب والشجاعة
Bābur, Bālur Nāme	بابور، بابور ـ نامه
CN	كوفي، شاغ ـ نامه
DA	غزنوي، دستور الألباب
DGK	أمير خسرو، ديباجة غرة الكمال
DR	أمير خسرو، دُوَل راني خضر خان
FFS	سلطان فيروز شاه تُغْلُق، متوجات فيروز شاه
FG	يوسف أهل، فرائد غياثي
FJ	بَرَني، فتاوى جهان داري
FS	عصامي، فتوح السلاطين
GK	أمير خسرو، غرة الكمال
IA	ابن الأثير، الكامل في التاريخ
IB	ابن بطوطة، تحفة النظار
IM	ابن مهرو، إنشاء مهرو
JH	عوفي، جوامع الحكايات
JT	رشيد الدين فضل الله، خزائن التواريخ
MA	العُمَري، مسالك الأبصار
MF	أمير خسرو، مفتاح الفتوح
NS	أمير خسرو، سفر نوح (نوح سبن)
QS	أمير خسرو، قران السعدين
RI	أمير خسرو، رسائل الإعجاز
SA	فخري مدبر، شجرة الأنساب
SFS	مجهول المؤلف، سيرت فيروز شاه
Siyar	كرماني (أمير خورد)، سير الأولياء
SP	رشيد الدين فضل الله، شُعَب ـ ي بنجغانا
TAJ	حسن نظامي، تابع المآثر

TFS	برني تاريخ فيروز شاه
TFS[1]	برني تاريخ فيروز شاه، الصياغة المنقحة الأولى
TJG	جويني، تاريخ جهان كشاي
TMS	سرهندي، تاريخ مبارك شاه
TN	الجوزجاني، طبقات ناصري
TS	أمير خسرو، تحفة الصغار
Tughlug - Nama	أمير خسرو، تُغْلُق نامه
WH	أمير خسرو، وسط الحياة
Shāmī, ZN	شامي، ظفر نامه
Yazdi, ZN	يزدي، ظفر نامه

الجزء الأول

القرن الثالث عشر

الفصل الأول

الجذور

خلفاء وأمراء وسلاطين

ظلت سيرة اثنين من كبار الفاتحين المسلمين، تشغل حكام سلطنة دلهي. تَمثّل أوّلهما بمحمود الغزنوي (المتوفّى سنة 421 هـ/ 1030م)، والذي تمخّضت حملاته عن مد الحكم الإسلامي إلى عمق البنجاب الغربي. وتمثّل الثاني بالسلطان الغوري معزّ الدّين محمد بن سام، الذي شكّلت انتصاراته الأحدث على عدد من الدويلات الهندية، ترسيخاً للنفوذ الإسلامي في سهل الغانج الشمالي، والذي ما لبث اغتياله سنة 602 هـ/ 1206م، أن أدّى، أولاً إلى دفع الهند الإسلامية في مسارها المنفصل الخاص المتميّز، عن المسار الذي سارت فيه المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر السند Indus. لقد كان كل من محمود ومعزّ الدّين، كل بطريقته، نموذجاً لنمط أمراء الحرب، الذين دأبوا على اجتراح إمارات خاصة بهم، في إطار العالم الإسلامي منذ القرن التاسع (الميلادي). فخلافة العباسيين العامة، كانت قد سارت في طريق التفكك والتحلل، ولم يبق منها إلاّ الزعامة الاسمية للمسلمين السنة. وكانت المعارضة الشيعية، قد باتت مسيطرة على بعض الأقاليم. وعلى امتداد ما يقرب من ثلاثة قرون (296 ـ 567 هـ / 909 ـ 1171م)، ظل العباسيون يواجهون تحدي **الأئمة** الفاطميين، الممثلين للطائفة الشيعية الاسماعيلية. فمن

مصر وسورية بقي هؤلاء المعادون للخليفة، دائبين على نشر شبكة من العملاء، والدعاة الذين وسّعوا دائرة نشاطاتهم إلى أن باتت تشمل، حتى الأماكن البعيدة في الشرق مثل السند، تلك المنطقة الشاملة لوادي الأندوس الأوسط والأسفل، التي كان القائد العربي محمد بن قاسم الثقفي، قد أخضعها في وقت مبكر، يعود إلى سنة 92 هـ / 711 م. منذ سنة 344 هـ / 965م، أصبح اسم الإمام الفاطمي، يُذكر في الصلوات بمدينة مُلْتان، ثم صار يتردد في المنصورة مع حلول نهاية القرن[1]. غير أن السلطة في أكثرية الولايات التابعة للخلافة، ما لبثت أن آلت إلى أيدي عدد من الحكام، الوراثيين المستقلين. وأمثال هؤلاء الحكام الذين لم يبادروا في البداية إلى اعتماد أي لقب أعلى من لقب **الأمير** (القائد حرفياً)، كانوا عادة يحرصون على الالتزام، بشكليات الحصول على (منشور) التفويض بالحكم و(الخلعة) وأحد الألقاب الطنّانة من الخليفة العبّاسي، مقابل إيراد اسمه في خطبة صلاة الجمعة، وعلى القطع النقدية المسكوكة، إضافة إلى إرسال كمية، تكاد تكون رمزية، من الخراج سنوياً.

وسعياً إلى تدعيم مشروعيتهم الملتبسة، تعين على أمراء الأقاليم، أن يكونوا (ظاهراً إن لم يكن في الواقع)، أنصاراً متحمسين للإسلام السني وخليفته في مواجهة كل من الكفار والهراطقة. ولعل الأنجح في أداء مثل هذه المهمات، هم الحكام الذين كانوا يتحدرون من أصول تركية. فأكثرية الأسر الحاكمة الإقليمية، درجت على تقليد الخلفاء العباسيين، ودأبت على تدعيم

---

(1) ثمة مقدمة جيدة تلقي الضوء على القرون الأولى من الحكم الإسلامي في السند في مقال يوهانان فريدمان، «مساهمة في التاريخ المبكر للإسلام بالهند» في كتاب م. روزن ـ آيالون (محرراً): **دراسات في ذكرى غاستون ڤييت** (القدس، 1977م)، 309 ـ 333؛ وفي كتاب دريل ن. ماك لين، **الدين والمجتمع في السند العربي** (لايدن، 1989م). أما عن فعاليات الإسماعيليين فيمكن الرجوع إلى مقال س. م. شترن «الدعاية الإسماعيلية والحكم الفاطمي في السند»، IC 23 (1949م)، 298 ـ 307؛ وإلى كتاب عباس الهمداني، **بداية الدعوة الإسماعيلية في شمال الهند** (القاهرة، 1956م).

نفوذها عن طريق الاحتفاظ بفصائل من وحدات الحراسة المؤلفة من المماليك، (**الغلمان** بالعربية **والباندا** بالفارسية)، القادمين من السهوب الوثنية في آسيا الوسطى. لا بد من التأكيد على أن مكانة الغلام أو المملوك، لم تكن لتنطوي على أي من المعاني التحقيرية الملازمة للأشكال الأخرى من العبودية. كانت الأقوام التركية تتمتع بسمعة استثنائية على صعيد المهارة العسكرية، والتزمُّت، أو التشدُّد الديني، وكان الغلمان ذوي قيمة رفيعة في نظر أسيادهم، بعد حصولهم على التعليم في العقيدة الإسلامية من جهة، وعلى التدريب العسكري الصارم من جهة ثانية(2). هذا ولم تكن هذه الثقة في غير محلها، لأن عملية اجتراح سلطة إسلامية مستقلة في الهند، والحفاظ عليها كانت، كما سوف نرى، في جانب كبير منها، من صنع القادة المماليك الأتراك، ومن معهم من غلمان يملكونهم.

لقد كانت أسرة محمود الحاكمة، العائلة الغزنوية أو اليمينية [من لقب: يمين الدولة] (352 ـ 582 هـ / 962 ـ 1186م)، ذات أصول تركية؛ فمؤسّسها الفعلي سبوكتكين والد محمود، كان قائداً مملوكياً من الأتراك. وقد ضمت الإمبراطورية الغزنوية في أوج اتساعها، مساحة ممتدة بين الري وأصفهان في بلاد فارس، وحتى إقليم هانسي في البنجاب الشرقي. وما لبث الخليفة العباسي أن كافأ محموداً ـ الذي جرّد ما لا يقل عن سبع عشرة حملة، ضدّ حكّام وثنيين

(2) سي. إ. بوزوورث، «تجاوزات بربرية: توغل الأتراك في العالم الإسلامي» في كتاب د. س. ريتشاردز (محرراً)، **الحضارة الإسلامية 950 ـ 1150م** (أوكسفورد، 1973م)، 1 ـ 16 (خصوصاً 4 ـ 10)، وطُبع ثانية في كتاب بوزوورث، **التاريخ الوسيط لإيران وأفغانستان وآسيا الوسطى** (لندن، 1977م). د. آيالون، «السهب الأوروبي ـ الآسيوي: خزان القوة الرئيسي للعالم الإسلامي»، في **ترودي 25 المؤتمر الدولي للمستشرقين، موسكفا 1960** (موسكو 1963، 5 أجزاء)، اا، 47 ـ 52؛ المصدر السابق «ملاحظات أولية حول المؤسسة العسكرية المملوكية في الإسلام»، في 2. ج. باري وم. إ. ياب (محررين)، **الحرب والتكنولوجيا والمجتمع في الشرق الأوسط**، (أوكسفورد ولندن، 1975)، 44 ـ 58؛ وتمت إعادة طبع المقالين، كليهما، في كتاب آيالون، **المجتمع العسكري المملوكي** (لندن، 1979).

هنود، كما استأصل جذور الاسماعيليين من مدينتي مُلْتان والمنصورة بالذات ـ على خدماته الجليلة للإسلام السنّي، بلقب **يمين الدولة**[3].

ومع ذلك فإن الاتجار بالرقيق لم يكن هو السبيل الوحيد، لوصول الأتراك إلى الأراضي الإسلامية المتحضرة. فقد كانوا يأتون أيضاً بوصفهم أحراراً في غمرة الهجرات الواسعة، أو الغزوات التي تقوم بها أقوام قَبَلية بدوية، مُهتدية حديثاً (معتنقة للإسلام حديثاً) انطلاقاً من آسيا الوسطى؛ وثمة إحدى هذه القبائل، ألا وهي قبيلة السلاجقة المنتمية إلى تجمع قبائل الغُز (أوغور)، المنتشرة إلى الشمال من بحر آرال، تمكنت، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر (الميلادي)، من تأسيس إمبراطورية، كانت تضم إيران كلها مع كل من العراق وسورية. ففي سنة 344 هـ / 1055م، دخل القائد السلجوقي بغداد، ووضع الخليفة تحت حمايته، حاصلاً مقابل ذلك على لقب **السلطان** الجديد والرفيع. وكان السلاجقة قد هزموا الأمير الغزنوي مسعود الأول بن محمود (431 هـ / 1040م)؛ أما خلفاؤه الذين أصروا على اعتماد لقب السلطان، نكايةً بمزاعم السلاجقة، فقد جرى طردهم تدريجياً، من مناطقهم الواقعة في إيران الشرقية. وما إن حلت سنة 511 هـ / 1117م، حتى تم إعطاء لقب ملك لبهرم شاه الغزنوي، بمساعدة السلطان السلجوقي الأعظم سنجر، الذي كان يفرض سيطرته على إيران الشرقية من مقره في خراسان، مما جعل الغزنويين بين دافعي الضرائب للسلاجقة، وإن لم يكن تدميرهم قد تم فيما بعد على أيدي هؤلاء.

أمّا عشيرة معز الدِّين الشانسابانية، فتنتمي إلى مجموعة الأمراء والملوك

---

(3) سي. إ. بوزوورث، «السياسة الإمبراطورية للغزنويين الأوائل» IS (1962م)، القسم الثالث، 49 ـ 82، وأعاد نشره في كتابه **التاريخ الوسيط**. وللاطلاع على استعراض وجيز لتاريخ الأسرة الحاكمة، انظر ب. شبولر، «**الغزنويون**» Enc. Isl.. أمّا المؤلّفات المتداولة فهي كتاب بوزوورث، **الغزنويون. إمبراطوريتهم في أفغانستان وإيران الشرقية 994 ـ 1040 م**، طبعة ثانية، (بيروت، 1973م)؛ **الغزنويون اللاحقون، ازدهار فتحلل: الأسرة الحاكمة في أفغانستان وشمال الهند 1040 ـ 1186** (أدنبره، 1977م).

القَبَليين الغوريين الصغار، المنتشرة بطونهم في المناطق الجبلية، الواقعة إلى الشرق من هراة[4]. فبعد أن تحولت العشيرة إلى وضعية التبعية لمحمود الغزنوي أولاً، وعلى أيدي السلاجقة فيما بعد، ما لبثت أن وجدت فرصتها في عصر الانتفاضات، والاضطرابات المتجددة في العالم الإيراني. وفي عشرينيات القرن الثاني عشر الميلادي استطاع قوم شبه بدوي، يعرف باسم قره ختاي، أو خيتان، قد يكون من جذور مغولية، وبقيادة أسرة حاكمة بوذية، عبر واحدة من سلسلة العمليات المماثلة التي ستؤدي في سهوب آسيا الشرقية، إلى جلب الجيوش المغولية الغازية نحو الغرب في القرن الثالث عشر، أن يتوغل في تركستان، وما وراء النهر، ويفرض هيمنته على الحكام المسلمين هناك. تمت هزيمة سنجر سنة 536 هـ / 1141م، وما لبثت إمبراطوريته أن تعرضت، مع حلول منتصف القرن، للانهيار تحت ضغط الموجات الجديدة من قبائل الغُز، المقتلعة من أوطانها من قبل القره ـ خيتان. وكذلك فإن الغُز استولوا أيضاً على غزنة، بتحريرها من قبضة خسرو شاه بن بهرم شاه، وخلفه الذي اضطر للجوء إلى لاهور (لاهَور)، المركز الإداري لأقاليمه الهندية. لقد كان الشانسابانيون المتورطون منذ سنوات في حرب مع الغزنويين، المستفيدين الأخيرين من هذه التطورات. فمنذ تاريخ مبكر يعود إلى حوالى 544 هـ / 1150م، كان الأمير الشانساباني علاء الدين حسين، قد نجح مؤقتاً في طرد بهرم شاه من غزنة، ومن نهب المدينة، مما أكسبه اللقب الخالد المتمثل بـ «جهانسوز» (حارق العالم)؛ فضلاً عن اتخاذ السلطان لقباً له واعتماد الشعار الطقسي (الشتر) (المظلة)، الذي ابتدعه سلاطين آل سلجوق. وكان ابن أخ حسين، المعروف

(4) آ. ماريك وج. ويت، **مئذنة جام. اكتشاف عاصمة السلاطين الغوريين (القرنان الثاني عشر والثالث عشر)** (باريس، 1959م): 31 ـ 44 تتضمن مسحاً تاريخياً لحياة الأسرة الحاكمة حتى حوالى سنة 1200 م؛ وبصوة أعم انظر سي. إ. بوز وورث، **الغزنويون اللاحقون**، 111 ـ 122؛ وكذلك «التاريخ السياسي والأُسَري للعالم الإيراني (1000 ـ 1217م)»، في كتاب ج. آ. بويل (محرراً)، **تاريخ إيران، كامبردج، V الفترتان السلجوقية والمغولية** (كامبردج، 1968م)، 157 ـ 166، 185 ـ 192.

باسم غياث الدين محمد بن سام (558 ـ 599 هـ / 1163 ـ 1403م)، هو الذي طرد الغز من غزنة سنة 569 هـ / 1173 ـ 1174م، ونصّب ابنه الأصغر معزّ الدين محمد (شهاب الدين سابقاً) حاكماً عليها.

في ظل غياث الدين ومعز الدِّين، اللذين ظلا متعاونين، بقدر أكثر أو أقل برز الشانسابانيون ـ أو الغوريون، كما يمكننا أن نسميهم الآن، لأنهم كانوا قد أخضعوا الملوك، والأمراء الآخرين في المنطقة لنفوذهم ـ بوصفهم إحدى القوى الكبرى في العالم الإسلامي الشرقي. كان مقرهم الرئيسي متمثلاً بقلعة فيروزكوه، التي اهتدى أندريه ماريك A. Marieq سنة 1957م، إلى أطلالها في موقع جام، وسط نهر هاري رود على مسافة 200 كيلومتر من هراة؛ وباتت سلطة غياث الدين، تحظى بالاعتراف لدى فروع من الأسرة الحاكمة، التي حكمت باميان ومادين وجُرواس. أما المنافسون الرئيسيون لهذا الأخير فكانوا متمثلين بحكام خوارزم في الوادي السفلي لنهر جيحون (آمودريا)، المنتمين إلى أسرة حاكمة أسَّسها مملوك تركي، الذين ظلوا إلى ذلك الحين، مثلهم مثل الغوريين، خاضعين للسلطان السلجوقي. غير أن ملوك الخوارزشاه، كانوا يعانون من مشكلتين لم يواجههما الغوريون. تمثلت الأولى بسيادة القَرَه خيتان الوثنية على مؤخرتهم، (رغم أن الدعم العسكري المتوفر من هذه كانت موضع ترحيب في بعض الأحيان)؛ وكانت الثانية مشكلة عداء الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575 ـ 622 هـ / 1180 ـ 1225م). فاستناداً إلى تشجيع الخليفة، الذي حصل منه على لقب **قسيم أمير المؤمنين**، دخل غياث الدين في صراع مع الخوارزمشاه على خراسان، صراع كانت للغوريين فيه اليد العليا بصورة حاسمة، قبل موته سنة 599 هـ / 1203 م. ثم جاء معزّ الدين الذي حمل مثل أخيه غياث الدين، لقب السلطان، وعَزَّز جهود أخيه بجدارة، غير أنه كان أيضاً يتطلع نحو الشرق.

بدايات الهند الإسلامية

خلال القرون القليلة الأولى، التي أعقبت فتح محمد بن القاسم للسند،

بقيت الحدود في الهند بين **دار الإسلام** أي العالم الإسلامي، وبلاد الوثنيين أو الكفار أي **دار الحرب** مستقرة نسبياً. صحيح أن أوائل ولاة المسلمين على إقليم السند دخلوا في حروب مقدسة (جهادية) ضد جيرانهم الهندوس، إذ قاموا بتجريد حملات متقطعة بين الحين والآخر، وصلت إلى مشارق كشمير أو مالوا[5]، إلاّ أن التوسع الإسلامي باتجاه الشرق بقي على الصعيد العملي، حتى العقود الأولى من القرن الميلادي العاشر، ملجوماً بفعل سطوة أسرة الغورجارا ـ البراتيهارا الحاكمة القوية، التي كانت تسيطر على الهند الشمالية، من عاصمتها قِنَّوْج الواقعة على نهر الغانج. ومن المؤكد أن محمود الغزنوي، استفاد من أفول نجم هذه الإمبراطورية، ومن تمزيق أرضها، بين عدد من الدويلات التالية المتحاربة. لم يتمخض العديد من انتصاراته في الهند، عما هو أكثر من الحصول على مقادير، لم يسبق لها مثيل من الغنائم، حيث تم نهب المدن الهندوسية ولا سيما ميناء سومنات الكبير في غوجرات (416 هـ / 1025 ـ 1026م)، وسلب موجودات معابدها، فضلاً عن تحطيم أصنامها الذهبية تعبيراً عن التقوى، ونقل أشلائها إلى غزنة، لملء خزائن محمود حتى الثمالة. غير أن إحدى نتائج نشاطات الأمير الغزنوي، رغم طابعها الغارق في التباهي والغطرسة، تمثلت في إكساب الإسلام موطىء قدم في غربي البنجاب[6].

في أعقاب تعرضهم للطرد من إيران الشرقية، بات الغزنويون أكثر انحصاراً داخل أراضي أفغانستان الحالية، ومَكْران والسند، فضلاً عن فتوحاتهم وأشكال توغلهم في الهند. أما في قلب شبه القارة، فقد أضاعوا بعضاً من مكاسب محمود. ثمة تحالف بين عدد من الأمراء الهندوس، تمكن سنة 435 هـ

---

(5) لامتلاك لائحة مُقْنِعة للغزوات انظر ج. ف. ريتشاردز، «الحدود الإسلامية في الشرق: التوسع في جنوب آسيا»، ساوث إيجيا 4 (1974م)، 94 ـ 98؛ وحول الهند الإسلامية المبكرة بصورة أعم انظر أندري وينك الهند تشكيل العالم الهندي الإسلامي، I. **الهند أوائل العصر الوسيط والتوسع الإسلامي، القرن السابع ـ القرن الحادي عشر** (لايدن، 1990م)، خصوصاً الفصل 4.

(6) م. ناظم، **حياة وأيام السلطان محمود الغزنوي** (كامبردج، 1931م)، الفصل 8.

/ 1043م، من انتزاع هانسي من أيديهم؛ أما المُلتان فعادت مرة أخرى إلى أيدي الإسماعيليين[7]. إلاَّ أن الأسرة الحاكمة، لم تكن على مشارف الاحتضار بأي حالٍ من الأحوال. فأيام حكم كل من إبراهيم (451 ـ 492 هـ / 1059 ـ 1099م)، وابنه مسعود الثالث (492 ـ 508 هـ / 1099 ـ 1115م)، تميّزت بالمتابعة المتواصلة لتنفيذ المهمة التقليدية في الهند. ففي نقشٍ يعود لسنة 1090م نجد غاهَفَغَالا، ملك قِنُّوج يفرض مَكْساً يحمل اسم تُرُشْكَدَنْدا الغريب. وهو عبارةٌ عن ضريبةٍ فُرضت، إما لتمويل النضال ضد المسلمين، أو لتلبية مطالبتهم بالجزية، ووفقاً لما جاء على لسان المؤرخ الجوزجاني، فإن حاجب مسعود الثالث العسكري طغتكين، شَنَّ غارة توغلت إلى ما وراء نهر الغانج، ووصلت شرقاً إلى ما هو أبعد من أية حملة إسلامية منذ زمن محمود. لم تكُف الأسرة الحاكمة إذن عن متابعة الأعمال العسكرية، حتى في حقبة الانحطاط والتدهور. ويقال إن بهرم شاه، خاض حروباً جهاديةً في الهند. ويبدو أن حفيده خسرو ملك، قد قاتل القوى الهندوسية إلى زمن غير بعيد عن تعرض السلطنة الغزنوية الممزقة، للاندحار الأخير على أيدي الغوريين[8].

الفتوحات الغورية

لدينا عدد من المصادر التي تتحدث عن حملات الغزو والفتح الغورية، وعن بروز سلطة إسلامية مستقلة في شمال الهند. فكتاب **طبقات ناصري**

---

(7) ج. بورتون ـ بيج، «هانسي» Enc. Isl.[2]؛ بوزوورث، **الغزنويون اللاحقون**، 32 ـ AH33 .. 252 ـ 254.

(8) طغتكين: TN، ا، 240 (تر. 107). بهرم شاه: المصدر السابق، ا، 241 (تر. 110). خسرو ملك: AH 272 ترجمة جزئية إ.م شفيع: أضواء جديدة على الغزنزيين IC 12 (1938م)، 218 .**توروشكادادندا**: بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 67؛ أما بالنسبة إلى مناقشة المعاني المحتملة فانظر لالانجي غوبال، **الحياة الاقتصادية لشمال الهند، 700 ـ 1200 م**، الطبعة الثانية (دلهي، 1989م)، 48 ـ 52. انظر أيضاً تعليقات بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 61 ـ 67، 84 ـ 86، 125 ـ 126، على الحيوية الغزنوية، جنباً إلى جنب مع البينات التي راكمها آ. ب. م. حبيب الله، **أساس الحكم الإسلامي في الهند**، الطبعة الثانية (الله آباد، 1961م)، 57 ـ 60.

لمنهاج الدين بن سراج الدين الجوزجاني، الذي جرى إتمامه بدلهي سنة 658 هـ / 1260م، في صورة تاريخ عام للعالم الإسلامي في ثلاثة وعشرين جزءاً (**طبقات**)، ينصب الجزءان التاسع عشر والعشرون منه على الكلام عن الغوريين، وخلفائهم المباشرين في الهند. وعلى بقائه مرجعاً قيماً عن سلطنة دلهي، منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، نجده أقل قيمة فيما يخص الأحداث الجارية في الهند، قبل سنة 623 هـ / 1226م، حين كان المؤلف ما يزال مقيماً في غور[9]. أما من بين المؤلفات الأقدم، المكتوبة في الهند، فلعل كتاب **تاج المآثر**، المنمق القائم على الإطناب الممل، لحسن نظامي، الذي بدأ الكتابة سنة 602 هـ / 1205 ـ 1206م، ولكنه لم ينهها إلاّ بعد سنة 626 هـ / 1229م، هو السَّرْد الأقرب الذي نملكه عن الأحداث. فهذا العمل الذي يبدأ بانتصار معز الدين الكبير في تَرائن سنة 588 هـ / 1192م، ربما كان مستنداً إلى أخبار الفتوحات (فتح ـ نامات)، التي كتبها قائد معز الدين المملوك آيبك. يستطيع هذا المؤلَّف، رغم عيوبه الكثيرة، أن يدعي أنه التأريخ الأول المكتوب عن سلطنة دلهي[10]. ثمة إيجاز يكاد أن يكون هيكلياً، للفترة الممتدة من 588 هـ / 1192م، وحتى أحداث 602 هـ / 1206م، في أعقاب مقتل معز الدِّين، يمكن استخلاصه من مدخل كتاب فخر مدبّر، الذي يحمل عنوان **شجرة (أو بحر) الأنساب**، المكتوب في لاهور بُعَيْد الحدث؛ على الرغم من أنه يورد تواريخ، لأحداث معينة لا نجدها في أي مكان آخر. غير أن ما يدعو للأسف، هو أن كتاب فخر مدبّر التالي: **آداب الحرب والشجاعة** الذي هو دراسة

---

(9) عن المؤلف انظر ك. آ. نظام، **عن تاريخ هند العصر الوسيط ومؤرخيها** (نيودلهي، 1983م)، 71 ـ 93.

(10) ثمة حاجة ماسة إلى طبعة نقدية، في حال عدم قول خلاف ذلك، تبقى الإحالات على IOL المخطوطة الفارسية رقم 15 (ايثه، قم: 210). تنتهي الطبعة المتداولة في 614 هـ / 1217م، على الرغم من أن السرهندي قام في القرن الأخير باستخدام نسخة (وهي مفقودة) غطت حتى سنة 626 هـ / 1229 م: خلاصة مترجمة في ED، II، 240 ـ 242. وللاطلاع على تلخيص مفيد للنسخة المنقحة الرئيسية انظر س. هـ. عسكري، «تاج المآثر لحسن نظامي»، PUJ 18 (1963م)، رقم 3، 49 ـ 127؛ وعن المؤلف، نظامي، **في التاريخ . . . والمؤرخين**، 55 ـ 70.

عسكرية، وإدارية مقدَّمة إلى سلطان دلهي الأول: إلْتُتْمِش، سنة 630 هـ / 1232م، لا يضيف إلى نوادره الكثيرة، أية حكاية ذات علاقة بعقودٍ أحدث[11]. وبالمثل فإن جزءاً يسيراً فقط من المادة المتصلة بالهند في **جوامع الحكايات**، التي هي مجموعة كبيرة من النوادر التاريخية، جرى تجميعها من قبل العوفي في دلهي (حوالى سنة 630 هـ / 1232م)، يعود إلى ما بعد الحقبة الغزنوية[12]. من حسن الحظ أن أحداثاً جارية في هذه التخوم البعيدة، أحدثت أصداء قوية في المراكز الإسلامية. فلولا الكتاب العام في التاريخ، الذي كتبه ابن الأثير (المتوفى سنة 630 هـ / 1232م)، تحت عنوان **الكامل في التاريخ** بمدينة الموصل العراقية، لبقيت معلوماتنا عن الحملات الغورية، أقل بكثير مما هي؛ على الرغم من أن مصدر معلوماته بقي لغزاً كبيراً، بالنسبة إلى أحد المعاصرين، بمقدار ما هو كذلك بالنسبة إلينا نحن أيضاً[13].

ما إن جرى تنصيبه في غزنة، حتى سارع معز الدين، دونما إضاعة وقت إلى انتحال دور الغزنويين، بوصفهم حملة لواء الإسلام السني في شبه القارة (الهندية). وحاذياً حذو محمود شَنَّ الحرب على الإسماعيليين، الذين كانوا قد استعادوا نفوذهم في المُلتان، واحتل المدينة (571 هـ / 1175 ـ 1176م)؛ والدلائل تشير إلى أن أمراء سومرا في دَيبُل، الذين هاجمهم سنة 578 هـ / 1182 ـ 1183م، كانوا أيضاً ذوي نزعات إسماعيلية على الرغم من أصولهم الهندية. ومن المؤكد أنه يُمْتَدَح، بسبب خوضه الحرب ضد

(11) م. س. خان، «حياة وأعمال فخري مدبر»، IC 51 (1977)، 127 ـ 140. إ. دنيسون روس، «أنساب فخري مبارك شاه»، في ت. و. آرنولد ور. آ. نيلوكسون (محررين)، **عَجَب ـ نامه: سِفر دراسات شرقية مقدمة إلى إدوارد ج. براون** (كامبردج، 1922م)، 392 ـ 412.

(12) عن حياة المؤلف، انظر م. نظام الدين، **مقدمة جوامع الحكايات**، GMS، هوامش، VIII (لندن، 1929)، 3 ـ 20.

(13) د. س. ريتشاردز، «ابن الأثير والأجزاء الأخيرة من **الكامل**: دراسة للأهداف والمناهج»، في د. أو. مورغان (محرراً)، **الكتابة التاريخية الوسيطة في العالمين المسيحي والإسلامي** (لندن، 1982)، 84 ـ 85.

الشيعة[14]. أما ضم المناطق الغزنوية الباقية، فقد كان هدفَه الرئيسي دون شك. ثمة سلسلة من الحملات، منذ سنة 577 هـ / 1181 ـ 1182م فصاعداً، أدت أولاً إلى ضمان أخذ الخراج من خِسرو ملك، وما لبث أن تمخضت فيما بعد، سنة 582 هـ / 1186م، عن استسلام لاهور. جرى إرسال خسرو ملك إلى غياث الدين، وتم إعدامه في الأسر لاحقاً.

بات الحاكم الغوري الآن، في مواجهة عدد من القوى الهندوسية الكبرى التي أُطلقت عليها تسمية «أراجبوت»، (غير الواردة في المراجع الإسلامية قبل القرن السادس عشر الميلادي)، وهو لقبٌ من المؤكَّد أنه لا يعود لتلك الحقبة[15]. وكانت مملكة تشاهمانا (تشاوهان) الساكمباهارية (السبهارية)، المسيطرة على راجستان الحالية من عاصمتها في أجمر في طليعتها؛ وقد ضمت أجزاء كبيرة من المناطق الممتدة، بين السوتلج واليمونا. وادعت لنفسها، السيادة على الهند كلها شمال جبال فنذيا في عهد برثفيراجا الثالث (الراي بيثورا بلغة الكتاب المسلمين). وثمة فروع ثانوية من الأسرة الحاكمة، فرضت سيطرتها على نادول وجالور ودلهي، تحت قيادة أمرائها التومارا كانت منتمية إلى التشاوهانيين، منذ منتصف القرن الثاني عشر. كان تفوق التشاوهان حديث العهد نسبياً على أية حال، لأنه لم يتحقق إلاَّ بفضل التغلب على المعارضة الشديدة، التي أبداها التشاولوكويون، الذين كانوا يسيطرون على غوجرات من عاصمتهم آنهيلوارا (ناهروالا؛ باتان الآن)، وظلوا يخططون، لإعادة فرض

(14) SA، 19 ـ 20. حبيب الله، **أساس**، 36 ـ 37. س. هـ. هوديفالا، **دراسات في التاريخ الإسلامي ـ الهندي** (بومباي، 1939 ـ 1957م، جزءان)، I، 141. وبالنسبة إلى ديبول، انظر س. قدرة الله فاطمي، «ميناءا دايبول التوأمان»، في حميدة خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون** (أوكسفورد وكراتشي، 1981م)، 97 ـ 105؛ وينك، **الهند**، I، 181 ـ 183.

(15) حول هذه العبارة، انظر ب. د. تشاتوبادهيايا، «أصل الراجبوت: السيرورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في راجستان العصر الوسيط المبكر» IHR 3 (1976م)، 59 ـ 82، أعيدت طباعة المادة في كتابه، **تَشكُّل هند العصر الوسيط المبكر** (أوكسفورد ودلهي، 1994)، 57 ـ 88.

السيطرة على راجستان الجنوبية. أما إلى الشرق فإن دولة تشاوهان، كانت متجاورة مع مملكة غاهاضوالا القنوجية (كانياكوبيا القديمة) المسيطرة على الجزء الأكبر من إقليم أوتاربرادش الحديث، ومملكة تشانديلاّ جيجاكبوكتي (بوندلخاند الحديثة)، المتمركزة على كالنجر. في الثمانينيات من القرن الثاني عشر، تعرض التشانديلا للضغوط من كل من الغاهاضواليين والتشاوهانيين، على حد سواء، وخسروا بعضاً من مناطقهم الغربية، لصالح برثفيراجا الثالث. أما مملكة الغاهاضوالا، فكانت من الجهة المقابلة، دائبة أيضاً على التوسع بنشاط في إقليم بيهار، حيث أصرت على انتزاع أطلال إمبراطورية البالا البائدة، من أيدي أسرة سينا الحاكمة في البنغال الغربي[16]. وفي جميع هذه الدول، كانت ثمة هرمية شبه إقطاعية، تمكّن الملوك (**الراجات**، الرايات حسب تسمية الغزاة المسلمين)، من الحصول على الخدمة العسكرية، مقابل إعطاء إقطاعات الأرض من زعماء، وقادة تابعين عرفوا باسم **الراناكات** (أو الثاكّورات أحياناً)، كانوا بدورهم يمنحون قادتهم الخيالة، المعروفين باسم **الرواتات** (من راجابوترا السنسكريتية)، أو الثياكا، المزارع؛ وقد ورد هذان المستويان الأدنى، في المصادر الإسلامية على شكل **رانات وراواتات** على التوالي[17].

---

(16) عموماً انظر هـ. سي. راي، **تاريخ الأسر الحاكمة في شمال الهند** (كالكوتا، 1931 ـ 1935م، جزءان)، الفصول 6 (السينا)، 8 (الغاهاداڤالا)، 11 (التشانديلاّ)، 15 (التشولوكيا) و16 (التشاهامانا)؛ أيضاً داشاراتاشارما، **الأسر الحاكمة التشاوهانية الأولى**، طبعة ثانية، (دلهي، 1975م)؛ ر. سي. ماجومدار، **تشولوكيا گوجرات** (بومباي، 1956م)؛ رومانيوغي، **تاريخ أسرة غاهاداڤالا الحاكمة** (كالكوتا، 1959م)؛ آ. بزجي، «التوسع الشرقي لمملكة غاهاداڤالا»، JAS، السلسلة الرابعة، 5 (1963م)، 105 ـ 111؛ ن. س. بوس، **تاريخ التشانديلاّ** (كالكوتا، 1956م)؛ ور. ك. ديكشيت، **كانديلاّ جيجاكابهوكتي** (نيودلهي، 1977م).

(17) ر. س. شارما، **الإقطاع الهندي: حوالى 300 ـ 1200م** (كالكوتا، 1965م)، خصوصاً الفصل 5. بوشبابراساد (محرراً)، **المنقوشات السنسكريتية في سلطنة دلهي 1191 ـ 1526م** (دلهي، 1992م)، 56 ـ 57 (رقم II: 5)، 58 ـ 71 (رقم II: 6)، 78 ـ 79 (رقم II: 9)، 80 ـ 89 (رقم II: 11). وللاطلاع على أمثلة مأخوذة من مصادر إسلامية، انظر SA، 33؛ Taj، ملف 137 أ، 150 أ؛ و«الراوات الشهيرة» في TN، II، 65 (تر. 828).

ثمة مكاسب ذات شأن على حساب القوى الهندوسية، جرى إرجاؤها إلى ما بعد قيام معز الدين بضم المناطق الغزنوية، التي مكنته من السيطرة على الطرق الأبعد شمالاً، عبر بيشاور (پرشاور) وممر خيبر. وبالفعل فإن إغارته الأولى على دار الحرب، كانت قد انتهت بكارثة. ثمة هجوم تم سنة 574 هـ / 1178 ـ 1179م على مملكة تشاولوكيا عن طريق السند الأسفل، أسفر عن هزيمة شنيعة للسلطان الغوري بالقرب من جبل آبو. وفيما بعد، في تاريخ مختلف عليه بين 583 هـ / 1187 ـ 1188م و587 هـ / 1191م، قام السلطان باجتياح البنجاب الشرقي، وتأسيس حامية في تَبَرْهند. غير أنه ما لبث أن هُزم في ترائين أمام قوة هندوسية كبرى بقيادة برثفيراجا، وتابعه غوفنداراجا الدلهي، فأُجبر على الانسحاب إلى غزنة؛ ونجح الهندوس في استرجاع تَبَرْهند[18]. غير أن معز الدين، حين عاد ثانية سنة 558 هـ / 1192م، وخاض معركة في موقع قريب من ترائين، فاز بنصر ساحق تم فيه أسر برثفيراجا، وقتل غوفنداراجا. ويبدو أن الانتصار في ترائين، شكل منعطفاً على مستويين. فمن ناحية التزم زعماء الهندوس في البنجاب الشرقي، بدفع الخراج لمعز الدين[19]. ومن ناحية ثانية كانت تلك هي اللحظة التي نستطيع اعتبارها، تاريخ فرض سلطة إسلامية دائمة في المنطقة، في موقع يدعى أندرابراستا (أندرابات) بالقرب من دلهي[20]. أما الحكم الإسلامي المباشر، فلم يتم فرضه بصورة مطردة ودائمة. ففي حين أن قلعة تشاوهان في رنثانبور احتُلّت، جرى إبقاء أجمر بيد برثفيراجا الذي بات عميلاً لمعز الدين؛ وفي أعقاب إعدامه جراء تورطه ببعض النشاطات

---

(18) حبيب الله، **أساس**، 60 ـ 61، TN، ا، 398 ـ 400 (تر. 457 ـ 464، 466)، حيث يؤرخ هذا الاشتباك في السنة التي سبقت معركة ترائين. IA، XI، 113 ـ 114 / 172 ـ 173، 371 ـ 372 / 561 ـ 562، يصف الحملة مرتين (قارن XI، 115 / 174): في الرواية الثانية يعيد تاريخ الحدث إلى النصف الثاني من 583 هـ (الأول من آذار / مارس 1188)، ويجري تأكيد هذا في XII، 59 / 91.

(19) المصدر السابق، XI، 115 / 174، **والتزموا له بالأموال**. Taj، ملف 50 ب، لزعماء منطقة دلهي تحديداً.

(20) المصدر السابق، ملف 51 أ.

المشبوهة بعد فترة وجيزة جرى تنصيب ابنه حاكماً للمدينة. وبالمثل فإن دلهي مُنحت لخليفة غوفنداراجا بوصفه أميراً تابعاً[21]. وقد جرى اتباع هذا الأسلوب مرات عديدة، في مناطق أخرى فتحها المسلمون.

واصل معز الدين نزوله من غزنة، وتوغله في أعماق الهند مع كل فصل بارد، فضلاً عن الاضطلاع بمهمة الجهاد ضد الكفار. وفي سنة 590 هـ / 1194م جاء دور الغاهاضواليين، الذين تعرض ملكهم جاياتشاندرا (جايتشاند، لدى المؤلفين المسلمين) للهزيمة والذبح، على يد معز الدين في منطقة تشانداوار (تشانداوال، بالقرب من إتاوا)؛ حيث قام الجيش الغوري بنهب كنوزه في آسي (آسني)، وباحتلال مدينة بَنَارِس (فاراناسي الحالية). وفي سنة 592 هـ / 1196م، قاد السلطان حملة فتحت قلعة تانغير (تاهانغره، على مسافة خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب من مدينة بهايانا الأحدث) من أيدي التشانديلاّ، غير أنها سمحت بالإبقاء على ملك (راي) غواليور مقابل دفعه للخراج. وفيما عدا ذلك يبدو أن معز الدين، لم يلعب إلاّ دوراً محدوداً نسبياً في توسيع دائرة النفوذ الإسلامي. فبعد وفاة أخيه غياث الدين (599 هـ / 1203م)، باتت أكثرية طاقاته، مشغولة بالتطورات الجارية في خراسان، حيث كان الخوارزم شاه علاء الدين بن تكش، عازماً على استعادة مناطق سبق للغوريين أن احتلوها. وفي 601 هـ / 1204 هـ قام معز الدين بغزو خوارزم بالذات، ولكنه ما لبث أن مُني بهزيمة ساحقة، وحاسمة على أيدي أسياد الشاه من القَرَه خيتان في موقع

(21) حبيب الله، **أساس**، 61 ـ 62. عن قطع نقدية اعتُقد فيما مضى أنها عاكسة لوضعية بيرثيغيراجا التابعة، انظر الآن ب. ن. سنغ «القضية المشتركة المزعومة لمحمد بن سام وبيرشيغير الثالث: تقويم جديد»، JNSI 50 (1988م)، 120 ـ 123؛ جون س. ديل، **العيش بدون فضة: التاريخ النقدي لشمال لهند في العصر الوسيط المبكر**، (أوكسفورد ودلهي، 1990م)، 267 ـ 269. أن تكون دلهي، بالتالي، قد أُخضِعَت على مرحلتين، من شأنه أن يساعد على تفسير التواريخ المتضاربة الواردة عن موعد احتلالها في المصادر، وحول الموضوع، انظر محمد عزيز أحمد، **التاريخ السياسي ومؤسسات إمبراطورية دلهي التركية الأولى (1206 ـ 1290م)** (لاهور، 1949م)، 129. هـ: 1.

آندخود (آندخوي الحالية)[22]، وفي هذه الظروف، بدا السلطان الغوري، أكثر ميلاً إلى الاعتماد على القادة العسكريين من مماليكه الأتراك في الهند.

كان الغوريون شعباً جبلياً. وكانوا تقليدياً يقاتلون راجلين (مشاة)، حيث ترك لنا الجوزجاني وصفاً لأسلوبهم المميز في الحرب، القائم على قيام كل جندي، باستخدام ستار واق يعرف باسم **القاروا**، ستار مصنوع من جلد البقر المحشو بكمية مضغوطة من القطن[23]. صحيح أننا نواجه أيضاً مقاتلين غوريين من الخيالة، مثل الـ 1200 فارس من تولك، الذين عسكروا لفترة وجيزة في تَبَرْهند، بعد غزو معز الدين الأول للبنجاب الشرقي[24]؛ غير أن هؤلاء ربما كانوا قلة، في حين أن مخططات السلطان التوسعية، كانت تتطلب توفير أعداد أكبر من الخيالة. ومع توسع الإمبراطورية غرباً، جرى تعزيز القوات وتدعيمها، بمقاتلين من مختلف أجزاء خراسان: ثمة، مثلاً، خراسانيون تحت راية معز الدين في الاجتياح الأخير، لمواقع الغزنويين وفي إغارته على برثفيراجا، كما بين الوحدات التي دخلت لاهور مع آيبك في 602 هـ / 1206م، فيما بعد[25]. أضف إلى ذلك، أن مقاتلين من الغُز نجدهم في جيش غزنة، في الفترة التي أعقبت وفاة معز الدين، كما أن السلاطين الغوريين، شأنهم شأن أسلافهم الغزنويين، درجوا على تجنيد الفرسان القبليين من عشائر الخَلْج، وهي عشائر بدوية، كانت تقيم في مناطق بُست، وزاميننداور، وقد تكون متحدرة من أصول تركية، غير أنها ما لبثت مع الزمن،

---

(22) و. بارتولد، *التركستان حتى الغزو المغولي*، طبعة ثانية، تحرير سي. إ. بوزوورث، GMS، ns، V (لندن، 1968م)، 349 ـ 351. بوزوورث «التاريخ السياسي والعائلي»، 164 ـ 165.

(23) TN، I، 343 (تر. 352 ـ 353). الكاروا واردة أيضاً في AH، 423، بين قائمة المعدات اللازمة لفرض الحصار.

(24) TN، I، 399 (تر. 458)؛ وعن إشارة أبكر إلى فرسان غوريين انظر I، 355 ـ 356 (تر. 372 ـ 373).

(25) JA، XII، 110/ 168، 113/ 172، SA، 33.

أن ذابت في بوتقة جيرانهم الأفغانيين[26]. وحدهم المؤلفون اللاحقون يذكرون اسم الأفغان، الذين كانوا ما يزالون محصورين بالسلسلة السليمانية (التي ما لبثت أن أصبحت تعرف أحياناً باسم **كوهي ـ أفغان**: جبال الأفغان)، والذين كانوا قد رافقوا الحملات الغزنوية، بوصفهم جنوداً في ترائين[27].

باتت الأسرة الحاكمة الغورية، تدرك مخاطر الاعتماد الكلي، والحصري على مثل هذه القوى. فالعشائر البدوية، كانت شديدة التقلب بطبيعتها. وحين خاض علاء الدِّين حسين (الجهانسوز)، حرباً ضد سنجر سنة 547 هـ / 1152م، جرى حسم المعركة، بفعل انتقال حوالى ستة آلاف من الخَلْج والغُز وغيرهم، من البداة الأتراك في جيشه، من صفه إلى صف السلطان السلجوقي. حتى الغوريون لم يثبتوا جدارتَهم الدائمة بالثقة بالنسبة إلى معز الدين. فحسب ما جاء على لسان ابن الأثير، ما لبثت وحداته الغورية، خلال حملته الأولى على تارائين، أن تركته نهباً للهزيمة، مما أدى إلى تعرض القيادات للتوبيخ الشديد؛ فضلاً عن أنه ظل ساخطاً عليهم على امتداد عدد من السنوات[28]. ومثل هذه الاعتبارات، إضافة إلى العديد من السوابق، التي شهدتها أسر حاكمة إسلامية أخرى، ربما أدت إلى تشجيع الغوريين اللاحقين على تكوين وحدات من الغلمان الأتراك. وهؤلاء المماليك الأتراك، يظهرون

---

(26) غوزا IA، XI، 144 / 219. عن الأصل العرقي للخلج، انظر ف. مينورسكي، «اللهجة التركية للخلج»، BSOS 10 (1940)، 426 ـ 432، أعيدت طباعته في كتابه، **الأتراك والإيرانون والقفقاس في العصور الوسطى** (لندن، 1978م)؛ سي. إ. بوزوورث، «خلج، أ تاريخ» Enc. Isl؛ سي. إ. بوزوورث والسير جيرالد كلاوسون «الخوارزمي حول شعوب آسيا الوسطى» JRAS (1965م)، 6، 8 ـ 9، أعيدت طباعته في بوزوورث، **التاريخ الوسيط**. أما إذا أردت الاطلاع على وجهة نظر مختلفة فقارن مع عرفان حبيب، «تشكُل الطبقة الحاكمة السلطانية في القرن الثالث عشر» في حبيب (محرراً)، **هند العصر الوسيط أ. أبحاث في تاريخ الهند 1200 ـ 1750م** (أوكسفورد ودلهي، 1992)، 2 ـ 3 وهـ: 12.

(27) ج. مورغنشتيرن، «أفغان»، Enc. Isl^2. وعن المحاربين الأفغان لدى الغزنويين، انظر آندري وينك، الهند: **تشكُل العالم الهندي ـ الإسلامي، اا، الملوك المماليك والفتح الإسلامي، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر** (لايدن، 1997م) 116 ـ 118.

(28) TN، ا، 346 (تر. 359). IA، XI، 114 / 173، 371 ـ 372 / 561 ـ 562.

في بلاط غياث الدين في تاريخ مبكر. وينبئنا الجوزجاني أن معز الدِّين، كان شديد الحرص على امتلاكهم[29]. وعلى الرغم من تمرد واحد، أو اثنين من الضباط المماليك في الهند، في أعقاب هزيمة السلطان في آندخوند سنة 601 هـ / 1204م، فإن ثقة الأخير بهؤلاء، كانت مبررة إلى حد بعيد. ففي آندخوند، بقي مماليك معز الدِّين الشخصيون معه في لحظات الصراع الحاسمة، وكان أحدهم هو الذي استطاع، بعد عناء طويل، أن ينقله من أرض المعركة، حفاظاً على سلامته[30]. لقد بين البرفسور عرفان حبيب، مدى حرص السلطان على ترقية غلمانه، (الذين عرفوا باسم المُعزِّيين نسبة إليه، أي إلى معز الدِّين) وتمكينهم خصوصاً من شغل المناصب الإدارية والعسكرية، في مناطقه الخاصة في كل من غزنة والهند، على النقيض من حال الأراضي الغورية الأقدم[31].

ولعل الفضل الرئيسي، فيما يخص الفتوحات الغورية في البنجاب الشرقي وما وراءه يعود، كما تقول المصادر، إلى قائد مملوكي يدعى قطب الدين آيبك، الذي كسر شوكة النزعة الانتقامية التشاوهانية في عهد هاريراجا (هيراج)، شقيق برثفيراجا، والذي تمكن سنة 589 هـ / 1193م، من السيطرة على دلهي، بذريعة مخططات حاكمها الخيانية الغادرة؛ والذي استطاع في 593 هـ / 1197م، أن يلحق الهزيمة بالتشاولوكيا على جبل آبو، منتقماً للمهانة التي لحقت بسيده قبل حوالى عشرين سنة. أمّا في داخل الإمبراطورية المتداعية للغاهاضوالا، فقد استولى آيبك على قلاع ميرات (ميروت) في 588 هـ / 1192م، وكول (القريبة من عليكره الحديثة) في 591 هـ / 1194م، وباداؤون (بوداون) في 594 هـ / 1198م، وقنّوج (كاناوج) في 595 هـ / 1199 م. وما

(29) غياث الدين: TN، ا، 354 ـ 355، **تركاني خاص** (تر. 371). معز الدين: المصدر السابق، ا، 410 (تر. 497).

(30) المصدر السابق، ا، 403 (تر. 476 ـ 478).

(31) ع. حبيب، «تشكُّل»، 4 ـ 7. انظر أيضاً وينك الهند، اا، 141.

لبثت غواليور أن استسلمت له سنة 597 هـ / 1200 ـ 1201م، ثم تمكّن سنة 599 هـ / 1203م من احتلال كالينجار عاصمة ملك التشانديلاّ: باراماردیدیفا (پرمار، عند حسن نظامي)[32].

في هذه السنوات، كانت عناصر أخرى تقوم بنقل النفوذ الإسلامي على أسنة الرماح، إلى أماكن أبعد من ذلك في عمق الهند. ثمة مقاتل من الخَلْج يدعى محمد بن بختيار، كان قد احتل قاعدة في أَوَذ، التي راح يشن منها حملات نهب منتظمة، يغير فيها على إقليمي مانير وبيهار الهندوسيين. ثم ما لبث أن اكتسب قوة تكفي، لاحتلال مدينة بيهار أولاً ومن ثم شن الهجوم، بعد ذلك، على مملكة سينا في البنغال الغربي. ففي منتصف شهر رمضان 601 هـ / أوائل أيار / مايو 1205م، تم احتلال نوديا، عاصمة ملك لاكسماناسينا (الخمانيا)، ونهبها، بعد إجبار الملك نفسه على الفرار. وقد جرى اغتيال محمد بن بختيار هذا، حوالى سنة 602 هـ / 1206م في أعقاب حملة كارثية في إحدى المناطق الأسّامية (کامروب). وعلى الرغم من اعترافه بالسلطان الغوري سيداً له وتقديمه جزءاً من الغنائم إلى آيبك، فقد كان يتصرف بحرية، دون الإفادة من التوجيهات ـ بل وحتى من التعزيزات حسب ما نعلم ـ الصادرة عن غزنة[33]. لقد تمخضت هذه العمليات، التي وصلت شهرتها إلى أسماع ابن الأثير في العراق والتي كانت ستدفع مؤلفاً لاحقاً، إلى إرجاع فضل الفتوحات الإسلامية إلى الخَلْج، دون غيرهم ـ عن إخضاع مساحات ذات شأن في حوض الغانج، لم تكن قوات معز الدِّين قد توغلت فيها، لصالح المسلمين[34].

---

(32) عن هذه الحملات، انظر حبيب الله، **أساس**، 62 ـ 69؛ HN، 156 ـ 190.

(33) Ta$j، ملف 186 أ ـ ب. TN، I، 423 ـ 427 (تر. 551 ـ 554، 560). وعن حملة نوديا، انظر حبيب الله، **أساس**، 69 ـ 74؛ وعن التاريخ انظر بارماشفاري لال غوبتا، «عن تاريخ نمط الفارس من النقد لدى محمد بن سام»، JNSI 38 (1976م) رقم: 1، 81 ـ 87.

(34) IA، XI، 115 / 174. وعن دور «القالاج» في فتح «هندوستان»، انظر ابن سعيد المغربي (المتوفى 673 هـ / 1274م أو 685 هـ / 1286م)، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، 1970م)، =

أدت الأنباء، التي تحدثت عن هزيمة معز الدِّين في آندخوند سنة 601 هـ/ 1204م، إلى قيام حركة تمرد من جانب قائد من جنده، سارع إلى الاستيلاء على المُلْتان، واستثارة ثورة أقوى بين صفوف الخوخار الهندوس، وأهالي سلسلة جبال الملح (كوهي جود)؛ فقضى سنواته الأخيرة مشغولاً بإخماد هذه الثورة. ولدى تعرضه للاغتيال سنة 602 هـ/ 1206م (ربما على أيدي إسماعيليين من خراسان)، تمزقت إمبراطوريته أشلاء. لم يخلف ولداً، وكانت تركته الكبرى موضع نزاع بين أقاربه، ومماليكه، وخصمه الخوارزم شاه علاء الدِّين محمد، الذي شقّ عصا طاعة القَرَه ـ خيتان، وضم المناطق الغورية في خراسان. صحيح أن تاج الدين يلدز، كبير غلمان السلطان الراحل، استولى على غزنة، غير أن الخوارزم شاه، ما لبث سنة 611 ـ 612 هـ/ 1214 ـ 1216م، أن ألحق الهزيمة به وبغيره من الأمراء الغوريين المختلفين، قبيل تعرض الإمبراطورية الخوارزمية للتدمير، (618 ـ 620 هـ، 1221 ـ 1123م) على أيدي جحافل جنكيزخان المغولية المتقدمة[35]. وفي هذه الأثناء عاشت الأقاليم حياتها الخاصة. فلدى سماعه بوفاة سيده سنة 602 هـ/ 1206م، تحرك آيبك من دلهي، وأقام في لاهور، حيث نصب نفسه حاكماً. وحين قضى آيبك نحبه في لعبة بولو (**تشاوغان**) سنة 607 هـ/ 1210 ـ 1211م، جرت دعوة غلامه إلْتُتمش إلى دلهي من بداؤون، من قبل جماعة في المدينة، فنصّب نفسه حاكماً في تحدٍ لوريث آيبك[36]. لقد شكلت حركة آيبك منطلقاً لانبثاق سلطة إسلامية مستقلة في الهند، أما حركة إلْتُتمش فكانت لسلطنة دلهي، والتي ستكون موضوع الفصل القادم.

= 63: وعن هذا المؤلف، انظر جيل بوتيرون، «بوليغراف أندلسي من القرن الثالث عشر»، **آرابيكا** 13 (1966)، 142 ـ 167.

(35) ب. جاكسون، «سقوط الأسرة الغورية الحاكمة»، في كارول هيلين براند (محرراً)، كتابات فارسية تكريماً للبروفسور إدموند بوزوورث (أدنبره؛ قيد الإصدار).

(36) حبيب الله، **أساس**، 88 ـ 92.

الأسباب الكامنة وراء الانتصارات الغورية

يبقى التأريخ، لانتصارات الجيوش الغورية في الهند، حسب تتابعها الزمني، أسهل من الغوص وراء أسبابها، فضلاً عن أن الحقيقة المؤكدة، هي أن المراجع لن تقدم أي تفسير مقنع لتلك الانتصارات. ففي رأي الكتاب المسلمين الأربعة، الذين يتابعون هذه الأحداث، يكفي القول، بأن الله ينعم بالنصر على السلطان وقواته. وبالتالي فإن أي تحليل لأسباب نجاح المسلمين، يستند إلى جملةٍ من الأدلة المجتزأة، مما يبقي استنتاجاتِنا تأملية وتخمينية لا أكثر.

علينا أولاً أن نناقش فرضية تكرر إيرادها بين حين وآخر، على صعيد تفسير الفتح الإسلامي لشمال الهند، مع حلول نهاية القرن الثاني عشر الميلادي. فاستناداً إلى الملاحظات التي أوردها الكاتب الإسلامي البيروني، تعليقاً على طبيعة النظام الطبقي الجامد (نظام الكاست)، قال الأستاذ الجامعي الراحل محمد حبيب، إن مقاومة الحكام الهندوس، عند مواجهتهم للجيوش الغورية الغازية، تعرضت للإحباط جراء سببين اثنين. فقد أدى النظام الطبقي الجامد إلى إحداث شلل خطير للفاعلية العسكرية، لدى الممالك الهندوسية أولاً، لأن هذا النظام، حصر المشاركة في الحرب بطبقة المقاتلين، طبقة **الكشاتريا**، فضلاً عن أن مبدأ النبذ فرض على أبناء هذه الطبقة، عشية المعارك القتالية، القيام بالعديد من المهام التي كان من شأنها، لولا ذلك النظام القائم على النبذ، أن تقع على عواتق أناس ينتمون إلى طبقة وضيعة. أما الخلل الثاني الذي قيل إن الدول الهندوسية كانت تعاني منه جراء النظام الطبقي الجامد، فقد تمثل في غياب التجانس، والتناغم بين أفراد الرعية. وبما أن الإسلام يدعو إلى المساواة، فإن الجماهير الحضرية، التي سارعت إلى التقاط هذه الرسالة التحريرية (كما يقول أصحاب هذا الرأي)، لم تستطع إلاّ أن تعقد المقارنة مع القيود الاجتماعية، التي كانت تعاني منها، وصولاً إلى انحيازها لصف القادمين

الجدد. وهكذا فإن حبيب، اختتم كلامه بعبارات اكتسبت قدراً غير قليل من الشهرة السلبية قائلاً إن: «هذا لم يكن فتحاً مزعوماً. لقد كان انقلاباً للرأي العام، انقلاباً مفاجئاً دون شك، ولكنه كان انقلاباً طال انتظاره، انقلاباً كان يجب أن يحدث منذ زمن طويل»[37].

على الرغم من أن هذه الآراء تبدو جذابة للوهلة الأولى، فإنها لا تصمد أمام المعاينة الأدق. فعلى صعيد الفاعلية العسكرية، سبق أن قيل إن الجيوش الهندوسية، ضمت أعضاء من الطبقات الأخرى، مثل **الفايسيا والسودرا** من ناحية، وإنَّ مخبري البيروني البراهمانيين، ربما كانوا يبالغون بمدى فاعلية الضوابط والقيود الطبقية الجامدة من ناحية ثانية[38]. أمّا فيما يتعلق بالتحرير، فلا بد لنا من أن نعرف أكثر مما نعرفه عن التصورات، التي كانت لدى العامة الهندوسية من الطبقات الدنيا، حول أوضاعها وحول الرسالة (إذا كانت هناك أية رسالة)، التي حملتها القوات الإسلامية الغازية. يمكننا القول، ولو خاطَرْنا بتكرار ما هو واضح، إن تعرُّفَ المرء على مرتبته الاجتماعية المتدنية، خصوصاً حين تكون مكرَّسة بالشرائع الدينية، لا يكون بالضرورة مصحوباً بسعيه إلى تحسينها ـ في مجتمع لم يَمْسَسْه التنوير الأوروبي، العائد إلى القرن الثامن عشر الميلادي[39]، ناهيك عن استحالة التسليم بالتحرير، الذي عرضه الفاتحون المسلمون على أولئك الطامحين، إلى الخلاص من النظام الطبقي الجامد دون نقاش. ليس ثمة ما يشير إلى أي إقبال كثيف على اعتناق الإسلام، عند نهاية

(37) م. حبيب، «مقدمة تاريخ الهند، II»، تأليف إليوت وداوسون، في ك. آ. نظامي (محرراً)، **السياسة والمجتمع في الفترة الوسيطة المبكرة. المؤلفات الكاملة للبروفسور محمد حبيب** (نيودلهي، 1974، جزءان)، I، 59 ـ 74 (72 للاقتباس). انظر أيضاً عزيز أحمد، **دراسات في الثقافة الإسلامية في البيئة الهندية** (أوكسفورد، 1964م)، 82.

(38) محاربون آخرون: برابها ديكسيت، «مغالطات البروفسور محمد حبيب التاريخية»، في دافاهوتي (محرراً)، **الانحياز في كتابة التاريخ الهندي** (دلهي، 1980م)، 205. نظام الطبقات الجامدة: س. دغسبي، مراجعة مؤلفات حبيب الكاملة، في BSOAS 39 (1976م)، 457.

(39) أحْسَن فريدمان إذ أثار هذه النقطة، «مساهمة»، 320 ـ 321.

القرن الثاني عشر الميلادي ببساطة. بل ويبدو أن عرض مثل هذا الخلاص، لم يكن وارداً انطلاقاً من معرفتنا بالقرون الأولى من الحكم الإسلامي في السند، هذه المعرفة، التي نجدها أكثر اكتمالاً إلى حدود معينة، من اطلاعنا على الأوضاع السائدة في المناطق الهندية المفتوحة حديثاً، من جانب الغوريين.

يبقى المرجع الرئيسي عن قيام العرب بإخضاع السند، أوائل القرن الثامن (الهجري) متمثلاً **بالتشاتش نامه**، وهو كتاب فارسي، جرى تأليفه حوالى سنة 613 هـ / 1216 ـ 1217م، غير أنه يقوم على الزَّعْم بأنه، ترجمة لتاريخ سابق باللغة العربية. يدعي الكتاب، أن فاتح السند محمد بن القاسم، علم بالقيود المفروضة على الأهالي المحليين، الجات، في حقبة الأسرة الحاكمة البراهمية المخلوعة. تمثل أحد تلك القيود، بأن الجات كانوا ملزمين باصطحاب الكلاب كلما خرجوا من بيوتهم، كي يبقى التعرف عليهم ممكناً. أصدر محمد بن القاسم أمراً قضى بالإبقاء على هذه القيود. ويتم استخلاص أنها بقيت من فقرة وردت في كتاب **فتوح البلدان** للبلاذري (المتوفى سنة 279هـ / 892م)، الذي يتحدث عن أن أحد ولاة الخليفة في السند، أواخر العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي طالب الجات باصطحاب الكلاب، لدى خروجهم من منازلهم مستقبلاً. إن حقيقة أن الكلب حيوان غير طاهر في التراثين الهندوسي، والإسلامي سهّلت على الفاتحين المسلمين، الحفاظ على **الأمر الواقع**، بالنسبة إلى فئة تنتمي إلى الطبقة الدنيا. وبعبارة أخرى، فإن النظام الجديد في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، لم يبادر إلى إلغاء الضوابط والقيود التمييزية، العائدة إلى فترة السيادة الهندوسية، بل حرص على استبقائها[40]. ليس لدينا أي أساس نستند إليه كي نفترض، أن رد فاتحي

---

(40) CN، 33. البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق م. ج. دوغويه، (لايدن، 1866)، 445، تحقيق صلاح الدين المنجد (بيروت، طبعة جديدة)، 544. فريدمان، «مساهمة»، 331 ـ 332. انظر أيضاً ملاحظات موجزة في عرفان حبيب، «التاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي ـ مقال في التفسير»، IHR 4 (1977م)، =

أواخر القرن الثاني عشر الميلادي على النظام الطبقي الجامد (نظام الكاست)، كان مختلفاً في أي شيء.

ولدى تحولنا الآن، إلى اعتماد تفسيرات ممكنة أخرى للانتصارات الغورية، فإننا قد نجد التكنولوجيا العسكرية، ميداناً ربما كان المسلمون يتمتعون فيه، بقدر من التفوق المحدود. فأحد المصادر الهندوسية، يصف معز الدين قائلاً إنه «سيد الجهات الشمالية ـ الغربية، حيث تكثر الخيول»[41]، وبالتالي فإن من الممكن أنه كان متفوقاً على خصومه، من حيث القدرة على تسيير وحدات أكبر من الفرسان والخيالة. إنها مسألة عاينها سايمون ديغبي، بالنسبة إلى حقبة سلطنة دلهي بالذات[42]، وسوف تحظى بالمزيد من التمحيص في فصول لاحقة. أما الآن، فلا بد من الإشارة إلى أمرين اثنين. يكمن الأول، في حقيقة أن منطقة الغور طالما اشتهرت بمخزوناتها المعدنية، وإتقان فنون تصنيع الأسلحة والدروع، هذه السلع، التي كانت ذات يوم، تشكل جزءاً من الخراج، المقدَّم إلى الغزنويين والسلاجقة على التوالي[43]. وبالتالي فإن من الواضح أن معز الدين، استند إلى امتلاك كميات أوفر من الأسلحة اللازمة لحملاته الهندية، مقارنةً بالسلاطين الغزنويين الجدد (وبسلاطين دلهي في القرن التالي، بالمناسبة). أما الاعتبار المهم الثاني، فيتمثل بقيام حسن نظامي، لدى وصفه لحملات معز الدِّين آيبك، بالإشارة، مراراً وتكراراً، إلى النشابية (ناواك)، وبالمبالغة في إطراء مميزات النشاب

= 279: «ليس ثمة ما يشير إلى أي هجوم مباشر من جانب الدولة أو المسلمين على النظام الطبقي الجامد؛ ولا إلى أية حركة تمرد من الداخل».

(41) هار بيلاس ساردا، «البريثغيراجابيجايا»، JRAS (1913)، 279.

(42) س. ديغبي، **جياد الحرب والفيلة في سلطنة دلهي: مشكلة تجهيزات عسكرية** (أوكسفورد وكراتشي، 1971).

(43) TN، I، 335، 346 (تر. 336، 358). انظر أيضاً **حدود العالم من القرن العاشر**، تر. ف. مينورسكي، GMS، هوامش، XI، طبعة ثانية (لندن، 1970)، 110، آثار علي، «التكنولوجيا العسكرية لدى سلطنة دلهي» (القرن 13 ـ 14)، في PIHC 50 (غوراخبور 1989م) (دلهي، 1990)، 167.

القادر على اختراق الدروع[44]. ليس ثمة أي دليل يشير، إلى أن خصوم الغوريين من الهندوس، كانوا يستخدمون مثل هذه الأسلحة النشابية[45]. فهذا السلاح الهائل الذي كان في تلك الفترة ذاتها، يمنح الجيوش المسيحية اللاتينية تفوقاً حاسماً على أعدائهم في العالمين الكلتي والسلافي[46]، ربما أدى مهمة موازية بالنسبة للمسلمين الذين غزوا الهند. وهذا قد لا يكون قادراً على تفسير الانتصار المتحقق في تارائين، ذلك الانتصار الذي تحقق في البقعة، التي كان النجاح فيها قد راوغ معز الدّين بالذات، قبل فترة زمنية غير طويلة.

من الممكن أن تكون التكتيكات الخاصة، التي اعتمدها السلطان في معركة تارائين الثانية، قد لعبت دوراً ذا شأن في انتصاره. ثمة نادرة طريفة في كتاب **جوامع الحكايات** لعوفي تشي، بأن معز الدّين استغلّ قرب فيلة العدو من الخيل، التي يجعل خوفُها من الفيلة أمرَ التنسيق بين هذين النوعين من الحيوانات، أمراً بالغ الصعوبة. وفيما تم إبقاء نيران المعسكر مشتعلة، لإيهام جنود برثفيراجا بأن الجيش الغوري كله بات هاجعاً لقضاء الليل، فإن السلطان، قاد فرقةً من وحداته إلى ما وراء صفوف العدو، لمهاجمة التشاوهان من

(44) انظر خصوصاً Ta$j، ملف 81 أ، 146 ب، 201 أ، 229 أ؛ أيضاً AH، 400، 423 وأماكن أخرى. وعن الدور الممكن **للناواك**، انظر عرفان حبيب، «تغييرات تكنولوجية في هند العصر الوسيط»، **دراسات في التاريخ** 2 (عليكرة، 1980)، 26 ـ 27؛ وعن تحديد معجمي يعود إلى القرن الرابع عشر لمعنى **ناواك**، انظر محمد بن هندوشاه ناخشواني، **شاهات الفرس**، تحقيق عبد العلي تعاطي (طهران، 1962م)، 188. كانت الكلمة تعني في الأساس أنبوت أوقناة السلاح، غير أنها ما لبثت لاحقاً أن توسَّعت لتعني السلاح كله: كاليرفو هوري، مساهمة في تاريخ المدفعية في العصر الوسيط من مصادر شرقية (هلنسكي ولايبزيغ، 1941)، 105؛ أيضاً مراجعة .Cl. كاهن، في JA 236 (1946م)، 169؛ وكاهن «رسالةٌ في السلاح كُتبت لصلاح الدين، BEO 12 (1947 ـ 1948م)، 153، 154.

(45) الإشارات المتكررة بين وقت وآخر تبين أنهم كانوا يمتلكون **الناواك**: مثال Ta$j، ملف 40 ب، 130 ب؛ AH، 247.

(46) روبرت بارتلت، **تشكُّل أوروبا: غزو واستعمار فتغيير ثقافي 950 ـ 1350م** (هارموندزوورث، 1993)، 63 ـ 64، 73 ـ 74.

الخلف. عند الصباح انقضّ على أمتعة برثفيراجا. باتت المؤخرة ضاغطة على الفيلة، التي خرجت عن السيطرة، مما أدى إلى انتشار الفوضى بين صفوف الجيش التشاوهاني، فأصبح برثفيراجا عاجزاً حتى عن قيادة انسحاب منظم[47]. ومن جهة أخرى، نرى في الرواية الوجيزة لقصة المعركة، التي نقلها الجوزجاني في كتابه **طبقات ناصري** عن شاهد عيان، أن معز الدِّين قام بتقسيم قواته[48]. ففي حين جرى إبقاء القلب، والمعدات والعتاد والفيلة على مسافة بضعة أميال في المؤخّرة، تم الإيعاز لوحدات منتقاة من الخيالة ذات الأسلحة الخفيفة (سوار باراهنا واوجريدا)، بلغ تعدادها عشرة آلاف رجل، بمشاغلة العدو وإزعاجه من جميع الجهات. ولا يلبث أن يتضح بعد بضعة سطور، أن هؤلاء ليسوا إلاّ رماة سهام من الخيالة؛ وأن توجيهات السلطان إليهم ـ الرمي من جميع الجهات، ثم التراجع، والحفاظ على مسافة بينهم وبين العدو، حين يقرر الجيش الهندوسي أن يشن هجوماً ـ وهو أسلوب شديد الشبه بتكتيكات رماة السهام من فرسان البداة الأتراك كالسلاجقة عند تعرضهم، على سبيل المثال، لمواجهة الجيوش الصليبية في الأناضول وسورية[49]. ومن هنا فإن البروفسور نظامي توصل إلى افتراض يقول بأن هذه التكتيكات، هي التي مكّنت المسلمين من الفوز بالنصر في سهل الغانج الشمالي[50].

ومع ذلك، فإن حقيقة أن الانتصار جرى كسبه، في جانب منه، بفضل تقنيات تميز بها البداة الأتراك، لا يجوز لها أن تعمينا عن جملة الأدلة الأخرى. فجيوش معز الدِّين، لم تكن مؤلفة بأكثريتها الساحقة من البدو الترك. والقوة

(47) JH، BN مخطوطة. آنسان فون بيرسان 75، ملف 185 (خلاصة في ED، II، 200).

(48) حول ما يتبع انظر TN، I، 400 (تر. 467 ـ 468).

(49) والتر إ. كيغي، الابن، «مساهمة الرماة في الفتح التركي للأناضول»، **سبكيولوم** 39 (1964م)، 96 ـ 108. ر. سي. سمايل، **حرب الصليبيين 1097 ـ 1193م** (كامبردج، 1956؛ طبعة ثانية، 1995) 75 ـ 83.

(50) ك. آ. نظامي، **بعض جوانب الدين والسياسة في هند القرن الثالث عشر** (عليكره، 1961م)، 82؛ وفي HN، 186.

المؤلفة من عشرة آلاف رجل من الفرسان ذوي الأسلحة الخفيفة، لم تكن إلاّ جزءاً من جيش أضخم، ضم كما يقول الجوزجاني، مئة وعشرين ألفاً من الخيالة على صهوات جياد ترتدي دروعاً (بار ـ غوستوان)[51]. حتى إذا كان هذا الرقم مبالغاً، يبدو جلياً أن القوات الغورية في تارائين، كانت مؤلفة بأكثريتها من الخيالة الثقيلة. ومن جرى تخليد ذكراهم على القطع النقدية المعدنية الإسلامية البنغالية، هم هؤلاء المقاتلون الذين يشكلون عنوان السيطرة الإسلامية ـ لا رماة السهام من الفرسان ذوي الأسلحة الخفيفة[52]. ويعلق الرحالة المغربي ابن بطوطة، الذي وصل إلى سلطنة دلهي سنة 734 هـ / 1333م، على واقع أن الخيالة المدرعة الثقيلة، كانت لا تزال تشكل قوات سلطان دلهي[53]. ويجدر بنا في هذا المنعطف، ملاحظة أن الجنود المماليك الأتراك، الذين كانوا يُسْتَخْدَمون كخيالة ثقيلة ـ ما كانت قيمتهم بنظر مستخدميهم كامنةً في أية محاولة لتكرار التكتيكات المرتبطة تقليدياً بالبوادي والسهوب[54]. فمثل هذه الوحدات المدرعة الثقيلة، ما كانت مؤهلة لشن ذلك النوع من الهجمات، التي ظلت الجيوش الصليبية تعاني منها. وبالفعل فإن أداء مثل هذه الوحدات، ربما كان أقرب إلى تكتيكات الصليبيين أنفسهم، حيث كان اقتحام وحدة الخيالة المدرعة الثقيلة لمواقع خصم ثابت نسبياً، يحدث صدمةً تتردد أصداؤها في سائر أرجاء الشرق الأدنى[55]. وإذا كانت قصة العوفي، قد أوردت أية تفاصيل

---

(51) TN، I، 400 (تر. 465 ـ 466).

(52) CMSD، 6 (رقم: A 3)، 15 (هوامش 49 ف، 49 ج)، 16 (هوامش 49 هـ. ج) والرسوم التوضيحية على لوحات XXII - XXIV. انظر أيضاً ريتشارد م. إيتون، **صعود الإسلام وحدود البنغال، 1204 ـ 1760** (بيركلي ولوس آنجلوس، **1993م**)، 33 ـ 35، والقطع النقدية المشروحة هناك. كان الهندوس يستخدمون فرسان **البرغوستوان** أيضاً: AH، 272؛ SA، 27.

(53) IB، II، 374 (تر. جيب، 479).

(54) انظر ملاحظات Cl كاهن «Le changement technique militaire d'un le proche Orient midiéval et leur importance historique» (التغييرات التقنية العسكرية في الشرق الأدنى القروسطي وأهميتها التاريخية)، في باري وياب، **الحرب والتكنولوجيا والمجتمع**، 121؛ أيضاً وينك، **الهند**، II، 89.

(55) سمايل، **حرب الصليبيين**، 112 ـ 115. كريستوفر مارشال، **الحرب في الشرق اللاتيني، 1192 ـ 1291**=

صحيحة عن حملة تارائين، دون أن تكتفي بمجرد وصف استراتيجية معينة، اعتمدها القادة المسلمون أحياناً في حربهم ضد الجيوش الهندوسية في الماضي، فإن من شأنها أن تكون عاكسة، لنجاح معز الدِّين في تجميع قلب جيش برثفيراجا، وجَعْلِه كتلة جامدة ـ حتى بات هدفاً مؤكداً، وسهلاً للوحدات الخفيفة من رماة السهام، التي أتى الجوزجاني على ذكرها، غير أنه شكَّل أيضاً هدفاً مثالياً ثابتاً لأي هجوم تشنه وحدات الخيالة الثقيلة المدرعة.

على الرغم من عدم امتلاكنا لأية معلومات دقيقة عن الأعداد، فإن من المعروف أن معز الدِّين، كان أيضاً مديناً بانتصاراته للتفوق في حجم جيشه. من الواضح أن رقم المئة والعشرين ألفاً، المذكور من قِبَل الجوزجاني حجماً للجيش الغوري في معركة تارائين، مصمم للتأثير على القارئ، ويشير بأن السلطان كان قد شكل جيشاً غير عادي من حيث الضخامة للقيام بالغزو. ربما قيل ذلك في الشرق الأدنى، قبل أن يكتبه الجوزجاني بعدد من العقود، وذلك لترك انطباع ينطوي على قدر كاف من القوة، لدى الفاتح المغولي بابُر، بعد ثلاثة قرون، بما يجعله يضيف الأمر إلى مذكراته(56). أمّا بالنسبة للجيش الذي هاجم الغاهاضوالا فإن الأعداد التي نملكها، تكاد أن تكون أقل بعض الشيء، إذ لا تتجاوز الخمسين ألفاً، من الفرسان المدججين بالأسلحة الثقيلة(57) ـ وهذه قوة كبرى، إذا كان الرقم جديراً بالثقة. من المحتمل أن تكون أعداد كبيرة من

= (كامبردج، 1992م)، 158 ـ 163. يبدو أن الهندوس لم يستخدموا قوات الفرسان المباغتة: وينك، **الهند**، II، 81.

(56) **بابور ـ نامه**، 479 ـ 480. يرد العدد في **كنز الدرر** لابن الدواداري (حوالى 730 هـ / 1329)، تحقيق سعيد عاشور وآخرين، VII (القاهرة، 1391 هـ / 1972م)، 134. وبالنسبة إلى التاريخ، 590 هـ، الوارد هنا يقوم ابن الدواداري بالاقتباس من ابن الساعي (متوفى 674 هـ / 1276م) وابن واصل، غير أن من المستحيل الحسم حول أي من هذين المؤلفين إذا كان أحدهما قد أورد الرقم 120 ألفاً. من كتاب ابن الساعي، **الجامع المختصر**، لم يبق إلاّ الجزء الذي يغطي السنوات من 595 إلى 606 هـ / 1198 ـ 1209 م؛ أما كتاب ابن واصل المذكور فليس **مفرج الكروب** مما يجعله بالضرورة كتابه الأخير **تاريخ صالحي** (حوالى 636 هـ / 1239م)، الموجود فقط في مخطوطة استانبولية ليست في متناول يدي (ليس لابن واصل تاريخ بهذا الاسم. وأحسب أن المؤلف واهمٌ بشأن مخطوطة اسطنبول. المراجع).

(57) Taj، ملف 119 ب.

هذه الوحدة، مؤلفة من المتطوعين؛ ففي تواريخ سابقة، شهدت الجيوش الغزنوية العاملة على الجبهة الهندية، تورماً ملحوظاً، جراء التحاق الآلاف بها، سعياً وراء المشاركة في القتال الناشب، بوصفهم (**غُزاةَ مجاهدين**)[58]. ومثل هذه الأفواج من المهاجرين، كانت مؤلفة من الأتراك والطاجيك، كما كان سكان العالم الفارسي وأهالي ما وراء النهر من غير الأتراك، يُعْرَفُون على حد سواء. وقد كان من شأن المجموعة الثانية، الطاجيك، أن تضم ليس فقط البيرقراطيين والجنود، بل والأشراف من سلالة النبي (**السادات جمع سيد**)، والصالحين (**الشيوخ**) والفقهاء (**العلماء**، أولئك المتبحرين في الشريعة، والعلوم القرآنية)، مثل الأخوين الفقيهين (دانشمامند) من فرغانه، وأولئك الذين قاتلوا تحت قيادة محمد بن بختيار، المذكور من قِبَل الجوزجاني، وقد قابل أحدهم في لخناوتي سنة 641 هـ / 1243 م. وكان أحد مصادر التحشيد، المتوفرة بصورة مؤكدة لمعز الدِّين، متمثلاً بالخَلْج. ونحن نعلم أن هؤلاء، لم يكونوا من الفرسان الخفاف بالضرورة؛ فالقوة الصغيرة التي اقتحم بها محمد بن بختيار مدينة بيهار، كانت تتألّف من مئتين من الفرسان، المدججين بالأسلحة الثقيلة (بار غوستوان). أما عصابات الخَلْج، التي تزاحمت للالتحاق بصفوفه، بعد انقضاء سنوات قليلة على الإطاحة ببرثفيراجا، فإن من الواضح بجلاء، أنها جاءت «من جهة هندوستان» (أي من دواب وأَوَذ)، مما يشير، على الأقل، إلى أنها لم تكن حديثة العهد في الهند[59].

الحرب المقدسة، والفتح، والكفار

في غضون ما يزيد قليلاً على العقد من الزمن، كانت الجيوش الغورية قد حققت تقدماً مدهشاً؛ بات المسلمون مسيطرين على سلسلة من القلاع

---

(58) انظر بوزوورث، **الغزنويون**، 114؛ وينك، **الهند**، II، 91 ـ 92 هـ. 57.

(59) TN، I، 423 (تر. 551 ـ 552). وعند هذا المعنى المحدود لكلمة «هندوستان» انظر ص 86 من هذا الكتاب.

والحصون، التي تحكّموا من خلالها، إلى حدود أكثر أو أقل، بسهل الغانج الشمالي. غير أن من المهم، من ناحية أخرى، أن نعترف بحدود النجاح الإسلامي. فالانتصار لم ينطو بالضرورة على استبدال الحكام الهندوس. وقد جرى، كما سبق لنا أن رأينا، تنصيب ابن برثفيراجا خلفاً لأبيه حاكماً لآجمر، كما أن ابن غوفنداراجا حكم دلهي فترة وجيزة، وقد كان، كلاهما، تابعين للسلطان. وفي أعقاب الانتصار على جاياتشاندرا، يقال إن آيبك نصّب «ملكاً (رانا) على كل جهة»[60]. أما وضع السلطان الغوري، فقد كان وضعَ ملك أعلى يرأس عدداً من الأمراء التابعين، ـ عدداً من **الرايات** أو **الرانات** ـ الذين كانوا يأتون، حسب تعبير حسن نظامي، «ليتمسحوا بأعتاب بلاط آيبك العظيم»[61].

لم تكن بعض الانتصارات الإسلامية، إلاّ انتصارات مؤقتة بطبيعتها. فاستباحة آيبك لمدينة تاهروالا في 593 هـ / 1197م، مثلاً، لم تُفْضِ ـ رغم إطرائها من قبل الجوزجاني بوصفها «فتح گوجرات» ـ بمقدار ما نستطيع أن نقول، إلى الاستيلاء على أية أرض. كما أن نتائج إغارته على مالوا في 596 هـ / 1200م، كانت وهميةً بالمثل دون شك[62]. ففي الأجزاء الشرقية لما يعرف الآن باسم أوتار براوسن، كانت مملكة غاهاضوالا ما تزال تصول وتجول[63]. أضف إلى ذلك، أن من الواضح، أن بعضاً من المواقع الحصينة التي احتلها آيبك عادت بالتأكيد إلى أيدي الأمراء الهندوس، على الرغم من أن مصادرنا،

---

(60) Taj، ملف 137 أ.

(61) المصدر السابق، ملف 150 أ.

(62) گوجرات: المصدر السابق، ملف 173 أ، وTN، ا، 417 (تر. 516). مالوا: SA، 24، وTN، ا، 407 (تر. 491): في ا، 417 (تر. 516 ـ 517)، يشير الجوزجاني إلى فتح هندوستان حتى حدود أوجاين شرقاً (ترد في طبعة حبيبي على شكل CYN [ج ي ن] خطأ)، أي مالوا.

(63) منقوشة ماتشليشهر النحاسية، مؤرخة فيكراماساموات 1253 / 1197: ب. براساد، منقوشات سنسكريتية، 58 ـ 70 (رقم: اا، 6). نيوغي، **تاريخ أسرة غاهاداوالا الحاكمة**، 113 وبعدها.

تمتنع عن إخبارنا عن نكسات المسلمين، ربما بعد وفاته، لأن إلتُتْمش اضطر للاستيلاء عليها ثانية. أما في الأماكن الأبعد شرقاً، فإن جهود محمد بن بختيار، لم تؤمن إلاً الجزء الشمالي ـ الغربي من البنغال، حيث باتت السلطة الإسلامية، متركزة في بلدة غَور، التي أعيدت تسميتها، وأُطلق عليها اسم لاخناوتي: أما البنغال الشرقي، ذلك الإقليم المعروف لدى المسلمين باسم «بانغ»، فقد بقي بأيدي سلالة سينا الحاكمة[64].

حتى في المناطق الخاضعة، إلى هذا الحد أو ذاك، لحكم المسلمين المباشر، بقي مدى تحكمهم مفتوحاً للنقاش، ومن الضروري أن نحرر قابلية التصديق من براثن مبالغات مصادرنا المفرطة، حيث نجد مزاعم فخر مدبّر الحماسية المتطرفة من قبيل: «ما لبثت مدن الكُفْر أن أصبحت مدناً للإسلام. فبدلاً من الأنصاب، باتت تعبد الخالق الأعلى. أما معابد الأصنام، فقد تحولت إلى مساجد، ومدارس، وتكايا (**خانات**). تشهد كل سنة انتقال بضعة آلاف من الرجال والنساء الكفار إلى الإسلام. . .»[65] من جهة، غير أننا قد نكون، من الجهة المقابلة، أكثر ميلاً لقبول تصريحات حَسَن نظامي، التي تقول بأن آيبك بادر إلى «استئصال الوثنية»، و«تدمير المعابد» في كوهرام، وبأن هياكل الأصنام في ميرات وبَنَارِس (التي كان فيها ألف معبد)، وكالنجار تم تحويلها إلى مساجد[66]. لم تكن مثل هذه التكتيكات الجذرية العميقة، قابلة للتصور بالنسبة إلى المراكز الحضرية المختلفة. ففي بعض الحالات نرى أيضاً، أن الأطلال المعمارية الباقية، تؤكد صحة مزاعم حَسَن نظامي القائلة، بأن الحجارة المأخوذة من المعابد الهندوسية المدمرة، استُخدمت في تشييد المساجد، كما

(64) TN، ا، 426 ـ 427 (تر. 558). اسم «بنغالا» ليس موجوداً قبل برني: أحمد حسن داني، «شمس الدين الياس شاه ـ ي بنغالاه» في هاري رام غوبتا وآخرين (محررين)، **مقالات مهداة إلى جادونات سانكار**، ذكرى السيدجادونات سانكار، الجزء II (هوشيابور، 1958م)، 50 ـ 58.

(65) SA، 26.

(66) Taj، ملف 53 أ، 74 ب، 134 ب، 185 أ.

في دلهي ومسجد آرهاي دين كه جهومبرا بآجمر[67]. غير أن تأكيدات أخرى تستثير قدراً أكبر من الشك، مثل القول بأن آيبك حرر منطقة (ديار) كول كلها، لا المدينة فقط، من الأصنام، ومن عبادة الأصنام[68]. أضف إلى ذلك، أن المعاملة التي لقيتها المعابد الهندوسية، على أيدي فاتحي القرن الثامن المسلمين للسند، كانت متباينة وفقاً للظروف[69]، وقد يحق لنا أن نفترض، أن ذلك كان صحيحاً أيضاً أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. فالمدن التي استسلمت ـ كما فعلت غواليور في 597 هـ / 1200 ـ 1201م، مثلاً ـ ربما تمكنت من الحصول على صفقة أفضل بالنسبة إلى معابدها، مقارنة بالأماكن التي أُخذت عنوة. وبصرف النظر، عما كان الكتبة (المثقفون) المسلمون يريدون إقناع الناس به، وإقحامه في رؤوسهم، فإن السمة المميزة لتلك السنين، لم تكن متمثلة بنزعة العداء، الذي لا يعرف معنى المساومة للوثنية والأصنام.

ساهمت لغة مصادرنا في تشويه طبيعة هذه المعركة، وما تبعتها من الحملات اللاحقة، حتى باتت مصبوغة بلون صراع مستوحى من الدين ـ وهو تطور ما لبث أن استمد زخماً إضافياً، من المواقف الطائفية الأحدث[70]. فمعز الدِّين، بنظر الجوزجاني، يبقى على الدوام «السلطان المجاهد» (**سلطان غازي**)، كما يطلق الكتاب المسلمون، اسم «جيش الإسلام» على قواته. ولدى سرده لقصة الانتصارات الغورية على كَفَرة الهند، فإن الجوزجاني يشبهها بانتصارات معاصر معز الدِّين، صلاح الدين، على الفرنجة المسيحيين في سورية وفلسطين[71]. ومع

---

(67) المصدر السابق، ملف 48 أ، 114. انظر رويرت هيلنبراند، «الرمزية السياسية في هندسة عمارة المساجد الهندية الإسلامية الأولى: مثال آجمير»، **إيران** 26 (1988م)، 105 ـ 117.

(68) Taj، ملف 138 أ.

(69) فريدمان، «مساهمة»، 328 ـ 329؛ المصدر السابق، «معبد مُلتان: ملاحظة حول المواقف الإسلامية المبكرة من عبادة الأوثان»، IOS 2 (1972م)، 176 ـ 182.

(70) للاطلاع على معالجة حصيفة لهذه الأطروحة، انظر كارل و. أرنست، **جنة خالدة. الصوفية، التاريخ والسياسة في أحد المراكز الصوفية بجنوب آسيا** (آلباني، نيويورك، 1992)، 18 ـ 29 وأماكن أخرى.

(71) TN، I، 290 (تر. 214).

ذلك فإن من المهم، ألاّ نبالغ بمدى أهمية الجهاد (الحرب المقدسة) في الحملات الغورية، بالنسبة إلى دوافع السلطان على الأقل. من المؤكد أن الغنائم اللازمة، لتسديد فواتير الصراع مع الخوارزم شاه، كانت أحد الدوافع الرئيسية؛ وتوزع مواقع لقى القطع النقدية التي صكها الفاتحون في الهند، ذو مغزى، إذ يبين أن جزءاً كبيراً منها، ما لبث أن عاد إلى الوطن[72]. إن المؤلفين المسلمين، يبالغون في الحديث عن الأشياء، والمصوغات الذهبية المأخوذة من آجمر، والتي شكلت جزءاً من خراج التشاوهان، تم إرسالها إلى غياث الدين محمد بن سام، واستُخدمت في تزيين قصر فيروزكوه الملكي، والجامع الكبير في هراة[73]. لا شك أن هجومه الناجح على دَيبُل من جهة، وحملته غير الموفقة على ناهروالا من جهة ثانية، يمثلان مسعيين بذلهما معز الدِّين، لإعادة ملء خزانته، عن طريق نهب أقاليم كان أمراؤها يتمتعون بمداخيل فاحشة، كانت تؤخذ من عوائد التجارة؛ وليس ثمة أيُّ قَدْر من الشك حول أن حملة دَيبُل، التي تمخضت عن كميات كبرى من الغنائم[74]، ساهمت في تمويل المجهودات الحربية اللاحقة، التي بُذلت ضد الغزنويين. وقد كان الجوزجاني سيسمع لاحقاً من فم أمين صندوق معز الدِّين، أرقاماً خارقة للعادة عن وزن المجوهرات المنهوبة من الهند، والمخزونة في غزنة لدى وفاة السلطان[75].

وكذلك فإن الصراع الطويل الذي طبع تقدم النفوذ الإسلامي، لم يكن بالضرورة، صراعاً مقتصراً فقط على انشغال المسلمين بالقتال، ضد القوات الهندوسية. ففي إغارته الأخيرة على أخيه في الدِّين، خسرو ملك، كان معز الدِّين قد تعاون مع أمير جامو الهندوسي، في حين أن السلطان الغزنوي كان

---

(72) دِيَل، **العيش بدون فضة**، 195، 203 ـ 206.

(73) TN، I، 375 (تر. 404). SA، 22 ـ Taj23 .، ملف 80 ب.

(74) TN، I، 397 (تر. 451 ـ 453).

(75) المصدر السابق، I، 404 (تر. 487 ـ 488).

بدوره، قد تحالف مع أهل البنجاب الكَفَرة من الخوخار[76]. ونحن لا نعلم متى قرر معز الدِّين وجنرالاته، أن يحذوا حذو الغزنويين، ويستخدموا فصائل من القوات الهندوسية. من المؤكد أن جيش آيبك، كان لدى حصاره لميرات، يضم جنوداً هندوسيين في صفوفه؛ وحين تابع مسيرته متقدماً باتجاه لاهور سنة 602 هـ / 1206م، كانت «القوات الهندستانية» (**حشمي هندوستان**) المرافقة له تضم، كما يقال، عدداً من «**الرانات والثاكورات**»، أي الزعامات الهندوسية التي كانت تتولى قيادة فصائلها الخاصة، في خدمة أمير الحرب المسلم[77].

غير أن سلطنة دلهي كانت، رغم جملة هذه المواصفات والمؤهلات، عريقة وراسخة في تربة التراث الطويل، للنشاط العسكري الإسلامي في شبه القارة، ومن الممكن إيجاد الأعذار لحكامها، الذين اعتبروا أنفسهم، الجيل الأحدث في سلسلة مجاهدي الإسلام. ومن المؤكد أن محمود الغزنوي، قد احتل مكان الصدارة بين هؤلاء السلاطين. وليس صدفة، أن يكون مؤلف أواسط القرن الرابع عشر، البَرَني، قد قدّم في كتابه الذي حمل عنوان **فتاوى جهاندار**، مرآةً للأمراء، ما اعتُبر وصية محمود الموجهة إلى الأجيال القادمة كلها؛ أو يكون معاصره عصامي قد بادر بالفعل، حاذياً في ملحمته **فتوح السلاطين**، حذو الفردوسي في ملحمة **الشاهنامه** (المهداة إلى محمود)، إلى اختيار الشروع بالعمل، انطلاقاً من حملات محمود الخاصة، معتبراً إياه صاحب الفضل في ترسيخ دعائم الإسلام في شبه القارة؛ أو يكون شمس السراج عفيف، لدى وصفه لإنجازات السلطان فيروزشاه، على صعيد تحطيم الأصنام في جاجنغر (أوريسا) سنة 762 هـ / 1361م، قد شبّه هذا السلطان

---

(76) المصدر السابق، ا، 398 (تر. 454 ـ 455). بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 129 ـ 130.

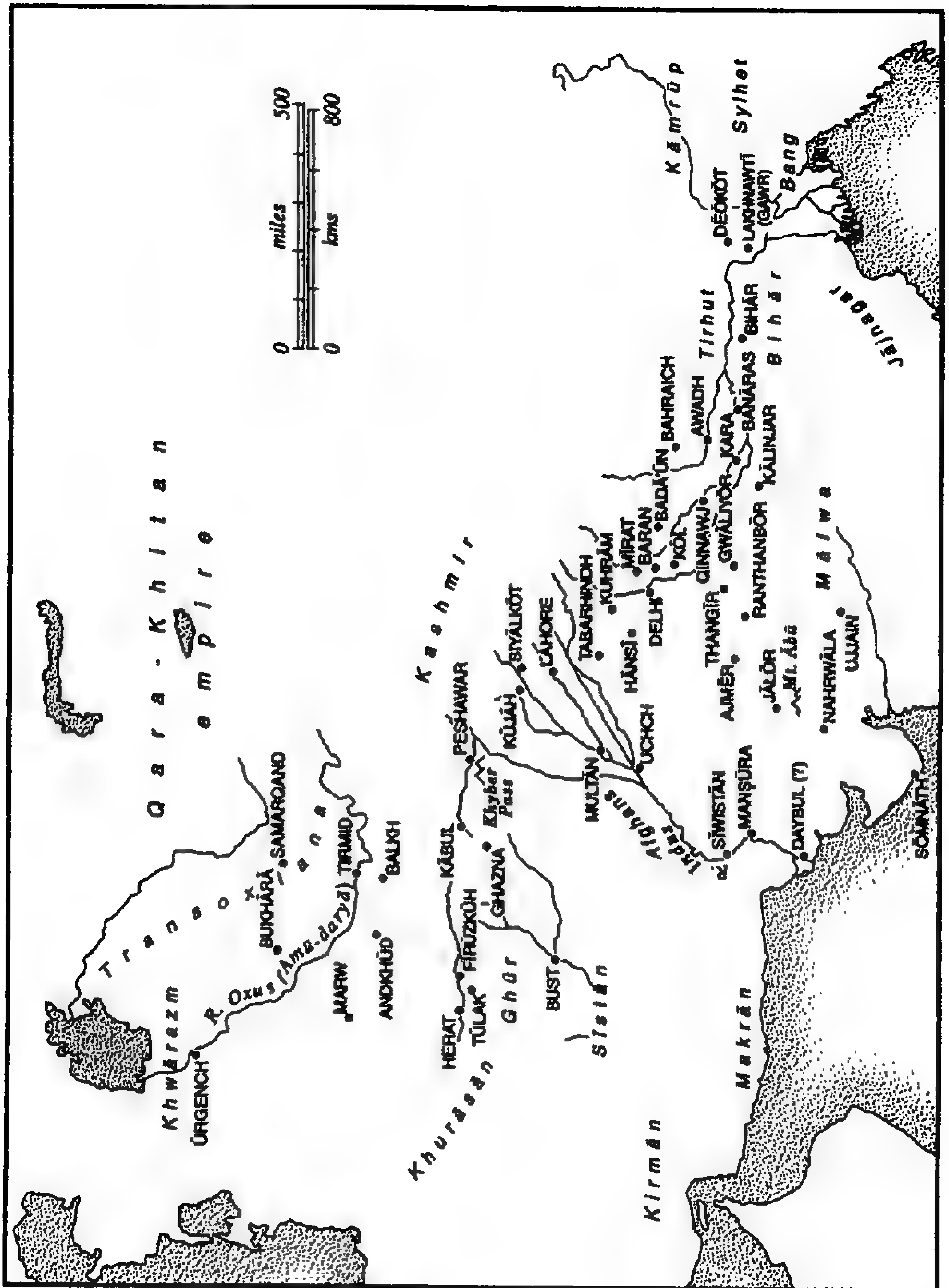
(77) ميرات: Taj، ملف 74 أ. لاهور: SA، 33. وعن الجنود الهنود في الجيوش الغزنوية، انظر بوزوورث، **الغزنويون**، 110؛ أيضاً قصائد شعر منسوبة إلى الغوري علاء الدين حسين، واردة في TN، ا، 346 (تر. 357).

بمحمود[78]. علينا أن نعترف بأن الأمير الغزنوي كان فريداً لا مثيل له. فقد كتب الجوزجاني يقول: «لقد أنعم العليُّ القدير القدرة على ذلك الحاكم، بالعديد من الخصال الحميدة والعلامات العجيبة والكرامات الخارقة، التي لم يُتَح لها قط أن اجتمعت، عدداً ورَوْعة، لدى أي سلطان آخر من بعده»[79]. غير أن هذا لم يجعل محموداً أقل جدارة بالتقليد في أي من الأحوال؛ فسلاطين دلهي لم يكن لديهم أي سَلَفٍ إيديولوجي أكثر تميزاً وألقاً[80].

(78) FS، 28 ـ 29، 30، 609 (تر. 66 ـ 67، 907). شمسي سراجي عفيف، **تاريخ ـ ي فيروز ـ شاهي**، تحقيق مولوي ولايات حسين (كالكوتا، 1888 ـ 1891)، 170.

(79) TN، ا، 230 (تر. 83 معدل)؛ قارن أيضاً، ا، 229 (تر. 77 ـ 80).

(80) نظامي، **بعض وجوه...**، 107 ـ 109، وعن **تاريخ... ومؤرخيها**، 107 ـ 109؛ سي. إ. بوزوورث «محمود الغزنوي في أعين المعاصرين وفي الآداب الفارسية اللاحقة»، **إيران 4** (1966م)، 89 ـ 90، أعيدت طباعة المادة في كتابه **التاريخ الوسيط**. عزيز أحمد، **دراسات**، 79.



العالم الإسلامي الشرقي في 1206م

الفصل الثاني

من إقليم غوري إلى سلطنة «دلهي»

الحكم الغوري

جاء الفاتحون ومعهم المؤسسات، التي دَرَجوا عليها في البلاد الغورية. لعل أبرز هذه المؤسسات هي **الإقطاع** (التي يتكرر الوقوع في خطأ اعتبارها نظيرةً لـ «المزرعة الخاصة» (الـFief، أو إقطاع التمليك الغربي)، ذلك التخصيص، القابل للنقل، للمورد بدلاً من الراتب مقابل الخدمة (العسكرية عادة)، الذي مع حلول سنة 1200م، كان قد عاش تاريخاً طويلاً في الأقاليم الإسلامية الشرقية، بعد أن اعتمده الغزنويون، وبلغ أرقى أشكال التعبير عنه في ظل حكم السلاجقة؛ وما أن قام الغوريون بجلب هذه المؤسسة إلى الهند، حتى باتت تشكل إحدى المؤسسات المميزة لسلطنة دلهي المبكرة. ثمة تطورات مختلفة جرت في إيران القرن الثاني عشر لطمس طابع نظام الإقطاع، ولإذابته في بوتقة نوع من الحكم الإداري(1).

---

(1) انظر كلود كاهن، «تطور الإقطاع بين القرنين [الميلاديين] التاسع والثالث عشر»، **حوليات، الاقتصادات، المجتمعات، الحضارات** 8 (1953)، 25 ـ 52، طُبعت ثانية في كتابه «**الشعوب الإسلامية في التاريخ الوسيط** (دمشق، 1977م)، 231 ـ 269؛ المؤلف نفسه، «إقطاع»، Enc. Isl², آ. ك. س. لامبتون، «تأملات حول **الإقطاع**». في ج. مقدسي (محرراً)، **دراسات عربية وإسلامية تكريماً لـ آ. ر. جيب** (لايدن، 1965م)، 358 ـ 376؛ المصدر نفسه، **التغيير والاستمرارية في إيران العصر الوسيط** (لندن، 1988م)، 99 ـ 113. ثمة عَرضٌ محكم في د. أو. مورغان، **إيران العصر الوسيط 1040 ـ 1797م** (لندن 1988م)، 37 ـ 40.

ذلك هو السبب الكامن في بقاء مصادرنا، بعيدةً عن التوفيق على صعيد المفردات، والمصطلحات التي تستخدمها للدلالة على المنح، والهبات التي يتكرم بها معز الدِّين على أتباعه. صحيح أن الجوزجاني يعتبر مَنْحَ آيبك مقاطعة في كوهرام للمرة الأولى إقطاعاً، إلاَّ أن فخر مدبر يتحدث عن الأمر على أنه «القيادة» (سِپَهسلار) هناك، ويقول حسن نظامي إنه مُنح ولاية (آيالات) كوهرام وسامانا[2]. ومع ذلك فإننا نظلُّ متأكدين من أن نظام الإقطاع، كان منتشراً في شمال الهند، لدى إيجاد سلطنة دلهي المستقلة. لقد أصبح إِلتُتْمش صاحب إقطاع (مُقْطَعاً) باران في ظل آيبك؛ كما نجد عدداً من الإقطاعات في أَوَدْ قبل سنة 1200م، وفي البنغال الغربي، بعد تعرضه للفتح من قِبَل محمد بن بختيار. وكذلك فإن العبارة كانت مستخدمة، أيضاً للدلالة على حيازات الجنود العاديين، فابن الأثير يتحدث عن أمثال هؤلاء، ممن حصلوا على إقطاعات من آيبك سنة 602 هـ / 1206 م[3].

بمقدار ما نستطيع أن نعرف من المادة الهزيلة المذكورة في مصادرنا، فإن التسلسل الهرمي للرسميين الغوريين في فيروزكوه وغزنة، لم يختلف اختلافاً ملحوظاً، في خطوطه العريضة، عن ذلك الذي كان معتمداً، من قبل الأسر الحاكمة الإسلامية الشرقية الأخرى. كان **الوزير**، كما هي حاله في الأماكن الأخرى، يرأس الإدارة المدنية في غزنة؛ فضلاً عن أننا نقرأ عن كل من أمين الصندوق (**الخازن**)، ومراقب الأخلاق العامة في الأسواق (**المحتسب**). وكذلك فإن تعيين **القضاة** المسؤولين عن تطبيق الشريعة، الفقه الإسلامي، كان بيد السلطان. كانت للجيش محكمته الشرعية الخاصة، المسَيَّرة من قبل قاضي العسكر، رغم إمكان الدمج بين الوظيفتين[4]. من الممكن رسم خط فاصل

---

(2) Tāj، ملف 51 ب. TN، ا، 417 (تر. 515).

(3) IA، XII، 140 / 214. البنغال: TN، ا، 422، 423، 432، 433 (تر. 549 ـ 550) 572، 574، 575: المصدر السابق، ا، 443، واا، 19 (تر. 604، 745).

(4) المصدر السابق، ا، 367، 389، 405 (تر. 389، 430، 489).

شديد الوضوح، بين ما هو مدني وما هو عسكري. فمؤيد الملك السَجْزي، الذي كان وزيراً لمعز الدِّين أولاً، ويلدز من بعده في غزنة، تولى أيضاً منصب قيادة الجيش من حين لآخر، مثله مثل وزراء أوائل سلاطين دلهي؛ كما أننا نجد فصيلاً من الفرسان من تولَّك في خدمة معز الدِّين، بقيادة قاضيه ضياء الدين[5]، أحد أقرباء الجوزجاني. فالخط الفاصل بين «رجال السيف»، و«رجال القلم» (أرباب تيغ قلم)، حسب التعبير الشائع في مصادرنا[6]، أو بين الجيش التركي، والجهاز البيروقراطي ((الطاجيك)) الفارسي، كان شبه مطموس، على الصعيد العملي في بعض الأحيان.

تبقى أكثر المناصب التي نقرأ عنها، مناصب عسكرية أساساً، مثل منصب قائد حرس السلطان، أو جلاديه (الساري جاندار)، وحامل الدرع (الساري سِلاحدار)، ومفتش الجيش (العارض)، الذي يبدو أنه كان يتولى مهام وزير الحرب، وياور الجيش (أمير حاجب)، المكلف غالباً بالقيادة الميدانية، وضابط العسكر (أمير داد)، الذي كان في غزنة، إذا صدقنا ابن الأثير، يتولى قيادة القلعة، وناظر اصطبلات السلطان (أمير آخور)، وهو منصب شغله قطب الدِّين آيبك، قبل توليته على الهند، وناظر الصيد (أمير شيكار)، وهو منصب ينطوي على بعض الأهمية في نظام كان فيه فن المطاردة، والقنص تسلية العاهل الرئيسية من جهة، وشكلاً أثيراً من أشكال التدريب العسكري للقوات من جهة ثانية[7].

---

(5) المصدر السابق، I، 380 ـ 381، 419 (تر. 415، 534)، عن مؤيد الملك؛ I، 398 ـ 399، 400 (تر. 457 ـ 458، 464)، عن قاضي تولاق. وعن وزير إلتُتمِش، جنيدي، انظر ص: 35 في هذا الكتاب.

(6) Tāj ملف 106 ب، 135 ب، 218 أ؛ وقارن مع AH، 138.

(7) عن هذه المناصب انظر عموماً هيربرت هورست: **إدارة الدولة لدى السلاجقة والخوارزمشاه (بالألمانية)** فيسبادن، 1964م)، في أماكن كثيرة. **أميري داد في غزنه**: IA، XII، 143 / 217، 145 / 221. آيبك **أميري آخور**: TN، I، 303، 416 (تر. 248، 514). عن ولع السلطان الغوري غياث الدين محمد بن سام بالقَنَص، انظر المصدر السابق، I، 364 ـ 365 (تر. 385ـ 387).

تبقى معلوماتنا عن إدارة فتوحات معز الدِّين، في شمال الهند مجتزأة ومتقطعة. من الواضح أن آيبك، كان لديه جهازه المماثل، لنظيره عند السلطان في غزنة، بما فيه **الساري جاندار وأمير شيكار**[8]؛ كما كان ثمة **عارض** في دلهي، لا نعرف عنه إلاّ أنه رفض محمد بن بختيار، بوصفه غير جدير بالخدمة فدفع به، في غفلة منه، نحو منصب أكثر إبهاراً[9]. ويبدو أن ضابط العسكر (الأمير داد) كان، في مراكز معينة، متمتعاً بمكانة محورية؛ ولربما كان، كنظيره في غزنة، مسؤولاً عن قيادة القلعة. ولعل أسطع الأمثلة، هما ضابط مُلْتان، الذي قُتل غدراً في بداية حركة التمرد، التي وقعت سنة 601 هـ / 1204م، وعلي إسماعيل في دلهي، الذي كان وراء الانقلاب، الذي أوصل إلتُتْمش إلى السلطة في 607 هـ / 1210 ـ 1211 م[10].

ظهور سلطة إسلامية مستقلة في الهند

شكّلت الأحداث التي أعقبت وفاة معز الدِّين، انفصالاً عن التطورات السابقة. حتى تلك اللحظة، لم تكن دلهي سوى إحدى القواعد الإسلامية المتقدمة، وبقيت لاهور، عاصمة إقليم معز الدِّين الهندي تماماً، كحالها بالنسبة إلى المناطق الغزنوية في الهند. كانت لاهور هذه، بنظر فخر مدبّر «مركز الإسلام في الهند» **(مركزي إسلامي هند)**؛ في حين كان حَسَن نظامي، لدى وصف كيفية تولية ابن إلتُتْمش البِكْر على المدينة سنة 614 هـ / 1217م، ما يزال قادراً على أن يلاحظ، ربما بشيء من الكآبة والحزن، كيف أن لاهور كانت «على الدوام مكان إقامة ملوك مشهورين، ومقر حكام أقوياء»[11]. فخلال عدد قليل من العقود، بعد إمساك إلتُتْمش بزمام السلطة في دلهي،

---

(8) المصدر السابق، ا، 443 (تر. 603).

(9) المصدر السابق، ا، 422 (تر. 549).

(10) Tāj ملف 188 أ، 189 أ. TN، ا، 444 (تر. 605).

(11) SA، Tāj30 .، ملف 259 أ؛ انظر أيضاً ملف 211 أ، **مستقر ـ ي سرير ـ ي سلاطين.**

وإيجاد السلطنة المستقلة، أدى التزايد المطرد للضغط المغولي، إلى جعل دلهي تبدو مقراً أكثر ملاءمة، لإقامة الحكام بالمقارنة مع لاهور، وهو أمر ما لبث المغول أنفسهم أن أكّدوه، حين قاموا بالإغارة على لاهور ونهبها سنة 639 هـ / 1241 م. ومع ذلك، فإن صيرورة دلهي عاصمة للهند الإسلامية، وعاصمة العواهل المستقلين، بقيت نوعاً من المصادفة التاريخية إلى حدود معينة، على الرغم من أن المصادر الرئيسية، لا تبدي أي قدر من الحرص على الاعتراف بذلك.

نظراً لصعوده اللاحق، من السهل نسيان أن قطب الدين آيبك لم يكن، لدى تنصيبه سنة 588 هـ / 1192م على كوهْرام، إلاّ واحداً من صغار مماليك معز الدِّين، خلافاً مثلاً، لحال تاج الدين يلدز الذي كان على ما يبدو، بين أبرزهم وأعلاهم مرتبة، ويقال إنه كان قائداً لهم (سَرْوَر)[12]. تبقى مرتبة آيبك المحدّدة بدقة في الفتوحات الغورية غامضة. فنحن نجده مشغولاً بتعيين الأمراء في مواقع حساسة، حيث يعين مملوكه الخاص إلْتُتْمش، والياً على غواليور أولاً، وكل من باران وبداؤون بعد ذلك، كما ينصّب آيبك تمغاج على تبرهند، فضلاً عن تعيين ضُبّاط آخرين من الأتراك، مثل حَسَن أرنب على كالينجار، وحسام الدين أوغلبيك على كول[13]. أمّا القرصان الخَلْجي محمد بن بختيار فكان خادماً لآيبك في بداؤون، وحصل منه على نعمة الاحتفاظ، بجوقة (نوبة)

(12) TN، I، 411 (تر. 498)؛ قارن أيضاً IA، XII، 141 / 215. رواية لاحقة جعلته ابنَ يلدز معز الدين المتَبَنّى: TFS، 550. الاسمان كلاهما تركي؛ يلدز أو يلدوز التي تعني «نجماً» انظر السير جيرار كلوسون، **قاموس أصول الكلمات التركية فيما قبل القرن الثالث عشر** (أوكسفورد، 1972) 922 ـ 923؛ أما عن «أي» (قمر) و«بغ» (بك) (أمير) (سيد) فانظر جان سوفاجيه، «أسماء المماليك وألقابهم» JA 298 (1950)، 51 ـ 58 (هـ: 37).

(13) TN .I، 443 (تر. 603 ـ 604). Tāj، ملف 138 أ، عن قُطْلُغ بك، و185 أ عن حسني أرنب. العنصر الثاني في الاسم الأخير الذي يُقْرأ على شكل «آرنال» عادة هو ر ن ب بوضوح في أفضل المخطوطات؛ انظر أيضاً هوديفالا، **دراسات**، II، 53 ـ 54. اسم قُطْلُغ بك هو تو. **أوغول** (ابن)، (ولد) (كلاوسون، **قاموس أصول الكلمات...**، 83 ـ 84)، + بَغ (أمير).

موسيقية خارج مكان إقامته، جنباً إلى جنب مع طَبْلَة نَقْر وراية، إضافة إلى شهادة تؤكد، بل وتوسّع، حسب ما قاله حسن نظامي، المنطقة الخاضعة لسيطرته[14]. ومثل هذه الاهتمامات تشير إلى أنه كان يعترف، بسلطة آيبك بوصفه ممثلاً للسلطان.

ومع ذلك ثمة قادةٌ آخرون في الهند، كانوا مستقلين عن آيبك. علينا أن نتذكر، أن المراجع لا تحدثنا إلاّ عن العمليات، التي قادها معز الدِّين وآيبك بوصفه معاونه، إضافةً إلى نشاطات قوات الخَلْج في بيهار، والبنغال (كما لدى الجوزجاني وابن الأثير). أما عن الحملات الأخرى، التي تمت بقيادة ضباط غوريين آخرين، والتي جرت في تلك السنوات، فلا نعرف عنها إلاّ القليل. فبهاء الدِّين طُغرُل، وهو أحد كبار غلمان السلطان، كان قد حصل من معز الدِّين شخصياً على التفويض بالقيادة في ثنغير، وباحتلال قلعة غواليور الضخمة مما جعله شديد السخط على تسليم غواليور لآيبك، سنة 597 هـ / 1200 ـ 1201 م. إن نقوشه تشير أنه أعلن نفسه سلطاناً عند أحد المنعطفات، بعد تعرض معز الدِّين للاغتيال[15]. ونحن لا نعلم طبيعة علاقة آيبك بعز الدِّين علي في نغوار، أو بناصر الدِّين آتيمُر في أوتشش[16]. كما أن أحداً لا ينبئنا عما إذا كان نفوذه فيما قبل 602 هـ / 1206م، امتد إلى لاهور التي كانت تشكل، على ما يبدو، قيادة مشتركة مع مُلْتان[17]. من الممكن فعلاً، أنه كات متمتعاً بالسلطة

---

(14) Tāj، ملف TN186 .، ا، 423 ـ 427 (تر. 551 ـ 554، 560).

(15) مهردان وناتالي هـ شوكوهي، «هندسة عمارة بهاء الدين طغرل في إقليم بايانا، راجستان»، **مقارنه** 4 (1987م)، 114 ـ 132 (خصوصاً 115)؛ انظر أيضاً مهرداد شوكوهي، **راجستان** ا (لندن، 1986م) 51 ـ 53؛ TN، ا، 421 ـ 422 (تر. 544 ـ 547)، عن حياته العملية السابقة. الاسم هو تو. **طغرل**، «طير كاسر»: كلاوسون، **قاموس. . .**، 472؛ TMENP، III، 346 ـ 348 (رقم: 1345).

(16) TN، ا 419 (تر. 531 ـ 532)، عن أيتَمُر: آي «قمر»، وتَمُر «حديد» انظر سوفاجية، «أسماء وألقاب. .» رقم 42. الإشارة إلى علي ناغاوري محذوفة من نص حبيبي (ا، 422)، غير أن جهازه يمكن مقارنته في ترجمة رافيرتي، 549.

(17) IA، XII، 136 / 209، 137 / 210؛ وقارن TN، ا، 398 (تر. 456). لا أستطيع أن أتفق مع إ. حبيب «تشكُل»، 6، حول أن آيبك كان مسؤولاً عن لاهور قبل 1206 م.

والنفوذ في تلك البقاع، التي سبق لها أن شكلت جزءاً من الدولة الغزنوية، أيام فتوحاتها سنة 582 هـ / 1186 م.

بعبارة أخرى، لا تأتي الأدلة داعمةً لاعتقاد المؤرخين المُحدثين، بأن آيبك تُرك نائباً للسلطان في الأقاليم الهندية، عقب انتصار تَرَائن: صحيح أن ابن الأثير يطلق عليه هذه التسمية كما نعلم، غير أن ذلك لا يكون إلاّ في سياق الأحداث التي أعقبت اغتيال السلطان في الهند[18]. أمّا قبل ذلك، فإن المؤلف ذاته لا يعتبره إلاّ قائداً لقوات السلطان في الهند[19]. حتى في شهادة مدّاحه فخر مدبّر، (الذي كتب بعيد حصول آيبك على الشرف الملكي في لاهور)، فإن ترقيته إلى منصب نائب للسلطان، مسؤول عن كل الإقليم الممتد، «من بوّابات بيشاور إلى أقصى البقاع الهندية»، لم تتم إلاّ قبل بضعة أسابيع من مقتل معزّ الدِّين[20].

ومهما كان وضعه لدى تعرض السلطان للاغتيال، فإن آيبك استطاع أن ينتقل من دلهي إلى لاهور وأن يحتل مقره، بوصفه الحاكم هناك في الثامن عشر من ذي القعدة سنة 602 هـ / السادس والعشرين من حزيران / يونيو سنة 1206م. ويزعم الجوزجاني في أحد المواقع، أنه لم يفعل ما فعله، إلاّ بعد وصول شهادة صادرة عن السلطان الجديد، غياث الدِّين محمود بن محمد ابن شقيق معزّ الدِّين[21]. غير أن ذلك غير وارد تاريخياً. أمّا الاحتمال الأقوى، فهو أن آيبك قد تشجع على فعل ما فعله، جراء امتلاكه المفاجىء، لقوة بشرية ذات شأن، لأن وزير معزّ الدِّين، بادر في أعقاب عملية الاغتيال، إلى إعادة أولئك

---

(18) IA، XII، 164 / 248. حبيب الله، أساس، 63، يخطىء إذ يعتبر دلهي «عاصمة مملكة معز الدين الهندية».

(19) IA، XII، 136 / 209 مقدّم عساكر الهند.

(20) SA، 28.

(21) TN، 1، 417 (تر. 521 ـ 525).

الحاصلين على إقطاعات من آيبك، والموجودين حالياً في جيش العاهل الراحل إلى الهند[22]. غير أن آيبك، على النقيض مما فعله يلدز في غزنة، حيث رفض الاعتراف بحقوق السلطان الغوري الجديد، حافظ على الخطبة باسم غياث الدِّين محمد، وصك نقوداً تحمل هذا الاسم، مما أدى إلى مكافأته سنة 605 هـ / 1208 ـ 1209م، بالمظلة الطقسية المعروفة باسم **(تشاتر)**، وبلقب السلطان كما زعم الزاعمون[23]. إن حسن نظامي يطلق عليه اسم السلطان، على الرغم من أن قطعاً نقدية تحمل اسمه متمتعاً بهذا اللقب، لم تصلنا قط[24].

نجح آيبك أيضاً، في ضمان الاعتراف بسلطته في البنغال، بعد تعرض محمد بن بختيار للاغتيال على يد ضابط من الخَلْج، يدعى علي مردان حوالى سنة 602 هـ / 1205ـ 1206 م. بادر أولاً إلى إرسال جيش من أوَذ، بقيادة قيمز رومي الذي تمكن من إلحاق الهزيمة بالحاكم الخَلْجي الجديد، محمد شيران وقتله، ثم قام بتنصيب خَلْجي آخر من معاوني محمد بن بختيار، يدعى حسام الدِّين عوض، حاكماً لديوكوت التي كانت، إحدى المدن الرئيسية الخاضعة للمسلمين. وفيما بعد، أنعم آيبك بعباءة شرف على علي مردان، الذي كان قد لاذ بلاهور، وأوفده شرقاً تابعاً له. ولدى وصوله إلى ديوكوت، جرى استقبال علي مردان من قبل عوض بخضوع، وما لبث علي هذا، أن ثبَّت أقدامه حاكماً، لمجمل المناطق الإسلامية كلها في البنغال[25]. وهكذا فإن آيبك، ظل خلال الجزء الأكبر من حكمه، ممثَّلاً في الشرق من قبل من عيّنه هو بالذات، وقد برز بوصفه الحاكم الأعلى في الهند الإسلامية.

---

(22) IA، XII، 140 / 214.

(23) TN، I، IA373.، XII، 165 / 249.

(24) Tāj، ملف 211 أ. ب. جاكسون، «قطب الدين آيباك» Enc.Isl².

(25) TN، I، 432 ـ 433 (تر. 572 ـ 576، 577 ـ 578). اسم قائد آيبك هو تو قيماز، «ذلك الذي لا يدير ظهره»: سوفاجيه، «أسماء و...»، رقم: 150. وعن ديوكوت في 25° 11 ن. 88° 31 إ. انظر هوديفالا، دراسات، I، 209، وII، 57.

تمثل أخطر منافسي آيبك، بتاج الدين يلدز، الذي اشتبك معه في الصراع على غزنة، مبادراً، بادئ ذي بدء، إلى حفز أحد ضباط يلدز، على احتلال المكان سنة 603 هـ / 1207م، وناجحاً شخصياً في احتلال غزنة، لفترة وجيزة بعد سنتين. يشير وصف الجوزجاني لهذا الصراع، على أنه متجذر في الخلاف حول لاهور، إذا ادّعى يلدز لنفسه، حق حكم المناطق الشرقية من دولة معزّ الدّين[26]. ويبدو أن التنافس بين الرجلين، هو الذي أبقى آيبك في لاهور خلال فترة حكمه، التي امتدت أربع سنوات، إما متأهباً لصد أي غزو قادم من البنجاب، أو متحيناً فرصة أخرى تمكّنه من احتلال غزنة. إن ندرة المؤشرات الدالة على وجود عمليات عسكرية، ضد دول هندوسية مستقلة خلال هذه الفترة، تشكل نقيضاً لافتاً للنظر، للحقبة التي كان فيها قائداً عسكرياً، تابعاً لمعزّ الدّين ويعمل باسمه[27].

حين قضى آيبك في حادثة لعب بولو (**تشاوغان**) سنة 607 هـ / 1210 ـ 1211م، تمت دعوة مملوكه إلتُتمش من بداؤون إلى دلهي، من قبل فريق في المدينة، تزعمه ضابط العسكر (**الأمير داد**) علي إسماعيل، فَنَصَّبَ المملوك نفسه حاكماً. ثمة قدر من الغموض يحيط بمنافسه آرام شاه، الذي يعتبره البعض ابناً لآيبك[28]. أمّا قيام إلتُتمش باغتصاب السلطة في دلهي، فقد كان رد فعله عنيفاً على ما يبدو. أمّا قائمة مؤيديه، فقد شملت بعض الأمراء المعزيين، أي ضباط معزّ الدِّين السابقين، الذين غادروا دلهي للالتحاق بمعارضي إلتُتمش الذي كان متمتعاً بالمقابل، بتأييد الأمراء القطبيين، خدم آيبك تحديداً. فَحسن نظامي الذي يتجاهل آرام شاه، ويعتبر الأمر كله مجرد انتفاضة، قامت بها ضد

(26) TN، I، 417 (تر. 526)؛ I، 412، 413 ـ 414، 417 (تر. 503، 506 ـ 508)، حول الصراع اللاحق على غزنة. وعن الحدث السابق، في 603 هـ / 1206 ـ 1207م، انظر IA، XII، 165 ـ 166 / 249 ـ 250. انظر، عموماً، جاكسون، «سقوط الأسرة الغورية الحاكمة».

(27) بَ. هالاي، «سلطنة دلهي»، Enc.Isl, III, 269a جاكسون، «قطب الدين آيبك».

(28) المصدر السابق.

ولي نعمته إلتُتْمش، جماعةٌ من الأتراك العصاة، يضع **الساري جاندار** بركي* على رأس الحركة. لقد تقدم أولئك من لاهور إلى دلهي، حيث التقى بهم إلتُتْمش، وهزمهم في موقعة باغ جود (جنة الملح). يقال إن آرام شاه قد «استُشهد»؛ غير أن أحداً لم ينبئنا عما إذا كان سقط في أثناء الاشتباك، أم جرى إعدامه بعد الأسر[29].

في البداية، لم يكن شمس الدين إلتُتْمش[30]، إلاّ واحداً من عدد من الحكام المسلمين في شبه القارة، فضلاً عن أن موقعه كان شديد الهشاشة، حتى بعد الإطاحة بآرام شاه. أمّا في القرن التالي، فقد جاء من يتذكر، أنه اضطر لانتزاع مملكته الجديدة، من براثن أمراء كانوا يتمتعون بإقطاعات في «هندوستان»، حصلوا عليها من معزّ الدّين[31]. فالجوزجاني يحدثنا عن حملات جرّدها إلتُتْمش، لإخضاع «الأقاليم البعيدة التي كانت تابعة لدلهي» (**أطراف ممالك مضافات حضرت دهلي**)، مشدِّداً على إبراز ذكر كل من بداؤون، وأوَدْ وبَنَارِس، وسِوالِك بصورة استثنائية. وفي مكان آخر من كلامه عن فتوحات إلتُتْمش، يلمّح بإيجاز إلى احتلال بَنَارِس، وهرب قيمز الذي ربما كان الضابط السابق، لدى آيبك الذي مر ذكره معنا[32].

لم يكن إلتُتْمش قادراً على امتلاك أي قدر من الولاء، في الأماكن الأكثر

(29) المصدر السابق، ا، 418، يورد عبارة **آرام شاهرا قضاي ـ ي آجال دار راصد فقط**؛ B1 مخطوطة، ملف 168 ب، **آرام شاهرا... شهيد كردند** (تر. رافيرتي 530 أيضاً). حركة «التمرد» موصوفة في NT، ا، 444 (وعن الترجمة «التي شوهمهارافيرتي، انظر ع. حبيب «تشكُل»، 9 وهـ: 50)، وفي Tāj مف 219 ب ـ 224 أ. دَرَج المؤلفون الحديثون على جعل اسم **سارا ـ ي جاندار** «تركيّاً»، غير أن المخطوطة تورد كلمتي ي ر ك ي وت ي ر ك ي. ربما كان الاسم ذا علاقة بـ تو. **بيرك**، «ثابت»، «راسخ»؛ كلاوسون، **قاموس...**، 361 ـ 362.

(30) قام سيمون ديغبي بتثبيت الصيغة الصحيحة لاسمه، «إلتُتمِش أم إلْتُتمِش؟ إعادة تدقيق اسم سلطان دلهي»، **إيران** 8 (1970م)، 57 ـ 64.

(31) TFS، 550.

(32) **فتوحات**: TN، ا، 444 ـ 445 (تر. 607 ـ 608). قيماز: ا، 452.

عمقاً من الساحة. فلدى ورود أنباء موت آيبك سارع عامله في البنغال، علي مردان إلى تولي منصب السيادة، متخذاً لنفسه لقب السلطان علاء الدِّين[33]. وفي السند بادر مملوك سابق لمعزّ الدِّين، متمتع بإقطاع أوتشش منذ سنة 601 هـ / 1204م، إلى إعلان استقلاله. وفي المُلتان بالسند، عمد مملوك يدعى ناصر الدين قوباتشا إلى وضع اليد على المدينة. كانت لاهور موضوع نزاع بين قوباتشا ويلدز[34]. تمكن إلتُتمش من تأمين موقعه في البداية، عبر الاعتراف بسيادة يلدز[34]، حاصلاً بالمقابل على رمزي السلطة الملكية، المتمثلين بتشاتر ودورباش أو صولجان احتفالي. فالنقش الأول الذي يأتي على ذكره في جمادي الأولى من سنة 608 هـ / تشرين الأول/ أكتوبر 1211م، لا يتحدث عنه بوصفه سلطاناً، بل كملك فقط إذ يقول «الملك المعظم»[35]. لا يسعنا إلاَّ أن نُصاب بالدهشة، مرة أخرى، إزاء الغياب النسبي للحملات ضد القوى الهندوسية. فخلال السنوات الست عشرة الأولى من حكمه، لم يعرف عن إلتُتمش أنه جرد إلاَّ حملة واحدة، وقد كانت ضد حاكم جالور التشاواني، وصفها حسن نظامي، ولكنها غير مؤرخة؛ ربما حدثت بُعَيْد إخماد محاولة آرام شاه، الرامية إلى السيطرة على دلهي. أمّا إرجاء أية عمليات كبيرة أخرى إلى حين شَنّ الهجمات على رنثانبور (623 هـ / 1226م)، وماندور (624 هـ / 1227م)، فقد كان يعود بوضوح إلى مشاغل ملحة، في أماكن أخرى.

جاءت فرصة إلتُتمش الأولى سنة 612 هـ / 1215 ـ 1216م، حين تمكن

---

(33) المصدر السابق، ا، 434 (تر. 578). م. نظام الدين، «قطعة نقدية بارزة لعلي ماردان خلجي ـ حاكم إسلامي وسيط للبنغال»، JNSI, 49 (1987م)، 50 ـ 55.

(34) TN، ا، 418، 419 (تر. 530، 532)؛ وعن يلدز في لاهور، انظر ا، 444 (تر. 607). يعود تاريخ تعيين قوباتشا والياً على أوتشش إلى تاريخ موت مُقْطَعها أيتَمُر، في معركة آن خود. اسمه مشتق من تو. قوبا «شاحب» «أصفر»: كلاوسون، قاموس. . .، 581.

(35) م. م. شعيب «نقوش من بالوال»، EIM (1911 ـ 1912)، 2 ـ 3؛ RCEA، X القاهرة، 1939م)، 72 ـ 73 (رقم: 3703). TN، ا، 444 (تر. 607).

الخوارزم شاه من طرد يلدز من غزنة، فلاذ الأخير بالبنجاب. وبعد انتزاع لاهور من قوباتشا اندفع إلى إقليم دلهي ساعياً إلى إثبات،أنه صاحب حقوق على تابعه إلتُتمش، رافعاً مطالب لا يمكن لأي حاكم سيد أن يتنازل، كما يقول حسن نظامي، إلى مستوى الرد عليها. وما لبث إلتُتمش أن لاقاه في الثالث من شوال 612 هـ / الخامس والعشرين من كانون الثاني / يناير 1216م، في ساحة قتال تارائين التاريخية القريبة من سامانا: تعرض يلدز للهزيمة، ووقع في الأسر وتم سجنه في بداؤون حيث أُعدم فيما بعد[36]. غير أن استئصال شأفة يلدز، لم يفض مباشرة، وإن وفّر الاستقلال لحاكم دلهي، عن أية زيادة ذات شأن في مساحة ولايته. كان قوباتشا، الذي باتت إمبراطوريته ممتدة من بحر العرب، ودلتا السند إلى ناندانا، وبيشاور في الشمال البعيد، قد أعاد احتلال لاهور. لقد نجح إلتُتمش في احتلال عاصمة آيبك القديمة، أواخر سنة 613 هـ / شتاء 1216 ـ 1217م، وقدمها هدية لنجله البكر ناصر الدِّين محمود؛ ولكنها ظلت [المدينة] تنتقل من يد إلى أخرىٰ منذ ذلك الحين، فيما بقي الحاكمان يتصارعان على امتلاك كل من تبرهند، وكهرام، وسارساتي في البنجاب الشرقي[37]. أمّا عدم افتقار قوباتشا إلى الأنصار في منطقة دلهي، فواضح من الكلام الدائر، عن بهاء الدِّين علي بن أحمد الجامجي في قاموس عوفي للأعلام، الذي يحمل عنوان **لُباب الألباب**. والجامجي هذا الذي كان إلتُتمش قد أمّره على بهراتش، ما لبث أن أعلن ولاءه لقوباتشا، وقام في 617 هـ / 1120م، بعرض ولائه، وبالتعبير عن استعداده للخضوع في رسالة بعث

---

(36) IA، XII، 203 / 311 ـ TN312 ، I، 413، 445 (تر. 505، 607). Tāj ملف 238 ب ـ 247 ب، مع التاريخ الدقيق.

(37) TN، I، 419، 444 (تر. 534، 607). Tāj ملف 253 أ ـ 259 ب، عن احتلال إلتُتمِش الأول للاهور. إلا أنها كانت بيد ابن قوباتشا لدى تقدم الخوارزميين، ناندانا: نسوي، **سيرة السلطان جلال الدين**، تحقيق أو. هوداس (باريس، 1891)، 86، وتر. ز. م. بونيياتوف، (إلى الروسية) (باكو، 1973م)، 131. بيشاور: TJG، I، 61 (تر. بويل، 328).

بها إلى أوتشش، ولدى الكتابة في تلك اللحظة، ما كان عوفي مطلعاً على العاقبة (مثلنا نحن للأسف)، على الرغم من أنه يعبر عن الأمل، في أن يتمكن سيده سريعاً، من الإمساك بزمام السيطرة على هندوستان كلها[38]. ويشير الحادث إلى أن قوباتشا، ربما كان يشكل تهديداً كبيراً لحاكم دلهي، عشية الاجتياح الخوارزمي.

ظلَّ آيبك وإلتتمش بوصفهما مغتصبين للسلطة، بحاجة إلى المشروعية، وقد حصلا عليها على أحد المستويات، من مدّاحيهما. فالمراجع الخاصة بتلك الحقبة، باستثناء مؤلفات ابن الأثير، خارجة من قلب الهند. وتبدأ أيضاً من الفترة التي أعقبت موت معزّ الدّين، فضلاً عن أن رواياتها، تكاد أن توحي بوجود نوع من الاستمرارية، بين السيدين الجديدين، والأسرة الحاكمة الغورية. وهكذا فإن فخر مدبّر ـ وقد كتب، كما يذكر القارئ، في بلاط آيبك بُعَيْد سنة 602 هـ / 1206م ـ يقدم آيبك متولياً شؤون الحكم في لاهور في تلك السنة، بفضل المرتبة التي يشغلها، نائباً لمعزّ الدّين (قائم مقام ولي عهد) في جميع الأقاليم الهندية الخاضعة لسيطرته[39]. أمّا الجوزجاني الذي ألف كتابه الذي يحمل عنوان، **طبقات ناصري** في دلهي بعد أن باتت السلطنة موجودة منذ خمسة عقود من الزمن، فقد سعى بوضوح إلى تزيين وتمويه صراعات إلتُتْمش مع القادة الغوريين السابقين الآخرين، وحاول تصويره مع أسرته الحاكمة، كما لو كان خَلَفاً حقيقياً ووريثاً شرعياً لمعزّ الدّين في الهند. وبالتالي فإن سلطان دلهي الحالي ناصر الدّين محمود شاه بن إلتُتْمش، يغدو في مقدمة فصله عن الغوريين، «وريث تلك السلطنة، والخَلَف المعين أصولاً (قائم مأمور) لتولي

(38) عوفي، **لباب الألباب**. تحقيق إ. ج. براون وم. م. قزويني (لايدن ولندن، 1903 ـ 1906م جزءان)، I، 115. خلاصة حياة جاماجي العملية في نظام الدين، مقدمة، مقدمة، 13 ـ 14، ليس صحيحة.

(39) SA، 28؛ قارن أيضاً 33، **في ولي عهد**.

شؤون المملكة»[40]. وحقيقة أن هذا ليس مجازاً كلامياً مجرداً تتضح مما يقوله الجوزجاني لاحقاً. لقد كان رد معزّ الدِّين على رجلٍ في البلاط عبَّر عن الحزن والأسى، لافتقار السلطان إلى ولد يرث ملكه على النحو التالي:

«لغيري من السلاطين ولد أو اثنان. أمّا أنا فعندي بضعة آلاف من الأبناء ـ من الغلمان الأتراك ـ الذين سيرثون مملكتي؛ فمن بعدي سوف يحافظون على الخُطْبة في إمبراطوريتي باسمي». وقد صَدَقَتْ نبوءة العاهل الغازي. فمنذ أيامه وحتى لحظة كتابة هذه السطور حرص (أولئك الغلمان)، وما يزالون، على الحفاظ على إمبراطورية هندوستان كلها. . .»[41].

وعلى الرغم من أن بعض المعلقين الحديثين، تبنوا هذا المنظور في رؤية الأحداث[42]، فإنه في حقيقة الأمر، مثير للشك وتفوح منه رائحة التسويغ الملفَّق لاحقاً؛ فمن يرث الآخر في الشريعة الإسلامية السيد للعبد، وليس العبد للسيد[43]. غير أن من الواضح، أن سيادة أوائل سلاطين دلهي كانت، بنظر بعض المثقفين المسلمين، بحاجة إلى مباركة معزّ الدِّين وتصديقه.

---

(40) TN، ا، 323 (تر. 310 معدل). بيتر هاردي، «القوة والعنف في كتابه التاريخ والحكم الهندي ـ الفارسي في جنوب آسيا العصر الوسيط»، في ملتون إسرائيل ون. ك. واغل (محررين)، **المجتمع والثقافة الإسلاميان. مقالات تكريماً لعزيز أحمد** (دلهي، 1983)، 180 ـ 181.

(41) TN، ا، 410 ـ 411 (تر. 497 ـ 498 معدل)؛ قارن ا، 415 (تر. 508 ـ 512)، حيث السلاطين المغزيون أي آيبك ويلدز ومعاصروهما يُعْتَبَرون ورثة السلطان الراحل وا، 393 (تر. 438)، حيث يقال إن معز الدين ائتمن يلدزاً على غزنه.

(42) عزيز أحمد، **التاريخ السياسي**، 99؛ انظر أيضاً 6، 84، 97، 118، 146، 149 (رغم أنه في 13 يكون مستعداً للنظر في احتمال كون ممتلكات معز الدين مغتصبة).

(43) باتريشيا كرون، **القانون الروماني والإقليمي والإسلامي** (كامبردج، 1987م)، 36 ـ 38. ب. ج. فوران، «علاقة المملوك والمولى بالسيد أو ولي النعمة في الإسلام الوسيط»، **أنترناشيونال جورنال أوف ميدل إيست ستديز** 2 (1971م)، 61.

الغزوات الخوارزمية والمغولية

في سنوات إلتُتْمش الأولى، لم يكن ثمة ما يضمن حماية الأقاليم الغورية السابقة، في السند والبنجاب من تقاسم مصير المناطق، الواقعة خلف الأندوس، فالذوبان في بوتقة الإمبراطورية الخوارزمية. ففي أعقاب استيلائه على غزنة، بادر الخوارزم شاه علاء الدِّين محمد، إلى استحداث إقطاعة واسعة، ممتدة إلى الأندوس لابنه جلال الدِّين مِنْغبارني. وذات مرة تمكنت قواته من انتزاع بيشاور من يد قوبتشا[44]. قد نجد لأي مراقب عابر عذراً، إذا ما افترض أن القادة العسكريين الغوريين السابقين، كانوا محكومين بالمثل بالتعرض للنسيان السياسي. فمن حُسْن حظ سلطنة دلهي الناشئة، كما من حسن حظ جملة القوى الأخرى، التي ورثت العباءة الغورية في شمال الهند، أن الخوارزميين حين ظهروا على المسرح السياسي في البنجاب، لم يكونوا غزاة فاتحين، مدعومين بموارد إمبراطورية آسيا الوسطى الواسعة، بل هاربين مشردين. وفي أوج قوّته تصادم الخوارزم شاه مع جيرانه الأقوياء الجبابرة، المغول تحت قيادة جنكيزخان، الذي تمخضت حملته الكبرى نحو الغرب، خلال الفترة الممتدة من 615 هـ / 1218م، إلى 622 هـ / 1225م، عن تدمير الكيان السياسي الخوارزمي، إضافة إلى تمزيق إيران الشرقية أشلاء. مات محمد حزناً وأسى على شاطئ بحر قزوين في 618 هـ / 1221م[45]. ويبدو أن أناساً دأبوا، في المراحل الأولى من الأزمة، على عرض الهند بوصفها ملاذاً آمناً للأسرة الحاكمة، ربما لأن حكامها لم يكونوا جديرين بالمقاومة، بنظر أولئك الناس[46]. وبالتالي فقد كان من دخل الهند، في أعقاب هزيمة ساحقة

---

(44) ب. جاكسون، «جلال الدين والمغول والفتح الخوارزمي للبنجاب والسند»، **إيران** 28 (1990م)، 48.

(45) بارتولد، **تركستان**، 393 ـ 439، 446 وبعدها. ج. آ. بويل، «التاريخ السياسي والعائلي للإيلخانيين»، في بويل (محرراً)، **تاريخ إيران ـ كامبردج**، V، 303 ـ 317.

(46) انظر، مثلاً، النصيحة التي تلقاها جلال الدين في الهند من أحد معاونيه، كما أوردها **نسوي**، 91 (تر. بونيياتوف، 136).

على يد جنكيزخان، على ضفاف الأندوس في رجب 618 هـ / تشرين الثاني نوفمبر 1221م، واحترف الغزو الذي كان سيدوم حوالى ثلاث سنوات في شمال الهند، هو ابن الشاه وخليفته الفعلي، جلال الدين.

مما يدعو للأسف أن الجوزجاني، لا يكاد يقول شيئاً ذا بال عن الغزو الخوارزمي للبنجاب، ربما لأن الحدث لم يعكس أي فضل لإلتُتمش، الذي أخفق في التعاون مع أخٍ مسلم، ضد المغول الوثنيين. وكذلك فإن منابع معلومات ابن الأثير عن الهند، تتعرض فجأة للجفاف بعد سقوط يلدز. أما حياة المنفى، التي يعيشها جلال الدِّين في البنجاب والسند، فيتم تجاوزها بسطرين اثنين فقط؛ فيبقى الرجل غائباً عن الأنظار، إلى أن يخرج من قلب صحراء مكران سنة 620 هـ / 1223 م[48]. وبالتالي فنحن محظوظون لأن كلاً من النَّسَوي، كاتب سيرة حياة الأمير في 639 هـ / 1242م، والكاتب اللاحق الجويني، الذي يعود تاريخه عن المغول إلى حوالى سنة 658 هـ / 1260م، يقدمان فَيْضاً (وإن كان متناقضاً أحياناً) من التفاصيل، التي تمكّننا من إعادة هيكلة الأحداث، وتركيبها بصورة تجريبية ومؤقتة[49]. ما لبث جلال الدين، أن حصل على الدعم من المهاجرين الجدد القادمين من إيران، فبادر إلى شن الحرب ضد قوباتشا، الذي تعرض للهزيمة في مكان قريب من أوتشش، وأُجبر على أن يصبح تابعاً للخوارزميين؛ أمّا ابنه الذي كان قد ثار عليه في لاهور، فقد أذعن بالمثل وأصبح مولى لجلال الدين هناك. وفيما بعد أقدم جلال الدِّين، حين رفض قوباتشا مساعدته ضد المغول الذين كانوا يطاردونه، على نهب وإتلاف منطقة أوتشش، قبل التوغل جنوباً إلى مناطق الوادي الأسفل للأندوس، حيث حصل على ولاء سيويستان (سهوان الحالية)، واحتل الدَيْبُل، وأطلق حملة سلب ونهب، باتجاه

---

(47) TJG، II، 106 (تر. بويل، 376)IA48، XII، 276 / 425 ـ 426.

(49) عما يتبع، انظر جاكسون، «جلال الدين»، حيث يناقش أيضاً المصادر، بما فيها قطعة كبيرة مجهولة المؤلف (نادراً ما استعملت قبل الآن)، مخطوطة بودليان، ث. هايد 31. سيرة حياة موجزة لجلال الدين في ج. آ. بويل، «جلال الدين خوارزم شاه». Enc. Isl^2.

نهروالا في گوجرات. وعند هذا المنعطف، وردَتْه تقارير تتحدث عن أن رعايا أخيه الباقي على قيد الحياة في إيران، كانوا ينتظرون عودته بشوق كبير، فاختار أن يعود إلى إيران الغربية، عبر صحراء مكران أواخر سنة 620 هـ/ 1223م، حالماً بإعادة بناء إمبراطورية والده. غير أنه ما لبث أن قُتل في أذربيجان، لدى فراره مرة أخرى من المغول سنة 628 هـ/ 1231 م.

تحتَّم انجرار سلطان دلهي، إلى غمرة الصراعات الدائرة بين جيرانه، وبين الخوارزميين. فحين وصل جلال الدِّين، في إحدى المراحل، إلى مسافة بضعة أيام عن دلهي، طالباً ملجأ وعارضاً تحالفاً ضد المغول، أَقْدَم إلْتُتْمش - حرصاً منه بطبيعة الحال، على عدم تعريض استقلاله الحديث للخطر، عن طريق تمكين الخوارزم شاه، من تثبيت أقدامه في مكان قريب - على الإيعاز بقتل المبعوث، وعلى تقديم إجابة مراوغة. وبعد ذلك قام إلْتُتْمش بإرسال قوات، لمساعدة قوباتشا قبل معركة أوتشش، وما لبث، لاحقاً، أن تحرك ضد جلال الدِّين شخصياً: وفي تلك الأثناء، تصادمت طلائع القوات من الطرفين، غير أن السلطانين تبادلا الرسائل الودية، وانسحبا من المعركة. يبقى سؤال ما إذا كان إلْتُتْمش على الأقل جاداً مدعاةً للشك. ولعل أحد الأسباب الكامنة وراء رحيل الخوارزم شاه عن الهند، برأي النسوي، كان متمثلاً بالأنباء التي تحدثت عن أن تحالفاً ضده كان قد تشكل من كل من إلْتُتْمش، وقوباتشا مع عدد من الزعماء الهندوس (من **الرايات والتاككيرات**)، الذين كانوا قد نجحوا في احتلال ضفاف نهر جاجنير، (ربما نهر سوتلج) من أجل قطع طريق الانسحاب عليه.

أما المغول الذين طاردوا الخوارزم شاه إلى داخل الهند، فلا يبدو أنهم قاموا باجتياح أراضي إلْتُتْمش(50). فجنكيزخان، الذي راودته فكرة العودة إلى

(50) العمليات المغولية في الهند بين سنتي 618 - 621 هـ/ 1222 - 1224م يستعرضها جاكسون في «جلال الدين»، 47 - 48، 50؛ انظر أيضاً بول باتشنيفسكي، **جنكيزخان: حياته وتراثه**، تر. ت. ن. =

منغوليا عبر طريق أكثر مباشرة، ماراً بسفوح الهيمالايا، أوفد مبعوثين إلى السلطان، راجياً الإذن بعبور المناطق الخاضعة له. لا نعلم شيئاً عن مصير هذه البعثة ـ لأن جنكيزخان تخلى ببساطة، عن خطته في مواجهة النُّذُر غير المبشرة بالخير. غير أن الجويني يزعم، أن جنكيزخان قطع عدداً غير قليل من الأشواط، قبل أن يقرر العودة القهقهرى، لأن السبل كانت مقطوعة، وعندئذ فقط انسحب عبر بيشاور[51]. قام قائده دوربي، بنهب ناندانا التي كانت تحت حكم أحد معاوني جلال الدِّين، ثم بادر في شتاء 621 هـ / 1224م، إلى فرض الحصار على مُلْتان، التي قاد فيها قوباتشا نفسه مقاومة عنيفة. غير أن هذا الأخير ما لبث، بعد جهد دام، برأي الجوزجاني، أربعين يوماً (أو ثلاثة أشهر إذا قبلنا بشهادة مرجع آخر)، أن تخلى عن المحاولة، نظراً لحلول فصل الأجواء الحارة. أمّا جحافل المغول، فقد نهبت وخرّبت إقليمي مُلْتان، ولاهور في أثناء انسحابها. وكان لا بد من انقضاء ما لا يقل عن عقدين من الزمن، قبل أن تتمكن هذه الجحافل من دخول سلطنة دلهي.

لم يكن رحيل جلال الدين عن الهند، ليعني نهاية الاحتلال الخوارزمي. فمعاونه جاهان بهلوان أوزبَغ ـ بك بات مفوضاً بفتوحات الخوارزم شاه الهندية، في حين تم منح تلك الأجزاء، التي لم تتعرض بعد للنهب من قبل المغول من مدينتي غور، وغزنة لسيف الدين حسن قرلق، الملقب بوفا مِلك[52]. غير أن النفوذ الخوارزمي، المتبقي في المناطق الواقعة إلى الغرب من الإندوس، بدأ يتداعى ويتلاشى، لأن الضغوط المغولية بقيت مستمرة، بفعل القوات التي

= هاينينغ (أوكسفورد، 1991م)، 134. عن اسم الجنرال («تورتي» عند رافيرتي)، انظر ج. آ. بويل، «القادة المغول في أفغانستان والهند وفقاً لكتاب طبقات ـ ي ناصر ـ ي للجوزجاني، IS 2 (1963م)، 238 ـ 239.

(51) TN، II، 126 ـ 127، 146 (تر. 1045 ـ 1047، 1081 ـ 1084). TJG، I، 109 ـ 110 (تر. بويل، 137 ـ 139).

(52) نسوي، 92 (تر. بونيياتوف، 136). سيفي، تاريخ ـ نامه ـ ي هرات (حوالى 1322م)، تحقيق م. ز. الصديقي (كالكوتا، 1944)، 198، يقول إن حكم «ملك وفاء» كان مذكوراً لاحقاً في منطقة ماستونغ.

تركها جنكيزخان وراءه. ويبدو أن غور، ما لبثت أن سقطت أخيراً في 623 هـ / 1226م، وفي السنة نفسها اضطر قوباتشا لصد عصابة من عشائر الخَلْج، التي كانت في خدمة الخوارزم شاه من قبْل، والتي تمركزت في السند الأسفل ـ ربما تحت القيادة الاسمية لحسن قرلُق[53].

قيام إلتُتْمش باجتياح الهند الإسلامية

تشير الاحتمالات كلها، إلى أن إمبراطورية قوباتشا في وادي الأندوس، كانت قد تعرضت لقدر خطير من الضعف قبل هذا التدخل الغازي، لأنها كانت قد حملت أعباء كل من هجمات جلال الدِّين من جهة، وأعمال المغول التخريبية المدمرة من جهة ثانية. ومع ذلك فإنها كانت، هذه المرة، مرشَّحةً لتلقي ضربة الرحمة القاضية، الآتية لا من الزاوية الشمالية ـ الغربية بل من دلهي. فكل من حسن نظامي، متحدثاً في سياق حملة قوات دلهي ضد لاهور في 613 هـ / 1216 ـ 1217م، وعوفي، عارضاً عملية الإطاحة بقوباتشا بعد اثني عشر سنة، يلمّحان إلى جملة من «الضمانات» و«الوعود» و«المعاهدات»، التي أهملها قوباتشا مستخفاً بها[54]. وهذا يوحي، بأن التحالف مع إلتُتمش كان له ثمنه. من الممكن أن يكون قوباتشا، سعياً منه لتأمين المساعدة من دلهي ضد الخوارزميين ـ وربما ضد يلدز أيضاً في تاريخ سابق ـ إمّا قد ألمح إلى نوع من الاعتراف بسيادة إلتُتْمش، أو قطع وعداً بالتخلي عن بعض الأراضي لصالح دلهي، وأن يكون إخفاقه في الوفاء بالتزاماته، قد شكل سبباً للحرب. ومن المحتمل كثيراً، أن يكون هناك نوع من الارتباط مع حَمْلة تشنها قوات إلتُتْمش، يشير إليها الجوزجاني إشارة غامضة، قبل بضع سنوات من الاجتياح النهائي للسند، وتتمخض، على ما

(53) TN، I، 420 (تر. 539 ـ 541).

(54) Tāj، ملف 251 ب. JH، I، 10 وBL مخطوطة، تسلسل 2676، ملف 232 أ.

يبدو، عن أسر قوباتشا واحتلال مقاطعة غانجروت (أو وانجروت) في إقليم مُلْتان[55].

ومهما يكن من أمر، فإن قوباتشا كان أخيراً، مع حلول سنة 625 هـ / 1228م، قد فقد المقاطعات المتنازع عليها، مثل تبرهند وكوهرام وسارساتي، التي كانت في ذلك الوقت بأيدي ضباط عينهم خَصْمُه. وكذلك فإن لاهور كانت قد خرجت من يده، لأن مُقْطَع إلتُتْمش هناك، ناصر الدِّين أيتمُر البهائي، كان الآن متولياً قيادة عملية استسلام مُلْتان[56]. ثمة جيش آخر ما لبث أن ظهر أمام أوتشش، حيث سرعان ما التحق به إلتُتْمش شخصياً: غير أن المدينة استسلمت أواخر جمادى الأولى 625 هـ أيار / مايو 1228 م. وفي هذه الأثناء لاذ قوباتشا بالفرار، إلى جزيرة بهكّر الحصينة، مطارداً من قبل قوة يقودها وزير إلتُتْمش، نظام الملك جنيدي، ثم بادر ليلة التاسع عشر من جمادي الثانية / السادس والعشرين من أيار / مايو، إلى إلقاء نفسه في الإندوس، لكي لا يقع حياً في الأسر. أمّا من الدَيبُل فقد تلقى إلتُتْمش، ولاء أميرها تشانيسر مما أدى إلى الاعتراف بسيادته وصولاً إلى بحر العرب[57].

---

(55) TN، II، 4 (تر. 723). مع العام المستحيل 628 هـ ـ ربما خطأ بدلاً من 816 أو 823، نظراً لتشابه **ثمان وثلاث** بالكتابة العربية. ترد في النص المطبوع عبارة ون ج ر وت، واعتبر رافيرتي المكان هو بجنوت (فيجنوت)، على أطراف صحراء بيكانر وبعيداً جنوباً عن أوتشتش؛ غير أن مخطوطة BL، ملف 197 أ، ومخطوطة IOL 3745، ملف 268 ب، توردان ك ن ج روت. غانجروت مذكورة في القرن الرابع عشر كبلدة (قَصَبة) في إقليم مُلْتان: IM، 77، 93. وعن إشارة موجزة إلى هزيمة قوباتشا وأسْرِه (وبالتالي ليس، بوضوح، حملة 625 هـ / 1228م)، انظر TN، I، 452 ومخطوطة BL ملف 180 أ. ووفقاً لإشارة تنطوي دون شك على نوع من المفارقة التاريخية من جانب نسوي، 90 (تر. 134)، فإن سنان الدين تشانيسار، حاكم دايبل السومري، كان تابعاً لإلتُتمِش لدى تعرضها للاحتلال من قبل قوات جلال الدين؛ وعن اسمه انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 214 ـ 215.

(56) TN، I، 446، وII، 4، 7، 9 (تر. 613، 723، 728، 731). وعن أيتَمُر قارن تهجئة ي تم ر في JH، I، 13؛ أيضاً ص: 27، هـ: 16 من هذا الكتاب.

(57) عن الهجوم على قوباتشا، انظر حبيب الله، **أسس**، 95 ـ 96. وسنة 624 هـ لدى الجوزجاني تاريخاً لهذه الأحداث ليس إلاّ 625 هـ، كما هو واضح من النص ومن JH: انظر هو ديڤالا، **دراسات**، I، 205 ـ Tāj206. (في ED، II، 242)، الذي يضعها في 624 هـ، مخطئ بالتالي. وشهد الجوزجاني =

تمخض اجتياح السند وفتحه عن إطلاق يد إلْتُتمش، ليصبح قادراً على التحرك بحرِّيَّة، ضد ورثة جلال الدِّين في الجهات الشمالية الغربية من البلاد. ففي سنة 627 هـ / 1229 ـ 1230م، انقضَّت قوات دلهي على أوزبغ ـ بك، الذي فر إلى سيده في العراق، مما أدى إلى استسلام حسن قرلُق، بين مجموعة من القادة المحليين الآخرين، للسلطان[58]. إن مساحة المناطق التي كانت خاضعة لهؤلاء القادة، ليست معروفةً بدقة. غير أن الأدلة النمّية (المسكوكات) تشير إلى أن أوزبغ ـ بك، حكم لبعض الوقت في بنبان التي خَلَفَه عليها قرلُق. ومن المؤكد أن أمارته كانت أيضاً، تضم كلاً من ناندانا وكوجاه (گوجرات)، وسودرا وسيالكوت، الواقعة جميعاً في البقعة التي عُرفت على أنها، كانت مسرحاً لعمليات جلال الدِّين، والتي أوردها الجوزجاني في قائمة فتوحات إلْتُتمش[59]. وفيما بعد نجد قرلُق حاكماً في غرنة وبنبان وكُرّمان. فالنسوي يتحدث عن سلطان دلهي، عشية انقضاضه على أوزبغ ـ بك، بوصفه سيداً للمنطقة «الممتدة حتى مشارف بوابات كشمير»[60]، موحياً بأن الحدود كانت واصلة إلى الجهيلام. أمّا حملة إلْتُتمش الفاشلة الأخيرة، التي عاد منها محتضراً في 633 هـ / 1235 ـ 1236م، فقد كانت موجهة إلى بنبان، وربما كانت، حسب أقوى الاحتمالات، هادفة إلى خلع قرلُق الذي كان مؤخراً قد والى المغول[61].

= لسقوط أوتشش يتأرجح بين جمادى الأولى وجمادى الثانية، غير أنني اعتمدت تاريخ 27 جمادى الأولى / الرابع من أيار / مايو 1228م، لأن إلْتُتمِش وصل إلى مشارف المدينة في الأول من ربيع الأول ودام الحصار شهرين و27 يوماً: TN، ا، 420، 446 (تر. 544، 612)؛ JH، ا، 10. عوفي، المصدر نفسه، 10 ـ 22، يقدم رواية أكثر تفصيلاً لقصة الحملة. عن تشانيسات انظر هـ. 55 أعلاه.

(58) نسوي، 92، 217 (تر. 136، 267). وعما يتبع، انظر جاكسون. «جلال الدين»، 51.

(59) TN، ا، 452، تصحيحاً عن مخطوطة BL، ملف 180 أ (ك وج ر ا ت)، ومخطوطة IOL، ملف 243 أ (ك ج ر ا ت). بالطبع لم يدم الاحتلال المغولي لناندانا طويلاً.

(60) نسوي، 217، **إلى ما يلي درب كشمير** (تر. 267).

(61) TN، ا، 449 (تر. 623؛ وقارن أيضاً ا، 454 ـ 455 (تر. 631). وعن حكم حسن قرلق في =

على الرغم من أن إلتُتمش، بدا شديد الاهتمام بالتخوم الغربية، فإنه لم ينس البنغال. فالحكم المتعطش للدماء لعلي مردان، الذي ظهرت عليه علامات جنون متزايدة، انتهى باغتياله حوالى سنة 609 هـ / 1212 ـ 1213 م. وما لبث خلفه الأكثر اتصافاً بالصفات الإنسانية، حسام الدِّين عوض، الذي اتخذ لنفسه لقب السلطان غياث الدين، أن خسر بيهار أمام قوات دلهي[62]. ثمة قدر من الالتباس حول تاريخ الكيان السياسي اللخناوتي في تلك السنوات، لأننا من سنة 616 هـ / 1219م فصاعداً نجدنا مع سلطان يحمل اسم معزّ الدِّين علي عوض، الذي كان، كما هو واضح، ابن غياث الدين، والذي كان يحكم إمّا بالاشتراك مع أبيه، أو خلفاً له[63]. ومن المؤسف أن الجوزجاني، الذي لم يدخل الهند، على أية حال، إلاّ بعد بضع سنوات، ولا يصح بالتالي اعتباره شاهداً معاصراً، لا يأتي على ذكره. وحسب رأي ذلك المؤلف، فإن غياث الدين هو الذي جنّب البنغال سنة 622 هـ / 1225م، هجوماً بقيادة إلتُتمش شخصياً، بعرض استعداده لتقديم الخراج والاعتراف بالتبعية. غير أنه ما لبث أن تنكر للاتفاقية، وعاد إلى احتلال بيهار مرة أخرى. وعلى الأثر تقدم ابن إلتُتمش البكر ووريثه، ناصر الدِّين محمود، الذي سبق له أن كان حاكماً للاهور، كما مر معنا، والذي كان صاحب إقطاع أوَذ، على رأس جيش إلى قلب البنغال. وقد تمكن،

= غزنة وخزّمان وبينبان انظر المصدر نفسه II، 162 (تر. 1128 ـ 1129)؛ إ. هـ. صديقي، مملكة القرلغ في شمال ـ غرب الهند خلال القرن الثالث عشر، IC 54 (1980م)، 75 ـ 91.

(62) TN، I، 434 ـ 435، 437 ـ 438 (تر. 578 ـ 580، 590 ـ 591).

(63) منقوشة سنسكريتي، فيكراما سامفات 1277، جاياستابا. 15، الخميس (13 حزيران / يونيو 1219م) من منطقة الغايا في بيهار، تشير إلى سلطان يحمل اسم «حوجادينا»: ARIE (1962 ـ 1963م) 24، 80 (رقم: 261). وعن منقوشة لعلي شيري عواد مؤرخة في 618 هـ / 1221م، انظر ز. آ. ديساي، «منقوشة تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر من البنغال الغربي»، EIAPS (1975م)، 6 ـ 12. من الواضح أنهما يشيران إلى الشخص نفسه لأن هناك قطعاً نقدية عائدة إلى سنة 620 ـ 621 هـ / 1223 ـ 1224م باسم معز الدين علي ـ ي عواد: CCIM، II، 145 ـ 146 (أرقام: 3، 5). نيكولاس ولوويك «نمط الفارس البنغالي ومسألة القضايا التذكارية» JNSI 35 (1973م)، 205 ـ 208، جادل، هو على صواب، دفاعاً عن اسم علي هنا، رغم أنه افترض، خطأ، أنه كان يمثل «علي ـ ي ماردان».

بالإفادة من غياب عوض، الذي كان في غزوة نهب في كامروب (أسّام)، سنة 624 هـ / 1227م، من احتلال لخناوتي، ومن إلحاق الهزيمة بعوض، الذي عاد من الغزو، وإعدامه. بادر إلتُتْمش إلى إرسال رايةً وعلامةً (تشتر) لابنه، الذي تصرف كنائب للسلطان، خلال فترة امتدت أقل من سنتين، إذ توفي في الأشهر الأولى من سنة 626 هـ / شتاء سنة 1228 ـ 1229 م. وبعد ذلك قام اختيار الدِّين دولت شاه، المعروف أيضاً باسم بِلْغَى مَلِك، الذي كان على ما يبدو، ضابطاً سابقاً في جيش سلطان دلهي، باغتصاب السلطة في الإقليم، إلى أن بادر إلتُتْمش إلى غزو البنغال، والإطاحة به في 628 هـ / 1230 ـ 1231 م[64]. وعلى امتداد ما لا يقل عن السنوات الاثنتي عشرة التالية، كانت تلك الأقاليم البنغالية الخاضعة للمسلمين ستبقى تابعةً لدلهي.

مع إعادة احتلال لخناوتي، أصبح سلطان دلهي، الحاكم الإسلامي الوحيد في الهند. فقد مكنته فتوحاته، من إصدار قطع نقدية جديدة، مستندة إلى **التنغا** المصكوكة من الفضة الخالصة، التي ما لبثت مع مرور الزمن، أن حلت محل **الدهليوالات**، الشبيهة بالقطع النقدية البلّونية، التي درج حكام الهندوس في دلهي على صكها فيما مضى[65]. أضف إلى ذلك أنه كان، قد حقق هدفاً، لا يضاهيه هدف آخر من حيث الأهمية، بالنسبة إلى أكثر الحكام المسلمين، ألا وهو اعتراف الخليفة العباسي في بغداد. من المسلَّم به الآن أن إلتُتْمش، كان الحاكم المسلم الهندي الوحيد الذي حظي بالاعتراف، وأن

---

(64) على قطعه النقدية يدعىٰ علاء الدنيا والدين دولت شاه بن مودود: CMSD، 21 (هـ: 53 آ). ومخطوطة برلين لـ TN، ملف 99 ب، تؤكد أن دولت شاه وبِلْغَى ملك كانا شخصاً واحداً. لعل الإشارة الأوفى إلى حملة 628 هـ / 1230 ـ 1231 هي في JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 260. وعن أحداث البنغال، انظر حبيب الله، **أساس**، 97 ـ 100، الذي لم يكن، على أية حال، مطلعاً على البينات الواردة في الهامش السابق.

(65) سيمون ديغبي، «نظام النقد»، في ت. رايتشاودهوري وع. حبيب (محررين) **تاريخ الهند الاقتصادي، كامبردج**، ا (كامبردج، 1982م)، 95 ـ 96؛ ديل، **العيش بدون فضة**، 179 ـ 180، 199 ـ 203، 213 ـ 219.

الألقاب التي كان حكام لخناوتي يحملونها، اعتُمدت من جانب واحد؛ وبالفعل فإن اختيار عوض للقب **ناصر أمير المؤمنين** ربما كان أحد الأسباب، التي دفعت إلتُتْمش إلى اتخاذ اللقب نفسه لقباً له[66]. وعلى الرغم من الغموض، الذي يلف هوية ذلك الذي أطلق المفاوضات بين دلهي وبغداد، والمنعطف الذي تمت فيه، فإن المعلومات المتوافرة لدينا تشير بأن الخليفة ربما كان هو المبادر. سبق لنا أن رأينا كيف حاول الناصر، أن يوغر صدور السلاطين الغوريين على عدوه الخوارزم شاه؛ وبعد حوالى اثنين من العقود، ربما بدا إلتُتْمش، بين آخرين، خليقاً بالرعاية، كمنافس محتمل على الجناح الجنوبي للخوارزم شاه.

فيما يخص اللمحات، التي تلقي الضوء على الاتصالات الدبلوماسية الأولى مع «ملك الهند»، نحن مدينون للمؤرخين العرب، الذين كانوا يكتبون في الغرب. بادر الخليفة في 617 هـ / 1220 ـ 1221م، إلى إيفاد الشيخ رضي الدين أبي الفضائل، الحسن بن محمد الصغاني (المتوفى سنة 650 هـ / 1252 ـ 1253م)، الذي لم يعد إلى بغداد حتى سنة 624 هـ / 1227م، خلال فترة حكم المستنصر ابن الناصر (623 هـ / 1226م ـ 640 هـ 1242م)، سفيراً له. وما لبث الخليفة الجديد أن أعاده إلى دلهي، وهذه البعثة الثانية، التي يحدثنا عنها الجوزجاني، الذي يشير في استعراضه الموجز للعباسيين، إلى إرسال **(عهد)** تفويض وراية **(لواء)** إلى إلتُتْمش في 625 هـ / 1228م، نفس السنة التي شهدت وصوله إلى البلاط، ويقول إنه حضر الوليمة الاحتفالية. وفي مكان آخر يقدم وصفاً أشمل للسفارة، التي وصلت في ربيع أول 626 هـ شباط / فبراير 1229م، جالبة لإلتُتْمش خلعة تشريف، وعهد يؤكد سلطانه على المناطق التي كان قد

(66) آ. هـ. داني، «هل حصل غياث الدين عواد خلجي البنغالي على أي اعتراف من الخليفة؟»، JPHS 3 (1955م)، 105 ـ 117؛ روما نيوغي، «قطعة نقدية نادرة من البنغال واستعراض لحياة عواد العملية» JNSI 40 (1978 ـ 1979م)، 42 ـ 52.

فتحها[67]. وكذلك فإن المستنصر أنعم على السلطان ـ كما يتعين علينا أن نفترض ـ بلقبي **يمين خليفة الله وناصر أمير المؤمنين**، اللذين دأب عدد من الكتاب على توظيفهما في تبجيله وإعلاء شأنه[68]. وبالنسبة إلى عوفي فقد كان صار **خليفة أمير المؤمنين**[69]. وهكذا فإن المغتصب إلْتُتْمش كان قد نال شرفاً، كما لو كان ابن أسرة أمير مسلم ملتزم، تمتع حكمه بأسمى آيات التقديس والمباركة الممكنة. أما أنه لم يكن أقل من الغوريين تعطشاً لمثل هذه الألقاب الشرفية، فيتضح من اعتماده سنة 630 هـ / 1233م، في أعقاب احتلال غواليور، **للنوبة الخماسية**، التي هي إحدى أمارات السلطة السيادية الكاملة[70].

أسباب انتصار إلْتُتْمش

أوصلَنا مسحُنا للأحداث، إلى منعطف نجحت فيه سلطنة دلهي في احتضان، مساحة أوسع من أي وقت مضى، قبل العقد الأخير من القرن الثالث عشر. لم يكن ثمة أي شيء محتوم في العملية. فالجزء الأكبر منها لم يكن إلاَّ نتاج ظروف ملائمة وسعيدة غير خاضعة لتحكم إلْتُتْمش. لم يكن بقاء السلطنة على قيد الحياة، مضموناً بأي حالٍ من الأحوال. فلولا العاهل المغولي لتعرضت دلهي والسند، والبنجاب للابتلاع من قبل إمبراطورية الخوارزم شاه

(67) TN، I، 129، 447، 454 (تر. 616، 629). Tāj، في ED، II، JH243.، مخطوطة BL مسلسل 4392، ملف 128 أ. عن دور صغاني الذي لا يرد له ذكر في المراجع الهندية، انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق هـ. ريتّر وآخرين (دمشق، 1931م ـ)، XII، 241؛ **الحوادث الجامعة** (أوائل القرن الرابع عشر، منسوب خطأ لابن الفُوَطي)، تحقيق مصطفى جواد (بغداد 1932م) 262.

(68) TN، I، 440، 450 (تر. 597، 624). Tāj، ملف 217 ب، JH، I، 5. جاجَرْمي، مقدمة ترجمته لكتاب الغزالي: **إحياء علوم الدين**، مخطوطة BL، مسلسل 8194، ملف 3 أ (حيث معين بدلاً من **يمين**). ترجمة لم يُعْرَف صاحبها **سر المختومة** للرازي، مخطوطة BN، ملحق فارسي 384، ملف 2 أ.

(69) JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 68 أ، 247 ب.

(70) TN، I، 449 (تر. 620 ـ 621). مما يلفت النظر أن السلطان الغوري غياث الدين محمد بن سام كان بالمثل قد اعتمد نوبة خماسية بعد وصول خِلَع الشرف من الخليفة: المصدر نفسه، I، 361 (تر. 383). وعن النوبة انظر هوديفالا، **دراسات**، I، 216 ـ 217.

محمد. وحين قام جنكيزخان بتدمير تلك الإمبراطورية فقد ساهم، دون قصد منه، في ضمان سير الهند المسلمة في طريقها الخاصة. ولعل إلتُتْمش، حين اعتبر إمارته حاملة لواء الإسلام الوحيدة في شبه القارة، كان يتبع سياسة مدروسة. وسامحاً لجيرانه، بإضعاف بعضهم بعضاً ومتدخلاً ـ كما فعل في دعمه لقوباتشا ضد جلال الدِّين ـ عند الضرورة القصوى فقط، استطاع، آخر المطاف، أن يستأصل جميع أولئك المنافسين واحداً بعد الآخر.

من الطبيعي أن هذا لا ينبئنا، عما مكّن إلتُتْمش من إلحاق الهزيمة بمنافسيه المختلفين. لا يمكن للأمر إلاّ أن يكون تجريبياً، ولا بد من إسناده، في جانب كبير منه، إلى جملة التطورات الجارية على الجبهة الغربية للسلطنة، حيث المعلومات المتوفرة لدينا، أشمل من تلك المتعلقة بالبنغال، وإن لم تكن كثيرة. ففي سنة 612 هـ / 1215م، إذا صدقنا كلام ابن الأثير، كان قوباتشا قد تصدى لجيش يلدز الغازي، بخمسة عشر ألف رجل؛ كما كان في وقوفه في وجه جلال الدين بعد سبع سنوات، قد جند قوة لا تزيد بالتأكيد عن عشرين ألفاً، بل وقد تكون نصف ذلك العدد(71). إن هذه الأرقام تتناقض تناقضاً حاداً، مع الرقم (المبالغ فيه دون شك)، مئةً وثلاثين ألفاً، لوصف الجيش الذي قيل إن إلتُتْمش، جهَّزه لحملته الخاصة ضد الخوارزميين(72). تبقى مثل هذه الإحصائيات، مؤشرات مضلِّلة، للدلالة على حجم الجيوش القروسطية، وربما كانت غير صالحة للاستعمال في التحليل الأخير. ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نُسْقِط من حسابنا، إمكانية أن حاكم دلهي، كان على رأس مؤسسة عسكرية أكبر بكثير من نظيرتها لدى جاره ومنافسه، الذي كان قد اضطر لإنفاق مبالغ

---

(71) IA، XII، 203 / 311، عن المعركة مع يلدز. نسوي، 88 (تر. 133)، عن الخوارزميين؛ مع 10,000؛ TJG، II، 146 (تر. بويل 414)، يرد رقم 20,000 غير أن هذا ربما يشمل التعزيزات التي أرسلها إلتتمِش.

(72) نسوي، 90 (تر. 134): 30,000 فارس و100,000 مشاة.

ذات شأن من خزينته، في أثناء الحصار المغولي لمُلْتان[73]. ليس مصادفة أن يكون إلتُتمش، قد سعى إلى إخضاع قوباتشا في أعقاب، ثلاث حملات ناجحة جداً مباشرة: هي الحملة ضد عوض في البنغال سنة 622 هـ / 1225م، التي تمخضت عن المبلغ الكبير المتمثل بثمانين **لاكاً** (ثمانية ملايين) من **الدراهم** (ربما الفضية على شكل خراج)[74]، وحملات سنتي 623 و624 هـ / 1226 و1227م التي أفضت، إلى الاستيلاء على قلعتي رانتانبور وماندور الهندوسيتين. ومن المؤكد أن من شأن المكافأة، التي حصل عليها إلتُتمش جراء مثل هذه الانتصارات، أن تكون قد ضاعفت من قدرته على تجنيد جيوش أقوى وأكبر.

أما عن حقيقة توافر منبع جاهز، للدعم العسكري في متناول يد الحاكم، الذي تمكّنه مصادره من دفع الثمن المطلوب، فليس ثمة إلاّ القليل من الشك. فقد سبق لنا أن رأينا قبل الآن، في حقبة معز الدِّين، أن جنوداً مرتزقة ومغامرين مثل محمد بن بختيار، عرضوا خدماتهم لمن يدفع أكثر، ثم أطلقوا مبادرات تخصهم. وعلى الرغم من أن فخر مدبّر يبالغ، دون شك، بمدى الازدهار المادي الذي كان ينتظر أولئك، الذين يهاجرون إلى الهند المسلمة[75]، فإن من المحتمل أن المنطقة، كانت قد بدأت تبدو مثل إلدورادو (وادي الذهب). أمّا اقتحام المغول للأقاليم الإسلامية الشرقية بعد سنة 617 هـ / 1220م، فيجب أن يكون قد أحدث زيادةً كبيرةً في تعداد المغامرين ـ من الأتراك والطاجيك على حد سواء ـ التواقين للانقضاض على أي مشروع مطروح. يمكننا أن نتصور خزاناً احتياطياً حقيقياً، زاخراً بمقاتلين وموظفين غير ملتزمين، هائمين على وجوههم في بقاع الهند الشمالية الشرقية، في عشرينيات القرن الثالث عشر الميلادي. لقد تمكن الكثير من «رجالات خراسان وغور وغزنة» من تأمين

---

(73) TN، I، 420 (تر. 537 ـ 538).
(74) المصدر السابق، I، 438 445 (تر. 593، 610).
(75) SA، 20.

ملاذ، بادئ ذي بدء، في بلاط قوباتشا كما يقول الجوزجاني، الذي وصل هو نفسه سنة 624 هـ / 1227م إلى أوتشش، حيث تولى منصب **قاضي العسكر**، لدى ابن قوباتشا[76]. وفي السنة السابقة كان ملوك غور، قد تخلوا أخيراً عن وطنهم للمغول، وولّوا أدبارهم هاربين للالتحاق بركب قوباتشا[77]. غير أن آخرين من بين هؤلاء القادة المرتزقة المتميزين، بمن فيهم ناصر الدِّين أبو بكر ابن سوري، أحد القلائل الناجين من الأسرة الحاكمة الغورية، والذي أصبح أحد ملوك إلتُتْمش حتى توفي في دلهي سنة 620 هـ / 1223م، توجهوا نحو دلهي[78].

ثمة أيضاً عدد غير قليل، ممن تبدلت ولاءاتهم. لقد كان زمناً زاخراً، بأشكال شديدة التقلب من الإخلاص والوفاء. ففي أثناء مفاوضات جلال الدين مع إلتُتْمش، بادر اثنان من مبعوثيه أرهقتهما جملة الصعوبات التي كان عليهما أن يتحملاها، إلى التخلي عن سيدهم، والدخول في خدمة سلطان دلهي[79]. يبدو أن قوباتشا كان متميزاً بتكرر تعرضه لعمليات الانتقال هذه. ففي بدايات المجابهة مع جلال الدِّين، أقْدَم اثنان من مماليكه ـ هما نصرت الدين محمد بن حسين بن خرميل، وتاج الدين يَنِلْتَغين (حاكم سيستان فيما بعد) ـ على التخلي عنه والانتقال إلى صف الخوارزميين[80]. صحيح أن أحداً

(76) TN، ا، 420 (تر. 541 ـ 542)، مع الشهر جمادى الأول / أيار / مايو لوصوله، في حين يقال في ا، 446 (تر. 611 ـ 612) إن التاريخ هو شهر رجب / حزيران / يونيو ـ تموز / يوليو؛ وعن هجرته من غور، انظر أيضاً اا، 185 ـ 185 (تر. 1203 ـ 1204). وعن المهاجرين المرموقين الآتين من خراسان انظر ا، 419 (تر. 534).

(77) المصدر السابق، ا، 420 (تر. 539 ـ 541): بعد سنة ونصف من حصار المغول لمُلْتان أي أوائل 623 هـ / 1226 م.

(78) المصدر السابق، ا، 340 (تر. 345)؛ يرد اسمه في قائمة مماليك إلتُتمِش في ا، 451 (تر. 626). كان ينتمي إلى فرع حكم إمارة مادين الصغيرة.

(79) نسوي، 91 (تر. 135).

(80) نصرت الدين: المصدر السابق، 88، 140، 141 (تر. 132، 186، 188). لتغين: TN، ا، 284، =

لا يطْلعنا على مصائر الملوك الغوريين، الذين احتشدوا في بلاط قوبتشا سنة 623 هـ / 1226م، غير أننا نجد قطب الدِّين حسن بن علي، الذي ربما كان واحداً منهم[81]، في بلاط إلتُتْمش في وقت لاحق. بل وتم تعيين وزير قوبتشا، عين المُلك حسين الأشعري في غضون فترة قصيرة من الزمن، في منصب مماثل، في بلاط ابن إلتُتْمش ركن الدِّين فيروز، مُقْطَع بداؤون في ذلك الوقت[82].

من المحتمل بقوة أن سلطان دلهي، بات مع الزمن قادراً على توفير آفاق أفضل للمغامرين، من العسكريين، وذوي الاهتمامات الثقافية والإدارية على حد سواء، بالمقارنة مع جيرانه. ومن الواضح أن موقع السلطنة الجغرافي، كان منطوياً على قدر غير قليل من الجاذبية، بالنسبة إلى المهاجرين، لأنه كان يوفر إمكانية القيام بإغارات مجزية على المناطق الهندوسية، مثل إقليمي رنثانبور وماندور، التي كانت توفر الغنائم للمرتزقة، فضلاً عن الحاجة إلى الموظفين ذوي الخبرة، هذه الحاجة التي كانت تشكل فرص عمل، بالنسبة إلى المتعلمين وأرباب القلم. من المؤكد أن الجوزجاني كان ينطلق من حسابات مماثلة، حين غادر أوتشش في صَفَر 625 هـ كانون الثاني / يناير 1228م، للالتحاق بركب قوات دلهي بقيادة كزليك خان خارج الأسوار، قبل استسلام القلعة بثلاثة أشهر، وكان حريصاً على المسارعة إلى خدمة إلتُتْمش في نفس اليوم، الذي وصل فيه الأخير على رأس الجيش الرئيسي بُعَيْد ذلك[83]. يبدو أن عوفي كان

= (تر. 200)؛ وعن حياته العملية اللاحقة انظر سي. إ. بوزوورث، **تاريخ الصفّاريين بسجستان وملوك غروز (247 / 861 إلى 949 / 1542 ـ 1543)** (كوستاميسا، كاليفورنيا، 1994)، 407 ـ 410.

(81) TN، II، 135، 140 ـ 141 (تر. 1061، 1070 ـ 1071): انطلق قطب الدين إلى «هندوستان» في 620 هـ / 1223م مع ملوك آخرين، وإن تعرض رفاقه للذبح من قبل المغول على الطريق. إن كلمة الـ «حسين» في النص المطبوع، ترد في مخطوطة BL على شكل «حسن» (ملفات 183 أ، 185 ب، 193 أ، 220 أ، 240).

(82) TN، I، 454 (تر. 631).

(83) المصدر نفسه، I، 447، وII، 3 (تر. 615، 722 ـ 723). عن لقب كزلك خان (**تو. كزلك** «سكين صغير»، انظر كلاوسون، **قاموس**. . .، 760؛ TMENP، IV 3 ـ 4 (رقم: 1714).

هو الآخر على درجة كافية من الاستعداد، للتخلي عن ولي نعمته قوبتشا. ثمة مثقف (عالم بلغة ذلك العصر)، وصل شخصياً إلى دلهي في 620 هـ / 1223م، يتحدث عن الهرب من المغول إلى بلاد إلتُتمش، من قبل «مسلمي خراسان وما وراء النهر وغور وغزنة، وجميع مسلمي الشرق (**بل كافايي مسلماني مشرق**)»[84]. وفي هذا السياق فإن مديح الجوزجاني للسلطان ـ قائلاً إنه كان دائم الكرم والسخاء في الهدايا التي قدمها إلى (**الدهاقنة**)، مُلاّك الأراضي والغرباء الآتين من المدن الكبرىٰ (**غربائي أمصار**)، وقد حوّل عاصمته إلى ملاذ آمن، لأولئك الهاربين من الطوفان المغولي[85] ـ ليس كلاماً غير ذي معنى. وقد بادر مؤلفو القرن التالي، ولا سيما العصامي، الذي يتحدث عن وصول «الأسياد» من البلاد العربية، و«العلماء» من بخارى، إلى ترديد أصداء حكمه[86]. ولعل إلتُتمش هو عاهل دلهي الوحيد، الذي اشتهر بأنه سعى بصورة مدروسة إلى اجتذاب المهاجرين الأعلام بهذه الطريقة، إذا استثنينا محمد بن تُغْلُق في القرن الرابع عشر الميلادي. ثمة احتمال مراوغ في أن يكون، قد استفاد من ظاهرة الهجرة المنتشرة على نطاق واسع، بين صفوف أولئك الذين لم يكونوا قد حصلوا على الملجأ في الهند إلاّ مؤخراً، والذين رأوا أن قوبتشا لم يكن المرجع والرجل الأقدر على ضمان أمنهم، بل وازدهارهم، المستقبلي، في الحقيقة.

المهاجرون النبلاء في ظل إلتُتمش

في ختام فصله المكرس لإلتُتمش، يقدم الجوزجاني قائمةً بأسماء نبلائه،

(84) جاجرمي، مخطوطة BL مسلسل 8194، ملف 3 ب. انظر أيضاً الترجمة الفارسية لكتاب البيروني **الصيدنة في الطب**، مخطوطة BL، مسلسل 8149، ملف 4 أ؛ نظير أحمد، «كتاب الصيدنة للبيروني وترجمته الفارسية»، **إندو ـ إيرانيكا** 14، الجزء الثالث (1961م)، 17.

(85) TN، I، 440 ـ 441 (تر. 598 ـ 599).

(86) FS، 114 ـ 115 (تر. 226 ـ 227). TFS، 27.

من الغوريين والأتراك والطاجيك. ليست الأكثرية الساحقة بالنسبة إلينا، إلاّ أسماء مجردة، إذ ليسوا مذكورين في أماكن أخرى من **طبقات ناصري**، أو في أي مرجع آخر. غير أننا لا نلبث، أن نلتقي ببعضهم في متن الفصل، وبآخرين، ممن كانوا مماليك السلطان، وغلمانه في سِيَرٍ تخصهم في **الطبقة الثانية والعشرين**، والذين سنعود إليهم بعد قليل. ثمة قليلون يجسدون أمراء، حدَّدهم حسن نظامي بوصفهم، دعموا إلتُتمش في الصراع ضد حزب آرام شاه أو قاموا بُعَيْد ذلك بمرافقته في حملته الجالروية، مثل عز الدين بختيار المخلدة ذكراه، على أحد أقدم شواهد القبور المكتشفة، في منطقة السلطنة حتى الآن، وناصر الدين مردان شاه، وافتخار الدين محمد عمر، الذي يعتبره الجوزجاني كبير أمراء (**ملك الأمراء**)، وقائداً في قارا[87]. بل ونستطيع أن نتحرى قدراً معيناً من الاستمرارية، مع حقبة الفتوحات الغورية. ربما كان ركن الدين حمزة، الذي يذكره المؤلفان كلاهما، بوصفه أحد أمراء إلتُتمش، هو نفسه الشخصية التي تحمل الاسم ذاته، وكانت ناشطة في خدمة معز الدِّين، وجرى تكليفه بمهمة سفارة لدى برثفيراجا الثالث سنة 587 هـ / 1191 م[88]. والمؤكد أكثر أن كلاً من عز الدِّين علي، صاحب إقطاعية نغوار ذات يوم، وحسام الدين أوغول بك في أوَدْ كانا يتوليان المناصب منذ عهد حكم معز الدِّين[89].

---

(87) Tāj، ملف 221 ب، 229 أ. ترد قائمة الجوزجاني للملوك في TN، I، 452. عن عز الدين بختيار (متوفى 616 هـ / 1219م)، انظر اقتدار حسين صديقي، «معلومات تاريخية في دواوين الشعر الفارسي في القرن الثالث عشر»، **دراسات في الإسلام** 19 (1982م) 57 ـ 58.

(88) لا يظهر ركن الدين في قائمة الملوك كما أوردها نص حبيبي لـ TN، ولكن قارن مخطوطة IOL، ملف 242 ب وترجمة رافيرتي، Tāj626 . ملف 77 ب، 229 أ؛ وعن بيرثفيراجا، انظر ملف 38 أ.

(89) عن علي وأوغول بك في عهد معز الدين، عن علي بين ملوك إلتُتمِش، TN، I، 452؛ وعن أوغول بك المصدر السابق، I، 451 ملاحظة، وقارن مخطوطة BL، ملف 179 أ (تر. 627)؛ أيضاً JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 263 ب ـ 264 أ (نظام الدين، مقدمة، رقم: 1729). مع حلول سنة 620 هـ / 1223م كانت نغوار بيد كريم الدين حمزة غير المعروف في أي مكان آخر: TN، I، 284 (تر. 200، أما في مخطوطة BL ملف 179 ب فيرد الاسم على شكل نجيب الدين).

يبقى ما جرى، لمعظم النبلاء القدامى غامضاً. فكما رأينا، كان الأمراء القطبيون، قد دعموا إلتُتْمش في البداية. وتضم قائمة الجوزجاني، أميرين يحملان لقب «قطبي»، ربما كانا اثنين من غلمان آيبك السابقين. أما الأمراء المعزيون، فقد التفوا حول آرام شاه، مما جعل المعزيين الذين يذكرهم فخر مدبّر، من أعضاء حاشية آيبك في لاهور سنة 602 هـ / 1206م، يختفون عن الأنظار بعد ذلك التاريخ[90]. وبالتالي فإن من الممكن أن يكون إلتُتْمش، قد اضطر لتشكيل، طبقة جديدة من كبار الضباط على الأثر. ومن شأن أعيان المهاجرين، أن يكونوا قد وفروا له ما مكنه من فعل ذلك. كان بعضهم من النبلاء الأتراك الأحرار. فحسن نظامي يلمّح إلى أن إلتُتْمش، في التصدي لهجوم بيركي، أفاد من دعم سيف الدِّين فيروز، المتماهي مع أحد أبناء عمومة نيلتغين، يدعوه الجوزجاني فيروزي إلتُتْمش، وفيروز بن سالار، وقد كان على ما يبدو، أمير حرب ذا جذور تعود إلى اتحاد قانغلي في السهوب، الممتدة إلى الشمال من خوارزم[91]. أمّا علاء الدِّين جاني، الذي يمجده الجوزجاني، واصفاً إياه بـ «أمير تركستان»، فقد حصل على إقطاعية لخناوتي، في أعقاب حملة إلتُتْمش المظفرة سنة 628 هـ / 1230 ـ 1231م، ويتم العثور عليه لاحقاً في لاهور[92]. وما لبث الملك الغوري قطب الدِّين حسن، أن أصبح مدبّراً لشؤون منزل (**وكيلي دار**) إلتُتْمش؛ في حين تولى عز الدِّين محمد سالاري، الذي ربما كان غورياً أيضاً، منصب **الباربك** (أي الأمير الحاجب)[93]. لقد رأينا كيف أن

---

(90) SA، 25، 73. هم **السبهسلارات** حسام الدولة والدين أحمد (ي ـ ؟) علي صالح، مبارز الدولة والدين طغرل تكين علي (ـ ي؟) حسن، وأسد الدولة والدين علي (ـ ي؟) محمد أبو الحسن. والأخيران يلقبان بـ **أولوغ** («عظيم») **دادبك** (أي **أميري داد**) حاجب.

(91) Tāj، ملف 221 ب. عن فيروز انظر أيضاً TN، ا، 284، 299، 452 (تر. 199، 235، 625). شقيقة أبيه كانت زوج الخوارزم شاه إلى ـ آرسلان وبالتالي جدة عدو السلاطين الغوريين، علاء الدين محمد. ونسوي، 36 (تر. 81) يؤكد العلاقة. TN، ا، 298 (تر. 235)، ويقدم رواية محرَّفة عن قصة هذه العائلة.

(92) المصدر السابق، ا، 448، 452، 455، واا، 9 (تر. 618، 626، 634، 731، 732).

(93) TFS، 39. عن سالاري، انظر TN، ا 446 (تر. 613)، وJH، ا، 12؛ أيضاً حبيب، «تشكُّل»، 13.

أعداداً من البيروقراطيين، ومحترفي الجندية لاذوا بالهند هرباً من الاجتياح المغولي، وأن بين أصحاب المناصب لدى وفاة إلْتُتْمش، رجالاً ذوي ألقاب من خراسان مثل شفورقاني وطاياقاني[94]؛ وإن لم يكن معروفاً ما إذا كانوا جيلاً أول من المهاجرين. ثمة غموض مماثل يلف أسلاف وزير إلْتُتْمش، مؤيد الملك (نظام الملك فيما بعد) قوام الدولة والدِّين محمد بن فخر الملك شرف أبي سعد جنيدي، و**عارض** (حاجب) السلطان، عماد الملك شرف الدولة والدين أبو بكر، الذي لا نعرف عنه سوى أنه كان شهير النسب ولم يكن تركياً[95]. ومع ذلك ليس ثمة أي حاكم مسلم، كان مستعداً لأن يشعر بالارتياح، إزاء الاعتماد الكلي على أناس أحرار، دون غيرهم مهما كانت أصولهم ومواهبهم. لقد ظل إلْتُتْمش، مثله مثل معز الدِّين، حريصاً على بناء جيش من المماليك الأتراك (**البانداغان**، مفرده **باندا**، بالفارسية)، المعروفين باسم الشمسيين، الذين كان ولاؤهم متركزاً عليه وحده. أما في ظل خلفائه، فما لبث هؤلاء أن باتوا يضطلعون، بأدوار بارزة في حكم السلطنة وإدارتها.

---

(94) TN، I، 456، وII، 30 (تر. 635، 761).

(95) عن اسم الوزير ولقبه الكاملين، انظر JH، مخطوطة BL، مسلسل 4392، ملف 128 أ؛ جاجرمي، مخطوطة BL، مسلسل 8194، ملف 3 أ. فيما بعد سمع برني أن الجنيدي كان ذا أصل عامي، حفيداً لأحد النسّاجين (جولاها): TFS، 39. عماد الملك: مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 263 ب ـ 264 أ.

الفصل الثالث

سلاطين ومصادر

مات شمس الدين إلتُتْمش، يوم العشرين من شعبان 633 هـ / التاسع والعشرين من نيسان / ابريل 1236م، بعد أن نجح، على النقيض من آيبك، في التأسيس لأسرة حاكمة، ظلت في السلطة إلى أن تمكن مملوك إلتُتْمش بالذات، بلبان[1]، الذي كان يشغل منصب (النائب) لناصر الدين محمود شاه بن إلتُتْمش، من اغتصاب العرش سنة 664 هـ / 1266م، ليحكم بوصفه السلطان غياث الدين. لم تدم أسرة بلبان الحاكمة هي الأخرى طويلاً. فبعد العهدين الوجيزين لحفيده معز الدين كَيقُباد، وابن الأخير الطفل شمس الدين كيومرث، قام الضابط الخَلْجي جلال الدين فيروز، أول سلاطين الخلجيين، بالإجهاز عليها سنة 689 هـ / 1290 م. تبقى تسميات «ملوك المماليك» و«الأسر الحاكمة المملوكية» المستخدمة تقليدياً، للدلالة على سلاطين دلهي في القرن الثالث عشر الميلادي، تسميات مغلوطة. فقط إلتُتْمش وبلبان كانا من الغلمان؛ أما معظم الحكام، ومن خلفوهم من أبناء وأحفاد، فلم يكونوا مماليك في أي وقت من الأوقات. وبالتالي فإن هاتين الأسرتين الحاكمتين، سيجري التعامل معهما في هذا الكتاب، طلباً لقدر أكبر من الدقة، باعتبارهما «أسرة الشمسيين» و«أسرة الغياثيين».

---

(1) عن بلبان «الباشق»، انظر سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 61.

الجوزجاني والشمسيون

لا يعاني مؤرخ سلطنة دلهي، في القرن الثالث عشر الميلادي، من أية زحمة مفرطة في المصادر المكتوبة. فباستثناء الروايات المتحدثة عن جملة العمليات الخوارزمية والمغولية في الهند، التي يوردها الجويني والنسوي، لم ينج من الضياع أي مصدر خارجي، من الفترة الممتدة بين ابن الأثير، ونهاية القرن الثالث عشر، يتناول الأحداث المعاصرة الجارية في شبه القارة. قد يكون أحد الأسباب الوجيهة كامناً، في غياب الصلة مع الخلافة. فنحن لا نعلم عن ورود، ذكر عهدي خليفتي إلْتُتْمش الأولين في الكتاب المفقود، للمؤرخ البغدادي المعروف، باسم ابن الساعي (المتوفى سنة 674 هـ / 1276م)، إلاَّ من خلال فقرة مقتبسة، يوردها مؤرخ يعود إلى منتصف القرن الرابع عشر، لدى كتابته عن سورية المملوكية[2]. ربما كان ابن الساعي قد استقى معلوماته من مبعوث الخليفة، الصغاني، الذي غادر الهند متوجهاً إلى بغداد سنة 637 هـ / 1239م بعد إقامة دامت إحدى عشرة سنة[3]. ونحن لا نعلم ما إذا كان ثمة تبادل للسفراء بين الخلفاء العباسيين، وبين من ورثوا الحكم عن إلْتُتْمش. استمر حكام دلهي يستخدمون، عنوان (**ناصر أمير المؤمنين**) على قِطَعِهِم النَّقْدية، إلى أن أجهز المغول سنة 656 هـ / 1258م على الخلافة البغدادية، بل وإلى ما بعد ذلك التاريخ[4]. ومن غير المحتمل، أن يكون ذلك مستنداً إلى أية مباركة رسمية؛ فلو كان ناصر الدين محمود شاه، ولي نعمة الجوزجاني، حاصلاً على

---

(2) (المفضل) ابن أبي الفضائل (حوالى 1350م)، **النهج السديد**، طبعة جزئية وترجمة سميرة كورتانتامر، مصر والشام بين سنتي 1317 و1341م، IU 23 (فرايبورغ Br. I، 1973م) النص العربي 28 ـ 29 (الترجمة الألمانية 107). ثمة فقرة مماثلة في يوميات بغداد القرن الرابع عشر، **الحوادث الجامعة**، 104. عن ابن الساعي، انظر ص: 18، هـ: 56 من هذا الكتاب.

(3) الصفدي، **وافي**، XII، 241.

(4) تم إسقاط اسم الخليفة عن القطع النقدية العائدة للسلطان الخلجي ركن الدين إبراهيم (695 هـ / 1296م) للمرة الأولى: إدوارد توماس، **يوميات ملوك الباثان في دلهي** (دلهي، 1871م)، 255.

تثبيت لقبه من قِبَل بغداد، لبادر الأخير إلى إخبارنا بكل تأكيد. ومما يدل على عُزْلة السلطنة في تلك الفترة، أن مؤرخي مصر المملوكية، الذين كانوا يوردون قائمة أسماء الحكام الأجانب، في مطلع أي سجل تاريخي بصورة دورية، لم يأتوا على ذكر اسم سلطان دلهي بشكل صحيح، إلاّ مرة واحدة (سنة 662 هـ / 1264م) في سياق الفترة الممتدة، من 635 هـ / 1236م فصاعداً[5]. ولم يعد أولئك المؤرخون إلى إيراد اسم السلطان، بصورة منتظمة في قوائم الحكام المعاصرين، حتى سنة 700 هـ / 1300 ـ 1301م، أي إلى ما بعد نجاح اجتياح گوجرات من قبل قوات علاء الدين خَلْجي، في فتح قناة اتصال جديدة مع الإمبراطورية المملوكية[6].

على الرغم من إمكانية الإطلال على عدد من التلميحات إلى الشخصيات الرئيسية، والأحداث التاريخية من خلال مؤلفات شعراء فرس، مثل سراجي وعميد سُنّامي، ممن مجّدوا بلاط السلطان، أو بلاطات جيرانه المسلمين في الهند، أواسط القرن[7]، فإننا معتمدون بصورة شبه كلية على مرجع سَرْدي وحيد، هو الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتاب الجوزجاني، المعروف باسم **طبقات ناصري**، فيما يخص حقبة ذُرِّيَّة إلتُتْمش، وصولاً إلى سنة 658 هـ / 1260 م. ومن بين جميع مؤرخي السلطنة، كان الجوزجاني متمتعاً بأفضل مَرْصدٍ يمكّنه من متابعة الأحداث، لأنه شغل في ثلاث مناسبات أحد أعلى المناصب المدنية، ألا وهو، منصب (**قاضي قضاة**) الإمبراطورية. غير أن

(5) ابن الدواداري، VIII، 102. ابن أبي الفضائل، **النهج السديد**، طبعة جزئية وتر. إ. بلوشيه، «مفضل ابن أبي الفضائل. تاريخ السلاطين والمماليك»، باترولوجيا أورينتالّس 12 ـ 20 (1919 ـ 1929)، 123.

(6) اليونيني (متوفى 726 هـ / 1326م، **الذيل على مرآة الزمان**، مخطوطة TSM III أحمد 2907 / إ. 3، ملف 196 أ (700؛ مع اسم مغلوط)، 210 ب (701)؛ III أحمد 2907 / إ. ع ملف 25 ب، 36 أ، 43 ب، 157 ب، 179 أ، 212 ب (بدرجات متفاوتة من الخطأ وعدم الدقة). ابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشين، 534 ـ 535، 556، يبدأ أيضاً بإعطاء اسم سلطان دلهي (خطأ) في 700.

(7) صذيقي، «معلومات تاريخية»، TFS، 113، يأتي على ذكر خواجا شمسي معين، الذي كتب مجلدات في مديح قطب الدين حسن غوري، غير أن عمله لم ينج من الضياع.

الطبقات، رغم غناها النسبي بالبيانات عن تلك الفترة، ليست عملاً تسهل الإفادة منه. بعض الأحداث، يعاد سردها بعبارات شديدة الانحراف، بما يؤدي إلى أن تفقد مغزاها بصورة شبه كاملة. كما أن تنظيم المواد، نجده هو الآخر شديد الاضطراب والفوضى؛ فالحدث نفسه، قد يوصف مرتين في مناسبتين مختلفتين ـ في العهد المعني في الطبقة الحادية والعشرين من جهة، كما في واحدة أو أكثر من سير المماليك الشمسيين، التي تؤلف الطبقة الثانية والعشرين من جهة ثانية على حد سواء ـ ولكن بتفاصيل متباينة، بل وحتى متناقضة فعلاً. وهكذا يبدو أن المؤرخ، لم يكن يرمي إلاّ إلى تمويه الأحداث، وتغليفها بالضباب، بدلاً من تسليط الأضواء عليها وإبرازها. ومما يجعل الأمر مثيراً لقَدْرٍ أكبر من الأسف، أننا لا نتوفر على أية مصادر بديلة. لقد دأب جميع المؤلفين اللاحقين، الذين يغطون هذه السنوات على سَبْر أغوار كتاب الجوزجاني، ولم تتمكن سوى قلّة نادرة ـ مثل عصامي أو سرهندي، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي ـ من تقديم أية معلومات إضافية، بقيت مرجعيتها مثل جدارتها بالثقة، بعيدةً عن اليقين.

يتجلى هذا النزوع إلى التعتيم، والتشويش في معالجة الجوزجاني لخلافة إلتُتمش. كانت التوقعات، تشير بقوة إلى أن نجل السلطان البِكْر، ناصر الدين محمود شاه، الذي قضى نحبه في لخناوتي سنة 626 هـ / 1229م، سيخلفه. وفي أعقاب حملة غواليور سنة 630 هـ / 1233م، كان ركن الدين فيروزشاه، بوصفه ابناً ثانياً، قد عُيِّن مُقطَعاً للاهور، وهو منصب سبق لناصر الدِّين محمود أن شغله. جاء فيروز شاه، مرافقاً لإلتُتْمش، العائد إلى دلهي قبيل وفاة السلطان، كما لو كان يتم إعداده للعرش، ويؤكد الجوزجاني أن عيون الشعب، كانت على الأمير[8]. وثمة عمل جرى تأليفه في سنوات إلتُتْمش الأخيرة، يبدو

---

(8) TN، 1، 454 ـ 455 (تر. 630، 631).

مؤيداً لهذا الرأي، لأنه مكرس للسلطان وفيروز شاه بصورة مشتركة، وكأن الثاني هو الوريث الشرعي[9]. بادر فيروز شاه إلى ارتقاء العرش، أصولاً، في غضون بضعة أيام من وفاة أبيه. غير أن الجوزجاني يزعم، في إحدى المناسبات، أن إلتُتْمش كان، غداة حملة غواليور، قد مال إلى منح الخلافة لابنته البِكْر، رضيّة، التي ربما كانت مولودته الأولى، كما كانت أمها زوجه الأولى، وأوعز بتنظيم فَرَمان لصالحها. ومما يقال إنه تنبأ بأن أحداً من أبنائه، لن يكون جديراً بالحكم، رداً على اعتراض بعض المسؤولين[10]. إلاّ أن ما يستحق الانتباه، هو أن الجوزجاني، كان في غواليور في تلك الأثناء، ولم يعد إلى دلهي حتى سنة 635 هـ / 1238م، (أي خلال حكم رضية:[11] من غير الوارد أنه كان موجوداً، وهو لا يزعم في الحقيقة، أنه رأى الفرمان أو الشهادة. ثمة احتمال قوي في ظل هذه الظروف، أن تكون القصة ملفّقة، وتداولها وروّجها، أولئك الذين نَصَّبوها على العرش: ما لبث قبرها أن غدا، مزاراً ومحجاً للناس[12]، كما يقول الرحالة المغربي ابن بطوطة، في القرن الرابع عشر الميلادي، وممّا تجدر ملاحظته، أن بلبان نفسه كان، كما سنرى، مديناً لها بترقيته الأولى. وبالتالي فإن الحكاية ربما استطاعت، نظراً لقيامها بتشويه سمعة أبناء إلتُتْمش الذكور (بمن فيهم السلطان الجالس على العرش، ناصر الدِّين محمود شاه بالطبع)، أن تكتسب مغزى جديداً، لدى قيام الجوزجاني بالكتابة، حين كانت عملية استبدال الأسرة الحاكمة الشمسية، قد أصبحت ربما باديةً في الأفق.

يمكن إلقاء نظرة سريعة على وجهات نظر الجوزجاني، حول خلفاء

---

(9) مجهول، تر. راضي، سر المختومة، مخطوطة BN، ملحق، فارسي 384، ملف 2 أ.

(10) TN، I، 458 (تر. 638 ـ 639). نظامي (في HN، 230 ـ 231) يعتقد أن إلتُتمِش كان قد عين رضيّة أساساً، غير أنه ما لبث أن غير رأيه وفضّلَ فيروزشاه عليها.

(11) TN، I، 448 ـ 449، 460 (تر. 620، 643 ـ 644).

(12) IB. III. 169 (تر. حبيب، 632).

إلتُتْمش الأربعة، عبر الاطلاع على **الطبقات**. لم يكن فيروز شاه (633 هـ / 1236م)، إلاّ فتى طائشاً غارقاً في اللهو، ترك زمام الحكم بيد أمه، شاه تركن النشيطة المحبة للانتقام. كانت فترة حكمه الوجيزة، مشغولة بثورة أشعلتها، جماعة من كبار أمراء إلتُتْمش، بمن فيهم الوزير الجنيدي، الذي ربما كان داعماً، لشقيق فيروز شاه، غياث الدِّين محمود، مرشحاً لعرش السلطنة[14]. وما لبثت الثورة أن أُخمدت من قِبَل رضيّة، التي كانت قد نُصِّبَت بدلاً منه. ومن الواضح أنه يراد منا، أن نعقد مقارنة، مع كل من شقيق فيروز شاه الأكبر، ذلك «الحكيم والحصيف» **(فرزانة وعاقل بيخرد)**، ناصر الدِّين محمود شاه، الذي يمكن اعتبار رحيله المبكر، قبل أوانه، ضربةً موجعةً للسلطنة[15]، من جهة، ومع خلفه من جهة ثانية. أمّا رضية (634 ـ 637 هـ / 1236 ـ 1240م)، فيجري تقديمها على أنها متمتعة، بجميع المواصفات الممتازة لأي حاكم ناجح، عدا واحدة فقط، ألا وهي، أنها لم تكن رجلاً؛ إنها السلطانة الشمسية الوحيدة، التي ينعتها الجوزجاني قائلاً: إنها قائدة حربية **(لشغركاش)**[16]. وكثيرة هي الروايات، التي تتحدث عن رضيّة المرتدية ملابس الرجال، التي درجت على الظهور أمام الملأ ممتطيةً فيلاً[17]. وبصرف النظر عما رآه رجال الدين «الغلماء»، في هذا كله، فإن من الواضح بجلاء، أن مؤيدي رضية، كانوا يريدونها زعيمة قوية، وأن عيبها كان كامناً، في مبالغتها المتنامية في تأكيدها لذاتها. في البدء كانت مسكوكاتها النقدية، التي حملت اسم أبيها مصحوباً

---

(13) كما يشير نظامي، في HN، 230 ـ 231، هـ: 84؛ قارن أيضاً كتابه **عن تاريخ... ومؤرخيها...**، 84، من المؤسف أن نظامي في مكان آخر (HN، 253، 256) يصاب بتشوه الرؤية حين يسلّم بشهادة عصامي التي تقول إن محمود شاه لم يكن ابن إلتُتْمِش بل حفيده.

(14) صديقي، «معلومات تاريخية»، 56 ـ 57.

(15) TN، I، 453، 454 (تر. 628، 630).

(16) المصدر السابق، I، 457 (تر. 637 ـ 638).

(17) المصدر السابق، I، 460 (تر. 643). IB، III، 167 (ر. حبيب، 631).

باسمها، تشير إلى أنها لم تكن مطمئنة؛ غير أن اسم إلتُتمش، ما لبث مع حلول سنة 635 هـ / 1237م تقريباً، أن سقط[18]. ولدى الإطاحة بها لصالح أخيها بهرم شاه، سُجنت في تبرهند وقُتلت سنة 638 هـ / 1240م، في محاولة فاشلة لاستعادة العرش.

وعن معز الدِّين بهرم شاه (637 ـ 639 هـ / 1240 ـ 1242م)، يقال إنه كان سلطاناً شجاعاً، رغم ولعه بسفك الدماء[19]. وقد تمت الإطاحة به، حين تمرد عدد كبير من قادته، ونجحوا في اقتحام دلهي. كانت شعبية بهرم شاه قد تدنت كثيراً، بين صفوف رجال الدِّين «العلماء»، وكان قد أعدم أَحَدَهُم، ممن شاركوا في مؤامرة فاشلة لإنزاله عن العرش؛ وشيخ الإسلام، الذي أوفده للتفاوض مع الأمراء المتمردين، ما لبث أن انتقل إلى الصف المعادي[20]، وفي ضوء هذه الظروف، يصعب علينا فهم انحياز الجوزجاني إلى السلطان؛ غير أن السبب قد لا يكون أكثر تعقيداً من كونه، مديناً لبهرم شاه، بأول تعيين له قاضياً للقضاة[21]. يبدو أن الأحداث، التي تكللت بالإطاحة ببهرم شاه، كانت قد أثارت اشمئزازه، إذ هجر مكتبه، ورحل عن دلهي إلى لخناوتي، التي بقي فيها أكثر من سنتين اثنتين. وبالتالي فقد كان غائباً، خلال السنوات الأولى من حكم ابن فيروز شاه، علاء الدين مسعود شاه (639 ـ 644 هـ / 1242 ـ 1246م)، الذي كان، حسب كلام المتملقين، كريماً، راجح العقل، ومتمتعاً بجميع الصفات الحميدة. غير أن السلطان الجديد، ما لبث بدوره، أن وقع تحت تأثير الوشاة، وأصحاب النوايا الخبيثة، فراح يعدم مماليكه وأمراءه، إلى أن تمت دعوة الابن الأصغر لعمه إلتُتمش، ناصر الدين محمود شاه، سرّاً، لخلعه عن العرش، والحلول محله.

(18) CMSD، 40 (رقم: 161، 161 آ): يظهر أن النقود المسكوكة في لخناوتي كانت تحمل اسم رضيّة فقط حتى النهاية، المصدر نفسه، 41 (رقم 161 ب ـ د).

(19) TN، ا، 462 (تر. 649).

(20) المصدر السابق، ا، 464، 467 (تر. 652، 657، 658 ـ 659).

(21) المصدر السابق، ا، 466 (تر. 657 ـ 658).

لعل هذه الحركة الانقلابية بالذات، هي الأكثر غموضاً بين سلسلة التغييرات المختلفة للسلاطين المذكورة في **الطبقات** ـ وقد لا يكون ذلك مفاجئاً لأن العاهل الذي اعتلى العرش هذه المرة، هو الذي يقوم الجوزجاني بإهدائه تاريخه. لقد كان محمود شاه (644 ـ 664 هـ / 1246 ـ 1266م)، الأكثر ضبابية وغموضاً، بين سائر سلاطين القرن الثالث عشر الميلادي جميعاً[23]. تبدو الحقبة خاضعة لهيمنة ولي نعمة الجوزجاني، بهاء الدين بلباني خورد («الأصغر»)، سلطان المستقبل، الملقب بـ أُلُغ خان (الخان العظيم). فبلبان الذي كان السلطان، قد تزوج ابنته، وكان هو يعمل نائباً لهذا السلطان ـ عدا فترة وجيزة دامت حوالى السنة، سنة 647 هـ / 1249م ـ حتى موت محمود شاه، يبدو مضطلعاً بدور الإيرل غودوين، بالنسبة إلى إدوارد الشاه محمود، المعترف. يقول الجوزجاني، إن السلطان كان متمتعاً بـ «أخلاق الأنبياء» (أوصاف أوليا، وأخلاق أنبيا)، ويضيف إلى قائمة فضائله الطويلة، التقوى والإيمان والزهد والعفة (التقوى والديانت والزهادت والصيانت)[24]. وقد رأى البروفسور نظامي، أن الجوزجاني قام بتركيب هذه الصورة، لتسويغ هيمنة بلبان[25]. من المؤكد أن صورة محمود شاه، كانت مطردة وراسخة دون شك. ثمة قصص وحكايات متداولة في القرن التالي، كانت تتحدث عن أنه كان يجد متنفساً، لطاقاته وتقواه في فن الخط؛ فقد كتب نسخاً من القرآن، وكان يشتري طعامه بما يحصل عليه من عمله[26]. بل ونجد نمط حياته القائم على التقشف،

---

(22) المصدر السابق، I، 468، 471 (تر. 660، 668 ـ 669).

(23) إذا أردت الاطلاع على مسح لتاريخ العهد، فانظر محب الحسن، «محمود الأول، ناصر الدين» Enc. Isl.

(24) TN، I، 477 (تر. 674).

(25) نظامي، **عن تاريخ... ومؤرخيها**، 82 ـ 83.

(26) TFS، 26، ES، 156 (تر. 280 ـ 282). IB، III، 169 (تر. 632). DR، 50)، حيث يوصف محمود شاه باعتباره «غارقاً في بحر عبادة الله».

لافتاً لنظر مؤرخ آخر من خارج الهند[27]. وبالتالي فإن من الصعب، تجنب الانطباع القائل، بوجود عاهل كان شبه منفصل عن بلاطه ذاته. ثمة فرقاء وأحزاب تتصارع على السلطة في المركز، كما على الإقطاعات المرغوبة أكثر (ربما الأغنى)؛ ثمة قياديون من كبار القوم، يجري تحجيمهم دون رحمة، أو يتم نفيهم إلى الأقاليم؛ وتحت ستار حملات عسكرية، ودسائس تآمرية، لكي تبقى شخصية بلبان، بوصفه نائب السلطان، قريبةً من المركز على الدوام. أما ما كان ناصر الدين محمود شاه يراه في هذا كله ـ أكان، مثلاً، مرحباً بسقوط بلبان سنة 651 هـ / 1253م، أو بإعادته إلى مركزه في السنة التالية، أم مستهجناً لذلك ـ فإننا نستطيع أن نستنبط.

كتب الجوزجاني، قبل صعود بلبان بسنوات قليلة فقط. يحظى بلبان بالسيرة الأطول بما لا يقاس، بين المماليك الشمسيين الخمسة والعشرين، وتبقى تعبيرات الجوزجاني عن العرفان تجاهه، على الهدايا والمعاشات، متكررة مرة بعد أخرى من أول الكتاب إلى آخره[28]. حتى إذا سلمنا بالرواية المنسوبة إلى بلبان، والموجودة في **سرور الصدور** السِّيَرية، الشبيهة بسِيَر الاولياء، التي تقول، بأن الجوزجاني القاضي لم يكن يخافه[29]، فإن الجوزجاني المؤرخ، كان على ما يبدو، يشعر بأنه ممنوع من الكشف عن الظروف، التي أدت إلى إبقاء ولي نعمته في الظل، فضلاً عن أنه لا يستطيع، أو لا يريد أن يعطي، كلاً من أعداء بلبان، وخصومه حقوقهم كاملة: فعلى الرغم من أن كوشلوخان (عز الدِّين بلبان)، هو موضوع إحدى السِّيَر في الطبقة الثانية والعشرين، ويجري إغراقه بالمديح على كرمه، وفضله مع رجال الدِّين «العلماء»، والزهاد المتنسكين[30]، فإن المنافس اللدود الآخر للنائب، قُطلُغ

(27) ابن أبي الفضائل، تحقيق، كورتانتامر، النص العربي 29 (الترجمة الألمانية 107).

(28) TN، I، 481، II، 2، 52 ـ 53، 61، 62، 69 (تر. 681، 720، 808، 821 ـ 22، 823، 835).

(29) وارد في نظامي، عن تاريخ... ومؤرخيها، 93.

(30) TN، II، 36 (تر. 775 ـ 776).

خان، لا يحصل على مثل هذا الإطراء، ولا يُشار إليه إلاّ بصورة عابرة. أضف إلى ذلك، أن قرب الوثنيين المغول، في هذه الفترة، كان يهدد وحدة السلطنة من جهة، ويوفر حافزاً للمنشقين من النبلاء، يدفعهم إلى تحدي حكومة دلهي. ومن جهة ثانية تمت استعادة بلبان للسلطة سنة 652 هـ / 1254م، نتيجة مناورات ودسائس، تآمر فيها بعض حلفائه مع المغول، ولكن رواية الجوزجاني الخاصة للقصة، تبقى متسمة بقَدْر ملحوظ من الخَفَر والخَجَل، ولولا التفاصيل التي أوردها مؤلفون عن الهند، مثل وصّاف ورشيد الدِّين، كانوا يكتبون في الأقاليم، الخاضعة لسلطة الإيلخان المغولي في إيران، لما حصلنا إلاّ على القليل جداً من المعلومات، عن تعقيدات تلك الأحداث.

مصادر ما بعد سنة 658 هـ / 1260 م

بعد سنة 658 هـ / 1260م، يلوذ الجوزجاني بالصمت، وندخل حقبة، تكون فيها المصادر الأولية بالغة الندرة حقاً. بل ونجد أن كتابة رواية مترابطة، عن عهود كل من بلبان 664 ـ 685 هـ / 1266 ـ 1287م)، أو حفيده معز الدين كيُقباد (685 ـ 689 هـ / 1287 ـ 1290م)، أو جلال الدين فيروز شاه خَلْجي (689 ـ 695 هـ / 1290 ـ 1296م)، أصعب من الكتابة عن عهود سلاطين القرن الرابع عشر، بسبب عدم وجود أية مصادر روائية معاصرة[31]. نبقى إلى حد بعيد معتمدين، إما على مؤلفين يغطون فترة ذات شأن، ولكنهم كتبوا في منتصف القرن الرابع عشر، أو على كتاب ألفوا أعمالاً أقصر، لتخليد ذكرى أحداث محددة، أو أشخاص معينين أما الاستثناء فهو نوع من التقليد التاريخي، شاع في إيران مع حلول نهاية القرن. وهو الذي يشكل، أول مَسْح للفترة الممتدة حتى عهد علاء الدين خَلْجي نجا من الضياع، التاريخ الموجز

---

(31) عن هذه العهود، انظر HN، 277 ـ 325؛ حبيب الله، **أساس**، الفصلان 7 ـ 8، ك. س. لال، **تاريخ الخلجيين، 1290 ـ 1320 م**، طبعة ثالثة (دلهي، 1980)، الفصل 2.

للسلطنة، الذي أدخله وصّاف في كتابه: **تجزية الأمصار** (المصمم ذيلاً لعمل الجويني) في، أو قبيل، سنة 702 هـ / 1303م، وقدّمه إلى الإيلخان غازان. وما لبث هذا الجزء من عمل وصاف أن جرى نسخه في غضون السنة التالية أو حولها، وإلحاقه بالجزء الهندي من الموسوعة التاريخية الكبرى، باسم **جامع التواريخ**، للوزير الإيلخاني رشيد الدين فضل الله الهمداني[32]. وأضاف رشيد الدين التفصيل الغريب الخاص به؛ مع أن قوله بأن أوتشش ومُلْتان، خاضعتان لحكم ابن السلطان يشير إلى أن معلوماته تعود إلى عهد جلال الدين خَلْجي، أو ربما حتى إلى عهد بلبان[33].

أما الشاعر المعروف يمين الدين أبو الحسن الشهير أكثر، باسم الأمير خسرو دهلوي (651 هـ / 1253م ـ 725 هـ / 1325م)، الذي كان ابن أحد غلمان إلْتُتمش العسكريين، فقدبدأ كتابة **ديوانيه** الأولين، **تحفة الصغار** (حوالى 671 هـ / 1272 ـ 1273م)، **ووسط الحياة** (رغم أن هذا ربما لم يكتمل إلى حوالى سنة 690 هـ / 1291م)، في عهد بلبان. وهذان الكتابان، مع **ديوانه** الثالث، الذي كان بعنوان **غُرَّة الكمال** (693 هـ / 1294م)، تشير بين الحين والآخر، إلى أحداث معاصرة، فضلاً عن أن المقدمة (الديباجة)، التي تتصدر الديوان الأخير، تتضمن سيرة ذاتية وجيزة قيّمة. فخلال حكم كيقباد وجلال الدين خَلْجي ألّف خسرو، اثنتين من قصائده السردية الملحمية، الأولى (**المثنويات**) وهما ملحمتا **قران السعدين**، المتركزة على المصالحة، بين كيقباد وأبيه بُغرا

(32) عن تاريخ تقديم هذا الجزء من عمله إلى الإيلخان، انظر كتاب وصّاف، **تجزية الأمصار وتزجية الأعصار**، طبعة حجرية (بومباي، 1269 هـ / 1853م)، 405. تم تأليف الفصول الهندية في كتاب رشيد الدين خلال سنتي 702 و703 هـ / 1302 ـ 1304 م؛ انظر JT، تحقيق كارل يان، **كتابات رشيد الدين الهندية** (بالألمانية) (ڤيينا، 1980م)، المقدمة، 9.

(33) المصدر السابق، النص الفارسي .Taf 13، النص العربي .Taf 51 (تر. ألمانية: 36). يعلن رشيد الدين أيضاً أن البنغال كان في ظل حكم أحد أبناء عم سلطان دلهي الذي ما لبث أن تخلى عن حكمه: النص الفارسي .Taf 15 ـ 16، النص العربي .Taf 52 (تر. ألمانية 39).

خان سنة 686 هـ / 1287م، و**مفتاح الفتوح**، المخلّدة لذكرى انتصارات جلال الدين سنة 690 هـ / 1291 م. أما عيب خسرو الرئيسي، المتمثل بالمبالغة في تملُّق السلطان الحاكم، فيتجلى بوضوح في مطلع عمله النثري الوحيد، الذي يحمل عنوان **تاريخ علاء**، أو **خزائن الفتوح** (711 هـ / 1311 ـ 1312م)، حيث تتعمد، رواية مداهنة لقصة اعتلاء علاء الدين خَلْجي ابن أخي جلال الدين العرش سنة 695 هـ / 1296م ـ حَذْفَ كل ما له علاقة باغتيال السلطان السابق. ففي هذا العرض الموجز، ولكن المفيد أحياناً، لتاريخ السلطنة من إلْتُتْمش وصاعداً، الذي يفتتح به كتابه **دِوَل راني أو عاشقة** (المتركز على قصة حب خضرخان بن علاء الدين، لإحدى الأميرات الهندوسيات)، استطاع أن يكون أكثر صدقاً، لأن علاء الدين وأبناءه، كانوا جميعاً قد ماتوا، عند استكمال القصيدة الملحمية سنة 720 هـ / 1320 م[34].

فيما عدا هذه الأعمال، نجدنا مضطرين للعودة إلى كتاب، **تاريخ فيروز شاهي** لضيائي بَرَني[35] (منجز سنة 758 هـ / 1357م)، وملحمة **فتوح السلاطين** لعصامي (750 هـ / 1349م)، جنباً إلى جنب مع **تاريخ مبارك شاهي**، الذي يعاني من كونه أقرب إلى الحوليات، ليحيى بن أحمد سرهندي، الذي كُتب في وقت متأخر 838 هـ / 1434 م. ليست المراجع المتوافرة لعصامي وسرهندي معروفة؛ وقد يكون الثاني أفاد من التتمة، التي باتت الآن مفقودة (**الملحقات**)، لكتاب **طبقات ناصري**، الذي نسبه محقق القرن السابع عشر فرشتا إلى عين الدين بيجابوري (المتوفى سنة 795 هـ / 1393م)، الذي كان مثله مثل عصامي، أحد رعايا دكّا المنفصلة[36]. أما عن مصادر بَرَني، فلدينا قَدْر أكبر من

---

(34) عن هذه المؤلفات، انظر وحيد ميرزا، **حياة وأعمال أمير خسرو** (كالكوتا، 1935).

(35) مؤلفون متأخرون يدعونه ضياء الدين برني: عرفان حبيب «نظرة برني لتاريخ سلطنة دلهي»، IHR 7 (1980 ـ 1981م)، 99 هـ. 1؛ محمد بيهامادخاني، **تاريخ ـ ي محمد ـ ي** (القرن الخامس عشر)، مخطوطة BL، مسلسل 137، ملف 409 ب.

(36) فيريشتا، **غولشان ـ ي إبراهيم ـ ي**، طبعة حجرية (بومباي، 1247 هـ / 1831 ـ 1832م، جزءان)، ا، =

المعلومات. فهو يزعم أنه فيما يخص الفترة السابقة، لتولي جلال الدين خَلْجي العرش، يعتمد على الكلام، الذي سمعه من أبيه وعمه، اللذين كانا اثنين من ضباط السلاطين الخلجيين الأولين، ومن جدّه لأمّه، حسام الدين، الذي كان مدبِّراً لشؤون المنزل (وكيل دار)، لدى **باربك (أمير ـ حاجب)** بلبان، والذي عينه ذلك السلطان لاحقاً حاكماً (شِحْناً) للخناوتي[37]. أحياناً ينسب معلوماته إلى أمير خسرو، كما إلى صديق الأخير وزميله، الشاعر أمير حسن دِهلوي، وهو يزعم أنه كان على علاقة حميمة بهما كليهما[38]. وبين الحين والآخر، يورد أسماء مصادر معلومات آخرين، بمن فيهم أعيان غير معروفين من قبل، ومن بعد كانوا في خدمة بلبان[39]. غير أن تأكيد هذا المؤلف البالغ الرابعة والسبعين من العمر اعتماده، فيما يخص الفترة الممتدة، من حكم جلال الدين خَلْجي وصاعداً، على ما سبق له أن شاهده بنفسه (كان في السادسة لدى اعتلاء جلال الدين للعرش، وفي الثانية عشرة عند موته)، فلا يوحي بأي قَدْرٍ من الثقة[40]. وربما استقى بعضاً من معلوماته أيضاً من رفاق اللهو **(ندماء)**، لدى جلال الدين، بمن فيهم أمير أرسلان كلاهي، الذي يعتبره خبيراً في التاريخ، وفي أشكال سلوك الملوك **(آداب الملوك)**[41]؛ غير أن ذلك ليس مؤكداً بأي شكل من الأشكال. وفي هذه الظروف، فإن من المطمئن أن بَرَني وعصامي

= 5، 131، 165. وعين بيجابوري، انظر آ. ت. م. عبد الجبار، **محبوب ذي المِنن تذكرة أولياء الدكّان** (حيدر آباد، دكّان. 1332 هـ / 1914م)، 538 ـ 541، وقد زعم امتلاكه مخطوطة **الملحقات** التي ما لبثت أن ضاعت.

(37) حسام الدين: TFS، 32، 41، 61، 119؛ وانظر أيضاً 87. والد برني وعمه: المصدر نفسه، 25، 39، 60، 127.

(38) المصدر السابق، 67، 68، 113، 183، 360.

(39) خواجا تاج الدين مكراني: المصدر نفسه، 36. خواجا وهاكي، ابن شقيق وزير بلبان، بصري. المصدر نفسه، 114. القاضي شرف الدين* بارماس (؟): المصدر نفسه، 168 (ورد في النص المطبوع على شكل س ر ب أ ي ن، ولكن قارن مع مخطوطة BL ملف 90 ب).

(40) المصدر نفسه، 175. عن عُمر برني لدى الكتابة، انظر المصدر نفسه، 573.

(41) المصدر نفسه، 199.

اللذين، كتب كل منهما بصورة مستقلة عن الآخر، يتكرر توافقهما في تلخيصهما للأحداث، بما يؤكد أنهما كانا، يستندان إلى ذاكرة شعبية مشتركة. وثمة ظلال لروايات مشابهة، تظهر أيضاً في تاريخ دلهي الوجيز، الذي أقحمه ابن بطوطة في كتاب رحلاته.

وإذا كان الجوزجاني ميالاً إلى إدهاش قارئه، بفيض من التفاصيل المتناقضة أحياناً، فإن المشكلات التي يعاني منها عمل برني، هي مشكلات من نمط آخر. على الرغم من أن كتاب **تاريخي فيروز شاهي**، كان مخصصاً ليكون ذيلاً لكتاب **طبقات** الجوزجاني[42]، فإنه أدنى منه مستوى من بعض النواحي، إذ لا يتضمن إلاَّ القليل نسبياً من التواريخ (وبعضها غير دقيق)، ويقوم أحياناً بوصف الأحداث، بطريقة غامضة وانطباعية. والمؤلف نفسه، يعتبر العمل خلاصة **(ايجاز واختصار)**، وينكر استهداف الكمال[43]. غير أنه يحاول من الجهة الأخرى، القيام بما لم يُقْدِم عليه أي من مصادرنا الأخرى ولو عن بعد، أي بتقديم تفسير لجملة الأحداث والسياسات، مما أدى، بحد ذاته، إلى إثارة مشكلات بالغة الحدة على صعيد التفسير والتأويل[44].

فيما يخص حكم بلبان، يُصعَق القارئ، بقَدْرٍ جدير بالثناء من الاهتمام بالتحليل والتوصيف. فمملوك إلتُتمش السابق، الذي حل الآن محل أسرة سيده الحاكمة بعد استئصالها، يصوره برني حاكماً متجهماً شرساً، كان عازماً على أن يكون أكثر من مجرد أول بين أنداد (primus inter peres)[45]. سعى بوعي إلى أن ينأى بشخص السلطان، ويبعده خلف ستار كثيف من الأُبَّهة والطقوس،

---

(42) المصدر نفسه، 20 ـ 21.

(43) المصدر نفسه، 361.

(44) انظر، مثلاً، پ. هاردي، **مؤرخو هند العصر الوسيط** (لندن، 1960)، الفصل 2: هاربانس موخيا، **المؤرخون والتاريخ خلال عهد أكْبَر** (نيودلهي، 1976م)، 3 ـ 5، 10 ـ 11، 19 ـ 26؛ عرفان حبيب، «نظرة برني».

(45) TFS، 30، 34 ـ 35.

واستخدم شَبَكة واسعة من الجواسيس، والوُشاة والمخْبرين، لمراقبة نشاطات وتحركات أمرائه، وأجهز على عدد من زملائه السابقين من الطبقة الأرستقراطية. وهذا الهوس بالمظاهر الشكلية (الأتكيت)، كان لا يسمح حتى لندمائه الخاصين، بأن يروه إلا من وراء ستار (ياكتا)[46]. يقال إن بلبان، الذي كان هو نفسه من حديثي النعمة، كان يرفض ترقية ذوي الأصول الوضيعة، ويصر باستمرار على ضرورة حصر المناصب، والمراتب الأرستقراطية بذوي الأصول والجذور النبيلة. أمّا انطباع الصورة الحميمة، التي نادراً جداً ما تكون موجودة في التواريخ القروسطية، فيجري تعزيزه بعدد من الخطب، التي يقال إن السلطان ألقاها، أثناء مناقشاته مع ملوكه [أمرائه] أو أبنائه. قد نشعر، بأننا بتنا ممسكين بمفاتيح كنز حقيقي، عن سياسات بلبان، ونظريته السياسية، وهذا منعكس في التأريخ الحديث. ثمة في الحقيقة من أطرى بلبان، وهلّل له بوصفه «سلطان دلهي الوحيد، ربما، الذي قيل عنه، أنه ناقش وجهات نظره، حول المُلْك بصورة مطوّلة»[47]. غير أن هناك ما يدعو إلى مقاربة مثل هذا الخطاب غير المباشر بقدر غير قليل من التحفظ. لقد بين الدكتور بيتر هاردي أن الآراء المعبر عنها في هذه الفقرات، هي آراء برني نفسه، وقد وردت أيضاً، ولكن بشكل أكثر بروزاً، ووضوحاً في كتابه **فتاوى جهانداري** (المكتوب خلال عقد الخمسينيات من القرن الرابع عشر)، وهو كراس نصائح للسلاطين، يحتل مكاناً مناسباً له في الموروث الفارسي، المعروف باسم **مرايا الامراء** Fürstenspiegel[48].

---

(46) المصدر السابق، 33، 34 ـ 35، 40.

(47) نظامي، **بعض جوانب**، 280 ثمة وجهات نظر مماثلة في السير وولسلي هيغ، في **تاريخ الهند، كامبردج III، الأتراك والأفغان** (كامبردج، 1928م)، 74 ـ 75؛ حبيب الله، **أساس**، 162 ـ 163، 179؛ عزيز أحمد، **التاريخ السياسي**، 259 ـ 263، 267 ـ 271.

(48) ب. هاردي «**الخطاب المباشر لكتاب تاريخ ـ ي فيروز شاهي** تأليف برني ـ بين الحقيقة والخيال!» BSOAS 20 (1957م)، 315 ـ 321.

الحقبة الغياثية

تنطوي الظروف المحيطة بمصير ناصر الدين محمود شاه سنة 664 هـ / 1266م[49]، على قَدْرٍ استثنائي خاص من التعقيد. فأول التقارير التي تتحدث عن قيام بلبان، باغتيال محمود شاه يرد، في الحقيقة، في تاريخ وصّاف عن الهند؛ وقد سمع ابن بطوطة قصة مماثلة، بعد ثلاثة أو أربعة عقود، كما أنها موجودة في كتاب **فتوح السلاطين** لعصامي[50]. وبالمقابل فإن برني، لا يشير إلى أي تآمر أو مكيدة، فضلاً عن أن سرهندي، يزعم صراحة أن محمود شاه، مات ميتة طبيعية[51]. وبالتالي فإنه من المحتمل، أن يكون بلبان قد افتُري عليه ظلماً. وعلى الرغم من ذلك، فمن الواجب القول أن أياً من هذه المصادر ـ سواء أكانت تتهم بلبان باعتقال الملك أم لا ـ لا ينبئنا عما آل إليه الأبناء، الذين عُرفوا بأبوة محمود شاه لهم. فالأمير الذي جرى الاحتفال به ـ لدى إنجاب ابنة بلبان له سنة 657 هـ / 1259م ـ بكثير من الإطناب، والمبالغة من قبل الجوزجاني، كان سيجري اعتباره سلطان المستقبل بكل تأكيد[52]. ربما كان النائب قانعاً بخلافة حفيده المستقبلي، غير أن موت الصبي في مرحلة الطفولة،

---

(49) تاريخ 11 جمادى الأولى 664 هـ / 18 شباط / فبراير 1266م وارد في TMS، 39، ومؤيد بعملات محمود شاه العائدة إلى 664 هـ. غير أن من الضروري أن نلاحظ أن سرهندي يقول إن العهد دام 19 سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً: ومن شأن هذا أن يضع موت السلطان في 663 هـ / 1265 م. ومهما يكن فإن سنتي 662 و665 هـ الواردتين بالتتابع في كل من TFS، 25، وFS، 163، 164 (تر. 290، 291)، على خطأ.

(50) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص الفارسي، .Taf، 22، النص العربي .Taf 57، (تر. ألمانية 48). FS، 163 (تر. 289 ـ 290). IB، III، 170، 174 (تر. جيب، 632، 635).

(51) TMS، 39. وعن وجهتي نظر متعارضتين حول وفاة محمود شاه، انظر حبيب الله، **أساس**، 161، حيث يقال إن الاغتيال غير وارد نظراً لوضع بلبان وعلاقاته السابقة بالسلطان؛ وك. آ. نظامي، «**بلبان قاتل الملك**»، في كتابه **دراسات في تاريخ الهند الوسيط** (عليكره، 1956)، 48 ـ 62، وفي HN، 27 ـ 275 له.

(52) TN، ا، 496 (تر. 714). لعدم تسميته، يبقى حفيد بلبان من بين الأبناء الأربعة الوارد ذكرهم في ا، 475، (تر. 672) مجهولاً بالنسبة إلينا. أما إصرار رافيرتي على إقحام عبارة «الراحل، المرحوم» بعد كل اسم فليس مسوّغاً بالبيانات الواردة في أفضل المخطوطات.

ما لبث أن تمخض عن أزمة، حُلَّت عبر استئصال محمود شاه وذريَّته باتحادات أخرى. وهكذا لا يسعنا إلاّ أن نخمن ونضرب أخماساً بأسداس.

خلافاً لحال إلتُتْمش، كان بلبان ينعم بنجلين راشدين بالغين، هما محمد الذي حكم السِّند، حتى وفاته المبكرة في القتال مع المغول سنة 683 هـ / 1285م، (فعُرف بلقب: الأمير الشهيد) **خاني شهيد**؛ ومحمود الذي حمل لقب بغراخان، والذي عُيِّن حاكماً للخناوتي. غير أنه مثل سيده، ما لبث أن فقد وريثاً واعداً، وخلفه شاب طائش. فحين قضى السلطان العجوزُ نحبَه سنة 685 هـ / 1287م، بادر حزبٌ بزعامة محافظ (**كوتوال**) دلهي المتنفذ، فخر الدين، الذي كان على خلاف مع «الأمير الشهيد»، إلى تجاهل ادعاءات كل من كايخسرو بن محمود، وبغراخان في الشرق، وإلى تنصيب ابن الأخير الطائش كيقباد. أما معارضو هذا الحزب من أمثال الوزير بصري، فقد عانوا من الطرد والنفي[53]. وما لبث كيخسرو أن اغتيل لاحقاً؛ أما بغراخان، الذي اتخذ لنفسه لقب السلطان ناصر الدين، وتقدم غرباً ليتحدى كيقباد، فقد تصالح مع ابنه في لقاء لهما، على ضفاف نهر سرجو (في حديث خلّده خسرو في ملحمة **قِران السعدين**). ومسلّماً بالأمر الواقع، حصر السلطان طموحاته بإقليم البنغال، الذي بقي سلطنة مستقلة حتى سنة 724 هـ / 1324 م.

احتفل السلطان الشاب، الذي نقل مقر إقامته إلى كيلوخرى، الواقعة على بعد بضعة أميال، بتحرره من القيد، الذي كان يفرضه عليه حُكم جدّه، وغرق في بحر اللهو والملذات، تاركاً شؤون الدولة **للدادبك** القوي (أمير داد) نظام الدين. وسارع نظام الدين هذا، وهو رجل مقتدر، ولكنه عديم الضمير، ومجرَّد من المبادئ، إلى استغلال لامبالاة كيقباد، وإهماله لشؤون الدولة،

(53) TFS، 122 (وقارن 107). TMS، FS52 .، 184 ـ 186، 196 (تر. 315 ـ 316، 328). ثمة صدى لدور فخر الدين في الحكاية المحرَّمَة قليلاً التي التقطها IB، III، 175 ـ 176 (تر. حبيب، 635 ـ 636)، حيث يُشار إليه صواباً على أنه **ملك الأمراء**، ولكن على أنه نائب أيضاً، خطأ في المرة الثانية.

للإطاحة بكل من الوزير، وكبار النبلاء لدى السلطان السابق، ثم دفع السلطان، إلى مباركة اغتيال ابن عمه، خسرو، الذي كان قد وقع في الخطيئة التي لا تغتفر، المتمثلة بطلب مساعدة المغول. وما لبث كيقباد، أن تعب من الدادبك فأمر بتسميمه(54). ليس دور نظام الدين سهل التقييم؛ من الجدير بالملاحظة، أن رواية سرهندي، لا تذكره إلاّ بصورة عابرة، ولا تلمّح إلى نفوذه الكاسح. أما بالنسبة إلى برني، فإن إعدام، أو نفي كبار رجالات عهد بلبان لصالح ابنه كيومرث، أدّى إلى نسف النظام: ظهرت ثمة منافسة بين الملوك، دون أن يكون أي منهم مالكاً لما يكفي من القوة كي يفوز بالنصر. قام أمير الخَلْج بحشد أنصاره، وبفرض السيطرة على كيومرث، حتى أصبح نائباً؛ بعد فترة وجيزة، ما لبث أن أزاح السلطان الطفل، واستولى على العرش في شهر ربيع الثاني من سنة 689 هـ/ نيسان ـ أيار 1290 م. أما كيقُباد المسكين، فلم يكن قد عاش طويلاً بعد الإطاحة به، إذ قضى نحبه في التاسع عشر من محرم 689 هـ / الأول من شباط/ فبراير 1290 م. وفي رواية أنه مات جوعاً، ونتيجة الإهمال ببساطة؛ غير أن رواية أخرى تقول، إن كيقباد قد تعرَّض للاغتيال، بأمر من جلال الدين على يد ضابط كان قد أعدم أباه. تسير الأحداث في تاريخي فيروز شاه بعناد نحو الإطاحة بالغياثيين، وانتقال السلطة إلى الخَلْجيين. يقال، إن بغراخان أبلغ جلساءه، بعد المصالحة، بأنه لن يرى ابنه ثانية قط، وتنبأ بالسقوط الوشيك لأسرة بلبان الحاكمة(55).

تأتي صورة جلال الدين فيروز شاه (689 ـ 695 هـ / 1290 ـ 1296م)، بالنظر إلى هذه النذر والهواجس، أشبه بحالة السقوط المفاجئ. لقد تعيَّن على

---

(54) TFS، 170. تبدو القصة الواردة في FS، 198 ـ 200 (تر. 330 ـ 332)، حيث يقال إن نظام الدين يتجرع السم الذي أعده لكيقُباد، حكاية خيالية. وعن كيخسرو، انظر المصدر نفسه 196 ـ 198 (تر. 328 ـ 330).

(55) TFS، 150، 156.

الملوك، برأي برني، أن يوازنوا بين صفتي الخير والشر، المتناقضتين الضروريتين، إذا أُريد للملكية أن تكون (**خلافة**) لله و(**نيابة**) عنه[56]. من الواضح، بالنسبة إليه، أن جلال الدين، لم يجسد مثل هذا التوازن. فهذا المحارب القديم المجرَّب، الذي كان قد أمضى، قبل اعتلائه العرش، سنوات كثيرة، وهو يحارب المغول على الجبهات الغربية للسلطنة، جرى الحط من قَدْره، والاستخفاف به بوصفه حاكماً تقياً، ليناً ورحيماً ينأى بنفسه عن الصراعات التي من شأنها أن تودي بحياة الجنود المسلمين، ويتجنب إراقة دم خصومه؛ حتى اللصوص والأوغاد (الزعران)، الذين كانوا يُعتقلون في دلهي، كانوا يُشحنون عبرنهر الغانج نحو لخناوتي[57]. لم يتردَّد السلطان في الصفح عن كل من الملك تشهجّو، ابن أخي بلبان، الذي تمرَّد عليه سنة 689 هـ / 1290م من جهة، ومجموعة من النبلاء، كانت قد تورَّطت في مؤامرة مترددة ضده، بعيد ذلك التاريخ من جهة ثانية[58]. وفي الخطب التي يُخرجها برني من أفواه المتآمرين، ثمة انتقاد لجلال الدين، بوصفه غير جدير بالسلطنة والسيادة؛ من المحتمل أن تكون رأفته بأنصار تشهجّو، قد أغاظت أولئك الذين كانوا قد قطعوا صلاتهم بالأسرة الحاكمة البائدة. غير أن رد فعل جلال الدين على الدرويش سيدي مولّه، الذي كان نزله (**خانقاه**)، قد أصبح مركز مؤامرة أرستقراطية أخرى، والذي اعتُبر موته بدفع من السلطان، من قِبل كل من برني وعصامي، نذيراً ينبئ بانهيار النظام، جاء مختلفاً[59]. أما إذا كان سقوط جلال الدين، عقاباً سماوياً على إساءة معاملته لأحد أولياء الله الصالحين، فقد جاء

---

(56) للاطلاع على خلاصة آراء برني، انظر بيتر هاردي، «الكتابة التاريخية التعليمية عند مسلمي الهند: معالجة ضياء الدين برني لعهد السلطان محمود تُغلُق (1324 ـ 1351 م)»، في يوهانان فريدمان (محرراً)، **الإسلام في آسيا**، ا، **جنوب آسيا** (القدس، 1984م)، 41 ـ 44.

(57) TFS، 186، 213؛ 189 عن **اللصوص وقطاع الطرق** انظر هوديفالا، دراسات، ا، 266 ـ 267.

(58) TFS، 190 ـ TMS192 .، 64 ـ 65.

(59) TFS، 208، FS212 .، 217 (تر. 382).

بصورة أكثر مباشرة، جراء ثقته الطفولية الساذجة بابن أخيه المتآمر علاء الدين، الذي اغتاله في لقاء على ضفاف الغانج، في السادس عشر من رمضان 695 هـ / الثامن عشر من تموز 1296م، واستولى على العرش، وتساهله معه. ومع ذلك فإن السلطان العجوز، لم يكن شديد اللامبالاة والإهمال. فبشهادة برني نفسه، تولى جلال الدين قيادة سلسلة من الحملات، ضد الممالك الهندوسية في راجستان، وأوقف غزواً شنه أمير مغولي، اضطر للانسحاب دون قتال. أما **مفتاح الفتوح** لخسرو، الذي كُتب ولما يمض على العهد، سوى اثني عشر شهراً، فيكشف عن حقيقة أن جلال الدين، حتى في غضون تلك الفترة، بادر أيضاً إلى تجريد الحملات في سفوح الهيمالايا، ضد كل من المغول والهندوس، إضافة إلى قيامه بإخماد حركة عصيان كبرى، نظمها أنصار الأسرة الحاكمة الغيائية. يوحي المؤلف بأن السلطان، كان متمتعاً بطاقات لافتة للنظر.

يجدر بنا أن نقارن رأي برني، حول جلال الدين، بنظرته إلى بلبان. ففي السنوات القليلة الأولى من حكمه، قاد الأخير حملة على لاهور، وجبال الملح (كوهي جود)، كما خاض سلسلة من المعارك ضد ميوس (ميوات)، المضطربة القريبة من العاصمة من جهة، وضد كَفَرة كَتهِر الواقعة إلى الشرق من بداؤون من جهة ثانية. غير أنه، بعد ذلك، لا يبدو نازلاً إلى أرض المعركة شخصياً، باستثناء مسيرته الطويلة إلى البنغال، لسحق واليه المتمرِّد طُغرل. ومما تجدر ملاحظته، أن مهمته ضد المغول، كانت قد تُركت لأبنائه ولقيادات عسكرية أخرى. ثمة إشارات إلى أن تراخياً واضحاً كهذا، كان يكْمُن وراء حالات الهروب الكثيرة، للالتحاق بطغرل، ليس فقط في البنغال، بل ومن دلهي أيضاً، في أعقاب الهزيمة المبكرة لجنرالات بلبان[60]. من الواضح أن برني، يعتبر تفسير إخفاق بلبان في استئناف الحرب ضد الكفار، أحد واجباته، ويفعل ذلك

(60) TFS، 83، 84.

عن طريق إخراج مسرحية حوار، بين السلطان وبعض إخوته الشمسيين، فلدى مطالبته الملحة، بمباشرة حملات نهب وسلب، في عمق المناطق الهندوسية على غرار ممارسات آيبك وإلتُتْمش، يضطر بلبان لتبرير سياسته، متذرِّعاً بضرورة الحذر، لأن المغول كانوا قد درجوا على عادة شن غارات سنوية على الهند، ولم تعد مغادرة العاصمة، والانطلاق إلى مشروعات بعيدة، كما في الأيام الخوالي، أمراً ممكناً[61]. قد يبدو هذا، من النظرة الأولى، منطوياً على نوع من المنطق القادر على الإقناع، في سياسة السلطان البعيدة نسبياً عن روح المغامرة، بعد سنة 1270م. غير أن قدرتنا على اعتبار الأمر انعكاساً فعلياً لآراء بلبان الخاصة، تبقى ملفوفة بضباب كثيف من الشك. وبالتالي فإن التباين بين بلبان، الحاكم «القوي» الذي أصيبت طاقاته بشيء من الشلل، وجلال الدين، الذي تميَّز بقدر مثير من النشاط رغم ضعفه وهزاله، يطرح علينا نوعاً من المفارقة.

المُلك والاستقرار والخلافة الوراثية

شهدت حقبة السنوات القمرية الاثنتين والستين، الفاصلة بين تاريخ موت إلتُتْمش، في العشرين من شعبان 633 هـ / التاسع والعشرين من نيسان 1236م، واعتلاء علاء الدين محمد خَلْجي للعرش سنة 695 هـ / 1296م، شاهدة على عهود عشرة سلاطين. كانت عهود خلفاء إلتُتْمش المباشرين: فيروز شاه (633 ـ 634 هـ / 1236م)، ورضية (634 ـ 637 هـ / 1236 ـ 1240م)، وبهرم شاه (637 ـ 639 هـ / 1240 ـ 1242م)، ومسعود شاه (639 ـ 644 هـ / 1242 ـ 1246م)، سريعة الزوال بصورة استثنائية؛ أما كيقُباد (685 ـ 689 هـ / 1287 ـ 1290م)، وابن الأخير كيومرث (689 هـ / 1290م)، وجلال الدين خَلْجي (689 ـ 695هـ/ 1290 ـ 1296م)، وابنه ركن الدين ابراهيم (695 هـ / 1296م)، فلم ينعم

---

(61) المصدر نفسه، 50 ـ 51.

أي منهم بالسلطة إلاَّ لفترة وجيزة. كانت فترة بلبان نفسه (664 ـ 685 هـ / 1266 ـ 1287م) هي الأطول، لحقتها بصورة قريبة، فترة حكم آخر الشمسيين، ناصر الدين محمود شاه (644 ـ 664 هـ / 1246 ـ 1266م)؛ ولدى طرح مجموع هاتين الفترتين من المدة الإجمالية، فإن الزمن الوسطي لكل عهد يبقى أقل من عام قمري واحد. إن الوحيد الذي يُعرف يقيناً، أنه مات ميتة طبيعية بين السلاطين العشرة، هو بلبان. بقي مصير سلفه غامضاً، أما الآخرون، فكانوا ضحايا أعمال عنف، بدفع من، أو في أعقاب اعتلاء، الحاكم الذي حل محلهم، العرش في جميع الحالات، باستثناء واحدة؛ وقد كانت الحالة الاستثنائية، حالة رضية، على أيدي هندوس في أعقاب محاولة فاشلة، للإطاحة بخلفها.

لم يكن ثمة أي نظام للخلافة على ما يبدو، فضلاً عن أن دور التنصيب، كان محدوداً إلى الحدود القصوى: ما من سلطان قبل غياث الدين تُغْلُق شاه (المتوفى سنة 724 هـ / 1324م). خلفه وريثه المعيَّن، مع الاستثناء الممكن لمؤسس السلطنة. وبمقدار ما نعلم، ما من شمسي حصل على فرصة تسمية خَلَف: بل وليس معروفاً حتى ما إذا كانت رضية، أو بهرم شاه، أو مسعود شاه قد خلَّف ذرية أم لا، أو ما إذا كان أحد من أبناء محمود شاه، قد عاش بعده أم لا. هذا ولم تكن العمليات التي انخرط فيها بلبان إعداداً للخلافة، أوفر حظاً من نظيراتها لدى أسلافه الشمسيين، لأن كيقباد، كما رأينا، لم يكن وريثه. وما لبث كيقُباد هذا، وابنه أن تعرَّضا للإطاحة والاستبدال، في غضون سنوات قليلة، على يد جلال الدين الذي، حُرم أبناؤه من وراثة العرش، سنة 695 هـ / 1296م، من قبل ابن أخيه، وقاتله علاء الدين.

وهكذا، فإن تاريخ السلطنة، على امتداد الجزء الأكبر من القرن الثالث عشر، لا يبدو شديد التميز، بتوفر أساسيات الحكم المستقر، وهذا يوحي بأن المبدأ الوراثي تلقَّى ضربات موجعة. ومن غير الممكن القول، بأن الوراثة

كانت غير ذات شأن، على الرغم من إخفاق الخلافة في مراعاة أي نمط منطقي. فالارتباط مع كل من الأسر الحاكمة الحالية، والسابقة على حد سواء، يبدو، على النقيض من ذلك، منطوياً على بعض الأهمية والزخم. ولقد تعرضت محاولة مملوك إلتُتمش، عز الدين بلبان (كوشلو خان لاحقاً)، الرامية إلى إعلان نفسه سلطاناً، بعد الإطاحة ببهرم شاه في 639 هـ / 1242م، للإحباط بفعل التحرك الفوري من قبل جماعة من زملائه، الذين تجمعوا بوقار حول ضريح سيدهم، وضمنوا بقاء العرش في عائلة إلتُتمش؛ أما عز الدين فقد اضطر لأن يذعن، فوقع الاختيار على علاء الدين مسعود شاه[62]. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف استطاع أُلُغ خان بلبان، إذا كان الولاء لأسرة إلتُتمش الحاكمة على هذه الدرجة من القوة، أن يبرّر إزاحته لورثة إلتُتمش من الطريق؟ ليس لدينا أي جواب مؤكد على هذا السؤال. فما فعله بلبان سنة 664 هـ / 1266م، لم يكن أساساً، إلاّ ما كان عز الدين قد حاول فعله، غير أنه كان، دون شك، قد أمضى وقتاً أطول، دائباً على تثبيت أقدامه في المركز. ثمة ما يدعو إلى الاقتناع، بأن بلبان كان قد تزوج من إحدى بنات إلتُتمش (كما سنرى). بل كان يتمتع بحقّ حُرم منه عز الدين. كان يُظن ـ أو أراد الجوزجاني، الذي كتب سنة 658 هـ / 1260م، أن يظن الناسُ ـ أن بلبان خرج من سلالة خانات قبيلة إلتُتمش الحاكمة بالذات، سلالة الأولبرلي[63]. وكما يمكننا أن نتصوَّر، فإن ذلك

(62) TN، II، 36 (تر. 780).

(63) المصدر السابق، II، 43، 45، 47 ـ 48 (تر. 791، 796، 799 ـ 800)، وأشعار الجوزجاني في مديح بلبان، داعياً إياه «خان الإلباريين وملك (شاه) اليَمَكيين»، في II، 220 ـ 221 (تر. 1295)؛ قارن المعلومات عن والد إلتُتمِش في I، 441 (تر. 599). پ. ب. غولدن «كومانيكا الثاني» الألبرلي: أفراح وأتراح قبيلة بدوية آسيوية داخلية»، AEMA 6 (1986 [1988]، 27 ـ 28. عن اليَمَك أو الكيمك، وهم أقوام تركية تولت رئاسة اتحاد فضفاض لمجموعة قبائل في إقليم إيرتيش إلى أن تفكك [هذا الاتحاد] تحت ضغط القنجاق، انظر **حدود العالم**، ترجمة مينورسكي، 99 ـ 100، وهوامش 304 ـ 310؛ پ. پليو ول. هامبيس، **تاريخ حملات جنكيزخان**. تشنغ ـ وو تسن تشنغ ـ لو (لايدن، =

شكَّل جزءاً من حملة دعائية، وُظفت لخدمة مصالح بلبان، حين دقت ساعة اقتلاع الشمسيين من الجذور، بعد عدد قليل فقط من السنين.

ومع ذلك فإن قدرة الدم الشمسي على إضفاء الشرعية لم تتضاءل، حتى في ظل الأسر الحاكمة اللاحقة. فأمير خسرو، يجعل معز الدين كيقباد، يتباهى أمام أبيه، بانتسابه ليس فقط إلى السلطان بلبان، بل وإلى كل من إلتُتمش وناصر الدين محمود شاه، (الذي كانت ابنتُه أُمه)[64]. بالطبع، لم يكن السلاطين راغبين في تحمّل تلفيق، مثل هذه الروابط من قِبَل الآخرين. فأحد الأسباب التي دعت جلال الدين خَلْجي، أن يرد بقَدْر مفرط من القسوة، على مؤامرة تنصيب الدرويش سيدي مولَه، ربما كان كامناً في كون مؤيدي الأخير، قد خطَّطوا لتزويجه من إحدى بنات السلطان ناصر الدين (ليس واضحاً أهو الشمسي محمود شاه، أم الغياثي بوغرا خان)[65]. وحين بادرت جماعة في دلهي، بعد بضع سنوات، خلال غياب جلال الدين خَلْجي، في حملة على رنثانبور سنة 700 هـ / 1301م، إلى الإمساك بفرصتها المناسبة، للقيام بثورة وتنصيب أحد الدراويش سلطاناً، فإن بَرَني يعتبر كون ذلك الشخص، حفيد إلتُتمش من ناحية الأم أمراً يجدر أخذُه بعين الاعتبار[66]. ومن المؤكد أن أحد هواجس علاء الدين، الكامنة وراء منع مماليكه من الدخول في علاقات قربى (قرابات) دون موافقته، كان متمثلاً في الحيلولة، دون قيامهم بعقد روابط اتحادية مع سلالات ملكية أقدم[67].

ما الذي كان يشكِّل أساس، حق السلطان في الحكم، على الصعيد

= 1951، ج 1 فقط)، 95 ـ 96؛ غولدن، «شعوب سهوب روسيا الجنوبية»، في د. سينور (محرراً)، **تاريخ آسيا الداخلية المبكر ـ كامبردج**، (كامبردج، 1990م)، 277 ـ 280. نظامي (HN، 251 ـ 252 هـ. 40) يرفض (محقاً دون شك) نسب بلبان الملكي.

(64) QS، 22، HN118، ، 307.

(65) TFS، 210 ـ 211.

(66) المصدر نفسه، 279.

(67) المصدر نفسه، 286.

القانوني؟ نرى أن مصادر القرن الثالث عشر، تعطي بعض الأهمية، لتنصيب أي حاكم جديد عن طريق (**البيعة**): إعلان التعهد بالولاء[68]. يرد هذا للمرة الأولى سنة 634 هـ / 1236م، حين قام الأمراء الأتراك، الذين تخلوا عن فيروز شاه، باقتحام العاصمة وبايعوا رضيّة، كما يقول الجوزجاني. وعند خلعها عن العرش سنة 637 هـ / 1240م، أدّى الملوك والأمراء «يمين ولاء عام»، (**بيعة عامة**) لكل من بهرم شاه، والنائب آيتكين، الذي شغل هذا المنصب الذي تم استحداثه، في القصر الملكي (الدولت خان) بدلهي. والجوزجاني الذي توحي صياغته، بأنه ربما كان مشاركاً شخصياً في المراسم، يقول بأن الاحتفال حضره «الملوك والأمراء، ورجال الدين (العلماء)، والأعيان، وكبار القوم، والشخصيات القيادية في العسكر والحضرة (العاصمة) (أكابر لشگر وحضرت)». ولدى ورود أنباء سقوط لاهور بيد المغول سنة 639 هـ / 1241م، حرص بهرم شاه، على جعل «أهالي المدينة» (خَلْقي شَهْر)، يكرّرون بيعتهم مرة أخرى. وبالتالي فإن القَسَم يجب أن يكون قد أدّاه كبار مواطني دلهي المسلمين، الذين كانوا كما سنرى، لا يزالون يُعتبرون **خَلْق** («الشعب» بامتياز) بنظر برني، بعد ما يزيد عن قرن من الزمن. وعملية توسيع دائرة الأشخاص المطالَبين بالبيعة، ما لبثت أن شكّلت سابقة، بالنسبة إلى الحاكم التالي، لأن الأمراء بادروا، لدى إجلاس علاء الدين على العرش، كما يقال لنا، إلى «سَوْق الشعب إلى تقديم فروض الولاء بصورة عامة» (خلق را بيعتي سنة دادند)[69].

يقدم الجوزجاني أوفى أشكال الوصف **للبيعة**، بمناسبة اعتلاء ناصر الدين محمود شاه، العرش سنة 644 هـ / 1246م، ويبين أن العملية شهدت في الحقيقة طقسين شاملين، لأعيان دلهي ومواطنيها على التوالي:

«هرع الملوك والأمراء، والصدور والكبار (كُبرا)، والسادة (سادات)،

---

(68) إ. تيان «البيعة»، Enc. Isl^2.

(69) TN، ا، 456، 463، 466، 468، والا، 23 (تر. 636، 649، 656، 661، 750 ـ 751).

و«رجال الدين» (العلماء)، إلى البلاط المجيد، ونالوا شرف تقبيل يد ملك الملوك (شاهنشاه)... وكل، بما يناسب مرتبته (حاله)، قدم التهاني على اعتلاء العرش. وفي يوم الثلاثاء الواقع في الخامس والعشرين [من محرم]، عقد اجتماع عام، في الصالة كُشكي فيروزي في (قصر) الدولت خانه؛ وجرت إدارة أداء عام، لقَسَم الولاء (بيعتي عام) من قبل الشعب (خلق) [اعترافاً] بسيادة ذلك... العاهل والتزاماً بالامتثال لمراسيمه (فرماناته)[70].

وعلى الرغم من أننا لا نملك، إلاّ قدراً أقل من المعلومات عن مبايعة (بيعت) خلفاء محمود شاه، فإن ما يبدو هو أنها أخذت نمطاً مشابهاً، لأن هناك من أبلغ ابن بطوطة، بأن بيعة كيقباد، تمّت أول الأمر من جانب ملك الأمراء (الكوتوال فخر الدين)، ثم تبعه الأمراء وكبار الضباط، وفي صباح اليوم التالي، جاء دور «باقي الشعب» (أي أهالي دلهي)[71]. منذ عهد بلبان، على الأقل، كان يُنتظر من أي سلطان جديد، أن يأمر بإطلاق سراح السجناء، وهي ممارسة ظلّت متبعة، حتى زمن جلوس قطب الدين مبارك شاه، على العرش سنة 716 هـ / 1316 م[72].

يعكس توسيع دائرة **البيعة**، الأهمية المتنامية لقيادات مواطني دلهي المسلمين التي سبق لها أن لعبت دوراً معيَّناً في صعود رضيّة، والتي يجب أن تكون قد وفَّرت لبهرم شاه، قَدْراً غير قليل من الدعم، لتمكينه من مقاومة الحصار، على المدينة، لمدة ثلاثة أشهر تقريباً سنة 639 ـ / 1242 م[73]. كما

(70) المصدر نفسه، I، 477 (تر. 675 ـ 676 معدل).

(71) IB، III، 176 ـ 177 (تر. جيب 636). TMS، 39 ـ 40، 53. عن **مبايعة** جلال الدين في كيلوخري، انظر TFS، 181.

(72) أمير حسن دحلاوي، **عشق ـ نامه** (700 هـ / 1301م)، تر. م. إ. بوراه، «عرض موجز لمنسوبة رومانسية غير منشورة لأمير حسن دحلاوي»، NIA، (1939 ـ 1940م)، TFS 260، FS382 .، 354 (تر. 551 ـ 552).

(73) TN، I، 467 (تر. 635 ـ 636، 659). IB، III، 166 ـ 167 (تر. حبيب 631). HN، 241 ـ 242.

أن قدرة هؤلاء على التأثير في الأحداث، لم تتوقف بعد قيام كيقباد، بنقل مقر إقامته إلى كيلوخري، الأقرب إلى عيونه ببضعة أميال، والمشار إليها بوصفها «البلدة الجديدة» (شهرى ناو) سنة 658 هـ / 1260 م[74]. وفي 689 هـ / 1290م، مُنع آل جلال الدين خَلْجي، بسبب قربهم من الأسرة الحاكمة الغياثية مع عدائهم للنظام الجديد من الإقامة، والاستقرار في دلهي لبعض الوقت[75]. أحياناً كانوا، أيضاً، يقعون في صدام مع سلطانهم. ففي أعقاب حركة تمرد فاشلة عام 700 هـ / 1301م، صار علاء الدين يشعر بقدر من الكره لأعيان دلهي. جرى نفي الكثير من كبار القوم، وبات السلطان عازفاً عن دخول المدينة ليقيم، بدلاً منها، في الضواحي (عمرانات)؛ وقد يكون جانب من سبب قيامه لاحقاً، بتحصين سيري وجعلها مقراً، عائداً لهذا[76]. وفيما بعد ثمة تقارير تتحدث عن قدر من الضغائن، بين أهالي دلهي ومحمد بن تُغْلُق.

ما زال مؤرِّخو سلطنة دلهي ينتظرون تقنيات التحليل الأدبي، التي اعتمدتها مارلين روبنسون والدمان في رسالتها حول المؤرِّخ الغزنوي، المعروف باسم **البيهقي**[77]. غير أن من الملاحظ، أنهم يتحرَّكون على مستوى مختلف عن مستويات أولئك، الذين باتوا يستخدمون كتاباتهم. لقد

---

(74) عن كيلوخري، انظر TN، اا، 83 (تر. 856 ـ 857)؛ يرد الذكر الأول في ا، 456 (تر. 634، 636).

(75) TFS، 172، 173.

(76) المصدر نفسه FS283 .، 277 (تر. 453)، يؤكد سخطه. عن علاء الدين وسيري، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 326.

(77) م. و. فالدمان، **نحو نظرية لكتابة تاريخية: دراسة ميدانية لفن التأريخ الفارسي ـ الإسلامي** (كولومبوس، أوهايو، 1980م) (قارن أيضاً إ. آ. بولياكوفا، «تطور نوع أدبي في التواريخ الفارسية الوسيطة: انتصار الأتيكيت»، **دراسات إيرانية** 17 (1984م)، 237 ـ 256). غير أن عليك أن تنظر بيتر هاردي، «مقاربات الكتابة التاريخية الهندية ـ الإسلامية ما قبل الحديثة: بعضُ عمليات إعادة النظر في 1990 ـ 1991 م»، في بيتر روب (محرراً) **المجتمع والإيديولوجيا. مقالات في تاريخ آسيا الجنوبية قُدمت إلى البروفسور ك. آ. بالهاتشيت** (أوكسفورد ودلهي، 1993م)، 49 ـ 71.

كانوا (وربما برني خصوصاً) يسعون إلى عكس نظام زمني مثالي، يكون فيه العالم محكوماً بصورة مشتركة من قبل رجال علم، وسلاطين متميزين بالتقوى، نظام يكون فيه التغيير مفهوماً لا من منطلق الأعمال البشرية التي يقوم المؤرّخون أنفسهم بالحديث عنها، بل على أساس العناية (الإلهية)[78].
من المؤكَّد أن من شأن أحكام أي من جوزجاني أو برني، أن يكشف عن الشخصيات الحقيقية، بمقدار ما كان متوقعاً من أي حاكم. كان نشر العدل بين الرعية، والإشراف على شؤون الدولة شخصياً من الأمور الضرورية؛ كان إغراق المؤسسات الخيرية الإسلامية بالهبات السخية، وتكريم رجال الدين «العلماء»، وغيرهم من أفراد الطبقة الدينية والتعامل معهم باحترام، من الفضائل التي امتُدح عليها حتى الشاه المستبد الظالم تركين[79]، والتي كان بهرم شاه مفتقراً إليها بصورة فاضحة. هذا ولم يكن اللين من الفضائل التي تزيّن أي سلطان. فسعة صدر فيروزشاه وإنسانيته (حلم ومروّه)، تستثيران قدراً ملحوظاً من الإطراء، غير أن عزوفه عن إلحاق الأذى بأي إنسان آخر، يجري تقديمه بوصفه أحد أسباب سقوطه. كما أن تعامل مسعود شاه بالرأفة مع أعمامه الذين أطلق سراحهم من السجن، ما لبث أن وفَّر للأمراء بديلاً مناسباً عن حكمه هو[80]. كان على العاهل أن يعرف كيف ومتى يتصرَّف بقسوة، ومتى يميل إلى إبداء الشفقة والرأفة، متحاشياً بالتالي الموقفين المتطرفين لكل من بلبان وجلال الدين. كثيراً ما جرى تصوير إدمان السلطان على اللهو سبيلاً إلى الفوضى، واعتبار استهجان ومَقْت الترف والأُبَّهة والمظاهر، كما تجلَّت في بلبان شاه، جديراً بالثناء[81]، مثله مثل الكرم، شرط أن يكون موجَّهاً نحو

---

(78) بيتر هاردي، «المؤرخون المسلمون لسلطنة دلهي: هل ما يقولونه هو ما يعنون بالفعل؟» JASP 9 (1964م)، الجزء الأول، 59 ـ 63؛ أيضاً مقاله، «القوة والعنف» خصوصاً 196 ـ 204.

(79) TN، ا، 454، (تر. 630 ـ 631).

(80) المصدر نفسه، ا، 454، 457، 470 (تر. 630، 637، 664 ـ 665).

(81) المصدر نفسه، ا، 462 (تر. 649).

المستحقين، من ذوي الشأن (لا نحو المقرَّبين من ذوي النسب الوضيع، كما كانت حال سخاء فيروز شاه ومسعود شاه وكيقباد). ولربما تمكَّنَّا أيضاً من أن نلاحظ أن الكرم، كان حيوياً إضفاؤه على الملوك والأمراء الموروثين عن أسلاف السلطان القائم: فكل من الحقبة الشمسية من جهة، وفترة حكم كيقباد من جهة ثانية، ملأى بالقصص المشحونة بالعبر المنبِّهة، حول مصائر السلاطين الذين استهانوا بهذا المبدأ الأخير.

الفصل الرابع

الأتراك والطاجيك والخَلْج[1]

الأتراك والمماليك العسكريون

تتضمن الطبقة الثانية والعشرون من عمل الجوزجاني، سِيَر حياة خمسة وعشرين غلاماً أو مملوكاً شمسياً. وعلى الرغم من أن المؤرِّخ لا يُلْصِق صفة العبودية، أو المملوكية بكل حالة، فإن استخدامه لكلمة «تركي»، تعني في مصطَلَحِهِ مملوكاً تركياً، (انظر الملحق رقم: 1). فعدد من هؤلاء الأمراء، كانوا قد مُنحوا، خلال عهد إلتُتْمش، ألقاباً تركية منطوية على عنصر **خان** - وهي ألقاب لم تكن، كما ينبغي أن نلاحظ، ملازمة للأعيان الغوريين، أو الطاجيك، مما يجعلها تمثل ظاهرة جديدة أو بِدْعة[2]. ومع ذلك فإن عدداً لا يستهان به من الخمسة والعشرين، لم يحصلوا على مناصب عالية، إلاَّ بعد وفاة سيدهم ببعض الوقت. ويحظى سلطان المستقبل بلبان، بوصفه وليَّ نعمة الجوزجاني بالذات، ونائب العاهل الحاكم، بالسيرة الأطول. كذلك نجد قائمة الغلمان التي تمثلها السِّيَر بعيدة، بطبيعة الحال، عن أن تكون شاملة؛ فهنا وفي أماكن أخرى من **الطبقات**، ثمة آخرون من مماليك إلتُتْمش، ممن لم

---

(1) ليس هذا الفصل إلاّ نسخة موسّعة جداً لمقالي «المؤسسة المملوكية في الهند الإسلامية المبكرة»، JRAS (1990م)، 340 ـ 358.

(2) ع. حبيب، «تشكل»، 11 و هـ. 62.

يجر تخصيصهم بسِيَر حياة مستقلة، يتم لفت أنظارنا إليهم.

يساعد انحياز الطبقة الثانية والعشرين الصارخة، إلى الضباط المماليك الأتراك، على طَمْس إحدى الحقائق المهمة. إذ لم يتمتَّع الغلمان الأتراك، في أي وقت، باحتكار المراتب، والمناصب التي يبدو أنهم درجوا على شَغْلها في مصر. وثمة فرق آخر ذو أهمية، كان متمثلاً بفُرَص التقدم المتاحة لذراري الغلمان في سلطنة دلهي. ولم تكن تلك هي الحال في مصر، حيث كان أبناء المماليك ـ **أولاد الناس** ـ يتعرَّضون للاستبعاد المتعمَّد من المناصب الأعلى في الدولة[3]. في الهند أيضاً كان الغلمان الأتراك، ملزمين باقتسام السلطة مع جماعات أخرى غير مملوكية، ضمَّت ليس فقط أعياناً من الأتراك، والخَلْج والغوريين والطاجيك، والمغول (بدءاً بعهد بلبان)، بل وعناصر مملوكية أخرى، سوداء إفريقية (**أحباشاً**، من «الحبشة» حرفياً)[4] من جهة، وهندية من جهة ثانية. وعلى الرغم من أن الجوزجاني يأتي على ذكر مُشاة، بايك[5]، هندوس منخرطين في حملات إسلامية، فإننا لا نقرأ عن هؤلاء، بوصفهم مشكِّلين حَرَساً ملكياً، حتى عهد بلبان؛ ولم يضطلعوا بدور أبرز، إلاَّ في الحقبة الخَلْجية. أخيراً صارت الوحدات الأفغانية، جزءاً من المؤسسة العسكرية لدى سلطنة القرن الثالث عشر، رغم أنها لا تظهر في المصادر إلاَّ لماماً[6].

يستحيل التوثيق لتدريب المماليك الأتراك في السلطنة، كما جرى بالنسبة

---

(3) د. أيالون، «دراسات حول بنية الجيش المملوكي ـ II»، BSOAS 15 (1953م)، 456 ـ 458، طُبعت ثانيةً في كتابه **دراسات حول مماليك مصر (1250 ـ 1517م)** (لندن، 1977م)؛ انظر أيضاً مقاله «أولاد الناس»، Enc. Isl.[2].

(4) سي. ف. بكينغهام، «جيش، حبشه III»، Enc. Isl[2].

(5) السير هنري يول وآ. س. بورنل، هوبسون ـ جوبسون: **مسرد الكلمات والتعبيرات الأنجلو ـ هندية العامية** طبعة جديدة، ف. كروك (لندن، 1903)، 748 ـ 749، «Paik, pyke».

(6) TN، II، 80 (تر. 852). TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 52 (مقتطفات تر. في ميرزا، **حياة وأعمال**، 51 ـ 52). QS، TFS. 47 . 58.

إلى مصر المملوكية، أو القيام بمَسْح لفصائل المماليك، من ذلك النوع الذي كتبه البروفسور إدموند بوزوورث عن الغزنويين[7]. يمكننا أن نخمِّن، حتى في غياب تلميحات الجوزجاني العابرة، أن الإنجازات ذات القيمة الاستثنائية، كانت محصورةً في مهارتي الفروسية والرماية[8]. غير أن ذلك لا يعني أن مهارات أخرى لم تكن معروفة؛ فقد سبق لأيبك أن تلقَّى من سيِّده تعليماً في مجال تلاوة القرآن، مما جعله يُعرف بلقب **قرآن ـ خوان**[9]. لا تنبئنا المراجع عادةً بالمنعطف، الذي كان يتم فيه عتْق المملوك أو العبد. يزعم الجوزجاني أن كلاً من آيبك ويلدز، طالبا السلطان الغوري الجديد، بالتحرير لدى موت معز الدين. وحسب ما يقوله المؤلِّف نفسه، فإن إلتتمش كان قد حصل من آيبك، على حريته بتوجيه صريح من معز الدين حتى قبل ذلك، وقد سمع ابن بطوطة لاحقاً، قصة تقول بأنه أبرز صك إعتاقه أمام قضاة دلهي، حين أصبح سلطاناً[10]. ونعلم من برني وحده أن بلبان، كان قد أُعتق في موعد سبق اعتلاءه العرش[11]. لقد حمل مماليك السلطان الحاكم لقب «السلطاني»[12]. ومن غير الواضح، ما إذا كان ثمة أية **نقيصة** cursus honorum، قابلة للتعرف عليها في ثنايا هذا اللقب.

تكشف المعلومات، المقدمة إلينا عن المماليك الشمسيين الخمسة والعشرين، عن أصول إثنية (عرقية) وجغرافية مختلفة. واحد منهم فقط كان

---

(7) خشنين ربيع، «تدريب الفارس المملوكي»، في باري ورياب، **الحرب والتكنولوجيا والمجتمع**، 153 ـ 163. سي. إ. بوزوورث، «التنظيم العسكري الغزنوي»، مجلة الإسلام الألمانية 36 (1960م)، 40 ـ 50. أيضاً في المكان نفسه، **الغزنويون**، 101ـ 106.

(8) TN، I، 416 (تر. 513، عن آيبك؛ I، 443 (تر. 604 ـ 605)، عن مآثر إلتُتمِش في المعركة مع الخوخار؛ II، 27 (تر. 756)، عن كِرت خان.

(9) SA، 21.

(10) TN، I، 373، 444 (تر. 398، 605). IB، III، 164 (تر. جيب 629 ـ 630).

(11) TFS، 25، آزاد شودا (بالإذن من نظامي، في HN، 281).

(12) HN، 224. عزيز أحمد «النواة التركية المبكرة في الهند»، تُركيكا 9 (1977م)، 101، 102، يفترض خطأ أن الذيل يعني مهاجرين أحراراً.

على ما يبدو هندوسياً، ربما كان شاغلاً لمنصب مدبِّر البيت، المسؤول الأول عن غلمان السلطان، لأن الجوزجاني يقول إنه كان يحمل لقب **مختاري مبارك**، كما كان بمثابة الأب بالنسبة إلى نظرائه الشمسيين[13]. كانت جماعة الغلمان الأتراك، تضم أفراداً من الروم، (يفترض أن يكونوا يونانيين أو صقالبة [سلافاً]، من المناطق البيزنطية)[14]، و«خِطائيين» (من الصين الشمالية)، ممن كانت أصولهم الإثنية قابلة، أو غير قابلة للتمييز عن أصول القَرَه خِطائيين (أي قره خطاي)[15]. كان الكثير من الشمسيين، ينتمون إلى القِبجاق، تلك المجموعة من القبائل، التي كانت تشغل السهوب، الممتدة إلى الشمال من البحرين الأسود وقزوين[16]. أخيراً لا بدَّ من الإتيان، بشكل خاص، على ذكر أولئك المنتمين إلى قوم إلتُتمش بالذات، وإلى الأولْبَرلي، تلك الجماعة الفرعية المنتسبة إلى القِبجاق، (أو ربما القانغلي الذين كانوا وثيقي القرب منهم). لقد كان سلطان المستقبل بهاء الدين بلبان، المعروف باسم بلباني خورد (الأصغر) واحداً منهم[17].

---

(13) TN، II، 18 ـ 19 (تر. 744 ـ 746). عن وضع **مِهتار ـ ي ساراي ـ ي** في البلاط الغزنوي، انظر بوزوورث، **الغزنويون**، 104.

(14) عز الدين كبير خان آياز (آقاز، «واضح» «بلا ضباب»: سوفاجيه، «الأسماء والألقاب»، رقم 36) بدر الدين سنقر «الطير الحر ـ الصقر»: المصدر نفسه، رقم: 22، وبلبر الدين سنقر آخر سيحصل لاحقاً على لقب نُصرت خان: TN، II، 5، 24، 42 (تر. 724، 752، 787).

(15) الخطائيون: سيف الدين آيبك، الملقب **باغنتوت** («صَيّاد الفيلة») وسيف الدين إيكيت خان آيبكي خطاي ـ ي، المصدر السابق، II، 9، 28 (تر. 731، 757). القره خطائيون: عز الدين طغرل توغان خان (**توغان**، «صقر»: سوفاجيه، رقم: 140)، اختيار الدين آيتغين قراقوش خان (**آيتغين**، «قمر ـ أمير»: المصدر نفسه، رقم: 41؛ قراقوش «طير أسود»: كلاوسون، **قاموس جذور**. . . 670) واختيار الدين آيتغين آخر (المملوك الأول الذي لن يلبث لاحقاً أن يتولى منصب نائب): TN، II، 13، 19، 22 (تر. 736، 746، 749). عن لقب إيكيت خان انظر ص 73، هـ. 76 من هذا الكتاب.

(16) قمر الدين قيران تَمُر خان؛ تاج الدين سنجر، ملقب بـ **قَبه قولاق**: انظر كلاوسون **قاموس جذور**. . . 580 ـ 581، 621، وجاكسون «**مؤسسة مملوكية**» 342 هـ. 7)؛ تاج الدين سنجر كِرت خان؛ اختيار الدين يوزبغ طغرل خان: عز الدين بلبان (لُقّب لاحقاً كوشلوخان)؛ وسيف الدين آيبك شمس ـ ي عجمي: TN، II، 17، 25، 27، 30، 36، 40 (تر. 742، 754، 756، 775، 788 ـ 789).

(17) لتمييزه عن عز الدين بلبان (انظر الهامشين السابقين واللاحقين). أمّا الآخرون فكانوا أخاه سيف =

على الرغم من أن الشمسيين، ضمُّوا عدداً من الغلمان السابقين لحكام آخرين[18]، فإن أكثرهم تم الحصول عليهم، من تجار الرقيق بصورة مباشرة: فقد سمع ابن بطوطة بعد زمن طويل، أن السلطان إلتُتْمش أوفد تجاراً إلى كل من سمرقند، وبخارى وترِمِذ لشراء المماليك الأتراك لصالحه[19]. وقد تأرجح تاريخ الشراء عبر فترة غير قصيرة من الزمن، بدءاً بتولي إلتُتْمش منصب مُقْطَع بَرَن[20]. كانت أشكال وصول الشباب الأتراك، الموجهين إلى مصر وسورية إلى أيدي تجار الرقيق متباينة[21]، ويجب قول الشيء ذاته عن الهند الإسلامية. يقال إن إلتُتْمش بالذات، كان قد بيع رقيقاً من قِبَل أشقائه الغيورين، مما مكَّن الجوزجاني من تشبيهه بالنبي يوسف (القرآن الكريم، السورة: 12؛ الآيات 7 ـ 20)[22]. أما عن سيف الدين آيبك (داديغ لاحقاً)، فيقال أن استعباده تم «بسبب فساد علاقات القربى». وثمة اثنان آخران أُشيع عنهما، أنهما من أصول مسلمة، وقد كان استعبادهما، بالتالي، غير شرعي[23]. يقال إن كشلي خان، قد جرى

= الدين آيبك (لُقِّب كيشلي خان لاحقاً)؛ وابن عمهما نُصرت الدين سنجر (شيرخان): يقرأ اسم شيرخان في رافيرتي على شكل سنقر؛ غير أن مخطوطة BL، ملف 211 أ، ومخطوطة IOL ملف 291 ب، تقولان س ن ج ر. وعن إلحاق إلتُتمِش وهؤلاء الغلمان بالألبرلي، انظر TN، I، 440، 441 وII، 43، 45، 47 (تر. 598، 599، 791، 796، 800)؛ أيضاً غولدن، «كومانيكا II الأوبرلي». عن علاقة القبجاق - قانغلي، انظر پليو وهامبيس، **تاريخ حملات**. . 95 ـ 115؛ **حدود العالم**، تر. مينورسكي، 304 ـ 310؛ سي. إ. بوزوورث، «كانغلي» Enc. Isl². .

(18) عز الدين كبير خان آياز تم شراؤه من عائلة **أميري شيكار يلدز**؛ ناصر الدين أيتَمُر البهائي، أخذ اسمه لأنه كان مملوكاً لبهاء الدين طغرل؛ ونصرت الدين تايسي، وقد سبق له أن كان مملوكاً لمعز الدين نفسه: TN، II، 5، 7، 10 (تر. 724 ـ 725، 727، 732). أمّا معنى اسم تايسي الذي يرد بصورة مطردة على شكل ت ا ي س ي في مخطوطة BL (ملف 182 ب، 199 ب، 200 ب، 202 أ)، فليس معروفاً.

(19) IB، III، 171 (تر. جيب، 633).

(20) TN، II، 4 (تر. 723).

(21) د. آيالون، «مملوك»، Enc. Isl²، VI، 314.

(22) TN، I، 441 (تر. 599 ـ 600)؛ وقارن مع الملاحظات عن يوسف (جوزيف) في I، 439، (تر. 596 ـ 597).

(23) سيف الدين: عبارة محذوفة في طبعة حبيبي، المصدر السابق، II، 41، ولكن قارن مع مخطوطة BL، ملف 211 آ، **باعِنادي أقربا**، الأبوة الإسلامية: TN، II، 24، 33 ـ 34 (تر. 752، 766).

استعباده صغيراً، جراء وقوعه بأيدي المغول[24]. فمنذ عشرينيات القرن الثالث عشر، تمخض تقدم المغول نحو الغرب، عن زيادة حادة في أعداد المماليك الأتراك المعروضين للبيع، خصوصاً من السهوب الممتدة شمالي البحرين الأسود وقزوين. دأب الحكام عديمو الضمير، على الإمساك بأولئك الذين كانوا يلوذون بهم، طلباً للحماية وتحويلهم إلى أسرى معروضين للبيع، كما فعل الزعيم التركي في القرم الذي قام، سنة 640 هـ / 1242 ـ 1243م، ببيع سلطان المستقبل المملوكي بيبرس[25]. وثمة هاربون يائسون لا حول لهم ولا قوة، كانوا يضطرون إلى مقايضة أولادهم بحاجات الحياة الضرورية؛ كما أن الفاتحين أنفسهم، دأبوا على تحويل الغنائم البشرية إلى أصول أكثر سيولة، عن طريق التخلص من أسراهم ذوي الأجساد السليمة في السوق. ومن الممكن أن يكون إلتُتْمش أيضاً قد أفاد من الاضطرابات الداخلية العنيفة، التي أصابت قوم الأولْبرلي المبتلىٰ بالويلات[26].

تبقى إغراءات امتلاك جيش نخبوي، مؤلف من مماليك عسكريين ليسوا من ذوي الارتباطات المحلية، ويكون ولاؤهم الوحيد للسيد الذي اشتراهم ورعاهم، وأعالهم، ودرّبهم (وأعتقهم أحياناً) قويةً وظاهرة. ثمة عدد من المؤلفين، بمن فيهم الأديب المعروف الجاحظ في القرن التاسع، وابن حصّول في القرن الحادي عشر، والوزير السلجوقي نظام الملك (متوفى سنة 485 هـ / 1092م)، دأبوا على إطراء الغلمانِ الأتراك[27]. وفي مطلع القرن الثالث عشر،

---

(24) المصدر نفسه، II، 45 (تر. 796).

(25) بيتر ثورو، **أَسَدُ مصر: السلطان بيبرس الأول والشرق الأدنى في القرن الثالث عشر**، تر. ب. م. هولت (لندن، 1992)، 28. اليونيني، **الذيل على مرآة الزمان** (حيدر آباد، AP، 1374 ـ 1381 هـ) 1954 ـ 1961م، 4 أجزاء)، III، 240.

(26) TN، II، 45 (تر. 796). غولدن «كومانيكا II. الألبرلي»، 28؛ وتوماس ت. آلسن، «مدخل إلى الحملات الغربية: العمليات العسكرية المغولية في منطقة الفولغا ـ الأورال، 1217 ـ 1237 م» AEMA 3 (1983م)، 5 ـ 24 (خصوصاً 16).

(27) سي. ت. هارلي ووكر «رسالة الجاحظ البصري إلى الفتح ابن خاقان عن مآثر الترك وجند الخلافة =

كان فخر مدبِّر (المعروف بأنه كان يكتب لعاهل، كان هو نفسه مملوكاً أو غلاماً) الاسم الأخير في لائحة المؤلفين الذين احترفوا ذلك. يقول:

> ليس هناك أقوام من الكفار، يجري دخولهم في الإسلام، ولا يبقون متطلعين نحو الوطن، والأم والأب والأقارب: صحيح أن كثيراً من هؤلاء، يحسُنُ إسلامهم ويستمر، غير أن بعضهم سرعان ما يرتدون، وينتكسون عائدين إلى مجاهل الوثنية. أما الاستثناء، فنجده عند الجنس التركي، عند الأتراك الذين يبادرون، لحظة إدخالهم في الإسلام، إلى التعلق، بصِدقٍ وثبات، بالدين الجديد، تعلقاً شديداً ينسيهم الوطن، أو المنطقة أو الأقارب أو الأهل. . . إن التركي شبيه باللؤلؤة القابعة داخل المحارة في عمق البحر؛ تلك اللؤلؤة التي لا قيمة لها، ولا وزن طوال مدة بقائها داخل قوقعتها؛ غير أنها لا تلبث، لحظة خروجها من المحارة ومن البحر، أن تكتسب قيمة وتغدو ثمينة، تزين تيجان الملوك، وتتصدر أعناق العرائس وآذانهن(28).

غير أن هذا لا يعني أن المعاصرين، كانوا غافلين عن عيوب الأتراك. ففي إحدى نوادر عوفي، يتعمد إلتُتْمش اختيار أحد الطاجيك، لتقصي مصالح

= عموماً» JRAS (1915م) 631 ـ 397 (خصوصاً 662 وبعدها، 682، 685). ابن حسول، رسالة، تحقيق عباس عزاوي وتر. شرف الدين يلتقايا «أحد مؤلفات ابن حسول عن الأتراك»، نشرة 4 (1940م)، النص العربي 40 ـ 43، تر. تركية 259 ـ 261 (أنا مدين بهذه الإشارة للطف الدكتورة كارول هيلنبراند). ثمة فقرات من هذا المقطع الأخير مترجمة في مقال د. آيالون، «مماليك السلاجقة: قوة الإسلام العسكرية عند مفترق الطرق»، JRAS، السلسلة 3، 6 (1996م)، 314 ـ 315. تابع في المصدر نفسه، 316 ـ 319؛ وللمزيد من الإشارات، المصدر ذاته، «أبعاد ظاهرة المماليك، أ. أهمية المؤسسة المملوكية»، **مجلة إسلام**، 53 (1976م)، 212 ـ 216، طُبعت ثانية في كتابه **المجتمع العسكري المملوكي**؛ آندري وينك، «الهند وآسيا الوسطى: مجيء الأتراك في القرن الحادي عشر»، في آ. و. فان دن هويك وآخرين (محررين)، **الطقوس، الدولة والتاريخ في جنوب آسيا**. مقالات تكريماً لـ ج. سي. هيسترمان (لايدن، 1992)، 764 ـ 765.

(28) SA، 35 ـ 37.

أحد الضباط المالية، وهي مهمة حساسة لا يُعهد بها إلى تركي، لأن «**تهوره**»، يكون من شأنه أن يجعله غير مؤهل[29]. ليست مسألة مدى عمق غَرْس الإسلام، في قلوب أبناء ذلك الجيل الأول من المهتدين الجدد قضية ذات شأن. فأصول المماليك وجذورهم، كانت ممتدة إلى السهوب الوثنية المترامية في آسيا الوسطى والغربية، على الرغم من احتمال تمتعهم بالمحاسن الناجمة، عن الحصول على تربية إسلامية متشدِّدة. لسنا هنا بصدد التحرِّي عن استمرار، وجود وثنيين مستترين باقين في الجماعات التركية المسلمة[30]؛ غير أن من شأن تنصيب رضيّة، أن يكون ذا دلالة. على الرغم من أن اعتلاء ملكة (بدلاً من ملك) عرش البلاد، كان أمراً غير مسبوق في العالم الإسلامي، فإن قائمة سلاطين **قرة ـ خيطاي** في القرن الثاني عشر، تتضمَّن مثالين. وكما سبق لنا أن رأينا، فإن بعض غلمان إلتُتمش، كانوا ينتمون إلى الخيطان، أو القَرَه ـ خيطان، وكانت المرأة في السهوب الشرقية، تتمتع عموماً بقدر أكبر من الحرية[31]. ومن الاحتمالات الواردة بقوة، أن الضباط الأتراك كانوا، في عملية تربيتهم لابنة سيدهم، شديدي التأثر بخلفيتهم الوثنية.

مشكلة الشيهلغانيين

مع أن كتاب **تاريخي فيروز شاهي** للبرني، يبدأ بجلوس بلبان على

---

(29) JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 263 ب.

(30) ج. پ. رو، «تحري البقايا الموروثة عما قبل الإسلام في النصوص الإسلامية التركية: **البابر ـ نامه**» JA 256 (1968م)، 247 ـ 261، و«تحري البقايا الموروثة عما قبل الإسلام في النصوص الإسلامية التركية: كتاب دَهْ دَه قرقوت»، JA 264 (1976م)، 35 ـ 55.

(31) الفكرة أوردها حبيب الله، «سلطانه رضية (كذا)»، IHO 16 (1940)، 752، رغم أن أمثلته الأخرى تضم ملكات. انظر أيضاً مقالي، «سلطانه رضية بنت إلتُتمِش» في غافين ر. ج. هامبلي (محرراً)، **النساء في العالم الإسلامي الوسيط: النفوذ والولاية والتقوى** (نيويورك، 1998م)، 181 ـ 197. عن القره خِطاي، انظر كارل آ. فيتفوغل وفنغ تشياتشنغ، **تاريخ المجتمع الصيني: لياو** 907 ـ 1125م (فيلادلفيا، 1949م)، 643، 644، 646؛ أيضاً الملاحظات حول حكام اللياو في الصين، المصدر نفسه، 199 ـ 202. لم يكن الجوزجاني متنبهاً إلاّ إلى واحدة من ملكات القره خيطاي: TN، II، 95 ـ 96 (تر. 911).

العرش، فإن المؤلف يصدِّر روايته لقصة العهد، ببعض الملاحظات عن أسلاف بلبان. صحيح أنها ملاحظات شديدة الإيجاز، غير أنها تحاول، على الأقل، أن تضفي شيئاً من المعنى على الحقبة الشمسية. يقول برني:

> كانت أفواج من مشاهير الملوك والأمراء... مع الكثير من الوزراء والأعيان، (معارف) [في أيام إلتُتْمش]، تلوذ ببلاط السلطان شمس الدين [إلتُتْمش]، خوفاً من ذَبْح وإرهاب، المغولي اللعين جنكيزخان... غير أن مماليكه الشيهلغانيين الأتراك، ما لبثوا أن أصبحوا أصحاب نفوذ وسطوة بعد موت السلطان شمس الدين. لقد عجز أبناء شمس الدين عن أداء... واجبات النظام الملكي... ونتيجة تصاعد نفوذ المماليك الشمسيين الأتراك، تعرض جميع الرجال العظماء من ذوي الأنساب الرفيعة... للتدمير بسائر الذرائع المختلفة، خلال عهود أبناء شمس الدين، الذين لم تكن لديهم أية فكرة عن العالم أو عن الحكم. وبعد استئصال أولئك النبلاء، والقادة من الجذور صعد نجم المماليك الشمسيين، وأصبحوا أمراء (خانات). حصل كل منهم على الثروات الجديدة، والقصور ومظاهر الأبَّهة والتميُّز... ولأن المماليك الشمسيين كانوا عائدين لسيِّدٍ واحد (خواجاطاش بودا)، ولأن الأربعين جميعاً أصبحوا عظماء دفعة واحدة، فإن أحداً منهم لم ينحن أمام غيره، كما لم يمتثل لأوامر هذا الآخر، وحرصوا جميعاً على المطالبة بالمساواة في الإقطاعات، والجنود والمناصب الرفيعة وألقاب الشرف... ما لبث النظام الملكي أن فقد كل أشكال الجلال والبهاء، نتيجة تجربة أبناء إلتُتْمش من جهة، وسيادة المماليك الشمسيين وتفوقهم من جهة ثانية[32].

---

(32) TFS، 27 ـ 28؛ وللاطلاع على ترجمة أوفى للمقطع، انظر: حبيب «تشكُّل»، 15 ـ 16. ثمة إشارة موجزة إلى هذه الحقبة من تاريخ السلطنة في TFS، 550.

من كان الشيهلغانيون؟ جرى الغوص في هذا السؤال، عبر مقال مثير كتبه البروفسور غافين همبلي، الذي لم يتوصل إلى أية نتيجة محدَّدة، بشأن أصل أو معنى عبارة لم يستخدمها الجوزجاني، أو أي مرجع هندي آخر، عدا كتاب برني في الحقيقة[33]. صحيح أن برني يستخدم كلمة «أربعين» (شهل) ككلمة بديلة، مما دفع مؤلّفي القرن السادس عشر هراوي وفرشتا إلى افتراض أن إلتُتمش، كان يملك أربعين مملوكاً. وما لبث هذا أن أغرى مؤرِّخين آخرين مُحدَثين لكلام عن «مجموعة» مؤلفة من أربعين[34]. يبقى المفهوم، مع ذلك، ذا قيمة ملتبسة. فبين كل مناسبة وأخرى، يلجأ برني إلى الرقم التوزيعي الذي يعني بقوة بأن الشيهلغانيين، أخذوا هذا الاسم، لأن كلاً منهم كان يقود فرقة مؤلفة من أربعين مملوكاً. ومن الجدير بالملاحظة أن مصر المعاصرة، كانت شاهداً على وجود أمراء يقودون، وحدات مملوكية أربعينية؛ ربما يتعيَّن علينا أن نستخلص أن الشيهلغانيين، كانوا يشكِّلون مجموعة موازية من القادة، داخل صفوف مماليك إلتُتمش الشمسيين[35]. وكما يلاحظ همبلي، فإن برني لا ينسب، إلاّ ثلاثة أمراء بالاسم إلى صفوف الشيهلغانيين[36]؛ جدير بالملاحظة أنهم جميعاً من غلمان إلتُتمش الصغار نسبياً.

---

(33) غافين ر. ج. هامبلي، «من كان الشيهلغانيون: المماليك الأربعون لسلطان دلهي، شمس الدين إلتُتمِش؟» **إيران** 10 (1972م)، 57 ـ 62. وعن وجهة نظر بديلة، انظر خُرّم قادر، «الأميراني شيهلغان في شمال الهند»، JCA، 4، رقم: 2 (1981م)، 59 ـ 146.

(34) نظام الدين أحمد هراوي، **طبقات ـ ي أكبر ـ ي**، تحقيق ب. دي (كالكوتا، 1931 ـ 1935م، 3 أجزاء)، I، 78 (تر. 93)، وفيريشتا، I، 130. ربما تأثر كلاهما بـ«قصة عصامي القائلة إن إلتُتمِش كان قد حصل على أربعين مملوكاً شراءً باستثناء بلبان، سلطان المستقبل: FS، 122 (تر. 238). وعن «المجموعة»، انظر هيغ في **تاريخ الهند ـ كامبردج**، III، 61 ـ 62؛ حبيب الله، **أساس**، 346؛ نظامي، **بعض جوانب**، 127 هـ. 7، وفي HN، 232 ـ 234، I. حبيب، «تشكُّل»، 16، ينظر إلى «أربعين» نظرة أقل حرفية.

(35) آيالون، «دراسات في بنية الجيش المملوكي ـ II»، 469 ـ 470.

(36) أولوغ خان بلبان، ابن عمه شيرخان، وتَمُرخان (مقطع سامانا وسُنّام لاحقاً بعد وفاة شيرخان: ص: 77 من هذا الكتاب): TFS، 25، 65؛ همبلي، «من كان الشيهلغانيون؟»، 61.

صعود الغلمان الشمسيين

ليس الصراع الدامي الذي لخَّصه برني مذكوراً بوضوح من قبل الجوزجاني، الذي كتب حين كانت هيمنة الغلمان الشمسيين في أوجها؛ غير أن البداية مرئية بجلاء في روايته لحقبة ورثة إلتُتمش المضطربة. فحسب أقوى الاحتمالات بالغ فيروز شاه الذي أخْفَق، برأي عصامي، في إيلاء مماليك أبيه الأتراك اهتماماً كافياً[37]، في الاعتماد على عدد من البيروقراطيين الطاجيك الذين تعرَّضوا للذبح في ترائن أثناء حملة السلطان على كبير خان المتمرِّد وحلفائه، على أيدي المماليك الأتراك. أما رضيّة، فقد تمتّعت، على النقيض من ذلك، بدعم فعال من جانب غلمان أبيها الأتراك، (**أمرائي ترك كي بندغاني شمسي بودند**)[38]. غير أنها سرعان ما بدأت ببناء مركز قوة خاص. فحين مات سيف الدين آيبك تُتَق التركي، الذي كانت قد عيَّنته نائباً لها في قيادة الجيش (نائبي لشكر)، باسم قُطْلُغ خان عام 635 هـ / 1237م، لم ينتقل المنصب إلى تركي آخر، بل إلى الأمير الغوري قطب الدين حسن بن علي[39]. وقد تم إنزالها عن العرش لأنها بترقيتها لعبد (حَبَشي) إفريقي يدعى جمال الدين ياقوت، إلى منصب مسؤول الحظائر (أمير آخور)، كانت قد أثارت حفيظة «الملوك والأمراء الأتراك، الذين كانوا مماليك إلتُتمش»، ولا

(37) FS، 130 (تر. 248، غير أن هـ. I في المصدر نفسه مضلِّل لأنه يورد أمثلة عن نبلاء لم يكونوا مماليك).

(38) TN، II، 36 (تر. 779)؛ في I، 458 (تر. 640)، يطلق عليهم اسم **أمراء ـ ي ترك** ببساطة.

(39) المصدر السابق، I، 459 (تر. 641 ـ 642). اسم سيف الدين المستعار الوارد على شكل ب هـ ت و في نص حبيبي و«بيهاق» عند رافيرتي، يظهر ك ت ت ق في مخطوطة BL، ملف 182 ب، 183 أ. يبدو هذا مثل لقب تو. الذي يعني توتوق / توتاق، الذي يمكن النظر بشأنه في مقال دنيس سينور، «استعادة لقب تُتَق التركي»، في **تركيات ومشرقيات. دراسات على شرف غونار يارينغ** (استانبول، 1988)، 145 ـ 148؛ وبالتناوب يمكن أن يكون اسماً ثانياً بمعنى تُتَق: «ألتغ» (كلاوسون، **قاموس أصول الكلمات**، 453)، أو «شفة» سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 124). عن هذا الضريح في أبوهار، انظر ARIE (1970 ـ 1971)، 18 ـ 19، 119 (رقم: 4).

سيما الحاجب (**أمير حاجب**) اختيار الدين آيتكين[40]. صحيح أن انتفاضة قادها كبير خان في لاهور عام 636 هـ / 1239م أخفقت، غير أن آيتكين وحليفه آلتونابا، حاكم تبرهند، ما لبثا أن نجحا في إثارة حركة تمرد، فيما كان السلطان في حملة، فتم إعدام ياقوت، أما رضيّة فتم احتجازها في تبرهند تحت مراقبة آلتونابا[41].

مع تنصيب معز الدين بهرم شاه (637 ـ 639 هـ / 1240 ـ 1242م)، تقدَّم الأمراء خطوات إضافية، على طريق تركيز السلطة بأيديهم دون غيرهم، مع الاستحداث الرسمي لمنصب نائب الملك، الذي مُنح للحاجب (أمير حاجب) آيتكين، (من اللافت للنظر) أن (**بيعتهم**)، تأديتهم ليمين الولاء للسلطان الجديد كانت مشروطة بتعيين آيتكين[42]. غير أن بهرم شاه، ما لبث أن شعر بالسخط على مولاه، حين أقدم آيتكين على اغتصاب بعض الامتيازات الملكية، وأمر بالإجهاز عليه، اغتيالاً في محرم 638 هـ / تموز 1240 م؛ فتعرض منصب النائب للانتكاس[43]. ولفترة قصيرة من الوقت، بقي توجيه الأمور بيد شمسي آخر هو الحاجب (**أمير حاجب**) الجديد، بدر الدين سُنْقُري رومي. وقد أدَّى سُنْقُر هذا، خدمةً جليلة للسلطان في حملته ضد آلتونابا، الذي كان قد رد على استئصال حليفه آيتكين، بالزواج من رضيّة، والسير إلى دلهي لاستعادة عرشها[44]. ومع ذلك فإن الدور الرئيسي، كان قد بدأ ينتقل إلى نظام الملك

---

(40) HN، 240، II243 .، TN، 21، 22 TN، 231 (تر. 748، 750)؛ مخطوطة BL، ملف 183 هـ، تعطي ياقوت لقب **أمير أمراء**، عبارة محذوفة من النص المطبوع لـ TN (I، 460).

(41) انظر عموماً حبيب الله، **أساس**، 119 ـ 121. تكون تهجئة اسم آلتونابا على شكل «ل ت و ن ي ن في النص المطبوع («آلتونياه» لدى رافيرتي)، غير أنني أشك في أن يكون مقطع ياه وارداً خطأ بدلاً من باه أو پاه، ونحن هنا بصدد تو. **آلتون** «ذهبي» + **آبالابا**، «جد»، أو **أويا**، «عشيرة»، «قبيلة»، متداولة بين القبجاق / بولوفتسي.

(42) TN، I، 463 (تر. 649).

(43) حبيب الله، **أساس**، 121 ـ 122.

(44) TN، II، 24 (تر. 753).

مهذَّب الدين، الذي خَلَف الجنيدي في الوزارة، وتشاجر مع سُنْقُر، وأوغر صدر السلطان عليه. وحين قام سُنْقُر بتدبير مؤامرة، لاستبدال بهرم شاه بأحد أشقائه، سارعَ الوزير إلى كشفها مما أدّى إلى إبعاد سُنْقُر، إلى إقطاعه ببداؤون في صَفَر 639 هـ / آب 1241 م. ولدى عودته دون إذن، بعد ثلاثة أشهر، أُلقي القبض عليه وأُعدم[45].

أما بهرم شاه، فقد تمَّت الإطاحة به هو الآخر، سنة 639 هـ / 1242م، حين فكَّر تحت تأثير أحد أفراد حاشيته: فخر الدين مبارك شاه فَرُّوخي، بالاستبعاد الجماعي للضباط المماليك من الأتراك[46]. بادر القادة الأتراك في جمادى الأولى، 640 هـ / تشرين أول 1242م إلى مهاجمة، وقتل الوزير مهذَّب الدين، الذي كان قد أوغر صدورهم ضد بهرم شاه، وراح يسعى لتركيز السلطة بين يديه، واستبعاد الأفراد الأتراك من سائر شؤون الدولة. فيبدو أنه كان الوزير الأخير، ذا النزعات العسكرية على امتداد ما يقرب من قرن كامل. أما حقيقة أن رؤوس الفتنة لم يُعاقبوا بل كوفئوا فيعني أن السلطان الجديد مسعود شاه، كان وراءهم[47]. غير أن الأخير، مثله مثل سَلَفيه، حاول تحجيم الأمراء الأتراك. وعلى الرغم من أن الجوزجاني لا يحدِّد «التافهين» (**ناكسان**)، الذين باتوا يمسكون بزمام الأمر في البلاط، خلال الأشهر الأخيرة من نظامه، فإن رواية لاحقة توحي، بأنه كان يعوّل على العبيد الزنوج من الأفارقة[48].

إلى هنا يقدِّم الجوزجاني ومؤلفون آخرون، أدلةً داعمة لتحليل برني. غير

---

(45) حبيب الله، أساس، 122 ـ 123.

(46) TN، ا، 466 ـ 467، واا، 20، 30 (تر. 658 ـ 659، 47، 761 ـ 72).

(47) المصدر نفسه، ا، 469 واا، 27، 42 (تر. 662، 757، 761 ـ 762). تاج الدين سنجر كِرت خان رُفع إلى منصب مشرف على فيلة الملك (**شحنه ـ ي بيل**) وإلى سار ـ ي **جَاندار** فيما بعد، في حين ما لبث بدر الدين سنقر صوفي ـ ي رومي ـ ي (نُصرت خان المستقبل، تمييزاً له عن حامل اسم مماثل سبق ذكره) أن ورث مقاطعة كول عن الوزير المتوفى.

(48) المصدر نفسه، ا، 471 (تر. 668 ـ 669). FS، TMS144 ،. 34.

أن هناك ما يدعو إلى اعتبار، ذلك التحليل ناقصاً من ناحيتين. لم يحدث أن كان أي فريق مؤلف من المماليك الأتراك، خالياً من عناصر حرة تركية أو غير تركية، على حدٍّ سواء. فمعارضة ركن الدين فيروز شاه (ورضية مبدئياً بعد ذلك)، جمعت بين المملوك التركي كبير خان، والنبيل التركي الحر علاء الدين جاني، والأمير الغوري سالاري، وذلك الذي يفترض أنه طاجيكي: جنيدي[49]. لقد شارك الكثير من الموظفين الطاجيك، في مؤامرة بدر الدين سُنقُر، الهادفة إلى إزاحة بهرم شاه، بمن فيهم قاضي القضاة جلال الدين كاساني، الذي جرى خلعه وطرده من دلهي، والمحاسب العام (**مشرف ممالك**) ناصر الدين موسوي، الذي أُعدم مع سُنقُر سنة 639 هـ / 1241 م[50]. وقبل إعدامه، حاول سُنقُر عبثاً، أن يحصل على حماية الأمير الغوري، قطب الدين حسن[51]. ويؤكد الجوزجاني، أن الغوريين والطاجيك، جنباً إلى جنب، مع الملوك الأتراك، ما لبثوا أن اغتاظوا من المكانة، التي بات ياقوت يحتلها في مجالس رضية؛ أما عن بهرم شاه فنعلم ثانية، أنه أثار المخاوف لدى كل من الغوريين، والأمراء الأتراك[52]. وبالمثل فإن رفض عز الدين بلبان، واختيار مسعود شاه، يكشف عن وجود تحالف عناصر مختلفة. ففكرة انتقال السلطة إلى أحد غلمان إلتُتْمش الأتراك، ربما لم تجد قبولاً لدى الغوريين، في حين كان الشمسيون الآخرون، من جانبهم، غير راغبين في نفض اليد من عائلة سيدهم القديم. لقد صدق من أشار إلى أن بنية السلطة، التي برزت سنة 639 هـ/ 1242م، تحمل بصمات نوع من المساومة والحل الوسط، بين جماعات

---

(49) TN، I، 455 ـ 456، 458 (تر. 633 ـ 634، 639). جدير بالملاحظة أن كبيرخان وجاني، عانيا من الاستبعاد في السنوات الأخيرة من حياة إلتُتمِش، وأن سالاري الذي كان قد خدم السلطان الراحل أمير ـ حاجب، لا يعطى هذا الوصف في ظل العهد الجديد. جاني وكبيرخان: المصدر نفسه، II، 6، 9 (تر. 726، 731 ـ 732). سالاري: حبيب، «تشكل»، 13؛ كذلك H، I، 12.

(50) TN، I، 464 ـ 465 (تر. 652 ـ 653، 654).

(51) المصدر نفسه، II، 25 (تر. 753).

(52) المصدر نفسه، II، 22 ـ 23، 164 (تر. 750، 1133).

متباينة داخل إطار النخبة[53]. ما لبث منصب النائب أن تم إحياؤه، ومنحه لقطب الدين حسن؛ وجرى تنصيب شمسي كبير، يدعى قراقوش خان حاجباً (**أمير حاجب**)؛ أما تاج الدين سنجري قبقولاق، أحد الأمراء الثلاثة الذين قيل إنهم، أَوْقفوا عز الدين بلبان عند حدّه، فحصل على إقطاع بداؤون[54]. ومن الواضح أن التعاون بين الأتراك وغير الأتراك، لم يكن مستحيلاً. يبدو، على أية حال، أن ما أدّى إلى إطالة أمَد الأزمة الداخلية إلى هذا الحد، وإلى جعله بالغ الخطورة، كان متمثلاً بالانشقاق في صفوف الشمسيين أنفسهم.

أما العيب الثاني في تحليل برني، فيكمن في كونه يتناول الشمسيين، ويعاملهم كما لو كانوا جماعة أحادية متراصة الصفوف. ثمة مؤرِّخون كتبوا عن المؤسسة المملوكية العسكرية الموازية في مصر والشرق الأدنى، درجوا على الكلام عن **الخُشداشية**، عن الشعور بالزمالة ووحدة المصالح، اللتين كانتا تربطان المماليك بالسيد نفسه. غير أن مثل هذه المشاعر والعواطف، غالباً ما أخفقت في الاستمرار، بعد رحيل السيد ذاته، ومن شأن المبالغة في الاهتمام **بالخُشداشية**، أن تُضاعف من خطر الوقوع في خطأ التبسيط المفرط[55]. ممكن بالتأكد ـ رغم عدم كشف المصادر ـ أن أفراداً من فرقة إلتُتمش النخبوية المؤلفة من الغلمان كانوا، يشعرون بروابط أوثق، مع زملاء متحدرين من الأصول القبلية ذاتها. وما لا يزال محتملاً، هو أنه كان هناك في البداية، شعور أقوى بالتضامن بين صغار الغلمان، الذين كانوا جماعة متميزة ذات مصالح خاصة بها.

علينا أن نلاحظ عدد المماليك الأتراك، الذين كانوا أدوات في إسقاط

---

(53) حبيب الله، **أساس**، 24.

(54) TN، 1، 468 (تر. 661 ـ 662): قارن أيضاً II، 20، 26، 36 ـ 37 (تر. 747، 755، 780).

(55) د. آيالون، «عبودية المملوك»، IONS 1 (1951م)، 29 ـ 31، 34 ـ 37، أعيدت طباعة المادة في كتابه **المجتمع العسكري المملوكي**؛ قارن أيضاً ملاحظات روبرت إيروين، **الشرق الأوسط في العصور الوسطى: السلطنة المملوكية المبكرة 1250 ـ 1382م** (لندن وسيدني، 1986)، 65، 88 ـ 90.

فيروز شاه، وتنصيب رضية ممن بدوا غلماناً صغاراً، بقوا مستخدمين في الأسرة الملكية. ثمة جماعة، وصفها الجوزجاني على أنها «أتراك البلاط» (أو «العاصمة»)، عبَّرت عن استيائها من فيروز شاه، في مرحلة مبكرة عن طريق الرحيل من دلهي إلى «هندوستان»، للالتحاق بأخيه في أَوَذ على ما يبدو. غير أنها ما لبثت أن أوقفت؛ وكان بينهم بلبان «الأصغر»، الذي تعرَّض لفترة وجيزة من السجن[56]. لقد كان «الأمراء الأتراك والمماليك الشخصيون المضطلعون بخدمة المركز»، (أمرائي تُرْكوا بنداغاني خاص دار خدماتي قلب بودند)، هم الذين تمرَّدوا في ترائين؛ هؤلاء الضباط أنفسهم، وهم معروفون الآن باسم «قلب الأمراء الأتراك» (قلبي أمرائي ترك)، هم الذين تخلوا عن فيروز شاه في كيلوخري، واعترفوا برضية[57]. ترجِّح أقوى الاحتمالات أن يكون إلتُتْمش، قد اشترى عدداً كبيراً منهم في تاريخ حديث نسبياً. فعز الدين بلبان (كوشلوخان)، مثلاً، وهو أحد الرجلين، اللذين اعتُبرا رأسي الفتنة في ترائين، كان قد تم الحصول عليه في أثناء حصار ماندور، (أي سنة 624 هـ / 1227م)؛ وما لبث أن أصبح مُقْطَع باران مع وفاة إلتُتْمش[58]. غير أنه من المؤكد، أن **أعمال الشغب**، شارك فيها عدد كبير من آخرين باتوا الآن، حاصلين على مناصب مهمة في البلاط أو على إقطاعاتهم الأولى، مكافأةً لهم على تمكين رضية من الجلوس على العرش. لقد كان آلتونابا، الذي نُقِلَتْ برن إليه، حامل المظلة (ساري شتردار) لدى إلتُتْمش[59]. أما بهاء الدين بلبان «الأصغر»، الذي اشتراه إلتُتْمش في زمن متأخر، يعود إلى 630 هـ / 1232 ـ 1233م، فلم يكن عند موت سيِّده، إلاَّ أحد مدرِّبي البزاة (خاصدار)؛ غير أن

---

(56) TN، II، 48 ـ 49، 51 (تر. 802، 805).

(57) المصدر السابق، I، 456 (تر. 634 ـ 635، 636).

(58) المصدر السابق، II، 36 (تر. 777 ـ 779 مشوهاً). كلمة **كوشلو** (ك) تعني «قوي»: TMENP، III، (639) رقم 1676.

(59) TN، II، 21 (تر. 748).

رضية ما لبثت، أن رفعته إلى منصب **أمير شكار** (أمير الصيد والمَطارد)[60]. وعن أخيه سيف الدين آيبك (كشلي خان المستقبل)، الذي تم شراؤه في أثناء سفرة إلتُتْمش إلى مصر وبغداد، فيمكن إرجاع تاريخها بثقة إلى 629 هـ / 1231 ـ 1232م. يقال لنا أنه بقي خادماً بسيطاً، في بيت السلطان الخاص **خدمتي درغاهي خاص ميكرد**)، إلى أن جلست رضية على العرش؛ أما بعد ذلك، فقد أصبح نائباً لقائد الحرس (**نائبي ساري جاندار**. وقد كان تاج الدين سنجر (أرسلان خان فيما بعد)، الذي تم الحصول عليه بالطريقة ذاتها، وربما في التاريخ ذاته تقريباً، واحداً من مدربي البزاة مثل بلبان؛ غير أن رضية ما لبثت أن جعلته ساقياً (**تشاشنيغير**)، ومنحته إقطاع بلارام فيما بعد[61]. كان من شأن مواقع هؤلاء الغلمان وطموحاتهم، أن تدفعهم إلى الوقوف لا في وجه الغرباء فقط ـ بمن فيهم النبلاء الأتراك ـ بل وحتى ضد مماليك إلتُتْمش الأكبر والأقدم من أمثال كبير خان، الذي كان قد حصل على منصب رفيع، منذ وقت بعيد في جهاز الدولة، ونال إقطاعاً ذا شأن، بين الوقت والآخر. وتاريخ خلفاء إلتُتْمش ليس في جزء كبير منه، إلاّ قصة صعود مماليك صغار، إلى مواقع النفوذ والسلطة، والتوترات الحاصلة فيما بينهم، التي انطوت على خطر تمزيق دولة دلهي الوليدة أشلاءً.

بلبان ومنافسوه

تميَّزَ بلبان «الأصغر»، الذي كان قد رُفِع من رتبة **أمير شكار** (أمير

---

(60) المصدر السابق، II، 48، 51 (تر. 802، 806)؛ عن تاريخ الشراء، II، 48 (تر. 801). وقد قام هوديفالا في، **دراسات**، II، 67 ـ 68، بتحديد معنى **خاصة دار**.

(61) كيشلي خان: TN، II، 45، 46 (تر. 796 ـ 798). أرسلان خان: المصدر نفسه، II، 33، 34 (تر. 766 وهـ. 3، 767)؛ وعن **آرسلان** «أسد»، انظر سوف جين، «أسماء وألقاب»، رقم: 4. سفارة من دلهي إلى مصر في 629 هـ / 1231 ـ 1232 م: ابن الدواداري، VII، 305. **كيشلي**، التي قد تعني «إنسانية» (كلاوسون، **قاموس**. . .، 754)، موجودة في لقب أحد الأمراء الخوارزميين في وقت سابق من القرن: TJG، I، 80 (تر. 103، مع جعلها خطأً مرادفة لكلمة كوشلو).

الصيد)، إلى رتبة **أمير آخور** (أمير اصطبل)، في عهد بهرم شاه، في أثناء محاصرة دلهي سنة 639 هـ / 1242م، فكوفئ بإقطاع هانسي. ونظراً لاشتهاره بأنه كان متمتعاً، برعاية الحاجب (**أمير حاجب**) الراحل بدر الدين سُنْقر، الذي ضمن له إقطاعه الأول في ريواري، فمن المؤكد أنه شارك في الثورة ضد بهرم شاه، رغبة منه في الانتقام لصديقه القديم. وربما أدى السبب نفسه إلى دفعه، نحو المشاركة أيضاً في الهجوم على مهذّب الدين، عدو سنقر، لأن أسلوب الجوزجاني، يوحي بوجود رابطة بين موت الوزير، وترقية بلبان إلى منصب الحاجب (**أمير ـ حاجب**)[62]. جاء ذلك على حساب قراقوش خان، الذي طُرد من إقطاعه بهايانا. ومن الصعب تفسير انتقاله اللاحق من بهايانا إلى قارا، أو الإعلان الصريح في ختام سيرة حياته، عن أنه قُتل في تلك المنطقة سنة 644 هـ / 1246م، غداة الإطاحة بمسعود شاه[63]. وهذا كله يشير إلى أنه كان منافساً لبلبان، الذي ربما كان قد رتّب لتجريده من المنصب؛ غير أننا لا نستطيع أن نكون متأكدين. ومهما يكن فإن بلبان، كان بصورة شبه مؤكدة، أداة في عملية إبعاد مسعود شاه وتنصيب محمود شاه، (644 ـ 664 هـ / 1246 ـ 1266م)، عبر أحداث يسردها الجوزجاني، بلهجة بالغة الحرص على التهدئة وعدم الإثارة.

في سنة 647 هـ / 1249م، أصبح بلبان نائباً، ومُنح لقب أُلُغ خان، وتزوج السلطانُ ابنتَه. وجرى أيضاً تقريب حلفائه من النبلاء. قام النائب الجديد بتحويل منصب الحاجب (**أمير ـ حاجب**)، إلى أخيه سيف الدين آيبك، الذي بات يلقب بكِشلي خان، كما تمت ترقية عدد من المؤيدين الآخرين: فالشمسي تاج الدين تَنِزخان، الذي يوصف على الدوام، بأنه صنيعة بلبان الأمين، صار مساعد أمين حاجب، وعبد بلبان اختيار الدين أيتكين. **موي دراز** («صاحب

---

(62) TN، ا، 469، واا، 51 ـ 52 (تر. 663 ـ 664، 806 ـ 807)؛ ولكن قارن اا، 53 (تر. 809)، حيث لا يرد سوى تعيين بلبان بتاريخ 642 هـ / 1244 ـ 1245 م.

(63) المصدر السابق، اا، 20 (تر. 747).

الشعر الطويل»)، الذي كان حتى تاريخه، مساعداً لأمير آخور (مسؤول الإصطبل)، ارتقى صعوداً ليخلف كشلي خان في ذلك المنصب(64). ويبدو أن الوزير صدر الملك نجم الدين أبو بكر، الذي كان قد خلف مهذب الدِّين، حوالى الوقت الذي تم فيه تعيين بلبان حاجباً (أمير ـ حاجب)، كان حليفاً آخر(65).

من هذا المنعطف تقريباً، نبدأ بتلمس الحدود الغائمة لجماعة معارضة، تكونت أيضاً بقيادة الشمسيين. لقد أدى إضفاء شرف منصب أمير ـ حاجب على بلبان، من الأساس، كما يقال لنا، إلى إثارة سخط مالكين آخرين(66). وما لبث النائب الجديد وحلفاؤه، أن تقدموا لشن هجوم منسّق على عز الدين بلبان، الذي كان سنة 639 هـ/ 1242م، قد تم استرضاؤه بلقب كوشلوخان، وبإقطاع ناغَور البعيدة الواسعة، وتمتع منذ سنة 643 هـ/ 1246م، بمنحه مُلْتان الإضافية. وغير قانع بهذا حصل من محمود شاه على أوتشش أيضاً، شرط التخلي عن نغوار؛ غير أنه أخفق في الوفاء بهذا الجزء من الصفقة. أما مُلْتان، التي خسرها كوشلوخان، أمام قوات حسن قرلُق، فما لبثت أن وقعت بيد شيرخان، ابن عم أُلُغ خان بلبان، الذي حاول كوشلوخان، أخذها منه عبثاً. وبعد أن أدت حملة بقيادة أُلُغ خان، والسلطان إلى خلعه من نغوار التي مُنحت لشقيق النائب كشلي خان، تقاعد كوشلوخان، وعاد إلى أوتشش حيث أسره شيرخان، الذي لم يطلق سراحه، إلاّ بعد أن أصدر إلى الحامية أمراً يقضي

(64) المصدر السابق، II، 59 ـ 60 (تر. 820 ـ 821)؛ قارن أيضاً II، 29، 46 (تر. 759، 798). يظهر لقب تنيزخان في نص حبيبي على شكل ت ر؛ يقرأه رافيرتي «تيز»، كما هو في مخطوطة BL، ملف 206، وعلى الرغم من عدم وجود نقطة على «السن» الوسطى، فإن الحرف الأخير هو ز (زاي) بوضوح. وعن لقب تنيز / دنيز بمعنى «بحر» «محيط»، انظر كلاوسون، **قاموس**. . . ، 527؛ TMENP، III، 205 ـ 207 (رقم: 1192). ونعلم أن آيتغين ـ ي مؤو ـ ي دراز كان أحد مماليك بلبان من TFS، 83.

(65) TN، I، 469 (تر. 663 ـ 664). حبيب الله، **أساس**، 126.

(66) TN، II، 52 (تر. 807).

بالاستسلام. وكوشلوخان، الذي كان قد حُرم من جميع إقطاعاته بهذه الطريقة لصالح أنصار النائب وأقربائه، ما لبث أن جرى تعويضه ببداؤون أوائل سنة 649 هـ / 1251 م[67].

تمكن كوشلو خان من الانتقام، أثناء حملة موجهة إلى المناطق الشمالية ـ الغربية، سنة 650 ـ 651 هـ / 1252 ـ 1253م، حين جرى إبعاد أُلُغ خان بلبان إلى هانسي أولاً. وحرمانه منها بعد ذلك لصالح ابن وليد للسلطان، لنقله إلى نغوار. أما كنائب، فقد تم استبداله بقطب الدين حسن، فضلاً عن أن أصدقاءه وأقاربه، تعرضوا للإبعاد من مناصبهم في عملية إعادة تعيينات عامة. كان كل من كشلي خان، وتنز خان والوزير صدر الملك قد أُبعدوا جميعاً من مناصبهم؛ وكان الجوزجاني، قد فقد منصبه قاضياً للقضاة للمرة الثانية؛ كما جرى خلع شيرخان الذي كان إقطاعه الواسع، يضم أوتشش ومُلْتان وتَبَرهند، من قِبَل قوات السلطان فلاذ بالمناطق المغولية. أما كوشلوخان وحلفاؤه، بمن فيهم قُطْلُغ فان الغامض، والهندي عماد الدين ريحان، فقد تقاسموا المناصب والإقطاعات فيما بينهم: حيث أصبح ريحان وكيلاً للدار (وكيلي دار)، واستعاد كوشلوخان إقطاعه القديم في السند[68].

يحبطنا الجوزجاني بشُحّ المعلومات، التي يقدمها لنا عن خصوم أُلُغ خان بلبان. فعلى الرغم من أنه يكرس سيرة منصفة لقصة حياة كوشلوخان، فإن

---

(67) المصدر نفسه، II، 37 ـ 38 (تر. 780 ـ 784)؛ انظر أيضاً I، 484 ـ 485، وII، 44، 46، 61 ـ 62 (تر. 689 ـ 690، 792، 798، 822 ـ 823).

(68) شيرخان: المصدر السابق، I، 487، وII، 34 (تر. 695 ـ 696، 767)؛ انظر أيضاً II، 38 (تر. 784) و44 يبدو أن FS، 146 ـ 149 (تر. 269 ـ 274) قد شوّه قصة هذه الحملة المزعومة ضد المغول، والمؤرّخة في 656 هـ. والسنة التي يحددها حبيب الله (**أساس**، 36) حتى بعد ذلك، يكون مستحيلاً لأن قطب الدين حسن (المتوفى سنة 653 هـ / 1255م) يرد في قائمة الجنرالات وبلباني زار (أي كوشلوخان) متروك في أوتشش ومُلْتان لدى عودة السلطان. وعن هرب شيرخان إلى المغول، انظر 111 من هذا الكتاب؛ وعن الآخرين، حبيب الله، **أساس**، 126؛ أخطأ إذ افترض (المصدر نفسه، 125) أن قطب الدين لم يعش بعد علاء الدين مسعود شاه.

قُطْلُغ خان، الذي كان متمتعاً بأهمية كافية لتمكينه من الزواج بأم السلطان، لا يحظى بالقدر نفسه من الإطراء والمجاملة[69]. ووصم معارضة بلبان بأنها طائفة «معادية للأتراك»[70]، يمثّل انخداعاً بأطروحة الجوزجاني، القائمة على التفريق بين «الأتراك» و«الهندوس». وباعترافه هو كانت الجماعة تضم كوشلوخان، وقُطْلُغ خان جنباً إلى جنب، مع شخصيات أقل شأناً مثل صهر الأخير عز الدين بلباني يوزبكي؛ كما أنه يتعمد الإتيان على ذكر الأتراك الذين تحالفوا مع ريحان، جراء عدائهم لأُلُغ خان بشكل خاص[71]. يكتب الجوزجاني عن ريحان بأسلوب لاذع، قائلاً إنه خصي هندي وضيع النسب (**مجبوب وناقص أز قبائل هند**)؛ وبالمناسبة فإن هذا يوحي بأن الرجل كان مملوكاً، مما يجعل احتمال انتمائه إلى ما يصح اعتباره طبقة إسلامية نبيلة ناشئة من الهنود، غير وارد. أما مرشح ريحان لمنصب قاضي القضاة، شمس الدين، أطلق نداءه من باهراتش، ويقال إن إقطاع باهراتش هذا، أُعيد إلى ريحان (رجوع شُدا) لدى طرده من البلاط، سنة 653 هـ / 1255 م[72]. ونظراً لأن باهراتش، كان إقطاعاً لمحمود شاه قبل اعتلائه العرش، فإن هناك احتمالاً قوياً بأن يكون خصوم أُلُغ خان، قد حصلوا على الدعم من مركز قوة السلطان الخاص، وبأن ريحان كان

---

(69) TN، ا، 489 (تر. 701)؛ قارن أيضاً ا، 493، واا، 39 (تر. 710، 785). س. ب. پ. نيغام، **الأرستقراطية في ظل سلاطين دلهي من 1206 إلى 1398م** (دلهي، 1968م)، 40، يعتقد أن الزواج، الذي يعيد تاريخه إلى أوائل 1255م، أدى إلى اغتراب السلطان؛ غير أننا لا نملك ما يشير إلى تاريخ حدوثه.

(70) حبيب الله، **أساس**، 126، 132، 195. نظامي، **بعض وجوه...**، 141، وفي HN، 262. قارن أيضاً پ. ساران، «السياسة والشخصيات في عهد ناصر الدين محمود المملوك [كذا]» في كتابه، **دراسات في تاريخ الهند الوسيط** (دلهي، 1952م) 228.

(71) TN، اا، 68 (تر. 833)؛ قارن اا، 70 (تر. 836، بالنسبة إلى «الأتراك» و«الهندوس»، ولكن ثمة أيضاً إشارة إلى علاقة ريحان بقطلغ خان. عن يوزبك، انظر المصدر نفسه، ا، 487 واا، 64 (تر. 695، 827).

(72) المصدر نفسه، اا، 66 (تر. 829)، حيث توجد ملاحظة موجزة عن ريحان؛ ا، 487، واا، 64 (تر. 694، 827)، عن شمس الدين؛ اا، 69، عن ريحان وباهراتش. نيغام، **الأرستقراطية**، 39 هـ 370، أيضاً يوجد رابطاً بين ريحان وباهراتش.

أحد مماليك السلطان؛ ومما لا شك فيه أن محمود شاه نفسه، جنباً إلى جنب مع أمه وزوجها، كان وراءهم.

ما لبث بلبان وأتباعه أن استعادوا قوتهم، بفضل التحالف مع شقيق السلطان المرتد، جلال الدّين مسعود الذي كان قبل ستة أشهر، قد هرب من إقطاعاته عبر سانتور، ليلوذ بحماية المغول[73]. يبقى الجوزجاني متكتماً بشأن نشاطاته اللاحقة، وبالتالي فنحن معتمدون بدلاً منه على تاريخ الهند، الذي زودنا به كل من وصّاف ورشيد الدين، اللذين كتبا عن إيران المغولية[74]. وحسب رواية الأخيرين لقصة الأحداث، فإن جلال الدين كان متوجّساً من خصومة، وهم عدد من مماليك إلتُتمش السابقين. وعلى الرغم من أن التراث الإيراني، لا يوفر دليلاً كامل الجدارة بالتعويل، بالنسبة إلى تاريخ السلطنة، فضلاً عن أن تفاصيل مختلفة ليست صحيحة[75]، فإن هؤلاء المماليك، باستثناء وحيد (قُطْلُغ خان)، يمكن اعتبارهم متماهين مع أشخاص، اعتبرهم الجوزجاني حلفاء لأُلُغ خان بلبان[76]. أما عودة جلال الدين مسعود مع

---

(73) TN، 482I (تر. 683 ـ 684). عن سانتور، انظر هوديغالا، **دراسات**، I، 229.

(74) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات فارسية**، النص العربي .Taf، 57، النص الفارسي .Taf 21 ـ 22 (الترجمة الألمانية 47 ـ 48)؛ قاشاني (حوالى 1318م)، **تاريخ ـ ي أولجايتو سلطان**، تحقيق ماهين هامبلي (طهران، 1348 هـ / 1969م)، 184 ـ 185.

(75) التاريخ المتأخر الوارد لهرب الأمير 651 هـ / 1253 ـ 1254م ربما كان تاريخ عودته إلى الظهور في الهند مع جيش مغولي. ثمة خطأ آخر هو الزعم بأن جلال الدين كان سلطاناً سابقاً وقد أُطيح به من قبل قطلغ خان لصالح رضية. يرد ذكر قطلغ خان بين حلفاء أولوغ خان. إذا لم يكن هذا خطأً، فإن الرجلين ربما لم يصبحا خصمين، إلاّ بعد رحيل جلال الدين؛ ورواية وصّاف تزعم بالفعل، أن قطلغ خان، ما لبث أن صار يخاف أولوغ خان.

(76) انظر هوديغالا، **دراسات**، II، 78. ثمة احتمال قوي بأن يكون «سنقرخان» هو نفسه شيرخان سنجر. فآيبكي خطاي ـ ي، مُقْطَع بَرَن، كان يحمل لقب إيكيت خان: رافيرتي يورد لقبه على شكل «بان» أو «بات» خان، ولكن قارن مخطوطة BL ملف 192 ب، 194 أ، ومخطوطة IOL، ملف، 262 أ، 263 ب (كما في دليل حبيبي، I، 488، 491). كان سيف الدين آيبكي شمسي عجمي، الذي يلقبه الجوزجاني بـ «إيريكلي دادبك»، قد شغل منصب **الأميري داد** منذ سنة 640 هـ / 1242 ـ 1243 م. أمّا «يوزبك» فهو اختيار الدين يوزبك طغرل خان، الذي يبدو أنه حل محل جلال الدين نفسه مُقْطَعاً لقنوج، والذي =

جيش مغولي، واصطناع دولة عميلة له حوالى لاهور، والزاوية الشمالية الغربية من البنجاب، فسيتم الحديث عنهما لاحقاً. فحين تقدم من لاهور باتجاه الشرق سنة 652 هـ / 1254م، التحق به عدد من الأمراء، بزعامة أُلُغ خان، الذي كان قد خرج خاسراً من عملية الصراع على السلطة، في السنة السابقة[77]. وما لبثت المناورات غير الحاسمة، من جانب المتمردين وجيش السلطان، أن أفضت إلى حل توفيقي كان ريحان ضحيته المباشرة: فقد أُعفي الرجل من منصبه، وأُبعد إلى إقطاعه الجديد: بداؤون[78]. يبدو أن السلطان، مع عدد معين من أولئك الذين كانوا من قبل، قد استفادوا من الإطاحة بأُلُغ خان، قد تخلوا عنه. من المؤكد أن أحد هؤلاء المهاجرين كان أرسلان خان، الذي حل محل شيرخان في تبرهند، غير أنه ما لبث أن بات الآن بادياً، كما لو كان بين صفوف أتباع جلال الدين مسعود. وثمة آخر هو صهر قُطْلُغ خان: عز الدين بلباني يوزبكي، الذي تفاوض مع كل من جلال الدين مسعود، وأُلُغ خان نيابة عن السلطان، والذي نجا بصعوبة من الاغتيال على أيدي عملاء ريحان: نجده متمتعاً بتأييد القصر منذ ذلك التاريخ وصاعداً[79]. أما جلال الدين مسعود فقد كان حصاده من التسوية، أقل مما يمكن أن يكون قد توقعه. صحيح أنه تصالح، وحلفاءه، مع محمود شاه؛ غير أننا نرى أنه لم يحصل إلاّ على لاهور كإقطاع له، ويبدو أنه ما لبث أن انسحب إلى

= كان بالتأكيد عضواً في حاشية النائب، لأن بلبان، قبيل منحة قنوج، كان قد ساهم في تمكينه من استعادة مودة السلطان.

(77) بمن فيهم كيشلي خان من قارا وآييكي خطاي ـ ي من سُنّام ومنصوربور. أمّا الأمير غير المسمى من آواد، TN، II، 66 (تر. 830) فربما كان يوزبك طغرل خان، الذي حصل على تلك المقاطعة بعد إزاحته عن قنوج، جراء عدم الخضوع من قبل قطب الدين حسن بن علي: المصدر نفسه، II، 31 (تر. 762)، حيث لا تواريخ، غير أن هذه تبدو إعادة الهيكلة الأكثر إقناعاً للأحداث.

(78) المصدر السابق، I، 488 ـ 489، وII 66 ـ 68 (تر. 699 ـ 700، 830 ـ 834).

(79) المصدر السابق، II، 68، 78 (تر. 832، 833). ربما ظل بلبان يوزبكي سابحاً في بحر نعم البلاط إلى وقت متأخر وصل حتى 656 هـ / 1258م.

هناك، وتوقف عن أداء أي دور في الأحداث الجارية في المركز. وعلى أية حال، ليس ثمة أي ذكر له بصحبة الجيش السلطاني، حين عاد أُلُغ خان بلبان، والملك إلى دلهي في شهر ذي الحجة سنة 652 هـ كانون الثاني / ديسمبر 1255م[80].

سارع أُلُغ خان إلى إعادة فرض سيطرته على البلاط. ففي ربيع الثاني 653 هـ / حزيران / يونيو 1255م، جرى اعتقال النائب قطب الدين حسن، الذي حاول التوسط في الصراع السابق على ما يبدو - وإعدامه، بحجة تفوهه بتعليق أثار حفيظة السلطان. عاد منصب نائب الملك إلى أُلُغ خان، في حين نُقل إقطاع ميرت العائد للمحكوم بالإعدام، إلى كشلي خان الذي عاد **أمير - حاجب** (حاجباً) مرة أخرى[81]. كذلك لم يُضِعْ أُلُغ خان وقتاً، بل بادر بسرعة إلى التحرك ضد جماعة المعارضة. ففي بداية سنة 653 هـ / 1255م بالذات، جرى طرد قُطْلُغ خان وأم السلطان من القصر، وأُمرا بالإقامة في إقطاع أَوَذ الجديد، المخصص لقُطْلُغ خان. وفي الوقت نفسه تقريباً، تم تجريد ريحان من بداؤون لصالح تنزخان، أحد أنصار أُلُغ خان، ونقله إلى باهراتش الأبعد، حيث قتله تاج الدين سيوستاني في رجب 653 هـ آب / أغسطس 1255 م[82]. تابع قُطْلُغ خان، النضال لبعض الوقت في أَوَذ، قبل انضمامه إلى كوشلوخان، القادم من السند سنة 655 هـ / 1257 م؛ وقد حاول الحليفان تنظيم انقلاب في دلهي، أحبطه أنصار أُلُوغ خان، ففرضا حصاراً قصير الأمد على العاصمة، غير أنهما اضطرا للانسحاب، غداة وصول النائب على رأس جيشه[83]. لم يُسمع أي شيء آخر عن قُطْلُغ خان، الذي ربما

(80) TN، ا، 489، واا، 68 - 69 (تر. 700، 834).

(81) المصدر نفسه، ا، 489، واا، 46 (تر. 702، 798 - 799).

(82) المصدر نفسه، ا، 489، 490، واا، 69، 70 (تر. 701، 702 - 703، 834 - 835، 836).

(83) المصدر نفسه، ا، 490 - 491، 492 - 494، واا، 39، 69 - 75 (تر. 703 - 706، 707 - 710، 784 - 786، 835، 836 - 844).

غادر الهند بحثاً عن مأوى لدى المغول[84]. أما كوشلوخان فقد انسحب إلى السند: وحَسْب كلام الجوزجاني، فإن قواته عانت من النزيف الشديد، لأن أكثرية الفصائل الآتية من أوتشش ومُلْتان هجرته فضلاً عن أن أعداداً كبيرة، التحقت بخدمة أُلُغ خان والبلاط[85]. وبمقدار ما نستطيع أن نعلم، بالإفادة من رواية الجوزجاني لقصة السنوات القليلة التالية، فإن خصوم أُلُغ خان بلبان، استُبعدوا من أية حصة في السلطة المركزية؛ أما هو فقد احتفظ بمنصب النيابة دون منازع، إلى أن أقدم على اغتصاب العرش بعد حوالى عشر سنوات.

في تحليله للفترة السابقة على اعتلاء بلبان العرش كسلطان، يرى الدكتور نيغام Nigam النمط السائد متمثلاً، باستئصال العناصر المنافسة كالأفارقة أو الطاجيك، مما أبقى الأتراك دون أي منافس، أعقبته حقبة شهدت، تصارع الزُّمَر التركية المتنافسة على السلطة، ولكن بطريقة أكثر تحفظاً، صراعاً انطوى على أشكال غير دامية من تغيير النظام، والحلول التوفيقية القائمة على المساومة[86]. على أن القول بأن صراعات خمسينيات القرن الثالث عشر، كانت أكثر تحفظاً في الحقيقة، على مستوى بعينه، فإنه يبقى أمراً يثير قدراً كبيراً من الشك. من المعروف أنه لم يكن ثمة تكرار لمذبحة 634 هـ / 1236م، التي تبدو عملية اغتيال ملكية صغيرة، غير أننا ما زلنا نشهد، سلسلة الاغتيالات السياسية لأفراد معينين مثل قطب الدين حسن. لقد أدت شراسة الصراع وحدَّته، إلى إثارة الدهشة ليس فقط لدى المراقبين المعاصرين، بل وحتى عند

(84) JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Taf 57، وحده يجعل قطلغ خان عاملاً في بلاط مونغكه، في حين لا يقول النص الفارسي (cc Taf.)، مثل وصّاف، 310، وقاشاني، 184 ـ 185، إلاّ أنه انطلق في أعقاب جلال الدين (ثمة خطأ في تر. 48). يقال إنه كان مصحوباً بـ «سنقرخان» (أي شيرخان): هذا غير وارد، رغم معرفتنا بحقيقة أن شيرخان هو الآخر قد هرب ولاذ بحماية المغول.

(85) TN، I، 493، وII، 39 (تر. 710 ـ 786).

(86) نيغام، **الأرستقراطية**، 37 ـ 38.

الأطراف المشاركة. فحين اضطر كوشلوخان سنة 648 هـ / 1250م، للذهاب من أجل تحرير أوتشش، التي كانت تتعرض للهجوم من جانب شيرخان، عقد آماله، كما يقال لنا، على حقيقة أنهما جميعاً، كانا «من بيت واحد وعتبة واحدة»[87]. وبعبارة أخرى، كان يتوقع، نظراً لكون الأميرين من مماليك إلتُتمش، أنهما سيكونان قادرين على التوصل، إلى نوع من الاتفاق الودي. لقد خاب ظنه: وضعه شيرخان في السجن، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد احتلال المدينة. يعبر الجوزجاني عن الدهشة قائلاً: «يستحيل أن يكون هناك أمر أكثر إثارة للدهشة من هذا!»، واصفاً عمليات المجابهة بين قوات بلبان من جهة، وقوات كل من كوشلوخان وقُطْلُغ خان من الجهة المقابلة سنة 655 هـ / 1257م؛ «لأنهم كانوا جميعاً متشابهين، في أنهم من كيس نقود واحد، تناولوا طعامهم من قصعة واحدة؛ لقد نجح الشيطان اللعين في زرع بذور الفتنة والفرقة بينهم»[88]. ثمة في الحقيقة ما يدعو إلى الإيحاء، بأن الوضع في خمسينيات القرن الثالث عشر لم يكن أقل، بل أكثر خطورة لاستحالة حله، بمجرد الاستغناء الجماعي عن فريق من البيروقراطيين الطاجيك. بل كان الأمر منطوياً على نوع من الصراع، بين فريقين شبه متساويين، مشتبكين في حرب أهلية كاملة الأبعاد. أضف إلى ذلك، أن الفريقين كليهما كانا مستعدين، لالتماس مساعدة المغول الوثنيين. فألُغ خان بلبان وأعوانه استعادوا السلطة، عبر التحالف مع كيان دائر في فلك المغول؛ كما أن كوشلوخان، كما سنرى، رد على هزيمته بقلب السِّنْدِ إلى معسكر مغولي.

الأرستقراطية الغياثية

مما يؤسف له أننا لا نملك إلاّ الحد الأدنى من المعلومات، عن تولي

(87) TN، II، 38 (تر. 783).

(88) المصدر نفسه، II، 73 (تر. رافيرتي 841 المعدلة).

بلبان شؤون السلطنة، لدى موت محمود شاه؛ فكما رأينا بقي حتى أسلوب موت السلطان، ومصير ذريته غامضين. من المحتمل، وإن لم يكن مؤكداً بأي حال من الأحوال، أن يكون وضع حد للنظام الشمسي، قد تم عبر استخدام القوّة المكشوفة. إن ناصر الدين محمود شاه، هو العاهل الشمسي الوحيد، باستثناء فيروز شاه، المعروف بامتلاكه مؤسسته الخاصة، قبل اعتلائه العرش، حتى أنه كان، لدى انتقاله من دلهي إلى باهراتش، مصحوباً بـ «أعداد كبيرة من الفرسان والمشاة»، (**مبالغي مَرْد پايك وسُوار**)[89]. لعل امتلاكه لمصادر مستقلة من القوة البشرية، كان أحد الأسباب الكامنة وراء احتفاظه بالعرش، مدة أطول من الفترة الانتقالية الوجيزة، التي مُنحت لغيره من أعضاء الأسرة، خصوصاً إذا كان وراء معارضة أُلُغ خان فعلاً.

أما سيرة أُلُغ خان بلبان العملية الطويلة، قبل جلوسه على العرش، خصوصاً كمُقْطَع لهانسي منذ سنة 639 هـ / 1242م، فكانت قد وفرت له الأسباب، التي مكنته من امتلاك قوة قائمة على فريق من الحراس الخاصين، (**حَشَمهاي خاص**)[90]. ومما لا شك فيه أن تلك الأسباب اشتملت فيما اشتملت، على تجهيز ألف من المماليك المشاة، كانوا يرافقونه في رحلات صيده كسلطان، ويوصف بأنه «عريق» (**قديم**)[91]. وقبل أن يصبح سلطاناً، كان أيضاً يملك غلماناً يخُصُّونه من الأتراك. فنحن نجد هؤلاء في وقت مبكر، على صفحات كتاب **طبقات ناصري**: حيث نرى ضباطاً بارزين، ومتنفذين مثل أيتكين، موبي دراز، و**السِپهسلار** قراشوماق، الذي مثَّل أُلُغ خان في مفاوضات 652 هـ / 1254م مع السلطان[92]. لم تكن الأصول القبلية معروفة. ربما تم

---

(89) المصدر السابق، I، 479.

(90) المصدر السابق، II، 72، 74، (تر. 839، 841).

(91) TFS، 55.

(92) TN، II، 67 (تر. 831 ـ 832). اسمه تو. قَرَه، «أسود» تشوماق، «صولجان» (كلاوسون، **قاموس جذور**. . .، 422 ـ 423؛ قارن سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 93. عن آيتكين، انظر 71 من هذا الكتاب.

شراؤهم، بعد الاجتياح المغولي الأخير لبلاد القِبجاق سنة 1239 ـ 1240م، حين تعرض أبناء عشيرته، الأولبرلي للبعثرة أخيراً، ففر الكثير منهم إلى الأناضول، عابرين البحر الأسود[93]؛ ومثله مثل السلطان المصري الصالح أيوب، ربما تمكن بلبان من الإفادة من تخمة السوق بالشبيبة التركية.

علينا أيضاً أن نتذكر أن توليه الطويل لمنصب نيابة الملك، منذ سنة 647 هـ / 1249م، مع فترة انقطاع قصيرة فقط، مكَّن أُلُغ خان بلبان من دسّ أعوانه، وأصدقائه، ووضعهم في مواقع استراتيجية. فابنه علاء الدين محمد، الذي احتفظ بمنصبه الجديد، خلال جزء كبير من عهد بلبان[94]، ما لبث أن خلف أخاه كشلي خان، في منصب الحاجب (**أمير ـ حاجب**)، بعد موت الأخير سنة 657 هـ / 1259 م. من الممكن (وإن لم يكن مضموناً بأي من الأحوال)، أن يكون أولئك الذين يبرزون بوصفهم، مؤيدين لبلبان في أزمات سابقة، قد دعموا عملية استيلائه على العرش. فنصرت خان بدر الدين سنقر، الذي هرع لمساعدة دلهي في 655 هـ / 1257م لدى تعرضها لحصار خصوم النائب، معروف بأنه بقي مُقطعاً حتى سنة 669 هـ / 1271م، على الأقل[95]. أضف إلى ذلك أن أمير خسرو يقوم، في مقدمة كتابه: **غُرّة الكمال**، باصطناع خدعة لفظية تلمح إلى جدّ بلبان من جهة الأم، **العارض** عماد الملك (المتوفى حوالى سنة 671 هـ / 1272 ـ 1273م)، بوصفه «صانع سلاطين»؛ كما نعلم من المؤلف نفسه أن مؤسسة عماد الملك الخاصة، كانت تقوم على فرقة مؤلفة من مئتين من المماليك الأتراك، وألفين من المماليك الهندوس، وألف من الفرسان[96]. ربما كان عماد الملك ـ وهو

(93) اليونيني، III، 240. إيروين، **الشرق الأوسط**، 17 ـ 18، داعياً إياهم «بارالي».

(94) TN، I، 495 (تر. 713). TFS، 35، 36 ـ 37، 113 ـ 114.

(95) TN، II، 42 (تر. 787 ـ 788). ج. يازداني، «نقش عن سلطان بلبان من بهايانا، ولاية بهاراتبور»، EIM (1937 ـ 1938م)، 5 ـ 6.

(96) IOL, DGK مخطوطة فارسية 51، ملف 34 ب، **آغارنيشاني سلطاني في نداشت سلطاني نيشاني** =

شمسي بنظر برني ـ أداةً من أدوات نجاح أُلُغ خان بلبان في اغتصاب العرش: من المؤكد أن مكتب **العارض**، كان نشيطاً في عملية الدفاع عن دلهي، نيابة عن بلبان سنة 655 هـ / 1257م[97].

ثمة رواية لاحقة تزعم أن بلبان، كسلطان، ألغى منصب النائب، وإن كان من المعلوم، أن المنصب جرى إحياؤه قبل موته[98]. يقول برني إنه، رغبة منه في تدمير زملائه السابقين (**خواجاتشان**)، كبار الأمراء الشمسيين، أوعز بتسميم عدد منهم، مما دفع ابن عمه شيرخان، الذي كان يملك إقطاعات لاهور، وسُنّام وديوبالبور، إلى العزوف عن المجيء إلى القصر، في أي من عهدي محمود شاه أو بلبان، خشية التعرض للمصير ذاته. غير أن بلبان ما لبث، ـ ولو بعد حين ـ، أن نجح في قتله بالسم أيضاً حوالى سنة 668 هـ / 1269 ـ 1270 م. أما الشمسيون الذين نجوا، فلم يتمكنوا من النجاة، إلاّ بفضل إشفاق السلطان شخصياً عليهم[99]. يقوم برني بإيراد اسمي اثنين من هؤلاء، هما تيمورخان وعادل خان. يظهر الأول تحت اسم تيمورخان سنقري عجمي، مالك (أمير) كوهرام، في لائحة الجوزجاني، لأعيان محمود شاه: وبعد موت شيرخان منحه بلبان إقطاعي سُنّام وسامانا. أما عادل خان، فنجده حاملاً لقب شمسي عجمي، الذي يوحي بتماهيه مع الحاجب (**أمير داد**)،

= دشت (قابل للترجمة المتحررة إلى «إذا لم يكن هو نفسه السلطان، فإنه كان يصنع هذا السلطان بيده». تتشوه العبارة في النسخة المطبوعة على يد سيد وزير الحسن عابدي (لاهور، 1975)، 67، كما تقع في خطأ إعطاء رقم 100,000 عدداً للماليك الهندوس مع الأتراك.

(97) TN، ا، 493 (تر. 709). لامتلاك فكرة مختصرة عن حياة عماد المُلْك العملية، انظر TFS، 114. قد يكون متماهياً مع اختيار الملك شرف الدين محمد راشدي، الذي يقال إنه كان يشغل منصب **ديواني عارضي مملك** حين كان بلبان نائباً: DA، مخطوطة PRL الفارسية 1231، ملف 56 ب وتر. س. عبد الرشيد، «دستور الألباب في علم الحساب» MIQ (1950). 93 يتضح أن اسم عماد الملك هو محمد من TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 36 ب، حيث يخاطب ابنه كـ «محمودي محمد». أمّا الافتراض بأنه كان ذا أصل هندي فليس مبرراً بما تقوله المصادر.

(98) DA، ملف 56 ب (تر. رشيد، 93). ولكن انظر TMS، 51، 52، عن النائب قوتشو.

(99) TFS، 47 ـ 48، 65، وإشارة موجزة في 550.

سيف الدين آيبك[100]. ولا نعلم شيئاً عن المصير النهائي لهؤلاء النبلاء. فعدم اكتمال تطهير بلبان بأي من الأحوال، واضح من تعليق برني على عدد أبناء الغلمان الشمسيين، الذين شغلوا مناصب في الحقبة الغياثية[101].

هناك مؤرخون حديثون، دأبوا على اتهام بلبان، باقتلاع جذور النفوذ التركي من الهند[102]. غير أن غَرَضَه من الإطاحة بعدد من زملائه السابقين، لم يكن بالطبع، إلاّ تدعيم مواقع مماليكه هو. لعل طغرل الذي اغتصب السيطرة على إقليم لخناوتي البعيد، وتمت الإطاحة به حوالى سنة 680 هـ / 1281 ـ 1282م هو الأسوأ سمعة. أما غلام بلبان المفضَّل، برأي برني، فكان اختيار الدين بغبار، الذي أصبح **أمير ـ حاجب / باربغ**، ربما خلفاً لعلاء الدين محمد بن كشلي خان، ورافق السلطان في حملته البنغالية، وكُلِّف بمهمة مطاردة طغرل، واقتناصه بعد انهيار الثورة[103]. وثمة آخرون، يجري إعلامنا أنهم أثاروا حفيظة السلطان، فخسروا مناصبهم الرفيعة، بل وحياتهم أحياناً، مثلما حصل للملوك برقوق وآيتكين موي دراز (أمين خان)، مُقْطَع أوَذ، الذي شُنق حوالى سنة 678 هـ / 1279 ـ 1280م، لإخفاقه في إخماد ثورة طغرل. أمّا

---

(100) المصدر نفسه، 36، 50، 65، 83. تَمُرخان في عهد محمود شاه: TN، I، 476 ومخطوطة BL، ملف 188 ب (تر. 673). عن نقش حول ابن آيبكي شمسي ـ ي عجمي، محمد في فزوخناغار بغورغاوون، مؤرخ في 674 هـ / 1276م، انظر ج. يازداني، «نقوش عن سلاطين دلهي الأتراك»، EIM (1913 ـ 1914)، 26 ـ 27؛ RCEA، XII. 206 ـ 207 (رقم: 4711). أضف إلى ذلك أن حليف بلبان القديم نُصْرت خان، كان لا يزال ممسكاً بزمام الأمور في بهايانا سنة 669 هـ / 1271 م.

(101) TFS، 66. تاج الدين، ابن قطلغ خان ـ ي شمسي، اعتُبر أحد «أمراء هندوستان» الذين أرسلوا المحاربة المتمرد طغرل: المصدر نفسه، 83. ربما كان أبوه قطلغ خان الذي توفي في 635 هـ / 1237 م.

(102) مثلاً من ساران، «السياسة والشخصيات»، 242 ـ 243؛ نيغام، **الأرستقراطية**، 42، قائلاً إن بلبان «أراد الإجهاز على الأرستقراطية التركية»؛ نظامي، **بعض وجوه...**، 143، وفي HN، 285 ـ 286.

(103) TFS، 61، حول مدى قربه من بلبان؛ وانظر أيضاً 24، 81، 88. يظهر اسمه بوضوح في مخطوطه BL، ملف 32 أ، 47 أ، على شكل ب ي ك ب ر س؛ وعن الشكل نفسه في مصر المعاصرة، انظر الصفدي، وافي، X، 187 ـ 188.

أبناء مماليك بلبان الذين عرفوا باسم **مولى زادَغان** («أبناء المحرَّرين»)، فقد لعبوا دوراً بارزاً في شؤون الدولة. ثمة مثال نجده متمثلاً، **بالساري جاندار** اختيار الدين علي بن آيبك، المعروف لدى العامة باسم حاتم خان، الذي مُنح آمروها، إقطاعاً له أوائل عهد بلبان، وحصل في ظل كَيقُباد على أوَذ، ولقب خان جهان: ظل الشاعر أمير خسرو في خدمته عدداً من السنين[104]. في عهد خلف بلبان كان لا يزال يوجد فريق واضح المعالم، ومعتد بنفسه من الغيائيين، من الغلمان السابقين للسلطان القديم أو ذراريهم، مثل اختيار الدين آلب غازي الذي عارض النظام الخَلْجي المؤسس حديثاً في 689 هـ / 1290م[105].

وبالتالي فإن الوضع والنسب المملوكيين دأبا، رغم قيام بلبان بتغيير الكثير من الكوادر، على الاستمرار بوصفهما من المؤهلات، اللازمة لشغل المناصب الرفيعة. ومع ذلك فإن الطبقة الحاكمة، شهدت قدراً مؤكداً من التوسع في عهده. لم يكن بلبان أكثر من أسلافه الشمسيين، اعتماداً على نخبة مؤلفة حصراً من ذوي الأصول التركية، ولا تضم سوى أقاربه القريبين، أو مماليكه وذراريهم. فَبَرني يقدمه لنا بوصفه شديد العداء لترقية وضيعي النسب، وعازفاً عن تعيين شخص معين يدعى كمالي مهيار، في منصب مفتش الواردات (**خوجا**) في آمروها. ولو لم تكن ثمة رواية أكمل بعض الشيء، للقصة في مصدر يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، لكان من المحتمل، أن نظل أقل ميلاً إلى التسليم بقيمة الرواية وأن نبادر إلى رفضها، بوصفها وجهة نظر برني الشخصية، الممررة عبر السلطان. غير أن اعتراض بلبان، كان واضح

(104) TFS، 36، 118 ـ 119؛ وعن آواد، QS، 221؛ RI، V، 55 .مولازاده، مشروح في هوديفالا، **دراسات**، I، 342. عن خسرو، انظر ميرزا، **حياة وأعمال**، 66، 69، 70 ـ 73.

(105) TMS، 63: عنه، انظر هـ. 128 في هذا السرد. وعن نموذج آخر لأمير يحمل لقب «قطلغ سلطاني غيائي» هذا، انظر يازداني، «نقوش عن سلاطين... الأتراك»، 31 ـ 32.

الاستناد إلى حقيقة أن كمالي مهيار، كان ابناً لأحد المماليك الهنود[106]. فنظراً لأن سيرته الخاصة قد ابتُليت مؤقتاً، بالغلام الهندي ريحان، ثمة احتمال قوي بأن يكون السلطان، قد حمل نفوراً إزاء الأشخاص، الذين هم من الخلفية ذاتها. ومن الجدير بالملاحظة أن غضب بلبان لم يتسع، ليشمل الهنود ذوي الأصول النبيلة، مهتدين كانوا أم وثنيين. ويقال لنا إن فريق القائمين على خدمته، كان يضم شخصاً معيناً يحمل لقب «هاتيا بايك»، يفترض أنه أرستقراطي هندوسي، كان يحصل على جُعالة كبيرة، تبلغ مئة ألف من **الجيتالات** (حوالى **ألفي تنغا**)[107]. وغداة حملته ضد أهالي جبال الملح (كوهي جود)، في حوالى 665 هـ / 1266 ـ 1267م، اصطحب بلبان ابني الراجا اللذين اعتنقا الإسلام، لدى عودته إلى دلهي. ومن شأن ظهور هذين الأميرين: علي شاه كوهي جود وعز الدين خُرّم، جنباً إلى جنب مع المحتقر كمالي مهيار، بين صفوف مالكي (أمراء) كَيقُباد، حفيد بلبان، أن يشكل مؤشراً دالاً على صعود أرستقراطية إسلامية هندية، حتى قبل الحقبة الخَلْجية، التي يجري ربطها بها تقليدياً[108].

بقيت طبقة النبلاء شاملة لأمراء طاجيك، كان أبرزهم في السنوات الأخيرة من عهد بلبان كوتوال دلهي: فخر الدين، الملقب بـ (**ملك الأمراء**). إن برني الذي يزعم أن فخر الدين وأباه، قد شغلا ذلك المنصب مدة ثمانين سنة، يمكننا من التعرف على الأب، بوصفه جمال الدين نيشابوري، حاملاً لقب **أُلُغ كوتوال بك** في 655 هـ / 1257م، حين كانت دلهي متعرضة لهجوم أعداء بلبان: من شأن جذور النيشابوري، أن تفسر لقب **خان خراسان**

---

(106) TFS، 36 ـ 37. سيد أشرف جيهانغير سيرماني، **مكتوباتي أشرفي**، مخطوطة BL ms. Or. 267, fol. 66 b

(107) TFS، 210.

(108) TMS، 40، 54، انظر TFS، 126، عن نبلاء كيقُباد الثلاثة جميعاً إ. هـ. صديقي، «الحراك الاجتماعي في سلطنة دلهي»، في ع. حبيب (محرراً) **الهند في العصر الوسيط**، 1، 24.

الطنّان، الذي حصل عليه فخر الدين في ظل كَيقُباد[109]. أما ابن أخيه، وصهره، نظام الدين، الذي أصبح **دادبك** كيقباد، والذي يوصف بأنه أحد الناجين «من الملوك الشمسيين والبلبانيين اللامعين»، فشخصية غامضة ويبدو نازلاً من السماء، ما لم تتم مماهاته مع نظام الدين بوزغالا، مدير بيت (وكيلي دار) بلبان[110]. كذلك شهد عهد بلبان استمرار وصول، نبلاء مسلمين من مختلف الأقاليم، التي وقعت تحت الاحتلال المغولي[111]. ثمة مهاجر متميز تميزاً خاصاً هو الحجاج، سلطان كرمان المخلوع، الذي بقي عشر سنوات، ولم يعد إلى وطنه، إلاّ بعد اعتلاء جلال الدين الخَلْجي للعرش، غير أنه قضى نحبه على الطريق في بهكّر، أواخر سنة 690 هـ / 1291 م[112].

ويبدو أن بلبان، ربما تعمد تدعيم نفوذ أمراء الخَلْج، وأفاد من تدفق النبلاء المغول في أعقاب الانتفاضات، التي حصلت في المناطق المغولية، بعد

(109) جمال الدين، TN، I، 493 (تر. 709). فخر الدين: TFS، 117 ـ 118، 126؛ ثمة تلخيص لحياته العملية من قبل ب. س. ماثور، «ملك الأمراء فخر الدين ـ كوتوال دلهي»، IC 39 (1965م)، 205 ـ 208.

(110) TFS، 131، 168؛ قارن أيضاً 24، 36، 37، 191. **بوزغالا** تعني «فرخ» بالفارسية: انظر اللعب على الكلمات في TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 40 أ.

(111) فيريشتا، I، 131، مقتبساً من عين الدين بيجابوري.

(112) ناصر الدين كرماني، **سمط العُلى للحضرات العليا** (حوالى 1315م). تحقيق عباس إقبال (طهران، 1328 هـ / 1949م)، 49. مجهول المؤلف، **تاريخي سيستان**، تحقيق ملك الشعراء بحار (طهران، 1935م)، 405، وتر. ل. ب. سميرنوفا (موسكو، 1974)، 376. حمد الله مستوفى قزويني، **تاريخ ـ ي غوارايدا**، تحقيق عبد الحسين نوائي (طهران، 1960)، 532. يقول رشيد الدين إن الحَجّاج بقي في الهند مدة تقرب من خمسة عشر سنة. TJ، II، تحقيق إ. بلوشين، GMS، XVIII (لايدن ولندن، 1911م)، 552 وتر. ج. آ. بويل، **ورثة جنكيزخان** (لندن ونيويورك، 1971م)، 305، تر. يو. ب. فيرخوفسكي، **سبورنيك ليتويسي**، II (موسكو ولينينغراد، 1960م) 198. إشارات موجزة في وصّف، 291، وشابان قرائي (1337م)، **مجمع الأنساب**، تحقيق ميرهاشم محي الدين (طهران، 1984م)، 199. أن يكون حاكم كرمان قد غادر سيستان غداة ورود أنباء زحف الإيلخان آباقا على خراسان يضع رحيله في 678 هـ / 1279 م؛ انظر JT، III، تحقيق آ. آ. علي زاده وتر. آ. ك. آرندس (باكو، 1957م) النص 152 ـ 153، تر. 94، وعن التاريخ، جان أوبان، «أصول القاراؤون العرقية» ترجيكا I (1969م)، 85 هـ. 4.

حوالى سنة 1260م. ويقال إن أخاه كشلي خان، بوصفه حاجباً (**أمير ـ حاجب**) في خمسينيات القرن الثالث عشر، كان على علاقة ودية مع أمراء الخَلْج، بين آخرين، فيما كان ضباط من الخَلْج في تاريخ لاحق، يخدمون في السند، تحت قيادة محمد بن بلبان، المعروف باسم «الأمير الشهيد»[113]. أما أمير جمال خَلْجي، الذي جعله بلبان **نائب دادبك**، فيحتمل أنه **حاجبه** جمال الدين علي، الذي أوفده مبعوثاً إلى المغول سنة 658 هـ / 1260 م[114]. وإذا استطعنا أن نثق بوصّاف، فإن السلطان المقبل جلال الدين خَلْجي، كان لاجئاً جاء من المنطقة المغولية، في ستينيات القرن الثالث عشر، سبق له أن كان رئيساً لإمارة الخَلْج، بتفويض من حاكم بنبان[115]؛ وإذا كان هو الشخص، الذي يعتبره الجوزجاني (**شحنة**) حاكماً «مقيماً» مغولياً في بنبان، الذي كان أحد أبناء الأمير يوغروش، فإن جلال الدين نفسه، ربما كان مرافقاً للسفارة المغولية، المتجهة إلى دلهي سنة 658 هـ / 1260 م[116]. فبرني الذي يورد اسمه مع اسم أخيه، شهاب الدين مسعود في قائمة ملوك بلبان، لا يلبث أن يقدم جلال الدين فيما بعد، متعاطفاً مع ذكرى تنصيب بلبان[117].

شكّلَ المهاجرون المغول، بالمقابل، عنصراً جديداً في سياسة السلطنة. ثمة أمراء مغوليون هربوا، ولاذوا بمناطق سلطان دلهي بعد سنة 660 هـ / 1262م[118]، بطريقة شديدة الشبه بهروب القادة المغوليين وأتباعهم، المهزومين في صراع أو آخر مع رفاق سلاحهم، رغبةً منهم في الحصول، على ملجأ في

(113) TN، II، 46 (تر. 798). TMS، 47.

(114) TFS، TN24 ،. II، 86 (تر. 86).

(115) وصّاف، 311؛ JT، تحقيق يان، **كتابات فارسية**، النص العربي .57 Taf (النص الفارسي Taf 23 مشوه؛ قارن تر. ألمانية 48 ـ 49)؛ قاشاني، 185.

(116) TN، II، 88 (تر. 862). TMS، 56، 61، يدعو أباه يوغروش.

(117) TFS، 24، 178. عن شهاب الدين، انظر أيضاً المصدر نفسه، 186؛ DR، 54؛ ابن أبي الفضائل، تحقيق كورتانتامر، النص العربي، 29 (تر. ألمانية، 108).

(118) د. آيالون، «الوافدية في الدولة المملوكية»، IC 25 (1951م)، 81 ـ 104، معاد طبعه في كتابه دراسات.

ولايات سلاطين المماليك، في كل من مصر وسورية. وحسب رواية أحد كتاب القرن الرابع عشر، فإن حيّاً كاملاً من أحياء العاصمة، كان يحمل اسم الحي الجنكيزي، نسبة إلى أولئك المغول في عهد بلبان. لقد اعتنقوا الإسلام، وإن لم يكونوا مسلمين أساساً، بعد وصولهم، وباتوا، مثل خلفائهم الذين دخلوا السلطنة، أيام علاء الدين خَلْجي، يُعْرَفون باسم «المسلمين الجدد» لدى برني[119]. ومن الملوك الذين يحملون أسماء مغولية مؤكدة، دون أي مجال للخطأ بيانشر؛ وأولاغشي بن طرغاي، «قائد سلاح المسيرة» (**سر سلاحدار ميسرة**)؛ وطرمطاي، أحد القادة الذين أخفقوا، في إخماد الثورة البنغالية؛ وجاؤرشي، **سَر جاندار** كيقباد[120].

يبدو أن هؤلاء الأمراء المسلمين الجدد، كانوا في البداية يشكلون جزءاً من التحالف، الذي ضمن العرش لكيقباد، ويتقاسمون النفوذ مع نظام الدين، لأنهم يوصفون بأنهم، كانوا متمتعين بالمناصب والحظوة (شغل ودار ومقرّب). غير أن نظام الدين، ما لبث أن تحول ضدهم أيضاً، بعد خلاصه من المنافسين الآخرين، من أمثال الوزير. لقد تعرض الأمراء المغول، بمن فيهم حلفاؤه السابقون، مثل كَري **والساري جاندر** جاؤرشي، للتجميع والإعدام بأكثريتهم، على الرغم من الاكتفاء، بنفي كل من جاؤرشي. ومُغُلْطاي[121]. كثيرون من

(119) فيريشتا،ا، 131، مقتبساً من **ملحقات** البيجابوري لـ TFS. TN، 135.

(120) تعرض اسم بايانتشار للتشويه إذ ورد على شكل ن ا هـ ج ن في TFS، 126، وعلى شكل «أ هـ ح ن» في المصدر نفسه، 183 (حول الشكل الصحيح ب ا ي ن ج ر، انظر مخطوطة BL، ملف 67 ب، 99 أ). جاورجي: TMS، 53، وFS، 184 ـ 188 (تر. 315 ـ 319). تورومتاي: FS، 165 ـ 166 (تر. 292 ـ 293). تورغاي وأولاغتشي: TFS، 24، 126، 183. إن اسم الأب هو في الحقيقة تو. **تورغاي** «سنونو» عصفور دوري»: سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 128؛ كلاوسون، **قاموس جذور...**، 541. عن مو. **أولاغتشي**، «ضابط نظام البريد الممرحل»، انظر بول پليو، **ملاحظات حول تاريخ الجحفل الذهبي** (باريس، 1950)، 34 ـ 35؛ وحول بايانتشار (مو. بايان «غني» + ذيل تشار)، المصدر نفسه، 52، 89؛ وعن مو. **تورومتاي** «الصقر الديك»، انظر ف. د. لسنغ، **قاموس مغولي ـ إنجليزي**، بيركلي ولوس أنجليس، 1960)، 827.

(121) TFS، 133 ـ TMS134 .، FS53 .، 186 ـ 188 (تر. 317 ـ 319).

موالي (مولى زادات) بلبان، ممن كانوا على علاقات نسب ومصاهرة معهم، تعرضوا أيضاً للاستئصال، بمن فيهم أبرزهم، **مالك شاهق**، الملقب أجدرخان، الذي كان حاجباً (أمير ـ حاجب) ومقطعاً لمُلْتان، وملك تركي، **العارض**[122]. ومن الواضح بجلاء أن نظام الدين، لا بلبان، هو الذي بذل أقصى الجهود في سبيل الإجهاز على الغلمان الأتراك، خلال السنوات القليلة السابقة لاستيلاء الخَلْجيين على السلطة.

غير أن الأمراء المغول كانوا، حتى بعد إزاحة نظام الدين، لا يزالون طليقين أحراراً. قد يكون عصامي على صواب حين يقول، إن أولئك الذين اغتالوا كيقباد فيما بعد، كانوا أبناء تركي، أي **عارض** كيقباد، الذي كان قد قضى في أثناء صعود نظام الدين. وما يقال عن لف السلطان المخلوع بثوب نومه، وركله بالأقدام حتى الموت، يذكرنا بتقليد مغولي كان يقضي، بالحيلولة دون إسالة الدماء الملكية على الأرض[123]. وقد كان أعضاء مؤسسة بلبان المملوكية الذين كانوا قد ذاقوا طعم عمليات التطهير، مؤهلين لتولي السلطة: إن «مماليك بلبان، من بين الأمراء والملوك، والنبلاء والقادة العسكريين» هم الذين فقدوا الأمل في كيقباد العليل في 689 هـ / 1290م، وحاولوا أن يحكموا عبر ابنه الطفل كيومرث[124]. ومرة أخرى نجدنا أمام تحالف، يضم عناصر مختلفة، لأن هذه الجماعة التي كانت بزعامة أيتمُر كشهان، وأيتمُر سورخا، اللذين كانا، غداة سقوط نظام الدين، قد أصبحا **باربك (أمير ـ حاجب)**، **ووكيلاً للدار**، على التوالي، سمحا باستدعاء الخَلْجي جلال الدين من إقطاعه في سامانا، وتوليته منصب **العارض**، ومنحه إقطاع بَرَن، إضافة إلى لقب

(122) TFS، TMS134 .، 55 ـ 56.

(123) TFS، 173. ڤارن ج. آ. بويل، «موت آخر للخلفاء العباسيين: رواية إسلامية معاصرة»، JSS 6 (1961م)، 150. مطبوع ثانية في كتابه **الإمبراطورية المغولية العالمية** (لندن، 1977م).

(124) TFS، 171.

شايستاخان[125]. غير أن الأيتمُرين سعيا إلى تدمير جلال الدين. وفيما سقط قاتشخان في الصراع، وقُتل سورخا في محاولةٍ فاشلة لإنقاذ كيومرث[126].

يبدو أن صعود جلال الدين سلَّم النفوذ والسلطة، كان نتاج نوع من المساومة. يعترف برني، أن عدداً من الملوك والأمراء الأتراك، كانوا قد راهنوا عليه ووقفوا في صفه[127]، وكانت ثمة مفاوضات مع الفريق الغياثي، بزعامة ابن أخي بلبان: الملك تشحجّو؛ على الرغم من أن سبب رفض الأخير، لعرض جلال الدين المتمثل بمنصب النائب، وتفضيله الانسحاب إلى إقطاع قارا، ليس واضحاً. لقد شكل تنصيب جلال الدين بالذات في 689 هـ / 1290م، بالنسبة إلى تشحجّو، إشارة الثورة في أوَدْ على رأس مماليك بلبان الأتراك، وأسرهم مع مجموعة من الأمراء المغول من «المسلمين الجدد». وقع تشحجّو والكثير من مؤيديه في الأسر؛ يقال إن جلال الدين عاملهم برفق ولين، وإن فقدوا إقطاعاتهم ووظائفهم، فضلاً عن أننا لم نعد نسمع شيئاً عن تشحجّو نفسه، الذي أُرسل إلى مُلْتان[128].

---

(125) TMS، 55 ـ 56. عن لقب شايستاخان، انظر TFS، 126، 170 (س ي ا س ت؛ ولكن قارن مخطوطة BL ملف 91 ب).

(126) كثيراً ما أرجعتُ الرواية العارضة لـ TMS، 56 ـ 61 إلى نظيرتها في TFS، 172 ـ 173، حيث تظهر هذه الأحداث متداخلة ومشكّلة قصة واحدة حيث تكون وفاة كاتشنشان متبوعة مباشرة بوفاة شوركا. تبدو رواية FS، 203 ـ 209 (تر. 265 ـ 272) منتمية إلى تقليد سرهندي نفسه. في إحدى النقاط يكون سرهندي هذا مخطئاً دون أدنى شك. فهو يطلق على السلطان الطفل اسم كيكاووس (وهو اسم نجل بوغرا خان الأصغر بالفعل وخلفه في لخناوتي)، غير أن كيومرث برني مؤيد بـ QS، 137، 142، إلخ. ومن جانب ابن أبي الفضائل، تحقيق كورتانتامر، النص العربي 29 (تر. ألمانية 108).

(127) TFS، 172.

(128) كان مع المتمردين **مولازاده** بلبان أمير علي حاتم خان، **ساري جاندار ومُقْطع أوَدْ**؛ قائدان آخران من القادة الغياثيين السابقين، ابن أجدر خان اختيار الدين آلب غازي، مُقْطع كاسراك (الذي قتل)، وملك بَهادُر؛ واثنان من الأمراء «المسلمين الجدد» هما بايانتشار وأولاغتشي. HN، 313 ـ 315. المصادر هي: TMSN، 62 ـ 64؛ TFS، 181 ـ 184؛ وMF، (الأكثر تفصيلاً)، 7 ـ 22، عن آلباغازي كأحد ملوك كيقُباد، انظر TFS، 126. وأبوّته واردة في GK، مخطوطة TOL الفارسية 412، ملف 284 أ.

«الثورة الخَلْجية»

شكل اعتلاء جلال الدين للعرش، قطيعة مع الماضي، بطريقة مغايرة لما حصل، لدى قيام بلبان باغتصاب السلطة. كان أوائل الجغرافيين والمؤرخين المسلمين، قد درجوا على اعتبار الخَلْج، قوماً من الأتراك[129]؛ غير أن الروايات التي تتحدث عن عملية انتقال السلطة من الغياثيين إلى الخَلْجيين، تشير إلى أنهم كانوا ـ الخَلْجيين ـ يُعْتَبرون في دلهي، في القرن الثالث عشر، قوماً متميزاً تماماً، ومختلفاً عن الأتراك[130]. قد يكون هذا عائداً إلى المعنى الخاص، الذي اكتسبته عبارة «تُرْك»، التي باتت تعني إلى حد بعيد، غلاماً أو مملوكاً تركياً (انظر الملحق رقم: 1). أثار انتقال السلطة إلى جلال الدين، سخطاً شديداً لدى أعيان دلهي، أبناء العائلات الكبرى (**خايلخانها**)، الذين ربما كان الكثير منهم غلماناً أتراكاً، أو أبناءهم، وكان قد تم إخفاؤهم في العاصمة، منذ أيام بلبان على الأقل[131].

يبقى احتمال، أن يكون تغيير الأسرة الحاكمة، منطوياً على مضاعفات خطيرة فيما يخص، تركيبة الأرستقراطية عن طريق إذابة الصفة التركية، للطبقة الحاكمة، مسألةً أخرى على أية حال. ربما انحصرت الإصابات الرئيسية، التي ترافقت مع استيلاء الخَلْج على السلطة، بعدد من النبلاء ذوي الأصول المملوكية التركية. فبرني يصور أبناء ملوك بلبان خلال عهد جلال الدين على أنهم حشد من النبلاء المنزوعة أملاكهم، والمستعدين للانقضاض على أية

---

(129) الهوامش مجمعة بصورة مقنعة في عزيز أحمد، «النواة التركية المبكرة»، 103 ـ 105. انظر أيضاً شابان كاراتي، 87، الذي يعتبر جلال الدين «أيضاً تركيا بين خلج التركمان» (**هام تركي بود آز تاركيماني ـ ي خلج**).

(130) TFS، 171 ـ 172؛ قارن أيضاً 150، **آز آصلو قاوم ـ ي ديغر**.

(131) المصدر السابق، 172، 173.

فرصة متاحة، من أجل تقويض النظام الجديد. وللحظة، يبدو أن أعياناً مختلفين من حقبة بلبان فقدوا مناصبهم ومعاشاتهم، التحقوا بركب نجل السلطان الجديد البكر، محمود، الملقب بخاني خانان؛ غير أنهم ما لبثوا، لدى موته قبل أوانه حوالى سنة 691 هـ / 1292م، أن تورطوا في مؤامرة، استهدفت استبدال جلال الدين بالدرويش سيدي مولّه، وإعادة توزيع مناصب البلاد، والإقطاعات على أبناء خانات بلبان ومملوكه. ما من شيء يؤكد، أنهم جميعاً كانوا من الأتراك: فمنهم قاضي القضاة السابق كاساني، وهاتيابايك والكوتوال بيرنجين[132]. وعلى الرغم من استحالة إثبات التهم، فإن اثنين من النبلاء المتهمين، أُعدما وتمت استباحة ممتلكات الباقي، فضلاً عن طردهم إلى أقاليم نائية[133]. يبدو أن أميراً مغولياً يدعى أَلُوغو، كان قد التحق بخدمة البلاط سنة 691 هـ / 1292م، هو من أفشى سر المؤامرة للسلطان[134].

وكما هو متوقع، فإن السلطان الجديد، حرص على ترقية أبناء جلدته من قبائل الخَلْج، ولا سيما أبناء عائلته الكبيرة نسبياً، تلك التي ضمت، في الحدود الدنيا، ثلاثة أبناء؛ وأخاً هو الملك خاموش، الذي أصبح **عارضاً**؛ وعماً؛ وأربعة أبناء أخ، كان أحدهم علاء الدين محمد (سلطان المستقبل)، سليل شهاب الدين مسعود، الأخ الأكبر المتوفى لجلال الدين. ومن أمراء الخَلْج الآخرين، الذين تمت ترقيتهم حديثاً، قريب السلطان أحمد شاب، (كان ياوراً لأيتمُر سُرْخا ذات يوم، وأخذ اسمَه الثاني من الطريقة الخَلْجية، في لفظ كلمة

---

(132) عن اسم الكوتوال الذي يظهر على شكل ب ر ن ج ت ن في TFS، انظر مخطوطة BL، ملف 113 ب (ب ر ن ج ي ن). يفترض أن برنجين كان قد جاء بعد فخر الدين الذي لا يتم ذكر موته خلال عهد علاء الدين، إلا في بعض المصادر المتأخرة: AHG، II، 782؛ فيريشتا، I، 161. عن اسم خان ـ ي خانات الشخصي. انظر GK، وارد في ميرزا، **حياة وأعمال**، 83 و هـ. 3.

(133) TFS، 210 ـ 211. للاطلاع على تفسيرات متباينة لهذا الحدث، انظر هوديفالا، **دراسات**، I 267 ـ 268، وسيمون ديغبي، «القلاندر والجماعات ذات العلاقة»، في فريدمان، **الإسلام في آسيا**، I، 67 ـ 68.

(134) TMS، 65، عن وصوله، انظر TFS، 218 ـ 219.

حاجب) الذي أصبح **سَري جانداري ميمنه**، وربما الملك عِوض، الذي كان اسماً شائعاً بين الخَلْج[135].

ومع ذلك فإن **سرهندي**، الذي يؤكد أن أكثرية المناصب، ذهبت إلى أقرباء السلطان الجديد[136]، يبالغ في الأمر. فأية معاينة لأسماء الأعيان، والنبلاء الواردة في لائحتي كل من برني، وسرهندي، كليهما، في أثناء سردهما لقصة عهد جلال الدين، تكشف عن أن نسبة عالية من أولئك، كانوا بارزين في ظل الغياثيين، ولم يكونوا منتمين إلى الخَلْج. لعل النموذجين الأبرز، هما خواجا خطير الدين، الذي تعرض لإذلال نظام الدين، ولكنه ما لبث أن استُوزر ثانية، والكوتوال فخر الدين، الذي جرى تثبيته في منصبه[137]. أما مِلك فخر الدين دوتشي، وأخوه ملك تاج الدين، فربما كانا ينتميان إلى عائلة أنجبت، عدداً من الأمراء أيام إلتُتْمش؛ ونجدهما في ظل جلال الدين، شاغلين لمنصبي **دادبك**، ومُقْطَع أوَدْ على التوالي[138]. ومن أمثلة النبلاء الآخرين، الذين كانوا قد خدموا الغياثيين، الهندي المهتدي مالك عين الدين علي شاه كوهي جودي، وأخوه ملك اختيار الدين خُرّم، الذي جرى ترفيعه إلى منصب **وكيلي دار**.[139] يمكن الإكثار من هذه الأمثلة[140]. بل ونجد اختيار الدين هندوخاني

---

(135) TMS، 62. ثمة قائمة بأقارب جلال الدين في FS، 226 ـ 227 (تر. 392 ـ 393). عن أحمدي تشاب، انظر هوديفالا، دراسات، I266.

(136) TMS، 62.

(137) TFS، 174، 177.

(138) عن تاج الدين وفخر الدين، انظر أيضاً المصدر نفسه، 203؛ MF، 14. ربما كان أبوهما هو **دادبك** بلبان، المعروف باسم ملك ناصر الدين كوتشي: TFS، 24 (وإن كان FS يورد هذا اسماً لشقيق فخر الدين) عن ملوك كوتشيين سابقين، انظر TN، ا، 456، 459 واا، 6، 13 (تر 633، 634، 639، 640، 726، 735).

(139) TMS، 84، (ك، هـ، ج، و، ر، ي خطأ). MF، 27، 33، 34، TFS، 174، (ء خ ب ا ر بدلاً من ء خ ت ي ا ر، للتصحيح عن مخطوطة BL، ملف 93 ب)، 177، 195، 233.

(140) ملك اختيار الدين بغتوت، **نائب أميري حاجب** في ظل كل من كيومرث وجلال الدين: TMS، 60، وTFS، 126 (س ك ن ت، للتصحيح عن مخطوطة BL ملف 68 أ)؛ وعن الاسم، ل. =

غياثي ـ الذي من الواضح من نسبته، أنه ابن أحد مماليك بلبان ـ صار **نائب وكيلي دار** في ظل السلطان الجديد[141]. وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الرجال، تورطوا لاحقاً في مؤامرة حيكَتْ ضد جلال الدين[142]، فإن من الجدير بالملاحظة، بأن أحداً لم يقل إن واحداً منهم، أيد ثورة تشحجّو، وإن الأخوين كوهي جودي وتاج الدين كوجي، قاتلا تحت الراية الخَلْجية في هذه المناسبة[143].

تكشف السنوات الأولى من عهد الأسرة الحاكمة الخَلْجية، عن استمرارية مثيرة مع الحقبة السابقة؛ فالنخبة الحاكمة، التي جاءت بعد اعتلاء جلال الدين للعرش، تحمل طابع المساومة التي لاحظناها، بالارتباط مع تغييرات سابقة في النظام. أمّا الانطباع الذي يتم تركه فيقول، على النقيض من ذلك، إن تحولاً دراميا مثيراً، على صعيد تركيبة الطبقة الحاكمة ـ أي الثورة الخَلْجية الحقيقية ـ ما لبث أن جاء مع علاء الدين. في البدء كان السلطان الجديد، حريصاً على مكافأة أولئك الذين، كانوا قد تخلوا عن أبناء عمومته من رجالات الجلاليين. غير أن النظام، أصبح يملك ما يكفي من القوة، للتحرك

= راسوني، «الأسماء الضرورية لدى الشعوب التركية»، AOH، 15 (1962م) 241 ـ 242. ملك مُغُلطاي، نفاه نظام الدين من قبل: TMS، 64 ـ 65. ملك ناصر الدين رانا، الذي احتفظ بمنصبه **كشحنه ـ ي بيل** (مسؤول فيلة) منذ عهد بلبان وحتى عهد علاء الدين خلجي: TMS، 58. ملك نُصرت ـ ي صباح، الذي كان أبوه أيضاً ملكاً والذي ما لبث أن أصبح رئيس حَمَلة المحابر سار ـ ي د و ا ت د ا ر): TFS، 174 (ج ن ا ح بدلاً من ص ب ا ح، للتصحيح عن مخطوطة BL، ملف 93 ب (198، 204، FS، 227 (تر. 393)؛ MF، 14. ثمة آخرون ورد ذكرهم في MF، منهم ملك عين الدين هيراغار، الذي أصبح **آمر ـ ي شيكار** لدى جلال الدين، وملك محمود **ساري ـ جاندار** جلال الدين؛ ملك كيكي، الذي حكم كول لصالح السلطان الجديد.

(141) TMS، 62، 69.

(142) فقد هيراغار منصبه **كساري جاندار** ويبدو أن تاج الدين حُرم من أوَدْ، غير أن مُغُلطاي ومبارك لم يتعرضا للإبعاد إلى إقطاعيهما لعام واحد: TFS، 190 ـ 192؛ TMS، 64 ـ 65.

(143) فيما عدا الأماكن التي تم فيها إيراد مراجع أخرى، فإن عملية إعادة صياغة هذه الفقرة مستندة إلى TFS، 126، 174، 177؛ TMS، 54، 62؛ وMF، 14، 28. نيغام، **الارستقراطية**، 53 وملحق: ج، يتوصل إلى استنتاجات شبيهة عموماً باستنتاجاتي، وإن اعتمد على القراءات الشائهة لنص TFS المطبوع.

ضد الأمراء الجلاليين، ما أن تمكن أنصار علاء الدين، وأتباعه من ضمان استسلام مُلْتان في محرم 696 هـ / تشرين الثاني/نوفمبر 1296م، وسَمْل عيون أبناء جلال الدين ومؤيديهم. وفي السنة الثانية من العهد (من أواخر 696 إلى أواخر 697 هـ / 1297 ـ 1298م)، تعرضت أكثريتهم الساحقة، بمن فيها هيرغار (أمين خان الآن)، الذي تولى مُلْتان فترة قصيرة، وآباتشي (آرسلان خان)، للاعتقال والسجن، فَسَمْل العيون أو الإعدام؛ أما الثروات والإقطاعات، والمناصب العائدة لهؤلاء، فقد تمت استباحتها، كما جرى تحويل فصائلهم العسكرية إلى الفرق الخاصة، العاملة لدى علاء الدين. وحسب ما جاء على لسان برني، فإن ثلاثة فقط ممن رفضوا خيانة أبناء جلال الدين، أو قبول الهدايا من النظام الجديد، نجوا[144]. حتى هذا لم يضع حداً، لعملية تطهير الأرستقراطية القديمة. فملك الأمراء فخر الدين، كوتوال دلهي، ربما مات في أثناء حكم جلال الدين؛ غير أن أبناءه تعرضوا للملاحقة، والاعتقال وصولاً إلى إعدامهم سنة 700 ـ 701 هـ، بتهمة التآمر مع حركة تمردية، قادها في دلهي المعتوق حاجي مَوْلى[145]. ويبالغ برني حين يزعم إن أحداً من ذراري أمراء بلبان، لم ينج في أيامه هو[146]؛ غير أن هناك قليلاً من الشك حول كون اختفائهم شبه الكامل عائداً إلى عهد علاء الدين.

(144) TFS، 242، 247 ـ 248، 249 ـ TMS251.، 71 ـ 72.

(145) TFS، 282. عن موت فخر الدين انظر الهامش 132.

(146) TFS، 48؛ قارن أيضاً HN، 302.

الفصل الخامس

المركز والأقاليم

شهدت التسمية المعطاة، للمناطق الخاضعة لسيطرة السلطان، قَدْراً من عدم التحديد بصورة متكررة. فالجوزجاني يحدثنا عن «إمبراطورية دلهي» (**ممالكي دهلي**)، وبرني عن «أقاليم إمبراطورية دهلي» (بلادي ممالكي دهلي)[1]. أما ابن بطوطة، فيتكلم عن إمبراطورية محمد بن تُغْلُق بوصفها «الهند والسِّنْد»[2]، مميزاً المناطق التي تم كسبها لصالح الإسلام في القرن الثامن من باقي شبه الجزيرة. ثمة جغرافي مسلم من جيل أبكر يميز «هندوستان»، التي فتحها الغوريون ومن **حذا حذوهم**، عن العالم الهندي الأوسع، الذي يطلق عليه اسم «الهند»[3]. وليس مثل هذا الاستعمال، إلاّ صدى لنمط معتمد لدى كُتّاب في الهند. يقوم الجوزجاني أحياناً، بإطلاق اسم أقاليم ممالك هندوستان»[4] على السلطنة، مثلها مثل الفتوحات الغزنوية

---

(1) TN, II، 39 (تر. 785). TFS، 468.

(2) IB, III، 94، 161، 215، 248 (تر. حبيب، 593، 628، 657، 634)؛ انظر أيضاً الصفدي، **الوافي بالوفيات** III، 172.

(3) ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، 134، 136.

(4) TN, I، 6، 398، وII، 88، 90 (تر. XXXII، 455، 863، 874 ـ 879)، قارن أيضاً I، 418 (تر. 530)، حيث يتم استخدام العبارة للدلالة على مجمل المناطق الخاضعة للحكم الإسلامي في شبه القارة بما فيها السند؛ أيضاً II، 9، 32، **مملكة هندوستان** (تر. 731، 764).

والغورية قبلها؛ وبالتالي فنحن نقرأ عن حكام، يفوزون بـ «العرض» (**التخت**)، أو «المملكة» (الملك)، في هندوستان[5]. غير أن ما يبعث على التشوش والبلبلة، هو أن «هندوستان»، كانت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، تحمل معنى أضيق، بالنسبة إلى مؤلفين إسلاميين من داخل شبه القارة. كانت تعني الأقاليم الواقعة ـ ما بين نهري (**مياني دو آب**) (يمونة) والغانج ـ جنباً إلى جنب، مع المناطق المفتوحة جزئياً إلى جهتي الشرق والجنوب الشرقي. درج الناس على الهرب من دلهي إلى «هندوستان»[6]؛ ونحن نسمع عن «الإقطاعات الواقعة جهة هندوستان» (سمتي هندوستان)[7]، كما عن أمراء هندوستان وجيوشها، بهذا المعنى المحدود، لأقاليم دُواب وأوَذ، وقارا على ما يبدو بوضوح[8]. من شأن مثل هذه الحرية في استخدام التعابير الجغرافية، أن تفضي إلى الفوضى. لعل برني يلامس الوتر الأكثر نشازاً، حين يصف عملية تعرض، الجيوش «الهندوستانية» المسحوقة للسلطان بلبان (من أوَذ)، للسلب والنهب من جانب «الهندوس»[9].

حتى في القرن الثالث عشر كانت السلطنة، تقنياً، تحتضن مساحات واسعة، وتتألف من أقاليم كثيرة، قد يصح تسميتها بممالك بحد ذاتها. فلاهور، بوصفها «مقر إقامة الملك خسرو»[10]، (آخر السلاطين الغزنويين)،

---

(5) المصدر نفسه، II، 162، 169 (تر. 119، 1153). TFS، FS249 .، 604، 605 (تر. 898، 899).

(6) II,TN، 49 (تر. 802).

(7) المصدر نفسه، II، 66 (تر. 830): «تألفت من قارا ومانيكبور وأوَذ وتيرهوت حتى بداؤون». TFS، TMS300 .، 63.

(8) I, TN، 453، وII، 15، 29، 66 (تر. 629، 739، 759، 760، 830). درجت العادة على أن يكون الحاكم هو مُقْطَع أوَذ. المصدر نفسه، II، 72 (تر. 839)، «هندوستان» تعني بوضوح أوَذ بقعة مميزة عن ولاية سانتور الجبلية؛ ولكن قارن II، 58 ـ 59 (تر. 818)، حيث تضم أيضاً بصورة مضمرة مملكة راناتبور التشاوهانية. TFS، 57، 141، 181، 182، 301، 328.

(9) المصدر نفسه، 84.

(10) I, TN، 454 (تر. 631).

وإقطاع وَلَدَيْ إلتُتْمش الأكبر بالتتابع، كانت واحدة. وثمة أخرى هي لخناوتي، التي انتزعها إلتُتْمش بكثير من الصعوبة، من براثن حكامها الخَلْجيين، وكانت على اتساع يؤهلها، لحمل تسمية (**إقليم**) «ولاية»[11]. يتحدث الجوزجاني وبرني كلاهما عن «العرش» (**تخت**) و«النظام الملكي» (**الملك**)، كما عن «شعار الحكم» (بادشاهاني)، بوصفها أموراً يجري إضفاؤها على أولئك، الذين يتم إرسالهم لحكم لخناوتي - سواء أكان ابن بلبان في حوالى 680 هـ / 1281م، أم كانوا أمراء كبار، مثل علاء الدين جاني، وابنه قيليج خان مسعود (فيما بعد)[12]. كان نواب الملك على هذا المستوى من البروز، يتمتعون بقدر معين من الامتيازات شبه الملكية، مثل حق حمل الدورباش، أو الصولجان والشتر (الشادر)، أو المظلة الخفيفة الاحتفالية: فقد أرسل إلتُتْمش إلى ابنه ناصر الدين محمود في البنغال، تشاتراً أحمر اللون في 626 هـ / 1229م، كما أنعم بلبان، بتشاتر ودورباش (صولجان) على ابنه: بغراخان، في لخناوتي، وبتشاتر على ابنه الآخر: محمد، في مُلْتان، ناقلاً رمز السلطة هذا فيما بعد، إلى ابن محمد كيخسرو بعد موت أبيه[13]. كانت مُلْتان قد حلت محل لاهور، بوصفها المقاطعة المخصصة لولي العهد الوريث، على الرغم من أن أحداً، لا ينبئنا عما إذا أقدم جلال الدين خَلْجي، حين أنعم على ابنه إِرْكْلي خان بالمدينة، على منحه شارة الشرف والسلطة. يبدو أن هذه السياسة بقيت مستمرة حتى أوائل القرن الرابع عشر، حين بادر علاء الدين خَلْجي إلى منح شارات مماثلة - تشاتر أحمر، ثوب شرف، وبَيْرَقَيْن - لابنه البكر خضر خان في تشيتور سنة 703 هـ / 1303م، بأسلوب شديد الشبه، بما فعله حين أنعم بتشاتر على ملك

---

(11) مثل TFS، 82، 93.

(12) المصدر نفسه، 82، TN 92، I 448 والـII، 13، 31، 35، 78.

(13) المصدر نفسه، I، 454، (تر. 630). TFS، 66، 92، 110؛ عن بغراخان، انظر أيضاً DGH، 69.

يادافا، ملك ديوغير، المستسلم المطيع في سنة 706 هـ / 1307 م[14].

ربما لم يكن تحديد سلطنة دلهي من المنطلقات المكانية، تحديداً واضحاً أمراً ممكناً. ففي القرن الثالث عشر يجب النظر إليها، بوصفها مجموعة من الممالك الفرعية[15]، منها ما هو خاضع لحكم أمراء هندوس، كانوا يُسَدِّدون الخراج بصورة دورية، ومنها ما هو محكوم من قِبَل أمراء من أسرة السلطان، أو أمراء ومُقْطَعين مسلمين[16]. وما كان يحدد مدى سيطرة العاهل، في التحليل الأخير، هو اعتراف الحكام المحليين، ولا سيما أولئك الذين كانوا يديرون المناطق النائية. فالزعم الذي يطلقه الجوزجاني، قائلاً إن «جميع الملاك والأمراء من منطقة لخناوتي، إلى أقاصي ديول (دَيبُل)، ودامريلا عبروا عن الولاء»[17]، لدى اعتلاء رضية للعرش، ليس (سواء أكان صحيحاً أم لا) إلاّ بياناً اصطلاحياً عن امتداد سلطة السلطان، أكثر من كونه تعبيراً عن أي قَدْر من التبجيل، والتفخيم الطنان لعرش «إمبراطورية هندوستان كلها».

من التمزق إلى التعافي

خلال القرن الثالث عشر الميلادي، شهدت الإمبراطورية التي أوجدها إلتُتمش، قدراً غير قليل من التقلب والتبدل، على صعيد الاتساع والمدى، نظراً لأن الصراعات الدائرة بين صفوف الأرستقراطية، ولا سيما تلك الصراعات، التي احتدمت بين أُلُغ خان بلبان، وخصومه في خمسينيات القرن الثالث عشر، كانت في الغالب تنعكس أيضاً على الأقاليم. وكون ما نعرفه عن التطورات

---

(14) ملك يادافا: KF، 63 ـ 64؛ TFS، 326. خضر خان: DR، 67؛ TFS، 367؛ TMS 77.

(15) فكرة طرحها بيتر هاردي، «تطور السلطة على النخبة السياسية المهزومة: سلطنة دلهي المبكرة نموذجاً للدراسة»، في جون س. ريتشاردز (محرراً)، **الملكية والسلطة في جنوب آسيا** (ماديسون، ويسكونسن، 1978م) 203 ـ 204.

(16) هذا مضمر في الآراء التي يضعها في فم بلبان: TFS، 93.

(17) TN I، 459، مع حذف دامريلا؛ ولكن قارن مخطوطة BL، ملف 182 ب (تر. رافرتي، 641 أيضاً).

الحاصلة في المناطق البعيدة عن دلهي يعكس، إلى حد ما، طبيعةَ المادة المرجعية. فالتواريخ الإقليمية المتكاثرة من القرن الخامس عشر وصاعداً والتي أنتجتها الدول الوارثة، تخفق في إكمال، شهادة الجوزجاني على القرن الثالث عشر، وباستثناء فترة نفيه إلى لخناوتي (640ـ 643 هـ / 1242 ـ 1246م)، يبقى منظور الجوزجاني، دائم التطابق مع منظور المركز والبلاط. ومع ذلك فإن طبقته الثانية والعشرين ـ عن المماليك الشمسيين ـ تقدم قَدْراً محترماً من المعلومات، والبيانات عن الإقطاعات.

يعلمنا الجوزجاني أن احترام «مملكة هندوستان»، عانى من التدهور الشديد، غداة موت إلتُتْمش في 633 هـ / 1236م، مما أدى إلى بروز المنافسين، الراغبين في الحصول على أراضيها من كل حدب وصوب[18]. ربما كان الكثير من هؤلاء الأعداء غير المحددين، أمراء هندوس، في حين كان الخصم الأقوى والأكبر، الذي واجه خلفاء إلتُتْمش في السِّنْد، هو القائد الخوارزمي السابق، حسن قرلُق في البداية. غير أن ضباط السلطان أنفسهم، بادروا أيضاً إلى الإفادة من الوضع السائد في المركز. قد يدل تعليق الجوزجاني المبتسر، القائل إن المملوك الشمسي سيف الدين آيبك، مُقطَع أوتشش، «أصبح صاحب نفوذ»، إثر موت إلتُتْمش، بأن الأخير، ما لبث أن أعلن استقلاله عن دلهي لفترة وجيزة، قبل أن يموت في حادث ركوب[19]. يكون إقليم السِّنْد مشمولاً صراحة، بالأقاليم التي خضعت لرضية، والمسؤول الثاني المكلف بشؤون أوتشش، الذي يقال عنه إنه معين من قبلها، هو هندوخان، الذي ما لبث أن أُزيح، بعد إنزالها عن العرش[20]. جاء الغزو المغولي للسلطنة، أوائل 639 هـ / 1241 ـ 1242م، جالباً معه فُرَصاً جديدة لتعظيم

---

(18) المصدر نفسه، II، 9 (تر. 730 ـ 731).

(19) المصدر نفسه، II، 8 ـ 9 (تر. 730 ـ 731): عبارة **في حال غاشتا** محذوفة من النص المطبوع، غير أنها موجودة في مخطوطة BL، ملف 199 أ.

(20) TN ،I، 459 (تر. 641)؛ II، 19 (تر. 746)، عن هندوخان.

الذات. ففي لاهور، كان قراقوش خان اختيار الدين آيتكين، الذي سبق أن عُيِّن هناك من قبل رضية، بعد إخماد ثورة كبيرخان في 637 هـ / 1239 ـ 1240م، قد أيد محاولتها الرامية إلى استعادة العرش في السنة التالية[21]، وكان، بالتالي، في حالة ثورة، على الصعيد التقني، ضد بهرم شاه. إن جيشاً جرى تسييره من دلهي، ما لبث أن انقلب عائداً، ليحاصر العاصمة ويطيح بالسلطان؛ غير أن غرضه المتمثل كما يقال لنا ـ لا بتحرير لاهور، بل بمجرد حراسة الحدود[22] ـ يعكس حقيقة أن المدينة في ظل قراقوش خان، باتت تُعْتَبَر، خارج الدائرة الخاضعة لحكم السلطان. وفي مُلْتان كان كبير خان أياز، قد سارع إلى إعلان استقلاله مع اعتماد تشاتر، فضلاً عن احتلال أوتشش[23]. وبالتالي فإن أية من ولايتي لاهور والسند، لم تكن تشكل جزءاً من السلطنة في هذا المنعطف الحاسم.

قام كبير خان وابنه تاج الدين أبو بكر، من بعده، بالدفاع عن إمارتهم ضد حسن قرلُق. غير أن حكم هذه الأسرة الحاكمة، ذات العمر القصير، التي صاغ لها البروفسور نظامي، اسم «أيازي» المناسب، ما لبث أن انتهى بموت أبي بكر، أوائل أربعينيات القرن الثالث عشر، حين نجح حسن قرلُق أخيراً في احتلال مُلْتان[24]. وعلى الرغم من أن منطقة السند، كانت قد استعيدت من قبل قوات السلطان في أعقاب الغزو المغولي سنة 643 هـ / 1245م[25]، فإن خطر الانفصال، ما لبث أن تنامى مع اندلاع، صراعات عهد ناصر الدين محمود شاه. عملياً توقفت السند عن تشكيل جزء من

---

(21) المصدر نفسه، I، 462 (تر. 647).

(22) المصدر نفسه، I، 466 (تر. 657).

(23) المصدر نفسه، II، 6 (تر. 727).

(24) ومع ذلك فإن موظفي هندوخان في أوشتش بقوا في أماكنهم: عن هذا وقيام حسن قرلق بالاستيلاء على المدينة، المصدر نفسه، II، 169 ـ 170 (تر. 1153). «الأسرة الآيازية الحاكمة»: HN، 249، 255، 260. وعن أبي بكر، انظر صدّيقي، «معلومات تاريخية»، 64.

(25) TN، II، 28، 37 (تر. 758، 781).

السلطنة بُعَيْد ذلك، حين بادر كوشلوخان، بعد إخفاقه، هو وقُطْلُغ خان، في احتلال دلهي، إلى التماس مساعدة المغول. والجوزجاني الذي كتب في أثناء قيام المغول، بتفكيك تحصينات مُلْتان، يكشف بأسلوبه عن حقيقة أن السند، باتت الآن خارج «حدود إمبراطورية دلهي» (سَرْحدزا مَمَالكي دهلي)[26].

توصف لاهور على أنها (خراب)، في أعقاب النهب المغولي لها في جمادي الثانية 639 هـ / كانون الأول / ديسمبر 1241 م[27]، على الرغم من أن المدينة بقيت، على ما يبدو، خاضعة لحكم اختيار الدين يوزبك (طُغرُل خان)[28]، مدة سنتين اثنتين. وبعد ذلك لا يقول الجوزجاني إلاّ القليل عن لاهور[29]، التي كانت، مثلها مثل المناطق الواقعة وراءها، في أقاصي الزاوية الشمالية ـ الغربية، قد أصبحت، على ما يبدو، جزءاً من الأراضي الخاضعة للسيطرة المغولية. فمن حوالى سنة 651 هـ / 1253م، نجد الأمير المرتد جلال الدين مسعود بن إلتُتمش في لاهور، عميلاً للمغول. لم يتمكن من البقاء في منصبه هذا، إلاّ لفترة قصيرة، حيث تم خلعه على يد شيرخان، لدى عودة الأخير من البلاط المغولي[30]. وعلى الرغم من أنه عاد ثانية، وأصبح خليفاً لحكومة دلهي، فإن شيرخان سرعان ما بدأ يدبر المؤامرات لاستعادة إقطاعه القديم: تبرهند، الذي كان بيد آرسلان خان، مشتبكاً معه أيضاً في صراع. عند هذه النقطة تدخل القصر، وكسب شيرخان إلى صفه، مقابل منحه تبرهند «وكل الأراضي والإقطاعات التي كانت بحوزته»، بما فيها لاهور، على ما يبدو. ومع

(26) المصدر نفسه، II، 39 (تر. 785)؛ وقارن أيضاً II، 86 (تر. 860).

(27) المصدر نفسه II، 169 (تر. 1153).

(28) TN, II، 30 (تر. 762).

(29) المصدر نفسه، II43، يقال إن لاهور مُنحت لشيرخان مع تبر هند في 643 هـ / 1245م، ولكن قارن مخطوطة BL، ملف 211 (تر. رافيرتي، 793 أيضاً) حيث تكون لاهور محذوفة.

(30) TN, II، 44 (تر. 793).

ذلك فإن المكان كان مستحيل الاحتفاظ به دون شك، وما لبث شيرخان أن تخلى عنه على ما يبدو مرة أخرى. فحين ألزمه السلطان سنة 657 هـ / 1259م، بتبادل حيازته مع نصرت خان، مُقطَع بهايانا، ليس ثمة أي ذكر للاهور بين حيازات الأخير الجديدة[31].

وإلى الشرق فإن من الممكن اعتبار أوَدْ، إقليماً آخر مثقلاً بالمشكلات في خمسينيات القرن الثالث عشر. فقُطْلُغ خان الذي أُرسل إلى هناك، بعد إخراجه من البلاط سنة 653 هـ / 1255م، اجتاح منطقة بداؤون، وهزم قوة بقيادة مُقْطَعها تنزخان، تعززها وحدات من دلهي، بقيادة بكتمر أورخاني ركني الذي قُتل هناك[32]. وفي 654 هـ / 1256م، تم وضع أوَدْ بيد آرسلان خان، الذي كان مؤيداً بارزاً لألُغ خان بلبان، قبل سنتين اثنتين؛ وما لبث المُقْطَع الجديد أن أدى خدمة جليلة، بعرقلة جهود قُطْلُغ خان، الرامية إلى احتلال قارا. ولكن موقف آرسلان خان من الحكومة شهد ـ كما يقول الجوزجاني ـ تغييراً أدى إلى جعله متمرداً. وحين كانت الاستعدادات، جارية في دلهي على قدم وساق، أوائل سنة 656 هـ / 1258م، تمهيداً لشن حملة، لطرد المغول من السند، أهمل كل من آرسلان خان وقيلج خان جلال الدين مسعود، ابن علاء الدين جاني ومقطَع قارا، جلب فصائلهما المقاتلة. تقدم ألُغ خان واقتحم قارا، حيث جرى إخضاع الأميرين المتمردين[33]. حصل قيلج خان على تفويض، لتولي شؤون لخناوتي؛ في حين جرى نقل آرسلان خان إلى قارا، على الرغم من أن إقطاعه الجديد، لم يكن كما سنرى، بالحجم الذي يرضي طموحاته.

---

(31) المصدر نفسه، II، 42 ـ 43 (تر. 788)، عن التبادل، انظر أيضاً 44II (تر. 794).

(32) المصدر نفسه، I، 490، وII، 29 (تر. 703، 759 ـ 760).

(33) المصدر نفسه، II، 34 ـ 35، 77 ـ 78 (تر. 768 ـ 769، 847 ـ 848). عن قِلِج خان، الذي كثيراً ما التبس مع أمراء آخرين، انظر الملحق رقم: 2.

وفيما وراء أوَذ، ثمة علاقات متوترة، كانت تربط دلهي، بالمناطق الإسلامية النائية في البنغال، وكانت تلك البقعة، ستُعرف في القرن الرابع عشر، باسم «الأراضي المنخفضة» (فورو دست)[34]، تمييزاً لها عن «البلاد العليا» (بالا ـ دست)، التي كانت تحتضن، بشيء من الغموض، الجهات الشمالية ـ الغربية، والمناطق الواقعة خلف الإندوس، باتجاه ما وراء النهر. إن عفيف، وهو غربي بطبيعة الحال، يجعل «أهل البلاد المنخفضة» (فورودستان)، يعترفون بأنهم أقل شأناً من أهل البلاد العليا (بالادستان)[35]. ومع ذلك فإن فتح البنغال والاحتفاظ به ـ وهو أرض مشاة (زميني رجّالا)، كما سيصفه السلطان التُغْلُقي فيروزشاه، سنة 1354 م[36] ـ لم يكونا من المهمات السهلة. اشتهر الإقليم بالغنى ـ وقد قيل عنه إنه «جحيم مملوء بالطيّبات» (دوزخ آست يوري نِعْمَت)، كما يروىٰ عن ابن بطوطة[37]. ما من أمير هندوستاني كان قادراً ـ كما يقول برني ـ على منافسة من يكون فارضاً سيطرته على البنغال، من حيث الرجال أو الفيَلة أو الكنوز؛ وسلوك الكثير من حكامه في القرن الثالث عشر، شكّل تبريراً كاملاً للقب «بولغاكبور» («مدينة التمرد»)، الذي أضفاه الناس على لخناوتي: «كما يقول برني»[38].

بعد موت إلْتُتمش، تعين على السلاطين أن يعترفوا، باستقلال ممثليهم في لخناوتي، دون الحصول على ثمن له قيمة بالمقابل. فمنذ سنة 631 هـ / 1233 ـ 1234م، كان مُقطَع كل من بيهار ولخناوتي، هو المملوك الشمسي

---

(34) TFS، SFS189 ،، 33، 48. بيهامادخاني، ملف 421 ب، يستعمل العبارة بمعنى أوسع للدلالة على أقاليم شرق اليامونا.

(35) عفيف، 153؛ عن المعنى، انظر هوديفالا، دراسات، II، 127.

(36) عفيف، 119؛ عن هذه العبارة، انظر هوديفالا، دراسات، I، 312، 313، حيث تترجم إلى «جندي مشاة»: ومن منظور العبارة التالية حول صعوبة الحياة بين الجزر، أرجّح أن يكون السلطان قد قصد «أرضاً لا تناسب سوى المشاة» أي أن الخيالة الثقيلة لدى سلطنة دلهي لم تكن فعالة هنا.

(37) IB، IV، 210 (تر. حبيب وبكينغهام، 867).

(38) TFS، 82.

عز الدين طُغرُل طوغان خان. وقد أكسب الموقعُ الجغرافي للإقطاع، صاحبَه طوغان خان، قدراً كبيراً من الاستقلال، وما أن قضى إلتُتمش نَحْبَه حتى بادر، دونما تردد على ما يبدو، إلى الاشتباك في حرب، ضد مُقْطَع لاخنور، (تلك المنطقة الواقعة على الضفة الغربية للغانج). فذبحه واستولى على جزء من ولايته. غير أن كلاً من رضيّة وبهرم شاه، ما لبثا أن أسبغا الصفة الشرعية على تحركات طوغان خان غير المنضبطة، عن طريق تزويده بتشاتر أحمر، وبعدد من البيارق. وبعد اعتلاء مسعود شاه للعرش، قام طوغان خان، بإلغاء جميع مظاهر الولاء لبلاط دلهي. ثمة كتابة منقوشة في بيهار، يعود تاريخها إلى 640 هـ / 1242م، تضفي عليه جملة متنوعة من الألقاب الطنّانة الفخمة، ولا تورد أية إشارة إلى السلطان. وفي هذه السنة بالذات، توغل في منطقة قارا ـ مانيكبور في محاولة فاشلة لاحتلال أَوَدْ[39].

ومع ذلك فإن طوغان خان، ما لبث أن التمس التعزيزات من السلطان، في أعقاب حملة كارثية، شنها ضد مملكة جاجْنَغَر (أوريسا) الهندوسية، أواخر 641 هـ / أوائل 1244 م. وعلى الأثر، لم يكتف مسعود شاه، بإرسال تشاتر وراية إلى لخناوتي، بل وبعث أيضاً بثوب شرف، وخيمة مزيّنة. غير أن هذه المجاملات لم تكن ـ على ما يبدو ـ إلاّ لتبديد يقظة طوغان خان. فنحن نعلم من مكان آخر، أن تاج الدين سنجر كِرِتْ خان، مات نتيجة جرح سهم أصابه خارج مدينة بيهار، في صراع غامض بُعَيْد سنة 640 هـ / 1242 م[40]، بما يوحي ـ إلاّ إذا كان المكان خارج سيطرة المسلمين، وأن العدو كان ملكاً هندوسياً ـ بأن الحكومة ربما كانت دائبة منذ زمن، على السعي لاستعادة بيهار.

---

(39) كان انتظار الجوزجاني له قبل مرافقته في رحلة العودة إلى لخناوتي على حدود قارا: TN ,I، 469 (تر. 662 ـ 1663). عن حياة طوغان خان العملية، انظر المصدر نفسه، II، 13 ـ 17 (تر. 736 ـ 742). بازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 16 ـ 17؛ RCEA ,XI، 143 (رقم: 4215).

(40) TN ,II، 27 ـ 28 (تر. 757).

واستجابة لطلب طوغان خان المساعدة، صدرت الأوامر إلى مُقطَع أوَد، تيمور خان، وإلى قادة آخرين بالتوغل في البنغال. وما إن وصلت تلك القوة، التي يفترض أنها منقذة إلى لخناوتي، حتى بادرت إلى الاشتباك العدائي، لا مع الهندوس، الذين كانوا قد انسحبوا، بل مع طوغان خان، الذي اضطر إلى تسليم الإقليم لتيمور خان، والعودة بصحبة الأمراء الآخرين إلى دلهي. في هذا المنعطف، تورَّطت حكومة مسعود شاه في محاولة أخرى، لدفع كل من الخصمين ضد الآخر. إذ منحت طوغان خان عام 643 هـ / 1245م، إقطاع أوَدَ العائد لتيمور خان. صحيح أن رد فعل الأخير، على احتلال أوَد من قبل ضباطه لا يتم وصفه، إلاَّ أنه بقي مسيطراً على لخناوتي إلى أن قضى الرجلان، كلاهما، نحبهما في اليوم نفسه من شوال 644 هـ / آذار 1247م، خلال فترة حكم ناصر الدين محمود شاه.

يبقى تاريخ لخناوتي، على امتداد السنوات القليلة التالية غامضاً. ثمة كتابة منقوشة تعود إلى 647 هـ / 1249م، تذكِّر بجلال الدين مسعود (قيليج خان فيما بعد)، ابن علاء الدين جاني، مُقطَعا راهناً[41]. غير أن الجوزجاني الذي يسمي تالياً، اختيار الدين يوزبك طُغرُل خان، قائداً للمقاطعة، لا يأتي على ذكره. لعل حياة هذا المتمرِّد رغماً عنه، تلخِّص جملة المشكلات، التي شكَّلها رعايا متمتعون بنفوذ أكبر مما ينبغي، بالنسبة إلى الحكومة. كان يوزبك قد وُلِّي على تبرهند عند اعتلاء مسعود شاه للعرش. ثم ما لبث ـ لدى قيام العاهل بحملته الموجَّهة إلى أوتشش سنة 643 هـ / 1245 ـ 1246م، حسب أقوى الاحتمالات ـ أن نُقل إلى لاهور، حيث اشتبك للمرة الأولى في صراعٍ، مع ملك، لا يُذكر إلا بهذه المناسبة وما لبث أن تحدَّى سلطة السلطان. وكما سبق أن لاحظنا، فإن أُلُغ خان بلبان ضمن له عفواً، وإقطاعاً جديداً في قِنَّوج،

(41) بازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 19 ـ 22؛ XI, RCEA، 211 (رقم: 4320).

حيث أثبت عناده مرة أخرى، ربما تأييداً لبلبان. نجحت حملة بقيادة قطب الدين حسن بن علي في إلزامه بالطاعة، وإعادته إلى البلاط، الذي ولأه لاحقاً على أوَدْ. ومن المحتمل أن يكون قد أيّد، عودة أُلُغ خان بلبان إلى السلطة عام 652 هـ / 1254 م. ومهما يكن فإن يوزبك طُغرُل خان، نجده قائداً في لخناوتي بعد هذا التاريخ. ثمة انتصار كبير، حققه هنا على راجا جاجنَغر، الذي كان قد نجح في مقاومة عدوان، طوغان خان على امتداد ما يزيد عن عشر سنوات من قبل، شجّعه على تأكيد استقلاله عن دلهي، معتمداً ثلاث تشاترات (مظلات ملكية)، وفارضاً إيراد اسمه، بوصفه السلطان مغيث الدين على القطع النقدية، وفي خطب صلاة الجمعة. وقضى نحبه بعد بضع سنوات، خلال غزوة كارثية على كامروب (أسام) المجاورة[42].

جاء موت يوزبك طُغرُل خان ـ على ما يبدو ـ قبل صَفَر 655 هـ / شباط ـ آذار 1257م، حيث كانت القطع النقدية قد عادت تُصَكّ في لخناوتي، باسم ناصر الدين محمود شاه[43]. وفي نهاية عام 656 هـ / 1258م، تمّت إعادة منح لخناوتي، إلى قيلج خان جلال الدين مسعودي جاني، الذي اتُّهم مؤخراً بالعصيان، والتمرد جنباً إلى جنب مع آرسلان خان. غير أن أُلُغ خان بلبان ما لبث، في جمادى الثانية 657 هـ / حزيران 1259م، بعد بضعة أشهر فقط، أن أقنع السلطان بالاعتراف به مُقطَعاً، باسم عز الدين بلباني يوزبكي، ذلك الذي سبق لنا أن التقينا به، صهراً للمتمرّد قُطْلُغ خان، والذي كان لتوّه قد خطب ودّ القصر عن طريق، إرسال هدايا لافتة للنظر إلى دلهي[44]. غير أن بلباني يوزبكي ما لبث أن فقد المقاطعة، لا لصالح قيلج خان (الذي لم يعد يُسمع عنه) بل

---

(42) TN، II، 30 ـ 33 (تر. 762 ـ 766)، عن سيرة حياة طغرل خان. ثمة تلخيص واف لحياته العملية في حبيب الله، أساس، 129 ـ 130. عن قطعه نقدية، انظر روما نيوغي، «قطعة نقدية جديدة لمغيث الدين يوزبك البنغالي»، JNSI، 40 (1978 ـ 1979م)، 136 ـ 138.

(43) CMSD، 55 (رقم: 225 ج).

(44) TN، I، 495، واII، 35، 78 (تر. 712، 770، 848 ـ 849).

لصالح حليف هذا الأخير. أما آرسلان خان الذي تحرَّك دون مباركة دلهي، وراح يعلن حتى أمام أبنائه، وجنوده عن تورطه في حملة نهب، تصل إلى أعماق مالوا الكافرة، فغادر قارا، وتقدَّم بسرعة لاجتياح لخناوتي. تعرَّضت المدينة للاحتلال والاستباحة، كما جرى أسر بلباني يوزبكي ـ الذي عاد من عملياته في البنغال الشرقي (بانغ) للاشتباك مع الغزاة ـ وإعدامه. تلك كانت أحوال الأمور في الشرق، حين توقف الجوزجاني عن الكتابة عام 658 هـ / 1260 م[45]. ومن شأن شهادة برني أن توحي بأن آرسلان خان، بقي متحدياً في لخناوتي حتى موته، لأن إرسال الفيلة من البنغال إلى دلهي، بمناسبة اعتلاء بلبان للعرش، سنة 664 هـ / 1266م من قِبَل ابنه وخلفه، تتر خان محمود، اعتُبر أمراً بعيداً عن المألوف[46].

نرى أن الأحداث الجارية في هذه المناطق النائية، تسلِّط الأضواء على القيود، التي تحد من نفوذ السلطان. كان الأمراء يتمرَّدون بصورة متكرِّرة؛ وربما فعلوا ذلك دونما تردُّد، أو خوف على امتداد بضع سنوات في البنغال البعيد على الأقل. وفي أكثر من مناسبة، لجأت الحكومة إلى استخدام أساليب النفاق والازدواجية. ربما أقدم السلطان، على منح منطقة أحد المتمردين إلى منافس له، لا لشيء، إلاّ لاستغلال الأمير المخلوع في محاربة القائد الذي سبق له أن احتلَّ مكانه، ولكنه بات الآن ذا نفوذ مفرط، كما تجلَّى، على ما يبدو، سنة 642 هـ / 1244م في نقل طوغان خان من لخناوتي أولاً، وإرساله إلى أوَدْ بعد ذلك. كان البلاط أحياناً، يخصص الإقطاع ذاته في الوقت نفسه تقريباً، لاثنين من الأمراء ويتركهما يتقاتلان،

(45) المصدر نفسه، II، 35 (تر. 769 ـ 772). لائق أحمد، «قارا، مدينة هندية قروسطية»، IC، 55 (1981م)، 85، يخلط أحداث هذا العام ويفترض أن استباحة آرسلان خان للخناوتي جاءت قبل التمرد الوارد ذكره من قبل.

(46) TFS، 53؛ انظر أيضاً 66، حيث يدعى محمد ويعتبر ملك [باديشاه] لخناوتي.

ليحصل المنتصر على الإقطاع في النهاية. لقد حصل ذلك سنة 653 هـ/ 1255م، حين جاء تخصيص بهراتش، لتاج الدين سنجر سيويستاني، بصورة تثير الشبهة، بُعَيد منحها إلى عماد الدين ريحان. وربما كانت تلك هي الخطة فيما يخص لخناوتي عام 656 هـ / 1258م، حيث نجد أفعال النظام المتناقضة، غير قابلة لأي تفسير. من المحتمل أن يكون البلاط لبعض الوقت، قد اعتبر إزاحة بلباني يوزبكي، بوصفه إحدى الصلات الباقية لقُطْلُغ خان. غير أن من الممكن بدرجة موازية، ألاّ تكون المصالحة بين قيلج خان والنظام في دلهي، إلاّ مصالحة سطحية ظاهرية، وأن تكون عملية منح لخناوتي، قد مثّلت محاولة لإيقاعه في المصيدة.

في الجزء التالي من حكم محمود شاه، كانت امبراطورية دلهي قد تقلّصت إلى درجة، باتت معها ذات مساحة تكاد لا تزيد عن نظيرتها، التي كانت محكومة لدى تنصيبه من قِبَل إلتُتمش. وفي أثناء قيام الجوزجاني بالكتابة، ثمة احتمال قوي بأنها، كانت تبدو في حالة من التمزق والتفكك. أما السبب الذي منعها من التفكك، فقد لا نفهمه بصورة كاملة. ثمة تفسير جزئي توفره، بالتأكيد جملة الانقسامات الحاصلة في صفوف المغول، بالنسبة إلى الأقاليم الغربية. غير أن المعلومات التي نملكها، حول التاريخ الداخلي للسلطنة، لا تزوّدنا بأي جواب. فيما بيّن تاريخ إنجاز الجوزجاني **لطبقاته**، في 658 ـ / 1260م، من جهة، وتاريخ شروع برني بكتابة تاريخه، مع اعتلاء بلبان للعرش من جهة أخرى، ثمة فترة سُباتٍ امتدّت ست سنوات، ربما كانت حاسمة جداً، بالنسبة إلى نجاة السلطنة وبقائها.

من شأن القول، بأن سلطة الحكومة على أقاليمها النائية، قد استعيدت خلال عهد بلبان، أن يشكّل تبسطاً شديداً لمسألة كبيرة، لأنّ تناول الأحداث، من قِبَل كل من برني، وعصامي، وسر هندي أقل تفصيلاً بما لا

يقاس من معالجة الجوزجاني، للتقلبات التي شهدتها حقبة محمود شاه؛ ليس ثمة ما يكفي من التأكيد، على أننا نعرف عن بلبان كخان ونائب، أكثر مما نعرفه عنه كسلطان. ومع ذلك، لا يمكن أن يكون هناك أي شك، في أن نوعاً من **إعادة التجميع وتوحيد الكلمة**، قد تمَّ في ظل بلبان بالنسبة إلى المناطق التي كانت، قد اعترفت بإلتُتمش في يوم من الأيام. ومعروف أنه قاد جيشاً إلى لاهور، في غضون سنوات قليلة من توليه للسلطة، وأنه استعاد المدينة، وأعاد إسكانها[47]، مما أدّى ثانية إلى توفير، إمكانية اعتبارها جزءاً من السلطنة؛ على الرغم من الأهمية المؤكدة، لعدم عثورنا على أية إشارة إلى أنها مُنحت، كإقطاع مرة أخرى، قبل القرن الرابع عشر. تمّت استعادة إقليم السند هو الآخر. ففي إحدى المراحل المتأخرة من عهد محمود شاه، فَقَدَ كوشلو خان، سيطرته على الإقليم، في ظروف غامضة. وفي فقرة إشكالية، يقول عصامي، إن أُلُغ خان بلبان، استغل غياب كوشلو خان، لاحتلال مُلتان[48]. قد يكون اختفاؤه مرتبطاً، بتقدم المغول النغودريين، وهو ما سنعاينه لاحقاً. مهما يكن، كان بلبان قادراً على تنصيب ابنه البكر، محمد (خاني شهيد)[49]، الذي حكم إلى سقوطه المبكر في القتال، ضد المغول في الأيام الأخيرة من سنة 683 هـ / آذار/مارس 1285م، نائباً للسلطان على إقليم السِّنْد.

يبدو أن استعادة لخناوتي تمّت بسهولة نسبية، لأن تتار خان مات في، أو بُعَيد 665 هـ / 1267 م[50]، فأوفد بلبان ممثله الخاص إلى الإقليم. غير أن

(47) المصدر نفسه، TMS61 ،، 40. قارن أيضاً FS، 164 (تر. 291).

(48) المصدر نفسه، 154 ـ 155، تر. 278 ـ 280).

(49) TFS، 66، واضعاً هذا بعد موت شيرخان الذي يقال في 64 ـ 65 إنه حصل بعد بداية العهد بـ «أربع إلى خمس سنوات».

(50) عن منقوش حول تتار خان يعود إلى 665 هـ / 1266 ـ 1267م، انظر يازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 23 ـ 25؛ XII, RCEA، 121 ـ 122 (رقم: 4854).

المصادر تتباين، إذ يزعم برني، وعصامي أن غلام السلطان طُغرُل، تم إرساله حاكماً (والياً) إلى لخناوتي، في حين يقوم سر هندي، بجعل بلبان يعين أمين خان (أي آيتكين مؤوي دراز) في المنصب، مع تعيين طُغرُل نائباً له[51]. لم يكن الإقليم، على أية حال، أقل اضطراباً بالنسبة إلى بلبان، منه بالنسبة إلى أسلافه الشمسيين. ففي حوالي 678 هـ / 1279 ـ 1280م، تمرّد طُغرُل وبادر ـ في نأمة تشكّل تذكيراً مدهشاً، بيوزبك قبل جيل واحد ـ إلى اعتماد لَقَب السلطان مغيث الدين. وقد تحدّى حملتين متعاقبتين شنّهما، قادةُ السلطان قبل تعرّضه للهزيمة على يد جيش، كان بقيادة بلبان شخصياً، ربما في 680 هـ / 1281 ـ 1282 م[52].

وبعد ذلك أوْكَلَ بلبانُ، أمر لخناوتي إلى ابنه الأصغر، بغراخان محمود، الذي ما لبث أن أعلن سيادته، بعد موت السلطان العجوز في 685 هـ / 1287م، حين وجد ابنه كيقباد قد احتال عليه، وأحبط تطلعاته المتعلقة بالعرش، ونجح في احتلال أوَدْ لفترة قصيرة من الزمن[53]. وبالتالي فإن حال لخناوتي، بعد تصالح الأب والابن في 686 هـ / 1287م، تبقى مبهمة؛ أما بعد انتقال السلطة في دلهي إلى جلال الدين خَلْجي سنة 689 هـ / 1290م، فقد بات بغرا خان وخلفاؤه، يتصرّفون كملوك مستقلين. ثمة كتابات منقوشة، تبيّن أن سلطتهم امتدّت أيضاً، لتشمل المناطق الإسلامية

---

(51) TFS، FS81 .، 165 (تر. 292). TMS، 40.

(52) TFS، 81، 83 ـ 92؛ في 81 يقوم برني بوضع عصيان طغرل بعد اعتلاء بلبان للعرش بـ «خمس أو ست عشرة سنة»، أي في 677 ـ 678 ـ / 1278 ـ 1280م، إذا انطلقنا من عامه الخطأ 662 هـ لتنصيب السلطان. يمكن التوفيق بين هذا وتقرير حملة بلبان على جاجناغار (أوريسا) الذي وُجد في V, RI، 5 ـ 13، ومؤرخ في الخامس من شوال 680 هـ / السابع عشر من كانون ثاني 1282م (المصدر نفسه، 13). فيريشتا، ا، 138، يضع تاريخ العصيان تحديداً في 678 هـ، رغم عدم وضوح المرجع الذي يستند إليه. FS، 164 (تر. 291) ويضع الانتفاضة في موعد يأتي بعد صعود بلبان بثمانية أعوام فقط، وبعد ذلك، 168 (تر. 296)، يقدم عام 670 هـ المستحيل.

(53) QS، 36، 44 ـ 46.

(54) آ. آ. قادري، «منقوشات سلاطين البنغال من بيهار» EIAPS، (1961م)، 35 ـ 36؛ ق. أحمد، =

في بيهار الجنوبية[54]. لم يعش هذا الفرع من الأسرة الحاكمة الغياثية طويلاً. فابن بغرا خان صغير السن وخليفته: ركن الدين كيكاوس، الذي مات أواخر القرن، خلفه حاكم غير معروف، يدعى شمس الدين دولت شاه أولاً، وشمس الدين فيروز شاه، الذي قد يكون هو نفسه أمير كيكاوس، المعروف باسم فيروزي آيتكين، والذي أسَّس بعد ذلك لأسرة حاكمة جديدة[55]. صحيح أن علاء الدين خَلْجي، ربما هاجم البنغال في إحدى المراحل[56]؛ غير أن الإقليم، لم يعد ثانية ولاية تابعة لسلطنة دلهي، إلاّ مع نشوب صراع بين أبناء فيروز شاه، أفضى إلى تدخل غياث الدين تُغْلُق شاه في 724 هـ / 1324 م.

الإقطاع والحكم المحلي

كانت **الخالصة** أو الأرض «المحجوزة» ـ ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الدنيا الملكية» ـ التي درج موظفو السلطان، على جمع الخراج منها بصورة مباشرة والتي وفَّرت موارده الأكثر، مباشرة ـ تشكِّل العمود الفقري، لسلطنة القرن الثاني عشر. ليست لدينا أية معلومات عن المدى الكامل، لاتساع الخالصة، وإن درجت العادة على اعتبارها، شاملة لأطراف (**حوالي**) دلهي[57]. أما المناطق الأخرى، فكانت تُمنح كإقطاعات. وحسب كلام برني، الذي

= **مجموعة منقوشات بيهار العربية والفارسية** (بين عامي 64 و1200 هـ) باتنه، (1973م)، 9 ـ 10 (رقم: 3).

(55) عن دولت شاه، انظر جون س. ديل، «إعادة تقييم للقطعة النقدية الجديدة لدولت شاه البنغالي»، JNSI 41 (1979م)، 82 ـ 90. عن خط فيروز شاه، انظر عبد المجيد خان، «تاريخية ابن بطوطة فيما يخص شمس الدين فيروز شاه، ذلك الملك البلباني المزعوم للبنغال»، IHQ، 18 (1942م)، 65 ـ 70؛ ر. سي. ماجُمْدار، **تاريخ البنغال الوسيط** (كالكوتا، 1973م)، 18.

(56) وفقاً للمترجم المفضل لـ **بحر الحياة**، مخطوطة IOL الفارسية 432 (إثه، رقم 2002). TFS، 227 ـ 229، 254، لا يتحدث إلاّ عن مخططاته بشأن البنغال. ثمة قصيدة غنائية في GK (تر. في III, ED، 543) تشير إلى حملة في بيهار ووضع اليد على فيلة بنغالية من لخناوتي.

(57) عن **الخالصة**، انظر و. هـ. مورلاند، **النظام الزراعي في الهند الإسلامية** (كامبردج، 1929م)، 29 وهـ. 1؛ بصورة أعم، آ. ك. س. لامبتون، «خالصة». Enc Isl.

يحدِّثنا عن أن كل مستفيد (**إقطاع دار**)، كان منتظراً منه أن يجنِّد فارساً إلى ثلاثة فرسان، فإن عبارة «إقطاع»، كانت تنطبق ليس فقط على المساحات الكبرى، الممنوحة لكبار الأمراء، بل وعلى مساحات أو إقطاعات أصغر، أوجدها إلتُتمش في دوآب[58]. ربما كان والد أمير خسرو، سيفي شمسي (متوفى حوالي 659 هـ / 1261م)، متمتعاً بإقطاع من هذا النوع[59]. في المراحل الأولى من عهده، سعى السلطان بلبان إلى استرداد الكثير من هذه الإقطاعات وإلحاقها بالخالصة، بحجة أن المستفيدين قد باتوا أكبر سناً، من أن يكونوا قادرين على الخدمة، أو ماتوا بعد أن نقلوا حيازاتهم إلى ورثة، لا يؤدون أية خدمة؛ غير أن الكوتوال فخر الدين، ما لبث أن أقنعه ـ كما يقول برني ـ بالإقلاع عن الفكرة[60]. وعلى الرغم من أن المؤرخ لا يعترف بالحقيقة، فإن الحدث كان دون شك معياراً، لمدى حاجة بلبان إلى موارد جديدة، يستخدمها لمكافأة بطانته الخاصة، التي دعمت عملية اعتلائه العرش.

تبقى معلوماتنا عن عمليات الإنعام بالإقطاعات، أكثر غزارة، بالنسبة إلى المساحات الأكبر؛ وهي أوفر بكثير حين يكون الأمر متعلقاً بالغلمان الشمسيين، بالمقارنة مع نبلاء أحرار، لا نعرف عنهم إلاّ الشيء القليل. بعض المناطق تظهر بصورة منتظمة، على أنها إقطاعات في **طبقات** الجوزجاني. فإلتُتمش كان ذات يوم، متمتعاً بـ «إقطاع» مدينة (**قصبة**) برن مع ملحقاتها (مضافات)، وبرن هذه تَكرَّر منحها كإقطاع خلال عهده، وعهود خلفائه الشمسيين[61]. ليس واضحاً ما إذا كانت مناصب رئيسية معيَّنة، ترافقت آلياً بمنح مناطق محدَّدة. من الممكن بصورة مؤكَّدة، أن نجد علاقة وثيقة بين

---

(58) TFS، 62.

(59) عنه، انظر DGK، 66 ـ 67: توفي حين كان خسرو في السابعة من العمر.

(60) TFS، 60، 61 ـ 64.

(61) TN ،I، 443، واII، 8، 21، 25، 27، 29 (تر. 604، 730، 754، 757، 759).

منصب الوزير وبلدة **كول**؛ مع أن ذلك ما لبث أن توقف مع الإطاحة، بمهذّب الدين سنة 640 هـ / 1242م[62]. ففي سيرة حياة آيبكي شمسي عجمي، ترد عبارة «**إقطاعات الأمير ـ داد**»، وأسلوب الجوزجاني يدل، بأن ذلك الأمير بوصفه **دادبك** الامبراطورية كان حاصلاً، في الحد الأدنى، على إقطاع بالوال وكاما[63]. ومع الوصول إلى عهد كيقباد ثمة، على ما يبدو، ارتباط واضح بين منصب **العارض** (الحاجب) وإقطاع بَرَن[64].

هناك ما يشير إلى أن عدداً من المواقع الحصينة، اعتُبرت «**محجوزة**» (محروسة) بوصفها جزءاً من خالصةِ السلطان، ولم يتم منحها بالتالي كإقطاعات. لعل المكان الذي يتردَّد ذكره باطراد، بوصفه محجوزاً (**محروساً**)، هو موقع غواليور، بعد إعادة احتلاله سنة 630 هـ / 1232 ـ 1233م[65]. وفي تلك المناسبة، قام إلتُتْمش بتعيين **أمير داد** من جهة، ومسؤول قلعة (كوتوال)[66] من جهة ثانية. ولدى وضع قوات الموقع، فيما بعد، تحت إمرة مُقطَع بهايانا وسلطانكوت، تم توجيه هذا الأخير، إلى اتخاذ غواليور مقرَّ قيادةٍ له، ويقال إنه كان حاملاً لـ (**شحنة**) تلك المنطقة (الولاية)[67]. يشار إلى بلدات مهمة أخرى معينة، على أنها **محروسة** (محجوزة) غير أن أوضاعها كانت، على ما يبدو، متباينة. فمدينة بيهار، مثلاً، تُعْتَبر **محروسة** في إحدى المرَّات، غير أنها ترد أيضاً على أنها إقطاع[68]. كثيراً ما يجري وصف

---

(62) ز. آ. ديساي، «منقوشات عن سلاطين دلهي المماليك»، EIAPS (1966م) 8 ـ 11؛ I, TN، 456، 469 (تر. 634، 662). عن الأمراء بين الأرستقراطية العسكرية فيما بعد في القرن الثالث عشر، انظر المصدر نفسه، II، 42 (تر. 787)؛ TFS، 66، 88، 113.

(63) II, TN، 41 (تر. 790 ـ 791).

(64) TFS، 170.

(65) I, TN، 460، وII، 19، 24، 25، 78، 214.

(66) المصدر نفسه، I، 448 (تر. 620).

(67) المصدر نفسه، II، 10 ـ 11 (تر. 732).

(68) المصدر نفسه، II، 9، 28 (تر. 731، وقارن أيضاً 757).

تبرهند **بالمحروسة**[69]، وبالتالي فإننا نجد قراقوش، معيناً «مسؤولاً (شحنة)، لدائرة تبرهند الخاصة (**خالصات**)»[70]. مرة أو اثنتين لا تكون العلاقة بين المدينة، وقائدها واضحة: فكزليك خان، يوصف بأنه «مالك» تبرهند، وآرسلان خان، يقال عنه إنه مكلّف برعاية شؤون **محروسة** تبرهند[71]. وبالمثل فإننا نقرأ عن منح «مدينة أوتشش وإقطاعها» إلى سيف الدين آيبك، سنة 629 هـ / 1231 ـ 1232م، على الرغم من أن الجوزجاني يلصق صفة **المحروسة** بأوتشش، لدى وصفه لاجتياحها من قبل إِلْتُتْمش سنة 625 هـ / 1228م، وتقديمها هدية إلى كزليك خان[72]. تنطوي الصياغة على ما يغري المرء، باستنتاج أن المدينة المحصنة، لم تكن لتشكِّل جزءاً من المنحة الإقطاعية، وأن مستوى النفوذ الذي كان المقطع يتمتع به، كان مستنداً إلى أساس مختلف. ومن الواضح أن هذا لم يكن هو الوضع، بالنسبة إلى تبرهند في تلك الأزمان، التي تبرز فيها على أنها إقطاع دون لبس. فاختيار الدين آلتونابا، يعتبر مقطعها في عهد رضيّة، (في فترة تكون فيها، مع ذلك، موصوفة بأنها (**محروسة**)[73]؛ وقد قام علاء الدين مسعود شاه، بمنح المدينة إقطاعاً، إلى اختيار الدين يوزبك (طُغرُل خان)[74]؛ وفيما بعد، في عهد السلطان نفسه، نقرأ أن «قلعة تبرهند، خُصِّصت لشيرخان كإقطاع، كما مُنح جميع ملحقات (مضافات) **محروسة** تبرهند»[75]. ومثل هذا التعبير، يلغي أية إمكانية، لأن تكون منحة الإقطاع محصورة بالأطراف، دون أن تشمل الموقع الحصين نفسه.

---

(69) المصدر نفسه، II، 4، 34، 43، 44 (تر. 723، 767، 784، 792).

(70) المصدر نفسه، II، 20، (تر. 746).

(71) المصدر نفسه، I، 446 (تر. 613)، عن كزلك خان؛ II، 34 (تر. 767)، عن آرسلان خان.

(72) المصدر نفسه، II، 3، 8 (قارن تر. رافيرتي، 724، 730).

(73) المصدر نفسه، I، 460؛ قارن I، 462 (مرتان).

(74) المصدر نفسه، II، 30.

(75) المصدر نفسه، II، 43.

في بعض الحالات، تكون الشروط المحيطة بالمنحة متباينة، بين مستفيد وآخر، بل ونجد المنحة ذاتها، موصوفة بلغة مختلفة، في موقعين مختلفين، من مواقع كتاب **الطبقات**. يقال إن كبير خان، مُنح «مدينة مُلْتان وقلعتها، بلداتها (قصباتها)، ونواحيها القريبة منها، والبعيدة (**أطرافو حوالي**)، وعُيِّن حاكماً للولاية (أيالة)؛ وفي مكان آخر يوصف بأنه **والي** مُلتان بجدارة[76]. أما فيما بعد، حين كانت خاضعة لقراقوش خان، ولكبير خان نفسه للمرة الثانية، فيتم اعتبار مُلتان إقطاعاً[77]. صحيح أن «منطقة (**ولاية**) أوَد وتوابعها (مُضافاتها)»، كانت قد خُصِّصت لتيمور خان من قبل رضيّة، وأن قُطْلُغ خان، حصل على «ولاية» (أيالة) أوَد في 653 هـ / 1255م[78]؛ غير أن هذين الضابطين، يشار إليهما في مكان آخر، بوصفهما مُقطَعي أوَد، التي يقال عنها في مناسبات أخرى، صراحة، إنها كانت إقطاعاً[79]. في حالات نادرة، يحصل لدينا انطباع يقول إن المُقطع كان يحتل مرتبة **أمير داد**، المحدَّدة في المدينة المعهودة إليه، كما فعل آيبكي شمسي عجمي في كاسراك وبرن لاحقاً[80]. حتى في حال تلك الأقاليم، المنطوية على معانٍ أكثر رفعةً مثل لاهور، ربما جاءت وضعية المنحة مختلفة، وفقاً لمرتبة المستفيد الممنوح. ففي غضون عدد قليل من السنين، باتت لاهور تعتبر إقطاعاً، رغم استمرار تسميتها في أحد المواقع بـ «**المملكة**»، بعد أن ظلَّت سنوات بأيدي الأعيان، بدلاً من إبقائها بين يدي أحد أفراد الأسرة الحاكمة[81].

تمنعنا المصطلحات الغامضة والمتناقضة، من فرض تصنيفات دقيقة، على

---

(76) المصدر نفسه، I، 455 ـ 456، وII، 5.

(77) المصدر نفسه، II، 20، 163.

(78) المصدر نفسه، II، 17، 69.

(79) المصدر نفسه، I، 458، 489، وII، 16، 17، 27.

(80) المصدر نفسه، II، 42 (تر. 791).

(81) المصدر نفسه، I، 455، 459، 460، 465، وII، 7، 30، 163؛ وأيضاً II، 6، عن **مملكة** لاهور.

ترتيبات القرن الثالث عشر. من الواضح أننا لا نستطيع توقع الاطراد والاتساق من مصادرنا، وقد لا يكون التمييز بين حالة المحافظة (**الأيالة**)، وحالة الإقطاع ذا معنى، على أية حال. فعلى الرغم من أن الإقطاع، كان وظيفة خراجية في الأصل، نرى أن المقطَع ليس شخصاً متقاعداً بعيداً، أو ياوراً عسكرياً في البلاط، دون أي ارتباط بالمنطقة الممنوحة له، بل هو ضابط، اضطلع بجملة من المسؤوليات الإدارية الخطيرة. وفي وقت سابق من القرن، كان حسن نظامي قد أدخل في كتابه **تاج المآثر**، جملة التوجيهات، التي قيل إنها أُعطيت للأمير غير المسمَّى، الذي حصل على **أيالة** قلعة بَنَارِس المفتوحة حديثاً. طُلب منه أن يرعى مصالح فئتي رجال السيف، ورجال القلم كلتيهما، أن يحمي هؤلاء من الكفار، أن يشرف على أعمال الفلاحين (**الرعية**)، أن يضمن أمْنَ الحصون والقلاع، وأن يلبّي متطلّبات الإحسان وأعمال الخير. أما النصائح التي قيل إنها وُجهت إلى حسام أوغول بك في كول بعد عام، أو حوله فليست مختلفة. فواجباته لا تقتصر على القيام بالجهاد، حراسة الطرق، وتشجيع التجارة فقط، بل وتشمل تكريم أعضاء «طبقة رجال الدين»، وتفضيلهم وتحقيق العدل، دونما تمييز بين ذوي الأصول النبيلة، وعامة الناس[(82)].

إذا كانت مصادرنا جديرة بالثقة، فإن بعض المُقطَعين، تمكّنوا من الارتقاء، إلى تلك المستويات الرفيعة. فمنطقة بهايانا، كانت مدينة بوضْعها المزدهر، لجهود بهاء الدين طُغرُل، قائد معز الدين المملوكي، الذي كان قد أصبح مُقْطَعها الأول، في 592 هـ / 1196م[(83)]. يقول الجوزجاني، «ما من منطقة (**ناحيت**) أو إقطاع أو ولاية (**ولايت**)، وُضعت تحت سيطرة آيبكي شمسي عجمي، إلاّ ازدهرت، وكانت عامة الرعية (**«عامي رعيت»**) راضية[(84)].

---

(82) Tāj، ملف 135 ب ـ 136 أ، عن بنارس؛ ملف 138 أ ـ 141 أ عن كول.

(83) TN ،I، 421، (تر. 545، 547).

(84) المصدر نفسه، II، 41، (تر. 789 ـ 790 معدل).

والمؤلف نفسه يؤكِّد لنا أن عَمَّيْ علاء الدين مسعود شاه، (أحدهما هو السلطان محمود شاه فيما بعد) كانا، لدى ذهابهما إلى المناطق الممنوحة لهما حديثاً، ينشغلان ليس فقط بالحرب المقدَّسة (الجهاد)، بل وبتحسين أحوال الفلاحين[85]. وعن كزليك خان (المتوفى في 629 هـ / 1231 ـ 1232م)، في أوتشش يقال، إنه دأب على ضمان أمن الفلاحين وراحتهم، وحرص على أداء أعمال الإحسان والخير[86]. أما بلبان، فيمتدحه برني على جلبه الازدهار إلى كل مقاطعة، منحت له كمالك أو كخان؛ ويقول الجوزجاني إنه، لدى وصوله للمرة الأولى إلى هانسي، «سارع للاهتمام بالعمران (**عمارات**)، وأحس الناس بالرضا من صروح عَدْله، وأشعَّة كرمه وسخائه»[87]. وثمة سلطان مستقبلي آخر هو جلال الدين خَلْجي، يُزعم أن تخصيصه ببايال، تمخض عن الازدهار[88]. لا شيء من هذا كله يشهد، على تحلي المُقْطَع بنظرة متنورة. كانت للمقطع هذا، مصلحة ثابتة في الوضع المادي للمساحة، التي كان يحصل فيها على الموارد والخراج؛ غير أن من شأن هذه المدائح، أن تنبئنا، مثل التوجيهات والنصائح، التي أوردها حسن نظامي، أو المواعظ التي تعزى إلى غياث الدين تُغلُق[89]، عما كان متوقعاً من المقطع بمقدار ما تحدثنا، عما كان متحققاً على أرض الواقع على الأقل. من المؤكد أن رسالة هاردي التذكيرية المنبهة، التي تقول إن مقطَع القرن الثالث عشر، كان شخصاً «كلَّفه السلطان بتولِّي إدارة، لا وحدة إقليمية محلية، بل حالة محلية»[90]، جديرة بالترحيب. فمهمة المستفيد، ربما قامت بالدرجة الأولى، على تلقي الخراج من الزعماء الهندوس، الأكثر إذعاناً في المواقع القوية، واستخدام هذه المواقع، قاعدة لإطلاق عمليات

(85) المصدر نفسه، I، 470 (تر. 665).

(86) المصدر نفسه، II، 724.

(87) TFS، TNI45 ,II .، 52 (تر. 807 معدل).

(88) FS، 201 (تر. 364).

(89) TFS، 430.

(90) هاردي، «نمو السلطة»، 203.

عسكرية، لانتزاع المزيد من الخراج والأتاوات، والغنائم من نظرائهم (الزعماء الهندوس)، الأقل طواعية وامتثالا[91]. وفي عدد كبير من الحالات، لا يجد الجوزجاني ما يقوله، عن نشاطات أمير معيَّن في إقطاع محدَّد، عدا عن أنه أجهز على «المتمردين» (متمردان)، و«المفسدين» (مفسدان) الهندوس، ودمَّر جحورهم (ماواسات)[92]. وقليلون، هم الذين يُذكر لهم فضل بناء المساجد، وإقامة المؤسسات الإسلامية[93].

ربما كان يجري التعبير عن الثروة، والأهمية النسبيتين لأي إقطاع، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، بعدد الفرسان لدى المستفيد. فبرني يقول لنا، إن عبد بلبان المملوك بُقْبُق، مقطَع بداؤون، كان لديه أربعة آلاف فارس في خدمته (شاكر)، وأن ملك نصرتي صباح، مقطَع غانوري وتشاوبالا (مراد آباد الحالية) في عهد جلال الدين خَلْجي، كان لديه سبعمئة فارس[94]. تبدو هذه الأرقام متواضعة، بالمقارنة مع إمكانيات شير خان، الذي كان قبل جيل، مالكاً لسُنَّام ولاهور وديوبالور، مع «الاقطاعات الواقعة على طريق التقدم المغولي»، لتجنيد «بضعة آلاف»[95]، أو الجيش، الذي حشده تاج الدين سنجري قبقولاق في بداؤون سنة 630 هـ / 1242م، ذلك الجيش، الذي بلغ تعداده «ثمانية آلاف من الخيالة، والكثير من المشاة والبايك» مثيراً حسد منافسين مجهولين[96].

رغم شحّ المعلومات، المتوفرة لدينا عن الجوانب المالية للإقطاع،

---

(91) إ. حبيب، «تاريخ سلطنة دلهي الاقتصادي»، 295.

(92) TN ,II، 7 ـ 8، 17، 27، 42، 47، 52 (تر. 728، 743، 757، 787، 799، 809). عن مواس، انظر ص: 125 من هذا الكتاب.

(93) Tn ,II، 26 (تر. 755).

(94) TFS، 40، عن بقبق، و204 (مصححاً عن مخطوطة BL، ملف 110 ب، عن نصرتي صباح.

(95) المصدر نفسه، 65.

(96) TN ,II، 26 (تر. 755).

يفترض أن الخراج المحلي، باستثناء واردات الخالصة، كان في هذه الفترة، يسلَّم إلى الموظفين، لا إلى الحكومة المركزية في دلهي. فالمقطَع كان بدوره، يقوم داخل منطقته، بتوزيع منح إقطاعية، ليس فقط بهدف تجنيد المقاتلين، بل وفي سبيل اجتذاب المؤهلات الإدارية للمتعلمين. فمن أشكال السخاء، التي حصل عليها الجوزجاني، من بين يدي تاج الدين سنجري قبقولاق، حين زار بداؤون سنة 640 هـ / 1242م، كانت هدية إقطاعية؛ وإن «شاءت الأقدار والحظوظ»، أن يتابع المؤرِّخ طريقه باتجاه لخناوتي[97]. ليس ثمة ما يدعو إلى الشك، في أن يكون النظام، قد عمل خلال الحقبة الشمسية، كما فعل في أوقات لاحقة من القرن، في ظل بلبان وجلال الدين خَلْجي، تماماً. كان المقطَع يُبْقي من الخراج، الآتي من منحته، ما يكفي لتسديد رواتب وحداته العسكرية، وتغطية نفقات تجهيزها، أو للأغراض الإدارية الأخرى، ويرسل الفائض (الفضائل) إلى العاصمة[98]. يلمح برني إلى أن السلطان، بات مع حلول حقبة بلبان، يعين محاسباً (خواجا)، ليمارس مهمته داخل الإقليم، جنباً إلى جنب مع المقطَع، مما يعكس حرص الحكومة، على التأكد من المستوى المتوافر من الخراج[99]. كذلك قام بلبان بزرع الوشاة، أو المخبرين (بريدان) في الإقطاعات، ليقدموا تقاريرهم عن نشاطات أمرائه وأفراد أسرهم[100]. يحدثنا برني عن أن محمداً بن بلبان شخصياً، كان يرسل الخراج الفائض من السند إلى بلاد أبيه كل سنة، وعن أنه جلب خراج ثلاث سنوات، عقب عودة السلطان من البنغال[101]. لا

---

(97) المصدر نفسه (تر. 756).

(98) TFS، 164، 220 ـ 221. ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، في ريتشارد دهوري وحبيب، 69، يقال بقدر أكبر من الحذر إن إرسال الفائض من الإقطاعات كان مطلوباً «قبل سقوط عائلة بلبان الحاكمة بزمن طويل».

(99) TFS، 36 ـ 37 (في إقطاع آمروها)؛ وانظر ع. حبيب «الاقتصاد الزراعي»، 69 ـ 70.

(100) TFS، 40، 44 ـ 45.

(101) المصدر نفسه، 69، 108 ـ 109.

نملك أية معلومات عن نسبة الفائض. في الظروف الاستثنائية، كما في حال الاضطرار إلى القيام بعمليات عسكرية مُكْلِفة بشكل خاص، كان يسمح للمقطَع بأن يستبقي الفائض أيضاً. ذلك هو ما حصل حوالي عام 684 هـ / 1295م، حين سُمِح لسلطان المستقبل علاء الدين، أن يحتفظ بالخراج الفائض المحصَّل من إقطاعه المتمثل بكل من قارا وأوَدْ، بذريعة توجيه حملة إلى تشاندري[102]؛ على الرغم من أنه زحف، بدلاً من ذلك، على ديوغير، وفاز بالغنائم التي مكّنته من الإطاحة بعمّه السلطان.

لم يكن الوقت الذي كان المقطَع، يستطيع أن يُتوقَّع منه أن يمضيه في منطقته، محدَّداً بوضوح. فمع حلول تسعينيات القرن الثالث عشر، نبدأ بأن نسمع عن وجود، وكيل (نائب) في بعض الإقطاعات. وما لبث والد برني أن أصبح نائباً، ومحاسباً (خواجا) في برن، لدى اعتلاء علاء الدين للعرش[103]. أما مسؤولياته فكانت تشتمل، فيما يبدو، على مراقبة عملية جمع الخراج، وتجهيز الجيوش. ومن الواضح أن أي مقطَع، مضطلع بمسؤوليات إدارية رئيسية في دلهي، لم يكن ينتظر منه، أن يشرف شخصياً على هذه الأمور. وفي وصفه لكيفية اضطرار أُلُغ خان بلبان سنة 653 هـ / 1255م، للذهاب إلى هانسي، للإشراف على تجنيد الفصائل من إقليم سيواليك (هانسي، سارساتي، جند، وباروالا)، الذي كان عرضة للتأخير، يبدو الجوزجاني ميالاً إلى اعتبار الأمر غير مألوف[104].

كان من شأن أولئك الذين تسوء علاقتهم بالحكومة، أن يتعرَّضوا لعقوبة الإبعاد، أو النفي إلى إقطاعاتهم، وهو مصير يكثر تكراره نسبياً على صفحات كتاب **طبقات ناصري**. فمن أمثلة الصراع على السلطة في خمسينات القرن

---

(102) المصدر نفسه، 220 ـ 221.

(103) المصدر نفسه، 248.

(104) TN ،II، 70 ـ 71 (تر. 837)، انظر أيضاً I، 490 (تر. 703).

الثالث عشر، أن أُلُغ خان بلبان، حين فقد منصب النائب، في 651 هـ / 1253م، كان قد أُمر بالانسحاب إلى هانسي؛ وفي عام 653 هـ / 1255م، تعرَّض خصماه ريحان وقُطْلُغ خان، لعقوبة الطرد إلى بداؤون وأوَدْ على التوالي؛ أما في سنة 655 هـ / 1257م، فإن جميع حلفائهما من أرستقراطية دلهي الدينية، الذين كانوا يتمتعون بإقطاعات في الجوار (حوالي) القريب من العاصمة، أُمروا بالإقامة في إقطاعاتهم(105). وبعد حوالي أربعة عقود، ثمة عدد من الأمراء المهتمين، بالتآمر ضد السلطان جلال الدين خَلْجي، عوقبوا بنفيهم إلى إقطاعاتهم لمدة عام واحد، وهي عقوبة من الواضح، أن برني تعمَّد ذكرها ليراها قرّاؤه بالغة الرفق واللين(106). غالباً ما تبرز بداؤون بوصفها مآل، أولئك الذين باتوا محرومين من رعاية القصر، كما كانت حال بدر الدين سنقر، سنة 638 هـ / 1241م، وحال كوشلو خان سنة 649 هـ / 1251م، وحال ريحان بعد ثلاث سنوات، (كمقطَع معيَّن حديثاً في كل من الحالات)، كما بالنسبة إلى القاضي المخلوع، عماد الدين شافورقاني في 646 هـ / 1248م(107). لقد كان قَدَرُ القاضي جلال الدين، الذي تورَّط في قضية سيدي مولّه، متمثلاً بإبعاده قاضياً إلى بداؤون(108). أما في ظل حكم بلبان، فإن العقوبات كانت أقسى. فغلامه الملك بُقْبُق، سري جاندار ومقطَع بداؤون، حُكم بالإعدام، جراء قيامه بذبح أحد (الفراشين)، ولم ينج قُرابك هيبت خان، الذي كان يتمتع بإقطاع أَوَدْ من المصير نفسه، بسبب إقدامه على قتل أحدهم، إلاّ بكثير من الصعوبة(109). غير أن هاتين الحالتين ربما كانتا الاستثناءين.

---

(105) المصدر نفسه، I، 486، 489، 492 (تر. 693، 700، 701، 708)؛ أيضاً II، 64، 69 (تر. 826، 834).

(106) TFS، 192.

(107) سُنقُر: TN، I، 465، وII، 25 (تر. 654، 753). آخرون: المصدر نفسه، I، 482، 485، 489، وII، 68 (تر. 685، 690، 700، 833).

(108) TFS، 211.

(109) المصدر نفسه، 40 ـ 41، 84.

ثمة مؤشرات، مأخوذة من فترة صعود أُلُغ خان كنائب، من عام 653 هـ / 1255م وصاعداً تدل على أن مَنحاً ومناصب معينة، كانت قد بدأت تصبح وراثية، خصوصاً تلك التي كانت، مشغولة من قبل أفراد الأرستقراطية الدينية، ممن تمتعوا في الغالب، بمداخيل معفاة من أي نوع من الخدمة، ومعروفة باسم **إنعامات**. كان الجوزجاني يحصل على أُعطياتٍ من هذا الباب، من أُلُغ خان بلبان، كان حاصلاً بالتحديد، على قرية في منطقة هانسي، صارت بحوزته سنة 647 هـ / 1249 ـ 1250م، مع قرية أخرى (في موقع غير محدَّد)، جنباً إلى جنب مع معاش نقدي، لدى إنجاز كتابه **طبقات**[(110)]. وبعد موت كل من **شيخ الإسلام** جمال الدين بسطامي، والقاضي كبير الدين في 657 هـ / 1259م، فإن منصبيهما (**مناصب**) مُنحا لولديهما؛ وبالمثل فإن **إنعامات** الإمام حميد الدين الماريغَلَوي، الذي توفي بعد بضعة أشهر، ما لبث أن انتقلت إلى أولاده. أما ما يفاجئ أكثر، فهو أن تسري هذه النزعة، في المناصب العسكرية والإدارية. ففي العام نفسه كان علاء الدين محمد، قد خلف أباه كشلي خان **أمير ـ حاجب**، كما أن الابن، ما لبث أن خلف أباه **العارض** في عهد بلبان[(111)]. وفي الحقبة الخَلْجية المبكرة، أقدم تاج الدين عراقي على نقل منصبه، المسمى **أمير داد لشگر**، إلى ابنه كبير الدين[(112)]. غير أن مبدأ الوراثة، ظلّ أقل أهمية من الإقطاعات. فنحن لا نعرف مقطَعاً واحداً، انتقلت منحته بعد موته إلى أحد أقربائه؛ مع أن الجوزجاني يكشف النقاب عن حقيقة، أن أرسلان خان اعتُبر صاحب حق في إقطاع بهايانا، بحجة أنه كان قد تزوَّج ابنة مقطَعها السابق، بهاء

---

(110) TN ،I، 481، 484، واا، 61، 220 (تر. 681، 687، 821، 822، 1294، 1295).

(111) المصدر نفسه، ا، 495، (تر. 713)؛ عن علاء الدين **أمير حاجب** عند بلبان، انظر أيضاً TFS، 24، 35، 36، 113، TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 36 ب.

(112) TFS، 361.

الدين طُغرُل[113]. وفي عهد حكم ناصر الدين محمود شاه، تم منح قيلج خان جلال الدين مسعود، ابن علاء الدين جاني (انظر الملحق رقم: 2)، إقطاع لخناوتي الذي تمتع به أبوه، لفترة قصيرة في عهد إلتُتمش[114]، مرتين. قد لا يكون ثمة إلاّ القليل من الدلائل، التي تشير إلى أن المبدأ الوراثي، لم يكن عديم الأهمية بصورة مطلقة، في عملية تخصيص الإقطاعات الكبرى في القرن الثالث عشر، قبل أن يجعله السلطان التُغْلُقي فيروز شاه، المعيار الرئيسي بعدد من العقود.

(113) TN ,II، 34 (تر. 767). ممكن أيضاً (رغم عدم قيام الجوزجاني بأي ربط صريح هنا) أن مطالبة تَمُرخان بلخناوتي حين انتزعها من يد توغان خان عام 642 هـ / 1244م، كانت مستمدة من زواجه من إحدى بنات المُقْطَع السابق سيف الدين آيبك يغانتوت: المصدر نفسه، II، 18 (تر. 744).

(114) المصدر نفسه، II، 78 (تر. 848 ـ 849)؛ RCEA ,XI، 211 (رقم: 4320). عن جاني، انظر TN ,I، 448، وII، 9، (تر. 618، 731 ـ 732).

الفصل السادس

التهديد المغولي

إمبراطورية المغول العالمية

عندما رحل جنكيزخان عن هذا العالم سنة 1227م، دون أن يعود إلى آسيا الغربية، كانت إمبراطوريته تمتد من سهوب منغوليا الحالية، إلى الأجزاء الشمالية ـ الشرقية من إيران والهندوكوش. ولم يعد المغول إلى إيلاء أي اهتمام بالأطراف، والمناطق الهندية المجاورة، إلاً بعد انتخاب ابنه وخلفه، أوغودي، خاناً أكبر **(قاغان / قآن)** في مؤتمر (قُرلُتاي)، عُقد في منغوليا سنة 1229، ولم يتوغلوا في الأراضي الخاضعة لسلطنة دلهي، إلاً في 639 هـ / 1241م، بادئين بذلك فترة طويلة من الاشتباكات، والحروب مع السلطنة دامت إلى ما بعد استباحة دلهي، من قبل الفاتح (الغازي) القادم من آسيا الوسطى، تيمور سنة 801 هـ / 1398 م. تحظى هذه النزاعات بقدر أقل من التغطية الشاملة، بالمقارنة مع اجتياح جنكيزخان للهند بالذات. فالمراجع الرئيسية لتحركات المغول في إيران الشرقية، وآسيا الوسطى ـ **تاريخي جهان گشاي** (658 هـ / 1260م) لمؤلفه الجويني، **وجامع التواريخ** (حوالى 703 هـ / 1303 ـ 1304م)، لرشيد الدين، **وتجزية الأمصار** لوصّاف ـ لا تكرس إلاً القليل من الاهتمام لعلاقات المغول، بشبه القارة الهندية. يتضمن كتاب وصّاف، كما رأينا، تاريخاً موجزاً لسلطنة دلهي، حتى السنوات الأولى من عهد علاء الدين خَلْجي، أفاد منه بدوره، كل

من رشيد الدين والقاشاني (حوالى 718 هـ / 1318م). ثمة تفاصيل عن بعض الحملات المغولية في الهند، يمكن التقاطها أيضاً من تاريخ هراة، (تاريخي ـ نامه ـ ي هراة) تأليف سيفي (حوالى 722 هـ / 1322م). غير أن هذه الروايات التاريخية الفارسية، لا تسد الثغرات التي يتركها مؤرخو الهند المسلمين، مثل الجوزجاني وبرني، ممن يكتبون عن الغزوات المغولية ولكنهم يبقون عازفين بصورة شبه كاملة، عن إبداء أي اهتمام بالظروف والأوضاع السائدة، داخل المناطق المغولية، إلاّ بصورة جزئية.

مع موت أوغودي، كان المغول قد اعتمدوا إيديولوجية قائمة على فتح العالم، إيديولوجية كان إله السماء الخالد (تنغري)، بموجبها، قد منحهم الكرة الأرضية كلها. أمّا الحكام الآخرون، فكان واجبهم متمثلاً بالتعرف على مواقعهم، في إطار هذه الإمبراطورية العالمية، وبتقديم آيات الولاء، والخضوع شخصياً إلى الخان الأكبر، وبوضع جيوشهم تحت تصرفه، وبالتسليم بوجود مقيم (شحنة) مغولي، وبالمبادرة إلى تفكيك تحصيناتهم. وأيُّ تحفظ أبداه المغول، في فرض نفوذهم على العالم كله، لم يكن إلاّ لاعتبارات تكتيكية. كان من الضروري أحياناً، أن يتم التوصل إلى نوع من الهدنة مع أحد الحكام، لا لشيء إلاّ للتركيز على عدو آخر في مكان آخر. غير أن كلمتي «السلام» و«الخضوع»، كانتا تعبران عن الكلمة ذاتها (تو، إِلْلْ) في قاموس المغول: لم يكن للخان الأكبر أي حلفاء، بل رعايا وأتباع فقط[1].

---

(1) إيريك فويغَلِن، «أوامر المغول للقوى الأوروبية بالإذعان، 1245 ـ 1255 م»، **بيزانتيون** 15 (1940 ـ 1941)، 378 ـ 413. كلاوس ساغاستر «هيرشافتسيان يولوجي أوند فريد نسغدانكه باي دن فروهن مونغولن»، CAJ، 17 (1973م)، 223، 242. إيغور دوراشفيلتز، «ملاحظات على الأسس الايديولوجية لامبراطورية جنكيز خان»، PFEH، 7 (1973م)، 21 ـ 36. ديفيد مورغان، «المغول وشرق المتوسط» في ب. آربل وآخرون (محررين)، **اللاتين والإغريق في شرق المتوسط بعد سنة 1204 م** (لندن، 1989 = **المجلة التاريخية المتوسطية رقم: 1)، 200 ويقال إن هذه الايديولوجية جاءت بعد، لا قبل، تفجر الحركة التوسعية في ظل جنكيزخان.**

وكما رأينا من قبل، كانت هجمات المغول الرئيسية سنة 620 ـ 621 هـ / 1223 ـ 1224م، موجهة ضد منطقتي ناندانا ولاهور، وكانتا تحت السيطرة الخوارزمية، ومنطقة مُلْتان، التي كانت عائدة لقوبتشا. رأى البروفسور حبيب الله أن جنكيزخان، عزف عن القيام بالمزيد من العمليات في الهند، احتراماً منه لحياد سلطنة الهند، كما يتضح من إخفاقه في مساعدة جلال الدِّين. وكذلك فإن الفاتح المغولي، يوصف أيضاً بميزة «الاعتدال»، و«المراعاة الصارمة لأصول الممارسة الدولية»[2]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن سياسة جنكيزخان تجاه الهند في 1223م، تقدِّم مثالاً فريداً عن هذه الروح. ليس هناك، على أية حال، أي سبب يدعو إلى اعتباره الهند هدفاً مباشراً، موازياً للهدف المتمثل بإمبراطورية خوارزمشاه. ففي ذلك الوقت، كانت أقاليم خوارزم، وما وراء النهر وغزنة ما تزال بحاجة إلى تهدئة، وفيما كان متمركزاً إلى الجنوب من سلسلة جبال هندوكوش، كانت فرق من جيشه، مشغولة بحملات حيوية، لإخماد سلسلة من حركات التمرد في خراسان. حتى الوحدات التي بادر أوغودي لاحقاً إلى سوقها إلى هذا الإقليم، كانت لا تعرف في «تاريخ المغول السري» المزعوم، إلاَّ كقوة احتياطية (مو. گجيجه) ملحقة بالجيش الرئيسي، العامل في إيران، بقيادة تشورماغون[3].

ربما صدرت عن إلتُتْمش، إيماءة خضوع لا يحدثنا الجوزجاني عنها. فبعد تسعين سنة، في 710 هـ / 1310 ـ 1311م، في إحدى السفارات إلى السلطان علاء الدين خَلْجي، ذكّره الإيلخان أولجايتو بأن أسلافه، كانوا «في زمن جنكيزخان كما في عهد أوغودي قاآن، قد تنفسوا هواء المصالحة

---

(2) حبيب الله، أساس، 206.

(3) 3 مونغول أون نيو بويكا ان، فقرة: 270، محقق (منقولاً) لـ. ليغتي، **التاريخ الخفي للمغول** (بودابست، 1971م)، 243؛ تر. ف. و. كليفز (كامبردج، ماس، 1984)، 210؛ تر. ايغور دو راتشفيلتز، في PFEH 31 (آذار 1985م)، 26 وهـ. على 58.

والطاعة، وأرسوا، عبر كلام المبعوثين، دعائم الولاء والإخلاص على وجه الأرض»[4]. قد لا يكون ذلك، بطبيعة الحال، أكثر من نوع من الزهو الدبلوماسي. ووصول «حاكم إن ـ تو (الهند)» إلى بلاط أوغودي، الوارد تحت بند أحداث سنة 1229م، في التاريخ الملكي الصيني للفترة المغولية، **اليوان شي**[5]، قد يكون إشارة إلى أحد الأمراء الهندوس، أو إلى حسن قُرلُق، حاكم بنبان. ومع ذلك فإننا نعلم أن إلتُتمش، قد استقبل بالفعل سفارات من المغول. لأن الجوزجاني يؤكد لنا، أنه لم يقتل مبعوثيهم قط، بل اكتفى فقط بإعادتهم تحت الحراسة بطريقة معينة (بـ طريقي)[6].

الاعتداءات المغولية الأولى

كان عهد أوغودي (626 ـ 639 هـ / 1229 ـ 1241م)، شاهداً على استفحال الضغط خلف حدود السلطنة. وبعد المؤتمر (القُرلتاي) الأول، زحفت الجيوش بقيادة داير نويان من هراة وتوغلت في سجستان وأطاحت بحاكمها نيلتغين (632 هـ / 1235م)[7]. ربما كانت القوات المغولية في كل من طخارستان وقندز وطالقان، فضلاً عن مثيلاتها، على ما يبدو، في غزنة، بالغة، جميعاً، **تومانين** (عشرين ألفاً)، بقيادة منغودي (منغوتي)[8]، هي التي ما لبثت

---

(4) وصاف، 528.

(5) فالتراوت آبراموفسكي، «الحوليات الصينية عن أوغودي وغويوك»، ZS، 10 (1976م)، 125.

(6) TN، II، 214 (تر. 1284).

(7) بوزوورث، **تاريخ الصفاريين**، 409 ـ 410. عن داير، انظر بويل، «القادة المغول»، 240: أوبان، «الأصول العرقية»، 70 ـ 71.

(8) TN، II، 153، 169 (تر. 1109، 1152). JT، I، جزء: 1، تحقيق آ. آ. روماسكفيتش وآخرين، (موسكو، 1965م)، 188، وتر. آ. آ. خيتاغوروف، **سبورنيك ليتوبيسي**، I، 109 جزء: 1 (موسكو ولينينغراد، 1952م)، يضيف بالمثل مضارب خيام جيشه على أنها «قندوزي بغلان وأطراف بداخشان». وعن صيغة اسم مونغ غدو، انظر بويل، «القادة المغول»، 242 وهـ. 67. عن كلمة **تومن**، وتعني (بصورة رمزية أحياناً) وحدة مؤلفة من عشرة آلاف رجل، انظر د. أو. مورغان، **المغول** (أوكفور، 1986م) 89.

أن سارعت إلى اجتياح كابُل وغزنة وزابكستان وإجبار حسن قرلُق على قبول مقيم (**شحنة**)[9] مغولي. وفي مؤتمر (قرلتاي) ثان سنة 632 هـ / 1235م، تلقت قوات مغولية إضافية، بقيادة أوقوتور / أوامر بالزحف على الهند، فتمت استباحة كشمير ونهبها، في أثناء حملة استمرت ستة أشهر[10]. وفي 636 هـ / 1238 ـ 1239م شَنَّ الجنرالان (**نويان**) آنبان ونغودر هجوماً مباغتاً على قُرلُق الذي كان قد أصبح تابعاً للمغول، فأخرجاه من مناطقه المتمثلة بغزنة وخُرّمان وبنبان، حيث ارتد على السلطنة شاناً هجوماً على أوتشش، ما لبث أن صده مُقْطَعُها سيف الدين آيبك[11].

تمخضت حملة المغول ضد حسن قُرلُق عن وصولهم إلى حدود سلطنة دلهي، حيث باتوا يحتلون المناطق التي كانت تشكل منطلق الغزوات الغورية على الهند قبل جيلين. ففي 639 هـ / 1241م قام جيش تحت القيادة المشتركة بكل من داير ومونغدو، بفرض الحصار على لاهور. تمكن المقطع، قراقوش خان، من الفرار، وما لبثت المدينة أن سقطت في السادس عشر من جمادي الثانية / الثاني والعشرين من كانون أول / ديسمبر 1241م، على الرغم من سقوط داير، قتيلاً، في المعركة[12]: بقي رد الفعل الصادر عن دلهي، حيث لم

---

(9) TN ،II، 159 (تر. 1119).

(10) JT ،II، 42 = II، جزء: 1، تحقيق آ. آ. علي زاده (موسكو، 1980)، 120 (تر. بويل، 55/ تر. فيرخوفسكي، 36). JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Tof 61 (الترجمة الألمانية 56)؛ ثمة فجوة في مخطوطة TSM هنا. فالمخطوطة الفارسية في BL ,Add 7628، ملف 391 أ، تقول إن المغول مكثوا ستة أشهر وإن راجا كشمير عاد بعد سبع سنوات. وهذا الخطأ قاد يان في «ملاحظة عن كشمير والمغول» CAJ، 2 (1956م)، 177، إلى الخطأ؛ تاريخه للاجتياح (المصدر ذاته، 179) هو الآخر خطأ.

(11) TN ،II، 8 ـ 9، 162 (تر. 730، 1128 ـ 1129).

(12) المصدر نفسه، II، 163 ـ 165 (تر. 1133 ـ 1136)؛ II، 166 (تر. 1142)، عن التاريخ الذي يرد على شكل جمادى الأولى في I، 465 ـ 466 (تر. 655)؛ عن القيادة المشتركة، انظر II، 6 حيث يتم رفض شهادة الجوزجاني بحجة أن داير مذكور كما لو كان على قيد الحياة في عهد مونغكه (1251 ـ 1259م). غير أن هذا ليس إلاّ سوء فهم نشأ عن غموض رشيد الدين: انظر JT ,III، 21 ـ 22 (تر. آرتندز، 22).

يكن بهرم شاه متمتعاً بأية شعبية لدى الجيش، غير ذي أثر. وفي سنة 643 هـ / 1245 ـ 1246م، نجحت حملة، شنّها مونغدو، في اقتلاع حسن قرلُق من مُلْتان، التي كان قد استولى عليها حديثاً، وإجباره على الهرب، في قارب، مع نهر الأندوس، باتجاه سيويستان ودَيبُل؛ وبعد ذلك، حاصر المغول أوتشش لبعض الوقت، قبل أن تتمكن حملة شنها السلطان علاء الدين مسعود شاه من إجبارهم على التراجع. قامت كتيبة بقيادة آيبكي خيطاي، **سري جاندار** ومقطع باران، بفرض الهدوء على مدينتي أوتشش ومُلْتان[13].

يحرص الجوزجاني، في روايته لقصة هذه الحملة، على إبراز دور السلطان المقبل بلبان، في تأمين انسحاب مونغدو، ويقدم وصفاً متباهياً لكيفية انتقال قوات دلهي إلى الهجوم في شتاء 644 هـ / 1246 ـ 1247م، أوائل عهد ناصر الدين محمود شاه، حين تقدم بلبان وصولاً إلى الأندوس، زارعاً الرعب في قلوب الدوريات الحدودية المغولية. غير أن قول المؤرخ، المؤكد، على أن ذلك عطّل غزو المغول في تلك السنة، تكذّبه حقيقة، أن إغاراتهم كانت قد أصبحت أحداثاً حولية[14]. وسرعان ما حاول، على أية حال، استغلال فرصة القتال حول مُلْتان، بين كوشلوخان ومنافسه شيرخان، إذ يتحدث الجوزجاني عن إرسال أعداد كبيرة من الأسرى المغول إلى البلاط سنة 648 هـ / 1250 ـ 1251م، من قِبَل (قُربُز)، نائب شيرخان في مُلْتان[15].

أزمات داخل الإمبراطورية المغولية

كانت العمليات المغولية على الحدود الغربية للسلطنة، منذ سنة 639 هـ /

(13) TN ,I، 471، واII، 28، 5654. 170 ـ 171 (تر. 667 ـ 668، 758، 809 ـ 813، 1153 ـ 1156).
(14) المصدر نفسه، I، 479 ـ 480، وII، 56 ـ 57 (تر. 677 ـ 679، 814 ـ 816).
(15) المصدر نفسه، I، 484 (تر. 688)؛ عن تعيين كوربوز والياً على مُلْتان، انظر II، 38، 44 (تر. 782، 792).

1241م، قد أثبتت أنها أقل من باهرة، لأسباب لا نستطيع تأكيدها. فموت داير، لم يكن سوى سبب الانسحاب المباشر من لاهور. أما الآراء التي تقول بأن المناخ جعل الهند بلداً غير جذاب، وبأن البنجاب لم يكن، من الناحية البيئية، ملائماً للنمط المغولي الخاص من البداوة الرعوية، فلا بد من استبعادها. صحيح أن الحَرَّ كان قد أجبر دُورْبَيْ على الانسحاب من مُلْتان سنة 621 هـ / 1224[16]، غير أن هذا، لا يقوى على تفسير إخفاق المغول في ترسيخ أقدامهم في البنجاب. لم يكن الأمر ليقف عند حدود اعتيادهم على المناخات المتطرفة في مواطنهم الأصلية، بل ونجدهم، في القرن الرابع عشر، في الهند بصورة منتظمة، مما يوحي بأنهم كانوا يعثرون على المراعي المناسبة لقطعان مواشيهم. ستتم مناقشة أهداف الغزو المغولي للهند، بقدر أكبر من الشمول، في الفصل الحادي عشر.

أما ما كان منطوياً على قَدْر أكبر من الأهمية، على المدى الأطول، فهي التوترات والأزمات المتفاعلة داخل الأسرة الحاكمة الإمبراطورية. فالحدود بين دائرة سلطة الخان الأكبر من جهة، ونظيرتها المتمثلة بدائرة نفوذ أقربائه الأكثر أهمية باتت أقلّ وضوحاً. فمن جهة، كان جنكيزخان قد أعطى كلاً من أقاربه دائرة رعي محددة، جنباً إلى جنب، مع عدد معين من الأتباع البداة ـ ذلك المجمع المعروف باسم **أولوس** في اللغة المغولية. يصف الجويني أكبر هذه الوحدات، تلك الممنوحة لأبناء الفاتح الأربعة: جوشي وأوغودي وجغتاي وتولوي، قائلاً إنها ممتدة من الوطن في منغوليا نحو الاتجاه الغربي، وفقاً للسن. جُعل الأكبر سناً، جوشي، مسؤولاً عن المنطقة الأبعد غرباً «إلى حيث وصلت سنابك الخيول المغولية»[17]؛ وعند وفاته، قبيل رحيل أبيه جنكيزخان، أصبح ابنه باتو، المؤسس الحقيقي للسلطة المغولية في السهوب الواقعة حول

(16) TJG ،I، 112 (تر. بويل، 142).

(17) المصدر نفسه، I، 31 (تر. بويل، 42).

بحري الأسود وقزوين، تلك السلطة المعروفة لدى المؤرخين باسم: القبيلة الذهبية.

ومن جهة أخرى، كانت الفتوحات المغولية تعتبر ملكية مشتركة لمجمل الأسرة الإمبراطورية كلها. فالأقاليم المستقرة تبدو، منذ عهد أوغوداي وصاعداً، خاضعة لحكم «إدارات تابعة (دائرة في الفلك)» مؤلفة من ممثلي كل من الخان الأكبر من جهة، وأمراء بلدان مجاورة من جهة ثانية[18]. لقد تجلى مبدأ الحكم المشترك، أيضاً، في نظام **التاما**، الذي شرحه الراحل جان أوبان. كانت القوات المرسلة إلى كل من المناطق المفتوحة، فصائل تمثل سائر فروع العائلة الإمبراطورية، بما لا يدع مجالاً لتغلب مصالح أمير واحد وطغيانها، دون موافقة الأقارب، الذين كانت قواتهم مشاركة في القتال، جنباً إلى جنب مع قوات هذا الأمير. وهكذا، فإن كلاً من أبناء جنكيزخان، كان ممثَّلاً بقائد في المناطق الحدودية الهندية، خلال عقد ثلاثينيات القرن الثالث عشر[19].

علينا، ثانياً، أن نلاحظ عدم وجود أية قواعد معترف بها للخلافة في الإمبراطورية الخاقانية. فأمير عَيَّنه العاهل السابق، كثيراً ما تمَّ تجاهله لصالح عضو، أعلى كفاءة أو أكبر سناً، من العائلة، وفق نظام اقتبس له البروفسور الراحل: جوزيف فلتشر من العالم الكلتي عنوان «التانِسْتري»[20]. فخلال فترة خلو العرش، التي امتدت بين وفاة الخان الأكبر أوغوداي في منغوليا في كانون أول / ديسمبر 1241م، وانتخاب ابنه غويغ (644 ـ 646 هـ / 1246 ـ 1248م)، ثمة شائعات وصلت إلى دلهي، عن صراعات مريرة محتدمة بين الأمراء، بمن فيهم أنجال شقيق جنكيزخان الأصغر تيموغه[21]. ثم ما لبثت وفاة غويغ

---

(18) بول د. بول «الإدارة الصينية ـ الخطائية في بخارى المغولية» JAH 13 (1979م)، 141 ـ 147.

(19) سيفي، 174، عن نظام **التاما**، انظر أوبان «الجذور العرقية»، 74 ـ 75.

(20) ج. فلتشر، «المغول: من منظور بيئي واجتماعي»، HJAS، 46 (1986م)، 17، 24 ـ 28.

(21) II, TN، 166 ـ 167 (تر. 1143 ـ 1144). انظر ب. جاكسون «تفكك الإمبراطورية المغولية»، CAJ، 22 (1978م)، 197 ـ 199.

المبكرة، التي حالت دون وقوع حرب أشقاء مع ابن عمه باتو، في آسيا الوسطى، أن أفضت إلى فترة انتقالية أخرى، بدون خاقان، دامت ثلاث سنوات، تمكن باتو وفريقه بعدها، من إزاحة ذرية غويغ وضمان المجد الإمبراطوري لتولوي بن مونكه (1251 ـ 1259م). تعرضت المعارضة الصادرة عن الفرعين الأوسطين من العائلة، للسحق دونما رحمة؛ وفي عملية إعادة توزيع كبرى للموارد، جرى حرمان الأمراء الأوغوديين، ونظرائهم من آل جغتاي، من مراعيهم، وإعدامهم أو نفيهم[22].

في سبيل حشد التأييد والدعم خلف النظام الجديد، تم إطلاق سلسلة من الحملات على الحدود، وصولاً إلى مواقع بعيدة مثل الصين وآسيا الغربية[23]. ففي 1252 ـ 1253م، أُرسل سالي نويان إلى الحدود الهندية على رأس جيش جديد، مفوضاً باستلام زمام القوات التي كانت في الماضي تحت قيادة كل من داير وأوقوتور. أما سالي نفسه، فكان خاضعاً لهولاكو، شقيق مونكه[24]، الذي كان سنة 653 هـ / 1255م سيزحف غرباً على رأس جيش عظيم، وسيقوم بسحق الحشاشين الإسماعيليين في (ألموت) إيران الشمالية سنة 654 هـ / 1256م) من جهة، وبالإجهاز على الخلافة العباسية في بغداد سنة 656 هـ / 1258م) من الجهة الثانية. وحسب نظام **التاما**، كانت قوات الخاقان مصحوبة بفصائل تمثل أمراء آخرين من العائلة الإمبراطورية، وكانت الجيوش المقدَّمة من الجوشيين، هي الطاغية بين هذه الفصائل[25].

---

(22) المصدر نفسه، 200 ـ 208.

(23) ت. ت. آلسن، **الامبريالية المغولية: سياسات الخان الأعظم مونغكه في الصين وروسيا والأراضي الإسلامية، 1251 ـ 1259** (بيركلي ولوس آنجلوس، 1987)، 1 ـ 5.

(24) JT ,I، جزء: 1، 188 (تر. خيتاغوروف، 110)؛ JT ,III، 21 ـ 22 (تر. آرندز، 21). آوبان، «الجذور العرقية»، 73، 79. يقع تاريخ إيفاد سالي إلى الهند في تموز 1253م حسب **اليوان شيح**: والتراوت آبراموفسكي، «حوليات الصين عن مونغكه»، ZS 13 (1979م)، 22.

(25) جاكسون، «تفكك...»، 220 ـ 221.

تمتع الأمراء الجوشيون بقدر كبير من الاستقلالية العملية عن الخاقان، بفضل بُعْد مواطنهم. فسلطة باتو كانت تمتد إلى مسافات بعيدة خلف حدود ما سيعتبر، لاحقاً، وطناً للقبيلة (الذهبية): والجوزجاني يقر بنفوذه، عبر جميع المناطق الإيرانية المحتلة من قبل المغول، كما أن سيفي يقدم أدلة أكثر تحديداً، تبين مدى قدرة باتو على التدخل في شؤون هراة، خلال أربعينيات القرن الثالث عشر[26]. فوفقاً لما تقوله تقارير وصلت إلى مصر بعد حوالي عشر سنوات، كانت القبيلة الذهبية (القطيع الذهبي) متمتعةً بما يتراوح بين ثُلُث وخُمْسي الغنائم المحصلة من إيران[27]. غير أن الاحتكاك بين الفصائل لم ينشأ، إلاّ بعد وفاة مونكه سنة 1259م، ونشوب صراع في الربيع التالي بين أخويه: قوبيلاي وآريغ بوكه في الشرق الأقصى، على الرغم من احتمال رؤية وجود هولاكو في آسيا الغربية، تحدياً لموقع الجوشيين ومكانتهم في هذه المنطقة.

حتى بعد توقفه عن الكتابة، كان الجوزجاني قد سمع الشائعات الأولى عن وجود توتر في العلاقة بين هولاكو وابن عمه بركه، شقيق باتو وحاكم القبيلة الذهبية، في ذلك الوقت. أما الأسباب المذكورة ـ وهي متمثلة بغضب بركه، الذي تمت تنشئته مسلماً، من المصير الذي آلت إليه الخلافة العباسية ـ فموجودة أيضاً في مصادر تعود إلى الإمبراطورية المملوكية[28]. ومع ذلك، فإن الوقائع تقول إن الصراع بين بركه وهولاكو تم إرجاؤه، لما يقرب من ثلاث سنوات بعد اجتياح بغداد ونهبها، وثمة مؤلفون من أماكن أبعد غرباً، كانوا أقدر على متابعة الأحداث، يَعْزُون الصدام إلى سببين مختلفين تماماً، أولهما: أن

---

(26) TN, II، 176 (مع التصحيح بموجب مخطوطة BL، ملف 155 ب؛ قارن تر. رافيرتي 1172). سيفي، 122 ـ 128، 136 ـ 139. عن باتو، انظر جاكسون، «تفكك...»، 212 ـ 213، 218.

(27) د. آيالون، «**الدستور (الياسا) الأعظم لجنكيز خان: إعادة نظر**»، جزء: ب، **ستوديا إسلاميكا** 34 (1971م)، 174، طبع ثانية في كتابه **الغرباء في بلاد الإسلام** (لندن، 1988). جاكسون، «تفكك...»، 220 ـ 221.

(28) TN, II، 198 (تر. 1257). اليونيني، II، 365. الصفدي، **الوافي**، X، 118.

هولاكو حَرَم القبيلة الذهبية من حصتها المألوفة من الغنائم المأخوذة من إيران؛ أما السبب الثاني المذكور في المصادر، بوصفه أساساً للعداء والخصومة بين هولاكو وبركه، فيكمن في أنهما كانا يدعمان مرشحين متنافسين في النزاع على الخلافة: كان بركه يعترف بآريغ بوكه، في حين كان هولاكو يفضل قوبيلاي[29].

يبقى وضع هولاكو الدقيق عند وفاة مونكه إشكالياً. فلدى وصف شروط مهمته، يستخدم مؤرخ الإيلخانيين، رشيد الدِّين، لغةً شديدة التحفظ. تقول روايته لقصة الأحداث، إن مونكه تعمّد بينه وبين نفسه إبقاء أخيه في إيران، ونقل السلطة الملكية إلى ذريته (المعروفة باسم الإيلخانيين) من بعده، ولكنه تظاهر بالإيعاز إليه بالعودة إلى منغوليا، بعد إنجاز عملية الفتح[30]. ولعل هذا يبعث على قَدْر من الشك، بوجود محاولة لتسويغ استعادة وضع الإيلخانيين. علينا أن نؤكد أننا لا نملك أي دليل آخر، على وجود مثل هذا الهدف لدى مونكه، والمصادر المؤلَّفة داخل الإمبراطورية المملوكية تؤكد، على النقيض من ذلك، أن هولاكو ما لبث، في إحدى المنعطفات، بعد سقوط بغداد، أن تمرد ونصَّب نفسه حاكماً للإقليم[31]. حتى العنوان الفعلي (**إيل**، «تابع»، **خان**) الذي اعتمده هولاكو وسلالته ليس ثابتاً فيما قبل 658 هـ / 1260م[32]. يبدو أن

(29) جون و. داردس، «من امبراطورية مغولية إلى أسرة حاكمة يوانية: أشكال متغيرة للحكم الامبراطوري في منغوليا وآسيا الوسطى»، **مونيو منآسيريكا** 30 (1972 ـ 1973م) 128 ـ 131. ب. جاكسون، «اعتلاء قوبيلاي خان للعرش: إعادة معاينة»، **مجلة الجمعية الانجليزية ـ المغولية**، 1975)، 1 ـ 10، أيضاً، «تفكك...»، 226 ـ 227. موريس روشابي، **قوبيلاي خان: حياته وأيامه** (بيركلي ولوس أنجلوس، 1988) 46 ـ 62.

(30) JT، III، 24 (تر. آرندز، 22).

(31) MA، تحقيق وتر. كلاوس ليش، **الامبراطورية المغولية العالمية** (فيسبادن، 1968م)، النص العربي 2 (الترجمة الألمانية: 91).

(32) روفن آميتاي ـ برايس «دلائل الاستخدام الأول للقب **إيلخان** بين صفوف المغول»، JRAS، السلسلة الثالثة، I (1991)، 353 ـ 361. ت. ت. آلسن، **حكام من السهب: تشكل الدولة على أطراف أوراسيا** (لوس آنجلوس، 1991م)، 227.

هولاكو أفاد من اندلاع الصراع في الشرق الأقصى، ليتحول من قائد أعلى للجيوش في إيران، إلى حاكم لأمة (أولوس) على غرار أقربائه، حاصلاً على الشرعية المطلوبة من قوبيلاي. تعرض الأمراء والجنرالات الجوشيون في جيشه للاعتقال والإعدام أو السجن، وجرى ذبح أكثرية أفراد قواتهم؛ مما أطلق يده للانقضاض على المناطق الواقعة إلى الجنوب من جبال القوقاز، التي كان الجوشيون يعتبرونها لهم. وبالتالي فإن الحرب ما لبثت أن نشبت بينهم سنة 1261م[33].

شكلت الأحداث التي أعقبت وفاة مونكه، طابع تفكك الإمبراطورية المغولية. فحتى بعد خضوع أريغ بوكه سنة 1264م، لم يكن، قوبيلاي، الذي صار يحكم من العاصمة الجديدة (خانبالق) [تا ـ تو] في الصين الشمالية، مستطيعاً أن يعوّل إلاَّ على ولاء هولاكو وسلالته، إيلخانيي إيران، بما يجعل من الممكن التحدث عن «محور تولوي» مؤلف من هاتين القوتين المتباعدتين جغرافياً. أضف إلى ذلك، أنه ما لبث أن بات منذ حوالي سنة 1270م، في مواجهة حلف من الأعداء، فيما وراء النهر وتركستان. وهنا ـ بادر الأمير الجغتائي آلوغو، الذي كان قد تخلى عن أريغ بوكه للالتحاق بركب قوبيلاي إلى استغلال فرصة الحرب الأهلية، لإعادة تأسيس الدولة الجغتائية على مرتكزات جديدة تماماً، واضعاً يَدَه على موارد الأقاليم الحضرية المستقرة المجاورة، التي كان ينبغي أن تكون قد ذهبت إلى الخاقان؛ غير أن بَرَق الذي أرسله قوبيلاي، غرباً، ليحكم الأمة الجغتائية بعد موت ألوغو، سرعان ما تحداه. ومع ذلك فإن العدو الأخطر الذي واجه قوبيلاي في هذه المنطقة كان متمثلاً بقايدو، أحد أحفاد أوغوداي، قايدو

(33) للحصول على معاينة أكثر تفصيلاً لجذور هذا الصراع، انظر جاكسون، «تفكك...»، 226 ـ 235؛ أيضاً المصدر نفسه، من الأولوس إلى الإمارة الخانية: تشكل الدول المغولية، حوالي 1220 ـ 1290، في ر. آميتاي ـ برايس ود. أو. مورغان (محررين)، **الامبراطورية المغولية وتراثها** (يصدر لاحقاً).

هذا، الذي بادر عددٌ من الأمراء والقادة (النويان) الجغتائيين والأوغوديين سنة 670 هـ / 1271م إلى الاعتراف به خاناً لهم[34]. كانت إمبراطورية قايدو، مترامية الأطراف. لقد استولى على الإدارة المالية للأقاليم الحضرية المستقرة في آسيا الوسطى، التي بات موظفوها من تعيينه هو، بل ونجده يعين حكام الأمة الجغتائية، الذين تصرفوا كأتباع له. وظل هو وحلفاؤه معادين للنظام في خانبالق، إلى أن توفي سنة 1303 م؛ ولم يعترف العالم المغولي بخاقان واحد، مرة أخرى، حتى سنة 1304م[35].

ألْحق تفكك إمبراطورية المغول إلى عدد من الأمارات المتنافسة، أضراراً جدية وخطيرة، بقدرتهم على متابعة الحملات التوسعية على كل الجبهات، سواء أكانت جبهة الصين، أم جبهة أوروبا الشرقية، أم جبهة الشام، أم جبهة الهند. كان الإيلخانيون مطالبين باليقظة الدائمة، تحسُّباً لتعرض، ما وراء القوقاز، للغزو من جانب قوات القبيلة الذهبية. ثمة هجمات متقطعة شَنَّها المغول الجغتائيون، وخصوصاً تلك التي تمت سنة 668 هـ / 1270م، قَلَبت خراسان عملياً، إلى منطقة عازلة (نومانزلاند) أحياناً[36]. جاء انتقام الإيلخانيين سنة 671 هـ/ 1272 ـ 1273م، على شكل اجتياح بخارىٰ ونهبها[37]. أما التخلي عن الادعاء القديم، المتمثل بحُكم العالم، فيتجلى بأكثر أشكاله بروزاً في

---

(34) جمال الدين القارشي، **ملاحظات الشراح**، محقق في ف. ف. بارتولد، **تركستان في العصر المغولي** (سان بطرسبرغ، 1898 ـ 1900م، جزءان)، I، (نصوص)، 138. وصّاف JT76 ,II، ، 192 (تر. بويل، 153 / تر. فيرخوفسكي، 100)، وIII، 138 (تر. آرندز، 87).

(35) لعل أوفى عرض لقايدو وامبراطوريته هو الذي نجده في مايكل بيران، **قايدو وصعود الدولة المغولية المستقلة في آسيا الوسطى** (ريتشموند، سري، 1997م). ثمة روايات أكثر إيجازاً في و. بارتهولد، **أربع دراسات عن تاريخ آسيا الوسطى** (لايدن، 1956 ـ 1962، 4 أجزاء في 3 مجلدات)، I، 124، 129؛ بليوت، **ملاحظات حول ماركو بولو** (باريس، 1959 ـ 1973)، 3 مجلدات)، I، 124 ـ 129؛ ج. أ. بويل «كايدو»، Enc Isl.*؛ وبصورة أعم، داردس، 130 ـ 131.

(36) JT ,III، 148 (تر. آرندز، 92).

(37) بيرتولد شبوله، **المغول في إيران**، الطبعة الرابعة (لايدن، 1985م)، 63.

الاستعداد الجديد الذي بات الأمراء المغول يُبْدونه للتحالف مع قوى خارجية ضد أشقّائهم. كان الإيلخانيون مواجَهين منذ سنة 662 هـ / 1263 ـ 1264م، بنوع من التفاهم، بين جيرانهم الشماليين، القبيلة الذهبية من جهة، والنظام المملوكي في مصر والشام من الجهة الأخرى. أمّا محاولاتهم الرامية إلى موازنة هذا التفاهم، عبر التفاوض على نوع من العمل المشترك مع أعداء المماليك في أوروبا الكاثوليكية، فقد ذهبت أدراج الرياح[38].

السلطنة و«أزمتها المغولية»

بات تنامي قوة المغول في إيران أكثر خطورة وتهديداً، نظراً لانجرارهم إلى الشؤون الداخلية لسلطنة دلهي، في أعقاب هروب جلال الدين مسعود، شقيق محمود شاه، إلى داخل الأقاليم المغولية سنة 646 هـ 1248 م. تقول المصادر المؤلَّفة في إيران، إن مونكه أَمَر سالي نويان بمساعدة الأمير الهارب في استرجاع «مملكة أجداده وآبائه». يبدو أن هجمات متعاقبة شنَّها سالي على مُلْتان ولاهور، وصفها سيفي، ونجح فيها والي مُلْتان في رشوة الغزاة، شكلت جزءاً من هذا الجهد. لا يقال لنا أيُّ شيء عن مصير لاهور، لأن سيفي يتوقف عند هذا المنعطف، فجأة، ليصف مصائر شمس الدين محمد كرت، ملك هراة العميل، الذي كان قد رافق قوات سالي، غير أنه ما لبث أن تراجع وانسحب عائداً إلى الوطن. من المؤكد، أن زحف قوات محمود شاه نحو السند عن طريق لاهور سنة 650 هـ / 1252م، حين تعرض أُلُغ خان بلبان للإبعاد، كان رداً على هذه الإغارة[39]. وبالتالي، فإن المغول باتوا

(38) س. زاخيروف، **العلاقات الدبلوماسية بين القبيلة الذهبية ومصر** (موسكو، 1966م). روفن آميتاي ـ برايس، **المغول والمماليك: الحرب المملوكية ـ الإيلخانية، 1260 ـ 1281 م**(كامبردج، 1995م) 78 ـ 86، 94 ـ 105. ج. آ. بويل «إيلخانات إيران وأمراء أوروبا»، CAJ 20 (1976م)، 25 ـ 40. مورغان، **المغول**، 183 ـ 186. وللاطلاع على عرض أكثر تفصيلاً لتوقف الزحف المغولي في 1260 ـ 1262م، انظر جاكسون، «تفكك...»، 236 ـ 243.

(39) TN, I، 486 (مع التصحيح بالاستناد إلى مخطوطة BL، ملف 192 أ؛ قارن تر. رافيرتي، 692). =

عاجزين عن التوغل إلى ما هو أعمق من جاجنر، وما لبثوا أن تقهقهروا، إلاّ أن الأمير كان قد عُيِّن حاكماً عميلاً للاهور وكوجاه وسودرا التي كانت خاضعةً (إيل) لهم[40].

لم تدم سلطة جلال الدين مسعود في هذه المناطق طويلاً، بعد مشاركته في الحملة، التي أعادت أُلُغ خان بلبان إلى الحكم سنة 652 هـ / 1254 م. ففي إحدى المنعطفات، بُعَيْد ذلك، التحق به ابن عم بلبان شيرخان، الذي كان أيضاً قد لاذ بالمناطق المغولية، ثم عاد غداة إعادة تنصيب النائب. تعرض الرجلان للانهيار، ومن المحتمل أن يكون جلال الدين، الذي تقاعد وترك أتباعه وقواته نهباً بيد منافسه، مات في غضون السنوات القليلة التالية. وحين اشتبك شيرخان في صراع مع آرسلان خان، مُقْطَع تبرهند، بادرت حكومة دلهي إلى التدخل ومنحَتْه، جزاء ولائه، ليس تبرهند فقط، بل «وكل المنطقة والإقطاعات التي كانت بحوزته من قبل»: يجب أن تكون هذه الخُطَّة قد رُسمت في سبيل احتضان لاهور وأوتشش ومُلْتان[41].

= سيفي، 157 ـ 159 (644). حبيب الله، **أساس**، 215، مال، بالتالي، إلى ربط الاجتياح بحملة بلبان في سلسلة جبال الملح. غير أن التسلسل الزمني لدى سيفي غير جدير بالثقة بشأن هذه المرحلة (انظر أوبان، «الجذور العرقية»، 72 ـ 73)، كما أن العام مبكر جداً ليكون موعداً لوصول أي من سالي أو شمس الدين كرت إلى المناطق الحدودية الهندية، أن يقوم سيفي بذكر عيد الأضحى **(عيدي قربان)** (العاشر من ذي الحجة) بوصفه حاصلاً خلال حصار مُلْتان (158) يشكل حجة لصالح تحديد تاريخ الحملة بعام 650، حيث تتناغم مع موسم العام المحدد من قبل الجوزجاني. لا يمكن التعرف على والي لاهور الذي يطلق عليه سيفر اسم ك ر ت خان (كويت خان). ربما كان علينا أن نتوقع طغرل خان (يُزبك).

(40) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي .Taf 57، النص الفارسي Taf، 22 (تر. 48 تقول «خيبر» بدلاً من ح ح ن ي ر في المخطوطة)؛ قاشاني، 185. عن هذا الحدث، انظر كارل يان «حول مشكلة الفتح المغولي في الهند» (القرنان الثالث عشر والرابع عشر) في **أعمال مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع والعشرين بميونيخ... 1957** (فيسبادن، 1959م)، 618.

(41) TN ,II، 44 (تر. 793). ينبغي لهذه التسوية أن تكون قد حصلت قبل 654 هـ / 1256م، حيث نجد آرسلان خان، في أوَدْ. يتضح أن جلال الدين مسعود كان متوفى مع حلول عام 658 هـ / 1260م من صيغة **«عليه الرحمة»** في قائمة الجوزجاني لذرية إلتتمش في مخطوطة BL، ملف 179 ب، ومخطوطة IOL، ملف 242 ب.

كانت المصالح المغولية في منطقة لاهور قد أُصيبت بنكسة، كما يحق لنا الافتراض، نتيجة لتصالح جلال الدين مسعود مع محمود شاه[42]. أما الآن، فقد جرى خَلْعُه من قِبَل شيرخان الذي كان تابعاً للسلطان، وصاحب مخططات بالنسبة إلى السند، بتشجيع من دلهي. فهذه المنطقة ـ السند ـ هي الأخرى كانت، مؤخراً، قد أصبحت محمية مغولية. وفي أعقاب عودته الظافرة إلى أوتشش ومُلْتان سنة 651 هـ / 1254م، كان كوشلوخان قد أفاد من المساعي الحميدة لشمس الدين محمد كرت الهروي، لعرض ولائه وخضوعه، وكان قد قبل بوجود مقيم (**شحنة**) مغولي. وحين أخفق كوشلوخان وحلفاؤه في الاستيلاء على دلهي سنة 655 هـ / 1257م، تحول إلى أسياده المغول. ما لبث استجداؤه المساعدة من هولاكو ـ وقد تم، حسب كلام الجوزجاني، شخصياً ـ أن تمخض عن استجابة مباشرة. ففي شتاء 655 هـ / 1257 ـ 1258م توغل سالي نويان في السند، بقوة، وأجهز على تحصينات مُلْتان؛ وربما قامت قواته، أيضاً، بمحاصرة قلعة بهكّر في إحدى جزر الإندوس[43]. وعلى الرغم من أن جيش السلطان خرج من دلهي، فإن موقفه لم يكن إلاّ موقفاً دفاعياً خالصاً، على ما يبدو. ومن الواضح، أن الحكومة كانت حريصة على عدم استفزاز المغول. وفي صفر من سنة 657 هـ شباط / فبراير 1259م نُقل شيرخان إلى مهمة موزعة متمركزة حول بهايانا التي كانت خاضعة لإدارة نصرت خان، الذي حل محله في تبرهند، ويعزو الجوزجاني المبادلة، صراحة، إلى الحاجة لدرء

---

(42) TN ,I، 489 (تر. 700)، يقال إن لاهور كانت تعتبر إقطاعاً له.

(43) المصدر نفسه، I، 494، وII، 76 (تر. 711، 844)؛ عن إذعان كوشلو، انظر II، 38 ـ 40 (تر. 784، 786). بهاكّار: سيفي، 250 ـ 257. تعاملات كوشلوخان مع المغول ربما جاءت مرتبطة مع سفارة من «أحد سلاطين الهند» رافقت بعثة أوروبية غربية في المراحل الأولى من سفرته من بلاط مونغكه في تموز ـ آب 1254م (وإن كان هذا قابلاً بالمثل لأن يشير إلى شيرخان): وليم الرويبرتوكي، «مسار رحلة»، XXXVI، 3، في آ. فان دن وينغايرت (محرراً)، **سينيكا فرانسيسكانا**، I، **ايتنبرا إن ريلاسيونيس فراتوروم مينوروم سايكولي** XIII، إتXIV (قوارتشي ـ فيرنزه، 1929)، 306؛ تر. ب. جاكسون ود. أو. مورغان، **رسالة القسيس وليم الرويبروكي**، HS، سلسلة ثانية، 173 (كامبردج، 1990م)، 247 وهـ. 2.

الصراع على الحدود، مع كوشلوخان على ما يبدو[44]. أما الانطباع بوجود موقف استرضائي، يتصاعد جراء إخفاق قوات دلهي المستمر في التصدي العملي للمغول خلال هذه الأشهر، فيما ظل دائباً على اجتياح أراضي السلطان.

في الوقت الذي كتب فيه الجوزجاني، كان المغول قد باتوا مسيطرين على «مجمل أراضي طوران والشرق كلها». ففي كل مكان «من حدود الصين وتركستان وما وراء النهر وطخارستان وزاول [ستان] وغور وكابُل وغزنين والعراق وطبرستان وحران وأذربيجان والجزيرة والأنبار وسيستان ومكران وكرمان وفارس وخوزستان ودياربكر والموصل، وصولاً إلى أطراف حدود الروم والشام» كان قد جرى إزالة الحكام المسلمين[45]. وعلى امتداد العقدين الماضيين، كانت الأقاليم التي تدين بالولاء لسلطان دلهي، قد تقلصت بصورة درامية مذهلة، تحت تأثير الزحف المغولي. كانت عمليات إلتتمش ضد أعوان الخوارزمشاه، وقد أتينا على ذكرها من قبل، قد أدت إلى وضع عدد من المواقع الحصينة الواقعة بين جهيلام وراوي تحت سيطرته. يورد الجوزجاني في قائمة فتوحاته، كلاً من كوجاه (كوجرات الحديثة) وناندانا وسودرا وسيالكوت، معتبراً الأوليين بَلْدتين حدوديتين (سرحد)[46]. غير أن المغول، كانوا قد باتوا، في عهد رضية، محتلين مساحات واقعة خلف نهر تشاناب، وهو السبب المؤكد الذي حال دون تمكين كبير خان المتمرد، لدى مطاردته شمالاً من قبل قوات رضية سنة 637 هـ / 1239م، من التراجع والانسحاب إلى ما هو أبعد من «حدود سودرا»[47]. ولدى عودة الأمير

(44) TN ,II، 44 (تر. 794).

(45) المصدر نفسه، II، 90 ـ 91 (تر. 870 871، 879 ـ 885.

(46) المصدر نفسه، II، 22، حيث يقدم إلتتمش الإقليمية كليهما إقطاعين.

(47) المصدر نفسه، II، 6 (تر. 726 ـ 727).

المرتد، جلال الدين مسعود، بفضل المساعدة المغولية في حوالى 650 هـ / 1252م، كانت لاهور وكوجاه وسودرا خاضعة للمغول، كما رأينا، كما كانت جاجْنَر تُعْتَبر منطقة حدودية[48]. لم يشكل، حتى ارتداد جلال الدين، سوى نكسة عابرة، لأن أسلوب الجوزجاني يفشي حقيقة، أن إقليم السند كان واقعاً خارج ممتلكات سيده ناصر الدين محمود شاه[49]، نتيجة لحملات سالي نويان. فالمغول المسيطرون، عبر أتباعهم الدائرين في فلكهم، على بنبان وسلسلة جبال الملح ووادي الإندوس الأوسط والأعلى، باتوا الآن يهددون قلب سلطنة دلهي. وفي وصفه لأحداث أواخر خمسينيات القرن الثالث عشر، يشير الجوزجاني، مرتين، إلى تبرهند بوصفها «الحدود»[50]. إنها المنطقة الحدودية الإسلامية، مثلها مثل إقليم السند ولاهور وجهات **(طرف)** نهر بياه، التي كان المغول يغيرون عليها مع حلول سنة 656 هـ / 1258 م؛ وحين تبادل نصرت خان إقطاعه مع شيرخان في السنة التالية، حصل على مناطق سيطرة (سرحدها) وصولاً إلى مخاضات نهر بياه؛ ثم ما لبث المغول أن أقدموا على عبور البياه، في غضون السنوات الأولى من عهد بلبان[51].

في ظل هذه الظروف، كان **الحديث** (النبوي) القائل، إن المد المغولي لن يلبث أن يتحول إلى جَزرٍ بعد أن يكون قد وصل إلى لاهور[52]، يوفر قدراً من الراحة والطمأنينة. لم تشهد ممالكهم أي دليل يشير إلى التقلص مع حلول سنة 1260 م. أضف إلى ذلك، أن تقدم المغول اعتُبر نذيراً بانتهاء الزمن. فقد رآهم

(48) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي TAF 57، النص الفارسي .Taf، 22 (انظر هـ: 40 أعلاه)؛ قاشاني، 185.

(49) TN ,II، 86 (تر. 860).

(50) المصدر نفسه، II، 44 (تر. 793، 794).

(51) المصدر نفسه، II، 43، 79 (تر. 788، 850 ـ 851). TFS، 81.

(52) المصدر نفسه، II، 166 (تر. 1336 ـ 1142).

عوفي طلائع جَحافل ياجوج وماجوج[53]. أو لم يقم عددٌ من المؤلفين بنقل بلاغ الرسول القائل بأن علامة نهاية الزمن، ستكون متمثلة باجتياح «الأتراك»[54]؟ أما دعاء الجوزجاني المتكرر راجياً الله أن يمكّن سلطنة ناصر الدين محمود شاه من الصمود إلى يوم البعث (تاقيامي قيامات)[55] فلربما كان أكثر من مجرد مبالغة في التملُّق والتزلف. فالأشياء الأخيرة لم تكن، بالنسبة إلى مسلمي جيله، بعيدة[56]. ولدى سرده لقصة احتلال المغول لأوتشش ومُلْتان سنة 655 هـ / 1257 ـ 1258م، لا يتردد المؤرخ في السماح لقلقه بأن يتسلل، في إحدى المراحل، عبر خُصْلة نسيج روايته الواقعية للأحداث، فيما عدا ذلك[57].

وبالتالي، فإن من شأن مبادرة المغول، بدورهم، إلى اعتماد موقف أكثر ميلاً إلى التصالح، في أثناء الصلات الأخيرة التي سجلها الجوزجاني، أن تبدو منطوية على شيء من المفاجأة. فرداً على مقاربة، غير مباشرة، صدرت عن ناصر الدين محمد بن حسن قرلُق، الذي حكم بنبان باسم المغول، كان أُلُغ خان بلبان قد أوفد (حاجباً) رسولاً محملاً إياه موافقته على قيام تحالف نَسَبٍ ومصاهرة بين عائلتيهما. بات مضمون الرسالة معروفاً لدى كوشلوخان، الذي نبَّه المغول، فاضطر ناصر الدين محمد أن يوعز لموفده، بأن يتابع السفر إلى بلاط هولاكو في إيران؛ غير أنه لم يفعل هذا، كما يقال، إلاَّ بعد إضافة رسائل أخرى زوَّرها بنفسه، ولكنها بادية كما لو كانت صادرة عن أُلُغ خان. ورحّب هولاكو بالمبعوث في شهر ربيع الثاني من سنة 658 هـ / آذار / مارس 1260 م. ويبالغ الجوزجاني في وصف المهرجان الذي تم، خارج دلهي، احتفالاً

(53) JH، مخطوطة BL، مسلسل 4392، ملف 127 ب، مقدماي ـ ي ياجوج وماجوج.

(54) TN, II، 92 ـ 94، 98 (محذوف من ترجمة رافيرتي).

(55) المصدر نفسه، I، 422، 450، 462، وII، 89.

(56) انظر أيضاً، I، 440 وII، 48 (تر. 597، 800).

(57) المصدر نفسه، II، 40 (تر. 786) للاطلاع على تحليل مفيد لنظرة الجوزجاني إلى المغول، انظر، د. أ و. مورغان، «المؤرخون الفرس والمغول» في مورغان (محرراً) **الكتابة التاريخية الوسيطة**، 111، 113.

بالمبعوثين المغوليين، واستعراضاً لعضلات السلطنة العسكرية. يقال إن هولاكو أصدر أمراً لسالي نويان قضى ببتر حوافر أي جواد مغولي يدخل الأراضي الخاضعة لسلطة محمود شاه[58].

يوحي ما يقوله الجوزجاني، بأن ناصر الدين محمداً توخى تمرير رد أُلُغ خان، بوصفه دليل خضوع للمغول وصولاً، إلى نيل ثقتهم على أنه الوسيط. غير أن الجدول الزمني للسفارة المغولية، قد يكون منطوياً على مغزى لم يكن ظاهراً بالنسبة إلى الجوزجاني. فممثلو هولاكو كانوا، سلفاً، قد وصلوا إلى ضواحي دلهي، حين انطلق أُلُغ خان بلبان إلى حملة وجيزة ضد ميوس (ميوات) في صفر 657 هـ شباط / فبراير 1260م[59]. من المؤكد أن هولاكو كان قد سمع نبأ وفاة أخيه الخاقان، لدى تسيير البعثة (أواخر سنة 657 هـ / 1259م)، ولربما سَلَق سِلْماً، على عجل، مع السلطنة، ليكون حراً أثناء انشغاله بإنجاز فتح العراق والشام، مترقباً خلافة مثقلة بالنزاعات. أما حقيقة أن بركه أيضاً كان، بالمقابل، على اتصال دبلوماسي مع دلهي في هذه السنة بالذات، فقد دفعت إلى السطح، الفكرةَ القائلة بأن الحاكمَيْن كانا منطلقين من دافع تنافسهما، المتمثل بالتماس أحدهما تأييد أخٍ مسلم في سبيل تطويق الإمارة الإيلخانية، وبرغبة الآخر، في ضمان حياد السلطان[60]. ممكن أيضاً، وبدرجة موازية، بالطبع، أن تكون قصة الجوزجاني قناعاً يخفي عرضاً صادقاً للولاء من جانب أُلُغ خان، عرضاً جرى تصميمه لكسب الوقت لصالح السلطنة. ومن شأن مثل هذا السيناريو، أن يقدم تفسيراً أفضل، للأسلوب المتشدد الذي اعتُمد في منع سالي من اقتحام أراضي دلهي، بما يذكّر، بامتياز، عدم الانتهاك

(58) TN, II، 83 ـ 88 (تر. 856 ـ 863).

(59) Tn, II، 79 (تر. 851).

(60) عزيز أحمد، «الضغط المغولي في أرض غريبة»، CAJ، 6 (1961)، 183 ـ 184، 185. أوبان، «الجذور العرقية»، 81. انظر Tn, II، 218 (تر. 1292)، عن سفارة بركه إلى دلهي.

الممنوح، مثلاً، إلى أرمينيا الصغرى، حين أصبح ملكُها عميلاً مغولياً سنة 1254م[61]. أما أن المغول لم يتوّجوا تقدمَهم المدهش، على امتداد العقد الماضي، بفتح المزيد من الأراضي التابعة لدلهي، فيعود، في المقام الأول، إلى نشوب الصراع داخل العائلة الحاكمة للأمبراطورية سنة 1260 م.

بروز النغودريين على المسرح

ثمة ظروف خاصة حرمت هولاكو من قابليته لتوجيه عمليات عسكرية ضد سلطنة دلهي، في المناطق المجاورة للهند. فبعض القوات الجوشية نَجَت من الذبح، على يد قوات هولاكو، ولاذت بسورية ومصر، طلباً للحماية والملجأ لدى السلطان المملوكي[62]. في حين فر البعض الآخر إلى أفغانستان الحالية للالتحاق بركب نغودر، الذي كان يتولى قيادة إحدى الفصائل الجوشية هناك. غير أن قوات هولاكو، ما لبثت أن هزمت جيش نغودر، الذي تحرك شرقاً واستولى، كما يقول رشيد الدين، على البلاد الممتدة «من جبال غزنة وبيني غاو إلى مُلتان ولاهور»[63]. هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر بيني غاو، التي هي بقعة وثيقة الارتباط بالنغودريين، والمعروف بأنها كانت واقعة في مكان غير بعيد عن شال (كويتا الحديثة)[64].

من المؤسف ألاّ تملك المصادرُ الإيرانية مزيداً من المعلومات عن

---

(61) كيراكوس غانجاكجي، **باتموتيون هويوتش**، تر. روبرت بدروسيان، **تاريخ كيراكو غانجاكيتس عن الأرمن** (نيويورك، 1986م)، 304؛ انظر أيضاً ج. آ. بويل، «رحلة هتوم الأول، ملك أرمينيا الصغرى إلى بلاط الخان الأعظم مونغكه»، CAJ، 9 (1964م)، 181.

(62) جاكسون «تفكك»، 232 ـ 233. آيالون، «وافديه».

(63) سيفي، 270 ـ 272، مع تاريخ 660 هـ / 1262م، وإن يكن تاريخ رشيد الدين 661 هـ / 1263م أقوى احتمالاً. JT, II، 39 (تر. بويل، 123/ تر. فيرخوفسكي، 82)؛ وقارن أوبان، «الجذور العرقية»، 80 ـ 81، لإلقاء الضوء على النص.

(64) سيفي، 270، عن شال اسماً بديلاً لكويتا، انظر XXI, IC، 13، 20. تماثل بيني ـ ي غاو مع شاشغاو (على بعد 15 ميلاً إلى شمال شرق غزنة في الطريق إلى كابول)، الوارد عند بويل، «القادة المغول»، 247 هـ. 74، يجب، بالتالي، استبعاده.

مجيء النغودريين أو القاراؤونيين، كما عُرفوا أيضاً، غير أن الحكاية المُغَرْبَلَة، التي التقطها ماركوبولو في كرمان بعد بضع سنوات، قد تلقي بعض الضوء على الموضوع. إنه يجعل عصابة نغودر تمر عبر بدخشان وباشاي وكشمير، حتى تصل إلى «مدينة دليفار»، التي أخذوها عنوة من حاكمها، «آسيدين سولدان»، والتي ما لبثت أن أصبحت قاعدة نغودر[65]، حسب مزاعم الزاعمين. تبدو الرواية البولوية هنا، شديدة الاضطراب والتشوش، وقد لفتت أنظار الكثير من المعلقين المتعاقبين[66]. ليس ثمة إلاّ القليل من الشك، في أن «آسيدين» عند بولو، هو عز الدين كوشلوخان[67]، رغم أن «دليفار» التي اعتبرت، بصورة مقنعة، متماهية مع لاهور («سيتا دي ليفار»)، تنطوي على شيء من الصعوبة[68]، لأن كوشلوخان، الذي حكم في السند، لم يُعْرَف عنه، قط، أنه كان صاحب تلك المدينة؛ وتاريخ منطقة لاهور، بين تاريخ هجرها من قِبَل جلال الدين مسعود، وتاريخ استعادتها من جانب بلبان حوالى 666 هـ / 1268م، صفحة بيضاء. فالمؤلف الآخر الوحيد، الذي

---

(65) ماركو بولو، **لو ديفيزمان دو موند**، تر. آ. سي. مول وبول بليو، **وصف العالم** (لندن، 1938م، جزءان)، ا، 121؛ تر. هنري يول، **كتاب لسير ماركو بولو البندقاني**، طبعة جديدة، هـ. كوردييه (لندن، 1903 ـ 1920، 3 أجزاء)، ا، 98.

(66) يول، المصدر نفسه، ا، 103 هـ. ، أصاب إذ لاحظ أن بولو يخلط بين حدثين مختلفين تماماً، حدث يخص الجنرال الجوشيدي وآخر، وقع بعد بضع سنوات، يتعلق بأمير جغتائي (يدعى تغودر في الحقيقة) كان فعالاً في منطقة القفقاس. انظر أيضاً، پليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 190 ـ 196. أما الخلط بين نغودر وتغودر فيتكرر في شبولر، **المغول في إيران**، 62، ووفيك، **الهند** اا، 206، 208. يبقى مقال السير آرول شتاين، «رواية ماركو بولو لقصته اقتحام مغولي لكشمير»، المجلة الجغرافية 54 (1919م)، 92 ـ 103، بحاجة إلى إعادة نظر ومراجعة.

(67) پليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 52، رغم الاتفاق مع «الفكرة العامة التي تقول إن هذا يجب أن يكون بلبان» (آسيدين ـ غياث الدين)، فقد بقيت الشكوك ولوحظ أن الاسم يبدو أقرب إلى «عز الدين».

(68) يول، ا، 104 ـ 105 هـ. پليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 626، كان، من جهة أخرى، ما يزال مستعداً لتصور دلهي: على الرغم من أن المصدر نفسه، 195 ـ 196، ينظر إلى «دلي» و«مالابار» في طبعة راموسيو بعين الشك.

يتحدث عن مصير كوشلوخان، هو عصامي، الذي يزعم أنه خسر مُلْتان أمام بلبان، واضطر للإقامة في بنبان، رغم أنه جلب المغول إلى السند في مناسبتين لاحقتين[69]. ومن جهة أخرى، ثمة شعراء معاصرون يمدحون ابن كوشلوخان، ناصر الدين محمداً، الذي لم يكن، على ما يبدو بوضوح، لاجئاً منفياً لا حول له ولا قوة، بل كان أميراً ذا شأن، تولى حكم أوتشش ومُلْتان لبضع سنين[70]. ومما لا شك فيه، أن مسألة كوشلوخان وأسرته الحاكمة، مُقَدَّر لها بأن تبقى دون حل.

بالتزامن مع هذه الاضطرابات، ثمة شخصيتان كانتا قد لعبتا دوراً قيادياً في الأحداث الجارية على الحدود، على امتداد العقد السابق، تعرضتا بالمثل للاستئصال. فقوات ألوغو، عندما كان ذلك الأمير ما يزال متحالفاً مع أريغ بوكه، ألقت القبض على سالي وأخذته أسيراً إلى ما وراء النهر[71]. يُعزىٰ سقوط ناصر الدين محمد بن حسن قرلُق في المصادر الإيلخانية، إلى دسائس شمس الدين محمد كرت الهروي، مع آخر غير معروف اسمه «خوداوندزاده برغوندي»؛ جرى استدعاؤه إلى بلاط هولاكو، مع عدد معين مع الحكام المحليين الآخرين، وتم إعدامه بتهمة عدم الإخلاص. ومن العواقب المترتبة على إزاحته، هروب الزعيم الخَلْجي وسلطان دلهي المستقبلي، جلال الدين الذي كان قد قدم خدمته إلى الهند[72].

---

(69) FS، 154 ـ 155 (تر. 278 ـ 280).

(70) صذيقي، «معلومات تاريخية»، 66. عميد سُنّامي، أورده بداؤوني، **منتخب التواريخ**، تحقيق م. أ. علي (كالكوتا، 1864 ـ 1869م، 3 أجزاء)، ا، 110، 121. انظر أيضاً الإشارة الوجيزة في TFS، 66.

(71) وصّاف، 12. يقول رشيد الدين إن آلوغو أرسل جيوشاً إلى سمرقند وبخارى وغيرهما من مناطق ما وراء النهر، رغم إضافته المشوّشة أنه هاجم ممتلكات بيركه (مؤيد لأريغ بوكة مثل آلوغو): JT, II، 403 ـ 404 (تر. بويل، 257 ـ 258/ تر. فيرخوفسكي، 163). انظر بارتولد، **تركستان**، 488.

(72) وصّاف، 311، JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Taf 57، النص الفارسي .Taf، 23 (الترجمة الألمانية 48 ـ 49 تقول «مماليك» خطأ بدلاً من ملوك. قاشاني، 186. قارن أيضاً صدّيقي، «مملكة القرلغ»، 85 ـ 86.

المغول والهند بعد سنة 664 هـ / 1266 م

انطلاقاً مما نعرفه عن حقبة ناصر الدين محمد شاه، مفاجئٌ أن نجد أمير خسرو قد جعل، بعد بضعة عقود، في إيجازه لتاريخ السلطنة الذي قدَّم به كتابه **ديوال راني**، بداية الإغارات المغولية متزامنة مع عهد بلبان[73]. غير أن هذه السنوات شهدت بالفعل، إذا صدَّقنا برني، تجدداً للضغوط المغولية على البنجاب. وهو يحمل مسؤولية ذلك لواقع أن خلفاء شيرخان، الذين كانوا يتحكمون بالإقطاعات الواقعة، على طريق الزحف المغولي، وكانوا قد دسوا له السم بأمر من بلبان، لم يكونوا مثله من حيث المؤهلات[74]. حتى إذا كان هذا صحيحاً، فإن الإغارات المغولية، ربما لم تكن سوى انعكاس لحقيقة، أن النغودريين كانوا قد باتوا يشنون حملات من قواعد أقرب، من تلك التي شغلها جيش سالي نويان. ومن شبه المؤكد، أنهم أغاروا على أوتشش ومُلْتان في السنة التي وضعتها إحدى الروايات اللاحقة سنة وفاة الشيخ التششتي فريد الدين غانج ـ شيكار (664 هـ / 1265 ـ 1266م)[75]. ما لبثت الهجمات السنوية أن أضحت النموذج المتبع على أية حال[76]. وفيما بعد، يؤكد برني أن المغول تقدموا، بانتظام، حتى روبار على السوتلج الأعلى[77]. كانت استعادة لاهور هي عملية الاسترجاع الوحيدة، التي استطاع بلبان إنجازها، في الشمال؛ غير أن ما يلفت النظر، هو أن أي ذكر لها ممنوحةً كإقطاع ثانية، لا يرد قبل القرن الرابع عشر.

---

(73) DR، 50.

(74) TFS، 65 ـ 66. يتناقض تحليل برني مع ما نعرفه عن تخصيص الإقطاعات حين كتب الجوزجاني، حين جرى نقل شيرخان من تبر هند إلى بهايانا.

(75) أمير حسن دهلاوي، **فوائد الفؤاد**، تحقيق م. لطيف ملك (لاهور 1386 هـ / 1966م)، 373 ـ 374.

(76) WH، مخطوطة IOL الفارسية، 412، ملف 90 أ، 134 ب .TFS، 82؛ وانظر أيضاً 50 ـ 51، حيث يوجد كلام صادر عن بلبان يشير إلى غزوات سَنَوية.

(77) المصدر نفسه، 82، مع القراءة المشوّهة لـ ء ز و ب ر: نص رقمه هوديفالا، **دراسات**، II، 85 ـ 86. عن روبار، «بلدة ذات عراقة محترمة»، واقعة بزاوية 30 درجة و58 دقيقة شمالاً و76° 32 شرقاً، انظر IG، XXI، 339.

كان السلطان بلبان قد وضع مهمة حراسة الحدود الغربية، على كاهل نجليه: مُنح الأكبر محمد السند، وتم وضع الأصغر، بغراجان محمود، في سامانا. كان الأميران يتقاسمان مسؤولية الدفاع ضد المغول، مع **الباربك**، اختيار الدين بيغبارس، وبرني يثني على فاعلية ونجاح هذه الترتيبات[78]. غير أن بغراخان ما لبث، حوالي سنة 680 هـ / 1281 ـ 1282م، أن نُقل إلى لخناوتي بصورة دائمة. ربما أدى هذا إلى إضعاف الدفاعات الحدودية في السنوات الأخيرة من حكم بلبان، لأن عصامي، يسجل غزواً شنته عصابتان مغوليتان، تمكنتا من رد القوة التي أرسلها محمد لردهما على أعقابهما[79]. وكانت ضربةً أشد ستقع، في شتاء 683 هـ / 1284 ـ 1285م، حين هُزم محمد نفسه، وقُتل في المعركة مع القائد المغولي تيمور[80]. وحسب الرواية الأكثر تفصيلاً، لقصة الاشتباك الواردة في **مرثية** أمير حسن دهلوي التي حفظها سرهندي، فإن المعركة جرت في باغي نير، القريب من ملتقى نهري رافي ودهند الكبير، يوم 29 ذي الحجة سنة 683 هـ 8 آذار/ مارس 1285 م. أما صديق أمير حسن وزميله، الشاعر أمير خسرو، الذي أخذه المغول أسيراً لفترة قصيرة، فقد خلّد ذكرى الكارثة في كتابه: **وسط الحياة**[81].

عاد تيمور إلى غزو الهند ثانية، وزرع الدمار والخراب في المناطق الممتدة من لاهور إلى سامانا أوائل سنة 686 هـ / 1287م، حين كان السلطان

---

(78) TFS، 80، 81.

(79) FS، 171 ـ 173 (تر. 299 ـ 300).

(80) وصفُ تَمُر كـ «أحد كبار أمراء جنكيز، وملكاً لكل من هراة وقندهار وبلخ وباداخشان، وغزنين وغور وباميان» ليس موجوداً في أي مصدر سابق على فيريشتا (I، 143)، ويثير الشك بالتالي: غير أن عزيز أحمد يقبله، **التاريخ السياسي**، 285.

(81) مقتبس بإطناب من قبل بداؤوني، I، 138 ـ 155 (ثمة مقتطفات مطولة في ميرزا، **حياة وأعمال**، ص 56 ـ 59). انظر أيضاً TFS، 109 (مع سنة 684 هـ)؛ FS، 175 ـ 181 (تر. 304 ـ 311). التاريخ يأتي به أمير حسن (مقتبس في TMS، 45) وخسرو في WH، مخطوطة IOL 412، ملف 133 أ، 134 ب (وارد في بداؤوني، I، 147). أمّا الموقع الوارد في WH فيتأرجح بين حدود مُلْتان (ملف 78 أ) ومكان قريب من لاهور (ملف 132 ب).

الجديد، معز الدين كيقباد، حفيد بلبان، قد بدأ يتحرك شرقاً، تهيئة للمجابهة مع أبيه بغراخان في أوَذ. لدى اقتراب الباريك خان جهان شاهِك، انسحب المغول دون اشتباك، وجرى تعقُّبهم، كما يقول سرهندي، إلى سفوح جبل جامّو[83]. غير أن تفسخ نفوذ السلطان، وتمركز السلطة بين يدي نظام الدين أديا إلى الإجهاز على الكثير من الأمراء والنبلاء، بمن فيهم شاهك (أزدرخان وأمير مُلْتان الآن)[83]. ويبدو أن مسؤولية الدفاع عن الحدود آلت بعد ذلك، بصورة رئيسية، إلى أمير الخَلْج جلال الدين فيروز، الذي كان بلبان قد جعله مُقْطع كايتال ونائب سامانا[84]. وعلى الرغم من أن جلال الدين يُصوَّر على أنه محارب مخضْرَم على الجبهة المغولية، لدى اعتلائه العرش سنة 689 هـ / 1290م، فإننا نكاد لا نعرف شيئاً عن مآثره. يبادر أمير خسرو، ببساطة، إلى تقويل السلطان الجديد عبارات تشير إلى حملات ضد مغول «غزنين وخرمان وبيرجند»، ويلمّح لاحقاً إلى اعتزامه الزحف من مُلْتان نحو غزنة؛ ونجد برني حتى أقل تحديداً[85].

بُعَيْد جلوسه على العرش، تفرغ السلطان، الذي كان قد أوكل أمْرَ إقطاع مُلْتان لابنه الثاني، إركلي خان، في زحمة انتصارات فترة دامت اثني عشر شهراً، جرى تخليد ذكراها في مفتاح الفتوح لأمير خسرو، للزحف ضد المغول. كانت هذه الحملة التي عاد منها إلى دلهي مطلع 690 هـ / 1291م، بعد غياب شهر واحد، موجهة ضد منطقة يتعذر التعرف عليها[86]. وما لبث،

(82) QS 62 ـ TMS65 . 54.

(83) TFS، 134.

(84) المصدر نفسه، 170، 194، 195.

(85) MF، DRB .، 51، TFS، 169. قد تكون بيرجاند هي نفسها «بارغوند» كاسم آخر لنغار: هوديفالا، دراسات، I، 168؛ آ. د. هـ. بيفار، «نغار وإيرياب: موقعان إسلاميان غير شهيرين على الحدود الشمالية الغربية لأفغانستان وباكستان». إيران، 24 (1986م)، 131 ـ 138.

(86) MF، 22، 23. تدعى المنطقة ب ا ل ا غ ت ر ك: والقراءة نفسها موجودة في مخطوطة IOL الفارسية، 51، ملف 490 أ (هامش)، و412، ملف 788 ب (هامش).

على ما يبدو، أن أدت إلى استثارة الهجوم المغولي التالي سنة 691 هـ / 1292م، بقيادة الأمير عبد الله. عَسْكَر السلطانُ في موقع يدعوه كل من برني وعصامي، «بر رام»، حيث كان نهر (السوتلج؟) يفصل بين الجيشين. وبعد بعض المناوشات بين الطليعتين، تم التوصل إلى إعلان هدنة. تبادل جلال الدين وعبد الله، بعض الرسائل الودية والهدايا، ثم انسحب الأمير المغولي تاركاً، وراءه، جماعة من أتباعه اعتنقت الإسلام، بقيادة قائد يدعى ألوغو، أسكنها السلطان في أماكن مجاورة لدلهي(87). وبعد ذلك، لا نعود نسمع عن أية عمليات اجتياح أخرى، خلال عهد جلال الدين وفي أعقاب اغتيال السلطان العجوز سنة 695 هـ / 1296م على يد ابن أخيه علاء الدين، ما لبث، ولداه اللذان تمكنا من الصمود لبعض الوقت، في مُلْتان، أن أُجبرا على الاستسلام، وقد تم إعدامهما لاحقاً. وقد أدت هذه الأزمة إلى إضعاف دفاعات السِّنْد كثيراً، وهو وضع لم يتأخر المغول في استغلاله، كما سنرى في الفصل الحادي عشر.

النغودريون وجيرانهم المغول

كان انهيار الوحدة المغولية بعد موت مونكه، قد ثبَّت على المناطق الحدودية الهندية، كتلةً من الجيوش المغولية غير الموالية لأي من الفرعين الإيلخاني والجغتائي؛ وما لبثت المنطقة أن تحولت إلى سلسلة معسكرات، لتجمعات مستقلة أصغر، غير ذات قدرة على الوصول إلى استغلال موارد الإمبراطورية المغولية. كان ضعف النغودريين ظاهراً. لكنهم ظلوا على درجة من القوة كافية للحيلولة دون تعريض السلطنة للخطر وهكذا ظلوا حاجزاً آخر في الدفاع الهندي، أمام النزعات التوسعية لدى مغول إيران، أو ما وراء النهر.

(87) TFS، 218 ـ 219. ترد رواية مختلفة لهذه الحادثة في FS، 209 ـ 214 (تر. 372 ـ 379)، حيث ينسحب المغول بعد معركة غير حاسمة مع شقيق جلال الدين، ملك خاموش.

فقد سمع، ماركوبولو، عن نغودر، بأنه «يشن الحرب على جميع التتر المقيمين حول مملكته»؛ ومن المؤكد أن النغودريين اشتهروا بالنهب والسلب وقطع الطرق، كما ذاعت سمعتهم السيئة، بوصفهم أناساً غير قابلين للخضوع لأي حاكم[88].

أدى وصول هؤلاء إلى المناطق الحدودية الهندية إلى دق إسفين بين الهند والأقاليم الخاضعة لسلطة هولاكو[89]. فالمصادر الإيلخانية تتحدث عن إغارات نغودرية على فارس وكرمان، مؤكدةً أن أهالي إيران عاشوا في رعب من مثل هذه الإغارات، حتى انتهاء عهد الإيلخان آرغون (المتوفى سنة 690 هـ / 1291م)[90]. وحين بادر الخان الجغتائي برق بغزو خراسان سنة 668 هـ / 1269م ـ 1270م، حاول ابن هولاكو وخلفه: آباقا صده، عارضاً عليه غزنة و«كُرّماني ـ بنبان»[91] ـ وهما منطقتان لم تكونا في جعبته. ربما لم يكن الإيلخانيون شديدي الاهتمام بهذه البقعة، ومن الممكن أن يكونوا قد فكروا، في هذه المرحلة، بترك أمر إخضاعها للجغتائيين. لا يعني ذلك، أنهم لم يبذلوا جهوداً في سبيل ممارسة نوع غير مباشر من النفوذ على النغودريين، أو بتسيير حملات عقابية ضدهم. فكلٌ من هولاكو وآباقا، أرسل عدداً من القادة ضد نغودر وقواته[92]. وفي أثناء الهجوم على خراسان، هرب عدد غير قليل من الأمراء الجغتائيين إلى الإيلخان، وكان آباقا وراء ذهاب أحدهم: مبارك

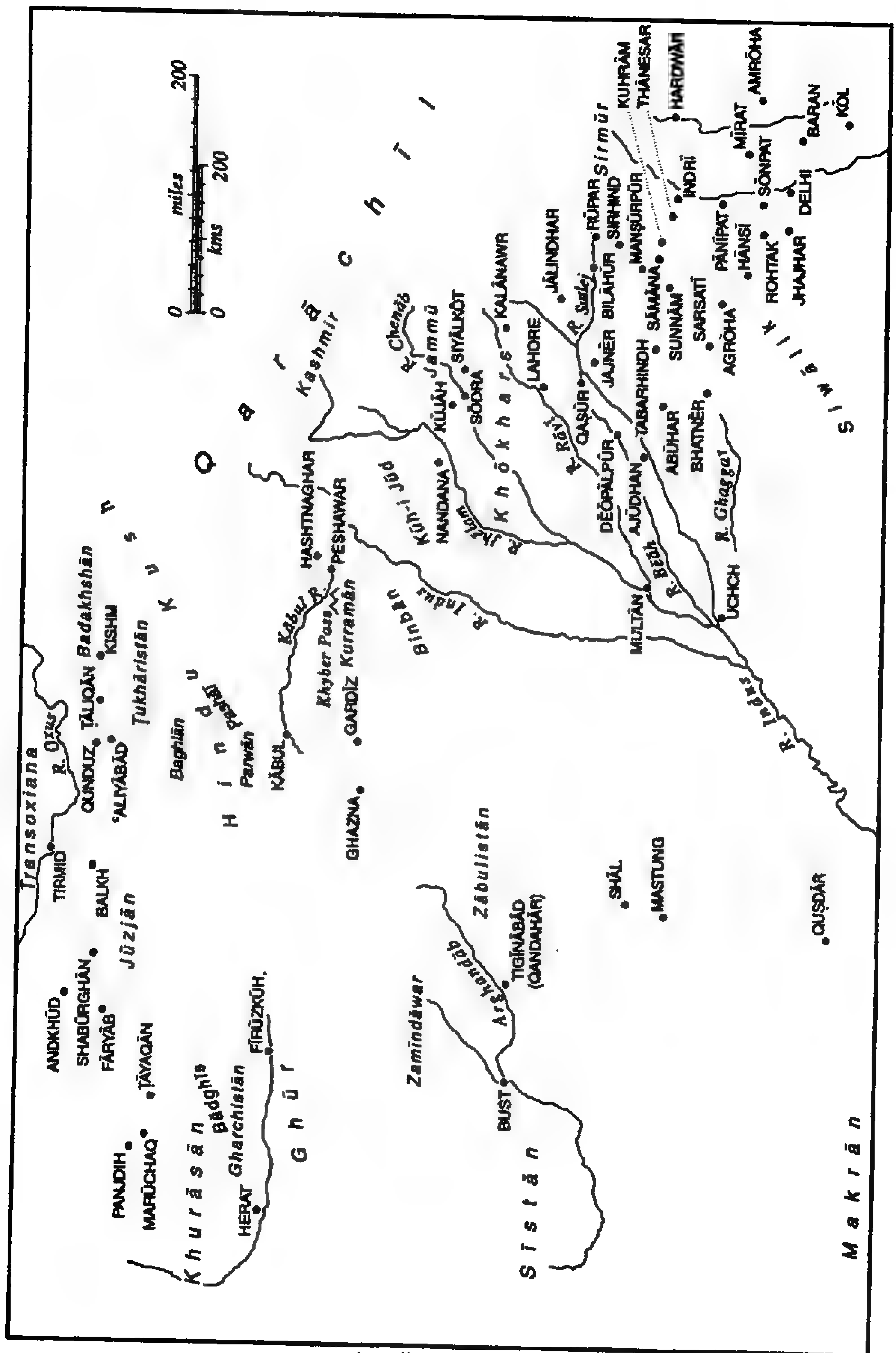
(88) ماركو بولو، تر. مول وبليو، I، 122 / تر. يول وكورديه، I، 99. سيفي، 432.

(89) تخفق نظرة يان القائلة بأن الحاجة الدائمة للدفاع عن الحدود الأخرى هي التي منعت ورثة هولاكو من تنفيذ مطالبتهم بأفغانستان الحالية، في أخذ الأوضاع التي كانت قد نشأت هناك بعين الاعتبار.

(90) JT، III، 151 ـ 152 (تر. آرندز، 94). ابن زاركوب، **شيراز ـ نامه** (حوالى 1344 هـ) تحقيق بهمان كريمي (طهران، 1932م)، 66 / طبعة. إسماعيل واعظ جوادي (طهران، 1971م)، 91 ـ 92. وصّاف، 199 ـ 203.

(91) JT، III، 122 (تر. آرندز، 78)؛ وقارن سيفي، 308.

(92) أوبان «الجذور العرقية» (تر. 80 هـ. 3)، للحصول على إشارات نصفية.



الحدود مع المغول

شاه، لمواجهة «جيش نغودر على حدود غزنين»[93]. غير أن موت مبارك شاه سنة 674 هـ / 1275 ـ 1276م، فيما كان يقود هجوماً على إقليم كرمان، يوحي بأن ولاءه للإيلخان كان سطحياً[94]. وبالمثل، فإن آباقا كان قد ائتمن جغتائياً آخر يدعى بوجي، مكلّفاً إياه بتولي إحدى القيادات بين صفوف النغودريين، ويبدو أن ابنَ بوجَي هذا، عبد الله الذي سيغزو الهند لاحقاً، قد خلفه عند الوصول إلى هذا المنعطف[95]. وفي سنة 678 هـ / 1279م، قاد آباقا نفسه جيشاً، وصل به إلى هراة، انتقاماً لغارة نغودرية على كرمان وفارس، حيث حصل على ولاء أبناء مبارك شاه، فيما تم إرسال ابنه هو: آرغون، لمتابعة المسيرة، متوغلاً في غور وغرشستان. وعلى الأثر، تمّ استخدام عدد من الأمراء النغودريين وأتباعهم، لشغل الوظائف الإيلخانية في إيران الغربية[96].

يبدو أن هذه الحملات الإيلخانية كانت ذات أهداف محدودة بشكل صارم. ومن الصعب الدفاع عن الفرضية المطروحة من قِبَل البروفسور يو. إن. داي U.N. Day، والقائلة بأن الفيضان المفاجئ للتجاوزات المغولية المتوغلة في

---

(93) JT، II، 193 (تر. بويل 153 ـ 154 / تر. فيرخوفسكي، 100).

(94) أوبان «الجذور العرقية»، 83. مجهول المؤلف، **تاريخ ـ ي شاه ـ ي قره خيطائيان** (أواخر القرن الثالث عشر)، تحقيق محمد باستاني ـ باريزي (طهران، 1976)، 248 ـ 250.

(95) كرماني، **سمط**، JT49 ،. II، 177، **حاكمي تشاريكي قره أونا بودار حدودي غزنين** (تر. بويل، 144؛ ليس في النص المستخدم التر فيرخوفسكي). شجرة نسب مجهولة المؤلف (عائدة إلى القرن الخامس عشر) بعنوان **معز الأنساب**، مخطوطة BN. . . في JT يبدو أن رشيد الدين يورد هذا الفرع من الجغتائيين مرتين، ولسنا مضطرين أن نفترض كما فعل أوبان («الجذور العرقية»، 84 هـ 10) أن هناك أميرين باسم بوجي. ونرى أن برني يعتبر «عبد الله» حفيداً «لهولاكو» (TFS، 218)، وهذا خطأ أدى إلى تضليل لال، **تاريخ الخلجيين**، 30؛ غير أن من شأنه أن يعكس وعياً بدلهي بأن عبد الله كان معيناً من قبل الإيلخانيين.

(96) JT، III، 152 ـ 153، 252 (تر. آرنذز، 94، 143)؛ قارن أيضاً JT، II، تر. فيرخوفسكي، 100. حول هذه الحملة انظر أوبان «الجذور العرقية»، 85 ـ 86؛ وعن التاريخ اللاحق للفصائل النغودرية المنقولة غرباً، المصدر نفسه، 87 ـ 90.

الهند، منذ حوالى سنة 1285م، يعكس الفوضى التي عَمَّتْ إيران بعد موت آباقا سنة 680 هـ / 1282م[97]. فمغول إيران كانوا مفصولين عن الهند ليس فقط بحاجز النغودريين، بل وبمملكة هراة الكرتية المتمردة أحياناً، فضلاً عن مملكة سجستان شبه المستقلة. عمد خلف آباقا: أحمد، إلى إلحاق تيغين آباد بمنحة مقدمة إلى ملك سجستان سنة 683 هـ / 1284م، وبالفعل فإن سجستان هذه، لم تصبح بعد، موصوفة على أنها تابعة (إيل) للإيلخان في عهد غازان (694 ـ 703 هـ / 1295 ـ 1304)[98]. إن أقصى ما نستطيع قوله، هو أن العمليات الإيلخانية في خراسان الشرقية، ربما أدت إلى تشجيع النغودريين على تكريس قدر أكبر من الاهتمام لإقليم البنجاب. غير أنه من المؤكد أن دوافع أخرى، أكثر محلية، كانت تفعل فعلها. فقيام مالك هراة الكرتي شمس الدين محمد الثاني[99]، باحتلال قندهار سنة 680 هـ / 1281م، كان من شأنه، بكل تأكيد، أن يشكل تهديداً للنغودريين، وربما يساعد، بالتالي، على تفسير التزايد الواضح للضغوط المغولية على سلطنة دلهي، في سنوات بلبان الأخيرة.

أما فيما يخص الجغتائيين، فإن توغل ألوغو داخل حدود الأقاليم الهندية ـ كما حصل لدى الإطاحة بسالي نويان ـ كان، على ما يبدو، ظاهرة مؤقتة. وعلى الرغم من أن أوبان Aubin يؤكد أن «استحالة الإبقاء على الصلة مع القبيلة الذهبية، سرعان ما اضطرت النغودريين لاستبدال أسيادهم في عملية تحولٍ، ما لبثت أن اكتملت حوالى سنة 1270 م»، فإن من حقنا أن نتساءل عما إذا نجح

---

(97) يو. ن. داي «الحدود الشمالية ـ الغربية للسلطنة»، في **بعض جوانب تاريخ الهند الوسيط**، نيودلهي، 1971م)، 43 ـ 44؛ وقارن أيضاً «الحدود الشمالية ـ الغربية تحت حكم سلاطين دلهي الخلجيين»، IC 39 (1963م)، 99.

(98) جعفر بن محمد بن حسن الجعفري، **تاريخ ـ ي يزد**، تحقيق عراج آفشار (طهران 1959م)، 27؛ عن الهبة، انظر بوزوورث، **تاريخ الصفاريين**، 435. وعن مملكة هراة. انظر ت. و. هيغ و ب. شبولر، «كرت» Enc. Isl²؛ أيضاً شبولر، **المغول في إيران**، 129 ـ 133، ومقاله في، **المجتمع والتاريخ**. مقالات تكريماً لكارل أوغوست فيتفوغل (لاهاي، 1978م)، 403 ـ 409.

(99) سيفي، 369 ـ 373: ليس التاريخ فوق الشبهة بالطبع.

الجغتائيون في ترسيخ مرتكزات سلطتهم هنا، في هذا الوقت[100]، بل وحتى في الحفاظ على هذه السلطة، في السنوات المضطربة التي جاءت بعد ذلك. تبقى طبيعة الروابط، إذا كانت هناك أية روابط أساساً، التي استبقاها الأمراء الجغتائيون، الذين قام الإيلخانيون بتنصيبهم في منطقة غزنة، مع شعب (أولوس) الجغتائيين، غامضة. ففي كلامه عن السلالة الجغتائية، يتحدث رشيد الدين، الذي كتب في السنوات الأولى، بالذات، من القرن الرابع عشر، عن «إقليم غزنة وجيش قراؤون اللذين كانت لهما روابط عريقة مع الجغتائيين»[101]. غير أن علينا ألاّ نعوّل كثيراً على مثل هذه الكلام، على ما يبدو. مما لا شك فيه، أن التنظيم السياسي للنغودريين كان مهلهلاً، وتأثير رئيس الأمة الجغتائية ـ مثله مثل تأثير خصمه الإيلخان ـ جاء متبايناً بين وقت وآخر، ومن فصيل إلى غيره[102]. فحتى العقد الأخير من القرن الثالث عشر، أو حوله، لم يتم بذل أي جهد ناجح من جانب إقليم ما وراء النهر، لفرض السيطرة على النغودريين، والتحكم بالمناطق المتاخمة للهند (انظر الفصل الحادي عشر)؛ وعندئذ، كان من شأن التأثير على سلطنة دلهي أن يبرز، بحدة أكبر، من أي وقت سابق.

(100) قارن أوبان «الجذور...»، 82، نص فرنسي.

(101) JT، II، 174، لشغري قراؤونا كي آز قديم بازبايشان تعلق داشتا آند (تر. بويل 142 / تر. فيرخوفسكي، 92 ـ 93).

(102) انظر الملاحظات في أوبان «الجذور العرقية»، 87.

الفصل السابع

من الإغارة إلى الفتح والاحتلال فالاستيطان

ليس وضع خريطة تقدم الجيوش الإسلامية في القرن الثالث عشر، أمراً سهلاً، بأي من الأحوال. إذ ليس ثمة مصادر سَرْدية هندوسية معاصرة، إذا أردنا الدِّقة؛ فحتى ملحمة **هامّيراماهاكاويا**، مثلاً، تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر. فمن الجانب الهندي، تبقى النقوش ـ سواء تلك المنحوتة في الحجر، أو المكتوبة على الألواح النحاسية، التي كان الحكام يمنحونها لمرؤوسيهم ـ أفضل الأدلة المتوافرة لدينا، على الرغم من أن التلميحات فيها إلى **مليكّات** («غير النظيفين») **والتوروشكات** («الأتراك»)، **والياوانات** («الغربيين»)، تكون غامضة بصورة متكررة. أما الكتاب المسلمون، الذين نجدهم، أقل صراحة، فيما يخص النكسات، فلا يقدمون إلاً نُتَفاً ممزقة من المعلومات والبيانات. أضف إلى ذلك، أن ملاحظة كَوْن روايات الجوزجاني لقصة العمليات العسكرية محصورة، إلى حد كبير، بتلك التي حضرها ناصر الدين محمود شاه، أو أُلُغ خان بلبان، ليست إلاً اعترافاً بمدى جهلنا. كانت ثمة، بالضرورة، عمليات عسكرية كثيرة خيضت، على المستوى المحلي، من قِبَل الأمراء والمُقْطَعين، أكسبت جامع الخراج والمستوطن، مزيداً من المساحات الجديدة، غير أننا لا نعرف عنها شيئاً. وعلى الرغم من إمكانية استخدام توزيع الإقطاعات مؤشراً على وجود احتلال إسلامي، فإن المعلومات المتوافرة عن أي من الأوقات،

تكاد ألاّ تكون شاملة. صحيح أن وجود كتابة منقوشة، في هذا الموقع أو ذلك، تؤرخ لبناء أحد المساجد، يؤكد وجود مجتمع إسلامي؛ غير أننا، مع ذلك، لا نستطيع معرفة ما إذا كان هذا هو المسجد الأول الذي بُني في البلدة المعنية.

من المهم ألاّ ننخدع باصطلاح الحرب المقدسة (**الجهاد، الغزو**) الذي يستخدمه الجوزجاني وآخرون. فالأهداف الرئيسية للحرب المقدسة الإسلامية، محصورة بالدفاع عن **دار الإسلام** من جهة، وتوسيع دائرة الحكم الإسلامي في بلاد عبدة الأوثان، من جهة ثانية. وفي الظروف التي سادت الفترة الأولى من حياة السلطنة، لم يكن تحقيق الهدف الثاني ممكناً، إلاّ في مناطق معينة، ولزمن محدود ربما؛ بل وقد لا يكون ممكن التحقيق على الإطلاق. ثمة مثال صارخ يتمثل بحُصْن رنتانبور الأكبر في راجستان، هذا الحصن، الذي احتُلّ مرتين، وهوجم مرات كثيرة، قبل احتلاله النهائي من قِبَل علاء الدين خَلْجي في 700 هـ / 1301 م. ربما كان العاهل المسلم المعروف بالتقوى، خلال القرن الثالث عشر، مضطراً للاكتفاء بالغارات المغامرة المتقطعة. أمّا في الحالات الأكثر إثارة، فقد جرى احتلال عاصمة المملكة الهندوسية ونهبها، وتركها بعد ذلك، لتمكين حاكمها من العودة إلى احتلالها غداة رحيل الجيش الإسلامي. كان هذا النوع من الغارات، يؤدّي إلى رصّ صفوف المسلمين، وإلى إضعاف الأمير الكافر، بتجريده من الكنوز والجياد والفيلة، وإلى الحط من شأنه في أعين نظرائه ومرؤوسيه. غير أن حملات كثيرة كانت قد صُمِّمت، لا لشيء، إلاّ لسد النقص فيما هو موجود من المواشي والعبيد. وخلال الجزء الأكبر من فترة ما بعد 633 هـ / 1236م، تعرضت السيادة الإسلامية، إما للجمود، أو للتراجع، لأن السلطنة كانت عاجزة حتى عن الحفاظ على الحيازات، التي أضافها كل من معز الدين آيبك أو إلتُتْمش.

ربما كانت لغارات النهب على الأراضي الهندية أسباب، أو دوافع

أخرى، غير الحماس الديني التقليدي. يقال إن أُلُغ خان بلبان أوصى ناصر الدين محمود شاه، بالقيام بنشاطات عسكرية ضد القوات الهندوسية، أملاً في استخدام الغنائم المحصلة من الهندوس، لتسديد رواتب أفراد الوحدات المتصدية للمغول[1]. وكذلك، فإن مثل هذه الحملات، كانت تخدم مصالح القائد الفرد. فحملة بلبان المُرْبِحة على رنثانبور سنة 652 هـ / 1254م، التي جاءت قُبَيْل عودته إلى السلطة في البلاط؛ واجتياح طُغرُل المربح للبنغال الشرقي، قُبَيْل حركته التمردية حوالي 678 هـ / 1279 ـ 1280 م؛ بل والغنائم المحصَّلة من دِكّان على يد علاء الدين خَلْجي سنة 695 هـ / 1296م، التي مهدت له الطريق إلى العرش، تكفي لتذكيرنا بذلك.

المواقع الحصينة والملاذات

فيما مضى، رأينا كيف نجحت الفتوحات الغورية، في التأسيس لقيام حكم إسلامي، في السهول الممتدة إلى الشمال من نهر الغانج، مع الإبقاء على بعض الحكام الهندوس فوق عروشهم، مقابل دفع الخراج. فعلى المستوى المحلي، بقيت السلطة بأيدي رهط من صغار الزعماء، الذين تكرر تحديهم لحكم السلطان. وإذ أراد برني تقديم صورة ناصعة عن السلم والنظام السائدين في عهد علاء الدين خَلْجي، فقد كان يكفيه تصوير هؤلاء الزعماء (**المُقَدَّمين**)، والرؤساء (**الخوت**) حراساً دائمين على الطرق العامة، ومراقبين يتولون الإشراف على المسافرين والقوافل[2]. فابن بطوطة، الذي زار السلطنة، خلال حكم محمد بن تُغْلُق، كان حريصاً على التمييز بين الهندوس المقيمين في قرى تابعة لضابط (**حاكم**) مسلم، وبين أولئك الذين يطلق عليهم صفة «المتمردين

---

(1) TN، II، 57 (تر. 816).

(2) TFS، 324؛ وانظر أيضاً 340. أمّا عن عبارة خوت، فانظر يول وبورنل، **هوبسون جوبسون**، 480 ـ 481؛ س. هـ. هوديفالا، «ملاحظات حول هوبسون ـ جوبسون»، IA 58 (1929م)، 172، **دراسات**، ا، 277 ـ 278.

والمقاتلين، ممن يعيشون في معاصي الجبال، ويسطون على الرحالة»[3]. وهو يعود إلى الموضوع نفسه في مرحلة لاحقة، ليقول:

النص كما هو في كتاب ابن بطوطة:

ولنعد إلى ما كنا بسبيله، فأقول: سافرنا من مدينة أبوهار، في صحراء، مسيرة يوم، في أطرافها جبال منيعة، يسكنها كفار الهنود، وربما قاطعو طريق. وأهل بلاد الهند، أكثرهم كفّار، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين، يسكنون القرى، ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم، الذي تكون القرية في إقطاعه، ومنهم عصاة محاربون، يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق.

مترجم عن الترجمة:

إن الكفار في أرض الهند، يسكنون منطقة ليست مفصولة جغرافياً، عن منطقة المسلمين، فأراضي الفريقين متلاصقة؛ وعلى الرغم من أن اليد العليا هي للمسلمين، فإن الكفار يتحصنون في جبال منيعة وأماكن وعرة، ولديهم غابات ومراعي... يعيش الكفار في هذه الغابات، التي هي بمثابة أسوار المدينة بالنسبة إليهم، وهم يربُّون، داخلها، مواشيهم ويحفظون حبوبهم، ومخزونهم من الماء الذي يجمعونه من الأمطار، بما لا يدع مجالاً للتغلب عليهم، إلاّ باستخدام جيوش قوية، من رجال يقتحمون هذه الغابات، ويزيلون تلك النباتات[4]...

هذه هي **المَواسات** (مفردها مواس أي «مأوى»، «ملاذ») التي يتكرر ظهورها في المصادر الإسلامية الهندية. كانت الكلمة تنطبق على الأعداد الكبيرة جداً من الأقاليم المُقَطَّعة، والشعاب الوعرة والأدغال الصعبة، شبه

(3) IB، III، 133 (تر. جيب، 612).

(4) المصدر نفسه، III، 389 (تر. جيب، 741 ـ 742).

المستعصية على الفرق الإسلامية من الخيالة الثقيلة، والتي كان العدو يستطيع الصمود أمامها، بمناعة نسبية[5]. من المؤكد أن إحدى هذه المناطق تمثلت **بتاراي**، الواقعة خلف نهر سارو (سرجو) ـ «أدغال هندوستان الكثيفة، الشعاب الضيقة والشلالات، والدرع السميك المصنوع من آلاف الأشجار»، كما يقول الجوزجاني ـ حيث تقدم بلبان سنة 654 هـ / 1256م عبر مطاردته الفاشلة لخصومه المسلمين[6]. شكلت **المواس**، بالطبع، ملاذاً آمناً للمتمردين المسلمين، أيضاً، من أمثال قُطْلُغ خان، الذي عبر مثل هذه المناطق، في طريقه إلى سانتور، بحثاً عن ملاذ سنة 654 هـ / 1256م[7]؛ وعلى الرغم من أن آمالهم كانت أحياناً تخيب، كما حصل لدى تسليم ملك تشهاجّو سنة 689 هـ / 1290م، وأتباع عين الملك بن مهرو حوالى سنة 740 هـ / 1339 ـ 1340م، إلى السلطان بعد سعيهم إلى اللجوء إلى إحدى المواسات[8]. باتت العبارة مرادفة للتحدي. فعصامي يقول، لدى إشارته إلى الحركة الانفصالية التي كانت بقيادة إسلامية في البنغال وبيهار، خلال عهد محمد بن تُغْلُق «لقد أصبحت غاور وتيرهوت كلها **مواساً**»[9].

كثيراً ما كان المقاتلون الهندوس مستعدين للوقوف في صف المتمردين المسلمين الثائرين على الحكومة. فعصيان طُغرُل حوالى سنة 678 هـ / 1279م ـ 1280م، اجتذب أعداداً كبيرة من المشاة من صفوف مُلاّك الأراضي في البنغال، أولئك «المشاة المشهورون»، كما يسميهم برني، الذين ما لبثوا أن دفعوا ثمناً باهظاً، حين جاء السلطان المنتصر بلبان، وأمر بقطع رؤوسهم[10]. ولم يكن

(5) هوديفالا، دراسات، I، 226 ـ 229. ثمة أمثلة في TN، I، 491 وII، 17 ـ 18، 19، 26، 27، 29، 47، 52، 53، 57، 61، 72، 76 ـ 77.

(6) المصدر نفسه، II، 71، . . . (تر. رافيرتي، 837، 838، معدل).

(7) المصدر نفسه، II، 72، . . . (تر. 839)؛ قارن أيضاً I، 491 (تر. 704 ـ 705 غير دقيق).

(8) TFS، 82 ـ 490 ـ 491.

(9) FS، 606 (تر. 902).

(10) TFS، 83، 91.

الراوات والبايك ـ الذين لا يعتبرهم أمير خسرو إلاّ «بعض القوات الكافرة من هندوستان (آزهندوستان سيباهي تشاند بي ـ دين) ممن التفوا حول ابن شقيق بلبان: ملك تشهاجّو في قارا سنة 689 هـ / 1290م، في محاولة رمت إلى الإطاحة بالنظام الخَلْجي. ساروا في موكب أمام تشهاجّو، رافعين أغصان التنبول، في تعبيرهم المألوف عن التزام الولاء، وأعلنوا، بكبرياء، أنهم سوف ينقضون على مظلة (تشاتر) السلطان جلال الدين في أوج المعركة؛ غير أنهم ما لبثوا، بدلاً من ذلك، أن حوصروا وأُخذوا أسرى، حين فقد تشهاجّو أعصابه ولاذ بالفرار[11]. يبدو أن قارا، كانت أشبه بالمرتع، بالنسبة لأمثال هؤلاء المساعدين للمتمردين المسلمين. لم يقف الأمر عند نجاح علاء الدين في تجنيد ألفين من البايك (المشاة) هنا، بعد ما لا يزيد عن بضع سنوات، بل ونجد عصابة مزعومة من «مدمني المخدرات البايك (المشاة)» وراء انتفاضة، جرت حوالي سنة 1338م في المنطقة نفسها[12].

لدى وصفه للمناطق المسلمة والهندوسية، على أنها غير قابلة للفصل جغرافياً، كان ابن بطوطة يشير إلى سمة للسلطنة، ميزتها عن الكيانات السياسية الإسلامية الأخرى. ففي الأماكن الأخرى في العالم الإسلامي، كان الحديث عن دار الإسلام من ناحية، ودار الحرب من ناحية أخرى، ينطوي على معنى، خلافاً لما كانت عليه الحال في الهند. من شأن سلسلة من النقاط أن تشير إلى مدى اتساع دائرة حكم السلطان، بقدر أكبر من الواقعية مما يفعله التظليل المتجانس، المفضل في الأطالس التاريخية. كان الاحترام (بايبوس، زامينبوس)، مثله مثل الخراج، متقطِّعاً. فبرني يجعل نظام الدين ينصح

---

(11) المصدر نفسه 182 ـ 183. عن عبارة أمير خسرو السلبية، انظر MF، 8.

(12) TFS، 222، 487. عن خزان الرجال المسلحين الذي اعتمد عليه المغول لاحقاً، انظر ديرك هـ. آ. كولف، ناوكار وراجبوت وسيبوي: **التاريخ العرقي لسوق العمل العسكري في هندوستان، 1450 ـ 1850م** (كامبردج، 1990م)، الفصل الأول، خصوصاً 3 ـ 17.

السلطان كيقباد، بالسير لملاقاة أبيه سنة 686 هـ / 1287م على رأس جيش مهيب، من أجل إغراء الرايات والرانات (القادة والرؤساء) بتقديم آيات الولاء له على الطريق[13]. فالأرياف المكشوفة، والغابات والجبال، كانت هي ممالك الكفر والكفار. أما سكان وأهالي السلطنة المسلمون، فكانوا بأكثريتهم، يقيمون في البلدات والمدن المحصنة، بل وقد كانوا، حتى مجرد أقلية، في كثير من الأحيان. يلاحظ ابن بطوطة أن قلعة غواليور العظيمة، لم تكن إلاّ «قلعة معزولة يتعذر الوصول إليها، في وسط الكفار الهندوس»، وأن عامة أهلها كانوا من الكفار؛ كذلك كانت أكثرية أهالي القَصَبة المجاورة، المعروفة باسم «آلابور»[14]. وبعد وقت غير طويل، نجد «عين الملك بن مهرو حاكماً للسند باسم فيروزشاه التغلُقي، وهو يعلق بمرارة قائلاً: «إنهم من الفلاحين (**الدهاقين**) وأصحاب الأراضي (**الزمندارات**) الذين هم رعايا ظاهرياً فقط، (رعاياي صُوَري) ويدفعون الخراج، خوفاً من الجيش، أو من ضربة السيف»[15]. ومن كل موقع حصين وقوي، كانت سلطة الحاكم المسلم وجامع الخراج تشع، إلى الخارج لتصل إلى مسافة ما لبثت أن وَهَنَتْ وخَبَتْ، تبعاً لجريان عمليات عسكرية محلية، أو وجود جيش ميداني كبير أرسلته دلهي. إن «دار الحرب»، المأهولة بأرباب **الحروب**، لم تكن، في الهند، بعيدة في أي من الأوقات.

المراكز (الإدارية والسياسية والعسكرية)

لا نعلم إلاّ الشيء القليل جداً عن العلاقات التي أقامها ولاة السلطان في السند، مع القوى الهندوسية المحلية. كان ابن السلطان بلبان، محمد،

---

(13) TFS، 141؛ قارن أيضاً 108، حيث يأتي الزعماء لخدمة بلبان بعد حملة البنغال.

(14) IB، III، 188، 185، وIV 29 (تر. جيب، 642، 645، 785).

(15) IM، 75. عن الجماعات المختلفة المؤلفة للطبقة المعروفة باسم الزميندار الفضفاض، انظر ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 58 ـ 59.

أثناء توليه لحكم مُلْتان، قد تزوج من ابنة راي (أمير) هندوسي، افتدى جثمان صهره سنة 684 هـ / 1285م[16]. ويبدو أن محمداً، كان مواظباً لدى عدم انشغاله بصد الهجمات المغولية؛ في المقام الأول، سلطته على أمراء السومرا، المعتنقين للإسلام جزئياً، في دلتا الأندوس. ونظراً لتبعيتهم إلى قوبتشا، كانوا قد خضعوا لإلتُتْمش، ويقال إن ديوال (دَيْبُل) ودامريلا كانتا خاضعتين لرضيّة[17]. ولكن ولاء أولئك الأمراء، لم يكن مضموناً، وقد ترتب على ممثلي السلطان في سيويستان، إبقاءهم تحت المراقبة. يقال إن إقطاع محمد، كان ممتداً إلى جناني، بلدة على بعد مئة وعشرين ميلاً إلى الجهة العليا من النهر من ثاتّا، وقد عُرف أنها كانت بيد السومرا. لكننا نعلم، أنه نجح حوالي سنة 680 هـ / 1281 ـ 1282م، في فتح موقع السومرا الحصين في دامريلا[18]. يقول عفيف: إن علاء الدين خَلْجي شنَّ، أوائل القرن الرابع عشر، حملة غير موفقة في المنطقة، مع أننا نعلم أيضاً، أن مُقْطَعةُ في ديوبالور، غازي مالك تُغْلُق، قد بنى على السند الأسفل، قلعة جديدة أطلق عليها اسم غازيبور[19]. وبعد ذلك، لا يُسمَع شيءٌ عن هذه المنطقة، حتى عهد محمد بن تُغْلُق.

كان البنجاب وطناً لعدد من القبائل غير الخاضعة تماماً، وخصوصاً الخوخار، الذين كانت بلادهم الأصلية واقعة بين جهيلام والتشناب، غير أنهم

(16) FS، 180 ـ 181 (تر. 311).

(17) TN، ا، 459. دامريلا هي داتبهارلو، على مسافة 150 ميلاً إلى الشرق من كراتشي: ج. أ. بوبلي، «جلال الدين خوارزم شاه في وادي السند»، في خوهرو (محرراً)، **السند عبر العصور**، 129 هـ. 13.

(18) FS، 175 (تر. 304): قبيل الإطاحة به من قِبَل المغول (683 هـ / 1285م). DGK، WH69 .، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 140 ب؛ منه بداؤوني، ا، 154 (وم / ب ل ه خطأ). TMS، 43، عن الحد الجنوبي لإقطاع محمد. أما عن جاناني، فانظر IB، III، 101 (تر. جيب، 596 ـ 597).

(19) غازيبور: SFS، 91. علاء الدين: عفيف، 251؛ الشهادة اللاحقة والمتناقضة حو هذا استعرضها هوديڤالا في دراسات، II، 133 ـ 134.

ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك إلى المناطق الواقعة إلى الشرق من البياه[20]؛ وهكذا صاروا يهددون لاهور في المقام الأول. وسنة 639 هـ / 1241م قام قراقوش خان، مُقْطع لاهور، بذبح عصابة من الخوخار، الذين وجدهم يكنّسون كل شيء تركه المغول وراءهم، في المدينة المنكوبة[21]. وحسب كلام برني، فإن شيرخان، ابن عم بلبان، أخضع الخوخار وقبائل أخرى، وهو أمر لم يستطع خلفاؤه أن يفعلوه؛ وكذلك، فإن أمير خسرو يعزو فضل مضايقة أولئك، لجلال الدين خَلْجي[22]. أما في القرن التالي، فقد كانت الطريق من مُلْتان إلى آجودان (باكباتان الحالية) تتعرض للإزعاج الدائم والمنتظم، من جانب قطاع الطرق واللصوص الخوخار، كما تقول إحدى رسائل ابن مهرو[23].

أما في الأماكن الأبعد شرقاً، والأقرب إلى قلب السلطنة، فقد تعين على الحكام المسلمين، المتمركزين في القلاع والحصون مثل: تبرهند وسُنّام وسامانا، أن يتصارعوا مع أقوام مضطربة ومتمردة أخرى ـ أقوام البهاتي والماين في منطقة أبوهار، والمندهار في كايتال، والجات. كان هؤلاء، بأكثريتهم الساحقة، رعاة أشداء، متنقلين بين الضفاف المشاطئة للأنهار، وقد سبق لبرني، فيما كان أسيراً في بهاتز، أن رأى معسكراتهم (تالواونداتهم) المؤلفة من العربات، التي كانوا يجمعون مواشيهم داخلها، في أماكن قريبة من منابع المياه[24]. ثمة توداريون وجاتيون، جنباً إلى جنب مع خوخاريين، يوجدون بين

---

(20) عبد السجان، «خوكار»، Enc. Isl.² عن منطقتهم الأصلية، انظر Tāj، ملف 190 أ.

(21) TN، II، 165 ـ 166 (تر. 1136).

(22) TFS، DR. 65، 52.

(23) IM، 168.

(24) TFS، 568: وقارن هوديفالا، **دراسات**، I، 305، للحصول على ترجمة هذا المقطع. عن هذه القبائل، انظر عموماً هـ. أ. روز، **لائحة قبائل وطبقات البنجاب والإقليم الحدودي الشمالي ـ غربي**، I، 295 ـ 296. كان الجات يتخلون عن حياتهم الرعوية لاعتماد الزراعة: عرفات حبيب، «جات البنجاب والسند»، في هاربانس سنغ و ن. جيرالد بارير (محررين)، **البنجاب بين الماضي والحاضر. مقالات على شرف الدكتور غاندا سنغ** (باتيالا، 1976)، 92 ـ 103.

الجنود الذين استندت إليهم رضيّة وآلتونابا، في التصدي لبهرم شاه سنة 638 هـ / 1240م[25]. وحسب كلام برني، فإن شيرخان، كمُقْطَع ديوبالور، قد بنى قلعة بهاتز، ونجح، فيما بعد، في فرض الطاعة على هذه الأقوام[26]. غير أن السلطان التالي جلال الدين خَلْجي، قاتل البهاتي والخوخار، ولدى إغارته على منطقة ماندهار، كمُقْطَع كايثال (أي في أواخر ثمانينيات القرن الثالث عشر) أصيب بجرحين في الوجه، أحْدَثا ندوباً دائمة[27]. ولقد استمرت المقاومة المتقطعة حتى القرن الرابع عشر، لأن محمد بن تغلق، كان سيقود حملة تأديبية ضد كل من المهاين والبهاتي والماندهار، حوالي سنة 1337 م. لعل جماعة كهذه، هي التي كانت قد هاجمت فريق ابن بطوطة في 734 هـ / 1334م، في السهل الممتد بين أجودان وأبوهار[28].

كانت منطقة جبلية مَدْروزة بالكثير من الوديان السحيقة والممرات الضيقة ومغطاة، في القرن الثالث عشر، بغابات كثيفة، تدعى آلوار، تقع إلى جنوب دلهي مباشرة. وبنظر المسلمين، فإن تلك هي «المرتفعات»، **الكوهبايا**. وللمكان اسم آخر، هو «ميوات» نسبة إلى السكان، الميو، الذين كانوا، على ما يبدو، أشباه أتباع ملوك التشاوهان (تشاهمانا) في رنثانبور[29]، والذين كانت نشاطاتهم القائمة على السلب والنهب، تخترق هاريانا في الشمال، وتصل إلى بهايانا في الشرق. كانت مخافر أمامية إسلامية قد أقيمت في هذه البقعة، عند كل من ريواري وناروال وبالوال وكاما، التي تظهر بوصفها إقطاعات، في ظل إلْتُتْمش وخلفائه المباشرين: فريواري كانت مخصصة لبعض الوقت لبلبان،

---

(25) FS، 139 (تر. 259).

(26) TFS، 65.

(27) المصدر السابق، DR195 .، 52.

(28) IB، III، 133 ـ 135 (تر. جيب، 612 ـ 613). عن حملة محمد، انظر TFS، 483.

(29) انظر عموماً ج بورتون ـ بيج، «ميو»، Enc. Isl², و«موات» المصدر نفسه. أمّا عن الربط مع رانتانبور، فانظر TN، II، 58 ـ 59 (تر. 818)؛ حبيب الله، أساس، 152، 153.

الذي يقال إنه تمكن، في بداية حياته العملية، من فرض الطاعة على «**الماوسات والكوهبايا**»[30]. وسنة 658 هـ / 1260م، حين تعرض أتباعه، عند أطراف هانسي لغارات الميو، قاد بلبان حملتين مدمرتين إلى أعماق مناطقهم، ولم يعد إلاّ ومعه مئتان وخمسون من كبار رجالاتهم، لإعدامهم في دلهي، بعد إعمال السيف في رقاب الألوف من أبناء الميو[31]. قد لا تجد رواية الجوزجاني المقيتة، صعوبة كبيرة في إقناعنا، بأن الميو، قد تم إخضاعهم إلى الأبد، غير أن برني يقول إن هؤلاء الميو كانوا، خلال عهود إلْتُتْمش وذريته، متمردين، حتى أنهم كانوا ينهبون القصور (الڤيلات ـ **سرايحه**) الكائنة في ضواحي دلهي بالذات، ويضايقون السقائين في حَوْض شمسي. كان بلبان يضع مسألة سحقهم في صدر سلّم أولوياته، وقد أنفق السنة الأولى من حكمه، على تطهير الأدغال المحيطة بالعاصمة، وذبح الميو. أقام قلعة في غوبالغير وأسس عدداً من المتاريس والحواجز الدفاعية (الثاناها) المختلفة. وبعد ذلك، أصبح مواطنو دلهي، حسب زعم برني، آمنين من خطر الميو[32]. قد يوحي المسجد الذي شيد سنة 671 هـ / 1272م في ناروال، بنجاح سياسة بلبان[33]. فناروال هذه، تبدو خاضعة، مرة أخرى، للحكم الإسلامي، في ظل جلال الدين خَلْجي، وحقيقة، أن السلطان كان قادراً، لدى خروجه للزحف على رنثانبور سنة 690 هـ / 1291م، على التقدم عبر ريواري وناروال، تظهر بأنه لم يكن يتوجس أي

---

(30) TN، II، 6، 8، 41 (تر. 726، 730، 790)؛ وعن بلبان، II، 52 (تر. 806 ـ 807). عن كاما، في منطقة بهاراتبور، على مسافة 39 ميلاً شمال ـ غرب ماثورا، 27 درجة و40 دقيقة شمالاً، 77 درجة و20 ثانية شرقاً، انظر رافيرتي، 790 هـ. 9؛ عن بالوال، انظر أيضاً شعب؛ «منقوشات من بالوال»، 2 ـ 3؛ RCEA، X، 56، 72 ـ 73 (أرقام: 3678، 3703).

(31) TN، II، 78 ـ 83، 89 (تر. 850 ـ 856، 864)؛ أيضاً تلميح موجز إلى الحملة الأولى في I، 496 (تر. 715).

(32) TFS، 55 ـ 57. عن غوبالغير، انظر أيضاً FS، 164 (تر. 291).

(33) س. س. حسين نقش جديد يدعى السلطان بلبان من متحف الوسريه باتيالا، EIAPS (1972م) 1 ـ 3 ARIE (1973 ـ 1974م)، 13، 181 (رقم: د 250).

إزعاج من الميو[34]. غير أن ملاحظة عابرة، يوردها ابن بطوطة تكشف عن حقيقة أن محمد بن تُغْلُق، كان قد اضطر لإرسال جيوشٍ إلى المرتفعات القريبة من دلهي، قبيل وصول الرحالة المغربي[35]. ما من شيء يسلط الأضواء الساطعة على محدوديات السلطة الإدارية الإسلامية، أكثر من هذه الأزمات المتكررة، في منطقة شديدة القرب من العاصمة.

جهتا الشمال والغرب

أما خَلْفَ الخوخار، فكان أهالي سلسلة جبال الملح (كوهي ـ جود). لم يكن قمع هؤلاء من قِبَل معز الدين سنة 601 هـ / 1204م قد روّعهم طويلاً، كما لم يكن اعتناقهم للإسلام، إلاّ مبادرة عابرة. فسنة 643 هـ / 1245م اضطلع «جاسبال سيهرا»، راجا جبال الملح، بدور الدليل للجيش المغولي الغازي، مما جر عليه هجوماً تأديبياً، شنته ضده، قواتُ دلهي بقيادة أمير ـ حاجب بلبان في السنة التالية[36]. وبُعَيْد ارتقائه العرش سلطاناً سنة 663 هـ / 1266م، بادر بلبان، إلى قيادة حملة أخرى، إلى سلسلة جبال الملح، تمخضت عن نجاحه في جلب نجلي الراجا رهينتين[37]: ويبدو أنهما اعتنقا الإسلام، ويرد ذكرهما، لاحقاً، في قوائم النبلاء.

يبدو أن السلاطين لم يكونوا على صلات قوية مع الأمراء الهندوس، في الجبال الواقعة إلى الشمال، التي يستخدم كل من الجوزجاني وابن بطوطة، كلمة: قراشيل، للدلالة عليها، خلال القرن الثالث عشر الميلاد[38]؛ لعل

---

(34) MF، 25، المصدر نفسه، 28، عن أحد أمراء نازناوُل. وعن هذا المكان، 28 درجة و3 دقائق شمالاً، 76 درجة و10 دقائق شرقاً، انظر IG، XVIII، 380 ـ 381.

(35) IB، III، 293 (تر. جيب، 696 ـ 697).

(36) TN، II، 56 ـ 57 (تر. 815)؛ قارن أيضاً I، 479 (تر. 678 ـ 679).

(37) TMS، 40 TFS، 59 ـ 60، لا ترد الحملة إلاّ بصورة موجزة.

(38) TN، II، 126 (تر. 1046)؛ ترد الصياغة بالكتابة البِلْينا في IB، III، 325. إنه اسم تركي ويعني على ما يبدو «ثغرة في الثلج» من قار: ثلج وآتشل: يفتح: كلاوسون قاموس. . .، 26، 641؛ بليو،=

محمد بن تُغْلُق هو السلطان الأول المعروف، بأنه شَنَّ حملة على هذه المناطق البعيدة. تكتفي مصادرنا بذكر كشمير وجامو، كل منهما في ظل أسرتها الحاكمة من الراجات، وليس ثمة ما يشير إلى أنهما اعترفتا، في أي من الأوقات، بسيادة دلهي عليهما. غير أن حملات معينة، تم إرسالها إلى المناطق الواقعة شمال دلهي مباشرة، حتى في أيام الجوزجاني. فحين قام راجا سانتور: «رانبال كبير أمراء الهندوس»، بتوفير الملاذ الآمن لقُطْلُغ خان، عدو بلبان، سارع الأخير إلى الانقضاض على مقر إقامة الراجا في سليمور (سيرمور) سنة 655 هـ / 1257م، حيث أشبعه نهباً وسلباً[39].

راجستان والسيوالك

كان الجزء الشمالي من سلسلة جبال آرافاللي، يشكل العمود الفقري للمنطقة، التي يطلق عليها المسلمون اسم «سيوالك» (الذي ينبغي عدم خلطه بالاستخدام الحديث للكلمة، التي تشير إلى قطّاع من هيمالايا الصغرى). كانت تلك منطقة واسعة، ممتدة من هانسي وسارساتي، حتى نغوار وآجمر وسامبهار ناماك وماندور؛ وبالفعل، فإن إحدى عبارات برني توحي، بأنها كانت محكومة بأن تشمل جالور أيضاً[40]. وقد قاد إلتُتمش حملةً إلى جالور هذه، التي كانت بيد أحد فروع أسرة تشاوهان الحاكمة، في الأيام الأولى من عهده. ما لبث ملكُها أوداسيمها «أودايسا» أن قَدَّم فروض الطاعة، والتزم بدفع الخراج[41]. يبدو أن هذا الترتيب لم يدم طويلاً، لأن إلتُتمش عاد سنة 644 هـ / 1227م، إلى

= **ملاحظات حول تاريخ الجحفل الذهبي**، 64 (قراتشيل... أما الربط المقترح بكلمة آتشالا (جبل) السنسكريتية، وبالتالي بموقع «كولارتشاك» القريب من كشمير والذي ذكره البيروني في القرن الحادي عشر، فيبقى بلا معنى ودون أساس.

(39) TN، II، 72 ـ 73 (تر. 839 ـ 840)؛ انظر أيضاً I، 491 (تر. 704 ـ 706).

(40) TFS، 289. الاستخدام الأضيق تجده في TN، I، 284، 400 ـ 401 (تر. 200، 468). انظر عموماً بول وبورنل، **طوبسون ـ جوبسون**، 843 ـ 844.

(41) Tāj، ملف 288 أ ـ 232 ب. عن جالور بين فتوحات إلتُتمِش، انظر TN، مخطوطة BL ملف 179 ب.

مهاجمة ماندور، التي يعرف أنها كانت عائدة لأوداياسيمها، واحتلالها، وبالفعل، فإن كتابةً منقوشة لنجله تشاتشيغاديفا تعلن للملأ، أن أودياسيمها، كان «قد كبح كبرياء التوروشكا (الأتراك)»[42]. قد يكون هذا تلميحاً إلى استعادة ماندور، التي لا تظهر بوصفها جزءاً من إقطاع، إلاّ مرة واحدة، سنة 639 هـ / 1242م. ومن الواضح أن المسلمين، ما لبثوا أن فقدوها في تاريخ لاحق، لأن جلال الدين خَلْجي كان سيضطر لإعادة احتلالها سنة 691 هـ / 1292م[43]. أما عن جالور فلا نسمع شيئاً آخر، حتى القرن التالي.

كانت آجمر، العاصمة السابقة للفرع الرئيسي، لأسرة تشاوهان الحاكمة، قد احتُلّت، من قبل آيبك، عقب سقوطها بيد هاريراجا، شقيق برثفيراجا الثالث. وقد ظلت خلال فترة حكم إلتُتمش، مركز إقطاع، ضمّ كلاً من لاوا وسامبهار ناماك أيضاً. وقد تملكه، لبعض الوقت، ناصر الدين آتيمُر البهائي. غير أن هذه المقطعات الأخيرة، لا تعود تظهر أرضاً إسلامية، مرة أخرى، في القرن الثالث عشر، وحين نصادف آجمر، ثانية، وهي ممنوحة، كإقطاع، فإنها تكون ملحقة بماندور ونغوار، كجزء من مقاطعة، أو ولاية كبيرة، موضوعة تحت تصرف كوشلوخان سنة 639 هـ / 1242م[44]. من المؤكد، أن الأقاليم الواقعة في أقصى الجنوب، والمتمثلة بسيوالك، كانت قد باتت تتعرض لضغوط شديدة من جانب التشاوهان في رنثانبور، ولعل المَنْح، يشير إلى أن نوعاً من الدمج والتوحيد للموارد المحلية، اعتُبر ضرورياً. ومما ينبغي له أن ينطوي على مغزى أن الكُتّاب المسلمين، لم يعودوا يأتون على أي ذكر

---

(42) د. ر. بهانداركار، «تشاهامانا ماروار»، EI 11 (1911 ـ 1912)، 74 وبعدها. عن امتلاك أودياسيمها لماندور، انظر راي، **تاريخ إحدى الأسر الحاكمة**، 1128 ـ 1131؛ وعن حملة إلتُتمش، TN، ا، 446 (تر. 611).

(43) TFS، FS220 .، 215 (تر. 379 ـ 380). TMS، 64، 65. عن مملكة جالور، انظر عموماً، شارما، **أسر التشاوهان الحاكمة الأولى**، 167 ـ 179.

(44) TN، ا، 468، واا، 8 (تر. 661 ـ 662، 728).



الحرب ضد القوى الهندوسية في الهند الشمالية

لآجمر، حتى القرن الرابع عشر. ثمة ملحمة سنسكريتية، تزعم أن ملك رنثانبور التشاوهاني، هامّيراديفا (1283 ـ 1301م)، مر بآجمر (آجادياميرو) في خلال تقدمه المظفَّر، من آبو عائداً إلى عاصمته[45]. وإذا كانت هذه الرواية صادقة، فإنها توحي بأن القلعة كانت قد توقفت عن تشكيل جزءٍ من السلطنة.

كانت رنثانبور نفسها، تلك التي شهرها الجوزجاني بوصفها شديدة المناعة، بما مكّنها من تحدي هجمات سبعين ملكاً هندوسياً ونيف، عبر العصور[46]، قد أصبحت تابعةً تدفع الجزية سنة 587 هـ / 1191 م. يبدو أن المدينة، كانت لا تزال، خاضعة لإلتُتْمش سنة 1215م، لأن منقوشاً في مانغلانا، على الأطراف الشمالية من مملكة تشاوهان، يأتي على ذكر ليس حفيد برثفيراجان، فالها ناديف، فقط، بل و«ساماسادانا» (شمس الدِّين) أيضاً، سلطاناً في يوغيني (دلهي). غير أن من الواضح، أن رنثانبور كانت قد تحدَّتْ السلطان، مع حلول سنة 623 هـ / 1226م، حين تمكن جيش الأخير من احتلال القلعة، بعد حصار طويل. ومع ذلك، فإن الهندوس فرضوا الحصار عليها، غداة وفاة إلتُتْمش، فبادرت رضيّة حوالى 635 هـ / 1237 ـ 1238م، إلى إرسال المالك الغوري قطب حسن بن علي لنَجْدتها: غير أن الأخير، رأى استحالة الصمود فيها، على ما يبدو، لأنه ما لبث أن سحب الحامية الإسلامية، وفكك التحصينات، وغادر المكان[47].

لعدة عقود، لم يشهد المجهود الحربي ضد مملكة تشاوهان، أي ازدهار. ذات مرة، أواخر عهد إلتُتْمش، لقي آتيمُر مصرعه، في حملة انطلقت من آجمر، وتوغلت في منطقة بوندي[48]، التي كانت عائدة، بالتأكيد، لسلالة

(45) نيلكانتا جاناردان كيرتانه، «الهامّيرا ماهاكافيا من ناياتشاندراسوري»، IA 8 (1879م)، 64 ـ 65.

(46) TN، I، 445 (تر. 610 ـ 611).

(47) بانديت راما كارنا، «منقوش مانغلانا الحجري عن جاياتراسيمها؛ (فيكراما ـ) ساموات 1272»، IA 41 (1912م)، 85 ـ TN88 ،. I، 445 ـ 446، 459 ـ 460 (تر. 611، 642).

(48) المصدر نفسه، II، 8 (تر. 728).

برثفيراجا. وبعد استعادتها من قبل الهندوس، تعرضت رنثانبور لهجوم قوات دلهي، في عدد من المناسبات. فسنة 646 هـ / 1248 ـ 1249م، قاد أُلُغ خان بلبان، جيشاً نحو «المرتفعات (كوهبايا) ورنثانبور «لتأديب «باهارديو»، الذي يصفه الجوزجاني قائلاً: إنه «أعظم أمراء هندوستان»، ويرى المؤرخون الحديثون أنه ملك تشاوهان: فاغبهاتا، خَلَف والهاناديفا. وقد عاد بلبان إلى الهجوم سنة 652 هـ / 1254م، حين كان منفياً في نغوار، فتقدم باتجاه «رنثانبور وبوندي وتشيتور». تعرض «بهارديو» للهزيمة في المرتين، وفاز الجيش الإسلامي بمقادير، ذات شأن، من الغنائم[49]. ثمة حملة أخرى، ما لبثت أن شُنَّت ضد رنثانبور، أوائل 657 هـ / 1259م، على الرغم من أن واقع عدم إخبارنا بالمحصلة، قد يكون دليلاً على الإخفاق[50].

لا نعود نسمع، ثانيةً، عن رنثانبور في المصادر الإسلامية، حتى هجوم جلال الدين خَلْجي سنة 690 هـ / 1291م، الذي يصفه أمير خسرو في **مفتاح الفتوح**. لقد نجح السلطان في إلحاق الهزيمة بجيش، أرسله، ضده، ملك تشاوهان، الذي ما لبث أن غادر عاصمته جهاين، وفر إلى الجبال. قام جلال الدين باحتلال جهاين، وجرى تحطيم أصنامها، أشلاء، لنقلها إلى دلهي. وثمة فِرَقٌ أُرسلت في موجات نهب وسلب، إلى جهات الشمال والشرق[51]. وبرني، الذي كتب من موقع بعيد بعض الشيء، عن هذه الأحداث، يعطي الانطباع بأن الإنجاز، ربما كان محدوداً أكثر. صحيح أن جلال الدين ـ حسب روايته ـ قد احتل جهاين، وحطم الأصنام ونهب المنطقة، غير أنه لم يكرس

(49) المصدر نفسه، I، 482 ـ 483، وII، 58 ـ 59، 65 (تر. 684 ـ 685، 818 ـ 819، 828)؛ قام رافيرتي باعتماد «ناهار»، ولكن قارن راي، **تاريخ**. . .، 1095 ـ 1096.

(50) TN، I، 495 (تر. 713).

(51) MF، 28 ـ 35. ثمة مادة مختصرة أكثر في FS، 223 ـ 224 (تر. 388 ـ 389). تَعرَّفَ ساتيا براكاش غوبتا على جهاين، «جهاين سلطنة دلهي»، MIM 3 (1975)، 209 ـ 215، مع جشهاين تشهان على بعد 7 أميال من رنثانبور، 25 درجة و55 دقيقة شمالاً، 76 درجة 27 دقيقة شرقاً.

إلاّ، ما هو أقل من يوم واحد، على معاينة عمليات حصار جيشه في رنثانبور، قبل رفع هذا الحصار، لتجنب وقوع المزيد من الخسائر البشرية في صفوف المسلمين. وثمة حملة ثانية على جهاين، أواخر 691 هـ / 1292م، لم تحقق شيئاً، أكثر من الحصول على الغنائم[52]. وفيما عدا هذا الغزو، يبدو أن ملوك تشاوهان لم يتعرضوا لإزعاج الجيوش الإسلامية، بصورة جدية، خلال الجزء المتبقي من القرن، فتفرغوا للاشتباك في صراعات مع جيرانهم الهندوس، وخصوصاً، مع ملوك بارامارا في ماولا[53]. وتم إرجاء الإطاحة بتشاوهان رنثانبور حتى عهد علاء الدين خَلْجي، ومهَّدت هذه العملية، لزحف المسلمين على تشيتور ومالوا والأراضي الواقعة خلف الفينديا. لقد كان أمير خسرو، على حق، حين أطلق اسم «مفتاح الجنوب» على رنثانبور[54].

وتكاد المصادر الإسلامية أن لا تذكر كلمة صراع في القرن الثالث عشر، مع ملوك غوهيليا، الذين كانوا يسيطرون على ميوار من عاصمتهم تشيتور (تشيتّاورغاره الحالية)، مما يبقينا معتمدين، على إشارات متفرقة، إلى مسلمين في منحوتات المنطقة، ومنقوشاتها. فنقش تشيروا المنحوتة عن جايتراسيمها (المتوفى قبيل 1260م) من جانب حفيده ساماراسيمها، يزعم أن المسلمين، بين آخرين، أخفقوا في إذلاله. ومن المصدر نفسه، نكتشف أن جيوش **السوراترانا** (السلطان) هاجمت ناغادراها (ناغادا) خلال فترة حكمه. وبما أن مقاومة جايتراسيمها تحظى بثناء كبير أيضاً في نقش سامراسيمها على جبل آبو أيضاً، فإن من الممكن أنه كان قادراً على الانتقام لهذا الإذلال. وليس ثمة أخبار، عن صدامات أخرى، إلى عهد حكم سامراسيمها نفسه (حوالى 1273 ـ 1301م)، الذي «قام» حسب اللغة المنمقة والمزخرفة لتلك الكتابة المنقوشة «مثل الخنزير

---

(52) TFS، 213 ـ 214، 220.

(53) ر. ر. هالدر «نقش عن أيام هامير الرنثانبوري، مؤرخ في 1345، EI 19 (1927 ـ 1928م)، 46. عن مملكة رنثانبور في القرن الثالث عشر، انظر شارما، **أسر التشاوهان الحاكمة الأولى**، 118 ـ 125.

(54) KF، 54.

الأسطوري الهائل... في لحظة واحدة، بإخراج أرض غوجارا، الغارقة بعمق، منقذاً إياها من الغرق في بحر التوروشكا (الأتراك)»[55]. ومهما كان الحدث الذي يجري الحديث عنه، هنا، فإن الكلام لا يسعه إلاّ أن يوحي بأن العاهل الغوهيلي كان، في تاريخ ما قبل سنة 1258م، قد استغل السلبية النسبية للسلطنة، في ظل حكم بلبان.

الدُواب (ما بين النهرين) وأوَدْ

ظلت منطقة الدُواب، بأكثريتها، أرضاً خاضعة للأعداء حتى، منتصف القرن الثالث عشر، ولم تكن السيطرة الإسلامية، حسب أقوى الاحتمالات، تتجاوز أسوار البلدات الرئيسية في الشمال، مثل ميرات (ميروت) وكول (القريبة من أليغاره الحالية) وبرن (بولاندشهر الحالية)، التي كان المسلمون قد احتلوها منذ أيام آيبك. وحجم المشكلة التي تواجه حكومة دلهي، يتكشف بصورة مذهلة، بواقع أن قوات ناصر الدين محمود شاه تورطت سنة 647 هـ / 1249م، وهي في طريقها للإغارة على مناطق قِنَّوج، في حرب مع عدو هندوسي مجهول، بعد عبور نهر يمونه مباشرة، أدت إلى إيقافها[56]. يقال إن إقطاع ميرات، الذي مُنح لشقيق بلبان كشلي خان سنة 653 هـ / 1244م، كان يمتد «إلى سفوح باندياران»، وإن المُقْطَع الجديد، قضى السنوات القليلة التالية، مشغولاً بإخضاع «جبال باندياران، وصولاً إلى روكي ومايابور»[57]. وفي بدايات حكمه، قام بلبان ببناء قلعة في روركي[58]، غير أن المكان لا يرد له

(55) بيرنهارد غايغر «منقوش تشيروا... WZKM 21 (1907)، 150. ف. كيلهورن، منقوش حجر جبل، أو عن سامارا سيمها [فيكراما ـ] ساموات 1342»، IA 16 (1887)، 354: انظر عموماً، راي، **تاريخ**... 1186 ـ 1190؛ غير أن هذه الإشارة، المصدر نفسه، 1190، إلى ظهور جلال الدين مسعود، شقيق السلطان ناصر الدين محمود، في مروار مستندة إلى خطأ في قراءة ج ت و ر بدلاً من س ن ت و ر أي سانتور.

(56) TN، I، 483، وII، 60 ـ 61 (تر. 686 ـ 687، 821).

(57) المصدر نفسه، II، 47 (تر. 799).

(58) FS، 164.

ذكر مرة أخرى في فترة السلطنة. كذلك لا يجري ذكر جهينجهانا، التي تظهر بوصفها أحد الإقطاعات، خلال عهد إلتُتْمش[59]، وكانت في ذلك الوقت، على ما يبدو، المخفر الأمامي الإسلامي الشمالي الأبعد في المنطقة. ومهما يكن، فإن بناء المساجد في ثمانينيات القرن الثالث عشر، في كل من مانغلاور وغارهموكْتَسار، يشهد على تنامي الوجود الإسلامي في الدواب الشمالي[60].

يحظى تقدم جيوش المسلمين في الجزء الجنوبي من الدواب، بقدر أفضل من التوثيق. ثمة مدن معينة كانت، بوضوح، خاضعة لحكم السلطان، مع حلول منتصف القرن الثالث عشر، وهي مذكورة في مناشير الإقطاعات. فماهاؤون ما لبثت أن أُلحقت بماهر (ماثورا) وبهايانا وغواليور، لتشكيل ولاية مترامية الأطراف، لكل من نصرت الدين تايسي أيام إلتُتْمش، وشيرخان سنة 657 هـ / 1259 م. وكذلك، فإن خاليسار وبالارام، والثانية إقطاع منذ أيام رضيَّة، كانتا جزءًا من إقطاع شيرخان[61]. ومن جهة أخرى، نرى أن حجم هذه المنح غير الاعتيادية بالذات ينبّهنا مرة أخرى، إلى حقيقة أن الموارد العسكرية الإسلامية كانت محكومةً بأن تتوزع على مساحات واسعة. لا نعود نسمع شيئاً عن ماهر وماهاؤون مرة أخرى، قبل القرن الرابع عشر. وربما جاء إخضاع هذه الأقاليم في أعقاب انتصار غامض، حققه إلتُتْمش عند موقع القوات الغورية في مسرح عملية الإطاحة بملك غاهادافالا جاياتشاندرا، على يد القوات الغورية سنة 590 هـ / 1194م، والذي يذكره الجوزجاني في إشارة عابرة[62]. والعدو

(59) TN، II، 29 (تر. 759). عن جهينجيهانا، انظر DGUP، III، مظفرناغار، 263 ـ 264.

(60) يزداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 28 ـ 30؛ ARIE (1975 ـ 1976)، 178 (رقم د 254)؛ RCEA، XIII (القاهرة، 1944م)، 21 ـ 22 (رقم: 4832).

(61) TN، II، 11، 34، 44، 62، 78 (تر. 733، 767، 794، 824، 849). قد تكون بالارام هي نفسها بيلرام، على مسافة 19 ميلاً إلى الشمال من إيتا، 57 درجة و49 دقيقة شمالاً، 78 درجة و38 دقيقة شرقاً: DGUP، XII. **إيتاه**، 159 ـ 161.

(62) TN، II، 17 (تر. 742 ـ 743). عن تشانداور «قرية قديمة ذات أهمية تاريخية كبيرة»، عند 27 درجة =

هنا، ربما كان ابن شقيق جاياتشاندرا، آجاياسيمها، الذي تمكن، على ما يبدو، من اغتصاب السيطرة على منطقة إيتاوا، أقله، لدى انتقال الأجزاء الباقية من مملكة غاهاضوالا، إلى نجل الملك الراحل[63]. ومهما يكن، فإن المعارضة المحلية لم ينضب معينها قط، وربما انتعشت بعد موت إلْتُتمش. فسنة 642 هـ / 1244م ألحق بلبان دماراً شديداً بإقليمي جارالي وديولي «وماوسات أخرى»، على الحدود الشمالية لإيتاوا[64]. أمّا بعد اعتلائه العرش، فقد اضطر لخوض حملة أطول في الدواب، عاكفاً على بناء القلاع في كل من كامبيل وباتيالي وبهوجبور وجلالي. ومن هذه، فإن باتيالي، على الأقل، كانت بأيدي المسلمين منذ بعض الوقت، لكونها مسقط رأس أمير خسرو، المولود حوالى سنة 651 هـ / 1253م، وقد تمت إعادة تسميتها مُؤْمِنْ بور («بلدة الإيمان») لدى موت بلبان[65]. يقول برني: إن مساجد شيدت في هذه البلدان، وتاريخ 665 هـ (1267م) المنحوت على أحد المساجد في جلالي، يمكننا من تحديد عمليات السلطان، بشيء من الدقة[66]. ومن شأن مثل هذا النشاط العسكري، أن يكون

= و7 دقائق شمالاً، 87 درجة و23 دقيقة شرقاً، انظر DGUP، VIII. **آغرا**، 238 ـ 239؛ عرفان حبيب، **أطلس الإمبراطورية المغولية** (أوكسفورد ودلهي، 1982م)، 27 وخريطة 8 آ.

(63) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، XVIII و92 ـ 94.

(64) TN، II، 53 ـ 54 (تر. 809). ليس قيام رافيرتي بجعل الأولى هي نفسها «جوررولي»، عند نقطة 28 درجة / 17 دقيقة شمالاً و78 درجة / 17 دقيقة شرقاً (809 هـ. 7) مقنعاً. انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 230، حيث يقترح إمّا «جولولي» على مسافة 35 ميلاً إلى الجنوب من فتح غاره أو «جوورلي»، على مسافة 14 ميلاً إلى الجنوب من سكيت؛ هنا وفي I، 402، يساوي بين «ديولي» وبين «دوهلي» ثورنتون في إيتاوا عند النقطة 27 درجة / 2 دقائق شمالاً، 78 درجة / 53 دقيقة شرقاً: قارن DGUP، X، **ماتيبوري**، 204 («ديهولي»).

(65) DGK، 70. ميرزا، **حياة وأعمال**، 16 ـ 17.

(66) TFS، 57 ـ 58. عن الجامع في جلالي، انظر يزداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 25 ـ 26؛ RCEA، XII، 122 (رقم 4885)؛ عن هذه «البلدة القديمة»، على بعد 13 ميلاً شرق أليغاره، عند نقطة 27 درجة / 52 دقيقة شمالاً، 28 درجة / 15 دقيقة شرقاً، انظر DGUP، VI. **أليغاره**، 261 ـ 263. أما بهوجبور فتقع عند نقطة 27 درجة / 17 دقيقة شمالاً، 79 درجة / 48 دقيقة شرقاً، على مسافة ستة أميال إلى الجنوب من فتح غارة DGUP، IX فرّوخ آباد 184 ـ 185؛ عن كامبيل عند نقطة 27 درجة / 39 =

قد وفَّر إمكانية احتلال قلاعٍ معينة مثل قلعة ساكيت (سكيت)، حيث بني أحد المساجد سنة 684 هـ / 1285م[67]. غير أن الضغط الإسلامي على إيتاوا كان متقطعاً، فبقيت عملية تأكيد سلطة دلهي وترسيخها، عملية بطيئة. أما رابري، الواقعة في وادي اليمونه الأسفل، على الحدود الغربية، فلا يرد ذكرها، بوصفها قاعدة إسلامية، قبل عهد علاء الدين خَلْجي[68].

يقول برني، إن حصيلة عمليات بلبان في الدواب، كانت متمثلةً بـ «فتح الطريق الموصلة إلى هندوستان (أي أوَدْ والمناطق الواقعة شرقاً)»[69]. ربما كان أحد الأهداف متمثلاً بحماية وسائل الاتصال مع موقع قِنَّوج الحصين، على الضفة اليمنى للغانج. وفي غضون فترة قصيرة، بعد احتلالها من قبل آيبك في 595 هـ / 1199م يبدو أن الهندوس ما لبثوا أن استعادوا قِنَّوج، لأن فضل فتحها يُعزىٰ إلى إلتُتْمش، الذي صك القطع النقدية التي حملت عبارة «من خراج قِنَّوج»[70]. باتت قِنَّوج بعد ذلك قاعدة هامة، تنطلق منها العمليات الموجهة ضد الأمراء الهندوس، حيث لم يكتف مُقْطَعوها بقيادة الإغارات المحلية على حسابهم الخاص[71] بل وساهموا أيضاً بتوفير الجيوش، كما سنرى، لخوض الحرب في «مالوا» إلى الجنوب. إن حملة الأشهر الأربعة سنة 647 هـ / 1249 ـ 1250م التي شنها جيش ناصر الدين محمود شاه كانت، على ما يبدو، موجهة إلى منطقة قِنَّوج، لأن نقشاً من بيلرام، يسجل استشهاد أحد القادة المسلمين في

= دقيقة شمالاً، انظر المصدر ذاته، 215 ـ 216؛ وعن باتيالي، عند نقطة 27 درجة / 42 دقيقة شمالاً، 72 درجة / 5 دقائق شرقاً، قارن DGUP، XII، إيتاه، 201 ـ 203.

(67) يازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 31 ـ 32؛ RCEA، XIII، 47 ـ 48 (رقم: 4870).

(68) TFS، 328، 333؛ وانظر هوديفالا، دراسات، I، 281. ج. هـ. يازداني، «منقوشات عن سلاطين دلهي الخلجيين ومعاصريهم في البنغال»، EIM (1917 ـ 1918م)، 30.

(69) TFS، 58.

(70) CCIM، I، الجزء الثاني، 21 (رقم: 39). CMSD، 71 ـ 72 (رقم: 52). Tāj في ED، II، TN241، I، 452 (تر. 627).

(71) المصدر نفسه، I، 470 (تر. 665).

هذه الأثناء، عند قرية قريبة من قِنَّوج[72]. وبالمثل فإن من الممكن أيضاً، أن يكون انتزاع الإقليم الممتد بين قِنَّوج ومخفر قارا الأمامي النائي، من أيدي الكفار، قد استغرق فترة زمنية ذات شأن. إن بريهون (برهامون) التي يعرف أنها كانت تقع بجوار قِنَّوج، وسبق لها أن مُنحت كإقطاع من قبل إلْتُتْمش، لا يرد ذكرها مرة أخرى[73]. أما أسوار تيلساندا التي يشبّهها الجوزجاني ببوابات الإسكندر، فلم تسقط إلاّ سنة 645 هـ / 1248م، أمام هجوم شنته عليها قوات محمود شاه[74]. كان، ثمة، سلسلة من النكسات حسب كل الاحتمالات، من تلك النكسات التي أودت بحياة الكثير من المسلمين، الذين جرى تخليد ذكرهم، عبر الكثير من نقوش الأضرحة المختلفة من بيلرام في تواريخ 658 هـ / 1260م، و683 هـ / 1284م، و703 هـ / 1303م، كان آخرها في قلعة تشانداور[75].

إلى الشرق من الغانج، كان موقع بداؤون الحصين ذي الأهمية البالغة، وهو بيد المسلمين منذ سنة 594 هـ / 1198م، يواجه كاتيهر (المقابلة لروهيلخاند الحالية بصورة تقريبية)، التي يتكرر بروزها في مراجعنا، بوصفها المنطقة المأهولة بأكثر أقوام الكفر عناداً وتمرداً. لعل إخضاع هذه البقعة من قبل إلْتُتْمش، الذي يلمح إليه الجوزجاني، قد تم سنة 1227م[76]. غير أن

---

(72) ARIE (1966 ـ 1967م)، 82 (رقم: د 249). عن الحملة، انظر TN، I، 483، وII، 60 ـ 61 (تر. 686 ـ 687، 821).

(73) المصدر نفسه، II، 20، 36 (تر. 746، 779). هذا المكان مذكور من قبل جغرافيي القرن العاشر: المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشر م. ج دو غويه (لايدن، 1877)؛ 478؛ **حدود العالم**، طبعة مصورة، ف. ف. بارتولد (لينتغراد 1930)، ملف 15 ب (تر. مينورسكي، 90)، واضعاً إياها بالقرب من قنوج.

(74) TN، 480، 481 (تر. 679 ـ 680، 681). انظر رافيرتي، 679 ـ 680 هـ. 6، وهوديفالا، **دراسات**، I، 222: قرية تلساندا القريبة من كونبور التي ذكرها الأخير، تبدو محتملة جداً.

(75) ARIE (1966 ـ 1967م)، 83 (أرقام. د 252، د 253، د 255).

(76) حيث عرف أن إلْتُتْمِش كان في بداؤون: ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 80 ـ 89. =

ذلك لم يدم طويلاً، لأن سَنجَري قبقولاق، كمُقْطَع بداؤون في ظل محمود شاه، ما لبث، كما يقال، أن أطاح بـ «**ماواسات** كاتيهر وبداؤون» وقاد عدداً من الحملات، كما أمر ببناء المساجد[77]. وحوالي منتصف القرن الثالث عشر، نسمع عن مراكز أخرى خاضعة للمسلمين في هذه البقاع، مثل سامبهال وكاسراك، اللذين يظهران في البداية كإقطاعين، في عهد محمود شاه، وأمروها التي لم تصبح إقطاعاً إلاّ في ظل بلبان[78]. وسنة 652 هـ / 1254م، خلال حملة عابرة لباردار (هاردوار) وبيجابور، وصولاً إلى ضفاف الرهاب (رامغانغا)، انتقم محمود شاه لفقدان أحد معاونيه، عن طريق «إذاقة كفار كاتيهر هزيمة لن ينساها أهل [تلك المنطقة]، طوال حياتهم»، حسب تعابير الجوزجاني[79]. غير أن الذكرى كانت، على ما يبدو، وجيزة. فاضطرابات 665 هـ / 1266 ـ 1267م، التي عرَّضت بداؤون وسامبهال وأمروها وغانوري للمزيد من أعمال النهب والسلب على أيدي الكفار، ما لبث أن أثارت غضب بلبان على كاتيهر، فمسحَ البلدة، التي كانت تحمل ذلك الاسم عن الأرض، كما أرسل خمسة آلاف من الرماة، لتخريب الأجزاء الباقية من المنطقة ونهبها. ويزعم برني أن اضطرابات أخرى لم تثر في كاتيهر نتيجة لذلك، حتى نهاية حكم جلال الدين خَلْجي[80]، وقد تم خلال عهده، إلحاق تشاوبالا (مرادآباد الحالية) على ضفة الراهب بغانوري،

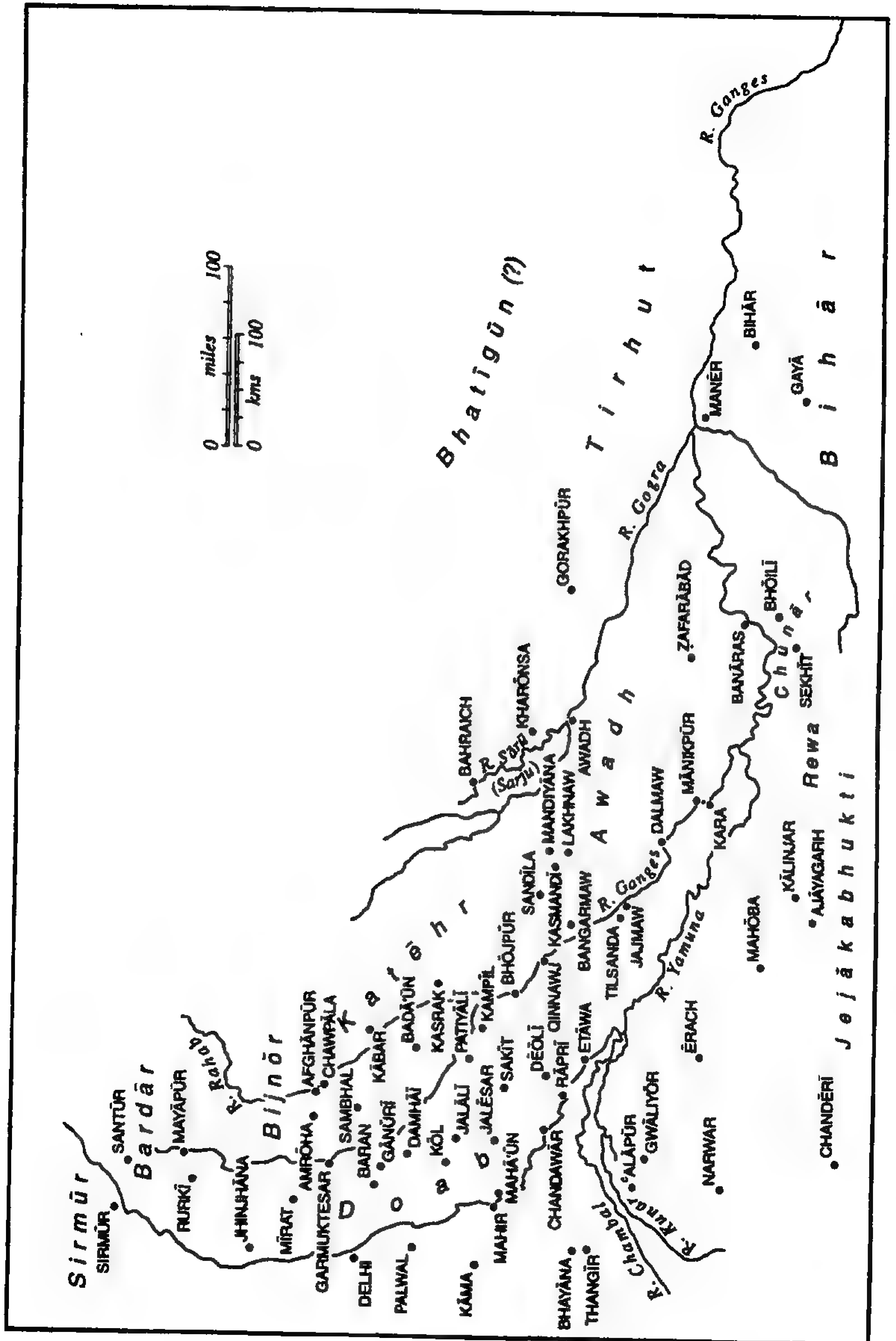
= كاتيهر محذوفة من نسخة TN المطبوعة ولكنها موجودة في مخطوطة BL، ملف 180 أ. والأهمية المتباينة لعبارة «كاتيهر» نوقشت في **دراسات**، ا، 259، لهوديڤالا.

(77) TN، II، 26 (تر. 755).

(78) سامبهال: المصدر نفسه، ا، 482 (تر. 684). أمروها: TFS، 36 ـ 37، وحبيب الله، **أساس**، 156. كاسراك: TN، II، 42؛ يقوم ب. براساد في **منقوشات سنسكريتية**، 81 ـ 82 بجعل المكان متماهياً مع إحدى قرى تحصيل تيلها بمقاطعة شاهجاهبور.

(79) TN، 487 ـ 488 (تر. 696 ـ 698).

(80) TFS، 59. في **دراسات**، ا، 259 ـ 260، لهوديڤالا تتم مماهاة «غانوري» بـ «غنوري» أو «غينوري» ثورنتون، في بولاند شهر، عند نقطة 28 درجة / 20 دقيقة شمالاً، 78 درجة / 4 دقيقة شرقاً.



الحرب ضد القوى الهندوسية في الهند الشمالية

لتشكيل إقطاع ذي مساحة معقولة، مما قد يشير إلى أن الموارد هنا كانت شحيحة[81]. كما أن قبضة الحكم في ظل علاء الدين، كانت آمنة، إلى درجة جعلت المنطقة مؤهلة لضمها إلى أراضي الخالصة[82].

كانت منقطة أَوَذ الواسعة، تقع إلى الجنوب من بداؤون. وفي وقت من الأوقات، كان المسلمون قد احتلوا المدينة التي تحمل هذا الاسم، أيوديا القديمة، التي كانت، في تسعينيات القرن الثاني عشر، إقطاع حسام الدين أوغول بك. ثم لا نلبث، أوائل القرن الثالث عشر، أن نسمع عن بلدات أخرى في المنطقة، باتت مراكز قيادة إقطاعية مثل كاسماندي ومانديفانا (ماندياؤن)، المجاورتين لمدينة لاخناو (لكناو) اللاحقة[83]. لقد لعب مُقْطَع أَوَذ، دوراً بارزاً في الحرب اللامتناهية ضد الكفار. فبعد سنة 623 هـ / 1226م بوقت غير طويل، تمكن ناصر الدين محمود، نجل إِلْتُتْمش الأكبر، الذي كان متمركزاً في أَوَذ، من سحق حاكم يدعى «هاردودال»، يسميه الجوزجاني «بارتو» (ربما كان أحد أتباع الغاهاضوالا)، كان بمثابة الشوكة في جسد المستوطنين المسلمين في المنطقة. غير أن انتصار الأمير، وقد خلّده الشاعر سراجي شعراً[84]، لم يتمخض عن فرض الهدوء على أَوَذ، إذ إن كلاً من تاج الدين سنجر كرت خان، وتاج الدين تنزخان، على التوالي، يجب اعتبارهما صاحبي فضل في

---

(81) TFS، 204 (ك ا ن و د، مصححة عن مخطوطة BL، ملف 110 ب). عن تشاوبالا، انظر MF، 13؛ هوديڤالا، دراسات، I 366؛ DGUP، XVII. مرادآباد، 232.

(82) MF، 21 ـ TFS22 .، 323، 324. عن كابار، أعيدت تسميتها لاحقاً وأصبحت شيرغاره (بلدة قديمة) عند نقطة 28 درجة / 39 دقيقة شمالاً، 79 درجة 22 شرقاً. انظر DGUP، XIII، باريللي، 268 ـ 269.

(83) TN، II، 29، 72 (تر. 759، 838). عن كاسماندي، انظر هوديڤالا، دراسات، I، 233، وDGUP، XXXVII. لكناو، 195 ـ 196. عن ماندياؤون، عند نقطة 26 درجة / 56 دقيقة شمالاً، 80 درجة / 58 دقيقة شرقاً، انظر المصدر نفسه، 254 ـ 257؛ حبيب، أطلس، خارطة رقم 8 أ.

(84) صدّيقي، «معلومات تاريخية»، 55 ـ TN56 .، I، 453 (تر. 628 ـ 629). ثمة نظرة أخرى في حبيب الله، أساس، 111 هـ. 99، كان هوديڤالا، دراسات، I، 218 مخطئاً بالتأكيد حين ربط «بارتو» بأحد الراجات في منطقة بيهتارغاره الواقعة في البنغال الشرقي.

استئصال جذور الماوسات من المنطقة، في العقود التالية[85]. أما بعد ذلك، فثمة نوع من الفراغ في معرفتنا بالتطورات الجارية هنا، حتى الفترة التُغْلُقية، على الرغم من إطلاعنا، أحياناً، على أسماء مُقْطَعي أوَدْ، بمن فيهم سلطان المستقبل علاء الدين، لفترة قصيرة من الوقت.

كانت بَنَارِس قد انتُزعت من أيدي الغاهاضوالا في 590 هـ / 1194م، وكان محمد بن بختيار قد استغل مشكلات أولئك القوم، ليقيم قاعدة في إقليمي سخيت وبهويلي، في منطقة التشونار على الضفة المقابلة للغانج، ويطلق منها سلسلة من العمليات ضد مانَرْ وبيهار[86]. غير أن موطئ القدم أو رأس الجسر الإسلامي، هنا كان عابراً، سريع الزوال. فالغاهاضوالا ظلوا يقاومون ويرفضون الإذعان، في الأجزاء الأكثر استعصاء وصعوبة من منطقتي بَنَارِس وتشونار؛ وعلى الرغم من أن الجوزجاني يورد بَنَارِس، في قائمة المواقع الحصينة التي استولى عليها إلْتُتْمش، منتزعاً إياها من أيدي متمردين مسلمين مهزومين، فإنها لا تُذكر بوصفها إقطاعاً مرة أخرى، وتختفي عن الأنظار. أما الكتابة المنقوشة الأولى، التي تشهد على وجود الحكم الإسلامي، فتعود إلى عهد حكم قطب الدين مبارك شاه خَلْجي (716 ـ 720 هـ / 1316 ـ 1320م)[88].

الطريق إلى البنغال

كانت بلدة بهراتش القديمة، التي تؤوي ضريح مجاهد مسلم، ذي

---

(85) TN، II، 27، 29 (تر. 757، 760).

(86) المصدر نفسه، ا، 423: انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 206، عن تماهي هذين المكانين حيث الثاني، أي «بهويلي» عند نورنتون، يقع في نقطة 25 درجة / 6 دقائق شمالاً، 83 درجة / 3 دقيقة شرقاً؛ أيضاً DGUP، XXVII. ميرزابور، 278 ـ 284.

(87) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 56 ـ 70 (رقم: II: 5 ـ 6). انظر بصورة أعم، نيوغي، **تاريخ أسرة عنها ضوالا الحاكمة**، 113 ـ 119.

(88) ARIE (1971 ـ 1972م)، 91 (رقم: د 170).

أصول غامضة يُدعىٰ، سلار مسعود، والذي أصبح مزاراً رئيسياً يقصده الحجاج، قد أصبحت القاعدة الإسلامية الأبعد فيما وراء أوَدْ باتجاه مناطق الكفار في نيبال وتيرهوت في العقود الأولى من القرن الثالث عشر(89). لقد تم احتلال بهراتش هذه، من قبل المسلمين، في عهد إلتُتمش؛ ويعلن الجوزجاني متباهياً، أن ولي نعمته وسيده ناصر الدين محمود شاه، شن حرباً مقدسة (جهاداً) ضد أقوام هندوسية غير محددة، قبل اعتلائه العرش(90). ربما كانت تلك المناطق نفسها، التي نهبها وخربها جلال الدين خَلْجي سنة 690 هـ / 1291م، غداة انتصاره على المتمرد مالك تشهاجّو، لأن أمير خسرو يقول إنه كان يسعى، عبر قطع أشجار الأدغال والغابات، إلى فتح الطريق المؤدي إلى لخناوتي: صحيح أن ماوساً بعد ماوس صار يقدم الخراج والجزية للسلطان، غير أن ما يدعو للأسف، هو أن أياً من الأماكن التي يذكرها خسرو، لا يمكن التعرف عليه(91). يؤكد برني أن (أمير) راي غوراخبور كان قد دفع الجزية إلى الناحية الإدارية (الشقّ) في أوَدْ، قبل حركات التمرد التي شهدها عهد محمد بن تُغلُق(92)؛ غير أن احتمال أن تكون العلاقة عائدة إلى القرن الثالث عشر، يحيطه الشك.

خلال فترة السلطنة الأولى، دأبت الجيوش الإسلامية على الإغارة على كل من تيرهوت (بيهار الشمالية)، ومنطقة نيبال المجاورة المعروفة باسم «بهاتيغون»، أيام الجوزجاني. كانت تيرهوت قد دفعت الجزية لغياث الدين عِوض، وهذا دون شك، هو ما يدعو الجوزجاني إلى إيراد المنطقة في قائمة

---

(89) إ. هـ. صديقي «ملاحظة عن دارغاه سلار مسعود في بهراتش في ضوء المصادر التاريخية المتداولة»، في كريستيان و. ترول (محرراً)، **الأضرحة الإسلامية (المزارات) في الهند** (دلهي، 1989م)، 44 ـ 47.

(90) إلتُتمِش: عوفي، **لباب الألباب**، ا، 115. محمود شاه: TN، ا، 470، 478 (تر. 665، 676).

(91) MF، 22 ـ FS23 .، 224 (تر. 390 ـ 391). TMS، 64، متضمناً صدى باهتاً لهذه الحملة في جملة مشوهة بوضوح.

(92) TFS، 587 ـ SFS588 .، 33، يزعم بالمثل أن «كاروسا» وغوركبور كانتا تابعتين لأوَدْ.

فتوحات إلتُتْمش[93]، كما أن طُغرُل طوغان خان، مقطع بيهار ولخناوتي، في عهد رضية، قد شن غارة ناجحة على تيرهوت[94]. غير أن تيرهوت هذه، كانت أيضاً، عرضة للهجمات الآتية من الجهة المقابلة. فمُقْطَع رضيَّة في أوَدْ، تيمورخان، توغل «حتى أطراف تيرهوت»، وفرض الجزية على بهاتيغون[95]؛ ثم جاء بلبان بداية سنة 654 هـ / 1256م، في أعقاب خصمه قُطْلُغ خان، ليقود جيشاً وصل به إلى «بهاتيغون وأطراف تيرهوت»، وعاد محمَّلاً بالكثير من الغنائم[96]. في 702 ـ 703 هـ / 1302 ـ 1303م، نجد مُقْطَع قارا، قائداً لجيوش «الشرق والبنغال وتيرهوت»[97]، مما يشكل لغزاً، لأن البنغال لم يكن، بَعْدُ، يشكل جزءاً من ممتلكات السلطان. وفيما عدا ذلك، لا نعود نسمع شيئاً عن أية هجمات إسلامية على تيرهوت، إلى أن تصل حملة غياث الدين تُغْلُق سنة 724 هـ / 1324 م.

من الواضح أن عملية إخضاع بيهار، التي لا يقدم الجوزجاني عنها أية تفصيلات، باستثناء قصة احتلال المدينة نفسها (الشبيهة حسب كل الاحتمالات بأودّاندابوري)[98]، كانت تدريجية. فغايا (فاجراسانا)، التي كانت تحت الحكم

(93) TN، I، 437 (تر. 587 ـ 588)؛ محذوفة من فتوحات إلتُتْمِش في I، 452، ولكن انظر مخطوطة BL ملف 180 أ.

(94) TN، II، 14 (تر. 737).

(95) المصدر نفسه، II، 17 ـ 18 (تر. 743). هنا (هـ. 3) يقوم رافيرتي، الذي كان قد سبق له أن تعرف على هذه المنطقة بشكل صحيح (المصدر نفسه، 639 هـ. 8؛ قارن أيضاً 567 هـ. 1)، بتحديدها على أنها «المساحة الواقعة على الضفة اليسرى من السوق، إلى الشرق من بنارس». قارن أيضاً، حبيب الله، أساس، 150، الذي يحددها، حاذياً حذو كنتغهام، على أنها وادي التونز («بهاث ـ غورا»). غير أن هذا يعني تجاهل الارتباط بتيرهوت التي يوردها الجوزجاني في المناسبتين. ربما كان الاسم ذا علاقة ببلدة بها تفاؤون، انظر IG، VIII، 89، بشأنها.

(96) TN، II، 71 ـ 72.

(97) TS، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 أ؛ TFS، 300.

(98) TN، I، 423 (تر. 551 ـ 552)؛ ثمة إشارة وجيزة إلى فتح إقليم بيهار في I، 425 (تر. 556). عن أوذاندابوري، انظر شري حسن نشأت أنصاري، «جغرافية بيهار التاريخية عشية الغزو التركي المبكر»، JBRS 49 (1963)، 257 هـ. 3.

الإسلامي سنة 1219م[99]، لم تعد بأيدي المسلمين حين مر الناسك البوذي دهارماسفامين ببيهار سنة 1234 م؛ على الرغم من شهادته البليغة على النشاط العسكري الإسلامي المستمر، في كل من بيهار وتيرهوت[100]. في أعقاب قيام بلبان باستعادة الأقاليم الشرقية بعيد حوالي سنة 665 هـ / 1267م، ربما كانت غايا ما تزال غير محتلة، لأن حاكماً محلياً يتباهى في كتابة نقشية تعود إلى 1268م، بأنه حفظ منطقته من السلطان[101].

يعود جزء كبير من فضل نشر الإسلام في البنغال الغربي، إلى الحكام الخَلْج، الذين يتم إغراقهم بالمديح، لقيامهم ببناء المساجد والمعاهد **(المدارس)** والمصحات **(الخاناقامات)**، كما لاتصافهم بالسخاء إزاء علماء الدين الإسلامي (رجال الدين) والسادة[102]. غير أن شُحّاً في المصادر، يجعل مسار الاستيطان الإسلامي هنا، أكثر غموضاً، حتى مما هو مذكورٌ عن الأماكن الأخرى. فبعد الجوزجاني، تلقي الكتاباتُ المنقوشة، الضوءَ على أن أحد المواقع الحصينة الإسلامية التي يذكرها ـ موقع ديوكوت الذي كان العاصمة إلى حين استلام عوض السلطة ـ كان لا يزال مركزاً للنفوذ الإسلامي، آخر القرن الثالث عشر، في ظل السلاطين الغياثيين المستقلين؛ غير أن مواقع أخرى ـ مثل نارانغوي أو باسانكوت (التي أسسها عوض) ـ لا تطفو على السطح مرة أخرى[103]. إن الجوزجاني يميز، بين منطقة رال (راره)، بمركزها في لاخنور،

---

(99) ARIE (1962 ـ 1963م)، 24، 80 (هـ. ن 261).

(100) ج. روريخ، **سيرة حياة دهارماسفامين (تشاغ لو ـ تسا ـ با تشوس ـ رجه ـ دبال)**، (باتنا 1959)، 61 ـ 64. عن التاريخ، انظر المقدمة التي كتبها أ. س. آلتيكار، V - VI؛ وعن الضغط الإسلامي على بيهار، **المصدر نفسه**، XIX.

(101) حسن نشأت أنصاري، «منقوش غايا، 1325» حيث يلاحظ أن بلبان يرد على شكل **بيرونا** JBRS 53 (1967م)، 170 ـ 181: يبقى المحقق متشككاً فيقترح أن هذا الأمن تم شراؤه بالجزية.

(102) TN، I، 427، 436 (تر. 559 ـ 560، 583).

(103) باسانكوت، **المصدر نفسه**، I، 436 (تر. 581 ـ 582). نارانغوي: I، 432، 434 (تر. 572، 574، 577). غانغوري: I، 433 (تر. 575). ديوكوت: I، 431 ـ 434 (تر. 572، 574، 576، 578)؛ =

إلى الغرب من نهر الغانج، وبين باريند (فاريندرا)، تلك المساحة الممتدة إلى الشرق من النهر، التي كانت تضم ديوكوت[104]. إننا، ببساطة، لا نعرف شيئاً عن تاريخ استعادة لاخنور، بعد أن احتلها الهندوس سنة 642 هـ / 1244 م.

دأب عوض على ابتزاز الجزية والخراج من ملوك السينا في البنغال الشرقي (بانغ)، وتم الحفاظ على هذا الضغط، بعد قيام إلْتُتمش بفتح لخناوتي من قبل ممثليه. لقد كان ثاني هؤلاء، سيف الدين آيبك، مديناً بلقبه **باغانتوت** إلى الأعداد الهائلة من الفيلة التي حصل عليها، عن طريق النهب من بانغ وما لبث أن أرسلها إلى السلطان[105]. وسنة 653 هـ / 1255م، يصك طُغرُل اختيار الدين يوزبك قطعاً نقدية من «الموارد (الخراج) المأخوذة من منطقة (أرض) بادار ونوديا»[106]؛ والإتيان على ذكر المدينة الثانية، مؤشر يدل على أن السينا كانوا، ذات يوم، قد عادوا واحتلوا عاصمتهم القديمة. وقد استمر هؤلاء إلى النصف الثاني من القرن، حيث حلت محلهم، على ما يبدو، قوة منافسة، كانت قد برزت في تيبّراه. وهذه المنطقة التي يطلق عليها برني اسم «جاجنَغَر»، ربما كانت موضوع غزو مربح، بالنسبة إلى معاون بلبان، طُغرُل، حين كان حاكماً للخناوتي، بعد تمرده على السلطان مباشرة، واستيلائه على لقبه الإمبراطوري[107]. كان أحد الملكين المعروفين من أسرة تيبّراه الحاكمة، هو «الدانوج راي» السونارغاوني (سونارغاون) الذي ما لبث أن أخذ بالثأر

= عبد الكريم (محرراً)، **مجموعة المنقوشات العربية والفارسية في البنغال** (داكا، 1992م)، 48 ـ 53. عن المواقع المحتملة لبعض هذه الأماكن، انظر موغوهان تشاكرافارتي، «ملاحظات عن غاور وأماكن قديمة أخرى في البنغال»، JASB رقم: 5 (1909م)، 199 ـ 235.

(104) TN، I، 436 ـ 437، واا، 13 (تر. 584 ـ 585، 737).

(105) المصدر نفسه، II، 9 ـ 10 (تر. 732). عن تو. **باغانتوت**، (قنص الفيلة)، انظر كلاوسون، **قاموس...**، 904، بالارتباط مع راسيوني، «**أسماء أشخاص...**»، 241 ـ 242.

(106) CCIM، 146 (رقم: 6 CMSD، 55 (رقم 225 د).

(107) TFS، 82، 83. عن استخدام برني (جاهاجناغار، «مدينة القوارب أو السفن»)، انظر تشاكرافارتي، «ملاحظات حول غاور»، 217.

عن طريق التعاون مع بلبان، والاضطلاع بمهمة الحيلولة دون هرب المتمرد[108].

لم تكن بانغ، إلاّ واحدة من المناطق، التي وفّرت فيضاً من العائدات لحكام لخناوتي المسلمين. صحيح أن أحداً لم يحاول محاكاة محمد بن بختيار، الذي كان قد عاد مهيض الجناح من حملة كارثية، عبر منطقة براهمابوترا العليا، ربما إلى أعماق إقليم أسّام، الذي يطلق عليه المسلمون اسم كامروب أو كامرود[109]؛ غير أن خلفاءه في لخناوتي، نجحوا في إدارة سلسلة من العمليات، عبر مساحات واسعة. كان عوض يجبي الجزية، ليس فقط، من كامروب، بل ومن مملكة غانغا الشرقية في أوريسّا، المعروفة في المراجع الإسلامية عادة، باسم جاجنَغار[110]. وبالمحصلة، فإن ولاة سلطان دلهي كانوا أقل نجاحاً. فقد ابتُلي طوغان خان سنة 641 هـ / 1244م بحرب متواصلة مع ملك جاجنَغر، تمخضت عن قيام جيش الهندوس باحتلال لاخنور، حيث سقط معاون طوغان خان قتيلاً، في المعركة، وباتت لخناوتي نفسها مهددة: ولم يتم إنقاذها إلاّ بفضل وصول الجيوش المرسلة من سلطان دلهي في الوقت المناسب[111]. من الواضح، أن ذكرى هذه الهزيمة في جاجنَغر، قد جرى تخليدها في كتابة منقوشة، تعود إلى الملك ناراسيمها الثاني، ملك أوريسّا، أشارت إلى انتصار أبيه على «يافانا رادها» (راره)

(108) TFS، TMS87.، 42 ـ 43. اعتُبر متماهياً مع آريراجا دانوجامادهاڤا ديساراتاديڤا، الذي مَنح لوحةً نحاسية في هذا الوقت تقريباً: حبيب الله، **أساس**، 183 هـ. 32؛ راي **تاريخ**.. ، 383 هـ. 1؛ وللاطلاع على استعراض للسينا اللاحقين، **المصدر نفسه**، 379 وما بعدها.

(109) TN، I، 427 ـ 432 (تر. 560 ـ 572). عن هذه الحملة، انظر البينات التي استعرضها ديغبي، **جياد الحرب والفيلة**، 45 ـ 46؛ قارن الفرضية المثيرة للشك في ز، ف. طوغان، «عن حملة أتراك الخلج الهنود ضد كيرايت منغوليا في التيبت الشمالي بين سنتي 1205 ـ 1206 م»، JPHS 12 (1964)، 187 ـ 194، وفي **وقائع جلسات مؤتمر المستشرقين الدولي السادس والثلاثين** (دلهي، 1968)، 174 ـ 178.

(110) TN، I، 437 (تر. 587 ـ 588).

(111) المصدر نفسه، II، 15 (تر. 739 ـ 740).

وفارندرا»[112]. أمّا المهانة التي لحقت بطوغان خان، فقد جرى الانتقام لها بعد حوالي عشر سنوات، على يد يوزبك، الذي استباح عاصمة ملك جاجنَغَر، في موقع غير معرف، يدعى «أومردان»[113]. غير أن يوزبك نفسه، لقي حتفه حوالي سنة 655 هـ / 1257م، وهو ما يزال مشغولاً بغزوة طموح ومغامِرة لكامروب[114]. فمن فصل يطلق عليه اسم **فتح نامه** في كتاب **رسائل الإعجاز** لأمير خسرو، يتضح أن بلبان نفسه تولى، سنة 680 هـ / 1282م، قيادة حملة توغلت في أوريسّا، وتمخضت عن إلزام الملك «مال ديو» بتقديم فروض الطاعة والخضوع[115].

كانت حقبة السلاطين الغياثيين وخلفائهم، من سلالة فيروزي آيتكين المستقلة، مطبوعة بنجاحات ذات شأن، على حساب القوى الهندوسية المستقلة، داخل البنغال بالذات. فمن قطعة نقدية صادرة عن حفيد بلبان: كيكاوس، ومصكوكة «من خراج بانغ»، يتضح أن جزءاً من الدلتا، الشرقية كان قد بات، مرة أخرى، تابعاً للمسلمين[116]. وفي ظل شمس الدين فيروز شاه، تظهر سونارغاؤن على المسرح، بوصفها مدينة إسلامية متخصصة بصك النقد. وكذلك، فإن ساتغاؤن (ساتغاون) تبدو ملحقة بدائرة نفوذه، كما تم بناء مسجد في تريبني، على الهوغلي، سنة 698 هـ / 1298 ـ 1299 م. فالكتابات المنقوشة، تكشف عن أن سريهات (سيلهت)، الواقعة إلى الشرق من براهما

---

(112) ن. فاسو، «منقوشة نحاسية لتزسيمها ديف الثاني ـ أوريسا، تاريخ 1217 م. تشاكا JASB، 65، الجزء الأول (1896م)، 232، 234، 267 (البيت: 84).

(113) TN، II، 31 (762 ـ 763). حبيب الله، أساس، 144، كان متشككاً حول كون «أوماردان» في أعماق أوريسا فعلاً.

(114) TN، II، 32 ـ 33 (تر. 764 ـ 766).

(115) RI، V، 5 ـ 13: انظر 8 ـ 11 عن «مال ديو»؛ 13 عن التاريخ. عنوان خسرو لـ **فتح نامه** لا يشير إلاّ إلى لخناوتي، مما ضلل ميرزا، **حياة وأعمال**، 219.

(116) هـ. إ. ستابلتون، «مساهمات في تاريخ أعراق شمال ـ شرق الهند ـ IV. تأريخ بنغالي خلال فترة الحكم الإسلامي المستقل. الجزء I، 686ـ 735 هـ (1286 ـ 1334م)» JASB، رقم: 18 (1922م)؛ 410.

بوترا مباشرة، قد أُخضعت في 703 هـ / 1303م[117]. وقد كان من شأن جميع هذه الأماكن، أن تخضع، بصورة عابرة، لحكم سلطان دلهي، نتيجة حملة غياث الدين تُغْلُق سنة 724 هـ / 1324م.

بندلخاند ومالوا

نشأت بلدة بهايانا مع استيطان سلطانكوت، التي أسسها بهاء الدين طُغرُل كجزء من استراتيجية لأخذ غواليور[118]. فغواليور هذه التي كانت قد خضعت لآيبك في 597 هـ / 1200 ـ 1201 م، استعادها الهندوس، بعد موت آيبك دون شك، غير أن المدينة ما لبثت، سنة 630 هـ / 1233 م، أن سقطت بيد إلتُتمش بعد حصار دام أحد عشر شهراً؛ ففر ملك بارتيهارا (باريهار) الأخير «مانغال ديو» إلى ناروار[119]. وقد كان نصرت الدين تايسي، الذي عينه إلتُتمش مُقْطَعاً لكل من بهايانا وسلطانكوت، ومحافظاً (شحنة: مقيماً) لغواليور، مكلفاً أيضاً بتولي القيادة العامة لجيوش قِنَّوج وماهر وماهاؤون، بما قد يشير إلى مدى الأهمية التي كان السلطان يعلقها على هذه الجبهة بالذات[120]. ومن هذه القواعد شن القادة المسلمون حربهم ضد مملكة تشانديلاً في جيجاكابهوكتي (بندلخاند الحديثة). كانت عاصمتها، كالينجار، قد سقطت بيد قطب الدين آيبك في 599 هـ / 1203، غداة موت الملك بارامارديديفا، وأصبحت إقطاعاً لفترة وجيزة من الوقت[121]. غير أن

---

(117) عبد الكريم، **مجموعة...**، 35 ـ 36. ستابلتون، 411 ـ 412. عن نقش سيلهت، انظر أحمد حسن داني، نقوش البنغال الإسلامية (داكّا، 1957م)، 7 (رقم: 9). انظر عموماً ماجومدار، **تاريخ البنغال الوسيط**، 17 ـ 19.

(118) TN، I، 421 (تر. 545)؛ قارن أيضاً، II، 34 (تر. 767).

(119) المصدر نفسه، I، 448 (تر. 619). عن آخر ملوك براتيهارا، انظر راي، **تاريخ...**، 829 هـ. 1، 834 هـ. 1.

(120) TN، II، 10 ـ 11 (تر. 732 ـ 733).

(121) Tāj، ملف 182 أ ـ 185 أ.

ترايلوكيافارمان، نجل باراماردیدیفا ووريثه ما لبث، على ما يبدو، أن استعادها في السنوات الأخيرة من حكم إلتُتمش[122]. صحيح أن تايسي ألحق الهزيمة بترايلوكيافارمان مستولياً على مظلة الراي (الملك) وبيارقه الشعائرية في أثناء المطاردة[123]، غير أن النشاط العسكري الإسلامي لم يتمخض عن أي تأثير ذي شأن بالنسبة إلى مملكة تشانديلاّ. وعلى الرغم من أن كالينجار لم تؤسس من جديد كعاصمة بعد استعادتها، وكان الملوك يقيمون عادة في آجاياغاره، على مسافة حوالى عشرين ميلاً إلى الجهة الجنوبية ـ الغربية، فإن هذا قد كان، على ما يبدو، التنازل الوحيد الذي قدمه حاكم تشانديلاّ الذي استمر يلقّب نفسَه «ملك كالينجار» لأية سلطة إسلامية. ففي كتابةٍ منقوشة عائدة للابن فيرافارمان يُعزى فضل «انتشال الأرض الغارقة في البحر الذي شكلته سيول التوروشكا (الترك) المتدفقة» للأب ترايلوكيافارمان[124]. وقد أصدر فيرافارمان نفسه لوحة نحاسية قدمها سنة 1280 م هدية إلى نبيل كان قد سحق «التوروشكا» (الأتراك) مع آخرين[125]. وكذلك فإن هؤلاء الحكام لم يحيدوا قيد أنملة عن واجب محاربة الجيران الهندوس، ولا سيما ملوك القالاتشوري في تشَدي والجاجابيلاّ في ناروار[126].

---

(122) TN، II، 10 ـ 11، 12، 62 ـ 63 (تر. 733، 734 ـ 735). ك. ن ديكشيت، «ألواح غارّا عن التشانديلا ترايلوكيافارمان: 1261 م»، EI 16 (1921 ـ 1922م)، 272 ـ 277. ر. ك. ديكشيت، **الكانديلاّ**، 157 ـ 158، حاذياً حذو راي، **تاريخ**. . . 725، يرىٰ أن ترايلوكيافارمان استعاد كالينجار في وقت مبكر يعود إلى 1205 م.

(123) TN، II، 10 ـ 11، 12، 62 ـ 63 (تر. 733، 734 ـ 735، 834 ـ 835).

(124) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 100 ـ 105 (البيت 7).

(125) السير ألكساندر كننغهام، «تقرير جولة في بوندلخاند وريوا في 1883 ـ 1884 م»، ASIR 21 (1885م)، 75. المنحة لم تعد موجودة: راي، **تاريخ**. . .، 732، حيث يرد التاريخ، فيكراماساموات 1237م خطأً، والصحيح هو 1337 م.

(126) عن الهجوم على ناروار، انظر د. سي. سيركار، «منقوشات من أيام ياجفابالا غوبالا»، EI 31 (1955 ـ 1956م)، 326 ـ 327؛ وعن العلاقات مع الجاجابيلاّ عموماً، انظر ر. ك. ديكشيت، **الكاندبلاّ**، 168، 170.

خلال مسيرة العودة من غزوه لمملكة التشانديلاّ سنة 632 هـ / 1235 م، كان تايسي قد وقع في كمين نصبه له حاكم يطلِق عليه الجوزجانيُ اسمَ «تشاهاري آجاري». كان ذلك هو الصدام الإسلامي المسجل الأول مع تشاهادادیفا، ثاني ملوك الجاجابيلا (ياجفابالا)، الذين تمكنوا، في حوالى هذا التاريخ، من انتزاع موقع ناروار الحصين من أيدي البراتيهارا لتحويلها إلى مقر إقامة لهم. لقد سمع الجوزجاني، الذي كان قاضياً لغواليور في ذلك الوقت، رواية لقصة الاشتباك من فم الأمير المخضرم نفسه، ومن الواضح أن تايسي كان قد أخرج جيشه من الورطة بقَدْر غير قليل من الصعوبة[127]. وقد مات بعيد تولي رضيّة للحكم، وسنة 635 هـ / 1238 م قامت جيوشها بإجلاء أهالي غواليور المسلمين[128]. صحيح أن الجوزجاني احتفظ بمنصبه كقاض، وقد تأكد الأمر سنة 643 هـ / 1245 م، غير أنه كان في كل من المناسبتين يحصل في الوقت نفسه على منصب في دلهي، مما يشي بأن منصب غواليور لم يكن إلاّ شكلاً من أشكال غياب الثقة in partibus infidelium[129]. أما أن القلعة الكبرى قد أصبحت في الأراضي المعادية فيتجلى من الحملة التي شُنَّت في إحدى فترات حكم رضيّة من قبل تيمورخان قيران انطلاقاً من أوَدْ باتجاه «غواليور ومالوا»، تلك الحملة التي يقال إن تيمور أبلى فيها بلاء حسناً متميزاً[130].

لا شك أن العدو كان ملك الجاجابيلاّ. ففي وصفه لحملة أُلُغ خان بلبان

---

(127) TN، II، 11 ـ 12، 62، 63 (تر. 733 ـ 734، 824 ـ 825). عن التحديد الصحيح لـ «تشاهار»، انظر م. ب. غارده، «ملاحظة عن الياجافابالا أو الجاجابيلاّ في ناروار»، IA 47 (1918م)، 241 ـ 244، داحضاً الرأي القائل بانتمائه إلى فرع التشاوهان؛ رغم أن النظرة القديمة يكررها راي، **تاريخ**...، 1103 ـ 1104. تجري مناقشة اسم «آجاري» الثاني في هوديفالا، **دراسات**، I، 224 ـ 225، حيث يتم ربطه بموقع آجار، على بعد 40 ميلاً تقريباً إلى جنوب ـ شرق ناروار.

(128) TN، II، 25 ـ 26 (تر. 754 ـ 755). جرى نقل المبعوثين المغول المحتجزين في غواليور إلى قنّوج: **المصدر نفسه**، II، 214 (تر. 1285). عن موت تاييس، انظر **المصدر نفسه**، I، 458، وII، 13 (تر. 639 ـ 640، 735 ـ 736).

(129) المصدر نفسه، I، 460، 470 (تر. 644، 667).

(130) المصدر نفسه، II، 17 (تر. 743).

ضد هذا الملك سنة 649 هـ / 21251 م ـ 1252 م، يقول الجوزجاني إن بلبان تقدم باتجاه «غواليور وتشاندري ونوزوُل (ناروار) ومالوا»، ويتحدث عنه (عبد الملك) بوصفه «أعظم رايات (ملوك) ذلك البلد». نجح بلبان في أخذ ناروار واستباحتها[131]. يبدو أن غواليور استبعدت عند هذا المنعطف لأن إدارة القلعة سنة 657 هـ / 1259 م، مع إقطاع واسع مؤلف من كول وبهايانا وبالارام وماهر وماهاؤون وغيرها من المناطق، كانت أُحيلت إلى ابن عم بلبان، شيرخان[132]. مرة أخرى قد تشي عملية تجميع الموارد المبعثرة على نطاق واسع بهشاشة السلطة الإسلامية من جهة وبضخامة التهديد الهندوسي من جهة ثانية. من الواضح أن غواليور التي استطاع الجوزجاني أن يعتبرها «أحد المواقع الإسلامية الحصينة الشهيرة» كانت قد عادت ثانية إلى أيدي الهندوس مع حلول السنوات الأخيرة من حكم بلبان، لأن بين أولئك الذين تم إلحاق الهزيمة بهم على يد النبيل الذي حصل على المنحة آنفة الذكر من عاهل التشانديلا، فيرافارمان، سنة 1280 م، كان هاريراجا الغوبا غيري أي الغواليوري[133]. ما لم يكن هاريراجا حاكماً عميلاً تابعاً لسيادة السلطان، وهذا غير وارد، فإن المنحة تبين أن القلعة كانت قد انزلقت مرة أخرى من أيدي المسلمين. ويتأكد هذا الاحتمال بواقع قيام جلال الدين خَلْجي بحملة سَلْب واستباحة على غواليور قبيل اغتياله سنة 695 هـ / 1296 م[134].

أما فيما يخص تشاهاداديفا فلا يمكن التعديل كثيراً على تأكيد الجوزجاني الذي يقول إنه تعرض للإطاحة به كلياً وللاستئصال من مملكته. فالقطع النقدية

---

(131) المصدر نفسه، I، 485 ـ 486، وII، 62، 63 (تر. 690 ـ 692، 824 ـ 825).

(132) المصدر نفسه، II، 44 (تر. 794)؛ وعن التاريخ، قارن I، 495 (تر. 712 ـ 713).

(133) كننغهام، «تقرير جولة...»، 74 ـ 76. عن العبارة المأخوذة من الجوزجاني، انظر TN، II، 44 (تر. 794).

(134) TFS، 223، 228، TMS، 67؛ عن زعم سر هندي بأن غواليور باتت ثانية بأيدي المسلمين مع حلول العام الأول من عهد علاء الدين، انظر المصدر نفسه، 72.

والمنقوشات العائدة لأسرة جاجابيلاّ الحاكمة تفرض تقويماً أكثر حصافة، نظراً لأنها تسلط الأضواء على حقيقة أن تشاهاداديفا وخلفاءه حافظوا على تحكمهم بناوار حتى القرن الرابع عشر. يبقى المصير النهائي للحاجابيلاّ غامضاً، ويفترض عادة أنهم ذهبوا ضحية غزوة غير مسجلة شنتها قوات علاء الدين خَلْجي[135]. لعل حملة كهذه هي التي تمخضت عن قيام المسلمين باحتلال تشاندري، الأمر الذي يُعرف بأنه حصل قبل 711 هـ / 1312 م[136].

إلى الجهة الشمالية الشرقية من مملكتي الجاجابيلاّ والتشانديلاّ، وقع مخفرا قارا ومانيكبور الأماميان الإسلاميان، اللذان يتكرر ربط أحدهما بالآخر في المصادر. فالأولى: قارا اعترفت بالسلطة الإسلامية في تاريخ مبكر يعود إلى عهد آيبك وكانت مقراً لأحد الأمراء في أيام إلتُتْمش[137]. لدى كونه مُقْطَعاً في قارا خلال عهد رضية، قال إن تيمور خان قيران نفذ الكثير من عمليات الإغارة على الكفار، ولكن دون إعطاء أية تفاصيل[138]. وسنة 645 هـ / 1248 م نجد جيش ناصر الدين محمود شاه متمركزاً في قارا، في حين قام بلبان بقيادة فرقة ضد حاكم هندوسي يدعوه الجوزجاني «دالاكيمالاكي»(؟). تبقى الانتماءات الملكية لهذا الأمير الذي يُزعَم أنه كان يشغل المناطق الممتدة على ضفة اليمونه بين قارا وكالينجار، غير مؤكدة؛ غير أن من الواضح أنه لم يكن من التشانديلاّ، لأننا نعلم أن «رايات (أمراء) سهول (أطراف) كالينجار ومالوا «كانوا عاجزين عن إخضاعه. تعرض موقعه الحصين للنهب على أيدي

(135) سيركار، «منقوشات من أيام ياجفابا لاغوبالا»، 323، 336، أيضاً «ياجفابالا غوبالا»، IHQ، 32 (1956م)، 399 ـ 405.

(136) ز. أ. ديساي، «منقوشات تشاندري عن علاء الدين خلجي»، EIAPS (1968م) 4 ـ 10. قارن أيضاً 627.

(137) ARIE، (1969 ـ 1970م) 11، 98 (رقم) د 214)، TN. 452. عن قارا. انظر عموماً لايق أحمد، «قارا».

(138) TN ,II، 17 (تر، 743).

(139) المصدر نفسه، ا، 481 ـ 482، واا، 57 ـ 58 (تر. 681 ـ 683، 816 ـ 818). راي، **تاريخ**. . .، 729 ـ 730، وهوديفالا، دراسات، ا، 222 ـ 223، ظنّ «دالاكيمالالي» هو ملك التشانديلاّ، ترايلو كيافارمان؛ غير أن رواية الجوزجاني توحي بزعيم أقل نفوذاً.

المسلمين، وجرى أسر أفراد عائلته ومن كان يعيلهم»[139]. ذلك كان الانتصار الذي يحدثنا الجوزجاني عن أنه خَلَّد ذكراه في ملحمته المفقودة: ناصري - نامه؛ غير أن من الصعب مقاومة الانطباع القائل أن الحملة كانت على نطاق تافه نسبياً على الرغم من كل مبالغات المؤرخ المتغطرسة[140]. ولا نعود نسمع ثانية عن قارا إلى أن يصبح علاء الدين خَلْجي مُقْطَعاً للإقليم سنة 689 هـ / 1290 «ويدوس الكثير من **الماواسات** بالأقدام»[141].

وبحسب ما يقوله الجوزجاني كان آيبك قد فتح البلاد وصولاً إلى حدود أوجّاين[142]. كانت حرب السلطنة الأولى ضد عائلة بارامارا المالكة في مالاوا قد صُدمت حتى نهاية حكم إلتُتْمش، الذي قام سنة 632 هـ / 1235 م بغزو المملكة ونهب مدينتي بهيلسان (بهيلسا) وأوجّاين على التوالي، مدمراً المعبد في الأولى وناقلاً تمثال ماهاكالا إلى دلهي[143]. غير أن هذه الحملة، مثلها مثل الكثير من المحاولات الأخرى في تلك الفترة، لم تتمخض عن أية نتائج دائمة؛ كما لا نملك سجلاً يتحدث عن أي هجوم إسلامي لاحق على البارامارا قبل الحقبة الخَلْجية، حين أقدم السلطان المستقبلي علاء الدين، حين كان مقطعاً لقارا، حوالى سنة 692 هـ / 1293 م، باستباحة بهيلسان والسطو على صنمها البرونزي الكبير[144]. يتحدث الجوزجاني عن حملات استهدفت مالوا في عدد من المناسبات، غير أنه لا يستخدم العبارة بمعناها الضيق، للدلالة على مملكة بارامارا، التي كانت أيامه بعيدة عن متناول معاوني السلطان وقادته. وبالأسلوب

---

(140) لايق أحمد، «قارا»، 84، يفترض أن كيشلي خان عُيِّن مُقْطَعاً لقارا في 653 هـ / 1255م (651 هـ / 1253م تصحيحاً) وأن قارا كانت بيد الهنود قبل ذلك بعدد من الأعوام.

(141) KF، 8؛ انظر أيضاً FS، 227 - 228 (تر. 393 - 394)، عن قسوته مع الهندوس المتشددين حين كان في قارا.

(142) I, TN، 417 (تر. 516 - 517)؛ وانظر ص 19، هـ 62 في هذا الكتاب.

(143) I, TN، 449 (مع عام 631 هـ)؛ 452 (قارن مخطوطة BL، ملف 180 أ ب (تر. 621 - 623، 628). راي **تاريخ...**، 907، يضع هذا الغزو في عهد ديفابالا (حوالي 1218 - 1236م).

(144) TFS، 220.

نفسه فإن أمير خسرو يصف جيوش جلال الدين خَلْجي المتوغلة في العمق وصولاً إلى حدود مالوا سنة 690 هـ / 1291 م، حين عبرت التشامبال وكونواري (كونار)[145]. لعل «مالوا» تضطلع، في قاموس هذين الكتابين، بمهمة الدلالة على مجمل المناطق الواقعة إلى جنوب وجنوب ـ غرب بندلخاند الحديثة.

آفاق السلطنة

استندت فكرة السيادة على شبه القارة ككل إلى تاريخ عريق وطويل[146]، ومن الممكن أن تكون قد انتقلت إلى سلاطين دلهي. من شأن كتابة سانسكريتية منقوشة عن حكم بلبان أن تكون قد بدت مانحة إياهم جميع أشكال التشجيع، لأنها تصور نفوذ السلطان نافذاً كالشعاع مخترقاً «بلاد الدرافيدا وراميسڤارام»[147]. ثمة شعراء بلاط أيضاً دأبوا على تملق الحكام المسلمين على فتوحاتهم المزعومة. ففي **قران السعدين**، يتباهى معز الدين كيقباد قائلاً: «أحياناً أعطي جنودي ذهباً من گوجرات؛ وفي أوقات أخرى أكتب [لهم] إحالات على ديوغير... أجعل مالوا مخزناً لكنوزي؛ وأكلّف جاجنغر بتسديد الالتزامات المترتبة على خزانتي...»[148] غير أن هذا لم يكن إلاّ وهماً وخيالاً في ذلك الوقت. فقبل غارة علاء الدين الجريئة سنة 695 هـ / 1296 م، لم يكن أهالي ديوغير قد رأوا، ولو مجرد رؤية، أي جيش إسلامي قادم من

---

(145) MF، 34.

(146) آندريه وينك، **الأرض والسيادة في الهند** (كامبردج، 1986م)، جزء ا، خصوصاً 15 ـ 21.

(147) منقوش بالام باولي، 1276 / 1333، في ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 5 ـ 6، 12 (رقم: ا: 4). انظر التعليقات الصادرة عن بيتر هاردي، «سلطة الملوك المسلمين في جنوب آسيا العصر الوسيط»، في مارك غابوريو (محرراً)، **الإسلام والمجتمع في آسيا الجنوبية**، مجموعة بروشارته 9 (باريس، 986)، 39.

(148) QS، 63... (تر. ED .III، 526).

الشمال[149]. كانت أكثرية المناطق المركزية من شبه الجزيرة الهندية عوالم مجهولة terra incognita، بالنسبة إلى مسلمي سلطنة القرن الثالث عشر. فبلاد الهندوس الواقعة إلى هذه الجهة بدت ممتدة إلى مسافات لانهائية. وقد كتب أمير خسرو فيما بعد ـ مستنداً كلياً مرة أخرى إلى كونه شاعراً (يحق له ما لا يحق لغيره كما يقول المثل العربي) قائلاً إن حدود مالوا تفوق قُدْرة أمهر المساحين (مهندسان) على قياسها[150]. يا لها من شهادة مدهشة على مدى حيوية نظام علاء الدين، وإن كانت الأحداث، كما سنرى في الفصل العاشر، قد تجاوزت هذه الملاحظة قبل وفاة خسرو ببضع سنوات.

(149) TFS، 222 ـ 223. عن الأشعار والنقوش الهندوسية في مملكة ياداف التي تبدو متناقضة مع كلام برني، انظر ب. م. جوشي وأ. مهدي حسين، «الخلجيون والتغالقة في الدكن»، في هـ. ك. شرواني وپ. م. جوشي (محررين)، **تاريخ الدكان الوسيط** (1295 ـ 1724م) (حيدر آباد، أ. 1، 1973، جزءان)، 1، 34 ـ 35، وإن كانا يريان أن هذا يشير إلى وجود بعض الصدام مع المسلمين في المنطقة الساحلية.

(150) KF، 56.

الجزء الثاني

السلطنة في أوجها

الفصل الثامن

سلاطين، قديسون ومصادر

المراجع التي تخص الفترة الممتدة إلى سنة 752 هـ/1351م

فيما يخص الفترة الممتدة من عهد علاء الدين (695 ـ 715 هـ / 1296 ـ 1316م) وحتى أوائل خمسينيات القرن الرابع عشر كلها، ما زلنا مستمرين في الاعتماد، إلى حد كبير، على ثلاثة مؤلفين، كتبوا من داخل الهند هم: برني وعصامي وسرهندي، جنباً إلى جنب مع مذكرات الرحالة المغربي ابن بطوطة ـ بالنسبة إلى عهد محمد بن تُغْلُق (724 ـ 752 هـ / 1324 ـ 1351م). أما المؤلفون الذين كتبوا عن الحقبة المغولية ـ وأبرزهم نظام الدين أحمد هروي (المتوفى سنة 1003 هـ / 1594م، وعبد القادر بداؤوني (أواخر القرن السادس عشر)، ومحمد قاسم هندوشاه (آسترابادي فرشتا) ـ فيعتمدون عموماً على برني وسرهندي، ولا يتمتعون بأية قيمة كمراجع أولية؛ غير أنهم يزودوننا، بين الحين والآخر، بتفاصيل ملتقطة من أعمال سابقة لم تعد موجودة. من الجدير بالملاحظة، أن هناك طبعة أقدم، لكتاب برني: **تاريخي فيروز ـ شاهي** (أفاد منها الكاتب بيهامادخاني المنتمي إلى القرن الخامس عشر)، لم يبق منها إلاّ ثلاث مخطوطات[1]، والتي لا تلبث، من علاء الدين

(1) في المقام الأول اعتمدتُ هنا على مخطوطة إيليوت 353 بالبودليان مع مخطوطة أخرى في مجموعة السيد دبغي الخاصة؛ غير أن قرارات معينة جرى تقييدها على مخطوطة RRL الفارسية 2053.

وصاعداً، أن تبدأ بالافتراق عن النص المدقَّق؛ كما أن مخطوطات هذا التنقيح الأول، فيما يخص عهده على الأقل، يختلف بعضها عن البعض الآخر. إن من شأن أية قراءة للنص المعتمد، أن توحي، في حقيقة الأمر، بأن برني ربما كتب رواية أولية لقصة عهد علاء الدين، كعمل مستقل، ثم ما لبث، لاحقاً، أن أقحمها في متن تاريخ أوسع، ولكن دون تعديل معالجته للأشهر القليلة الأولى[2].

ليس التأريخ، بمعنى الجدولة الزمنية، أقل صعوبة بالنسبة إلى هذه الفترة، قياساً مع القرن السابق. فاهتمام برني بالتحليل، على حساب التاريخ بالذات، يثير أمام دارس عهد محمد بالتحديد، جملة من المصاعب. لا يورد، شأنه شأن عصامي، إلاَّ القليل من التواريخ، على الرغم من وجود عدد أكبر من التواريخ في تهذيبه الأول، مقارنة مع النص المدقَّق؛ حيث ينكر برني، صراحةً، أنه يقدم أزمات عهد محمد في تسلسلها الزمني الصارم[3]. ثمة قدر من الصعوبة يكتنف عملية إعادة تركيب أي إطار سردي، بالاستناد إلى هذه المعلومات، مع شيء من الاستفادة من ابن بطوطة، على الرغم من أن الأخير مقل أيضاً في التواريخ، فضلاً عن الكثير من الأحداث التي يلمح إليها، والتي وقعت قبل وصوله سنة 734 هـ / 1333م[4].

لسنا في وضع يمكّننا من معرفة مقدار ما ضاع. ينبئنا برني أن حكم علاء

---

(2) وبالتالي فإن الأحداث التي وقعت بين عامي 695 و696 هـ تمت تغطيتها مرتين: TFS، 242 ـ 246.

(3) المصدر نفسه، 468، 478.

(4) يقوم كُتّابٌ متأخرون بمضاعفة الصعوبات، بدءاً بـ TMS، حيث يتم ارتكاب خطأ مماهاة حملة السلطان على ناغاركوت عام 738 هـ / 1337م مع حملة سابقة أُرسلت إلى منطقة قاراتشيل؛ وأدّى هذا إلى تضليل إشواري پراساد، **تاريخ أتراك القاراؤون في الهند** (الله آباد، 1936م)، 126 وما بعدها. وبالتالي فإن الإطار الأقدم المبني على هذا التسلسل التاريخي المغلوط من 739 هـ وصاعداً محرف: انظر السير ولسلي هيغ، «خمسة أسئلة في تاريخ الأسرة الحاكمة التُغلُقية بدهلي»، JRAS (1922م)، 336 ـ 335: وعن بعض المشكلات، ن. فنكاتا رامانايا، «تاريخ حركات التمرد في تيلانغ وكامبيلا ضد السلطان محمد بن تُغلُق»، **الثقافة الهندية** (1938 ـ 1939م)، 135 ـ 146، 261 ـ 269 (وإن كان تاريخه لعصيان فخر الدين في البنغال، **المصدر نفسه**، 138، 140، متأخراً بالتأكد أكثر مما ينبغي).

الدين خَلْجي، كان مميزاً بوجود عدد من المؤرخين المرموقين (مؤرّخان). يقال إن كبير الدين **أمير دادي لشكر** لدى السلطان، كان متفوقاً في مهارتي أمانة السر (**دابيري**) والتأليف (**الإنشاء**). يزعمون أنه أنجز مجلدات من الـ **فتح نامات**، كما كتب كتاباً بعنوان **تاريخي علائي**. كان أمير أرسلان كلاهي، متمتعاً، هو الآخر، بذاكرة استثنائية بالنسبة إلى مآثر السلاطين السابقين، حتى أنه كان قادراً على الإجابة عن أسئلة علاء الدين، دون العودة إلى الكتب. أما برني، الذي يكتفي بالقول بأن كتابه: تاريخي فيروز ـ شاهي مستند، ببساطة، إلى تلخيص عدد من التواريخ السابقة، فلا يقر صراحة بأن تلك التواريخ كانت تشمل أيَّ شيء كتبه كبير الدين، أو أمير أرسلان[5]. على أية حال، فإن عمل أيٍ من الرجلين لم ينجُ من الضياع، وما يقال لنا عن أمير أرسلان، لا يوحي أنه قد كتب تاريخاً يخصه.

إن بعضاً من المراجع، المعروف بدقة أنها كانت موجودة، ربما كان بالغ القيمة، لا يقدر بثمن: مثل **ملحقات** بيجابوري، **والقصيدة** «المطولة التي تتحدث عن مآثر فيروز شاه، تأليف مطهَّر، **والشاهنامه** التي ألفها شاعر بلاط محمد بن تُغْلُق، بدري تشاتش، والتي اعتبرها بداؤوني «كنزاً»[6]. أما عفيف، الذي يضفي على نفسه لقب مؤلف «تواريخ السلاطين»[7]، فيدعي أنه كتب سيراً (**مناقب**) عن حياة كل من علاء الدين وغياث الدين تُغْلُق، ومحمد بن تُغْلُق، ومحمد بن فيروز، فضلاً عن سرد قصة استباحة تيمور لدلهي سنة 801 هـ / 1398م (**ذكري خرابايي دهلي**)[8]؛ غير أن أيَّ أثر من هذه الأعمال، ليس

---

(5) TFS، 14، 361. عن تاج الدين عراقي، انظر **المصدر نفسه**، 358.

(6) مطهَّر: بيهامادخاني، ملف 407 أ، 413 أ ـ 414 ب (تر. زاكي 4، 15). بدر: بداؤوني، I، 241؛ 1. جاكسون، «بدري تشاتش»، Enc. Isl.، **ملحق**؛ تاريخ إكمال الشاه نامه وارد في جدول زمني في **قصائد** بدر، تحقيق م. هادي علي (كانبور، بلا تاريخ)، 85 (انظر أيضاً ED, III، 572 ـ 573).

(7) عفيف، 256.

(8) علاء الدين: **المصدر نفسه**، 478 غياث الدين: **المصدر نفسه**، 27، 36. محمد بن تُغلُق: =

موجوداً اليوم. وكتاب آخرُ، مفقود، أيضاً، بعنوان: **تاريخي فيروز ـ شاهي** ينسبه شخص يدعى عبد العزيز [؟] شمس بها ناوري إلى نفسه، في مقدمة ترجمته لـ **كتابي باراهي**[9]. وثمة شخص يدعى حسام خان، قام في أربعينيات القرن السادس عشر، في گوجرات، بتأليف **طبقات (أو تاريخي) بهادر شاهي**، وهو كتاب لم يعد موجوداً، ولكن أُلُغخاني استفاد منه وأتى فرشتا على ذكره[10]. يتضح من المقتطفات المتوافرة، أن حسام خان كان قادراً على الوصول إلى مصادر أخرى غير سرهندي أو بيهاماندخاني؛ غير أن التسلسل الزمني، ينطوي على أوجه شبه ملحوظة بنظيره لدى سرهندي.

إن التاريخ الوحيد المتزامن مع علاء الدين، الذي وصلنا، هو عمل أمير خسرو النثري، **خزائن الفتوح**، الذي أُنجز سنة 711 هـ / 1311 ـ 1312م، وهو يقدم رواية زاهية طنّانة لقصص انتصارات السلطان على الاعتداءات المغولية المختلفة، ولقصص حملات كافور في الجنوب؛ والشاعر نفسه يطلق على الكتاب اسم: «**فتح ـ نامه**»[11]. أمّا مؤلفات خسرو التاريخية الأخيرة فهي: سفرنوح (**نوح سفر**)، الذي كُتب سنة 718 هـ / 1318م في ظل حكم قطب الدين مبارك شاه، متضمناً سرداً لقصة حملة السلطان على الدكّان؛ ودول الرانات (**دول راني**) الذي أُنجز بُعَيْد انتهاء الفترة الخَلْجية مباشرة، في 720 هـ / 1320م، ويتضمن تفاصيل غير موجودة في الأماكن الأخرى؛ و**التُغلُق نامه**، الذي يسجل ذكرى الإطاحة بالمغتصِب

= **المصدر نفسه**، 42، 51، 92، 274، 394، 451. محمد بن فيروز: **المصدر نفسه**، 148 ـ 149، 273، 428، 440. استباحة دلهي: **المصدر نفسه**، 182 ـ 185.

(9) مخطوطة IOI الفارسية 1262، ملف 2 ب؛ **لائحة الأعراق** 1112 (رقم 1997) تفترض أن المؤلف هو عفيف.

(10) عن حسام خان، انظر مقدمة AHG، طبعة روس لـ **ظفر الواله**، XXIX - XXVII, II. مقتبس في فيريشتا، I، 3، واII، 512.

(11) KF، 170؛ انظر **المصدر نفسه**، 26، عن العام الجاري.

ناصر الدين خسرو شاه، واعتلاء غياث الدين تُغْلُق للعرش (720 ـ 724 هـ، 1320 ـ 1324م)[12]، إضافة إلى **رسائل الإعجاز** التي كتبها خسرو في 719 هـ / 1319 ـ 1320م، والتي يبدو أن بعض الوثائق التي تتضمنها، تستند إلى أصول حقيقية[13]، على الرغم من أن هذه الدراسات التي تتناول النشر الفني، مغلّفة بشيء من الشك.

وعلى الرغم من أن علينا، على ما يبدو، استبعاد مذكرات محمد بن تُغْلُق المزعومة، المجتزأة، التي لم تَعُد أكثريةُ الباحثين تعتبرها صحيحة[14]، فيما يخص الحقبة التُغْلُقية، فإن لدينا مادة أغنى وأكثر تنوعاً، بالمقارنة مع ما نملكه عن سائر الأسر الحاكمة السابقة الأخرى. ثمة عدد من الأعمال المؤلفة لتخليد ذكرى أحداث معينة، مثل **بساتين الأُنس** (726 هـ / 1325 ـ 1326م التي يصف فيها تاج الدين محمدي صدري أعلى أحمدي حسن عيدوسي، المعروف باسم اختساني دبير، حملة تُغْلُق على لخناوتي في 724 هـ / 1324م[15]، وبعض قصائد شاعر بلاط محمد، بدري تشاتش. أمّا الرسائل الكثيرة (**الإنشاء**) التي كتبها عن الملك بن ماهرو، الذي كان يعمل لدى فيروزشاه والياً على مُلْتان،

---

(12) ثمة تلخيص مفيد للمضمون في سيد هاشمي، «التُغْلُق نامه»، IC 8 (1934م)، 301 ـ 312، 413 ـ 424.

(13) للاطلاع على أحد التحليلات، انظر س. هـ. عسكري «رسائل الإعجاز لأمير خسرو: تقويم»، في **مجلد تقديم الدكتور ذاكر حسين** (دلهي، 1968م)، 116 ـ 137؛ المصدر ذاته، «مادة ذات أهمية تاريخية في «إعجاز ـ ي خسروي»، MIM 1 (1969م)، 1 ـ 20.

(14) مخطوطة BL 25785 (د TN)، ملف 316 وما بعده؛ تر. في أ.م. حسين **أسرة تُغلُق الحاكمة** (كالكوتا، 1963م)، 265 ـ 276، وثمة صورة عن النص في الختام. انظر المصدر نفسه، 567 ـ 572. للاطلاع على نوع من التحليل للوثيقة، تحليل اعتقَدَ حسين أنه صحيح وأصيل؛ وعن وجهة النظر المقابلة، نظامي، **دراسات في تاريخ الهند الوسيط**، 76 ـ 85، وتاريخ. . . **ومؤرخيها**، 198 ـ 205؛ الآراء مستعرضة في ستيفان كونرمان، **حدود الهند في رحلة ابن بطوطة**، IU، 165، برلين، (1993م)، 47 ـ 49.

(15) س. هـ. عسكري، «القيمة التاريخية لبساتين الأنس»، JBORS 48، الجزء: 2 (1962م)، 1 ـ 29. احسان، **بساتين**، مخطوطة BL 7717، ملف 19 ب، يقدم العام الجاري بوصفه عام 726 هـ.

والذي توفي قبل 772 هـ / 1370م[16]، فتتضمن قدراً ذا شأن من المواد المتعلقة بالشؤون المالية والعسكرية، العائدة بأكثريّتها إلى عهد فيروزشاه، رغم أن بعض الرسائل مؤرخة في أيام محمد. أما في **دستور الألباب**، الذي بدأه الحاج عبد الحميد غزنوي في 734 هـ / 1333 ـ 1334م، وأنهاه سنة 766 هـ / 1364 ـ 1365م، فنجد دراسة عن إدارة السُّلْطَة بقلم أحد الموظفين (**محرر**)، تنطوي على قيمة خاصة، حول موضوع الضرائب والرسوم[17]. وعن القرن الرابع عشر، أخيراً، لدينا أيضاً مادة متعلقة بالطرق **الصوفية (السلاسل، الطرق)**، التي تتضمن، أحياناً، إشارات إلى أحداث سياسية معاصرة. لعل أبرز هذه المواد، لأغراضنا نحن، هي مجموعات سِير حَيَوات **شيوخ** الصوفية، **سِيَر الأولياء**، تأليف محمد بن مبارك كرماني (أمير خورد؛ متوفى سنة 770 هـ / 1368 ـ 1369م)؛ وكتاب أمير حسن دِهلوي بعنوان **فوائد الفؤاد**، الذي يتضمن خُطَب (ملفوظات) الشيخ التشيشتي المرموق، والمتنفذ نظام الدين أوليا (المتوفى سنة 725 هـ / 1325م)؛ **وخير المجالس** (حوالى 755 هـ / 1354م) لحميد قلندر، الذي يتضمن خُطَب الشيخ ناصر الدين محمد، الملقب بـ **تشيراغي دهلي** («مصباح دلهي»)[18].

ولدى الالتفات إلى مصادر من خارج الهند، لا بد من استبعاد ما يعرف باسم مراسلات (**مكاتبات**) رجل الدولة الإيلخاني، رشيد الدين، بوصفها مرجعاً معاصراً عن الشؤون الهندية: صحيح أن الكثير من الرسائل تعكس، بصورة غير قابلة للإنكار، قدراً غير قليل من الاطلاع على طبيعة الآلة الإدارية

---

(16) مَوْتُه مذكور في SFS، 154.

(17) يقول المؤلف إنه كان في الرابعة والأربعين عام 734 هـ، وإنه كان يبلغ 917 شهراً من العمر أي في عامه السابع والسبعين، لدى إنجازه الكتاب. يقال إن هذا حدث في 760 هـ: ملف 3 أ، 4 ب، أورده رشيد دون مساءلة، «دستور الألباب»، 59. غير أن التفاصيل تتناقض فيما بينها والتاريخ الصحيح هو 766 هـ.

(18) عن هذه وغيرها من الأعمال (المزورة غالباً)، انظر محمد حبيب، «سجلات تشيشتي الصوفية العائدة إلى فترة السلطنة»، MIQ، 1 (1950م) رقم: 2، 1 ـ 42؛ نظامي، تاريخ. . . ومؤرخيها، 163 ـ 180.

في إيران، وعلى كُنْه التجارة الهندية، غير أنه من الصعب، على ما يبدو، تجنب استنتاج روبن لڤي، الذي يقول إنها مستمدة من الهند نفسها، في القرن الخامس عشر[19]. ومع انطلاق الحقبة التُغْلُقية، لا تلبث البيانات المأخوذة من مصادر خارجية أن تصبح أكثر وفرة. فمعلومات وَصَّاف الأخيرة عن السلطنة، تعود إلى اعتلاء محمد بن تُغْلُق العرش[20]؛ غير أن فتح أبواب الهند المسْلِمة، خلال حكم محمد أمام التواصل الدبلوماسي مع أجزاء بعيدة من العالم الإسلامي، خصوصاً مع مصر المملوكية، ينعكس في **مسالك الأبصار** للعمري (المتوفى سنة 749 هـ / 1349م)، الذي تمكن من تجميع ملف حقيقي من المعلومات، عن الهند؛ كما في الملاحظات والتعليقات على محمد وإمبراطوريته الواردة في كتب التراجم - مثل **الوافي بالوفيات وأعيان العصر** - للصفدي (المتوفى 764 هـ / 1363م)، وتواريخ ابن أبي الفضائل (1340م) والشابانكرائي (738 هـ / 1337 - 1338م)[21]، وسيرة رحلات ابن بطوطة. ومن بين هذه جميعاً؛ فإن كتاب **تحفة النظار** (**الرحلة** ببساطة في الغالب) لابن بطوطة، الذي قضى عدداً من السنين في السلطنة، يقدم صورة عن الحياة في بلاط محمد، كما في الأقاليم الخاضعة لحكمه بين سنتي 734 هـ / 1333م وحوالي 748 هـ / 1347م، صورة نابضة بالحياة، لا تضاهيها أية صورة أخرى،

---

(19) ر. لڤي، «رسائل رشيد الدين فضل الله»، JRAS (1946)، 74 - 78. انظر الآن أ. هـ. مورتون، «رسائل رشيد الدين: بين الواقع الإيلخاني والخيال التَمْري؟»، في آميتاي - برايس ومورغان، **الامبراطورية المغولية وتراثها** (قيد الطبع). ك. أ. نظامي، «رشيد الدين فضل الله كمبعوث إيلخاني إلى بلاط علاء الدين خلجي»، PIHC 29 (**باتيالا 1967م**) (باتنة، 1968، جزءان)، ا، 139 - 143، وفي **تاريخ...** ومؤرخوها، 99 - 104، يعترف ببعض المشكلات، ولكنه ميال للتسليم بصحة الرسائل.

(20) موضوع خطأ في 723 هـ / 1323 م. غير أن العام الجاري يظهر في إحدى النقاط وكأنه 727 هـ (وصّاف 607. أما تاريخ 718 هـ (المصدر نفسه، 608) فهو خطأ واضح والصحيح هو 728 هـ: بارتولد، **تركستان**، 49 هـ. 2.

(21) د. پ. ليتل، «الصفدي كاتب سير حياة معاصريه» في ليتل (محرراً)، **مقالات عن الحضارة الإسلامية قُدمت إلى نيازي بركس** (لايدن، 1976م) 190 - 210. سي. إ. بوزوورث وپ. جاكسون، «شابان قارا - ي»، Enc. Isl².

في باقي المراجع. أما محفوظات شيوخ جام في خراسان، وهي موجودة في **فرائدي غياثي** ليوسف بن محمد بن صاحب الجامعي (يوسفي أهل)، فتتضمن المراسلات الجارية مع حكومة دلهي، خلال عهدي كل من محمد وخَلَفه[22].

المراجع التي تخص الفترة من سنة 752 هـ / 1351م فصاعداً

لم يحتضن التنقيح الأول من كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لبرني، سوى أربع سنوات من عهد فيروز شاه، وقد تم إنجاز النص المحقق، بعد ذلك بسنتين اثنتين. يقال إن السلطان، حين رغب في الحصول على تاريخ لعهده، والتمس طلبات من مؤرخين مرشحين بعد وفاة برني في حوالي 762 هـ / 1360 ـ 1361م، لم يتقدم أحد بأي عرض، فاضطر لأن يبادر إلى تأليف قصته بنفسه؛ إنها القصة التي أمر بنقشها على قبة المسجد الجامع، **جامعي مسجد**، في عاصمته الجديدة، فيروز آباد[23]. غير أن ما يبعث على السرور، أن هذا العزوف عن المشروعات التأريخية لم يدم طويلاً، وعن عهد فيروزشاه (752 ـ 790 هـ / 1351 ـ 1388م) نستطيع الوصول إلى كنز من المراجع الأدبية. يتمثل فيما يمكن اعتباره تاريخاً «رسمياً» بنسخة منقوشة فيروزشاه المطولة، التي وصلتنا تحت عنوان **فتوحاتي فيروز ـ شاهي**[24]، وسيرتي **فيروز ـ شاهي** القائمة على المديح والإطراء، التي كُتبت للسلطان بُعَيْد سنة 772 هـ / 1370م من قبل مؤلف مغفل الاسم، قد يكون الشاعر مطهَّر[25]. أما كتاب **تاريخي فيروز ـ شاه**

---

(22) حول هذا العمل، انظر جان أوبان «خانات جغتاي وخراسان (1334 ـ 1380م) «**ترجيكا** 8 (1976م)، 20 هـ. 19؛ III, PL، الجزء: 2، 251 ـ 252 (428).

(23) عفيف، 176 ـ 177: حول زمن عودة السلطان من حملته الجاجناغارية التي كانت في شعبان 762 هـ / حزيران ـ تموز 1361م حسب SFS، 74، وفي رجب / أيار ـ حزيران حسب TMS، 130. هوديفالا **دراسات**، I، 129، يحذر من اعتبار الأمر دليلاً دقيقاً على تاريخ وفاة برني.

(24) ك. أ. نظامي، «فتوحات ـ ي فيروز ـ شاهي منقوشاً وسيطاً»، في PSMI، 28 ـ 33 وفي كتابه **تاريخ... ومؤرخوها**، 205 ـ 210.

(25) كما جاء في ك. أ. نظامي، **ملحق تاريخ الهند لإيليوت ودوسون**، III (دلهي، 1981م)، 63.

الذي هو أكمل مرجع عن حكم الرجل، فلم يكتبه عفيفي حتى أوائل القرن الخامس عشر. لقد أراد عفيفي، المنتمي إلى الأسرة البيروقراطية التي خدمت العائلة التُغْلُقية، وكان هو نفسه يعمل في ديوان الوزارة، **ديواني وزارات**، أواسط ثمانينيات القرن الرابع عشر[26]، أن يجعل من سيرته عن حياة السلطان، ذيلاً ملحقاً بكتاب برني، المؤلف من **المقدمات** التسعين، التي كان المؤرخ، الأكبر سناً، قد أعلن اعتزامه كتابته، غير أنه لم يعش ليتمكن من إنجاز ما وعد به[27]. ومما يؤسف له، أن النص ناقص في آخره، كما نستنتج من فهرس المحتويات الذي زودنا به عفيفي نفسه. إن كلاً من سرهندي (838 هـ / 1434م) وبيهاماندخاني (842 هـ / 1438م) يقدم معلومات، عن عهد فيروزشاه، ليست موجودة في **تاريخ** عفيف؛ وما زالا مرجعينا الرئيسيين من ثمانينيات القرن الرابع عشر، فصاعداً. وتاريخ بيهاماندخاني الذي يحمل عنوان **تاريخي محمدي**[28]، والذي يعتمد حتى سنة 755 هـ / 1354م التنقيح الأول لكتاب برني، لا يلبث أن يصبح، عندئذ، مرجعاً أصيلاً؛ وعلى الرغم من أنه أقل تفصيلاً من عمل سرهندي، فقد تمتع بميزة أنه لم يؤلَّف في دلهي، بل في أمارة كالبي المستقلة حديثاً، بما مكّنه من تزويدنا بوجهة نظر مختلفة عن تلك التي اعتمدها المؤرخون السابقون.

من الطبيعي أن تكون التواريخ التيمورية قد غطت غزو تيمور للهند، بشيء من التفصيل. ولعل أكثر هذه التواريخ التصاقاً بالعصر، هو كتاب **روز ـ نامه ـ ي فتوحاتي هندوستان**، تأليف القاضي ناصر الدين عمر الذي رافق الفاتح

---

(26) عفيف، 487 ـ 488: السياق هو فضيحة شمس الدين أبورجا التي كانت في 785 هـ / 1383 ـ 1384م (المصدر نفسه، 497 ـ 498). عن أسلاف عفيف الذين خدموا التُغلُقيين، انظر المصدر نفسه، 37، 127، 130 ـ 131، 138، 145، 196، 197، 339.

(27) المصدر نفسه، 29 ـ 30؛ قارن TFS، 529 ـ 30، 602.

(28) انظر بيتر هاردي، «تاريخ ـ ي محمد ـ ي بقلم محمد بيهاماندخاني»، في غوبتا (محرراً)، **مقالات مقدمة إلى السير جادونات ساركار**، 181 ـ 190.

(الغازي). وقد أوجز كل من غياث الدين علي يزدي، الذي نجا كتابه: **روز ـ نامة ـ ي غزوتي هندوستان** من الضياع، ونظامي شامي، الذي أدخله في كتابه **ظَفَر نامه**، الذي هو سرد لقصة حياة تيمور العملية، أُنجز سنة 806 هـ / 1404 م. وقد أفاد شرف الدين علي يزدي، حين قرر كتابة مؤلَّفه الخاص **ظَفَر نامه** سنة 828 هـ / 1424 ـ 1425م[29]، من الكتابين كليهما (كما من نص ناصر الدين الأصلي ربما) على التوالي.

السلاطين الخَلْجيون

يصور برني، علاء الدين خَلْجي، جندياً غير متعلم، لا يملك وقتاً يخصصه لـ «علماء» الدين، غير أنه صاحب طموحات لا حدود لها، كان لا بد من إقناعه بالافتراق عن التأسيس لديانة خاصة به؛ وقد أدهشه أن سلطاناً كهذا، وضَعَ مقتضيات **السياسة الواقعية** فوق وصايا الشريعة، تمكّن من تحقيق ما حققه من ازدهار باهر[30]. ومع ذلك، فإن التناقض بين علاء الدين، الذي فعل الشيء الكثير لغَرْس بذور الإسلام في الهند والسلطان المعاصر، محمد بن تُغْلُق الذي تولّىٰ في زمن الانهيار، بلغ أقصى حدوده الممكنة، بنظر عصامي[31]. وفي زمن زيارة ابن بطوطة لدلهي قبل بضع سنوات، كان المواطنون يترحَّمون، بوضوح، على حقبة علاء الدين، معتبرينه عصراً ذهبياً[32]. صحيح أن العهد كان مطبوعاً بصد الغزوات المغولية الهائلة من جهة، وبأشكال مثيرة من التقدم على حساب قوى هندوسية مستقلة في راجستان والجنوب، من جهة ثانية. لقد تم رفع قدرة السلطنة على تجنيد قوات عسكرية كبيرة وفعالة، إلى مستوى

---

(29) عن العلاقة بين هذه الأعمال، انظر جون إ. وودز، «صعود التاريخ التَمُري»، **مجلة دراسات الشرق الأدنى**، 46، الجزء: 2 (1987م)، 93 ـ 95.

(30) TFS، 261 ـ 266، 289. عن نظرة برني إلى السلاطين بصورة عامة، انظر هاردي، **مؤرخون**، 32 ـ 34.

(31) FS، 604، 605 ـ 606 (تر. 898، 900 ـ 901).

(32) IB, III، 184 (تر. حبيب، 640).

جديد، عن طريق اعتماد إصلاحات اقتصادية، أبقت الأسعار في العاصمة، متدنية. يقول برني عن هذه الإنجازات، إنها أشبه بالمعجزات[33]. غير أنه لا يهمل، أيضاً، إيراد، رأي الشيخ الصوفي بشير، الذي أشار إلى أن نظام علاء الدين، وهو نظام قام على اغتيال عم السلطان، حاملٌ لبذور عدم الاستقرار في صلبه[34]؛ وبرأي المؤرخ بالذات، فإن مصائر أبناء علاء الدين، لم تكن إلاّ عقوبة لجريمة اغتيال جلال الدين[35].

خلال مرض علاء الدين الأخير، وهو مرض سماه برني **استسقاءً**، تعرض وريثه، خفرخان، للاعتقال في غواليور، بتحريض من نائب السلطان، المملوك كافور، وما لبث أن سُملت عيناه، غداة وفاة والده، في السابع من شوال 715 هـ الرابع من كانون الثاني / يناير 1316م[36]؛ وقد لقي أخوه، شادي خان المصير ذاته. فكافور، الذي تركز هدفه، إذا كان برني جديراً بالتصديق، على تدمير العائلة الحاكمة الخَلْجية كلها[37]، مارس الحكم عبر ابنٍ طفلٍ لعلاء الدين، يدعى شهاب الدين عمر؛ غير أنه لم ينعم بالسلطة إلاّ لمدة خمسة وثلاثين يوماً، قبل تعرضه للاغتيال، على أيدي مُشاة، **بايكات** علاء الدين. جاء ابن آخر وأمسك بدفة الحكم، غير أنه ما لبث أن حل محل السلطان الطفل، بحجة أن أم الأخير حاولت دسّ السم له، وأصبح سلطاناً يحمل اسم قطب مبارك شاه (716 ـ 720 هـ / 1316 ـ 1320م). سنة 718 هـ / 1318م، خلال رحلة العودة من إحدى الحملات في دكّان، جرى إعدام أبناء عمومة قطب الدين، ذرية شقيق جلال الدين خاموس (يوغروس خان)، بعد اتهامهم

---

(33) TFS، 339.

(34) المصدر نفسه، 377 ـ 378.

(35) المصدر نفسه، 337.

(36) تاريخ وفاة علاء الدين الوارد في DR، 259 محدد في TMS، 81، على أنه السادس من شوال، وهو مساء ذلك اليوم في TFS، 369؛ أما FS، 344 (تر. 524)، فيقول إنه 11 شوال.

(37) TFS، 375.

بالتآمر على حياة السلطان[38]؛ جرى إعدام كل من خفرخان وشادي خان وعمر؛ أما الباقي من إخوتهم وأشقائهم، فقد تم إبعادهم إلى غواليور. وفي جمادي الثانية 720 هـ / تموز / يوليو 1320م، أقدم مملوك السلطان الأثير والمفضل، الغلام الهندي حسن، الملقب خسروخان، على تدبير عملية اغتياله، واعتلى العرش باسم ناصر الدين خسروشاه ـ العاهل الوحيد، الذي كان، في الحقيقة، هندياً اعتنق الدين الإسلامي في دلهي. كان جميع أبناء علاء الدين الناجين قد تعرضوا للذبح[39]. يبدو أن الأسرة الحاكمة الخَلْجية قد تم استئصالها. وحين بادر غازي ملك تُغْلُق، أحد كبار قادة علاء الدين، مُقْطَع ديوباليور، زاعماً أنه عازم على الانتقام لورثة سيده وولي نعمته، إلى الزحف على دلهي، وتمكن من الإطاحة بخسروشاه، لم يكن العثور على أي عضو من أعضاء العائلة الحاكمة يتولى العرش ممكناً»[40]. وبالتالي، فقد نودي على غاوي مالك، نفسه، حاكماً تحت اسم السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه (720 هـ ـ 724 هـ / 1320 ـ 1324م)[41].

يقول برني، إن التناظر بين عهدي معز الدين كيقباد وقطب الدين مبارك شاه خَلْجي، كان مذهلاً بنظر البعض[42]. ففي الحالتين كلتيهما، ثمة حاكم شاب متهتك وطائش، جاء بعد سلطان متشدد مستبد، مما تمخض

(38) المصدر نفسه، 393، FS، 363 ـ 364 (تر. 562 ـ 563).

(39) DR، 273 ـ 285؛ تُغلُق ـ نامه، 23 ـ 24، 31 ـ 32، 47؛ TFS، مخطوطة بودليان، ملف 172 أ / ديغبي، مجموعة مخطوطات، ملف 146 ب (ليس في TFS، 408). وللاطلاع على رواية مفصلة نسبياً لقصة مصائرهم، كما باتت متداولة في دلهي بعد بضع سنوات، انظر IB ,III، 189 ـ 190، 191 ـ 194 (تر. جيب، 643، 644 ـ 645)، الذي اعتقد، مع ذلك، أن جميع أشقاء قطب الدين قُتلوا خلال حياته.

(40) TFS، 421 ـ 422؛ وانظر أيضاً 237 .تُغلُق ـ نامه، 140 ـ 141، لا يؤكد في الحقيقة أن الأسرة الحاكمة الخلجية قد انطفأت.

(41) عن تاريخ وفاة تُغلُق، وهو يرد عادة على أنه 725 هـ / 1325م، انظر الملحق رقم: 5.

(42) TFS، 383، 387 ـ 388.

عن ارتخاء عام في قبضة السلطة، وعلى صعيد الأخلاق العامة. ومع ذلك، فإن قطب الدين أظهر نشاطاً عسكرياً أكبر من سلفه، إذ قاد حملة، ما لبثت أن أعادت فرض الحكم الإمبراطوري (السلطاني) على إقليم الدكّان في 718 هـ / 1318 م. ولبعض الوقت، على الأقل، كسب السلطان الشاب شعبية كبيرة، عبر إلغاء تدابير والده القمعية. غير أن أشياء كثيرة تبقى دون تفسير، كما أن برني يصر، بعناد، على أن يظل متناقضاً، وغير مطرد، كما هي عادته السيئة الدائمة. ليس واضحاً، على سبيل المثال، حتى بعد التساهل مع المبالغة، لماذا كان السلطان مستعداً لإرسال خسروشاه إلى مهمة طويلة، في أقصى الجنوب، إذا لم يكن قادراً على تحمل مفارقته، ولو لساعة واحدة؟[43] كما أن المؤرخين، لا يشيرون إلى السبب الذي دفع الأمراء الذين هددوا بإفشاء مخططات المفضل الغادرة والخيانية، الموجهة ضد السلطان، في أثناء تلك الحملة، إلى الاصطفاف تحت رايته ضد تُغْلُق، بعد بضع سنوات خصوصاً لأن ثورة الأخير، صورها كل من أمير خسرو وبرني، حرباً مقدسة (**جهاداً، غزواً**)[44].

لعل إحدى الإجابات عن هذه المسألة الثانية، تكمن في أن حكم ناصر الدين خسروشاه، كان أقل إثارة للاشمئزاز مما تحاول مصادرنا إقناعنا به. يبدو أن برني على حق، حين يزعم أن عبادة الأوثان كانت تُمارَس داخل القصر الملكي، ربما من جانب أنصار خسروشاه، أولئك ممن لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد. أما كلامه عن أن خسروشاه ومعاونيه وقادته، كانوا يتعاملون مع القرآن، بكثير من عدم الاحترام الصارخ، ويضعون الأصنام في المساجد، فيكاد، بالمقابل، ألاّ يكون جديراً بالتصديق؛ ومما يلفت النظر، أن **التُغْلُق** ـ

---

(43) المصدر نفسه، 382.

(44) المصدر نفسه، 399 ـ 400، عن تهديد الجيوش **تُغلُق ـ نامه**، 62، 100؛ وTFS، 415 ـ 416، عن الحرب المقدسة (الجهاد).

نامه يتحدث عن عبادة الأوثان بعبارات أقل تحديداً، وأن قصة الأحداث التي سمعها ابن بطوطة، الذي يكتفي بذكر تحريم ذبح الأبقار، تبقى أقل تطرفاً إلى حدود معينة[45]. ومع ذلك، فإنه من الضروري، حتى في حال تعذر اعتبار نظام خسروشاه، معادياً للإسلام، بالمقابل، تفسير الإذعان الواسع، والسكوت على عملية اغتيال قطب الدين مبارك شاه. ربما كان اتخاذ قطب الدين لقب الخلافة، وهو أمر لا تذكره المراجع الأدبية، غير أنه من الممكن إرجاعه إلى سنة 727 هـ / 1317 ـ 1318م[46]، قد أدى إلى إثارة حفيظة الكثير من المسلمين، وترويعهم. وثمة تلميح ما، قد نجده أيضاً، في زعم برني القائل، بأن قطب الدين كان على علاقة سيئة مع الشيخ التشيشتي نظام الدين أَوْليا، نتيجة اغتيال خضرخان[47]. ونظراً لعلاقة السلطان المتدهورة مع الخاناقاه التشيشتي، فإنه من المعقول أن يكون الهندي الغر قد بدا، في نظر الشيخ والمتعاطفين معه، أفضل من الخَلْجي. وبالتالي، فإن قطب الدين، ربما استعدى الناس فصب الماء في طاحونه خسروخان وحِزْبه.

شيوخ ومؤرخون

كتب عصامي يقول: إن كلاً من السلاطين والملوك، كان تحت حماية أحد القديسين (الأولياء الصالحين)؛ وخطوة السماء الأولى، حين كانت تشاء

(45) المصدر نفسه، 410 ـ 411 .تُغلُق ـ نامه، III, 1844 .، 200 (تر.، حبيب 648). وللاطلاع على تقويم متوازن لعهد خسرو شاه، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 313 ـ 316؛ أيضاً هاردي، «القوة والعنف»، 172.

(46) يطلق عليه الاسم المجرَّد: **قاسم أمير المؤمنين** في منقوش يحمل تاريخ الخامس من محرم 718 هـ / التاسع من آذار 1318 م: ز. أ. ديساي، «منقوش جالور عيدغاه عن قطب الدين مبارك شاه خلجي»، EIAPS (1972م)، 12 ـ 19. ولقب الخليفة موجود في نقوش مؤرخة في تواريخ لاحقة من ذلك العام: يزداني، «نقوش عن سلاطين دلهي الخلجيين»، 38 ـ 40؛ ز. أ. ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، EIAPS (1962م)، 4 ـ 5. غير أنه يظهر على القطع النقدية العائدة إلى عام 717 هـ: CMSD، 99 ـ 101. تتردد تسمية قطب الدين بالخليفة في US.

(47) TFS، 394.

تدمير أحد البلدان، كانت تتمثل برحيل القديس وهجره[48]. وهكذا، فإن رحيل نظام الدين عن العالم، جلب جملةَ الأهوال التي ابتليت بها دلهي، في فترة محمد بن تُغْلُق[49]، كما يمكن إرجاع الازدهار الذي عاشته دولت آباد، قبل التمرد على محمد منذ سنة 745 هـ / 1344م فصاعداً، إلى وجود شيخين اثنين هما: برهان الدين وزين الدين[50]. ثمة صوفيون من خراسان وُجدوا في الهند، منذ الحقبة الغورية، ونشأت طريقتان هما: السهروردية التي اتخذت مُلْتان قاعدة لها، والتشيشية التي كان مقرها القيادي في دلهي. كانت الطرق متباينة في مواقفها من الدولة: فبالنسبة إلى السهروردية، كان التحالف مع الأقوياء مسموحاً به؛ في حين كان شيوخ التشيشي يتجنبون الاتصال مع البلاط والأرستقراطية، ويرفضون الموارد والوظائف (**شغل**) الحكومية. لقد كانت العلاقات بين هذين الفريقين متناغمة، ومستندة إلى أساس من الاحترام المتبادل[51].

تبقى وجهة النظر التي عبَّر عنها عصامي سائدة وشائعة، خصوصاً، بطبيعة الحال، بين أولئك الذين قاموا بتسجيل خُطَب الشيوخ، وكتابة سِير القديسين مثل كرماني (أمير خورد)، الذي كان يعتبر وجودَ المسلمين في الهند، إحدى معجزات (كرامات) الشيخ التشيشي معين الدين[52]؛ أما أمير حسن دهلوي، فكان يعتقد بأن تدخل الشيخ قطب الدين بختيار كاكي[53]، هو الذي

---

(48) FS، 455 ـ 456 (تر. 687 ـ 688).

(49) المصدر نفسه، 456 ـ 457 (تر. 688 ـ 689).

(50) المصدر نفسه، 458 ـ 459، 461 ـ 462 (تر. 691 ـ 692، 696 ـ 697).

(51) ك. أ. نظامي، «أوائل الصوفيين المسلمين ـ الهنود وموقفهم من الدولة»، IC، 22 (1948م)، 388 ـ 392، 395 ـ 398، و23 (1949م)، 13 ـ 21. عزيز أحمد، «الصوفي والسلطان في الهند المسلمة فيما قبل الحقبة المغولية»، مجلة إسلام 38 (1962م)، 142 ـ 147. س. ديغبي، «الشيخ الصوفي مصدراً للسلطة في هند العصر الوسيط»، في غابوريو (محرراً)، **الإسلام والمجتمع**، 63 ـ 65.

(52) سِيَر، 47، وارد في ديغبي «الشيخ الصوفي مصدراً. . .»، 72.

(53) أمير حسن دهلاوي، **فوائد الفؤاد**، 185.

أنقذ مُلْتان من المغول، في عهد قوبتشا. غير أن مثل هذه المعتقدات كانت موجودة لدى كتاب آخرين، ممن كانت أنماط حياتهم ومصائرهم أقل ارتباطاً بالطرق (الصوفية). فقد آمن عفيف، بأن مزار قطب الدين منوّر، هو الذي حفظ هانسي، خلال غزو تيمور[54]. ومستذكراً طغيان علاء الدين خَلْجي واستبداده، لم يستطع برني أن يتصور سبباً آخر لاستمرار نجاح نظام السلطان، غير حقيقة كون نظام الدين أَوْليا، قد بارك عاصمته[55].

كان من شأن القوة الخارقة أو الطاقة الروحية (البَرَكة)، المتجسدة بالشيخ، أن تُعتبر قوة، أو طاقة أرضية، ومشكّلة بؤرة سلطان ونفوذ (ولاية) منافسة لولاية السلطان[56]. ثمة نوادر كثيرة تُروى عن شيوخ، يقومون بإضفاء عباءة السيادة والسلطة، على هذا الأمير أو ذاك. ومن القصص الشائعة في أيام الجوزجاني، أن **الدراويش (الفقراء)**، هم الذين منحوا المُلْك، لكل من حسام الدين عوض وإلتُتْمش؛ وهناك حكايات مماثلة تُروى عن بلبان وعلاء الدين خَلْجي؛ ويورد عفيف ما لا يقل عن أربع قصص ظريفة، وُعد فيها فيروز شاه بالتاج من قبل الشيوخ، بمن فيهم نظام الدين أَوْليا[57]. وقد جرى إبراز إمكانية تحويل زاوية الشيخ (تكيّة أو مقر) إلى مركز للساخطين أيضاً، عبر قصة سيدي موله في عهد جلال الدين خَلْجي.

من شأن العلاقات بين القصر والحَوْزة الدينية (الخانقاه ـ التكية) ألاّ تكون متناغمة على الدوام، في ظل هذه الظروف[58]، وأحد أهم معايير تقويم حكم

(54) عفيف، 82: وقارن أيضاً 133، حيث يُعرف الأمر إلى بركة وريث منوّر.

(55) TFS، 324 ـ 325.

(56) ديغبي، «الشيخ الصوفي...»، 62 ـ 63؛ المصدر نفسه، «الشيخ الصوفي والسلطان: صراع على السلطة في هند العصر الوسيط»، إيران 28 (1990م)، 71 ـ 81.

(57) المصدر نفسه، 75 ـ 78. انظر أيضاً، صعود الإسلام، 82 ـ 86.

(58) نظامي، «المتصوفة المسلمون ـ الهنود»، IC 23 (1949م) 312 ـ 321؛ عن علاقات جيدة، المصدر نفسه، 165 ـ 170.

أي سلطان، بالنسبة إلى مؤرخينا، كان متمثلاً بأسلوب معاملته للأولياء الصالحين. وهنا، فإن علاء الدين، الذي أظهر قَدْراً متزايداً من التودد للشيخ نظام الدين أَوْليا خلال سنواته الأخيرة، أثبت، رغم أخطائه وخطاياه الكثيرة، أنه على جادة الصواب، بصورة نسبية[59]. غير أن حكم نجله قطب الدين مبارك شاه، ما لبث أن فَسَد جراء علاقاته المتدهورة مع نظام الدين. فحين بادر القديس (الشيخ الجليل) إلى شجب خضر خان الذي كان أحد تلاميذه (مريديه)، جاء رد السلطان مثقلاً بالاستخفاف والتهديد، ومصحوباً بالسعي إلى تمكين الشيخ زاده المهاجر شهاب الدين جامي والشيخ السهروردي ركن الدين المُلْتاني، من أن يصبحا منافسين له في دلهي[60]. لقد كان نظام الدين واسع النفوذ إلى الحدود القصوى: يحدثوننا عن وجود أعداد من النبلاء والأمراء بين تلاميذه (مريديه)[61]. فخلال فترة حكم ناصر الدين خسرو شاه القصيرة، تلقى نظام الدين هدايا وأُعطيات من المال من المغتصب، وأنفقها على الأعمال الخيرية، مما أدى إلى إكسابه عدواً جديداً تمثل بغياث الدين تُغْلُق شاه، حين حاول هذا السلطان استعادة المبالغ التي وزعها سَلَفُه[62]. استمر العداء بين الرجلين: يقال إن تُغْلُق كان يخطط للمزيد من التحرك ضد نظام الدين، خلال رحلة العودة من البنغال، قُبَيْل وفاته؛ على الرغم من أن أي مؤلف قبل سرهندي لم يورد نص التعليق الساخر للشيخ، الذي قال: **ديلي آزتو دور آست** («تبقى دلهي بعيدة بعض الشيء عن متناول يدك!»)[63].

لم يعش نظام الدين إلاّ أشهراً قليلة في عهد محمد بن تُغْلُق، الذي كانت

(59) TFS، 332.

(60) المصدر نفسه، 394، 396. عن علاقات قطب الدين الوثيقة بالشيخ زاده جامي، انظر IB, III، 294 (تر. جيب، 697)؛ أيضاً ديغبي، «الشيخ الصوفي مصدراً...»، 64.

(61) عفيف، 69، 445؛ وقارن أيضاً TFS، 396.

(62) عن إلغاء الهبات الممنوحة من الخزانة من قبل خسرو شاه، انظر المصدر نفسه، 439.

(63) TMS، 96 ـ 97: الملاحظة مزخرفة في مصادر لاحقة. للمزيد من التفصيل، انظر ديغبي، «الشيخ الصوفي والسلطان»، 72 ـ 74.

علاقاته مع الأخير، ودية للغاية: فقد قيل لابن بطوطة، إن محمداً حمل نعش الشيخ[64]. ويبدو أن صلاتهما قد ساهمت في توتر العلاقة بين تُغْلُق، وبين وريثه الشرعي. ومع ذلك، فإن علاقات السلطان الجديد الخاصة بالشيوخ، أثبتت أنها مثقلة بالمشكلات، حين حاول تجنيد مواهب شيوخ الصوفية لخدمة أغراض الدولة[65]. أدى هذا إلى خلق مشكلة بالنسبة إلى الطريقة السهروردية، التي لم تعترض، قط، على الانخراط في شؤون العالم: يبدو أن معز الدين، نجل الشيخ السهروردي علاء الدين أجودهاني، قد قبل بولاية گوجرات، دون تردد[66]. كذلك كانت علاقات السلطان مع أبناء وأحفاد الشيخ التشيشي حميد الدين في نغوار، ودية أيضاً[67]. غير أن سياسته كانت، بنظر أكثرية أتباع الطريقة التشيشية، مصدر أزمة كبرى. فابن بطوطة، يقوم بإعادة سرد السلسلة الطويلة من النوادر والقصص، التي تسلط الضوء على حقيقة مقاومة الشيوخ والعقوبات القاسية، التي عانوا منها نتيجة لذلك. لقد كانت النهاية البائسة لمحمد، بعيداً عن العاصمة، برأي أمير خورد، نتيجة أسلوبه في معاملة الأولياء الصالحين، وعلى رأسهم (**خليفة**) نظام الدين، ناصر الدين **تشيراغي دهلي** (سراج أو مصباح دهلي)[68].

من غياث الدين إلى فيروزشاه

أثبت التُغْلُقيون (720 ـ 815 هـ / 1320 ـ 1412م) أنهم الأطول عمراً، بين

---

(64) III, IB، 211 (تر. جيب، 653 ـ 654)؛ انظر أيضاً MA، محرراً، جواسيس، 20 (تر. ألمانية، 46) تحقيق، فارق، 38 (تر. صدّيقي وأحمد، 45).

(65) III, Ib، 294 (تر. جيب، 697).

(66) TFS، 507، SFS 512، 20 ـ 21 (تر. باسو، في JBORS 23 [1937]، 98 .سِيَر، 196.

(67) ك. أ. نظامي، «بعض الوثائق عن السلطان محمد بن تُغلُق» MIM 1 (1969م) 305 ـ 306، 307، 309 ـ 313.

(68) سِيَر، 245 ـ 246، ورد في ديغبي، «الشيخ الصوفي والسلطان»، 74. عن محمد والتشيشيّة، انظر عموماً نظامي، «متصوفة أوائل المسلمين ـ الهنود»، IC 24 (1950م)، 60 ـ 65.

سائر الأُسر الحاكمة التي حكمت السلطنة. فخلال فترة حكم تُغْلُق شاه الوجيزة، تم إخضاع البنغال، ثانية، لسيادة السلطان، وجرى ضم مملكة كاكاتيا الآرانغالية (التيلانغية؛ التلينغانية)، وأمكن فرض النفوذ الإسلامي على أجزاء كبيرة من مملكة بانديا المعْبَرية (نسبة إلى مَعْبَر). تبقى نظرة برني إلى غياث الدين، أحادية الجانب، بعض الشيء. فهو يفضل أن يتغافل عن علاقات السلطان المتوترة مع نظام الدين، ويكيل المديح لتُغْلُق، كونه حاكماً مسلماً نموذجياً من نواح كثيرة. لقد كان أشبه بالأب، بالنسبة إلى جنوده؛ كانت الأراضي الخاضعة لسلطته، تنعم بالعدل والأمن؛ كانت تَقْواه وأخلاقه الشخصية فوق النقد. يقال إن تُغْلُق أنجز ما كان علاء الدين قد فعله، ولكن دون إراقة دماء[69]. أمّا عندما يصل إلى وصف العقوبة في دلهي سنة 721 هـ / 1321 ـ 1322م، تلك العقوبة التي نزلت بأولئك الذين تمردوا، في أثناء الحملة في تيلانغ، فإن برني يتخلى عن تحفظه، فيكشف النقاب عن حقيقة أن أزواج وأطفال رؤوس الفتنة، قد قُتلوا[70]. ومع ذلك، فليس ثمة أي أثر للإدانة والشجب هنا، لممارسة كانت قد بدأت في ظل علاء الدين، وكان برني، عبر عن سخطه منها، بصورة صريحة واضحة[71].

لقي تُغْلُق حتفه حين انهار فوقه مبنى شيد حديثاً في أفغانبور. وعلى الرغم من أن برني لا يسوق أي اتهام محدد، فإن الشكوك التي تحوم حول احتمال قيام نجله البكر ووريثه المعين، محمد (أُلُغ خان) بتدبير الوفاة، راودت عصامي ومخبري الصفدي أيضاً، في حين يعزوها ابن بطوطة لمهارة ناظر المباني (**شحنة ـ ي عمارات**)، أحمد بن أياز، الذي كافأه محمد، بمنصب وزير[72]. من شأن الانتقال السَّلِس، الذي تم بعد موت تُغْلُق، أن يكون قد بدا

(69) TFS، 445.

(70) المصدر نفسه، 449.

(71) المصدر نفسه، 253.

(72) FS، 420 (تر. 633. الصَّفَدي، **الوافي**، III، 172، جزئية م. س. خان. «مصدر عربي غير مكتشف =

مؤكِّداً الانطباع، بأن حقبة جديدة من الاستقرار قد أشرقت، لأن محمداً كان، على ما يبدو، السلطانَ الأول المتمتع بخلافة سِلْمية. إن صورة السلطان، المنقولة من قبل كتاب أجانب، وكانت تحظى برعاية آلته الدعائية الخاصة، هي صورة مقاتل قوي في سبيل قضية الإسلام، انتصاراته غير مسبوقة، حيث زرع الرعب في قلوب المغول، خلافاً لحال أسلافه[73]. أما في الحقيقة، فإن عهد محمد بن تُغْلُق (724 ـ 752 هـ / 1324 ـ 1351م) كان متميزاً بحركات التمرد والكوارث. فعلى الرغم من أن عدداً من الثورات في سنوات 727 ـ 728 هـ / 1326 ـ 1328م، قد تم إخمادها، فإن السلطان أطلق مجموعة مختلفة من المشروعات الطموحة، التي كبدت نفقات كبيرة. وقد تضاعف تأثير إخفاقها جراء الطاعون والمجاعة. ثمة موجة أخرى من حركات التمرد والعصيان، ما لبثت أن باتت تشغل اهتمام محمد وأعوانه، من سنة 734 هـ / 1334م فصاعداً، وتمخضت عن فقدان معبر وتيلانغ والبنغال، في حين برزت قوة هندوسية جديدة على الساحة، منذ حوالى سنة 1336م في فيجاياناغارا. وعلى الرغم من أنه ضمن فترة راحة مؤقتة بعد 741 هـ / 1340م، ونجح في التماس منشور تولية من الخليفة العباسي في القاهرة سنة 744 هـ / 1343م، فإن سنواته الأخيرة كانت شاهداً على تمرد واسع النطاق، من قبل أعداد من الطبقة العسكرية، **الأميراني صدا** («أمراء المئة») في دكّان وگوجرات. صحيح أن عصاة گوجرات هُزموا، لكنّ زعيم المتمردين، حسن غانغو، مؤسس الأسرة الحاكمة الرحمانية، بادر، في ديوغير (دولت أباد)، سنة 748 هـ / 1347م، إلى تأسيس سلطنة مستقلة.

= عن تاريخ السلطان محمود بن تُغلُق»، IC 53 (1979م)، III, IB187 .، 212 ـ 215 (تر. جيب، 654 ـ 656.

(73) فتوحات الإسلام وانتشاره: شعبان قرائي، 87 ـ 88، 287؛ MA، محرراً، جواسيس، 29 (تر. ألمانية، 55)/ تحقيق فارق، 53 (تر. صدّيقي وأحمد، 54). المغول: MA، تحقيق ليخ، 40 (تر. ألمانية، 118). انظر نداء محمد بالذات الموجه إلى أعيان ونبلاء ما وراء النهر في FG، مخطوطة SK، فاتح 4012، ملف 456 ب.

وحين قضى نحبه، بالقرب من ثاتّا، في الحادي والعشرين من محرم 752 هـ / العشرين من آذار / مارس 1351م، لم يكن محمد يتمتع بأية سلطة إلى الجنوب من الڤينديا.

كان محمد بن تُغْلُق مشكلة بالنسبة إلى المؤرخين: فحتى سرهندي، الذي لا يعرف معنى الخيال، قَطَع برنامجه الحولي للأحداث، ليحاول تفسير الأسباب الكامنة وراء إخفاق السلطان(74). غير أننا لا نستطيع التسليم بجميع الاتهامات الموجهة إلى السلطان، في مراجعنا الرئيسية. نرى أنها تتقاطع حول عدد من العناوين؛ لعلها ترسم الصورة نفسها لشخصية محمد. فكل من برني وعصامي وابن بطوطة يعلق، مثلاً، على اهتمام السلطان بالفلسفة(75)؛ غير أن ذلك لا يعني، أنهم كانوا يفهمونها. لقد جادل البروفسور نظامي بصورة مقنعة، مؤكداً أن محمداً كان شديد التأثر بالعالم والفقيه الشامي ابن تيمية (المتوفى سنة 728 هـ / 1327م)، الذي لقي تلميذُه عبد العزيز أردبيلي، استقبالاً حاراً في بلاط محمد(76). كان هدف ابن تيمية متركزاً على إعادة الحياة والنشاط إلى ما اعتبره مجتمعاً إسلامياً غارقاً في الانحطاط. ولتحقيق هذا الغرض، سعى إلى تشجيع **الاجتهاد** (التفسير الجديد للشريعة) من جهة، **والجهاد** (الحرب المقدسة) من جهة ثانية، ورفض فكرة الفَصْل بين الدولة والدين، كما كانت تدعو الطريقة التشيشية مع آخرين. وبرأي نظامي، فإن وجهة نظر محمد، المشهودة والقائلة بأن «الدين والدولة توأمان»(77)، ومحاولاته الرامية إلى إقحام الصوفيين في خدمة الدولة، وتبنيه للقب **المجاهد في سبيل الله**، كانت جميعاً

---

(74) TMS، 113 ـ 115.

(75) TFS، 464 ـ FS465 .، 510 (تر. 759). IB ،IV، 343 (تر. جيب وبكنغهام، 929). عن عداء برني للفلسفة، انظر FJ، 16، 168 ـ 169؛ تر. في و. ت. دي باري، **مصادر التراث الهندي** (نيويورك، 1958م)، 481 ـ 482.

(76) IB ،II، 75 ـ 76، وIII، 252 ـ 253 (تر. جيب، 312 ـ 313، 676).

(77) **سِيَر**، 196.

من أعراض انتسابه إلى إيديولوجية ابن تيمية؛ غير أن أولئك الذين لم يكونوا مطّلعين على التيارات الفكرية السائدة في العالم الإسلامي الأوسع[78]، مثل برني وعصامي، أساؤوا فهم مواقفه.

يتحدث كل من برني وعصامي وابن بطوطة بصوت واحد، عن وَلَع محمد بفرض العقوبات القاسية[79]. غير أن برني وابن بطوطة، مثل مصادر معلومات العمري، متأثران، أيضاً، بكَرَمه وحرصه على أصول الدين[80]، في حين يبقى عصامي ـ وهو شاهد خصم يكتب لصالح عاهل منافس في سلطنة دكّان، الباهمانية المنفصلة ـ عازفاً عن قول أي شيء إيجابي عن الرجل، غداة حصول تغيُّر مزعوم في مزاج محمد، بعد انقضاء سنتين على تسلمه لزمام السلطة[81]. ليس محمد بن تُغلُق، بنظر عصامي، إلاّ مرتدّاً آثماً يتآمر مع الهندوس، مما يجعل رفض سلطته والإجهاز على حياته، أمرين مشروعين بالنسبة للمسلمين الملتزمين بأصول دينهم. فقيامه بتعليق خُطْبة الجمعة، انتظاراً لوصول شهادة التنصيب من الخليفة (في سياق أَوْرَدَه برني)، يتعرض للتشويه، باعتباره إلغاء لمتطلبات العبادة الإسلامية[82]. لا يأتي عصامي، بالطبع، على ذكر أي شيء عن الشهادة أو البراءة الصادرة عن الخلافة الإسلامية. ففي روايته لقصة التصدي الأول لقوات ناصر الدين إسماعيل موخ، المتمردة في الدكّان،

(78) ك. أ. نظامي، «تأثير ابن تيمية على جنوب آسيا»، JIS 1 (1990م)، 120 ـ 134.

(79) TFS، 459، FS460.، 446، 468، 472 (تر. 675، 704، 708 ـ 709). III, Ib، 216، 295 ـ 316 (تر. جيب، 657، 695 ـ 708)، يوفر عدداً كبيراً من الأمثلة.

(80) سخاء محمد: TFS، 460 ـ 462؛ III, IB، 216، 217، 243 وبعدها (تر. جيب، 657، 658، 671 وبعدها)؛ MA، جواسيس، 21 ـ 25 (تر. ألمانية 47 ـ 51)/ تحقيق فارق، 41 ـ 47 (تر. صدّيقي وأحمد، 46 ـ 50). اهتمامه بالأصول: TFS، 459، 460؛ III, IB، 216، 286 ـ 288 (تر. جيب، 657، 693 ـ 694)؛ MA، جواسيس، 21، 25 ـ 26 (تر. 46 ـ 47، 51 ـ 52)/ تحقيق فارق، 38 ـ 41، 47 ـ 48 (تر. صدّيقي وأحمد، 45 ـ 46، 50 ـ 51).

(81) FS، 424 (تر. 650).

(82) المصدر نفسه، 515 (تر. 764 ـ 765)؛ انظر أيضاً: 451 ـ 452 (تر. 681 ـ 682)، حيث يقارن محمد سلبياً بالطاغية الملحمي الضحّاك. عن إيقاف الصلوات، انظر TFS، 492.

يجري تصوير العصاة على أنهم هم «المؤمنون» (مؤمنان) وجيش محمد على أنه عنصر الفوضى (الفتنة»[83].

أما موقف برني فنجده أكثر تعقيداً، حيث يَعْتبر محمداً «أعجوبة العصر»، الذي مَثَّل مزاوجة مذهلة، حقاً، لجملة من الصفات المتناقضة المطلوبة في أي حاكم: وخصوصاً لأنه أخفق في التمييز بين واجبات السلطان وواجبات النبي[84]. وتظهر أوجه الاختلاف بين صياغتي مؤلَّفه (كتابه) بأجلى صورها وأكثرها تناقضاً في تناولهما لعهده، وقد قام الدكتور هاردي، في مقارنة له بين الصياغتين، بلفت الأنظار إلى حقيقة، أن الثانية أكثر اتصافاً بالنزعة الأخلاقوية من حيث النبرة، وتضفي على السلطان قَدْراً أكبر من المسؤولية[85]. من الواضح أن برني، حين يهدي عملَه لخليفة محمد، وهو خادم أمين للسلطان الراحل، والذي ما لبث عهده هو الآخر، أن شهد، على أية حال، نوعاً من رد الفعل على تجاوزات محمد المتطرفة، يبدو شديد الحرص على النأي بنفسه عن النظام السابق. ويبدو أن حاجته لفعل ذلك، تنامت خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين صياغتي **التاريخ**[86]. فأبشع سمات حكم محمد تمثلت، بنظر برني، بذبح المسلمين، ولا سيما تلك العقوبات القاسية، التي نزلت على رؤوس «العلماء» (رجال الدين) والمشايخ والسادة والصوفيين والدراويش (**القلندرية**) وأعضاء الأجهزة البيروقراطية المدنية والعسكرية[87]. غير أن برني، الذي بقي ملازماً لمحمد أكثر من سبع عشرة

---

(83) FS 535 (تر. 790)؛ انظر أيضاً 538 (تر. 793)، و520 (تر. 771) عن وصف بعض مؤيدي محمد واعتبارهم «أعداء لعقيدة النبي». وللاطلاع على التعارض بين المؤلفين، انظر نظامي، **عن تاريخ... ومؤرخيها**، 133 ـ 134؛ كونرمان، **كتابات هندية**، 112 ـ 123.

(84) TFS، 457، 460. انظر تعليقات هاردي **مؤرخون**، 37، و«الكتابة التاريخية الوعظية»، 49 ـ 51.

(85) المصدر نفسه، 51 ـ 57.

(86) اقتدار حسين صدّيقي، «أضواء جديدة على ضياء الدين برني: شيخ المؤرخين الهنود الفرس في العصر الوسيط»، IC 63 (1989)، 71 ـ 77.

(87) TFS، 460، 472، 497، عن المسلمين عموماً؛ 459، 465 ـ 466 عن «رجال الدين» (العلماء) والخ.

سنة، سميراً (**نديماً**)[88] له، كان هو نفسه متواطئاً في جملة هذه الجرائم. وبالتالي، فإننا نجده مضطراً للتعبير عن الندم، وتأنيب الضمير لامتناعه، جُبناً، عن رفع صوته احتجاجاً على سياسات السيد الراحل، أو عن تقديم النصح الصادق إلى محمد[89]. من الصعب، على أية حال، تقويم الفوائد التي جناها برني من توظيف كتابه **فتاواي جهانداري** كأداة انتقاد للسلطان الراحل. فالصورة التي يرسمها للطاغية يَزْدَجِرْد، مثلاً، تذكّرنا، من بعض (لا كل) النواحي، بمحمد[90].

رغم كل عيوبه، يؤدي **تاريخ** برني (الصياغة اللاحقة خصوصاً) وظيفة على مستوى أعلى من مؤلَّف عصامي. والهوة الفاصلة بين الرجلين تبرز، بجلاء، في معالجتهما لمسألة إيجاد عاصمة ثانية في دولت أباد، في إقليم الدكّان، ولمشروعات أخرى، مثل اعتماد ما عرف باسم النقد الرمزي، وحملة قراشيل غير الموفقة. يكرس عصامي، الذي كان جَدُّه قد توفي بُعَيْد الرحيل عن دلهي نحو الجنوب، في عملية الهجرة الأصلية، مجالاً واسعاً لمدى هول مشروع دولت أباد[91]. فهو يرى طغيان محمد واستبداده، عقاباً سماوياً نزل على مواطني دلهي، المستعدين للتساهل مع أشكال الهرطقة وصنوف **البدع** الدينية؛ إن وفاة (الولي الصالح) نظام الدين أَوْليا (725 هـ / 1325م) تحرم

---

(88) في TFS، مخطوطة بودليان، ملف 196 أ، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 ب، يعتبر نفسه **دار مياني ندماء**. TFS، 504، عن عدد السنوات؛ قارن أيضاً 466، 497، حيث يعتبر نفسه أحد المقرَّبين.

(89) المصدر نفسه، 466 ـ 467، 497، 517، عن صمته؛ انظر أيضاً تعليقات ع. حبيب، «نظرية برني». 102.

(90) FJ، 264 ـ 266. يقوم يزدجرد برشوة أحد الغزاة للاستقالة، وما أشبهه بمحمد الذي تقول إحدى الروايات بأنه قام برشوة الخان الجغتائي تارماشيرين؛ وبعد ذلك يبادر، مثل محمد، برفع الخراج (ضريبة الأرض) بنسبة الخُمس والعُشر (**ماكي بانجو وياكي باداه**) من أجل تجنيد جيش جديد. غير أن مصيره (حيث جرى تمزيقه إرباً على أيدي رعاياه الساخطين) ليس شبيهاً بمصير محمد.

(91) FS، 447 ـ 448 (تر. 677 ـ 678).

المدينة من الحماية، التي كانت قوته الروحية توفرها؛ أما العملية الرمزية (النقد الرمزي) وحَمْلة قراشيل، فتغدوان وسيلتين إضافيتين لتعذيب العاصمة، حين رأى محمد أن خروج عائلاتها النبيلة الرئيسية لم يكن كافياً لإحداث الشلل في مظاهر ازدهاردها[92]. ونحن هنا، نصادف صدى لقصص تتحدث عن حقد السلطان على أهالي العاصمة، كانت متداولة، لدى قيام ابن بطوطة بزيارة دلهي، بعد بضع سنوات[93]. أما الفكرة التي تقول بأن محمد بن تُغْلُق، مثل بعض أسلافه، كان ينظر إلى أهالي دلهي بعين الريبة والعداء، فليست غريبة، كما قد تبدو للوهلة الأولى، على الرغم من أن السبب الكامن وراء ذلك، يبقى لُغزاً. أما فيما يخص الدافع الرئيسي، الكامن وراء تأسيس العاصمة الثانية، فإنه يبقى سبباً غير مقنع. ومما لا شك فيه، أن برني أكثر واقعية، في الإشارة إلى الموقع الجغرافي لدولت أباد، هذا الموقع، الذي جعلها مركزاً نموذجاً لسلطنة مترامية الأطراف، إلى حد كبير. إنها وجهة نظر نجدها أيضاً، في مصادر خارجية؛ على الرغم من أن سبباً آخر لقيام السلطان باختيار دولت أباد عاصمة كان، كما لاحظ روي، متمثلاً بالرغبة في غرس الإسلام، بقدر أكبر، من الثبات والضمان في إقليم الدكّان[94].

باختصار يبقى تحليل عهد محمد بن تُغْلُق، الوارد في **تاريخ** برني المنقح، أفضل ما لدينا، وهو يزوّدنا بإطار عملي معقول. من القابل للتصور أن

(92) المصدر نفسه، 424، 446، 454 ـ 456، 459 ـ 460، 466، 468 (تر. 650 ـ 651، 675 ـ 676، 686 ـ 689، 693، 702، 704). عن منظور عصامي، انظر أيضاً HN، 507.

(93) IB، III، 314 ـ 315 (تر. جيب، 707 ـ 708).

(94) TFS، 473 ـ 474؛ أيضاً TFS، مخطوطة بودليان، ملف 190 ب ـ 191 أ/ مجموعة مخطوطات ديغبي ملف 159 ب ـ 160 أ. الصَّفَدي، **الوافي**، III، 174 (تر. خان، 188)؛ انظر أيضاً الصَّفدي **أعيان العصر**، مخطوطة SK، آشيرافندي 588، ملف 2 أ. ن. ب. روي، «نقل العاصمة من دلهي إلى دولت آباد»، JIH، 20 (1941م)، 159 ـ 180 (خصوصاً 160 ـ 168).

جواً من الألَق طغى على السنوات الأول من الحكم، وأفضى إلى تضليل محمد، الذي كان يتمتع بالموقع القوي المتمثل بكونه الوريث المسمى الأول، الذي يخلف أباه سلطاناً لدلهي، ودفعه إلى التوهم بأنه قادر على كل شيء. فمنذ لحظة اعتلائه العرش، تقريباً، جرى إخضاع المساحات الواسعة التي باتت مدينة بالولاء، لتحكم أكثر تشدّداً مما في أيّ وقت آخر، أيام سابقيه[95]. يزعم برني أنه لو تسنّى له فَتْح العالم كله، لما تحمل أن تبقى أصغر الجزر أو الزوايا، خارج سلطته (وهي وجهة نظر تردد صدى خافت لها في حديث مخبر، عند العمري كان يعتقد أن الجزر وشريطاً ضيقاً على الشاطئ فقط، بقيت خارج دائرة نفوذ إمبراطورية محمد)[96]؛ من الواضح، بصورة لا تقبل الشك، أنه كان عازماً على فرض التجانس على ممتلكاته (على الأقاليم الخاضعة لسيطرته). غير أن ما يبعث على الأسف، هو أن حُلْمه ما لبث أن ثبتت استحالة تحقيقه. كما أن محاولاته الرامية إلى ترجمته على أرض الواقع، أفضت إلى ضياع أجزاء كبيرة، وذات شأن، من إمبراطوريته. ومع أن رؤى برني ليست، بالتالي، جديرة بالاستبعاد والرفض، بصورة مباشرة، فإن التأكيد في الصياغة الثانية، على الطابع الوهمي الحالم لمشروعات محمد، يبقى مفرطاً في التحيز، حين يصر على الإقلال من شأن الروابط التي كانت قائمة بينهما (انظر الفصل الثالث عشر).

لدى وفاة محمد سنة 652 هـ / 1351م، تمكن قادة الجيش وشخصيات قيادية أخرى حاضرة في السِّنْد، من السيطرة على ابن عم السلطان الراحل، والأمير ـ الحاجب عنده، فيروز بن رجب، وإقناعه بقبول العرش؛ فبعد أن عبر عن شيء من التردد والتمنع، اللذين لم يكونا متوقعين قط، أذعن لما هو مطلوب. لم يمر اعتلاء فيروز شاه للعرش دون تحديات وصعوبات. فمطالب

---

(95) TFS، 468، TMS469 ،. 97 ـ 98.

(96) TFS، MA458 ،. جواسيس، 5 (تر. ألمانية 23) تحقيق فارق، 11 (تر. صدّيقي وأحمد، 29).

ابن أخت العاهل الراحل، دوار ملك التي قدمتها أمه خوداوندزاده بنت تُغْلُق، ردها الأمراء بذريعة افتقار ابنها للخبرة(97). وفي العاصمة، كان الوزير خواجا جهان أحمد بن أياز، قد نصَّبَ ابناً صغيراً مزعوماً لمحمد، سلطاناً، باسم غياث الدين محمد شاه(98). وما إن تحرك فيروز شاه زاحفاً على دلهي، حتى التحق به عدد كبير من الأمراء والنبلاء، الذين كانوا قد تخلوا عن خواجا جاهان. ثم ما لبث الوزير نفسه، أن ظهر على المسرح ذليلاً يقدم آيات الولاء والخضوع. كان فيروز شاه ميالاً إلى الرأفة، غير أنه أذعن للضغوط الصادرة عن أمرائه، الذين أصروا على إسالة دم الوزير العجوز. فخواجا جاهان، الذي تم إبعاده إلى إقطاعه الجديد في سامانا، لحق به المُقْطَع الجديد شيرخان وأعدمه. ثمة عددٌ من زملائه أُعدموا(99)؛ غير أن مصير السلطان الطفل، الذي كان قد نصّبه على العرش، يبقى لُغزاً.

وحول هذه القضية، تتباين المصادر. فكتاب **سيرتي فيروز ـ شاهي**، الذي يشير إلى عدد غير قليل من المؤامرات اللاحقة، المدبَّرة ضد فيروزشاه، بأكثر التعابير غموضاً، يكون أقل صراحة حول رد الفعل في دلهي، على نبأ موت محمد، عازفاً عن إيراد أي ذكر للسلطان الطفل، ومكتفياً بمجرد شجب خيانة الوزير(100). لعل أكثر الروايات قدرة على الإقناع، هي تلك التي يقدمها عفيف. إن الوزير، الذي كان العُضْوَ الوحيد الموجود في دلهي، من الهيئة

(97) اتُهمت، مع زوجها خسرو ملك، فيما بعد بتدبير مؤامرة لاغتيال السلطان، وعوقبت: عفيف، 45، 100 ـ 104. عن أبوة داوار ملك والالتباس في المراجع بينه وبين خسرو ملك (الذي كان أباه بالتبني فعلاً)، انظر هوديفالا، **دراسات**، I، 309 ـ 310.

(98) TMS، 120، هو المصدر الكتابي الوحيد الذي يعطي لقب العاهل الطفل، الذي يمكن الاطلاع على قطعه النقدية في CMSD، 154 (رقم 648 ـ 648 ب)؛ ج.غ. دلمريك، «ملاحظة عن قطعة نقدية ذهبية جديدة باسم محمود شاه بن محمد شاه بن تُغْلُق شاه الدهلوي»، JASB، 43 (1874م)، 97 ـ 98.

(99) TFS، 534 ـ 547. عفيف، 57 ـ 58.

(100) SFS، 12 ـ 13 (تر. باسو، JBORS، 22 [1936]، 265 وبعدها). عن المكائد، انظر المصدر نفسه، 7 ـ 12(تر. باسو، 101 ـ 107)؛ أيضاً TFS، 552، عن محاولة لدس السم لفيروز شاه.

الثلاثية التي كان محمد قد شكلها لقيادة الحكم ورئاسة الحكومة، في أثناء غيابه، سمع تقارير تحدثت ليس، فقط، عن موت محمد، بل وعن موجة من الانتفاضات وحوادث الشغب، التي أدت إلى اختفاء كل من فيروز وتترخان. وبعد استكمال مراسم الحداد على كل من السلطان الراحل وفيروز، الذي كان شديد التعلق به، بادر الوزير إلى تنصيب ابنِ طفلٍ لمحمد على العرش، وإلى توزيع الهدايا والهبات لتدعيم موقع الحاكم الطفل. ولم يعلم بقيام وحدات الجيش الموجودة في السند، برفع فيروز شاه إلى مرتبة سلطان، إلاّ بعد أن كان وقت التراجع قد فات[101]. يبدو أن عفيفاً يسلم بأن الصبي هو ابن السلطان الراحل حقيقة[102]، ويبادر، صراحة، إلى تحدي القصة التي كانت متداولة في أيامه ـ وقد أعاد برني، مثلاً، روايتها ـ تلك القصة التي زعمت أن الوزير قام باصطناع «ابن غير شرعي» **(ولد الزنا)** بعد الاطلاع على خبر اعتلاء فيروزشاه للعرش، وبادر إلى بعثرة الهبات والمنح، يميناً وشمالاً، ترقباً للصراع الوشيك على العرش[103]. من الجدير بالملاحظة، أن برني هو المؤلف الوحيد الذي يزعم أن محمداً كان قد عَيَّن فيروزشاه وريثاً له **(ولياً للعهد)**[104].

ليس تفسير هذه المفارقات أمراً سهلاً. إن الأساس الذي يستند إليه برني مثقل بالإشكاليات. معروف أنه عانى من الإهمال في ظل السلطان الجديد،

---

(101) عفيف، 50 ـ TMS53 .، 119 ـ 120، يقدم رواية مشابهة ولكنها أكثر إيجازاً.

(102) عفيف، 50، 60، 68، 396؛ قارن أيضاً 54، حيث رَأيُ قادة الجيش في السند القائل بأن محمداً لم يكن أباً لابن يجري إيراده دون تعليق.

(103) TFS، 539؛ TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 212 أ، يطلق على الطفل اسم **غلام زاده**. TMS، 120، يعتبره «ذا نسب مجهول وسلالة غير موجودة» **(مجهول النسب ومفقود الحسب)**. الصَّفَدي، **الوافي**، III، 172 ـ 173 (تر. خان، 187)، سمع أن محمداً كان عاجزاً عن الإنجاب. إن هيغ، «خمسة أسئلة»، 365 ـ 372، وجاميني موهان بنرجي، **تاريخ فيروز شاه تُغلُق** (دلهي، 1967م)، 15 ـ 16، يسلّمان بأن الصبي ابنٌ حقيقي لمحمد، أما حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 387 ـ 388، وب. ي. ساكسينا، في HN، 569 ـ 571، فليسا مؤيدين.

(104) TFS، 532؛ قارن أيضاً، 539.

وأودع السجن لبعض الوقت، في قلعة بهاتنر[105]. تبقى الصياغة الأولى لكتابه أكثر صراحة، حول طرد خَدَم محمد وإعدامهم من قبل فيروزشاه؛ غير أن الطبعة المنقَّحة تحاول، بالمقابل، أن تعزف لحناً أكثر إيجابية، معارضة لين الحاكم بحمامات الدم، التي كان ضمان انتصار سلاطين دلهي السابقين، قد تطلَّبها[106]. وبالتالي، فإن أحد الأهداف الكامنة وراء إعادة صياغة كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي**، كان متمثلاً، على ما يبدو، بخطب مودة العاهل الجديد. أما عفيف الذي كتب بعد زمن غير قصير من موت فيروزشاه، فربما لم يكن يعاني من القَدْر نفسه من الضغط لإضفاء المشروعية على اعتلائه للعرش، على الرغم من أنه، حتى هو، يعيد رواية قصص وحكايات عن أن (أولياء صالحين) مرموقين، مثل الشيخين الصوفيين: نظام الدين أَوْليا وعلاء الدين أجودهاني تنبؤوا بسلطنة فيروزشاه، ويؤكد أن براءات الخلافة (الإسلامية) التي وصلت إلى فيروزشاه جاءت دون التماس، خلافاً للاعتراف الذي لم يحصل عليه محمد، إلاّ بعد الطلب والرجاء[107].

كان برني، الذي أكمل الطبعة المنقحة لكتابه **تاريخي فيروز ـ شاهي** سنة 758 هـ / 1357م، في وضع يستطيع معه أن يقيّم سياسات فيروزشاه خلال سنوات حكمه القليلة، الأولى فقط. ومع ذلك، فإنه كان واثقاً من وقوفه على حقيقة تلك السياسات. لم يكن ثمة حاكم أكثر رأفة من فيروزشاه، منذ احتلال دلهي؛ وما من سلطان كان قد تجنب المذابح إلى المدى الذي فعله فيروزشاه، فيما يخص أعوان خواجا جهان[108]؛ باتت

---

(105) برني، **مفتي محمدي**، وارد في م. حبيب، «حياة وفكر ضياء الدين برني»، في م. حبيب وأ. يو. س. خان، **نظرية سلطنة دلهي السياسية** (دلهي، 1960م)، 162 (طُبع ثانية في نظامي، **السياسة والمجتمع**، II، 348 ـ 349). انظر أيضاً TFS، 125، 554، 557، وإشارات أخرى في I, PL، 506. ع. حبيب «نظرية برني»، 102.

(106) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 217 أ؛ TFS، 547 ـ 552. صدّيقي، «أضواء جديدة»، 78 ـ 79.

(107) عفيف، 27 ـ 29، 273 ـ 274، 276.

(108) TFS، 548، 551 ـ 552.

عقوبات الحكام السابقين القاسية جزءاً من التاريخ؛ لم يعد للبصّاصين (الجواسيس) والمخبرين أي وجود[109]. بات الجند يمتعون برخاء غير مسبوق: صاروا قادرين على الإفادة من موارد قراهم، دون الاضطرار، حتى إلى الخدمة الميدانية[110]. وكذلك، فإن حرص السلطان الجديد على رخاء «الطبقة الدينية»، ذلك الحرص الذي يخصص له جزءاً كاملاً من عمله[111]، كان قد تجلى منذ البداية الأولى، في أثناء رحلته الطويلة، من تاتّا إلى دلهي. ففي سيويستان، كان قد أعاد لـ «علماء» (رجال الدين) والشيوخ وغيرهم من الأعيان، جملة المعاشات والمرتبات والمزارع التي كان محمد قد صادرها (ربما في أثناء حركة قايشار التمردية) وأجرى الصدقات على الدراويش (الفقراء) وأبناء السبيل. وفي أوتشش، أعاد بناء الخانقاه (التكية ـ الملجأ) الخربة، العائدة للشيخ جمال الدين، كما أعاد لأحفاد الشيخ مزارعهم وبساتينهم، التي كان سلفه قد استردها لصالح الخالصة. تمت الاستجابة لمطالب أهالي مُلْتان، وجرى توزيع الهدايا والهبات على العائلات الفقيرة، العائدة للشيخ فريد الدين في آجودهان[112].

من بعض النواحي، يمكن اعتبار هذه الأمور، سياسات عاهل جديد، لم يكن صاحب حق مضمون في العرش، ومحتاج، بالتالي، لأن يشتري الدّعم والتأييد. وقد أقدم السلطان، للسبب نفسه ـ تجنباً لتكرار حوادث الشغب التي كان سلفه قد ابتُلي بها ـ على تقديم التنازلات للنبلاء والطبقة العسكرية. ومما انطوى على ضرورة استثنائية بالنسبة إلى فيروزشاه هو القيام بترسيخ صورة مناقضة لصورة محمد؛ وبالفعل، فإن السياسات التي اتبعها تقول لنا أشياء كثيرةً، عن سياسات محمد، التي كانت قد أثارت كل ذلك القَدْر من السخط

(109) المصدر نفسه، 557، 572 ـ 574.

(110) المصدر نفسه، 553.

(111) المصدر نفسه، 558 ـ 561.

(112) المصدر نفسه، 537 ـ 539، 543.

والاستياء. ففي كتابه، **فتوحات** يكشف السلطان نفسه، بجلاء، عن جملة الميزات الإسلامية المتشدّدة، التي كان يرغب في أن يتذكره الناس بها: إلغاء العقوبات الفظيعة؛ شطب الضرائب غير القانونية؛ قمع الأشكال المنحرفة من الممارسات الإسلامية؛ هدم المعابد الهندوسية المشادة حديثاً؛ تشجيع اعتناق الإسلام بين صفوف السكان الهندوس؛ إقامة الجوامع والمدارس (الكتاتيب) الجديدة؛ إصلاح المنشآت المقامة من قبل سلاطين المسلمين السابقين؛ والرعاية المتواضعة (للأولياء الصالحين). ثمة هموم ومشاغل مماثلة ـ ولو مع إضافة الحرب المقدسة (الجهاد) ضد الكفار ـ نجد أصداءها مترددة في **السيرة** (سيرت)[113].

قد لا تكون مثل هذه المواقف منبثقة، بالضرورة، من التقوى وحدها. فكتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لعفيف، يكشف النقاب عن أن فيروزشاه درج على عادة زيارة أضرحة الأولياء والسلاطين السابقين للصلاة، عشية جميع حملاته وغزواته، كما فعل، على سبيل المثال، قبل الزحف ضد ثاتّا[114]؛ كما أن تردداته على الأضرحة والمزارات في السِّنْد، كانت مصممة، دون أدنى شك، لضمان الانتصار على كتلة خواجا جهان. يقال لنا فيما بعد، على أية حال، إن السلطان كان شديد الحرص على زيارة الأضرحة والمزارات، كلما خرج في رحلة على ظهر جواده[115]. يوحي عفيف بقوة، في الحقيقة، أن فيروزشاه استمر يعتبر نفسه متشدّداً في تقواه وورعه، وشديد الحرص على مصالح النخبة الدينية، خلال حكمه كله، حتى إلى حد حَلْق شعر رأسه على غرار أي تلميذ (مرشد) صوفي بعد وفاة وريثه فاتح خان سنة 778 هـ / 1376 م؛

---

(113) للاطلاع على تقويم مثير للسلطان، انظر خُرّم قادر، فيروز شاه (تُغلُق): دراسة لإحدى الشخصيات، JCA 9 (1986م)، رقم: 2، 17 ـ 39.

(114) عفيف، 194 ـ 196؛ وانظر أيضاً 230 ـ 231، 250.

(115) المصدر نفسه، 371.

وبعد ذلك مباشرة، جاء حَظْرُه لجميع الممارسات المتعارضة مع الشريعة، في الأقاليم الخاضعة لسيطرته[116].

أمّا على الصعيد العسكري، فإن عهد فيروزشاه لم يكن متميزاً. لقد اضطر لأن يذعن لفقدان الدكّان والجنوب، فضلاً عن أن حملاته القليلة في الشرق ـ على البنغال في 754 هـ / 1353م و760 هـ / 1359م، وعلى جاجنَغَر حوالي سنة 761 هـ / 1360م ـ لم تحقق إلاّ الشيء القليل. تمثلت نجاحاته اليتيمة بإخضاع حاكم ناغاركوت (كانغرا) الهندوسي سنة 766 هـ / 1364 ـ 1365م، واستسلام قوم الجام الثاني، بعد غزوتين (767 هـ / 1365 ـ 1366م). ثمة جزء كامل من **تاريخ عفيف**، جرى تخصيصه لتخلي السلطان عن الحملات البعيدة (فالأقاليم الأقرب منالاً، مثل مرتفعات السيرمور وكايتهر وإيتاوا، كانت لا تزال أهدافاً للإغارات)[117] وتركيزه على تسوية شؤون الدولة وحل مشكلاتها[118]. غير أن الأسباب المطروحة، متباينة. يقول لنا عفيف، أولاً، إن فيروزشاه، حين قام الوزير خان جهان (الأول) بحرفه عن اجتياح الدكّان، قطع وعداً بألاّ يقود جيشاً ضد إخوته في الدين، مرة أخرى[119]، وهو موقف يذكّرنا بموانع جلال الدين خَلْجي. ويقوم عفيف، في أماكن أخرى، بإيراد ما يبدو، أشبه بتفسير بديل، لعملية التخلي عن الجهود العسكرية: يقال إن فيروزشاه أقسم، في أثناء محاصرَة ثاتّا، على الالتفات إلى شؤون أخرى، إذا تم له إخضاع المكان[120]. وفي منعطفات لاحقة أخرى، في سيرة حياته، يقال

---

(116) المصدر نفسه، 372، 373. يرد التاريخ على أن عام 777 هـ / 1376 م: المصدر نفسه، 379. غير أن موت فتح خان يؤرخ لاحقاً في صَفَر 776 هـ / حزيران ـ تموز 1376م، المصدر نفسه، 493 ـ 494، مع أن TMS، 131 ـ 132، يورد تاريخ 12 صفر 776 هـ / و23 تموز 1374 م.

(117) المصدر نفسه، 134 ـ 135، عفيف، 493، 497. التواريخ ليست متطابقة.

(118) المصدر نفسه، 261 ـ 267.

(119) المصدر نفسه، 266.

(120) المصدر نفسه، 216.

إن السلطان أقلع عن شن الحملات بعد وفاة خان جهان، المتمتع بقدر كبير من الكفاءة والثقة سنة 770 هـ / 1368 ـ 1369م (التي يجب أن تكون قد حصلت بُعَيْد انتهاء مشروع ثاتّا)[121]. وفي الحقيقة، فإن من شأن هذه المحاولات المتباينة لتفسير عزوف السلطان عن النشاط العسكري في سنواته الأخيرة، أن تشي بأن كَتَبَة سيرة حياته، ربما وجدوا المسألة مصدراً للإزعاج والحرج. فحين يتم التأكيد على أن انتصارات فيروزشاه دفعت الناس إلى نسيان الحرب، وإهمال العتاد والأسلحة، ثمة نوع من الغمز والتلميح، إلى أن حكومته عملت على تقويض قدرة السلطنة العسكرية[122].

يزعم عفيف، ومعه المؤلفان اللذان يغطيان العهد كله، أعني سرهندي وبيهاماندخاني، أن الحقبة كانت مطبوعة بالازدهار والعدل والرحمة والأمن. ثمة معمَّرون أكدوا لسرهندي، أنه لم يسبق أن كان هناك حاكم أعدل أو أرحم أو أكثر خوفاً من الله منه، منذ ناصر الدين محمود شاه[123]. وبرأي عفيف، فإن الرُّخْص والوفرة اللذين ميزا العهد، دفعا رعايا فيروزشاه إلى نسيان الرخاء الذي ساد، حتى في أيام علاء الدين؛ فضلاً عن أن الأسعار المتدنية تحققت، في ظل فيروزشاه، دون أي تدخل من جانب الحكومة، في حين أن علاء الدين كان قد فَرَضَها بقوة المراسيم والقوانين[124]. ومع ذلك، فإن كلاً من بهامادخاني وسرهندي كان يكتب في زمن، لم تعد فيه السلطنة سوى ظل باهت لواقعها الغابر؛ أمّا عفيف، فقد أكمل سيرته، في أعقاب سنوات صراع الإخوة ممن

(121) المصدر نفسه، 399، 424. عن عام وفاة خان جهان الذي يتأرجح بين 770 هـ (المصدر نفسه، 345) و772 هـ (المصدر نفسه، 422، TMS، 131)، انظر هوديفالا، دراسات، 391، الذي يميل إلى تبني التاريخ الأبكر.

(122) عفيف، 23. انظر تعليقات إضافية من هاردي، «القوة والعنف»، 178.

(123) TMS، 140 ـ 141. عفيف، 94، 99 ـ 100، 178 ـ 180، 193، 456، 512. بيهاماندخاني، ملف 407 ب (تر. زكي، 4). انظر أيضاً الملاحظات في TFS، 553 ـ 554.

(124) عفيف، 293 ـ 294.

جاؤوا بعد فيروزشاه، ذلك الصراع الذي كان قد اندلع حتى قبل موته، في الثامن عشر من رمضان 790 هـ / العشرين من أيلول / سبتمبر 1388م، وبعد الزلزال الهائل الذي تمثل باستباحة تيمور لمدينة دلهي سنة 801 هـ / 1398م[125]. وبالتالي، فقد بات ممكناً أن تتمّ مناجاة فيروزشاه بعبارات تذكر بالنبي نفسه، مثل «**خاتم سلاطين دلهي**». ومما قد يثير قدراً أكبر من الدهشة، أن عفيفاً يقدم السلطان ولياً صالحاً؛ والقول بأن سقوط دلهي جاء بعد موته، بما ينطوي عليه من تلميح إلى أن وجوده فيها، كان قد حمى المدينة من التدمير، هو ترديد قوي لفكرة الطاقة الروحية (البَرَكة) الواردة في الأدبيات الصوفية، التي أتينا على ذكرها، من قبل[126]. وإذ قام برني بتقويم السنوات الأولى من العهد، على أساس خلفية نظام محمد، فإن أيام فيروزشاه ازدانت، بالنسبة إلى هؤلاء الكتاب اللاحقين، بألوان عصر ذهبي، بالمقارنة مع ما جاء بعدها[127].

(125) المصدر نفسه، 133، حيث تُعتبر الاستباحة حدثاً جديداً. غير أن حقيقة أن يشار، على الصفحة 314 ـ 315، إلى تَمُر على أنه «صاحب قران»، بدلاً من نعته بأوصاف سلبية، وفقاً لما هو مستحب في المراجع التَمُرية، تشير بأن عفيفاً كتب في ظل حكم السادة (الأسياد ـ السادات) (أي بعد سنة 1414م)، الذين كانوا يعترفون بالسيادة التَمُرية

(126) عفيف، 21 ـ 22، 28. ديغبي، «الشيخ الصوفي والسلطان»، 77، وهـ. 69. عن استعراض عام لمعالجة عفيف للسلطان، انظر هاردي، **مؤرخون**، 41 ـ 51.

(127) عفيف، 292 ـ 293. عن أهمية هجوم تَمُر بنظر عفيف، انظر هاردي، **مؤرخون**، 41 (وقارن أيضاً 55).

الفصل التاسع

الأرستقراطية الخَلْجية والتُغْلُقية

نشوء نخبة جديدة

رأينا من قَبْلُ كيف أن الأرستقراطية لم تكن، لدى اعتلاء علاء الدين خَلْجي للعرش، قد اختلفت كثيراً عن نظيرتها الغياثية. فالسلطان الجديد، لم يتحرك ضد الأرستقراطية القديمة التي كان قد ورثها عن عمه، ولم تنبثق طبقة أمراء ونبلاء مختلفة جوهرياً عن نظيرتها، في عهدي بلبان وكيقباد، إلاّ بَعْدَ سنة أو اثنتين. يقسم برني عهد حكم علاء الدين إلى ثلاث مراحل: كانت أولاها، حقبة رجال وثيقي الارتباط بعملية وضع اليد على العرش؛ أما الشخصيات المهمة، في المرحلة الثانية، فقد بدت شخصيات بيروقراطية بأكثريتها؛ والمرحلة الثالثة، التي دامت أربعاً أو خمساً من السنوات، كانت خاضعة لهيمنة النفوذ الخبيث والمشؤوم للقائد المملوكي كافور، الذي ما لبث أن أصبح نائباً للملك، وتُجمع المصادرُ، بالتالي، على إعطائه لقب: نائب الملك «ملك نائب»[1].

لم يكن الغموض الذي يلف أصول أعيان ونبلاء علاء الدين، إلاّ أمراً متوقعاً. لقد كان بعض أعضاء النخبة الجديدة ذوي أصول خَلْجية، وبادر

(1) TFS، 336 ـ 337.

السلطان الجديد، حاذياً حذو سلفه، إلى ترقية الأقارب والأهل مثل أخيه آلماس بك، أُلُغ خان الحالي، الذي عُيّن **باريغاً (أمير ـ حاجب)** ومُنح إقطاع بهايانا؛ كما منح لاحقاً سنة 700 هـ / 1301م أراضي إقليمي رنثانبور وجهاين، المفتوحين حديثاً، إقطاعاً له[2]. أما سنجر، الملقب آلب خان، الذي خدم علاء الدين (**أمير مجلس**) [أميراً للمجالس]، فقد كان شقيق زوجه: يقول عصامي، في إحدى المناسبات، إن علاء الدين قد تولى تربيته منذ الطفولة. تولى شؤون مُلْتان لبعض الوقت، ثم ما لبث أن نقل إلى إقطاع گوجرات حوالى سنة 1310م[3]. ومن أبناء شقيق علاء الدين، أصبح سليمان شاه وكيلاً للدار (**وكيلي دار**)، وحصل على لقب إيكيت خان، فيما مُنح آخر، لقب قُتْلُغ خان[4]. وثمة ابن أخ، غير شقيق، يدعى هِزَبْر الدين يوسف، صار ظفر خان **وعارضاً** (حاجباً)[5].

كان الأميران الرئيسيان في السنوات الأولى من العهد، عدا أقارب السلطان، كلاهما ممن كانوا يؤلفون جزءاً من حاشية علاء الدين في قارا وأوَدْ، قبل اعتلائه العرش. فعم برني، علاء الملك، عمل أولاً ياوراً (معاوناً) للسلطان الجديد، في قارا وأوَدْ، ثم ما لبث أن استُدعي إلى دلهي، ليصبح كوتوالاً، خلفاً لملك الأمراء السابق، فخر الدين[6]. أمّا الآخر، ملك نصرت جاليساري، فقد حصل، لدى اعتلاء علاء الدين للعرش، على لقب نصرت خان؛ ثمة احتمال قوي بأنه كان ذا جذور متواضعة، مثله مثل الكثير من هؤلاء

---

(2) المصدر نفسه، 242، 272، 283.

(3) FS، 287، 288 (تر. 461، 463)، عن إقطاعاته؛ المصدر نفسه، 338 (تر. 519)، عن تربيته. ترد عبارة ح ر ب و ن جنباً إلى جنب مع اسم آلب خان في TMS، 71، وهي قراءة خاطئة لكلمة خُسُر بورا («ابن والد الزوج»)، الواردة في إحدى المخطوطات؛ إنها مستعملة أيضاً للدلالة عليه في TFS، 242.

(4) المصدر نفسه، FS273 .، 259، 279 (تر. 341، 453).

(5) TFS، 240، 242، 248، TMS، 71.

(6) TFS، 250، 257.

الأصحاب السابقين، دون شك[7]. لقد كان نُصرت خان، الذي لعب دوراً في تأمين مبالغ كبيرة للخزينة، عن طريق الإجهاز على الأرستقراطية الجلالية واستئصالها، أحد أكثر أمراء السلطان الجديد تمتعاً بالثقة، ومن اللافت للنظر، أن علاء الدين خالف أسلوب أَسْلافه، حين جعل نُصرت خان نائباً وكوتوالاً لدلهي، في الوقت نفسه. وفي السنة التالية، أصبح وزيراً، فتخلى عن منصب الكوتوال لعلاء الملك، وبعد ذلك حصل على إقطاع قارا[8].

شكل زوال جميع أعوان علاء الدين الذين شاركوا في اغتيال عمه من الوجود، في غضون سنوات قليلة، مصدراً لقناعة مقيتة بالنسبة إلى برني[9]. فظَفَر خان، الذي كان قد اضطلع بدور مميز في محاربة الغزاة المغول، سقط في المعركة حوالى سنة 1300م[10]. وإذا صدقنا المؤرخ، الذي يستخدم عمه أداة لإيصال النصائح إلى السلطان، فإن علاء الملك، كان ما يزال على قيد الحياة، حين شنّ قُطْلُغ قوتشا هجومه؛ غير أنه، ربما قضى نحبه، بُعَيْد ذلك. أما نُصرت خان، فقد هلك في أثناء حصار رنثانبور سنة 700 هـ / 1300 ـ 1301م[11]. ومن الممكن للمرء تخمين القِمم التي كان هذا الضابط المقدام، مؤهلاً لصعودها، لو بقي حياً. ثمة أعضاء من عائلته برزوا أيضاً: لقد قُتل أحد إخوته، ملك عز الدين، **أمير ـ حاجب** أُلُغ خان، على يد المسلمين الجدد من المغول، الذين تمردوا خلال حملة گوجرات؛ وثمة ابن أخ يدعى ملك فخر الدين قوتشو، نَجده، لاحقاً، حائزاً عل إقطاع قارا (ربما خلفاً لعمه) وآمراً لجيوش «الشرق والبنغال وتيرهوت» في 702 ـ 703 هـ / 1302 ـ 1303م، حين

(7) اقتدار حسين صديقي، «الارستقراطية في ظل السلاطين الخلجيين»، IC، 37 (1963م)، 59 ـ 60.

(8) TFS، 248، 249، 250، 272.

(9) المصدر نفسه، 236 ـ 237. كان منهم أيضاً ملك أصغري **ساري دواة دار** وملك جاونا **الدادبك**، اللذين لا نعرف عنهما إلاّ الشيء القليل عدا عن منصبيهما.

(10) المصدر نفسه، 253 ـ 254، 260 ـ FS261 .، 259، 262 ـ 267 (تر. 431، 434 ـ 440).

(11) TFS، 255 ـ 257، 266 ـ 272، عن علاء الملك؛ 272 عن نُصْرت خان.

رافق الداد بك فخر الدين إلى جاونا، في الحملة الفاشلة على آرانغال[12]. غير أن التاريخ اللاحق لهذه العائلة الأستقراطية الناشئة، يبقى مجهولاً.

من المحتمل، بقوة، أن يكون بعض أقرباء السلطان قد خيّبوا أمله. سمع برني أن أُلُغ خان فارق الحياة، بصورة مفاجئة، في أثناء قيامه بالتخطيط لحملة طموح على الجنوب الأقصى: ينقل عصامي إشاعةً تقول، إنه مات مسموماً لمبالغته المفرطة في المسارعة إلى الرد على شائعات زائفة، تحدثت عن موت السلطان[13]. كان إكيت خان يتوق لتقليد نجاح عمه في الاستيلاء على العرش. ففي رحلة صيد بمنطقة تيلبات، الواقعة على الطريق إلى رنثانبور (حوالى سنة 1301م)، قام رجاله بإطلاق النار على علاء الدين، الذي نجا، وإن أصيب. وتحت تأثير تضليل حرس السلطان البايك (المشاة) الذين أوهموه بأن علاء الدين، قد مات حقاً، سارع إكيت خان إلى إعلان نفسه سلطاناً. ولكن الجيوش ما لبثت أن التفّت حول علاء الدين، حين عاد إلى الظهور على المسرح، وقُتل إكيت خان في أثناء الهرب؛ كذلك فإن أخاه قُطْلُغ، قُتل هو الآخر[14]. وبعد وقت غير طويل، جرى إعدام اثنين من أبناء شقيقة علاء الدين هما: عمر خان ومنغوخان اللذين كانا صاحبي إقطاعي بداؤون وأوَدْ على التوالي، بتهمة التورط في مخططات تآمرية غادرة[15].

تبقى معلوماتنا عن الأمراء الذين كان علاء الدين يعتمد عليهم، خلال الجزء المركزي من عهده، ضئيلة نسبياً؛ غير أن القائمة التي يوردها برني تظهر بأن هؤلاء كانوا، بأكثريتهم، ينتمون إلى الجهاز البيروقراطي. منهم ملك حميد

---

(12) عز الدين، المصدر نفسه، 252. فخر الدين TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 أ؛ TFS، 300.

(13) TFS، 783، FS، 281 ـ 282 (تر. 456 ـ 457).

(14) TFS، 273 ـ FS276 ،، 279 ـ 281 (تر. 453 ـ 455). ثمة رواية أكثر إيجازاً في III, IB، 185 ـ 186 (تر. جيب، 641). للاطلاع على رواية مشوهة وصلت إيران المغولية، انظر قاشاني، 190 ـ 192.

(15) TFS، 277 ـ 278.

الدين، ابن عماد الملك خواجا علائي دبير، الذي ما لبث أن أصبح **نائب وكيلي دار**، وأخوه ملك عز الدين، الذي عُين سكرتيراً رئيسياً للإمبراطورية (**دبيري ممالك**): يبدو أن صعود الأخوين، تزامن مع مؤامرة إكيت خان وحملة رنثانبور، بصورة تقريبة. ثمة شخصيات رئيسية أخرى مثل شرف قائني، **نائب الوزير**، الذي يعتبر صاحب فضل فَرْض نظام ضريبي موحد، على عدد غير مسبوق من الأقاليم (انظر الفصل الثاني عشر)؛ وعين الملك مُلْتاني، الذي كان قد بدأ حياته الوظيفية سكرتيراً (**دبيراً**) لأُلُغ خان؛ وخواجا ناصر الدين سراج الدين حاجي، الـ **نائب عارض ممالك**، الذي رافق كافور، فيما بعد، خلال حملاته الجنوبية[16]. على الرغم من أن صعود هؤلاء الرجال، ربما، كان ناجماً عن عزوف علاء الدين، المتنامي، عن الاعتماد على أقاربه، فإنه مرتبط أيضاً، كما يتجلى بوضوح، بإصلاحاته الإدارية والعسكرية التي مكنته من الاحتفاظ بجيوش استطاعت، أن تتصدى للخطر المغولي الهائل، من جهة، وأن تحتل عدداً من الولايات الهندوسية في راجستان ومملكة يادافا في إقليم الديوغير، من جهة ثانية، وأن تنهب الجنوب الأقصى، من جهة ثالثة.

وبما يتناسب تماماً مع سلطان اتسم عهْدُه بالكثير من المعارك مع الغزاة المغول، فإن علاقات علاء الدين مع الأمراء المغول، داخل الهند، لم تكن ميسورة وسلسة. يوحي برني بأن كثيرين منهم، أو جميعهم، فقدوا رواتبهم[17]. عددٌ معين من هؤلاء القادة المسلمين الجدد، رافقوا حملة گوجرات سنة 698 ـ 699 هـ / 1299 ـ 1300م، وتمردوا، حين حاول قادة السلطان حرمانهم من جزء مما نهبوه من غنائم. غير أن الثورة انهارت، وفر

(16) عن لائحة برني، انظر المصدر نفسه، 337. عن حميد الدين وأخيه انظر المصدر نفسه أيضاً، 274 ـ 275، 282. عن نشاطات شرف قايني، المصدر نفسه، 288 ـ 289؛ انظر أيضاً هوديفالا، **دراسات**، I، 278. خواجا حاجّي: KF، 82، 85، حيث يرد لقبه الكامل؛ II, RI، 56 ـ 60؛ TFS، 326، 328، 333.

(17) المصدر نفسه، 334.

البعض إلى كارناديڤا، ملك گوجرات الفاغهيلي، في حين لاذ آخرون برنثانبور. جاء انتقام علاء الدين، رهيباً، من أُسَرِهم في دلهي[18]. تمكَّن إكيت خان، في السنة التالية، من كسب تأييد بعض الفرسان، من المغول المسلمين الجدد من مرؤوسيه، في سعيه للاستيلاء على العرش؛ وقد بقي مصير هؤلاء مجهولاً[19]. ومرة أخرى، في وقت لاحق، خلال حملة كافور على المَعْبَر، خطط قائد مغولي يدعى آباتشي للغَدْر بقوات دلهي لصالح العدو، ولقتل كافور. غير أن المؤامرة أخفقت، وأمر السلطان بإعدام آباتشي في دلهي. وفي ردهم على ما حصل، بادر مغول العاصمة، الذين يقال إنهم كانوا يعدون أكثر من عشرة آلاف، إلى التآمر لاغتيال علاء الدين، واستبداله بمرشحهم الخاص، مما دفع السلطان إلى إصدار أمرٍ إلى مُقْطعيه قضى باعتقال جميع المغول في الإمبراطورية، وإعدامهم[20]. ربما كان علي بك وترتق الذي كان قائد القوات المغولية الغازية في 705 هـ / 1305م وقد جرى تجنيده لخدمة السلطان[21]، بين الضحايا.

يبدو أن المماليك الأتراك باتوا يلعبون دوراً محدوداً أكثر، بالمقارنة مع دورهم، في ظل السلاطين الشمسيين والغياثيين. يتضح من الأسماء أن عدداً قليلاً، فقط، من الأمراء - كان أبرزهم اختيار الدين تيمور، الذي نجده مُقْطَعاً لتشاندري وإيراتش في أحد المنقوشات العائدة إلى سنة 711 هـ / 1312م، تحت اسم «سلطاني» (أي مملوك السلطان الحاكم)، واختيار

---

(18) المصدر نفسه، 252، FS253 ،. 253 ـ 255 (تر. 424 ـ 425).

(19) TFS، 273.

(20) FS، 296 ـ 297، 298 ـ 299 (تر. 470 ـ 471، 473 ـ 474). TFS، 334 ـ 336، جاعلاً العدد الإجمالي لمن تعرضوا للذبح عشرين إلى ثلاثين ألفاً. TMS، 75، يضع تاريخ الحدث في 697 هـ ومن الواضح أنه يخلط بينه وبين التمرد الحاصل في أثناء حملة گوجرات.

(21) KF، FS41 ،. 305 (تر. 481 ـ 482).

الدين يغين، مقطع أَوَذ ـ كانوا من الأتراك[22]. ربما كان السبب الكامن وراء التراجع الواضح، في عدد الأمراء من المماليك الأتراك، ذا جذور سياسية ـ عزوفاً من جانب علاء الدين عن تمكين الغلمان الأتراك، من احتلال المواقع الإدارية القوية التي سبق لهم أن كانوا يتمتعون بها في القرن الثالث عشر، وقد يكون أيضاً انعكاساً للتكاليف المتصاعدة لأمثال هؤلاء المماليك، لأن برني يشكو من أن أسعارهم قد ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً، في أيامه[23]؛ على الرغم من أن هذا، لم يمنع سلطان المستقبل محمد بن تُغْلُق، من مراكمة أعداد من المماليك الأتراك أوائل عشرينيات القرن الرابع عشر.

ثمة احتمال قوي أن يكون الأفول النسبي لنجم الأمراء من المماليك الأتراك، مرتبطاً بصعود مجموعتين جديدتين نسمع عنهما للمرة الأولى، في الفترة المتوسطة من عهد علاء الدين. كان الأفغان قد خدموا بلبان وكيقباد، وباتوا، على ما يبدو، يشكلون بصورة منتظمة جزءاً من جيوش الثغور (الحاميات) في إقليم مُلْتان، حيث نجدهم تحت قيادة «الأمير الشهيد» محمد، وبإمرة كوشلوخان في السنوات الأولى من الحقبة التُغْلُقية[24]. أما الآن، فنجدهم، للمرة الأولى، وقد خرج من صفوفهم ضباط برتب عالية، مثل مالك اختيار الدين مال، الذي يورده برني في قائمة أمراء السلطان، ويصفه لاحقاً، على أنه أحد كبار مُلاَّك السلطان[25]. والفئة أو المجموعة الثانية، هي مجموعة الضباط من المماليك الهنود، عند علاء الدين. يزعم مصدر متأخر، أن علاء

---

(22) يجب تصحيح القراءات الواردة في TFS (241، ن ك ي ن، ج ب ا ر؛ 323 ب ك ت ن) وفق مخطوطة BL، ملف 125 ب ـ 126 أ، 160 ب. عن تمُر، انظر أيضاً ديساي، «منقوش تشاندري».

(23) TFS، 314.

(24) TS، مخطوطة IOL الفارسية، 412، ملف III, lb52 ،. 322 (تر. جيب، 712).

(25) TFS، 240 ـ 241، 448. انظر إ. ح. صدّيقي، «الأفغان وظهورهم في الهند كنخبة حاكمة خلال فترة سلطنة دلهي»، CAJ، 26 (1982م)، 252 وهـ. 45.

الدين كان يملك خمسين ألفاً من المماليك[26]، ممن تألفت غالبيتهم من الهنود. فالحملات الظافرة لقواته، ضد عدد من الممالك الهندوسية المستقلة، وفرت فرصاً أكبر، لامتلاك العبيد الهنود، النخبة، ونحن نصادف ترقية هؤلاء إلى مناصب رفيعة، للمرة الأولى، في عهد علاء الدين. لعل أول من تم ذكرهم هو شاهين، شخصية مغمورة، يعتبرها عصامي ابن السلطان بالتبني وسَلَف كافور كنائب. فبعد تعيينه قائداً لتشيتور عند احتلالها سنة 703 هـ / 1303م، لاذ بالفرار لاحقاً، غداة موت بلبان، والتحق بحاكم گوجرات المنفي[27]. وقد كان ملك دينار، الذي عمل لدى علاء الدين **شحنه ـ ي بيل**، هو الآخر، مملوكاً هندياً[28]. ثمة مملوك آخر يدعى مالك ناناك، ساعد في إنقاذ حياة علاء الدين، حين حاول ابن أخيه إكيت خان، الاستيلاء على العرش حوالي سنة 1301م، وكان **آخور بك** (آمر اصطبلات ومقطعاً مسؤولاً عن سامانا وسنّام مع حلول سنة 705 هـ / 1305م)، حين نجح في إلحاق الهزيمة بأحد الجيوش المغولية الغازية[29]. لم يكن الضباط من المماليك الهنود، من معتنقي الإسلام، بالضرورة: يشير أمير خسرو صراحة، إلى هذا الارتباط، بوصفه، تعبيراً عن انتصار أحد الكفار على كفار آخرين[30].

أمّا القائد المملوكي الأشهر لدى علاء الدين، فهو كافور، بطبيعة الحال؛ لقد كان هذا هندياً جرى انتزاعه من صاحبه كانبهايا (كامباي) خلال الغزوة الأولى، لگوجرات سنة 698 هـ / 1299 م. حصل الخصي كافور على لقب

---

(26) عفيف، 272.

(27) FS، 281 ـ 283 (تر. 456 ـ 457).

(28) TFS، 388 ـ 389.

(29) المصدر نفسه، 273، 320، KF323 .، 38 ـ 39، مؤكد أنه كان مملوكاً شخصياً **(باندا ـ ي خاص)**. FS، 302 ـ 305 (تر. 479 ـ 481).

(30) DR، KF61 .، صدّيقي «الأرستقراطية في ظل السلاطين الخلجيين»، 60 هـ. 47. انظر أيضاً أمير خسرو **بقية نقية**، مخطوطة IOL الفارسية، 412، ملف 357 ب ـ 358 أ.

خازارديناري («ذو الألف من الدنانير») نسبة إلى الثمن الذي دفعه السلطان للحصول عليه[31]. ليس هناك أي وصف لحياته الوظيفية المبكرة في خدمة علاء الدين، غير أنه قاتل ضد المغول الغزاة، وكان يحمل رتبة **باربك**، مع حلول سنة 607 هـ / 1306 ـ 1307م، حين بات متمتعاً بثقة السلطان، إلى درجة أهَّلَته لتولي قيادة الجيش الذي أعاد فرض الجزية على مملكة ياديف الديوغيرية[32]. كانت قاعدة كافور المعروفة، الأولى هي رابري، على اليمونه، التي كانت إقطاعاً له مع حلول سنة 709 هـ / 1309 ـ 1310م[33]؛ غير أنه ما لبث، مع اقتراب نهاية العهد، أن أصبح قائداً لديوغير، التي كانت قد أصبحت ملحقة بالسلطنة؛ أما تاريخ تعيينه نائباً، فمجهول.

خلال المرحلة الأخيرة من العهد، بدأ علاء الدين يفقد السيطرة: يعتبر برني تعيينه لحميد الدين مُلْتاني، وهو مرافق مخلص وحاجب أمين (كاليد ـ دار)، قاضياً لقضاة الإمبراطورية، أمراً ذا دلالة[34]. غير أن ملاحظات برني، المبعثرة هنا وهناك، توحي بأن السلطان كان قد فقد الثقة بأكثرية كبار مرؤوسيه، وخَدَمه. تزايدت مقاومته لقبول النصائح، محاولاً الإشراف شخصياً، على سَيْر جميع شؤون الدولة، مما دفعه، على ما يبدو، إلى الاستغناء عن منصب الوزير الذي بات، هو نَفْسُه، يؤدي مهامه. صحيح أن عدداً معيناً من كبار الضباط، من أمثال ملك قيران **والأمير شيكار** وملك قرانبك، كانوا لا يزالون يتمتعون بعطف علاء الدين، غير أنهم لم يكونوا أصحاب نفوذ، بل أشبه بالمراسلين. ثم تمّ استبعاد الكثير من الإداريين

---

(31) TFS، 251 ـ IB252 ,III .، 187 (تر. جيب، 642)، يورده على أنه **الألفي**، دلالة مرة أخرى إلى الثمن الذي دُفع للحصول عليه. أما كونه خصياً (مجبوب) فيظهر من DR، 257، وTFS، 368. انظر عموماً س. ديغبي «كافور، ملك». Enc. Isl.[2].

(32) KF، 65؛ عن إشارات أخرى إليه **كأمير حاجب**، انظر المصدر نفسه، 89، 114.

(33) TFS، 328، 333. يزداني، «منقوشات عن السلاطين الخلجيين»، 30.

(34) TFS، 352؛ قارن أيضاً 298.

المخضرمين وأصحاب المهارة والخبرة، وراح السلطان يعتمد، بدلاً من أولئك، على الذين ينعتهم برني بالمماليك الكسالى: (**غلمانباتشاغان**) والخصيان الحَمْقى. كذلك أراد السلطان تركيز السلطة بأيدي أفراد أسرته وعبيده، مما أدى إلى ترفيع وريثه المتهتك: خضرخان قبل الأوان، وإلى المبالغة في الاعتماد على كافور[35]. ومن حقيقة عزل الأخوين حميد الدين وعز الدين عن منصبيهما، وإعدام شرف قايني[36]، يبدو أن كافوراً صار يرى هؤلاء الضباط مصدر خطر، وأقنع علاء الدين بضرورة القيام بعملية تطهير.

كانت أشْهُر علاء الدين الأخيرة، المشوَّهة أساساً بالمرض، مثقلة بكابوس تنافسٍ مرير، بين نائب الملك كافور، وآلب خان، تنافس، تمخض، بنظر برني، عن تدمير النظام[37]. وقد كان آلب خان، بوصفه خال وريث السلطان خضرخان، محتفظاً ببعض النفوذ والسلطة، حتى الأيام الأخيرة من العهد، لأن السلطان، في محاولة صريحة منه لضمان الخلافة، زوَّج إحدى بنات آلب خان لخضرخان، وأُخرى لابن أصغر سناً اسمه: شادي خان[38]. غير أن آلب خان وصهريه (زوجي ابنتيه) ما لبثوا، جميعاً، أن راحوا ضحية دسائس كافور. لاحظ النائب أن السلطان بدأ يمل من زوجه الرئيسية، شقيقة آلب خان وأم خضرخان، وبادر إلى العمل لتقويض نفوذ جماعة العائلة. ثم جلب علاء الدين لمباركة اغتيال آلب خان في القصر الملكي، وجرى إبعاد خضر خان من القصر إلى آمروها أولاً، وسجنه، بعد ذلك، في غواليور. تقول الرواية التي وصلت إيران إن خضرخان وأمه وآلب خان (خاله) كانوا قد دسوا

---

(35) المصدر نفسه، 334، 337 ـ 338، 367 ـ TFS²368 .، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف، 138 أ، يقول إن كافوراً عُيِّن وزيراً.

(36) المصدر نفسه، 337.

(37) المصدر نفسه، 368. عما يلي، انظر عموماً لال، **تاريخ الخلجيين**، 265 وما بعدها. تبقى المراجع الرئيسية، إضافة إلى TFS، 368 ـ 369، متمثلة بـ FS، 337 ـ 344 (تر. 517 ـ 524)، وTMS، 79 ـ 81.

(38) TFS، FS368 .، 336 (تر. 516).

السم لعلاء الدين، الذي تمكن، رغم ذلك، من إعدامهم جميعاً قبل وفاته؛ وهي رواية يؤيدها ابن بطوطة، الذي سمع أنهم تآمروا لاستبدال السلطان بابنه، إلى حدود معينة[39]. قد لا تكون القصة، بطبيعة الحال، أكثر من مادة دعائية نشرها كافور.

سارع السلطان المحتضر إلى تغيير الخلافة، لصالح ابن أصغر سناً، يدعى شهاب الدين عمر، كانت أمه ابنة رامادیفا، ملك يادافا الديوغيري، ونصّبه كافور، أصولاً، بعد موت علاء الدين في 715 هـ / 1316م[40]. ثمة إغراء في رؤية حزب هندي مؤلف من مماليك يتصدرهم سلطان دمية، هو نفسه نصف هندي (ابن أم هندية)؛ غير أن الأدلة المتوافرة لا تسمح لنا بذلك. يبدو أن كافوراً كان متمتعاً بتعاون كمال الدين **غورغ** («الذئب»)، المتحدر من عائلة كابُلية[41]. فهذا الضابط، هو الذي أوفده لإخضاع گوجرات، حين ثارت الولاية إثر سماع أنباء موت آلب خان؛ ويؤكد سرهندي، أن كمال الدين كان شريكاً لكافور، حتى في اغتيال آلب خان[42]. وبالتالي، فإن الاحتمال الأقوى هو أن تكون المجموعتان، اللتان نحن بصددهما، لا تمثلان إلاً «المؤسسة» القديمة، القائمة، ربما، على أشخاص ذوي أصول خلجية، وكتلة مؤلفة من قادمين جدد نسبياً، من أصول شديدة التباين، كانوا ينظرون إلى النائب، التماساً للترقية.

رغم نشاطات كافور المحمومة، نجا من الأمراء والملوك العلائيين، أعداد كافية لتوفير نوع من الاستمرارية. وكان من هؤلاء، ليس فقط، تيمور

---

(39) قاشاني، 193 ـ IB194 .، III، 187 (تر. جيب، 641 ـ 642).

(40) TFS، 374، مع قراءة رام دي ويدلاً من زاي دهـ، كما هو مقترح من هوديڤالا، **دراسات**، I، 106، وموجود في مخطوطة BL، ملف 185 ب. يأتي FS، 343 (تر. 524) ليؤكد العلاقة.

(41) انظر ديساي، «منقوشة جالور إدغاه»، حيث يظهر على أنه محمود بن محمد بن عمر كابولي.

(42) TFS، TMS 369، FS80 .، 340 ـ 341 (تر. 520 ـ 522) تتحدث عن كافور أيضاً وهو يوفد ديناراً لقمع متمردي گوجرات.

وتگين، بل واثنتان من الشخصيات المهمة ذات العلاقة الوثيقة بالفترة المتوسطة ـ ألاوهما خواجا حاجّي وعين الملك مُلْتاني، اللذان بقيا **عارضاً** (حاجباً) وواليّاً لمالوا، على التوالي[43]. أما هوشانغ، وهو ابن كمال الدين «غورغ»، الذي قُتل في أثناء موت علاء الدين، وهو يحاول إخماد ثورة في گوجرات، فخلف أباه في إقطاع جالور[44]. أضفى قطب الدين مبارك شاه، لقب ظفر شاه، على ملك دينار، وأرسله ليحكم گوجرات[45]. ومن فضائل السلطان الشاب، أيضاً، أنه بادر لاحقاً إلى تعيين ذي الخبرة وصاحب النسب الرفيع وحيد الدين قريشي، والياً على گوجرات. لا يُعْرَف إلاّ الشيء القليل عن أقارب السلطان من ناحية الأم الذين خرج منهم محمد مولاي، ليصبح شيرخاناً[46].

لم تفض إزاحة كافور إلى وضع حد لنفوذ المماليك الهنود. بل نجد، على العكس من ذلك، أن العاهل الجديد بالغ، خلال عهد حكمه الوجيز الذي لم يدم سوى أربع سنوات (716 ـ 720 هـ / 1316 ـ 1320م)، في الاعتماد على مملوك هندي يدعى حسن، أُسِر خلال حملة ماولا في 705 هـ / 1305 م. وحسن هذا، الذي كان السلطان قد أخذه من **النائب خاص ـ حاجب** عنده، مالك شادي، والذي عمل، أولاً، عنصراً في فرقة الحرس (الپاسبان)، حصل على شرف الوزارة ولقب خسروخان[47]. ومثله مثل كافور، كان حسن طموحاً، وقد حاول التمرد، وهو على رأس حملة موجهة إلى الجنوب؛ غير أن السلطان المفتون به، رفض تصديق تقارير زملاء حسن عن مخططاته التآمرية، وأمر بمعاقبتهم[48]. ما لبث خسروخان أن اغتال سيده وولي نعمته (720 هـ /

---

(43) NS، 100، TFS112 .، 379، 388.

(44) كمال الدين؛ المصدر نفسه، 369، 388. هوشانغ: المصدر نفسه، 379 ـ 380؛ **تُغلُق ـ نامه**، 57، 65.

(45) TFS، 381، 388 ـ 389؛ وقارن أيضاً FS379 .، 360 (تر. 558).

(46) TFS، 381.

(47) المصدر نفسه، TMS، 82 ـ 83، عن خسروخان **كباسيان**؛ أيضاً 86.

(48) TFS، 399 ـ 400.

1320م) وأصبح هو نفسه سلطاناً. أما ما مكنه من فعل ذلك، فهو أن قطب الدين كان قد سمح له بمراكمة حاشية شخصية من مقاتلي الباروراي القادمين من مسقط رأسه، في إقليم بهيلمال وگوجرات، الذين ما لبث أن أدخلهم إلى قصر هزارسوتون[49]. (القصر ذو الأعمدة الألف).

الانقلاب التُغْلُقي وجوقة المستفيدين

تشكل أصول تُغْلُق، الذي كان قد خدم علاء الدين لسنوات كثيرة مُقْطَعاً لدَيْبلُپور، مسألة خلافية[50]. ليس ثمة أي مصدر آخر، يؤيد تأكيد بعض المؤلفين المعاصرين القريبين، الذين كتبوا في الإمبراطورية المملوكية، على أنه كان مملوكاً[51]. كذلك نستطيع، فيما أرى، أن نستبعد جملة التفاصيل التي حصل عليها فرشتا في لاهور، بعدما يزيد عن ثلاثة قرون، أعني تلك التفاصيل التي تقول إن والد تُغْلُق، الحامل للاسم نفسه أيضاً، كان مملوكاً عند بلبان، الذي كان قد تزوج امرأة من الجات. وابن بطوطة، الذي وصل إلى دلهي في غضون عشر سنوات من وفاة تُغْلُق، سمع أن السلطان الراحل كان أحد الأتراك المعروفين باسم القاراؤونا، الذين كانوا يقيمون في المناطق الممتدة بين السِّنْد وتركستان (أي النغودريين)، وكان قد وصل إلى الهند، خلال عهد علاء الدين. يبدو أن عفيفاً قد سمع القصة

---

(49) المصدر نفسه، 402؛ انظر أيضاً هوديڤالا، دراسات، I، 288. كان شقيق خسروخان، حسن قد حاول جمع قوم الباروراي خلال زيارة قصيرة لگوجرات والياً عليها: TFS، 396 ـ TFS397 .، مخطوطة بودليان، ملف 173 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 147 ب، يوحي بأن الباروراي جاؤوا من جالور كما من گوجرات. انظر س. س. شارما، «ناصر الدين خسرو شاه» في **ماهاما هويادهايايا: البروفسور د. ف. بوتدار... كتاب تذكاري** (بونا، 1950)، 70 ـ 81، عن هذه الجماعة القتالية.

(50) عمّا يلي، انظر ر. سي. جوهري، «غياث الدين تُغلُق ـ اسمه الأصلي ونسبه»، في هورست كروغر (محرراً)، **كونوار محمد أشرف: باحث وثوري هندي، 1905 ـ 1962م** (برلين، 1966)، 62 ـ 66.

(51) ابن أبي الفضائل، تحقيق كورتانتامر، 27 (تر. ألمانية 104). الصفدي، **الوافي**، III، 172 (تر. خان، 187).

عينها، بعد عدد من العقود، لأنه بالمثل يعتبر تُغْلُق وأخويه، أناساً قادمين من خراسان أيام علاء الدين. إلاّ أن البيان الأول الذي نملكه ـ والأكثر جدارة بالثقة ـ هو ذلك الوارد في كتاب أمير خسرو الذي يحمل عنوان، **تُغلُق نامه**، الذي جرى تأليفه على شرف اعتلاء تُغلُق للعرش في 720 هـ / 1320 م. وغداة الإطاحة بناصر الدين خسرو شاه، يجعل خسرو تُغْلُق يعلن أمام النبلاء والأعيان المجتمعين، عن أنه كان «بدوياً» (أواره مردي) وقد جاء في عهد جلال الدين خَلْجي. وهذا يوحي بأن تُغلُق كان، في الحقيقة، من أصول مغولية أو تركية ـ مغولية، كما زعم مخبر ابن بطوطة؛ ربما كان أحد أتباع الزعيم المغولي ألوغو، الذي التحق بخدمة جلال الدين سنة 691 هـ / 1292م واستقر قرب دلهي.

يجب أن يكون مستوى الدعم الذي لقيه تُغلُق، في صعوده، قد أثار سخطه وخَيَّب أملَه. فعصامي، الذي يزعم أن عدداً كبيراً من الأمراء والملاّك العلائيين والقطبيين، التحقوا بركبه في أثناء مسيرته إلى دلهي[52]، لا يورد أي أسماء. وفيما عدا بهرمي آيبا، مُقْطَع أوتشش، الذي ربما كان أبوه أحد ندماء (نديمان)[53] السلطان علاء الدين، لم يبادر أي وال أو حاكم، فيما نعلم، إلى الوقوف في صفه. ومن الأمراء الذين كانوا جيرانه، حاول ياكلاخي في سامانا، وهو هندي، أن يتحرك ضد تُغلُق، ولكنه رُدّ على أعقابه وما لبث أن قُتل على يد شعبه بالذات. لقي أمير مُلْتان، المدعو موغالتاي، الذي كان قد أعلن الولاء لخسروشاه، هو الآخر، المصير ذاته. أمّا محمد شاه لور في سيويستان فقد أجبره عناصر من المدينة على تأييد تُغلُق، ولكن بعد فوات الأوان. وبعيداً، في

(52) FS، 381 (تر. 584).

(53) ركن الدين آيبا: TFS، 358. يتضح أن آيبا كان اسم والد بهرم من FS، 388 (تر. 593).

العمق، لم يكن مالك هوشانغ في جالور مستعداً للالتزام، كما أن عين الملك ملتاني لم يلتحق بركب خسروشاه، إلاَّ ليهجره عشية المعركة ولينسحب إلى إقطاعه في دهار وأوجاين بإقليم مالوا[54]. كان أنصار تُغْلُق من الأقارب والأهل، مثل نجله ملك جاونا (السلطان محمد مستقبلاً)، وصهْرٌ يدعى ملك شادي، واثنين من أبناء الأخوة هما: أَسَد الدين أرسلان وبهاء الدين غارشاسب؛ أو من المرؤوسين والأتباع مثل يوسف، نائب تُغْلُق في دَيْبلْپور، وعلي ـ ي حيدر[55]. أما فيما عدا ذلك، فإن جيشه كان مؤلفاً من الغرباء. وما يقوله أمير خسرو عنهم ـ «إنهم من المرتفعات بأكثريتهم (إقليمي بالا)، لا هم من الهنود ولا من زعماء الهنود (هندو ـ والا): إنهم من الغُز الخالصين»[56] ـ ليس أكثر من مَكْرٍ لا قيمة له. إنه يتجاهل الخوخار، بقيادة زعيمهم ساماج راي، وغول تشاند، اللذين يعتبرهما، عصامي، صاحبي فضل كبير في الانتصار في سارساتي[57]، ولكن ظهورهما بجانب تُغْلُق، كان صعبَ التوفيق مع خطاب الحرب المقدسة (الجهاد). كان انتماء تُغْلُق، بعبارة أخرى، إقليمياً مميزاً؛ فأعوانه كانوا قادة، قاتلوا معه جنباً إلى جنب، على الجبهة المغولية، بل وكانوا، أحياناً، مرتَدّين مغول، أو أمراء حرب هندوس، من جيرانه القريبين، في البنجاب الغربي.

كان أنصار تُغلُق أقل شأناً بصورة عامة من خصومه. كانت النواة مؤلفة، بالطبع، من الباروراي بزعامة راندهاول، خال خسروشاه. غير أنه

(54) انظر حسين، **الأسرة الحاكمة التُغلُقية**، 38 ـ 41. يظهر محمد شاه نور بين أمراء عهد علاء الدين؛ TFS، 240. عن انتماء ياكلاخي الهندي، انظر **تُغلُق ـ نامه**، 68.

(55) المصدر نفسه، FS95 .، 380، 382، 383 (تر. 582، 585، 586).

(56) **تُغلُق ـ نامه**، 84.

(57) FS، 378، 379 ـ 380، 384، 385 (تر. 580، 582 ـ 583، 585، 588 ـ 589). عن الـ س هـ. ج في النسخة المطبوعة، تعتمد مخطوطة IOL الفارسية 3089، ملف 208 ب، عبارة سم ج ر ا ي.

بين القادة الذين أرسلهم خسروشاه لكبح المتمردين، كان تيمور، مقطع تشاندري، **أمير شيكار قُطْلُغ**، وطولابوغا بوغدا[58]. وما أن تمكن تُغْلُق من الوصول إلى دلهي، حتى لاقاه خسروشاه على رأس قوات، ضمت فيمن ضمت، كلاً من طولابوغا بوغدا، وطولابوغا نغواري، وتگين مُقْطَع أوَدْ، واختيار الدين سنبل، **الأمير الحاجب**، وكافور حامل الأختام (المهردار)، وقابول مراقب السوق (**شحنة ـ ي ماندا**)[59]. ما من أحد من هؤلاء الأمراء كان حديث نعمة، مديناً بفضل ترقيته للمغتصب؛ فالجميع كانوا يحتلون مناصب رفيعة في ظل قطب الدين مبارك شاه والكثير ـ مثل تيمور وتگين وقُطْلُغ وقابول ـ كانوا قد خدموا أباه علاء الدين، قبله. إن دعماً بهذا المستوى، يدحض وجهة النظر المألوفة، التي تقول إن خسروشاه كان كافراً مكروهاً على نطاق واسع، في حين كان منافسُه، البطل الذي انتقم لأسرة الخَلْجي وأنقذ الإسلام.

شاعراً، ربما، بالدعم المحدود نسبياً الذي كان يتمتع به، أبدى غياث الدين تُغْلُق، بعد اعتلائه العرش، حرصاً ملحوظاً على اجتذاب المُلاّك (الأمراء) العلائيين وضمان رضاهم، عن طريق إغراقهم بالمناصب والإقطاعات[60]. تم الاحتفاظ بخواجا حاجّي **عارضاً** (حاجباً) وبقي عين الملك مُلْتاني محافظاً لمالوا، رغم أن، أياً منهما، لم يعش بعد تُغْلُق، على ما يبدو (يجب تمييز عين الملك هذا عن ابن مهرو الذي حمل اللقب نفسه فيما بعد: انظر الملحق رقم: 4). غير أن التحالف مع الكثير من زملاء السلطان السابقين، لم يكن، على ما يبدو، سهلاً. ما لبث التوتر أن برز على السطح في 721 هـ / 1321 ـ 1322م، حين انتدب تُغْلُق عدداً من أمراء النظام

(58) **تُغلُق ـ نامه**، 101، FS102 .، 379 ـ 380 (تر. 582 ـ 583).

(59) **تُغلُق ـ نامه**، FS118 .، 382 ـ 383، 386 (تر. 585، 586، 589 ـ 590). TFS، 420.

(60) المصدر نفسه، TMS. 426، 92.

القديم، جنباً إلى جنب، مع آخرين من صنعه هو، لمرافقة ابنه ووريثه، الذي بات يحمل لقب أُلُغ خان، إلى آرانغال. فنتيجة لدسيسة كان على رأس مدبريها شاعرٌ في خدمة أُلُغ خان، يدعى عُبَيْد، دسيسة لا تجهد المصادر لتسليط الأضواء عليها، ثم، وبسهولة، إقناع كل من تيمور وتگين وكافور (الذي كان قد أبدل منصب **حامل الأختام (المهردار)** بوظيفة وكيل الدار (**وكيلي دار**)) بأن أُلُغ خان كان عازماً على الاستغناء عنهم، فانشقوا وتمردوا مع فصائلهم ووحداتهم، معرضين الحملة كلها لأفدح الأخطار. نجا أُلُغ خان بنفسه، وتم إرسال جيوشه لمحاربة الأمراء الساخطين. وما لبث أن قُتل كلٌّ من تيمور وتگين كلاهما، فيما كانا يحاولان الفرار إلى المناطق الهندوسية، طلباً للنجاة؛ في حين تم أسر كافور وأُعدم في دلهي؛ وتم الإجهاز على أفراد أُسَرهم جميعاً[62]. جميع الأمراء المعنيين كانوا في خدمة علاء الدين؛ ومما قد ينطوي على مَغزى أن يكون حتى عُبَيْد قد فعل ما فعل، إذا كان هو نفسه، كما نرجح، عبيدي حكيم الذي يأتي برني على ذكره بين ندماء السلطان[63]. والأهم من ذلك، أن بعض هؤلاء الأمراء، كما لاحظنا من قبل، كانوا قد أيدوا خسروشاه سنة 720 هـ / 1320 م. من الصعب مقاومة الشك، بأن يكون الحادث قد وفر للسلطان ذريعة مقنعة، للإجهاز على مجموعة من العائلات الأرستقراطية المتنفذة، التي لم يكن يستطيع أن يضع فيها ثقته الكاملة. ومع إزاحة هذه العائلات، غاب عن المسرح عدد لا يستهان به من شخصيات حقبة علاء الدين، القيادية.

وكما هو متوقع من أي حاكم جاء إلى السلطة بمساعدة عناصر من

---

(61) عن خواجا حاجّي، انظر TFS، 438؛ FS، 395.

(62) براساد، **أتراك القراؤون**، 29 ـ 33، وحسين **الأسرة الحاكمة التُغلُقية**، 65 ـ 69، يلخصان المعلومات الواردة في المصادر المختلفة. يورد TFS، 448، 449، بين الفارين اسم الأفغاني ملك اختيار الدين مال؛ أما FS، 395 ـ 396 (تر. 603) فيقول إنه بقي مخلصاً، وعن مرتبة كافور، انظر المصدر السابق، 394، 400 (تر. 599، 606).

المناطق الشمالية ـ الغربية، كان تُغْلُق يميل إلى الضباط القادمين من هناك. فبرهان الدين، الذي حصل على منصب كوتوال ولقب عالم ملك، كان مؤسس أسرة أرستقراطية ذات شأن، كانت قد استقرت في هانسي، ولكنها ذات أصول غزنوية[64]. ومن أبنائه، كمال الدين الذي ما لبث أن أصبح قاضياً للقضاة، وصدري جاهان في ظل محمد، ومكانته الرفيعة في الإمبراطورية تؤكدها مصادر معلومات كل من ابن بطوطة والعمري[65]. وكان ثمة آخر، هو قِوام الدين الذي شغل منصب نائب الوزير (**نائبي وزير**) في ديوغير، ثم ما لبث، في ظل حكم محمد بن تُغْلُق، أن حمل لقب قُطْلُغ خان ورُفِّع إلى مرتبة **وكيلي دار**. وفي أثناء حملة المَعْبَر الفاشلة للسلطان حوالي سنة 1335م، تم إرساله ثانية إلى ديوغير (التي كانت قد أصبحت دولت أباد)، حيث بقي صاحب الأمر والنهي على امتداد عشر سنوات. يبدو أن استدعاءه في 745 هـ / 1344 ـ 1345م أنزل ضربة موجعة بنفوذ محمد، في إقليم الدكّان، وساهم في انفصاله بعد ثلاث سنوات[66]. كان محمد بن قُطْلُغ خان قد حصل من سميِّه على لقبي آلب خان ونظام الملك، جنباً إلى جنب مع إقطاع گوجرات. غير أنه من الواضح، أنه لم يشغل هذا المنصب لمدة طويلة، ونصادفه أواخر عقد ثلاثينيات القرن الرابع عشر، قائماً مقام أبيه في دولت أباد خلال العمليات التي شُنّت ضد المتمرد نُصرت خان[67]. وهناك ابن ثالث لبرهان الدين هو نظام الدين، نجده واحداً من مُلاّك (أمراء) تُغْلُق، ولا يلبث، فيما بعد، في ظل محمد، أن يصبح

---

(63) TFS، 360.

(64) المصدر نفسه، 424، عن برهان الدين. عن أصول العائلة، انظر IB III، 143، 161 (تر. جيب، 617، 628). زوج برهان الدين، أم كمال الدين، كانت شقيقة مولانا فخر الدين هانساوي: سير، 274.

(65) TFS، TMS454 .، IB98 .، III، 161، 215، 229 (تر. جيب، 628، 657، 664). MA، تحقيق سبايز، 16 (تر. ألمانية 41) / تحقيق فارق، 30 (تر. صديقي وأحمد، 41).

(66) TMS، TFS98 .، 454، 481، 501 ـ FS502 .، 422، 426 (تر. 648، 653)، يبين أنه بقي في ديغور في السنوات الأولى من عهد محمد.

(67) TMS، FS98 .، 477 (تر. 717). لا يظهر بين أمراء (ملوك) محمد في النص المطبوع لـ TFS، ولكن قارن بمخطوطة BL، ملف 225 ب.

عالم ـ الملك ووالي بهاروتشي (بروانش)[68]. ومن هناك نُقل إلى دولت أباد، ليحل محل أخيه قُطْلُغ خان، مؤقتاً، إلاّ أنه أُسر من قبل المتمردين، ثم ما لبث أن أُطلق سراحه، وأُرسل إلى دلهي[69].

ثمة سلالة أخرى، هي عشيرة أبو رِجا، اكتسبت قَدْراً من الشهرة وبرزت في ظل التُغْلُقيين، يقال أيضاً إنها جاءت من «المرتفعات» (**مُلْكي بالا**)، أي من شمال ـ غرب البلاد. كان قطب الدين مبارك شاه خَلْجي قد جعل أحد أفرادها، مجير الدين، **نائباً للوزير** في ديوغير[70]. وقد كان هذا ما يزال موجوداً في المنطقة، في أثناء الحملة على آرانغال، حين قدَّم إلى أُلُغ خان مساعدة قيمة، في عملية الإطاحة بالأمراء المتمردين. لعل ذلك هو ما أكسبه ثقة السلطان في المستقبل، لأن ابن بطوطة، يعتبره أحد «الأمراء العظماء» في عهد محمد بن تُغْلُق، ويضعه برني في قائمة الوُشاة وأصحاب التأثير الخبيث على ذلك العاهل. لقد خدم محمداً بإخلاص، إذ شارك قواته في الحملات على المتمرد بهاء الدين غارشاسب، كما ضد عين الملك بن مهرو، بعد عشر سنوات ونيف، حين كان حاكماً لبهايانا[71]. ربما كان حسام الدين أبو رجا، وشهاب الدين أبو رِجا أخويه. حصل الثاني على منصب «**ملك التجار**». وإقطاع ناوساري لدى اعتلاء محمد للعرش[72]. أما حسام الدين، فقد كان **مستوفياً**، في ظل غياث الدين تُغْلُق، وجرى اختياره لمهمة حراسة عائلة تگين، في

---

(68) TMS، TFS98 .، FS502 .، 495، 503 (تر. 739، 749).

(69) المصدر نفسه، 519 (تر. 770). TMS، 111.

(70) FS، 369 (تر. 569). TFS، 398، موضحاً من قبل هوديڤالا، **دراسات**، I، 287 ـ 288؛ في لائحة أمراء (ملوك) قطب الدين في TFS، 379، يظهر باسم «فخر الدين»، ولكن قارن مخطوطة BL، ملف 188 ب. انظر عفيف، 454، عن أصل هذه العائلة.

(71) TFS، FS472 .، 397 ـ 399، 427، 473 (تـر. 603 ـ 605، 653، 711). TMS، IB101 .، III، 230، 318، وIV، 5 (تر. جيب، 665، 710، 775)، معلقاً أيضاً على قسوته. وللاطلاع على سيرة موجزة، انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 287.

(72) TMS، 98.

أعقاب أحداث الشغب في آرانغال. احتفظ بمنصبه حتى عهد محمد، الذي أنعم عليه بلقب نظام الملك: ولدى إرساله إلى لخناوتي **نائباً للوزير**، ساعد على إخماد حركة التمرد الأولى لفخر الدين («فاخرا») في سونارغاؤون (حوالى سنة 1335 ـ 1336م)[73]. وكان لمجيد الدين ابن أخ يدعى: شمس الدين، الذي كان سيكسب سمعة سيئة بسبب ممارساته **كمستوفي** في ظل فيروزشاه، أحد أبناء حسام الدين[74]. وهناك شخص آخر من العائلة، تبادل الرسائل مع ابن مهرو، كما أن بعض أبناء عشيرة أبو رجا، استمروا في خدمة سلاطين گوجرات، في العقود الأولى من القرن الخامس عشر[75].

الأرستقراطية في ظل محمد بن تُغْلُق

لا نعرف إلاّ الشيء القليل عن أبناء تُغْلُق، الذين لم ينج أحد منهم، ليعيش بعد حكم محمد، على ما يبدو. صحيح أن واحداً يدعى مبارك خان عمل قاضياً، خلال العهد الجديد، غير أن ابن بطوطة سمع أن آخر يدعى مسعود خان، جرى إعدامه، ربما لأن أمه كانت إحدى بنات علاء الدين خَلْجي[76]. أما فيروز (سلطان المستقبل)، ابن شقيق الملك الراحل، رجب، فقد خدم محمداً في منصب **الباربك**. من المؤكد أن اثنين ممن تبناهم تُغْلُق، تمتعا بشعبية كبيرة: فتتار ملك (ابن أحد الأمراء المغول الذين كانوا قد غزوا الهند في أثناء قيادة تُغْلُق للجيش في دَيْبَلْپور) اكتسب بعض الشهرة، رغم

(73) TFS، TMS455 .، 94، 98، 104.

(74) عفيف، 451، 454. مجهول المؤلف، **غُنْيةُ المنيةِ**، تحقيق شاهاب سرمدي (دلهي، 1978)، 6 ـ 7، يورد اسمه الكامل: شمس الدولة والدين إبراهيم ـ ي حسن: حسام الدين معروف بأنه كان يدعى حسن.

(75) IM، 157 ـ 159 (ملك بهاء الدين نصر الله، **نائب ـ ي خاص حاجب**). ز. أ. ديساي، «منقوشات عن سلاطين گوجرات من ساوراشترا»، EIAPS (1953 ـ 1954م)، 51.

(76) مسعود خان: I، III، 292 (تر. جيب، 696). مبارك خان: المصدر نفسه، III، 230، 287 ـ 288 (تر. 664، 694)؛ مذكور في TFS، 454.

الإبعاد الموقت، عقب شجار مع السلطان، في حين ائتمن بهرم خان على إدارة سونارغاؤون[78].

وما لا يقل عن نصف التعيينات التي أصدرها محمد، لدى جلوسه على العرش، ذهب إلى أناس عرفوا بأنهم من ذوي الجذور الشمالية - الغربية، وشمل أمراء، كان قد ورثهم عن أبيه، وكانوا قد لعبوا دوراً بارزاً في ثورة تُغْلُق ضد خسروشاه[79]. غير أن محمداً ما لبث، في غضون سنوات قليلة، أن جوبه بحركتي تمرد قادهما اثنان من هؤلاء الرجال، هما: بهاء الدين غارشاسب وكوشلوخان، استثارتهما، على ما يبدو، محاولاته الرامية إلى تشديد قبضته على الأقاليم ربما أدى ذلك إلى توفير الدافع لتجنيد فريق جديد من الخدم. يبدو أنه وضع قدراً كبيراً من الثقة في أحمد بن أياز، الذي استوزره في 732 هـ / 1331 ـ 1332م، تحت اسم خواجا جهان، الذي نجده في عدد من المناسبات، قائد قوات عسكرية ضد العصاة والمتمردين[80]. لقد ظل خواجا جهان، يخدم محمداً بإخلاص، خلال السنوات العشرين التالية، ولم يفقد نفوذه إلاّ بعد أن أصبح بؤرة مقاومة اعتلاء فيروزشاه، العرش. وحين غادر محمد دلهي، للمرة الأخيرة، أناب عنه خواجا جهان وابن عمه فيروز وملك قابول

(77) المصدر نفسه. عفيف، TMS42.، 98.

(78) سيرة حياة تتار ملك في عفيف، 388 ـ 394. كان صاحب إقطاع ظفر آباد في ظل تُغْلُق (TFS، 428، 451)، وحصل لاحقاً على لقب تتارخان من خلف محمد (TMS، 124). ومؤلف لاحقاً للعديد من كتب الفقه وقد كان طليقاً بالعربية: IB، III، 281 (تر. جيب، 690). عن بهرم خان، انظر FS، 422، 444، 472 (تر. 648، 673، 709)؛ TFS، 480؛ IB، III، 230، 317 (تر. جيب، 665، 709) معتبراً إياه خطأ ابن شقيق محمد (تر. جيب، 665 هـ. 36، ثمة خلط بين بهرم خان وتتار خان).

(79) يظهر هذا من اللائحة الواردة في TMS، 98.

(80) تاريخ تعيينه: سِير، 218. كقائد عسكري: TFS، 481؛ FS، 425 ـ 431، 471 (تر. 651 ـ 658، 707 ـ 708)؛ IB، III، 318، 324، 332 ـ 333، 348 ـ 349 (تر. جيب، 710، 713، 716 ـ 717، 723 ـ 724).

خليفتي (ومعروف أيضاً باسم «ملك كبير»)، لتولي شؤون السلطة في العاصمة[81].

وبوصفه وريثاً شرعياً دون منازع، خلال فترة حكم أبيه كلها، يبدو أن محمداً كان قد كوّن لنفسه مركز قوة ونفوذ. فتأكيد نيغام على أن نظام المماليك والغلمان لم يحظ، إلاّ بالقليل، من التشجيع خلال فترة حكم محمد[82]، لا يأتي، ببساطة، منسجماً مع الشهادات الواردة في مصادرنا. فمملوكه ملك قابول، المحتمل أن يكون ذا أصل هندي، كان من أمرائه الأكثر تمتعاً بالثقة؛ كما نعلم أن السلطان، كان أيضاً، يستجلب مماليك وغلماناً من الزنوج (الأحباش)، وربما كان بدر الحبشي، واليه في آلابور، أحدهم[83]. من المحتمل أن يكون الأتراك قد عادوا إلى اكتساب بعض النفوذ والشهرة، مرة أخرى. لقد سمع ابن بطوطة كلاماً يقول إن محمداً كان قد وجه إنذاراً لأبيه، عن طريق حشد جيش من المماليك الأتراك. وطبقاً لابن بطوطة الرحالة المغربي فقد رأى أربعة آلاف منهم متمركزين في آمروها، وحدها، فإن العدد الإجمالي لمماليك محمد الأتراك، البالغ عشرين ألفاً حسب، رواية العمري، ربما كان أقل من الواقع[84]. ومن شأن الوصف المفعم بالحياة، لمواكب محمد من قبل

(81) TFS، 509، 522. عفيف، 50، 452.

(82) نيغام، **أرستقراطية**، 85.

(83) قابول: TFS، 493؛ IB، I، 365، وIII، 230 (تر. جيب 226، 665)، وأماكن أخرى. الأحباش: المصدر نفسه، IV، 31 (تر. جيب وبكينغهام، 786)؛ لاحقاً، IV، 59 ـ 60 (تر. 800)، يشير إلى حرس مؤلف من خمسين مسلحاً حبشياً سافروا معه إلى قاندهار.

(84) المصدر نفسه، III، 211 (تر. جيب، 654؛ وانظر III، 439 (تر. جيب، 763)، عن آمروها. MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 38) / تحقيق فارق، 25 (تر. صديقي وأحمد، 37)؛ عن إشارة أخرى، إلى 12000 مملوك رافقوا السلطان، المصدر نفسه، تحقيق سبايز، 19 (تر. 45) / تحقيق فارق، 37 (تر. صديقي أحمد، 44). IB، III، 334 (تر. جيب، 717)، يقول إن فريقاً من المماليك رافق محمداً في حملته المعبرية حوالى سنة 1334 م. غير أننا لا نستطيع أن نتأكد من أن هؤلاء كانوا أتراكاً، لأن المؤلف نفسه يستخدم الكلمة للدلالة على المماليك الذين نعرف، من مصادر أخرى، أنهم كانوا هنوداً: انظر، مثلاً، المصدر نفسه، III، 190، 191 (تر. جيب، 643).

ابن بطوطة، أن يوحي بأن عدداً كبيراً من أمرائه، ربما كانوا من المماليك[85]. لا نعرف أسماء سوى عدد قليل من هؤلاء الأتراك والذين تقلدوا مناصب رفيعة. لقد كان عماد الملك سرتيز، الذي أصبح **عارضاً** ووالياً لمُلْتان، ثم نُقل لاحقاً إلى دكّان، حيث سقط في المعركة وهو يقاتل **الأميران صدا**، مملوكاً وتركياً ربما[86]. وإذا انطلقنا من اسمه أساساً للتخمين، فإن ملك قِران صفدار ملك سلطاني كان واحداً بالتأكيد[87]. وهناك، أخيراً، تركي آخر هو طغاي، الذي انتقل من ملك قِران إلى حيازة السلطان محمد، وما لبث أن رُفّع إلى منصب **شحنه ـ ي بارغاه**[88]؛ وقد كانت ثورته في گوجرات، أواخر العهد، الأكثر استعصاءً بين جملة الحركات التمردية التي اضطر السلطان لمواجهتها.

في هذه الأثناء، كانت السلطنة ما تزال بؤرة جذب بالنسبة إلى الأمراء المبعدين والمغامرين والانتهازيين القادمين من الغرب. كان عصيان كوشلوخان في السند، قد استند إلى «الأتراك والأفغان ورجال خراسان»[89]. ويتحدث العمري عن وجود أتراك ومواطنين من «خِطا» («شمال الصين» حرفياً، والمقصود منغوليا دون شك) وإيرانيين في جيش السلطان، ويشير ابن بطوطة،

---

(85) المصدر نفسه، III، 231 (تر. جيب، 665).

(86) المصدر نفسه، III، 44، 94 (تر. جيب 562 ـ 563، 593): في الموقع الثاني ترد عبارة **عارضي مماليك** «مفتش المماليك العام» بدلاً من **عارضي مملك**؛ ولكن انظر ملاحظة الناشرين الفرنسيين في IB، III، 458 ـ 459. على الرغم من أنه موصوف هنا وفي III، 107 ـ 109 (تر. جيب، 600)، على أنه والي السند، فقد جرى تعيينه في هذا المنصب بعد ثورة شاهو لودي، حوالى سنة 1337: انظر TMS، 107. وبالتالي فإن ابن بطوطة ربما خلط بين زيارتين إلى الإقليم: انظر سي. ف. بكينغهام، «ابن بطوطة في السند» في خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون**، 140 ـ 141. فيريشتا، I، 522، يعتبر سارتيز «تركمانياً».

(87) انظر هوديفالا، **دراسات**، I، 300 ـ 301. عن تو. **قران**، «ذاك الذي يذبح»، انظر ص: 63 من هذا الكتاب، هـ. 6.

(88) يوجد العرض الأوفى لحياته العملية في SFS، 19 ـ 28 (تر. باسو، JBORS 23 [1937 م]، 97 ـ 106). عن منصبه، انظر، IB، III، 235 (تر. جيب، 667). اسمه تو. **تاغاي** «خال»: كلاوسون، **قاموس**. . .، 474.

(89) IB، III، 322 (تر. جيب، 712).

أكثر من مرة، إلى «أمراء من خراسان» بين ضباط محمد[90]. وما كان جذاباً، بصورة استثنائية، لأعداد كبيرة من النبلاء المهاجرين، هو سخاء محمد الذي ضُرب به المثل[91]؛ فقصة كرمه مع السيد عضد الدين اليزدي، وهو مبعوث جاء من إيران المغولية، تناقلها الناس على نطاق واسع[92]. يقدم ابن بطوطة، وهو من المستفيدين من هذه السياسة، وصفاً لكيفية تقديم الأجانب لشغل المناصب الرفيعة والولايات، والتعامل معهم بكثير من التقدير والتمييز عبر مخاطبتهم، تنفيذاً لتوجيهات محمد، الصريحة، بلقب **الأعزاء** (جمع عزيز) الخاص[93]. ففي حوالي سنة 733 هـ / 1332 ـ 1233م وصل نظام الدين، وهو سليل عائلة قيس، الحاكمة سابقاً، في الخليج الفارسي، إلى بلاط محمد، حيث أمضى سنتين وهو يحاول، عبثاً، الحصول على مساعدة السلطان في تمكينه من استعادة إرثه[94]. وبعد بضع سنوات، التقى ابن بطوطة بالحاج كيثون، أحد إخوة موسى الإيلخاني، الذي كان ضيفاً عند السلطان: ما لبث أن عاد إلى جنوب ـ غرب إيران في 743 هـ / 1342م، وقُتل وهو يحاول الاستيلاء على شابانكاره[95]. ومن المعروف أن محمداً كان قد أرسل عملاء

---

(90) MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 38) / تحقيق فارق، 24 (تر. صديقي وأحمد، 37)، IB، III، 344، 348 (تر. جيب، 721، 723)؛ قارن أيضاً III، 332 (تر. 716)، عن «الخراسانيين».

(91) المصدر نفسه، II، 72 ـ 77، وIII، 97 ـ 99، 243 ـ 266 وأماكن أخرى، 270، 279، 284 (تر. جيب، 311 ـ 313 ـ 595، 596، 671 ـ 683 وأماكن أخرى، 685، 689، 692). MA، تحقيق سبايز، 22 ـ 25، 38 (تر. ألمانية، 48 ـ 51 ـ 65 ـ 66) / تحقيق فارق، 41 ـ 46، 70 (تر. صديقي وأحمد، 48 ـ 50 مع حذف جملة عن الأجانب، 48؛ 63 ـ 64).

(92) شبان قاراني، 288 ـ MA289 . تحقيق سبايز، 22 (تر. ألمانية، 48 ـ 49) / تحقيق فارق، 42 ـ 43 (تر. صديقي وأحمد، 47 ـ 48). الصفدي، **الوافي**، مكتبة أكاديمية لينتسي بروما، مخطوطة فوند وكايتاني 21، 435 ـ 36. تلميح وجيز في TFS، 461.

(93) IB، III، 97 ـ 98، 243 (تر. جيب، 595، 671).

(94) جان أوبان، «أمراء هرمز بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين»، JA 241 (1953م)، 105؛ شبان قاراني، 219. تلك هي الأسرة الحاكمة التي كان سيراجي تقي ينتمي إليها (208 من هذا الكتاب).

(95) IB، III، 256 ـ 258 (تر. جيب، 677 ـ 679). جان أوبان. «مسألة سيرغان في القرن الثالث عشر»، =

وجواسيس له إلى الخليج الفارسي، من أجل تجنيد أمراء عرب مع أتباعهم، لخدمته[96]. وهذا الإفراط في الرعاية، كان يُعزىٰ، جزئياً، لمخططاته التوسعية في أفغانستان الحالية وبين الكثير من نبلاء المناطق المغولية، الذين وصلوا مع ابن بطوطة، كان كل من خداوندزاده قوام الدين، قاضي (ترمذ)، وابن عمه غياث الدين، وأميرين من بلاد ما وراء النهر وبهرم، ملك غزنة؛ وفيما بعد، وصل أميران مغوليان هما قابتاغا وأحمدي إقبال، كان أولهما سليلاً معروفاً للقائد المغولي تيمور، الذي كان قد أطاح بابن بلبان سنة 683 هـ / 1285م[97].

وعلى الرغم من شهادة ابن بطوطة، التي تؤكد أن محمداً كان يفضّل الأرستقراطية الأجنبية على نظيرتها المحلية الوطنية، وأن «الهنود» كانوا، بالتالي، يكرهون النبلاء «الخراسانيين»[98]، فإن هناك ما يشير بوضوح، إلى أن الوضع كان أكثر تعقيداً؛ فدائرة عطف السلطان كانت تتسع لعدد أكبر من **الموالي**؛ وهناك هنود محليون، من أمثال متمرد المستقبل، عين الملك بن مهرو (انظر الملحق رقم: 4)، استفادوا، أيضاً، من سخائه وثقته. كان المغربي نفسه على علاقة ودية مع حامل الأختام (المهردار) «أبو مسلم»، أحد الأبناء الكثر لراي (ملك) كامبيلا الذي احتفظ به محمد في بلاطه، منذ تاريخ

= **ستوديا إيرانيكا** 6 (1977م)، 289، مقتبساً مقطعاً غير موجود إلاّ في مخطوطة تبريز للصياغة الثالثة لمجمع شبان قاراني، التي استخدمها المؤلف المجهول لتاريخ أعم محفوظ في جامعة لايدن، مخطوطة، رقم: 1612، ملف 357 أ، وناتانزي في كتاب **منتخب التواريخ** (816 هـ / 1413 ـ 1414م)، تحقيق جزئي، ج. أوبان، **مقتطفات من منتخبات التواريخ** (طهران، 1957م)، 9 ـ 10.

(96) IB، IV، 104 (تر. جيب وبكينغهام، 818 ـ 819).

(97) أمراء من بلاد ما وراء النهر: المصدر نفسه، III، 374 ـ 375 (تر. جيب، 735، 743 ـ 744) بهرم: المصدر نفسه، III، 264، 265 (تر. جيب. 682). أحمد وكتبغا: TFS، 520، 584 ـ 585؛ عن الاسم الثاني، انظر لسينغ، **قاموس مغولي ـ إنجليزي**، 899. ب. جاكسون، «المغول وسلطنة دلهي في عهد محمد تُغلُق (1325 ـ 1351 م)» CAJ 19 (1975م) 147 ـ 148.

(98) IB، III، 344، 349 (تر. جيب، 721 ـ 722، 724).

فتح ذلك الإقليم[99]. أما الأشهر منه فكان كنّو، وهو براهماني، أُخذ أسيراً إلى دلهي بعد الاستيلاء على تيلانغ حوالى سنة 1322م، فالتحق بخدمته واعتنق الإسلام، حاصلاً على اسم مقبول، أولاً، وعلى لقب قيام الملك فيما بعد. عينه محمد والياً على مُلْتان بعد قمع انتفاضة كوشلوخان سنة 728 هـ / 1327 ـ 1328م، وحكم تيلانغ فترة قصيرة، إلى أن اندلعت ثورتها حوالي 1336، ثم ما لبث أن أصبح نائباً أو وكيلاً للوزير خواجاجهان أحمد بن أياز. وبعد اعتلاء فيروز شاه للعرش، حصل على لقب خان جهان، وخلف خواجا جاهان كوزير، وهو منصب احتفظ به إلى أن قضى نحبه، فانتقل إلى ابنه[100].

ومع ذلك، فإن برني يصِف خدمَ محمدٍ الهنودَ بوضاعة النسب، بصورة عامة[101]. لقد كان عزيز خمّار ذو السمعة السيّئة، الذي أنعم عليه السلطان بولاية مالوا، واحداً منهم[102]. إن عدداً منهم كانوا من غير المسلمين كما كانوا ـ رغم جميع التعليقات المتحيزة الصادرة عن المؤرخين، والتي تتحدث عن تجار الأقشمة (**البزازين**) والصاغة، ومن شابههم[103] ـ حسب أقوى الاحتمالات، من **الخايستا**، أعضاء طبقة إدارية، مثل رابان، الموصوف بأنه «شخص ماهر في الحساب والكتابة»، كان مؤتمناً على الإدارة المالية للسّند؛ ومثل بهيران، المراقب (**المتصرف**) في غولبارغا؛ ومثل ساماراسينغ، الذي أصبح والياً على تيلانغ؛ ومثل دهارا الذي أرسله محمد إلى دولت أباد وكيل

---

(99) المصدر نفسه، III، 320 ـ 321 (تر. جيب. 711).

(100) مُلْتان: TMS، 98، 101. تيلانغ: TFS، 481، 484 .**نائب وزير**، المصدر نفسه، 454، 512. سيرة حياة في عفيف، 394 ـ 424. يجب تمييزه عن ملكين آخرين يحملان اسم محمد هما **قابول ومقبل**: انظر هوديفالا، **دراسات**، II، 112، 115 ـ 116.

(101) اللائحة في TFS، 504 ـ FJ505 ،. 167 ـ 168.

(102) TFS، 501 ـ 502، 503، 504.

(103) FJ، 180 ـ 181؛ انظر أيضاً 595 ـ 302 (في 298 يحذر القارئ من الانبهار بمهاراتهم الإدارية).

وزير سنة 745 هـ / 1344 ـ 1345م، قبيل انهيار سلطته هناك، وانفصال الإقليم في ظل الأسرة الحاكمة البراهمانية[104].

حقبة فيروزشاه

في صياغته المنقحة الأولى، يتحدث برني عن عدد الأمراء المنتمين إلى النظام السابق، الذين تعرضوا للتحجيم لدى اعتلاء فيروزشاه للعرش[105]. غير أن مقبولاً كان في الحقيقة، وبكل بساطة، الأكثر حظوة بين عدد لا يستهان به من الرجال، الذين انتقلوا إلى صف العاهل الجديد، متخلين عن خواجا جهان، خلال الأسابيع الأولى، وقد تم الحفاظ عليهم في مواقع الثقة. فحسام الدين، نجل ملك نووا، أصبح نائباً لأَوَذ وحصل على لقب حسام الملك[106]. أما ملك مبارك، نجل كبير أمراء محمد المعروف ملك قابول خليفتي، فقد شغل منصب الـ **سلاحداري خاص**، والـ **وكيلي دار** فيما بعد، وبقي على قيد الحياة، بعد فيروزشاه نفسه[107]. حتى أعظم ملك شيخ زاده بسطامي، الذي كان، كأحد أصحاب خواجا جهان، قد طُرد من أقاليم فيروزشاه، حصل على العفو لاحقاً، حين عاد إلى الظهور مرتدياً ثوباً خليفياً، وجرى تقريبه ثانية مع إعطائه لقب أعظم خان[108].

---

(104) راتان: IB، III، 105 ـ 106 (تر. جيب، 599). بهيران: FS، 485 (تر. 726 ـ 727). سمارا سينغ: ك. هـ. كامدار، في **أعمال المؤتمر السابع للاستشراق الهندي (باروودا، 1933)** (باروودا، 1935)، 629 ـ 633. دهارا: TFS، 501. الأسماء الأخرى مذكورة في المصدر نفسه، 504 ـ 505. عن هذه الطبقة، انظر عموماً يوسف حسين، «... والثقافة الإسلامية في الهند»، REI 1 (1927م) 455 ـ 458.

(105) TFS، مخطوطة بودليان، ملف 217 أ. صديقي، «أضواء جديدة»، 78.

(106) TFS، 528 (مع الاستكمال بقراءة لحقها بعض التشويه في مخطوطة BL، ملف 261 أ). TMS، 133. بيها مادخاني، ملف 417 أ (تر. زكي، 22).

(107) المصدر نفسه، 416 ب ـ 417 أ (تر. زكي، 21). عفيف، 287، 338، داعياً إياه بغموض: مباركي كبير.

(108) TMS، 127 ـ 128؛ قارن أيضاً عفيف، 281؛ وعن انتمائه إلى خواجا جهان، TMS، 120 ـ 123 وTFS، 543 ـ 545.

وعلى الرغم من أن برني يذكر ـ بشماتة غير خافية ـ كيف قام السلطان الجديد بطرد الأجانب، الذين كانوا قد تدفقوا، متزاحمين، على بلاط محمد من كل من هراة وسجستان وعدن وقوصدار، طمعاً في الهدايا والهبات[109]، فإن صفوف طبقة النبلاء والأمراء لدى فيروزشاه كانت تضم أيضاً، بعض أكثر المهاجرين تميزاً وتألّقاً، ممن كانوا في العهد السابق. فخداوند زاده قوام الدين (الترمذي)، **نائبي وكيلي دار** محمد، ما لبث أن أصبح خداوندخان **وكيلي دار**، في حين حصل ابن أخيه على لقب سيف الملك وعُين **أمير شيكاري ميمنه**[110]. وكذلك فإن الأميرين المغوليين قبتغا وأحمدي إقبال، كانا متمتعين بعطف فيروزشاه، فضلاً عن أن حسيناً بن أحمدي دخل بدوره في خدمة السلطان وتزوج ابنته[111].

وبادر فيروزشاه حاذياً حذو أسلافه، إلى تشكيل كوكبة من الأمراء من صنعه هو. لعل أحد التطورات الأهم، ذات الأمد الطويل في العهد، كان متمثلاً بتجميع الوظائف والإقطاعات بأيدي مماليكه. ثمة مؤلفون مختلفون كتبوا في ظل أحداث العهود التالية يعتبرونهم مماليك وأمراء «أتراك» (**باندغاني ترك، أمرائي أتراك**)، وهندوساً «هندوستاني». من الممكن حل التناقض الظاهري، إذا اعتبرنا أن كثيرين منهم كانوا من أصول شرقية هندية: فقبل قرن كامل من الزمن، كان الجوزجاني قد اعتبر أهل التيبت واركان «أتراكاً»[112]. وحسب ما يقوله عفيف، فإن فيروزشاه بذل جهوداً أكبر من أي من أسلافه في سبيل اقتناء المماليك: تم الإيعاز لولاة الأقاليم، بتقديم أفضل المماليك

(109) TFS، 538.

(110) المصدر نفسه، 454، TMS580 .، 124.

(111) TFS، 527، 544، 584 ـ 585. عفيف، TMS280 .، 140، عن الزواج.

(112) بيهامادخاني، ملف 420 أ، 421 أ، 423، 424 ب، 432 ب (تر. زكي، 27، 29، 32، 33، 34، 47). TMS، 150. قارن ديغبي، «إلتُتمِش أم إلتمش؟» 57 هـ. 1. عن استخدام الجوزجاني، انظر TN، I 429 وهـ. 3 (تر. 566، 567).

والغلمان وأكثرهم تميزاً إلى البلاط، كجزء من هداياهم السنوية المقدمة إلى السلطان، والعدد الإجمالي لمماليك القصر، ارتفع إلى مئة وثمانين ألفاً. وكان أربعون ألفاً منهم مكلفين بالخدمة في القصر، أو كانوا يشكلون جزءًا من حاشية فيروزشاه؛ أما الباقي، فكانوا يتولون القيام بمهمات مختلفة، إذ كان يجري تعليم بعضهم مِهَناً تتطلب مهارة[113]. بات غلمان القصر عنصراً بالغ الأهمية في الدولة، إلى درجة أن المسؤولية عن شؤونهم، نُقلت من مكتب الوزير (ديواني عالي وزارت) إلى مكتب جديد كلياً، عرف باسم **ديواني باندغان** (ديوان المماليك)، كان يديره جهاز خاص من الموظفين، برئاسة مسؤول يحمل اسم **عارضي باندغاني خاص**[114].

بعضُ مماليك فيروزشاه كانوا في خدمته، قبل اعتلائه للعرش، مثل ملك بشير الذي أصبح **عارضي ممالك** بلقب عماد الملك[115]؛ أو ملك ديلان الذي خدم السلطان الجديد **أمير شيكار**، وهو منصب، تزايدت أهميته في ظل عاهل شديد الولع بالمطاردة والصيد[116]؛ أو ملك قبول، الملقب توراباند، الذي أصبح أمير بداؤون[117]، وهو غير مملوك آخر يحمل الاسم نفسه: **ملك قبول قيران ـ خوان**، **الأمير مجلس** ومقطع سامانا[118]. ومن شأن عمليات الاقتناء اللاحقة، أن تكون شملت ملك اختيار الدين مفرّج سلطاني، **الداوادار**، الذي أصبح نائباً لإقطاع گوجرات، وما لبث أن حصل،

---

(113) عفيف، 267 ـ 268، 269 ـ 270، 272: الأرقام واردة في 270.

(114) المصدر نفسه، 271.

(115) TFS، 583. عفيف، 285، 436 ـ TMS437 .، 119.

(116) TFS، 582. عفيف، 115، 318. شوكوهي، راجاستان، I، 62. عن أهمية منصبه، انظر TFS، 600.

(117) المصدر نفسه، 528. انظر أيضاً عفيف، 159 ـ 161. بيهامادخاني، ملف 417 أ: النص مشوّه قليلاً وثمة خلط بينه وبين قابول قران خوان، كما في TMS، 135، لدى الإتيان على ذكر توليته على بداؤون.

(118) عفيف، 454 ـ 455. بيهامادخاني، ملف 417 أ (تر. زكي، 23). TMS، 134. تمّ إرساله لمواجهة الغزاة المغول في 759 هـ/ 1358 م: المصدر نفسه، 127.

فيما بعد، على لقب فَرْحة الملك[119]. ولدى موت فيروزشاه كان مماليكه وذراريهم، يشكلون عنصراً رئيسياً من عناصر الطبقة الأرستقراطية؛ يجب أن يكون من حقنا أن نتكلم عن خلق نخبة جديدة. ففعاليات هؤلاء المماليك كان من شأنها أن تفضي، في ظل خلفائه، إلى تقويض استقرار الإمبراطورية بصورة جدية وخطيرة.

ثمة، مع ذلك، عدد غير قليل من النبلاء الأحرار، كانوا لا يزالون موجودين، ولو تم استبعاد الأمراء الذين كان فيروزشاه قد ورثهم من ابن عمه. فظَفَرخان (الثاني)، مُقْطَع گوجرات، كان ابن ظفرخان (الأول) وخلفه، الذي كان اسمه الكامل: تاج الدين محمد لورفارسي، مما يشير إلى أن عائلته ربما جاءت من جنوب ـ غرب إيران[120]. أما مالِكْزاده فيروز (جد الأسرة التي حكمت كالبي في القرن الخامس عشر)، الذي كان صاحب شق فيروزبور الواسع الجديد، فقد كان ابن تاج الدين ترك، الذي كان قد خدم غياث الدين تُغْلُق شاه[121]. وكذلك، فإن الملاك الأحرار كانوا يشكلون جماعة من الأمراء الأفغان هم: ملك بايّو، مقطع بيهار؛ وملك خطّاب، المعين والياً على شق سانبهال سنة 1782م / 1380 م؛ وملك محمد شاه، مقطع تُغْلُق بور في إيتاوا[122]. ثمة مهتدون هنود على علاقة نسب مع السلطان، كانوا أيضاً،

---

(119) المصدر نفسه، 133. يظهر في منقوشات من سنة 762 هـ فصاعداً: ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 9 ـ 13، 19 ـ 21، 26 ـ 27، إلخ (ولتكوين فكرة عن حياته العملية انظر المصدر نفسه، 13 ـ 14)؛ أيضاً، «ضريح كوكاني يعود إلى القرن الرابع عشر»، EIAPS (1965م)، 9 ـ 10.

(120) TMS، 2126؛ قارن أيضاً SFS، 91. ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 15 ـ 17.

(121) بيهامادخاني، ملف 412 ب (تر. زكي، 13 ـ 14)؛ عن التاريخ، انظر TMS، 134، وعن جذوره، عفيف، 480. عن تاج الدين ترك، انظر TFS، 424.

(122) بايّو: بيهامادخاني، ملف 417 أ (تر. زكي، 22، حيث ترد على صيغة «بابو» [؟]»، TMS، 133، انظر أيضاً ز، أ ديساي منقوشات عربية وفارسية من المتحف الهندي كالكوتا EIRPS (1955 ـ 1956م). 6 ـ 8 عن ضريحه العائد إلى 753 هـ / 1353م (ويدعى ابراهيم بايوحنا ق أحمد مجموعة 34 ـ 37 (رقم: 11 ـ 13 خطاب TMS 135. محمد شاه: بيهامادخاني، ملف 412 أ، 417 أ (تر. زكي، 13، 23).

يجدون مكاناً لهم في صفوف الطبقة الأرستقراطية. وإذا استطعنا أن نصدق مؤرخ القرن السابع عشر الكوجراتي، فإننا نجد أن سادمارانا، الملقب وجيه الملك، جد السلاطين المستقلين، كان شقيق إحدىٰ أزواج فيروزشاه؛ وكان قد رافق السلطان إلى دلهي واعتنق الإسلام[123]. وثمة رموز قيادية بين الأمراء المحليين، باتوا، أخيراً، يتمتعون بمكانة ذات شأن في البلاط. فبعد حملته على دامريلا، قام السلطان بإعادة أميريها: الجام وأخيه بانبهينا إلى دلهي[124]. وكذلك، فإن أودهاران، شقيق تومارا، راي غواليور، وسومر راي إيتاوا التشاوهاني، كانا، كلاهما، في الخدمة عند موت السلطان[125].

النسب والاستمرارية

بودّنا أن نعرف، أكثر، عن أسلاف كبار نبلاء الحقبتين الخَلْجية والتُغْلُقية المذكورين في مصادرنا. يحدثنا عصامي، مثلاً، عن أن آلب خان، أحد أوائل أعوان علاء الدين، ووالي كوجرات فيما بعد، كان ذا أصل ملكي، ويلمّح لاحقاً إلى النسب الرفيع والشهير لبهاء الدين غارشاسب، الذي كانت أختُ تُغْلُق أمَّه[126]. غير أنه في الحالين، كلتيهما، لا يكشف لنا عن هوية أجداد أي من الأميرين المعنيين. وبالمحصلة، فإن جَهلنا بالنسب، ربما يعني أن الطبقة الأرستقراطية ضمت عدداً من **حديثي النعمة** (القادمين الجدد) أقل مما بدا عليه الواقع، ولا يتعين علينا التأثر، دونما حاجة، بهوس برني الجلي حول النسب

---

(123) سيكاندار بن محمد، المعروف بمانجو، **مرآتي سيكانداري**، تحقيق س. سي ميسرا ومحمد لطف الرحمن (بارودا، 1961م) 4 ـ 10، تر. في السير إ. سي. بابلي، **الأسر الحاكمة المحمدية المحلية، كوجرات** (لندن، 1886م)، 67 ـ 70.

(124) SFS، 93 ـ 94. عفيف، 247 ـ 248، 252 ـ 254. رياض الإسلام، «صعود السامًا في السند»، IC 22 (1948م)، 377 ـ 379.

(125) عفيف، TMS281 .، 134. بيهامادخاني، ملف 414 ب (تر. زكي، 17). عن هويات هؤلاء الأمراء، انظر هوديفالا، **دراسات**، ا، 394 ـ 395؛ ك. س. لال، **غروب شمس السلطنة**، طبعة منقحة (نيودلهي، 1980)، 6 ـ 7د هـ. 35.

(126) آلب خان: FS، 250. بهاء الدين: المصدر نفسه، 384 (تر. 588).

أو الأصل، كإحدى المواصفات المطلوبة لشغل هذه الوظيفة أو تلك. يبقى برني، على أية حال، شديد التخبط وعدم الاتساق، إذ يغفل حقيقة أن العائلات الأرستقراطية الكبرى والعظيمة في عهد بلبان، كانت متحدرة من أقران ذلك السلطان من المماليك، الذين يكاد يتعذر وصفهم بأنهم كانوا من ذوي النسب الرفيع؛ وحين يقوم بتفنيد صحة نسب أولئك الذين شغلوا مناصب رفيعة، في سنوات علاء الدين الأخيرة، فإنه يتجنب توجيه الاتهام نفسه إلى النبلاء والأمراء المبتدئين، الذين ينتمون إلى الفترة الأولى من عهده[127].

ونظراً للطريقة المفاجئة والمتعسفة التي يمكن اتباعها في حرمان الأمراء من الحياة والممتلكات، إضافة إلى حرمان أسرهم من التَّرِكَة، فإن إغفال الاستمرار أمل سهل. على الدوام، كان ثمة أعيان كانت فترات خدمتهم تخترق عدداً من الأسر الحاكمة. فالخواجا جهان أحمد بن أياز، وزير محمد بن تُغْلُق، كان ابن علاء الدين أياز، كوتوال حصاري ناو بدلهي (أي قلعة سيري الجديدة) في ظل علاء الدين خَلْجي، وكوتوال العاصمة سنة 720 هـ / 1320م، حين أرسل ابنه إلى خارج المدينة، ومعه المفاتيح لاستقبال غياث الدين تُغْلُق؛ لقد سمع ابن بطوطة أن العائلة كانت ذات أصول رومية (يونانية)[128]. من المحتمل أن يكون ملك بشير مُعزّي، **نائبي خاص ـ حاجب** لدى قطب الدين مبارك شاه، هو نفسه ملك بشير سلطاني، الذي يظهر بين نبلاء معز الدين كيقباد، قبل ثلاثين سنة[129]. وأحد أمراء قطب الدين مبارك شاه كان آرام شاه، نجل ملك خُرَّم كوهي جودي، الذي كان قد خدم الغياثيين[130]. أما والد أحمدي

---

(127) ع. حبيب، «نظرية برني»، 107. صدِّيقي، «الأرستقراطية في ظل السلاطين الخلجيين»، 64 ـ 65.

(128) IB، III، 144 (تر. جيب، 617 ـ 618). عن آياز، انظر TFS، 278؛ FS، 386 ـ 387 (تر. 590). المصدر الذي اقتبس منه أ. م. حسين، **رحلة ابن بطوطة**، (باروده، 1953م)، 54 هـ. 3، التي تجعل أحمد بن آياز ذا أصل هندي، يجب اعتبارها أقل جدارة بالثقة. HN، 447، 457، يخطئ إذ يجعل الأب أحمد والابن محمداً.

(129) TFS، TMS126 .، 83.

(130) المصدر نفسه، 84.

تشهيتام، **القيرابك** عند علاء الدين، الذي تقلد هو وأبناؤه عدداً من المناصب، في ظل قطب الدين وغياث الدين تُغْلُق، فقد كان مملوكاً لبلبان، يحمل اسم ملك بقبق[131]. ولدى اعتلاء محمد بن تُغْلُق العرش، تم إرسال ملك حسام الدين بيندار خَلْجي، الذي خدم قطب الدين وحصل من غياث الدين على لقب قادرخان، ليتولى حكم لخناوتي، وما لبث أن اغتيل هناك، لدى اندلاع انتفاضة في حوالي 1336[132]. أمّا أبوه جمال الدين خَلْجي، وهو **نائبي أمير داد** في ظل كل من بلبان وجلال الدين، فقد كان من مؤيدي أبناء جلال الدين سنة 695 هـ / 1296م، غير أنه كان من القلة القليلة جداً من العبيد الذين أبقى علاء الدين على حياتهم، في حملته التطهيرية التي استهدفت النبلاء الجلاليين، بعد وقت قصير[133]. وكما رأينا فإن من الممكن أن يكون الياور الخَلْجي جمال الدين علي، هو الذي سبق له أن اضطلع بدور عامل بلبان في إحدى البعثات المسيَّرة إلى المغول.

غَطَّت خدمة بعض العائلات الأرستقراطية ثلاثة أجيال أو أكثر، وإن لم تكن عن طريق شغل المناصب بالتحديد، على الدوام. ويبدو أن برني، الذي شغل كلٌ من أبيه وعمه وجده، والد أمه، وظائفَ ومناصبَ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لم يكن إلاّ واحداً من ندماء محمد بن تُغْلُق. ومما يقوله عن أبناء وأحفاد الوزيرين جنيدي ومهذّب الدين من القرن الثالث عشر، يتضح أنهم كانوا يعيشون كمواطنين عاديين حتى عهد غياث الدين تُغْلُق، الذي أعادهم

---

(131) بُقبُق: TFS، 40 .**قيرابغ**: المصدر نفسه، 331 ـ 332، 337، 396، FS424 .، 287 (تر. 461)، يورد اسمه، أبناؤه: TFS، 409، 410. عن الأصغر سناً بدر الدين أبو بكر بن أحمد، وارد أيضاً في منقوشة تعود إلى 723 هـ / 1323م، انظر TFS، 379؛ ج. هـ. يزداني، «منقوشات في ضريح بابا آرغون شاه، تبيلاد (ولاية بارودە)»، EIM (1915 ـ 1916)، 16 ـ 18؛ ARIE (1975 ـ 1976م)، 145 (هـ. د 114).

(132) TFS، 379، 424، 450، 454، FS480 .، 396 (تر. 601) .TMS، 98.

(133) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 132 أ، داعياً إياه «جمال الدين خلجي، **نائب ـ ي أمير ـ ي داد**»؛ المقطع المقابل في TFS، 251، يحدد أنه كان والد قادر خان، ولكنه يدعوه «أمير جمال خلجي» فقط.

إلى دائرة العطف، بما يمكّن حسام الدين جنيدي من شغل وظيفة رئاسة تقويم مجمل النظام الضريبي في الإمبراطورية، أيام حكم فيروزشاه، كما يمكّن ابنه ركن الدين جنيدي («جندا») من شغل منصب وزير، لدى أبي بكرشاه في 791 هـ / 1389م، لفترة وجيزة[134]. كان **سيد الحجاب**: معروف، نديم فيروزشاه، مجرد ضابط عسكري (بيشوا) تحت قيادة سرتيز، أحد أمراء محمد؛ على أن أباه ما لبث أن غدا شخصية مرموقة، هي شخصية وحيد الدين قريشي، **نائب الوزير** ووالي گوجرات في ظل قطب الدين مبارك شاه[135]. أما ملك محمود بك، الذي كان صاحب سُنّام وسامانا في ظل محمد بن تُغْلُق وفيروزشاه على التوالي، فكان ينتمي إلى أسرة من بيلاهور، أنجبت سلسلة من كبار أصحاب المناصب الرفيعة. ونظراً لقدم شيرخان في السن (حوالي التسعين، حسب كلام برني الذي يكاد أن يكون غير قابل للتصديق)، فإن أباه رُسْتمي يحيى، مقطع بيدار، يجب أن يكون قد رُفع في وقت ما، خلال الحقبة الخَلْجية[136]. أما نَجْلا شيرخان نفسه، ملك أبو مسلم وملك شاهين بك، فيرد ذكرهما، لاحقاً، بوصفهما اثنين من ضباط فيروزشاه[137]. لعل النموذج الأكثر إدهاشاً للاستمرارية، هو ذلك الذي نجده في نسب داور ملك، الذي هو ابنُ أختٍ وصِهْرٌ، في الوقت نفسه، لمحمد بن تُغْلُق. وعلى الرغم من أن أباه صدر

---

(134) غياث الدين تُغلُق: المصدر نفسه، 427. حسام الدين: عفيف، 94، 460، 469 ـ 470، 481. ركن الدين: المصدر نفسه، 482؛ TMS، 143 ـ 144؛ وانظر أيضاً هوديڤالا، **دراسات**، ا، 391 ـ 392.

(135) سيد الحجاب: عفيف، 445 ـ 446. قريشي: TFS، 397 ـ 398.

(136) المصدر نفسه، 545، TMS583 .، 119، 120 ـ 121. ملك رستم ـ ي يحيا موجود بين ملوك (أمراء، مماليك) محمد بن تُغلُق فقط في مخطوطة TFS J BN، الملحق الفارسي 251، ملف 282 ب. عن **النسبة** بيلاهوري، انظر IM، 106؛ عن بيلاهور (فيلاّور الحديثة)، على الضفة اليمنى لسوتلج، عند نقطة 31 درجة / 1 دقيقة شمالاً، 75 درجة / 48 دقيقة شرقاً، **كراريس أقاليم البنجاب**، XIVA. **جولُونِدُر** (لاهور، 1904)، 301. شيرخان كان ميتاً مع حلول سنة 765 هـ / 1364م، حين قام «ملك فخر الدولة والدين، ابن شيرخان محمود بغ»، ببناء جامع في باتان: ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 14 ـ 15.

(137) TMS، 122. لعل أحدهما هو باني المسجد المذكور في الهامش السابق.

الدين عارف، نائب قاضي القضاة علاء الدين خَلْجي، فقد كان ابن حفيد المؤرخ الجوزجاني، قاضي قضاة لدى اثنين من أنجال إلْتُتمش، كما في ظل غياث الدين بلبان[138].

لم يكن بقاء العائلات الأرستقراطية واستمرارها من عهد، أو أسرة حاكمة إلى أخرى، جديراً بالملاحظة، إلاَّ بمقدار ما كان سقوط أمراء راسخي الأقدام، أو تقديم «رجالات جدد» مثيراً للاهتمام على الدوام؛ كان الأمر يتطلب قدراً أقل من الانتباه، من جانب المؤرخين. فبرني يقول بكلمات، قليلة إن غياث ـ الدين تُغْلُق حرص على إبقاء أمراء عهد علاء الدين خَلْجي في مواقعهم؛ غير أنه يكرس مجالاً أوسع لولع محمد بن تُغْلُق بالخدم ذوي النسب الوضيع. ومع ذلك، فإن غياث الدين، لم يدأب، ببساطة، كما سبق لنا أن رأينا، على رعاية الأرستقراطيين الممثلين للحقبة الخَلْجية فقط: لقد قام أيضاً بجلب أعضاء حاشيته الخاصة، أولئك الذين كانوا قد برهنوا على امتلاك الموهبة والشجاعة والإخلاص في خدمته، على امتداد السنوات العشرين السابقة، على الجبهة المغولية، من دَيبلْپور، وعيّنهم في المناصب. أما في عهد محمد، بالمقابل وعلى النقيض من ذلك، فإن هناك مؤشرات ودلائل غير قليلة، تُثْبِت أن عائلات عريقة قديمة بقيت ممثلة بين صفوف أصحاب المناصب.

لا نملك إلاَّ القليل من المعلومات عن الأرستقراطيات المحلية. فالمصادر توفر الصورة العابرة لإحدى قواعد القوة المحلية ـ قاعدة علاء الدين خَلْجي المتمثلة بقارا مثلاً، حيث نجح نفوذ الأعوان السابقين لملك تشهاجّو في مضاعفة قُدْرَته على التآمر وتدبير الدسائس[139]؛ أو ملك كافور في رابري وسط اليمونة، وفي ديوغير لاحقاً[140]. غير أننا لا نصبح قادرين على تعقب ما يمكن

---

(138) TFS، TMS351 .، 98. انظر أيضاً هوديفالا، دراسات، I، 309 ـ 310.

(139) TFS، 224.

(140) المصدر نفسه، 328، 333. يزداني، «منقوشات عن سلاطين دلهي الخلجيين»، 30.

أن نطلق عليه اسم «التاريخ المحلي» عن جدارة، تاريخ المنطقة المحيطة بكالبي، في هذه الحالة، إلاّ بعد حلول العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر، بفضل كتاب **تاريخي محمدي**، تأليف بيهاماندخاني؛ ولكن الأسرة الحاكمة، حتى في هذه الحالة، كانت بضاعة مستوردة من دلهي - ذرية ملك تاج الدين ترك.

أما فيما عدا ذلك، فإن المادة القادرة على تزويدنا بأية معلومات عن النبلاء المسلمين في الأقاليم، فقد كانت ضئيلة حقاً. نرى أن برني يفسح في المجال بعض الشيء، لعائلات الأسياد المقيمة في مختلف بلدات السلطنة أيام علاء الدين، مسلطاً الضوء، بشكل خاص، على تلك التي كانت في بداؤون، واضطلعت بمهام القضاء هناك. ثمة اثنان من العائلة هما: السيد تاج الدين وابن أخيه السيد ركن الدين أحرزا شرف القضاء في أوَدْ وقارا على التوالي، ويقول برني إنه حظي بنعمة مقابلتهما. وهو نفسه، كان سليل عشيرة متميزة أخرى هي عشيرة أسياد كاثيال، عن طريق جدته من ناحية الأم. وكذلك نرى أن الأسياد من غارديز (ربما باتوا منتشرين في أرجاء الإمبراطورية) ونظراءهم من كل من جاجنير وبهايانا، مذكورون[141]. إن أفراداً من هذه العائلات، صاحبة الامتيازات، يبرزون بين الحين والآخر، في المراتب العليا للطبقة الأرستقراطية. فملك تاج الدين جعفر، من سلالة أسياد جاجنير، يرد ذكره في قائمة ملوك (أمراء) علاء الدين وقطب الدين، ثم لا يلبث أن يصبح **نائبي عرض** ووالي گوجرات في ظل غياث الدين تُغْلُق[142]. وقد تتعرض حظوظ هذه السلالات المحلية للانتكاس، جراء أحداث العنف الملكية بين الحين والآخر. فأسياد كايثال دفعوا ثمناً باهظاً حين نجح أحدهم، السيد حسن، كوتوال

---

(141) بداؤون: TFS، 348 ـ 349. كايثال: المصدر نفسه 349 ـ 350. غارديز وجاجنر: المصدر نفسه، 350. بهايانا: المصدر نفسه، 351.

(142) المصدر نفسه، 240، 379، 424، 428؛ انظر 350 عن أسلافه.

مادورا، في التمرد على محمد بن تُغْلُق سنة 734 هـ / 1334م وتمكن (بوصفه السلطان جلال الدين إحسان شاه) من تأسيس سلطنة مَعْبَر المستقلة: لقد تعرضوا جميعاً للذبح، لدى عودة السلطان من محاولة فاشلة لاستعادة الإقليم[143]. وفيما بعد، جرى إعدام إبراهيم بن السيد حسن، حامل خرائط (**خريطة دار**) محمد ووالي هانسي وسارساتي، بتهمة التآمر من أجل إحداث حركة عصيان[144].

ثمة، في الأقاليم، بصيص ضوء مهزوز ينير الآثار المتبقية عن عائلات محلية شهيرة، حتى على امتداد بضعة قرون من الزمن. قد نرى احتمال أن تكون أية بقعة هندية في عهد فيروز شاه، قادرة على الاحتفاظ بشيء من الارتباط مع الحقبة الغزنوية، غير وارد، إلى حد بعيد. غير أن نقشاً من منطقة نغوار يفعل ذلك بالتحديد، حين يخلد ذكرى خمسة إخوة سقطوا في المعركة مع الهندوس بالقرب من باري خاتو سنة 761 هـ / 1360م[145]. كان الإخوة يحملون اسم العائلة: «بهاليم» وبالتالي، فهم منتمون، بالضرورة، إلى عشيرة الأمير القوي ومؤسس نغوار، محمد بهاليم، الذي كان قد ثار على السلطان الغزنوي بهرم شاه في 513 هـ / 1119م[146]. ومؤسفٌ حقاً أن تكون أعداد كبيرة إضافية من مثل هذه العائلات الأرستقراطية الإسلامية النبيلة والمحترمة في الأقاليم، قد نجت، ربما، واستمرت بعد كل الانتفاضات والانقلابات التي شهدتها دلهي، لكنها بقيت بعيدة عن متناول مراجعنا الأدبية المكتوبة.

---

(143) TMS، 106؛ وانظر 107 عن مذبحة السادات (الأسياد). FS، 469 (تر. 705) عن مرتبة السيد حسن: ن. فنكاتارامانيا، **التوسع الإسلامي المبكر في جنوب الهند**، (مدراس، 1942م)، 123 ـ 124 هـ. 50 و160، يجادل بالتالي قائلاً إنه لم يحكم الإقليم كله، أيضاً في IB، III، 328 ـ 329 (تر. جيب، 715). نجده من قبل نائباً لحاكم إقليم داموه في 725 هـ / 1325 م: ب. د. فيرما، «منقوشات من المتحف المركزي، ناغبور»، EIAPS (1955 ـ 1956م) 109 ـ 112؛ ARIE (1969 ـ 1970م) 84 (هـ. د 66).

(144) IB، III، 337 ـ 339 (تر. جيب، 718 ـ 719).

(145) ن. م. غنم، «ضريح ستة شهداء من باري خاتو في راجاستان»، EIAPS (1973م)، 10 ـ 13.

(146) TN، I، 242 (تر. 110)؛ وانظر أيضاً AH، 378 ـ 381. بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 102 ـ 103.

الفصل العاشر

عصر فتوحات وغزو

تم، في الفصل السابع، بذل محاولة لوصف المنغّصات التي تعرض لها التوسُّعُ الإسلامي، في القرن الثالث عشر الميلادي. لا يعني هذا أن المناطق الواقعة خارج دائرة سيطرة سلطان دلهي، في ذلك الوقت، كانت بمنأى عن التأثر بالإسلام. فالتجار المسلمون كانوا ناشطين في المدن الساحلية لشبه الجزيرة وسيلان البحرية منذ القرن التاسع الميلادي[1]، وقد حافظت هذه المناطق على سلسلة من الروابط الوثيقة مع الخليج: ففي أوائل القرن الثالث عشر كانت الخُطْبة [خطبة الجمعة] في أجزاء مختلفة من «الهند» تُلقى باسم حاكم فارس[2]. وقد كان لكانبهايا (كامباي) في گوجرات، سكانها من التجار والباحثين [العلماء، والفقهاء] المسلمين قبل دخول قوات علاء الدين خَلْجي إلى البلاد، للمرة الأولى سنة 698 ـ 699 هـ / 1299 ـ 1300م، بعدد من العقود. ووجود جالية إسلامية مُزْدَهرة، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، يتجلى في أعداد نقوش شواهد الأضرحة، التي خرجت إلى

(1) جنفييف بوشون، «بعض جوانب أسلمة المناطق الساحلية الهندية في العصر الوسيط (من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر)»، في غابوريو، **الإسلام والمجتمع في آسيا الجنوبية**، 29ـ 36. وينك، **الهند**، ا، 67 ـ 83.

(2) ابن زاركوب، تحقيق كريمي، 56 / تحقيق جوادب، 80.

النور[3]. كان لهؤلاء المسلمين محافظهم (**حاكمهم**) الخاص عشية الغزو الخَلْجي، وقد عمل عوفي قاضياً هناك، لبعض الوقت، أوائل عشرينيات القرن الثالث عشر[4]. لم يكن الوضع في الجنوب مختلفاً. فوصف ابن بطوطة للساحل المليباري (مالابار) يبين أن جاليات إسلامية كانت قد توطَّنت في موانئ هذا الساحل، وأقامت المساجد والخانات[5]. ولدى زيارته لتلك البلاد، كان هناك عشرون ألف مسلم في جيش ملك الهويسالا في دفاراسامودرا؛ وكان جيش علاء الدين الغازي قد جوبه، قبل جيل واحد، من قبل مسلمين بين قوات مملكة بانديا المَعْبرية[6]. فالحكم الإسلامي لم يكن قط، آنذاك، كما هي حاله الآن، مواكباً لحركة الهجرة الإسلامية **[الشتات الإسلامي]**.

يرتبط الاقتحام الحاسم، بحقبة علاء الدين خَلْجي (695 ـ 715 هـ / 1296 ـ 1316م). فاستيلاؤه على العرش لم يصبح ممكناً، إلاَّ بفضل غارة لم يسبق لها مثيل، من حيث الجرأة، على مملكة يادافا الديوغيرية النائية؛ كما أن عهده كسلطان، تميز بحملات مماثلة من حيث الطموح ضد قوى هندوسية مستقلة في كل من راجستان ومالوا وجنوب النارباداا. وعلى الرغم من أننا قد نشعر، بقوة، بأننا مواجهون، في هذا المنعطف، بقفزة كمية على صعيد عملية

---

(3) ز. أ. ديساي، «المنقوشات العربية لفترة الراجبوت من گوجرات»، EIAPS (1961م)، 1ـ 24؛ أيضاً «كتابات الأضرحة الكوفية المبكرة من بهادرسوار في گوجرات»، EIAPS (1965م)، 1 ـ 8؛ ARIE (1961 ـ 1962م)، 33، 179 (رقم: د 22 ـ 29).

(4) ديساي، «المنقوشات الخلجية والتُغلُقية من گوجرات»، 3 ـ 4. عن موقف عوفي كانبهايا الذي أسيء فهمه من قبل نظام الدين، **مقدمة**، 14، انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 171، وII، 44.

(5) IB، IV، 71 ـ 103 (تر. جيب وبكينغهام، 805 ـ 818). انظر عموماً ج. ف. جوارني، **الملاحة البحرية العربية في المحيط الهندي** (برنستون، 1951م)؛ ستفن ف. ديل، **المجتمع الإسلامي على حدود آسيا الجنوبية: مابيلا المعبر 1498 ـ 1922** (أوكسفورد، 1980)، الفصل الأول؛ وينك، **الهند**، II، 276 ـ 280.

(6) الهويسالا: IB، IV، 195 ـ 196 (تر. جيب وبكينغهام، 861). الباندبا: KF، 149؛ DR، 72.

التوسع، فإن علينا أن نَحْذَر من اعتبار كل انتصار مَعْلماً تاريخياً بارزاً. فبعض حملات علاء الدين، لم تكن سوى عمليات توسيع لدائرة نشاط سلاطين القرن الثالث عشر: كان إخضاعه لرنثانبور، مثلاً، عبارة عن استعادة موقع حصين سبق له أن كان في يد المسلمين مرتين.

لسنا كذلك بصدد مرحلة جديدة من الفتح والاستيعاب في كل مكان، بالضرورة. صحيح أن الذراع العسكرية للسلطنة امتدت بصورة دراماتيكية مثيرة؛ وأن قلاعاً هندوسية كانت، حتى الآن، لا تقدم الخراج إلاّ بصورة متقطعة، باتت الآن، مقرات للولاة أو المُقْطَعين المسلمين؛ غير أن الاندفاع نحو الجنوب، غالباً ما بقي، مكتفياً بتكرار النمط الملحوظ في الشمال طوال السنوات المئة ونيف، السابقة. في رواية برني لقصة الغزوة الناجحة الأولى لتيلانغ، يوصي علاء الدين قائد جيشه، ملك كافور، بألا يبذل أي جهد لأَخْذ قلعة آرانغال أو للإطاحة بملكها: لقد كان مستعداً للتوصل إلى تسوية عاجلة، شرط الحصول على مبالغ من الأموال والمجوهرات والفيلة والخيل، وضمان الخراج عن السنوات المقبلة[7]. كثيراً ما تكرر قبول إذعان هذا الأمير أو ذاك، من قِبل السلطان أو ممثليه، بتربيت اليد المطمئنة النموذجية على الظهر، التي كان يحصل عليها مبعوثو رودراديڤا التيلانغي من كافور، وراي (أمير ـ ملك) نغاركوت من فيروزشاه[8]. ثمة الهوة العميقة ذاتها التي تفصل بين ما هو مثالي ـ ممارسة السيطرة الإدارية المباشرة على مجمل مناطق مملكة هندوسية بائدة ـ وواقع كان كامناً في صلب نوع محتوم من المساومة والحلول الوسط، مع قوى محلية أو حكم إسلامي مباشر، محصور بحفنة صغيرة من النقاط المحصنة

(7) TFS، 327: ثمة سطر محذوف هنا وموجود في مخطوطة BL ملف 162 أ.

(8) KF، 104. عفيف، 189، 244. عن نغاركوت، انظر أيضاً ل. س. تشاندل، «إشارات إلى كانفارا وسيمور في المصادر الوسيطة المبكرة في كتاب الدولة الوسيطة المبكرة (دراسة لسلطنة دلهي) (نيودلهي، 1989م)، 104 وهـ. 39؛ ثمة إشارات إضافية في هوديڤالا، دراسات، I، 321.

المنيعة. وكما سوف نرى فإن السنوات الأخيرة للحقبة الخَلْجية، كانت ستشهد بدايات سياسة أكثر تشدّداً.

الحملات في الهند الشمالية

گوجرات(*)

كان محمود الغزنوي قد استباح مدينة سومنات الشهيرة بمعابدها على الشاطئ، جنباً إلى جنب، مع مركز نهراولا (آنهيلاوارا؛ باتان الحديثة) التجاري الغني؛ وقد تعرض الأخير في 593 هـ / 1197م للمصير نفسه، مرة أخرى، حين قام قطب الدين آيبك بنهب ما فيه. غير أن هجمات إسلامية أخرى على آيبك، لا يرد لها أي ذكر بعد ذلك التاريخ، لا على التشاولوكيا ولا على أقربائهم الڤاغيلا الذين خلفوهم حوالي سنة 1242م، حتى نهاية القرن تقريباً. ومن ثم، بادر علاء الدين في سنة 698 هـ / 1299م إلى إرسال أخيه أُلُغ خان والوزير نصرت خان، لمحاربة مملكة الڤاغيلا. ربما كان غرضُ الحملة الرئيسي متمثلاً بنهب سومنات، في تقليد مدروس، دون شك، لما فعله محمود الغزنوي. يبدو أن كارناديڤا، ملك الڤاغيلا، اعترض جيش المسلمين لمنعه من المرور لدى اقترابه من گوجرات، ولكنه هُزم ولاذ بالفرار إلى باغلانا الواقعة إلى الجهة الجنوبية ـ الشرقية (في منطقة ناسيك). تمت استباحة سومنات ونهروالا، كما قام نصرت خان بنهب كانبهايا، ربما في ذي الحجة / أيلول / سبتمبر 1299 م. ثمة منقوش جايني، ينبئنا عن أن قوات السلطان احتلت شبه جزيرة كاتياواد، على الرغم من أن ساتيابورا (ساخور) نجت بأعجوبة. وبعد ذلك، انسحب جنرالا علاء الدين إلى دلهي مثقلين بكميات هائلة من الغنائم، دون أن يعترض تقدمهما سوى حركة عصيان فاشلة، من جانب بعض القادة المغول من المسلمين الجدد[9].

(*) تُكتب هكذا (گوجرات) في المصادر.

(9) انظر عموماً س. سي. ميسرا، **صعود النفوذ الإسلامي في گوجرات**، طبعة ثانية (نيودلهي، 1982)، =

على العكس من الانطباع الحاصل أحياناً، لم تتمخض هذه الحملة عن أي فتح إسلامي، أو عن الإطاحة الحاسمة للفاغيلا. فرواية برني لقصة الحملة، تتضمن البيان المضلل الذي يقول إن كارناديڤا لاذ بديوغير، ملتمساً حماية رامادیڤا، ملك يادیڤا. والحقيقة، هي أن ذلك لم يحصل إلاَّ بعد بضع سنوات. ثمة كتابة منقوشة ثنائية اللغة تعود إلى سنة 704 هـ / 1304م تبين كارناديڤا راسخ الأقدام في فادودارا (بارودا)، على المساحات الشرقية من مملكته، وقد أحاط به، بالمناسبة، اثنان من الأمراء المغول المسلمين الجدد اللذين كانا قد فرا من جيش دلهي[10]. أضف إلى ذلك، أن عصامي يصف غزوة ثانية لأيبك، نفذها القِرابك أحمدي تشهيتام. يبدو أن هذه الحملة هي التي استباحت ساخور سنة 1310م؛ وأن فرار كارناديڤا إلى دكّان ومنها إلى تيلانغ، وقيام علاء الدين بتعيين الوالي المسلم الأول متمثلاً بشخص آلب خان، حصلا آنذاك[11].

= 61 ـ 64؛ لال، **تاريخ الخلجيين**، 67 ـ 73؛ HN، 334 ـ 336. يرد تاريخ الفرمان الذي يأمر العارض بالإعداد للحملة على أنه يوم الأربعاء الواقع في العشرين من جمادى الأولى 698 هـ، في بيت شعر، في KF، 47 (لال، **تاريخ الخلجيين**، 68، يخطىء إذ يعتبر هذا تاريخاً فعلياً للمغادرة): لأن العشرين كان في الواقع يوم اثنين (23 شباط / فبراير 1299)، هوديفالا (**دراسات**، ا، 248 ـ 249) افترض أن السنة المقصودة كانت 697 هـ. غير أن التاريخ الصحيح موجود حقاً في جدول زمني قبل بضعة أسطر: الثاني والعشرون من جمادى الأولى 698 / الخامس والعشرون من شباط / فبراير 1299 (KF، 46 ـ 47). أما شهر ذي الحجة الذي يورده وصّاف، 447، فربما يشير إلى موعد الهجوم على كانبهايا. وعن تاريخ استباحة سومانات (حزيران / يونيو 1299م)، انظر د. ب. ديسكالكار، «منقوشاً خاتياواڤ»، NIA 1 (1938 ـ 1939م)، 695. يجب أن تكون الحملة قد امتدت إلى سنة 1299 ـ 1300م، نظراً لما جاء في **تيرتا كاليا** لجيناباربها بعد حوالى ثلاثين سنة: ج. بوهلر، «رواية جاينيه لنهاية الفاغهيلا في گوجرات» IA 26 (1897م)، 194 ـ 195.

(10) TFS، 251. ز. أ. ديساي، «منقوش فارسي ـ سنسكريتي عن كارنا ديڤا فاغهيلا من گوجرات»، EIAPS (1975م)، 13 ـ 20؛ ARIE (1980 ـ 1981م)، 6 ـ 7، 123 ـ 124 (رقم: ب 98). انظر FS، 255 (تر. 425)، عن هرب الأميرين المغوليين إلى كارناديڤا.

(11) ميسرا، **النفوذ الإسلامي**، 64 ـ 66، رغم وضع تاريخ هذا الغزو الثاني في 704 هـ / 1304 ـ 1305 م. FS، 286 ـ 288 (تر. 461 ـ 463). عن استباحة ساتيابورا (ساخور) في 1310م، انظر بوهلر «رواية جانبية»؛ 195. عدم الترحيب بكارناديف في ديوغير يوحي بأن هربه كان قبل خضوع ملك اليادیڤا لدلهي في 706 هـ / 1307 م.

ومع ذلك، فإن السيطرة الإسلامية على آيبك بقيت مُرقَّعة، حتى بعد هذا الاجتياح الثاني: ربما تعرضت، في الحقيقة، للتقويض جراء عصيان وحدات الحامية الإقليمية الذي أعقب إعدام آلب خان. ففي آيبك، كما في الأماكن الأخرى، يلاحظ ابن بطوطة وجود «متمردين يقيمون في أماكن يتعذر الوصول إليها في الجبال»[12]. ويؤكد كاتب، من أوائل القرن السابع عشر، أن علاء الدين لم ينشر نور الإسلام إلاً في المناطق الواقعة إلى الشرق من خط ممتد من نهروالا إلى بهاروتش، وأن تاريخ استئصال الممارسات الوثنية في الأقاليم النائية (**أطراف وجوانب**) يعود إلى عهد السلاطين المستقلين بدءاً بالقرن الخامس عشر، فصاعداً[13]. قد لا يكون هذا منصفاً للحقبة التُغلُقية، غير أن القول، إن الأوضاع السياسية المحلية كانت شديدة التباين يبقى صحيحاً. إن الأدلة الكتابية والنقشية الدالة على الحكم الإسلامي حتى عهد محمد بن تُغلُق، متركزة في الشرق، في بتلاد وباتان وبهاروش وكانبهايا[14]. . ويتم العثور على ناوساري بوصفها إقطاعاً مع حلول سنة 725 هـ / 1325م[15]. أما في 745 هـ / 1344 ـ 1345م فإن نانادیڤا، كبير (**مقدَّمي**) سالهر (سالير) ومولهر (مالير) في باغلانا، يبدو وكأنه مستقل فعلاً[16]. إن جزءاً كبيراً من شبه جزيرة كاتياواد، كان خارج دائرة نفوذ ولاة السلطان.

---

(12) IB، 245 (تر. جيب، 672).

(13) سيكاندار «مانجهو»، **مرآتي سيكانداري**، 42 (تر. بايلي، 97).

(14) بيتلاد: ميسرا، **النفوذ الإسلامي**، 67؛ ARIE (1975 ـ 1976)، 145 (رقم د 114، 723 هـ / 1323 م؛ رقم د 115، 713 هـ / 1313م). باتان: ز. أ. ديساي، «منقوش من أوائل القرن الرابع عشر من گوجرات»، EIAPS (1970م)، 13 ـ 15 (715 هـ / 1315م). بهاروتش: م. نظام، «منقوشات من رناسة بومباي»، EIM (1933 ـ 1934م)، **ملحق**، 25 ـ 26 (721 هـ / 1321 ـ 1322م)، 27 (726 هـ / 1326م). كانبهايا: أ. م. حسين، «ستة منقوشات عن السلطان محمد بن تُغلُق شاه، EIAPS (1957 ـ 1958م)، 29 ـ 34 (725 هـ / 1325م)؛ ARIE (1973 ـ 1974م) (رقم: د 80، 734 هـ / 1334م).

(15) TMS، 98. ق. م. منير، «منقوشتان غير منشورتين من زمن السلطان محمد بن تُغلُق»، EIM (1939 ـ 1940)، 24 ـ 26.

(16) TFS، 512، داعياً إيّاه «مان ديو»؛ ولتحديد الهوية، انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 299.

فحاكم قندهار كان يدفع الجزية إلى دلهي، زمن زيارة ابن بطوطة، أوائل أربعينيات القرن الرابع عشر؛ غير أن حاكم غوغا (قوقا) الهندوسي، الذي كان، ذات يوم، معترفاً بالولاء لدلهي، ما لبث أن توقف عن الإقرار بمثل هذا الاعتراف، كما يقول ابن بطوطة[17]. استمر أعضاء، من عائلة فاغيلا الحاكمة في إدارة بداناداهيديسا، تحت سيادة دلهي، كما في حالة خضوع لسلاطين آيبك المستقلين، في أوقات لاحقة[18]. أما في فاماناتالي (وانتالي) التي كان أُلُغ خان قد عاقب أميرها (راناها) مامداليكّا وأدّبه في حملة سنة 1299م، فإن أسْرة هذا الأمير الحاكمة، التشوداساما، تمكنت من بسط سلطتها على جزء كبير من إقليم گوجرات (جوناغاره)[19]. وحين دخل محمد بن تُغْلُق گوجرات، في أثناء مطاردته للمتمرد تاغاي سنة 1349م، بادر إلى اعتقال «كانهغار»، راناغيرنار، وفرض جامعي خراجه وجزيته على المنطقة[20]. مستحيلٌ حقاً أن تكون إقامته، التي دامت ثلاث سنوات في گوجرات ـ وهي الزيارة الأولى لسلطان حاكم من دلهي ـ قد تمخضت عن أي تشديد لقبضة السيطرة على الإقليم.

راجستان ومالوا

بقيت رنثانبور هدف الكثير من الحملات القادمة من دلهي، في القرن الثالث عشر. ولكن أميرها، راجاها، هامّيراديڤا، الذي اعتبره عصامي صديقاً لعلاء الدين، ما لبث أن أوجد سبباً للحرب عن طريق توفير الملاذ لعدد من الأمراء المغول، الذين تمردوا خلال الحملة الأولى على آيبك[21]؛ وفي أعقاب

(17) IB، IV، 58، 59، 61 (تر. جيب. وبكينغهام، 799، 800، 801).

(18) راي **تاريخ الأُسَر الحاكمة**، 1046 هـ. 1.

(19) عن مامداليكا، انظر بوهلر، «رواية جانبية»، 194؛ عن منقوشات أضرحة الأسرة، ديسكالكار، «منقوشات كاتياواد»، 576 ـ 590، إلخ، (خصوصاً 578 ـ 579).

(20) TFS، 521، 523؛ للتعرف على «كانهغار»، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 302 ـ 303.

(21) TFS، FS283 .، 255، 271 ـ 273 (تر. 425، 446 ـ 447). TMS، 77.

الغزوة المغولية الكبرى التي شنها قُطْلُغ قوتشا سنة 1299 ـ 1300م، بادر السلطان إلى إرسال أُلُغ خان، مقطع بهايانا آنذاك، ونُصْرت خان، مُقْطَع قارا، مع جيش «هندوستان» لمهاجمة القلعة. نجح الرجلان في الاستيلاء على جهاين، غير أن نصرت خان، أصيب بجرح قاتل في أثناء محاصرتهما لرنثانبور. وبالتالي، فإن السلطان انطلق شخصياً ليضطلع بمهمة إدارة عمليات الحصار. وعلى ما يقوله أمير خسرو، الذي يؤرخ لبداية الحصار في رجب 700 هـ / آذار / مارس 1301م، فقد تم الاستيلاء على رنثانبور في الثالث من ذي القعدة / الحادي عشر من تموز / يوليو[22]. سقط هامّيراديڤا، وضيوفه المسلمون، في أرض المعركة. أما رنثانبور والنواحي التابعة لها، فقد وُهبت لألُغ خان الذي ما لبث أن توفي في غضون بضعة أشهر[23]. ومن مؤشرات متانة القبضة الإسلامية هنا، أن جهاين، التي أُعيدت تسميتها وصارت **شهري ناو** («المدينة الجديدة»)، في ظل خَلَفه، ملك عز الدين بوراخان، أمكن إخضاعها للنظام نفسه، الذي بات سائداً في قلب السلطنة، على صعيد جمع ضريبة الأرض (**الخراج**)[24].

وفي أثناء خروج أُلُغ خان ونُصْرت خان للزحف باتجاه گوجرات سنة 698 هـ / 1299م، كان ساماراسيمها، راجا (أمير) تشيتور قد حمى مملكته عن طريق دفع الجزية[25]. ويبدو أنه ما لبث أن خرج على الطاعة فيما بعد، لأن علاء الدين، شخصياً، زحف على تشيتور في جمادي الثانية 702 هـ / كانون الثاني / ديسمبر 1303 م. لا يورد برني سوى إشارة عابرة إلى هذه الحملة،

---

(22) KF، 51، 54؛ عن هذه التواريخ، انظر هوديڤالا، دراسات، ا، 249. عن حملة رانثانبور، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 83 ـ 86، 89، 93 ـ 96.

(23) DR، TFS. 66، 283؛ قارن أيضاً 299 عن موت أولوغ خان.

(24) المصدر نفسه، 288، 299، 306. عن إعادة تسمية جهاين، انظر KF، 54؛ ثمة إشارات إضافية في غوبتا «جهاين سلطنة دلهي».

(25) بوهلر، «رواية جانيه»، 194. تأتي الصياغة غامضة: انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 69.

واصفاً الحصار بقصر المدة. غير أن خسرو يقول، إن المكان استسلم في الحادي عشر من محرم 703 هـ / السادس والعشرين من آب / أغسطس، وإن الراجا سلّم نفسه إلى علاء الدين[26].

تمت إعادة تسمية تشيتور، وأصبحت خضر آباد تكريماً لخضرخان، نجل السلطان ووريثه الافتراضي، الذي صار واليها الاسمي[27]. غير أن عصامي يبين أن الإدارة أوكلت إلى مملوك علاء الدين: ملك شاهين[28]. أما القصة الموجودة في الملاحم السنسكريتية كما أوردها فرشتا أيضاً، تلك القصة التي تقول بأن القلعة احتُلّت بعد موت علاء الدين من قِبَل أحد إخوة راجاجالور، أوّلاً، ثم ما لبثت أن باتت بأيدي راجات سيسوديا، على امتداد قرنين، فلا تؤيدها النقوش الأثرية، التي تُظْهِر أن تشيتور كانت ما تزال خاضعة لحكم ولاة مبعوثين من دلهي، في عهدي السلطانين التُغْلُقيين الأولين[29].

حسب كلام أمير خسرو، ظلت قوات دلهي تحاصر سيوانا (سڤانا) مدة خمس إلى ست سنوات، حتى سقطت[30]. ومهما يكن، فإن القلعة سقطت في ربيع الأول 708 هـ / آبار أيلول / سبتمبر 1308م، والراجا «ساتال ديو» قُتل، بعد تولي علاء الدين لإدارة عملية الحصار. جرى منح سيوانا، التي أصبحت خير آباد لملك كمال الدين «غُرْغ» (الذئب)[31]، الذي يعتبره سرهندي صاحب

---

(26) KF، 60، 61 ـ 62، TFS63 .، FS299 .، 281 (تر . 456)، داعياً الراجا ساماراسيمها خطأ بدلاً من ابن وخليفة راتان سينغ. التاريخي يناقشه هوديفالا في **دراسات**، ا، 250؛ عن الحصار، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 99 ـ 102.

(27) KF، 63 ـ DR64 .، TMS67 .، 77.

(28) FS، 281، 282 (تر . 456، 457). وحسب TFS، 323، كان الوالي هو ملك أبو محمد غير المعروف في أي مكان آخر.

(29) ز . أ. ديساي، «منقوشات من متحف صالة ڤكتوريا، ودانيبور»، EIAPS (1955 ـ 1956م)، 67 ـ 70. قارن لال، **تاريخ الخلجيين**، 110 ـ 112؛ HN، 371.

(30) DR، 69.

(31) KF، 68 ـ 72. للاطلاع على رواية أخرى لقصة الحملة حيث يدعى الراجا «سيتال»، انظر FS، 315 ـ 317 (تر . 492 ـ 494). عن لقب كمال الدين، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 251.

فضل احتلال جالور والإطاحة براجاها، «كانهار ديو» (كانهادا ديفا، نجل وخليفة سامَنْتا سميها) أيضاً، في الوقت نفسه تقريباً. يكتفي برني بإيراد إشارة عابرة إلى إذابة المكانين، كليهما، في بوتقة ممتلكات السلطان، دون الإتيان على ذكر أية من الحملتين؛ غير أن الظاهر هو أن جالور سقطت سنة 1311م بيد الجيش نفسه، الذي كان قد استباح ساخور في السنة السابقة[32]. ويتضح من نقوش تعود إلى سنتي 1318م و1323م، أن جالور بقيت تحت الحكم الإسلامي حتى الحقبة التُغْلُقية[33].

في أثناء الحملة على رنثانبور سنة 700 هـ / 1301م، كانت قوات سلطان دلهي، قد استولت على «منطقة (ولاية) جهاين حتى حدود دهار»[34]. غير أن علاء الدين لم يصمم، حسب قول أمير خسرو، على «احتلال ممالك الرايات (الأمراء) الجنوبيين» إلاّ بعد أن سقطت تشيتور. ففي سنة 705 هـ / 1305م تقدم جيشه مندفعاً متوغلاً في مملكة بارامارا المالوية. في البدء، تمكنت قوات دلهي من هزيمة أمير يدعى «كوكابرادهان»، الذي يعتبره خسرو «وزيراً» أقوى حتى من الراجا نفسه، كان متخاصماً مع الملك، «ماهلاك ديو». وبعد ذلك تمّ إرسال عين الملك مُلْتاني لمحاربة ماندو، حيث حاصر الراجا شخصياً. تم احتلال المكان في الخامس من جمادى الأولى / الثالث والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر سنة 1305، وكوفئ عين الملك، الذي

---

(32) TMS، 78، مع وضع تاريخ سقوط سيوانا وجالور في 700 هـ، الذي ينبغي أن يكون مبكراً جداً ومتناقضاً مع شهادة أمير خسرو. TFS، 323. بهانداركار، «التشاهامانا في مارواز»، 77 ـ 78، عن تاريخ وهوية «كانهار»، أيضاً لال، **تاريخ الخلجيين**، 118 ـ 119.

(33) 1318 : ديساي، «منقوشة جالور عيدغاه»، مصححاً القراءة المبكرة لـ ج. هـ. يزداني، «منقوشات عن مبارك شاه خلجي من جالور، ولاية جودهبور»، EIM (1935 ـ 1936م)، 49 ـ 50. 1323 : م. أ. جغتاي، «بعض المنقوشات من لاية جودهبور، راجبوتانا»، EIM (1949 ـ 1950م)، 32. شوكوهي، **راجاستان**، ا، 45 ـ 47.

(34) TFS، 277.

كان السلطان قد منحه مالوا من قبل، بمنحة ماندو الإضافية[35]. لا يقول برني شيئاً عن فتح مالوا، غير أنه يؤكد أن ماندالخور ودهار وأوجّاين وماندوغاره (ماندو) وعلائي بور وتشاندري وإيراتش، كانت جميعاً مخصصة لـ **(لولاة)** والمُقْطَعين، خلال فترة حكم علاء الدين[36]. أما التاريخ المحدّد بدقة، الذي جرى فيه احتلال معظم هذه الأماكن، فيبقى مجهولاً. إيراتش، التي صارت سلطانبور كانت بيد المسلمين مع حلول سنة 709 هـ / 1309م، حين توقف ملك كافور هناك مدة خمسة أيام في الطريق إلى آرانغال[37]. أما تساندري، فتظهر للمرة الأولى كإقطاع في 711 هـ / 1312م. ثمة نقش أثري يعود إلى سنة 1310م في أوديابورا (منطقة فيديشا الحالية) يكشف النقاب عن أن أسرة بارامارا الحاكمة نَجَتْ، واستمرت هنا، في الجزء الشرقي من البلاد؛ غير أن الكتابة المنقوشة في 739 هـ / 1338م على جامع جديد، كانت شهادة تؤكد سيادة محمد بن تُغْلُق[38].

حسب أقوى الاحتمالات، تم إخضاع قوم التشانديلا الجيجاكابهوكتي (البوندلخاندي) في إحدى المنعطفات، خلال الحملات التي شنت على مالوا، لأن نقشاً أثرياً يعود إلى 1309م في قرية قريبة من بامهني، يقر بسيادة علاء الدين حيث كانت تسمية أحد إقطاعات هاميرافارمان، قد تمت قبل خمس سنوات

---

(35) DR، 67 ـ 68. هوديفالا، دراسات، ا، 249 ـ 250. عن الهبات الممنوحة إلى عين الملك، انظر KF، 56، 59، مع إعطاء تاريخ سقوط ماندو (خطأ في TMS، 77، على أنه 700 هـ)؛ DR، 69.

(36) TFS، 323؛ عن تشانديري، انظر أيضاً المصدر نفسه، 328. علاء بور يجب أن تكون علابور، بالقرب من غواليور: IB، IV، 31 (تر. جيب وبكينغهام، 786).

(37) KF، 75. عن إيراتش / سلطانبور، على الضفة الجنوبية للبيتوا عند نقطة 25 درجة / 47 دقيقة شمالاً، 79 درجة / 9 دقائق شرقاً، انظر هوديفالا، **دراسات**، ا، 252 ـ 253، وDGUP، XXIV **جهانسي**، 254 ـ 256.

(38) ARIE (1961 ـ 1962)، 169 (رقم: سي 1637)؛ أيضاً راي، **تاريخ الأسر الحاكمة**، 905 ـ 906، 908. عن الجامع، انظر ARIE (1964 ـ 1965م)، 23، 145 (رقم د 77 ـ 78).

فقط، وعلى أية حال، فإن الكتابة المنقوشة العائدة إلى سنة 1315م، لا تضفي على الملك المغمور فيرافارمان الثاني، سوى ظلال الألقاب التي حملها أسلافه[39]. قد يكون احتلال ماهوبا إحدى النتائج التي ترتبت على ذلك، على الرغم من عدم امتلاكنا لما يشير إلى أي احتلال إسلامي، قبل بناء مسجد هناك في سنة 722 هـ / 1322م، خلال حكم غياث الدين تُغلُق[40]. وفي مناطق أعمق، جنوباً، يبدو أن البراتيهارا أُخضِعوا أخيراً، إما من قبل تُغلُق أو خَلَفه، كما نفهم من النقوش العائدة إلى 1325 ـ 1342م التي تم العثور عليها في منطقتي داموه وجابالبور[41]. وخلف هذه البقعة، كانت تقع غونديانا (غوندوانا) التي توغل فيها محمد بن تُغلُق سنة 1326م في طريق عودته من الدكّان: أما «رئيس الكولي»، ناغ ناياك، فقد استسلم بعد حصار، دام طويلاً، لموقعه الحصين، غير أننا لا نعلم إلى متى بقي مُذْعِناً، فضلاً عن أن تاريخ مقاطعته الفسيحة، يلفه الغموض[42].

الدواب (ما بين النهرين) وأوَذ وما بعدهما

يبدو، أيضاً، أن علاء الدين قد أحكم قبضته على المناطق الواقعة إلى الشرق من دلهي، رغم أن معلوماتنا، مشوهة وناقصة، على صعيدي التفاصيل والتسلسل الزمني كليهما. باتت جاجماو، في الدواب الجنوبي، تحت الاحتلال الإسلامي مع حلول سنة 706 هـ / 1307م[43]. كان ظهور رابري،

---

(39) پ. براساد (محرراً)، **منقوشات سنسكريتية**، xviii - xix، و156 ـ 158. ر. ك. ديكشيت، **الكانديلا**، 177 ـ 178، مقتبساً عن راي بَهادُر هيرالال، «ألواح ماهوبا عن بارامادري ـ ديڤا: (ڤيكراما) ـ سامڤات 1230»، EI 16 (1921 ـ 1922م)، 9 ـ 15.

(40) ز. أ. ديساي «منقوشتان عن غياث الدين تُغلُق من أوتاربرادش»، EIAPS (1966م)، 23 ـ 26.

(41) فيرما، «منقوشات من المتحف المركزي، ناغبور»، ARIE (1962 ـ 1963م)، 96 (رقم ب 430). ARIE (1967 ـ 1968م). 6، 27 (رقم: ب 108). ARIE 1969 ـ 1970م)، 84 (رقم: د 66).

(42) FS، 432 ـ 433 (تر. 659 ـ 661): في أعقاب إخماد عصيان غارشاسب.

(43) و. هـ. صدّيقي وز. أ. ديساي «منقوشات خلجية وتُغلُقية من أوتار برادش» EIAPS (1964م)، 3 ـ 4.

على اليمونه، كإقطاع مع حلول سنة 709 هـ / 1309 م؛ ثمة نقش يتحدث عن زمن علاء الدين في ماتورا؛ يعود تاريخه إلى ما بُعَيْد الغزو الأول لآيبك؛ وجاء بروز غواليور مع نهاية العهد، بوصفها مكاناً لحبس سجناء الدولة المهمين ـ وهذا كله يلقي ضوءاً باهتاً على النمو المطرد لسلطة الدولة في المناطق، شهدت فيها قبضة الحكومة في القرن الثالث عشر، قَدْراً من الضعف والهزال[44]. ومما ينطوي على قدر أكبر من الإدهاش، أن برني يزعم أن كاتيهر كانت، في ظل علاء الدين، قد أُخضعت، مثل الأقاليم الأقل تمرداً في عمق أراضي السلطنة، لنظام ضريبة الأرض (الخراج) على أساس القياس، وأن قاعدة متقدمة، مثل كابار، أمكن دمجها بأراضي التاج (الخالصة)[45].

لعل السمة التي تميز الفترة التُغْلُقية المبكرة، بصورة خاصة، هي كثافة الاستيطان الإسلامي في إقليم أوَدْ الخصيب. ثمة إقطاعات ظهرت هنا ـ مثل دالماو، بانغارماو، لكناو وسانديلا ـ لم تكن، بمقدار ما نعلم، موجودة في الحقبة الخَلْجية[46]. ومن بداية عهد غياث الدين تُغْلُق، كانت عمليات إنشاء النقاط المحصنة، هي الأخرى قد بدأت. فقلعة ظفر آباد (جاوبور كما سميت لاحقاً)، مثلاً، التي مُنحت إقطاعاً لابن السلطان المتبنّى الثاني تتارخان، كانت قد أُنجزت في ربيع الأول 721 هـ / نيسان /

---

(44) رابري: TFS، 358؛ وانظر يزداني، «منقوشات سلاطين عن دلهي الخلجيين، 30، هوديفالا، **دراسات**، I، 281. ماتورا: خان بهادور ظفر حسن، «منقوشة عن علاء الدين خلجي اكتُشفت حديثاً في موترا»، EIM (1937 ـ 1938)، 59 ـ 61. غواليور: TFS، 368؛ TMS، 72 (زاعماً أن أحمدي تشاب وآلوغو كانا قد احتجزا هناك في بداية عهد علاء الدين، على الرغم من تعارض هذا مع TFS، ومن شأنه أن يكون خطأ)؛ IB، III، 188، 333 (تر. جيب، 642، 717).

(45) TFS، 288؛ عن كابار، انظر المصدر نفسه، 323 ـ 324.

(46) IB، III، 342، 349 (تر. جيب، 721، 724). TMS، 93. ثمة جيوش من إقطاع بانغارما وشاركت في حمْلة تيلانغ لسنة 721 هـ / 1321 م: TFS[1]، مخطوطة «بودليان»، ملف 183 أ / مخطوطات ديغبي، ملف 154 ب.

أبريل 1321م، من قبل ملك مال، الذي ترك لنا أيضاً نقشاً مؤرخاً في محرم من تلك السنة / كانون الثاني / ديسمبر 1321م في مقاطعة الله آباد[47]. ربما جاءت طَفْرة النشاط هذه، مصممة، لتشكل تمهيداً لتدخل السلطان في شؤون سلطنة البنغال المستقلة سنة 724 هـ / 1324م، حين أعاد تنصيب أحد نجلي شمس الدين فيروز، ناصر الدين، في لاخناو تابعاً له، واستبدل الثاني، غياث الدين بهادور «بورا»، في سونارغاؤون، بضباطه هو[48]. كانت هذه المرة الأولى، التي يتم فيها الاعتراف بسلطة عاهل دلهي في البنغال منذ وفاة بلبان.

يقال إن نيبال اعترفت بسيادة علاء الدين خَلْجي عليها[49]، وإذ يزعم كاتب القرن السادس عشر، المُلاّتقي، أن علاء الدين فرض الجزية على راجا تيرهوت. يبدو هذا مؤيداً، في الصياغة المنقحة الأبكر لتاريخ برني، التي تقول، إن تيرهوت كانت تقدم الجنود في 702 هـ / 1302 ـ 1303م لدعم تلك الحملة غير الموفقة، التي شنها السلطان على تيلانغ[50]. غير أن الراجا يجب أن يكون قد أصر على استقلاله بعد موت علاء الدين، لأن تيرهوت ما لبثت أن تعرضت للإغارة خلال عهد قطب الدين من قبل ملك كافور، حامل الأختام (المهردار) (تمييزاً له عن ملك نائب الراحل)، الذي حصّل الجزية منه عنوة.

---

(47) ديساي، «منقوشتان عن غياث الدين تُغلُق من أوتار براوسن»، 19 ـ 23. ج. هـ. يزداني، «منقوشة عن غياث الدين تُغلُق من آسراوا خورد قرب الله آباد»، EIM (1937 ـ 1938م)، 6 ـ 7. عن منح ظفر آباد. انظر TFS، 428، 451.

(48) عن هذه الحملة، انظر حسين، **الأسرة الحاكمة التُغلُقية**، 74 ـ TFS76 .12ه، مخطوطة بودليان، ملف 184 ب ـ 185 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 155 ب ـ 156 أ، تقدم رواية أوفى من المصادر الأخرى بعض الشيء.

(49) لوتشيانو بيتك، **نيبال العصر الوسيط** (حوالى 750 ـ 1480م)، سلسلة روما للدراسات الشرقية، X (روما، 1958م)، 103 ـ 104.

(50) حسن نشأت أنصاري، «تاريخ بيهار السياسي في ظل الخلجيين (1290 ـ 1320م / 690 ـ 720 هـ)» JBRS 54 (1968م) 260 ـ TFS263 ـ 1، مخطوطات ديغبي، ملف 113 أ.

وبعد سنوات قليلة فقط، قاد غياث الدين تُغْلُق، في طريق عودته من حملته البنغالية سنة 724 هـ / 1324م، هجوماً على تيرهوت، أورد عنه شاهد عيان يدعى احتساني دبير، الرواية الأوفى والأكمل. هرب المهراجا هاريسيمهاديڤا إلى نيبال، وسقطت عاصمته بأيدي قوات دلهي. يخبرنا عصامي، بأن أحمد بن طُلابُغا، استُبقي هناك حين عاد السلطان إلى دلهي[51]. وقد اعتبر برني، تيرهوت، منطقة خاضعة لمحمد بن تُغْلُق بعد بضع سنوات، حيث صُكّت قطع نقدية باسمه في «تُغْلُق بور، تيرهوت حسب (**العرف**)»، منذ سنة 731 هـ / 1330 ـ 1331م على الأقل[52].

فيما وراء النارْبادا

الدكان وتيلانغ (تلينغانا) وكامبيلا

في أثناء اجتياح علاء الدين لديوغير سنة 695 هـ / 1296م، كان رامادیڤا، ملك ياديڤا، قد التزم بدفع الجزية بصورة منتظمة. غير أنه ما لبث ـ ربما رداً على حملة قوات دلهي غير الناجحة ضد تيلانغ سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م ـ أن أهمل التزامه، فبادر علاء الدين في 706 هـ / 1306 ـ 1307م إلى تسييد قائده المفضل: ملك نائب كافور «هزارديناري»، ضد ديوغير. وفي التاسع عشر من رمضان / الخامس والعشرين من آذار / مارس 1307م، تمّ إلحاق الهزيمة بجيش رامادیڤا، وإلقاء القبض عليه. قام علاء الدين باحتجازه في دلهي لحوالى ستة أشهر، معاملاً إيّاه بلطف، قبل أن يعيده إلى عاصمته حاكماً تابعاً، بلقب «**راي الرايات**» (**رايي رايان**) مع مظلة (تشاتر). يلاحظ برني أن رامادیڤا بقي

---

(51) اختسان، بساتين، ملف 10 أ ـ 11 ب (تر. عسكري، «القيمة التاريخية»، 11 ـ 12). FS، 365، 416 ـ 418 (تر. 564، 628 ـ 630): يشير المحقق، أوشا، إلى أن بعض الأسطر محذوفة من قصة حملة تُغلُق هنا، عن هرب هاريسيمها، انظر بيتك، **نيبال العصر الوسيط**، 111 ـ 113.

(52) TFS، CMSD467 .، 117 (رقم: 478)، 140 (رقم: 579 ـ 581).

خاضعاً بقية حياته[53]؛ وحين وصل كافور سنة 710 هـ / 1310 ـ 1311م، إلى ديوغير، وهو في الطريق للهجوم على المعبر، فإن رامادیڤا لم يقف عند حدود إبداء الحرص الشديد على تقديم المؤن والتعزيزات، بل وأمر أحد راياته المرؤوسين، بإرشاد جيش دلهي الزاحف على دفاراساموردا[54]. كانت الطريق إلى تيلانغ، عبر ديوغير، أكثر أمناً منها عبر سيربور التي اعتمدها كافور سنة 709 هـ / 1309م، مما دفع عصامي ـ وهو من أهالي الدكّان ـ إلى الاعتراف بأن امتلاك قاعدة متقدمة، هنا، كان جوهرياً بالنسبة إلى الحملات في الأماكن الأخرى في الجنوب[55]. ولبعض الوقت، ظل انصياع رامادیڤا يوفر لجيوش دلهي مثل هذه القاعدة بالتحديد؛ أما بعد موته، حين أمسكت عناصر معادية بدفة السيطرة على مملكة يادیڤا، فقد أصبح ضم ديوغير ضرورياً بالنسبة إلى علاء الدين وقطب الدين مبارك شاه.

فبعد موت رامادیڤا، أواخر عهد علاء الدين، بادر نجله سينغانادیڤا إلى قيادة نوع من رد الفعل، تعيَّن إخماده بحملة أخرى جديدة، قادها كافور الذي، ما أن أصبح قريباً، حتى فر زعيم المتمردين إلى المرتفعات. كان كافور، الذي عُين والياً، وبادر أصولاً إلى مطالبة الكتبة (**أهل القلم**) بدفاتر الحسابات (**الجرائد**)، مكلفاً بجباية الضرائب (المال) من الزراع وببناء المساجد[56]. ومنذ

---

(53) TFS، 326. ثمة رواية أوفى في KF، 64 ـ 68، وحول التاريخ انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 250.

(54) KF، 122 ـ 124، 126. لم يكن رامادیڤا ميتاً في هذا التاريخ، كما يُزْعَم في TFS، 333: فنكاتارامانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 50 ـ 51 هـ. 88؛ لال، **تاريخ الخلجيين**، 245 ـ 246؛ فيما بعد (المصدر نفسه، 255) يضع لال تاريخ موته في 1312، 1313 م. رغم TFS، 328 ـ 329، لم يزحف كافور على تيلانغ سنة 1309، عبر ديغور بل عن طريق باسيراغاره وساريار (أي سيربور): KF، 80؛ هوديڤالا، **دراسات**، ا، 254 ـ 255؛ أيضاً جوشي وحسين، «الخلجيون والتغالقة في الدكن»، 45 (رغم القول بأن رامادیڤا وضع قوات تحت تصرفه).

(55) FS، 360 (تر. 558). ب. م. جوش، «جغرافيا تاريخية لديكان العصر الوسيط»، في شيرواني وجوش (محررين) **تاريخ الدكان الوسيط**، ا، 12.

(56) FS، 333 ـ 336 (تر. 513 ـ 516)، هو المصدر الوحيد بالنسبة إلى هذا الحدث؛ انظر لال،=

سنة 714 هـ / 1314 ـ 1315م بدأت القطع النقدية تُصك باسم علاء الدين في دار الضرب الديوغيرية[57]. وبالتالي، فإن من الواضح أن جملة هذه العمليات التي أقدم عليها كافور، كانت تمثل المحاولة الأولى لضم مملكة ياديڤا، وهو تطور نُسب أحياناً إلى عهد قطب الدين مبارك شاه. إلاّ أن الروابط بين ديوغير والعاصمة، ما لبثت أن أصيبت بالوَهَن والاختلال، مع مرض علاء الدين الأخير وموته. قام السلطان باستدعاء كافور، الذي بادر لاحقاً، كما يقال، إلى الإيعاز لوكيله، عين الملك، بجلب أهالي ديوغير المسلمين، إلى دلهي[58].

أدى زحف قطب الدين جنوباً سنة 717 هـ / 1317م، حسب رواية أمير خسرو، إلى تحقيق خضوع «جميع الرايات» باستثناء «راغو»، نائب رامادیڤا الراحل ووزيره، الذي حشد جيشاً، غير أنه ما لبث أن تعرض للهزيمة على يد قائد السلطان المفضل خسروخان، فلاذ بالفرار. وعلى طريق العودة للالتحاق بالسلطان، نجح خسروخان، أيضاً، في هزيمة وإعدام «هاربال ديو»، صِهْر رامادیڤا وأحد أفراد عائلة تشالوكيا الحاكمة البائدة، التي سبق لها أن حكمت كالياني، الذي كان قد ائتُمن على السلطة في المنطقة، غير أنه كان قد قاد حركة تمردية[59]. ثمة مصادر أخرى لا تأتي على ذكر «راغو»، وتتحدث كما لو كان «هاربال ديو» الخصم الرئيسي. توحي رواية عصامي بوجود دوافع إضافية للحملة، إذ يقول إن قطب الدين كان قادراً على وضع اليد على الكنوز المراكمة في المنطقة، من قبل ملك كافور، وتصوير هاربال حليفاً سابقاً للنائب

= تاريخ الخلجيين، 255 ـ 257. تم إنجاز بناء أحد الجوامع في نالتوار في إقليم بيجابور، سنة 715 هـ / 1316 م: ج. هـ. يزداني، «منقوشة عن علاء الدين خلجي من راكاساغي في إقليم بيجابور»، EIM (1927 ـ 1928م)، 16 ـ 17.

(57) CMSD، 89 (رقم 305 سي)، 91 (رقم: 321 ـ 322).

(58) TFS، FS368 ،. 336 (تر. 516)، يربط استدعاء كافور باحتفالات زواج ابن السلطان شادي خان؛ انظر المصدر نفسه، 347 ـ 348 (تر. 528 ـ 529) عن عين الملك.

(59) NS، 62 ـ 73، 195 ـ 202، انظر المصدر نفسه، 196 ـ 197، عن المهمة الأولى إلى هاربال. جوشي وحسين، «الخلجيون والتغالقة»، TFS 50[1]، مخطوطة بودليان، ملف 167 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 143 أ، يحدد تاريخ هذه الحملة بسنة 718 هـ / 1318 ـ 1319 م.

الراحل[60]. مرة أخرى، أصبحت ديوغير، التي حملت اسم قطب آباد على شرف السلطان مؤقتاً، داراً للضرب، وزُودت بإدارة تألفت من وزير وفريق من موظفي الضرائب والجباية؛ وتم تقسيم الإقليم وتوزيعه على عدد من المُقْطَعين[61]. وبعد عدد من السنين، سنة 1333 ـ 1334م، قام شخص يدعى ميلوغيديڤا، أحد أبناء سينغاناديڤا، ببناء معبد في منطقة دهول، واعتبر محمداً بن تُغْلُق سيده: وإذا كان هذا حفيد راماديڤا فعلاً، فإن الياداڤا كانوا قد جرجروا أنفسهم كتابعين للسلطان مدة طويلة[62].

في أثناء حملته الدكّانية الأخيرة، كان ملك نائب كافور، قد اجتاح مملكة كامبيلا، التي كانت قد تأسست في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ومستفيدين من انهيار الياديڤا في العقد الثاني من القرن الرابع عشر، كان حكامها قد وسَّعوا دائرة نفوذهم، لتشمل الأقاليم الحديثة المعروفة بأسماء بيللاري وتشيتالدروغ ورايتشور ودهارواد وجعلوا كومتا وهاسدروغ (أنغوندي) مركزين رئيسيين لهم[63]. قام كافور بنهب أبعد أجزاء المنطقة، وتقدَّم حتى وصل إلى كومتا[64]. ربما تعرضت هذه المنطقة نفسها لهجوم سلطان المستقبل محمد بن تُغْلُق، في أعقاب حملته التيلانغية الثانية، لأن عصامي، يشير مواربة، إلى إخضاع غوتي (مع أجزاء من إقليمي آنانتابور وبيللاري) وكونتي (كومتا؟)[65]. إلاَّ أن فتح المملكة تم إرجاؤه حتى حوالي 1327م، حين رفض الراجا تسليم المتمرد بهاء الدين غارشاسب إلى قوات محمد بن تُغْلُق، التي اجتاحت كومتا

---

(60) FS، 360 ـ 361 (تر. 558 ـ 559). TFS، 389 ـ 390، يكتفي، بالمثل، بذكر «هاريا».

(61) المصدر نفسه 390. عن قطع نقدية باسم قطب الدين من «قطب آباد» انظر CMSD، 98 (رقم: 374 آ). انظر أيضاً HN، 434 ـ 435؛ جوشي وحسين «الخلجيون والتغالقة»، 51.

(62) ARIE (1962 ـ 1963م) 24 ـ 25، 132 (رقم: ب 744).

(63) انظر م. هـ. راماشارما، «مملكة كامبيلا»، **مجلة مصادر بومباي التاريخية عن تاريخ فيجاياناغارا** (مدراس، 1946، 3 أجزاء)، I، 9 ـ 21؛ فنكاتارامانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 74 ـ 75.

(64) FS، 335 ـ 336 (تر. 515 ـ 516).

(65) المصدر نفسه، 131. فنكاتارامانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 120 ـ 121. عند بلد غوتي، عند نقطة 15 درجة / 7 دقائق شمالاً، 77 درجة / 39 دقيقة شرقاً، انظر IG، XII، 327 ـ 329.

في إغارة عاصفة. ثم ما لبثت هوسدروغ، التي فر إليها غارشاسب ومضيفُه، أن احتُلت هي الأخرى؛ تمكن غارشاسب من الهرب إلى دفاراسامودرا، ولكن راجا كامبيلا قُتل في المعركة(66). باتت كامبيلا خاضعة لسيادة السلطان، ويوردها برني في قائمة الأقاليم التي يحكمها محمد(67)؛ على الرغم من أنها ما لبثت، في غضون بضع سنوات، أن أصبحت جزءاً من مملكة فيجاياناغارا (1336م تقريباً).

أما عن مد نفوذ السلطان إلى سواحل ماهاراشترا، فليس ثمة إلا القليل من الدلائل. يحدثنا رحالة أوروبي ويقول، إن تانا كانت قد ضُمّت عنوة إلى سلطنة دلهي مع حلول سنة 1321م تقريباً(68)، إلاَّ أن ابن بطوطة يلمّح إلى أن الحاكم الهندوسي للمرتفعات الممتدة بين دولت أباد والكونكان («كوكان تانا»، كما يقول هو) كان مستقلاً زمن عصيان هوشانغ(69). وحسب شهادة المؤلف نفسه، فإن حكام ساحل المَعْبر كانوا مستقلين، باستثناء أمير هِناور المسلم، الذي كان، آنذاك، تابعاً لسلطة فيجاياناغارا الصاعدة(70). إذا كان ادعاء ابن بطوطة القائل بأن حكام المالديف المسلمين كانوا يخافون سلطان دلهي، رغم المسافة الفاصلة بينهم وبين ممتلكاته، يستند إلى أساس صلب، فإنه من الواجب، **بالأحرى**، أن ينطبق الأمر، أكثر، على حكام المعبر الذين وقعت مناطقهم على أطراف إمبراطورية دلهي.

---

(66) FS، 427 ـ 430 (تر. 654 ـ 658). IB، III، 318 ـ 320 (تر. جيب، 710 ـ 711). TFS[1]، مخطوطة بورليان، ملف 192 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ.

(67) TFS، 467.

(68) أودوريك البوردينوني، «العلاقات»، vii، 5، في ڤان دن وينغايرت، **سينيكا فرانسيسكانا**، I، 423، وتر. في السرهنري يول، **كاثاي والطريق إلى هناك**، طبعة ثانية، هـ. كوردييه، HS، سلسلة ثانية، 33، 37، 38، 41 (لندن، 913 ـ 916، 4 أجزاء)، II، 114 ـ 115.

(69) IB، III، 335 ـ 336 (تر. جيب، 718).

(70) المصدر نفسه، IV، 67 ـ 68 (تر. جيب ويكينغهام، 803، 804): يطلق على (هاريهارا) ملك فيجاياناغارا اسم «هارياب».

إن المناطق الواسعة الممتدة جنوب وجنوب غرب ممتلكات الياديف، كانت قد بدأت تجتذب اهتمام علاء الدين وضباطه، منذ وقت مبكر، يعود إلى حوالي 701 هـ / 1301 ـ 1302م، حين كان شقيق السلطان، أُلُغ خان، قد وافته المنية وهو مشغول بحشد الجيوش في رنثانبور، تمهيداً للقيام بحملة على تيلانغ والمَعْبر[72]. ثمة شكوك تم التعبير عنها بشأن المصير النهائي لمن جرى سحبهم كمجندين إجباريين من أوَدْ وقارا، أولئك الذين قام علاء الدين سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م بسوقهم لمهاجمة تيلانغ؛ غير أن نقوشاً أثرية تكشف النقاب عن حصول اشتباك مع المسلمين، بالقرب من آبارابالي (في ولاية حيدر آباد الحالية) في وقت غير بعيد قبل 1304[73]. يكتفي برني بإخبارنا عن أن الجيوش غاصت في الأمطار الموسمية وباءت الحملة بالفشل[74]. وفيما بعد، في 709 هـ / 1309م، تم إرسال كافور إلى تيلانغ. قامت قوات دلهي بمحاصرة آرانغال (وارانغال)، عاصمة رودراديڤا الثاني («اللادّارديو» حسب تعبير المؤلفين المسلمين) ملك الكاكاتيا، واحتلت الأسوار الترابية الخارجية للقلعة، حين عرض رودراديڤا شروطاً. تُرك الملك وشأنه مقابل اتفاقية مكتوبة، تعهد فيها بتسديد الجزية السنوية[75]. وفي 711 هـ / 1311 ـ 1312م وجّه رودراديڤا عدداً من الفيلة إلى دلهي، دليل خضوع، تعبيراً عن الالتزام بالاتفاقية[76]. غير أنه ما

---

(71) المصدر نفسه IV، 158 (تر. جيب وبكينغهام، 843).

(72) TFS، 283.

(73) فنكاتاراماناتيا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 24 ـ 25.

(74) TFS، 300؛ أوفى قليلاً في TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113. ك. س. لال، «ملاحظة حول حملة علا الدين على وارانغال (1302 ـ 1303م)»، JUPHS، 16، ج. 1 (1943م)، 118 ـ 124، و**تاريخ الخلجيين**، 78 ـ 80، يتبع خطأً غير مقنع حين يقول إن هذه الحملة كانت موجهة ضد البنغال بدلاً من تيلانغ عن طريق البنغال وأوريسا، كما يزعم برني.

(75) TFS، 329 ـ 330؛ انظر 326 ـ 327 عن التاريخ. يشير وصّاف، بإيجاز، إلى هذه الحملة التي يقول إنها كانت بقيادة «ملك نابو»، ظفرخان و«ناناك» [ب ا ب ك في النص المطبوع] الهندي: لا يرد أي ذكر للقائدين الأخيرين في الروايات الأخرى عن الحملة.

(76) TFS، 334.

لبث، بعد وفاة علاء الدين، أن نسي، على ما يبدو، وعوده، لأن خسروخان كان في 718 هـ / 1318م، أواخر حملة قطب الدين الديوغيرية، قد أُوفد لأخذ الجزية عنوة من آرانغال. مرة أخرى أَذْعَن رودراديڤا، قبل أن تتمكن جيوش دلهي من تدمير السور الداخلي؛ ومرة أخرى، سلَّم كميات من الكنوز وأعداداً من الفيلة، والتزم بجملة من التعهدات، بشأن المستقبل، حاصلاً بالمقابل على مظلة (تشاتر)، وصولجان (دورباش) وثوب مرصع بالمجوهرات. كان خسروخان قد طلب، في البداية، تسليمه خمسة أقاليم هي بيدار (بيداركوت) وكايلاس وبودهان وآلور وكويير (كوهير)، ولكنه ما لبث آخر المطاف أن اقتنع ببيدار[77]. ومع ذلك، فإن الإطاحة بالخَلْجيين والأحداث التي قادت إلى اعتلاء غياث الدين تُغْلُق للعرش في 720 هـ / 1320م مكّنت رودراديڤا، على ما يبدو، من التنكر لسيادة دلهي للمرة الثالثة، ومن إعادة احتلال بيدار[78]. يبدو أن النظام الجديد كان قد اتخذ قراراً يقضي بإزاحته. ففي 721 هـ / 1321 ـ 1322 قام جيشه بقيادة نجل السلطان، أُلُغ خان (السلطان محمد مستقبلاً) بفرض الحصار على آرانغال. جرى التخلي عن هذه العمليات، جراء عصيان دبَّره بعض كبار الأمراء، غير أن الأمير ما لبث، لدى وصول تعزيزات ذات شأن من دلهي، أن عاد إلى تيلانغ، واستولى على بيدار، وبات يشكل تهديداً لبودهان، التي كان رايها قد استسلم وقبل الإسلام ديناً. ثم أعاد محاصرة آرانغال، رافضاً عرض رودراديڤا باستئناف دفع الجزية. سقطت آرانغال بعد حصار دام خمسة أشهر، وتم إرسال رودراديڤا إلى دلهي، غير أنه مات على الطريق. تمكن أُلُغ خان، الذي بقي في الجنوب بعض الوقت، من إخضاع تيلانغ، مبادراً إلى تعيين الولاة والمقطَعين وضباط الجزية، في الإقليم الجديد، فضلاً عن تسلم

---

(77) NS، 114 ـ 135، يقدم الرواية الأكثر تفصيلاً: انظر 128، 132 عن التعاقدات الإقليمية؛ (ثمة في النص المطبوع ب د ر ك و ب / ب س و د ن / ك و ب /. FS، 361، 363 (تر. 560 ـ 562). فنكاتارامانيا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 83 ـ 86، يناقش الشهادتين المتضاربتين في كل من NS وFS بشأن هذه الحملة.

(78) المصدر نفسه، 97 ـ 98.

خراج سنة واحدة. أما آرانغال بالذات، التي نجدها دار ضرب بعد بضع سنوات، فقد أعيدت تسميتها لتصبح سلطانبور[79].

لم تتوغل جيوش السلطان في المناطق الساحلية الشرقية، إلاّ نادراً. قام خسروخان بالإغارة على موتوبالّي («مُتفيلي» ابن بطوطة) في طريقه من تيلانغ إلى المعبر سنة 718 هـ / 1318م[80]؛ وغداة حملته التيلانغية الثانية، نجح أُلُغ خان في اجتياح جاجنَغَر، ملحقاً الهزيمة بجيش الملك، وكاسباً كمية لا يستهان بها من الغنائم[81]. قيل للعمري إنه كان قد فتح البلاد، وهو يضع جاجنَغَر في قائمة أقاليم السلطان[82]. غير أن نقشاً يعود إلى 724 هـ / 1324م، عُثر عليه في راجاهموندري، في دلتا غوداڤيري، وقريباً، دون شك، من حدود مملكة جاجنَغَر الجنوبية، قد يكون، حسب أقوى الاحتمالات، التذكار الوحيد الباقي عن «فتوحات» أُلُغ خان هنا[83]. كانت العلاقة علاقة جزية خالصة. وحين غزا السلطان فيروز شاه جاجنَغَر، بعد بضعة عقود، زعم الراي، فيرابهانوديڤا الثالث، من أسرة غانغا الشرقية الحاكمة أنه وأباه كانا، كلاهما، من خدم بلاط دلهي[84]. غير أن عفيفاً،

---

(79) TFS، 446 ـ TMS450 .، FS95 .، 392 ـ 396، 400 ـ 402 (تر. 597 ـ 603، 606 ـ 609؛ بعض الأسطر محذوفة في 608)، وحده يذكر بودهان. عن موت رودراديف، انظر عفيف 395؛ أيضاً هوديغالا، دراسات، ا، 337 ـ 338، ومنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 119 ـ 120 وهـ. 38. وعن قطع نقدية من «سلطانبور» (929 هـ / 1328 ـ 1329م وصاعداً)، انظر CMSD، 118 (رقم: 482)، 120 (رقم: (486)، 142 (رقم: 593 آ).

(80) TMS، 85. عن هذه المنطقة، انظر ماركو بولو، تر. مول وبليو، ا، 394 ـ 397 / تر. يول وكوردييه، اا، 359 361 و هـ. 1 في 362؛ بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 787 ـ 788. تقع موتوبالي عند نقطة 15/ 43 شمالاً، 80/ 20 شرقاً.

(81) FS، 402 ـ 403 (تر. 609 ـ 611). TFS، 450، محرف.

(82) MA، تحقيق سبايز، 5، 6 (تر. ألمانية 24، 26 / تحقيق فارق، 11، 14 (تر. صديقي وأحمد 29، 30).

(83) ج. هـ. يزداني، «منقوشة عن غياث الدين تُغلُق من راجا هومندري»، EIM (1923 ـ 1924)، 13 ـ 14.

(84) SFS، 67 (تر. روي، «حملة جاجناغار»، 72)؛ وانظر أيضاً عفيف، 171.

الذي كان أبوه مرافقاً للسلطان، يلاحظ أن البلاد لم يكن فيها مسلمون[85].

الجنوب الأقصى

كانت ثروة شواطئ الكورومَنْدل، المعروفة لدى المسلمين باسم المَعْبر، مضرباً للأمثال، وقد استحقت التعليق من جانب ماركوبولو بداية القرن[86]. وفي 710 هـ / 1310 ـ 1311م تقدم ملك نائب كافور باتجاه المعبر عن طريق دفاراسامودرا، التي كان ملك الهويسالافيها: باللالا الثالث، موشكاً على استغلال الحرب الأهلية الدائرة في المعبر: غير أنه، حين فوجئ، أذعن واضطلع بدور إرشاد قوات السلطان[87]. استمر هذا الاستعداد للخدمة باطراد، لأن كافوراً، لدى انسحابه شمالاً، غداة حملة المعبر، اصطحب معه إلى دلهي، فيراباللالا نجل باللالا الثالث، الذي قدَّم آيات الولاء لعلاء الدين، وكوفئ بثوب (خلعة) ومظلة (تشاتر) وثروة قبل إعادته مكرَّماً ومعززاً إلى دافاراسمودرا[88]. وبعد ذلك، لا نعرف إلاّ القليل عن نشاطات باللالا الثالث. وعلى الرغم من أنه قد أكد استقلاله، على ما يبدو، بعد سقوط العائلة الحاكمة الخَلْجية، فإنه لم يكن ميالاً لتحدي الجيوش الإسلامية. فحين لاذ به غارشاسب، ملتمساً حمايته، فاراً من كامبيلا سنة 1327م تقريباً، لم يحاول أن يحذو حذو راجا كامبيلا، بل سارع إلى تسليم الفار أصولاً إلى ممثلي محمد بن تُغْلُق[89].

---

(85) المصدر نفسه، 165؛ عن والد عفيف، 163.

(86) ماركو بولو، تر. مول دبليو، I، 381 ـ 386 / تر. يول وكورديه، II، 338 ـ 340.

(87) NF، 127؛ تاريخ رحيل كافور، المصدر نفسه، 116، FS، 293 ـ 295، 297 (تر. 468 ـ 470، 471).

(88) المصدر نفسه، 298 (تر. 473). فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 67 وهـ. 129.

(89) FS، 431 (تر. 658 ـ 659). IB، III، 321 (تر. جيب، 711)، لا يذكر بالالا بالاسم. ج. دانكان م. ديرت، **الهويسالا: أسرة ملكية هندية من العصر الوسيط** (أوكسفورد، 1957)، 162 ـ 164. فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 143 ـ 144.

أما كافور، الذي وصل إلى حدود المعبر في شوال 710 هـ / آذار / مارس 1311م، فقد كان، هنا، أقل نجاحاً منه في دفاراساموردا، رغم الذي وفرته الثورة الأهلية المتفاعلة داخل المملكة. فحسب شائعات وصلت إلى إيران، كان الملك قد اغتيل سنة 709 هـ / 1309 ـ 1310م، على يد ابنه سوندارابانديا، الذي اغتاظ، لاستبداله في الخلافة بأخ غير شرعي، يدعى فيراباندیا، مما جر إلى الصراع بين الأخوين[90]. ولدى اقتراب كافور، هرب فيرا بانديا من عاصمته في فيرادها فيلان («بيردهول» عند أمير خسرو)، وأقلع كافور عن البحث عنه، حين اتضح أن الملك لاذ بالأدغال. وكذلك كان سوندرا بانديا، هو الآخر، قد غادر مقر إقامته في ماثورا (مادورا) قبل وصول جيش السلطان. غير أن كافوراً ما لبث أن انسحب من البلاد في ذي الحجة 710 هـ / نيسان / أبريل 1311م[91]. كانت الأمطار الموسمية قد عرقلت تقدم قوات دلهي، كما أن تقارير وصلت إلى إيران تتحدث عن تجييش جيش جرار ضدها[92]. وفي أعقاب هجوم كافور، استأنف الأخوان صراعهما الذي كان جيران المعبر، بمن فيهم السلاطين، شديدي التوق للتدخل فيه. هُزم سوندارا بانديا ولاذ بقوات علاء الدين، طالباً الحماية (ربما في ديوغير)، التي كان قد تمكن بمساعدتها، مع حلول بداية سنة 1314م، من إعادة فرض نفسه في إقليم آركوت الجنوبي[93]. وفي حوالي 718 هـ / 1318م، بادر قطب الدين مبارك

---

(90) وصّاف، 530 ـ KF531 .، 127، يشير بإيجاز إلى قتل الأب والصراع. عن تاريخ وصول كافور، انظر المصدر نفسه، 143؛ بعد مغادرته دفاراساموردا (المصدر نفسه، 142) بخمسة أيام.

(91) المصدر نفسه، 148، 150، 152 ـ 153، عن هرب فيرياندیا؛ 154 ـ 155، عن الإقلاع عن البحث؛ 160 عن هرب سوندارا بانديا من مادورا؛ 166، عن انسحاب كافور. تعرّف فنكاتاسوبها آيار «بردهول» (أوياكوندان تيرومالاي، على مسافة بضعة أميال من أورايور) في «منقوشة سرير انغام عن كاكيتا براتابارودرا: ساكا 1939م، EI، 27 (1947 ـ 1948م)، 311؛ ديرّت، **الهويسالا**، 233. عن إخفاق الحملة، انظر فناكاتارا مانيا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 65 ـ 67.

(92) KF، 150 ـ 151. وصّاف، 528.

(93) المصدر نفسه، 351: وصّاف، المصدر الإسلامي الوحيد الذي يأتي على ذكر نداء بانديا الموجه =

شاه، الخارج لتوه من معركة قمع الوالي المسلم المتمرد في ديوغير، إلى سوق خسروشاه ضد المعبر؛ احتُلّت مدينة باتان واستبيحت، وفازت قوات دلهي بكميات هائلة من الغنائم[94].

أمّا التقدم الحقيقي لجيوش السلطان في هذه المنطقة، فيعود إلى عهد غياث الدين تُغْلُق. إن المصادر الإسلامية لا تقول شيئاً عن الفتح والاجتياح، على الرغم من أن سرهندي يؤكد أن أُلُغ خان كان موجهاً لاحتلال المعبر، جنباً إلى جنب مع تيلانغ في 721 هـ / 1321 م. غير أن احتلال المعبر، مع إلقاء القبض على ملك يدعى باراكراماديڤا حصل، حسب رواية أحد تواريخ باندیا، في سنة 1246 حسب تقويم ساكا (1323م)[95]؛ على الرغم من عدم احتمال تعرض المعبد في شريرانغام للتدمير حتى سنة 1327م[96]. يبد أن الملك سوندرا باندیا وآخرين من أفراد أسرته الحاكمة، كانوا لا يزالون يتمتعون بالاعتراف في أجزاء من المملكة في ثلاثينيات القرن الرابع عشر، بل وحتى بعد ذلك التاريخ، كما يبدو أن الممتلكات الواقعة في أقسى الجنوب والعائدة للباندیا، لم تُستوعب قط، لا في إقليم المعبر ولا في السلطنة المستقلة التي حلّت محله[97].

= إلى قوات علاء الدين، يعطي الانطباع الزائف بأن الأمر حصل في أثناء حملة كافور لعام 1311 م. فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 88 ـ 90 وهـ. 16.

(94) FS، 369 ـ 371 (تر. 569 ـ 572). انظر فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 93 ـ 94، عن هذه العمليات: كما يشير، FMS، 84 ـ 85، يقرن حملتين منفصلتين تماماً ضد كل من تيلانغ والمعبر إحداهما بالأخرى.

(95) TMS، 93. فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 122 ـ 125؛ انظر أيضاً المصدر نفسه، 70 و136، عن التاريخ. HN، 472.

(96) ج. و. سبنسر، «أزمة مرجعية في أحد المعابد الهندية تحت تأثير الإسلام: سيرانغام في القرن الرابع عشر». في باردول ل. سميث (محرراً)، الدين وإضفاء المشروعية على السلطة في جنوب آسيا. (لايدن، 1978م) 20 ـ 23 وهـ. 18.

(97) فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 156 هـ ARIE15. (1980 ـ 1981م) 5، 77 (رقم: ب 199). ك. ج. كريشنان، «أضواء جديدة على سلطنة مادوراي»، في PSMI، 156 ـ 157.

أهداف الحرب والإنجازات

كان الغرض الأوَّلي للحملات الموجهة نحو قلب شبه الجزيرة الهندية، متمثلاً بالحصول على الغنائم وضمان الجزية. ففي نصيحة يوجهها علاءُ الملك، عم علاء الدين، حسب رواية برني، إلى ابن أخيه، ثمة حَضٌّ للسلطان على عدم ترك أية فِيلَةٍ أو جياد أو ثروات بحوزة الرايات (الملوك) والرانات (الأمراء) مع الدأب على المطالبة بهذه الأشياء، سنة بعد سنة[98]. كان يجري تجريد الحكام الهندوس المسحوقين، بصورة منتظمة ومدروسة، من ثرواتهم وممتلكاتهم. فالجزية الهائلة التي فرضها خسروخان على رودراديڤا التيلانغي، بلغت، حتى بعد خفضها، ثمانية وأربعين **لاكاً** (4800000) من القطع الذهبية المسكوكة[99]. والمعابد، أيضاً، اضطرت للتخلي عن كميات كبيرة من الذهب، كما حصل لمعبد بيردهول أو المعبد الذهبي الموجود في مكان أطلق عليه أمير خسرو اسمي «بارمابوتري» و«مارهاتبوتري» كليهما، تركه كافور أنقاضاً وخرائب، خلال حملته المعبرية[100]، إن نهباً على هذا المستوى من الاتساع سرعان ما اكتسب طابعاً أسطورياً. فبرني يزعم أن بعضاً من الكنوز التي دفعها رامادیڤا سنة 695 هـ / 1296م كان ما يزال موجوداً في خزينة محمد بن تُغْلُق، في أيامه هو (برني)، في حين كانت الكمية المأخوذة من دفاراسامودرا والمعبر في 710 هـ / 1311م استثنائية حقاً، بلغت، بزعم الزاعمين، 96,000 **مانٌ** من الذهب والمجوهرات واللآلئ ـ غنيمة من الواضح أنها تركت انطباعاً عميقاً لدى أهالي دلهي الأكبر سناً[101].

---

(98) TFS، 270.

(99) NS، 128، 132.

(100) KF، 156 ـ 159، DR160 .، 72.

(101) TFS، 223، 333 ـ 334. هوديفالا، **دراسات**، II، 103 ـ 105، يناقش الكميات الكبيرة من الذهب التي تم تحصيلها في 1311. من غير المحتمل أن نتمكن من إسناد حساباتنا، كما فعل هو، إلى مان دلهي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، الذي يقدرها بحوالي 11025 إلى 12824 كيلوغراماً: انظر فالتر هنز، **المكاييل والموازين الإسلامية (بالألمانية)** (لايدن، 1955)، 22 ـ 23.

لم تبق دائرة أعمال النهب الضارية، التي أقدم عليها قادة مسلمون، محصورة بالأمراء الهندوس والمعابد الهندوسية. فخسروخان متّهم بالسطو على ممتلكات تاجر مسلم غني ومحترم، لم يجد ضرورة للهرب من جيش بقيادة إخوته في الدين، في أثناء حملة سنة 718 هـ / 1318 م. وهذا الشخص الذي يدعوه برني خواجا تقي والذي يظهر في رواية عصامي المفصلة أكثر، على أنه سراجي تقي، وقائم بالأعمال (فارمانّووا) في باتّان[102]، كان ينتمي إلى الأسرة الحاكمة التي كانت تسيطر على جزيرة قيس في الخليج الفارسي. وحسب ما يقوله وصّاف، فإن عمه تقي الدين عبد الرحمن (المتوفى سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م)، وزير ملك المعبر ومستشاره، كان مسؤولاً عن استيراد جياد الحرب من قيس والمناطق المجاورة[103]. ويخبرنا وصّاف أيضاً، بأن أملاك سراج الدين، نُهبت، خلال غزو كافور للمعبر سنة 715 هـ / 1315م (ربما حملته التي جاءت دعماً لسوندارا بانديا قبيل وفاة علاء الدين خَلْجي، غير أنها ما لبثت أن أُعيدت إليه حين تقدم بشكوى. وبما أن هناك من يقول بأن والد سراج الدين، كان متمتعاً بعلاقات ودية مع علاء الدين[104]، فإنه من المحتمل أن تكون تصرفات خسرو خان، بعد بضع سنوات، انعكاساً لحدوث تغيير في الخط السياسي؛ غير أن ما لا شك فيه، هو أن الفاتح (الغازي) لم يتحرك إلاّ بدافع الشَّرَه، إزاء ثروة سراج الدين.

تبرز الفيلة والخيول والنقود بوصفها غنائم من جهة، وجزية من جهة ثانية، وعلى حد سواء، في روايات المؤرخين. وثمة أرقام دقيقة للجياد التي تم الحصول عليها عبر هذه الحملات الجنوبية، ترد أحياناً في المصادر. فعلاء الدين كان قد حصل على بضعة آلاف في حملته الديوغيرية لسنة 695 هـ /

---

(102) TFS، 398 ـ FS399 .، 369 ـ 370 (تر. 570 ـ 571).

(103) وصّاف، 302 ـ 303، 505. عن الأسرة الحاكمة، انظر أوبان «أمراء هرمز»، 89 ـ 99.

(104) وصّاف، 646 ـ 647.

1296م[105]. وقام كافور بجلب عشرين ألف جواد من آرنغال سنة 709 هـ / 1310م، وخمسة آلاف فرس يمني من المعبر، بعد سنتين اثنتين[106]. بلغ ما سلّمه رودراديڤا إلى خسروخان، اثني عشر ألفاً من الجياد العربية (تازي)، مع تقديم الوعد بإرسال ألف كل سنة في المستقبل[107]. أمّا الأرقام الخاصة بالفيلة فتبدو، بالمقارنة، أميل إلى التواضع أحياناً: عشرون من گوجرات سنة 698 هـ / 1299 م؛ ثلاثون أو نحوه من رامادیڤا سنة 695 هـ / 1296م، إضافة إلى سبعة عشر أخرى في 706 هـ / 1307 م؛ أربعون من جاجنَغر سنة 1324م[108]. أمّا من رودراديڤا التيلانغي فقد ابْتَزَّ كافور سنة 709 هـ / 1309م مئة، في حين زوده الملك، في أثناء عبوره النارباداً خلال حملته المعبرية في 710 هـ / 1311م بثلاثة وعشرين فيلاً إضافياً، بادركافور إلى إرسالها إلى علاء الدين في دلهي[109]. وفي أثناء هجوم خسروخان، عرض رودراديڤا مئة فيل، واشترط المنتصر إرسال مئة سنوياً[110]. يبدو أن اقتناء أعداد كبيرة من الفيلة ذات النوعية الرفيعة، كان يعتبر هدفاً رئيسياً من أهداف اجتياح المعبر سنة 710 هـ / 1311 م. ذلك هو ما يقال في **دول راني** تأليف خسرو، وما يرد في رواية عصامي لقصة توجيهات السلطان لكافور. من المؤكد أن كافوراً بات يعطي الأولوية للإمساك بالفيلة، بل ويفضل ذلك، حتى على إلقاء القبض على فيراباندیا، ويصف خسرو غضبه الشديد، لعدم عثوره على أكثر من اثنين أو ثلاثة من هذه

---

(105) TFS، 223.

(106) KF، 101، TFS163 .، 330، ثمة سبعة آلاف جواد بين الغنائم المأخوذة من آرانغال في 709 هـ / 1310 م؛ المصدر نفسه، 333، عن عشرين ألفاً من المعبر في 710 هـ / 1311 م.

(107) NS، 12، 128، 132.

(108) گوجرات: TMS، ديوغير: TFS، 223، 326. جاجناغار: المصدر نفسه، 450؛ متّه TMS، 96.

(109) DR، 70؛ TFS، FS330 .، 291 (تر. 466)، يحدد ثلاثاً وعشرين في المناسبة الأولى، غير أن من الواضح أن هذه هي الفيلة التي تم إرسالها سنة 1311 م: KF، 120؛ فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 39 ـ 40 وهـ. TFS56 .، 334، يذكر وصولها إلى دلهي (وإن اعتبر عددها الإجمالي عشرين).

(110) NS، 120، 128، 132. انظر أيضاً FS، 362 (تر. 561)، عن التسليم الأولي لمئة فيل.

الحيوانات في مادورا[111]. ومع ذلك، فإن الحملات المعبرية تمخضت، رغم خيبات الأمل هذه، عن أعداد كبيرة بصورة غير عادية من الفيلة، أعداد أكبر مما تم الحصول عليها، عبر الحملات التي كانت في أماكن أبعد إلى الشمال. يقول أمير خسرو إن كافوراً جلب معه إلى دلهي خمس مئة واثني عشر فيلاً، على الرغم من أن من شأن هذا، أن يكون قد جعل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة إلى أولئك الذين جاؤوا بعده، نظراً لأن خسروخان لم يستطع في 718 هـ / 1318م أن يضع يده على أكثر من مئة[112].

باتت عمليةُ التحول من سياسة قائمة على النهب، وجباية الجزية، إلى أخرى مستندة إلى فرض الحُكم المباشر، كما حصل في الدكّان قبل بضع سنوات، ملحوظةً وظاهرة خلال الهجوم على آرانغال في 721 هـ / 1321م، حين رفض أُلُغ خان عرض رودراديڤا الإذعان، وأصر على متابعة تشديد الحصار[113]. غير أن المرء يحق له السؤال عن حقيقة ضم هذه الأقاليم النائية، بصورة فعلية، في أي من الأوقات. ثمة مسافات طويلة كانت تفصل دلهي عن أقاليمها الجديدة: فابن بطوطة كان يعتقد، بمبالغة يمكن تسويغها، أن تيلانغ كانت على مسافة ثلاثة أشهر من السفر عن العاصمة، والمعبر ستة[114]. وقد تمخضت مثل هذه المسافات عن أشكال مرعبة من التأخير في بث الأخبار. قام سلاطين القرن الرابع عشر بتوسيع نظام شبكة المحطّات البريدية الواصلة إلى الأقاليم النائية من إمبراطوريتهم[115]. غير أن النظام كان يتعرض، أحياناً، للانهيار؛ كانت الجيوش تبقى خلف أفق الاتصالات وتبدو غائصة في نوع من

(111) DR، FS70 .، 293 ـ 294 (تر. 468). KF، 155، 160.

(112) 1311 م: المصدر نفسه، 161: قد يكون الرقم الإجمالي 612 الذي كان 36 منه قد أُخذ من دافارا سامودرا، كما جاء في TFS، 333، خطأً؛ مثله مثل الرقم المدوّر 700 الوارد في FS، 298 (تر. 472).
1318 م: TFS، 398، 400.

(113) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 183 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي 155 أ. TFS، 447.

(114) Ib, III، 192، 208، 328 (تر. جيب، 644، 652، 715).

(115) مثل، TFS، 330 ـ 331.

البقاع المأهولة بالأشباح. ففي 721 هـ / 1321 ـ 1322م، تمرد قادة الجيش، خارج آرانغال، لأن تأخيراً دام بضعة أسابيع، أخفق فيها المراسلون أن يصلوا من دلهي، ما لبث أن أفرز شائعات تقول إن السلطان تُغْلُق قد تمت الإطاحة به[116]. هناك، أحياناً، طابع غير واقعي، بصورة مدهشة، يميز أسباب الوصل التي تربط مثل هذه المناطق النائية، بسيدها الإمبراطوري (السلطاني).

اعترفت منطقة الدكّان بسلطان دلهي منذ أقل من ثلاثين سنة؛ والفترة الزمنية بالنسبة إلى كل من تيلانغ الشرقية وكامبيلا والمَعْبر، هي أقصر حتى من ذلك. ومع ذلك، فإن الحكم العابر للسلاطين أورث الدكّان تركة واحدة، ذات أهمية رئيسية. ونظراً لانطواء هذه المنطقة على قيمة استراتيجية نسبة إلى ممالك جنوبية أخرى، فإن العواهل الخَلْجيين والتُغْلُقيين دأبوا على بذل جهود حثيثة، في سبيل تحقيق استيطان إسلامي للممتلكات اليادافية السابقة. وبالتالي، فإن هذه البقعة، وحدها، شهدت ـ ولما يمض أكثر من جيل واحد على فتحها، وهو أمر مدهش حقاً ـ غَرْساً كثيفاً وراسخاً للإسلام. أمّا الأقاليم الجنوبية الأخرى، فسرعان ما تخلت عن عقيدة السلاطين مع سيادتهم، وعادت إلى الكُفْر. غير أن تأثير الخضوع لدلهي، عدداً من السنين، كان سيبقى، مع ذلك، في ثقافة وألقاب بلاط فيجاياناغارا، حيث كان عواهل القرن الرابع عشر يطلقون على أنفسهم اسم «السلاطين بين ملوك الهندوس»[117].

من الشهادات المثيرة المؤكِّدة لسلطة الحكومة ونفوذها في الدكّان، أن مجيد الدين أبا رِجا، **مشرف** ديوغير، واجه، في أثناء عصيان تيلانغ سنة 721 هـ / 1321 ـ 1322م، المتمردين في موقع كالياني، على رأس عدد كبير من مُلاك الأراضي (**الزاميندار**) ـ ربما كانوا من النبلاء الهندوس أصحاب الأراضي[118].

(116) المصدر نفسه، 447 ـ 448.

(117) فيليب ب. فاغونر، «سلطان بين ملوك هندوس»: اللباس والألقاب وأسلحة الثقافة الهندوسية في فيجاياناغارا»، **مجلة الدراسات الآسيوية**، 25 (1996م)، 851 ـ 880.

(118) FS، 398 ـ 399 (تر. 604 ـ 605).

من الممكن أيضاً، رؤية جهود محمد بن تُغلُق الخاصة التي بذلها منذ سنة 727 هـ / 1326 ـ 1327م في سبيل قلب ديوغير، التي تمت إعادة تسميتها، وجعلها دولت أباد، إلى عاصمة ثانية لإمبراطوريته، على أحد المستويات، بوصفها الشهادة الأقوى والأبلغ على مدى قوة الحكم الإسلامي هنا. غير أن الحكم الإسلامي هذا بقي، حتى في الدكّان، حيث ترسخ بثبات، متفاوتاً، ولم يمتد إلاّ إلى عدد محدود من المواقع الحصينة قبل أن ينفصل الإقليم عن دلهي.

تبقى طريقة تعزيز الحكم الإسلامي وغرس الديانة الإسلامية، عمليتين مخفيتين عن أنظارنا، إلى حد كبير. ربما كان المقاتلون الصوفيون، الذين يرد وصف نشاطاتهم في سير الأولياء اللاحقة، قد اضطلعوا بدور بارز وهام. هناك رواية وصلتنا، وهي تتحدث عن قصة حياة أحد الأولياء المقاتلين هؤلاء؛ إنه خاندايات المعبري، في بيجابور غداة حملة كافور المعبرية في 710 هـ / 1311م، وقد كان البروفسور إيتون على حق، حين اعتبر الخطوط العريضة للقصة صحيحة، وأقر بأن خاندايات هذا كان واحداً من المسلمين، الذين سبق لهم أن كانوا في خدمة البانديا[119]. ويبدو أن المجاهد الصوفي عبد الله شاه تشانغال، كان حسب ما جاء في كتابة منقوشة على ضريحه، تعود إلى منتصف القرن الخامس عشر، قد دخل مالوا على رأس فرقة عسكرية تابعة له، ولعب دوراً شديد الشبه بدور سَلَفه في عملية هداية ذلك الإقليم إلى الإسلام؛ من الممكن أيضاً، أن تعزى نشاطاتُه، هو الآخر، إلى حقبة علاء الدين[120]. غير أن علينا التذكر أن الصوفيين لم يكونوا جميعاً يعتمدون أساليب القوة والعنف، لأن ابن بطوطة سمع أن كفار

(119) ريتشارد م. إيتون، **صوفيو بيجامور بين 1300 و1700م** (برنستون، ن. ج. 1978م) 27 ـ 30.

(120) ج. هـ. يزداني، «المنقوش على ضريح عبد الله شاه تشانغال في دهار»، EIM، (1909 ـ 1910)، 1 ـ 5؛ وانظر ARIE (1971 ـ 1972م)، 80 (رقم: د 71). بصورة أعم، انظر ديفيد ن. لورنزن «مقاتلون زُهّاد في تاريخ الهند الوسيط»، JAOS 98 (1978م)، 61 ـ 75.

سيلهت تم كسبهم إلى صف الإسلام، عبر الوساطة السلمية لشاه جلال[121].

نادراً ما نسمع عن مناطق محددة ممنوحة كإقطاعات خلال السنوات التي جاءت بعد الفتح مباشرة، على الرغم من أن ساغار، الواقعة إلى الجنوب من غولبارغا، كانت قد مُنحت قبل 1326م، إلى بهاء الدين غارشاسب، أحد أبناء عمومة محمد بن تُغْلُق[122]؛ كما لا يمكن حسم التراكم التدريجي للنفوذ الإسلامي في الدكّان، إلاّ بقدر محدود بالاستناد إلى النقوش الأثرية. ثمة نقوش تبين، مثلاً، أن جالنا، التي لا تبعد سوى أميال قليلة عن ديوغير، باتت خاضعة للاحتلال الإسلامي مع حلول سنة 724 هـ / 1324م، وأن بهادغاؤون (في خاندس الشرقية)، صارت صاحبة مسجد في 728 هـ / 1328م[123]؛ لما كانت بيجابور قد أصبحت مقر الوالي المسلم مع حلول سنة 1320م، حين جرى بناء مسجد في المدينة[124]. ولتكوين فكرة ما، عن عدد المراكز الخاضعة للحكم الإسلامي، يتعين علينا، فيما عدا ذلك، اعتماد رواية عصامي لقصة أحد الدكّان، في أربعينيات القرن الرابع عشر، حيث نطّلع، مثلاً، على حقيقة أن دانغيري وتشانتشيوال، في الزاوية الشمالية الغربية من مملكة يادافا لسابقة، كانتا قد أُخذتا من زعماء هندوس، من قبل جيوش براهمانية في حوالي سنة 1350م[125]. غير أن مواقعهما الحصينة، تميل بأكثريتها، كما يقال لنا، لأن تكون متركزة في جهتي الجنوب والجنوب ـ الغربي من الإقليم، في قوس بين ديوغير وكاكاتيا عاصمة آرانغال السابقة. وهنا تظهر غولبارغا وبيدار وكالياني وكوبير (كوهير) كسلسلة متماسكة من القلاع الممسوكة بالقبضة الإسلامية[126].

---

(121) IB ،IV، 216 ـ 217 (تر. جيب وبكينغهام، 870). إيتون، **صعود الإسلام**، 73 ـ 76.

(122) FS، 424 ـ 425 (تر. 651).

(123) جالنا: ARIE(1964 ـ 1965م)، 23، 153 (رقم: د 161). بهادغاؤون: منير، 23 ـ 24.

(124) م. **نظام منقوشات بيجابور**، MASI، 49 (دلهي، 1936م)، 25.

(125) FS، 560 (تر. 834).

(126) غولبارغا: المصدر نفسه، 485 (تر. 726). بيدار وكوبير: المصدر نفسه، 476 (تر. 715).

كانت بيدار ـ مثلها مثل بودهان إلى الشمال ـ قد أُخذت من رودراديڤا من قبل أُلغ خان حوالي سنة 1322م، وفي كالياني، نجد مساجد قيد البناء في عشرينيات القرن الرابع عشر[127]. ومن الجهة الأخرى، فإن قلاع مارام وآلكوت وماهانداري (مهاندري) المجاورة، كانت لا تزال تحت تصرف رايات الكفار، مطلع الحقبة الباهمانية[128]. وإلى جهة غاتس الغربية، كانت ساتارا وميراج، قد أصبحتا بأيدي المسلمين مع حلول أربعينيات القرن الرابع عشر[129]. أما إلى الشمال مباشرة من ميراج فإن بالغاؤون (بالغاوم الحالية) وهو كايري (هاكيري)، وهي إقطاع السلطان الباهماني المقبل، حسن غانغو، في ذلك الحين، توصفان، مرة بعد أخرى، من قبل عصامي، على أنهما أمارة حدودية (سرحد)[130]. وقريباً من هذه البقاع كانت تقع ماندهول (مودهول الحالية) وجامخاندي وتيردول وباغاركوت (باغالكوت الحالية)، الأقاليم العائدة للأمير الهندوسي المستقل نارايان، الذي سيثبت أنه خصم مرهوب الجانب بالنسبة إلى النظام الباهماني الوليد[131].

يقول برني إن زعماء (مقدّمي) تيلانغ تخلوا، في 709 هـ / 1309م، عن المواقع الحصينة التي استولى عليها جيش السلطان، على امتداد الطريق؛ أما ذكرُ ما إذا جرى وضع حاميات في مثل هذه المواقع، فلا يقال لنا[132]. غير أن قلاعاً معينة أبدت قَدْراً من المقاومة. فكافور اضطر للتوقف في سيربور، التي أخذها وسلمها لشقيق زعيمها[133]. أمّا كوتغير، التي كان

(127) 723 هـ / 1323 م: ARIE (1965 ـ 1966م)، 155 (رقم: 246)، مصححاً القراءة الأبكر لـ ج. يزداني «منقوشات من كالياني»، EIM (1935 ـ 1936م)7 1 ـ 3. 726 هـ / 1326 م: ARIE(1965 ـ 1966م) 14 ـ 15، 157 (رقم: د 271).

(128) FS، 562 (تر. 836). انظر هـ. ك. شيرواني، **بهمانيو الدكان** (حيدر آباد، AP، 1953)، 53.

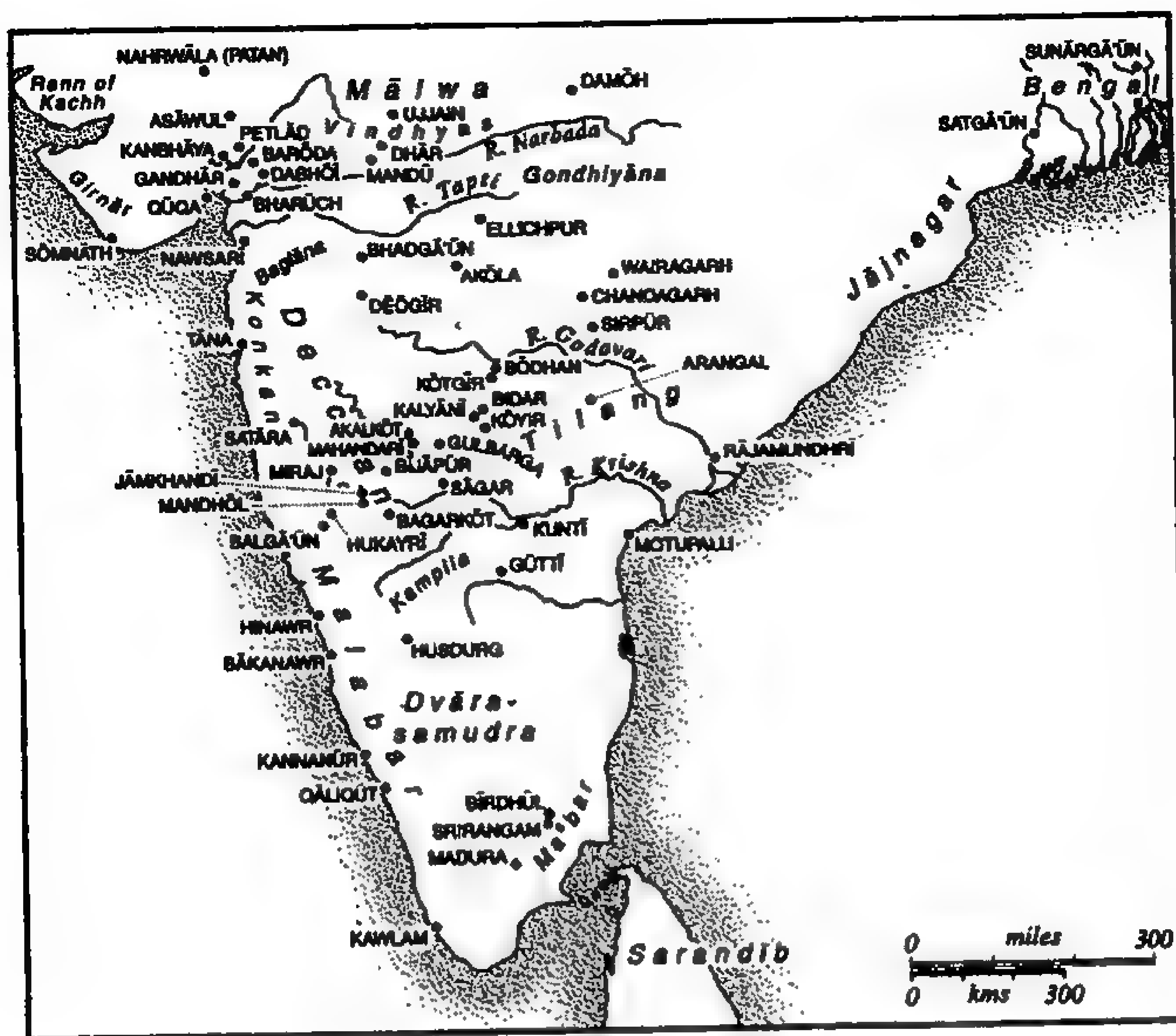
(129) ساتارا: FS، 519 ـ 520 (تر. 770). ميراج: المصدر نفسه، 540 ـ 542 (تر. 811 ـ 812).

(130) المصدر نفسه، 521، 526، 532 (تر. 772، 778، 785).

(131) المصدر نفسه، 590 ـ 591 (تر. 871 ـ 872).

(132) TFS، 329.

(133) KF، 80 ـ 82؛ عن المتصرف.



اجتياح گوجرات ومالوا والجنوب

مجير الدين أبو رجا فارضاً الحصار عليها، بعد عدد من السنين، في أثناء العصيان ضد أُلُغ خان، فتبدو، رغم كل شيء، باقية بأيدي الأعداء، لأن قُطْلُغ خان الذي حكم الدكّان أوائل أربعينيات القرن الرابع عشر، باسم محمد بن تُغْلُق، انتزع كوتغير من يد أحد «المتمردين» الهندوس، ونَصَّب عليها أحد أعوانه. أمّا منطقة تشانداغاره (تشاندا، أي تشاندرابور)، التي أرسل ابنه لنهبها، في الوقت نفسه تقريباً، فقد كانت مستقلة بصورة واضحة، وخاضعة لأمرائها الهندوس بالذات[134].

(134) FS، 397 ـ 398، 482 ـ 483، 500 ـ 501 (تر. 603 ـ 604، 723 ـ 725، 747 ـ 748). تحديد هوية الأخير يبدو شبه مؤكد لأن الرواية تقول إن الجيش الإسلامي تقدم عن طريق آكولا («آنكولا» في النص).

التفوق العسكري للمسلمين

كتب أمير خسرو في كتابه **نوح سيبير** (سفر نوح)[135] يقول «يذهب الهندوسي على الدوام ضحية التركي». وبعد قليل يبادر، بعد أن يشبّه التركي بالأَسَد والهندوسي بالغزال، إلى الزعم بأن الأتراك، ما إن يهموا حتى يصبحوا قادرين على سحق الهندوس، فضلاً عن إلقاء القبض عليهم وشرائهم وبيعهم[136]. أما برني فيقوّل السلطان بلبان على مسامع أبنائه إن «ستة أو سبعة آلاف فارس مسلم فقط، قادرون على هزيمة **لاك** واحد من المشاة (البايك) ورماة الرماح (الدهانوك) الهندوس»[137]. مما لا شك فيه، أن ماركوبولو حين اعتبر رجال المعبر ـ الذين لا حيلة لهم في المعركة سوى الترس والرمح ـ مقاتلين بائسين، كان يكرر ما قاله مخبروه المسلمون[138]. وتفوق الجيوش الإسلامية أمر، يكاد أن يكون عاماً ومسلّماً به دونما نقاش، في مصادرنا (الإسلامية). غير أن التفسيرات المقنعة لمثل هذا التفوق، تبقى بعيدة عن متناول اليد. ثمة ارتباط واضح بين تأكيد السيادة الإسلامية عبر الجزء الأكبر من شبه القارة من جهة، وإصلاحات علاء الدين الإدارية، التي مكّنَتْ السلطان من تجنيد أعداد أكبر من العساكر برواتب، والتي ستتم معاينتها في فصل لاحق، من جهة ثانية[139]. أحياناً، كانت جيوش علاء الدين، هي الأخرى، تستفيد من واقع كون خصومها الهندوس ممزقي الصفوف، كما في مالوا سنة 705 هـ / 1305م ـ أو بعد محاولتهم الناجحة الأولى على الأقل ـ في المعبر.

---

(135) NS، 89، **هندوبواد صيدي توركان هاميشا**، قارن الرأي الذي يُعزى لبالالا الثالث في KF، **هارغار هندويشي تورك... تاب نايارد.**

(136) NS، 130، 131.

(137) TFS، 52.

(138) ماركو بولو، تر. مول، وبليو، I، 389 / تر. بول وكوردييه، II، 342. عن إشارات أخرى إلى التفوق الإسلامي في المصادر الأخرى، انظر عزيز أحمد، «الملحمة والملحمة المضادة في هذا العصر الوسيط»، JAOS، 83 (1963م)، 470 ـ 471.

(139) TFS، 30 وما بعدها، 326.

ومهما يكن، فإن المراقبين، من داخل السلطنة، كانوا يعتقدون بأنهم قادرون على تفسير انتصارات السلطان على الهندوس، على أسس تقنية أيضاً. فالهندوس لم يكونوا رماة جيدين، حسب كلام خسرو[140]؛ وقد علق ابن بطوطة قائلاً: إن سهامهم تفتقر إلى القوة[141]. وقد قيل إن خصوم السلطان الهندوس لم يبادروا قط، إلى اعتماد الرماية من على ظهور الجياد[142]. ربما كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى بعض الجيوش الهندوسية دون غيرها. فعصامي، مثلاً، يصف جيوش ديوغير التي كانت بقيادة ابن رامديڤا سنة 695 هـ / 1296م، ونظيرتها في جاجنَغَر، التي هزمها أُلُغ خان في حوالي سنة 1322م، على أنها، جميعاً حشود من الرمّاحين والسيّافين «على الرغم من أن العبارة قد تكون أسلوبية بلاغية، أكثر منها ملاحظة انتقادية[143]. من الواضح أن قوات دلهي كانت متمتعة بالتفوق على صعيد أنماط معينة من الأسلحة. تعطي رواية عصامي لقصة حملة كافور الآرانغالية مكانة بارزة بعض الشيء، للقوس والنشاب (الناواك)، وحين قام أُلُغ خان بالهجوم على آرانغال للمرة الثانية، يقال إنه استولى على الدفاعات الخارجية والداخلية جميعاً، بفضل قذف السهام (النشاب ـ الناواك) والحجارة بالمجانيق[144]. من المؤكد أن **الناواك** يحتل مكاناً بارزاً في قائمة الأسلحة التي استخدمها جيوش السلطان[145]. تحكي قصة

---

(140) KF، 135 (خطاب عن ألسنة مبعوثي بالالا الثالث). قارن أيضاً وصف المبعوثين أنفسهم، المصدر نفسه، 137، **كمان واري كازنيشن**.

(141) IB, III، 134 (تر. جيب، 613).

(142) ب. ك. غود «الفارس الرامي للسهام في أرض المعركة الهندية ـ من أيام الاسكندر (326 ق.م) إلى معركة بانيبات (1761م)»، في كتابه: **دراسات في تاريخ الهند الثقافي** (هوشياربور وبونا، 1960 ـ 1969، 3 أجزاء)، II، 57 ـ 70. وينك، **الهند**، II، 82 ـ 83. عن قتال الفرسان، انظر ديغبي، **جياد الحرب**، 12 وهـ. 5.

(143) FS، 234، 402 (تر. 403، 609).

(144) كافور: المصدر نفسه، 290 ـ 291 (تر. حسين، 465، لا تؤدي المعنى). أولوغ خان: TFS، 449؛ TMS، 95.

(145) مثلاً، KF، 55، 56، 57، 58 ـ 59، 80 ـ 81، 93، 128، 136، 150. لعل هذا هو السهم الذي يخترق الألواح الحديدية السبعة: المصدر نفسه، 96.

طريفة رواها عصامي عن نشاب (**غوروها**) أطلقه أحد الأتراك، لم يقف عند اختراق عجلة العربة، بل واستقر في الأرض متوغلاً حتى الريش، بأن هذا السلاح المحدد (المسمى بالسهم، صراحة، مما يدعو إلى الافتراض بأنه قوس) كان يَزْرَع الرُّعْبَ في قلوب الأعداء، حسب التقديرات[146].

من الإنصاف القول، انطلاقاً من الأدلة الواردة في المصادر السردية، إن قوات السلطان، نادراً ما كانت تحظى بفرصة الالتحام المباشر في القتال. وفي المناسبات القليلة التي حصل فيها مثل هذا الالتحام، يصوِّر جيش دلهي على أنه كسب انتصاراً شبه مجاني، دون أي جهد ذي شأن، ـ كما حين بادر جيش مالوا إلى تحدي عين الملك في 705 هـ / 1305م، أو عندما خرج ابن رامادیڤا ليتحدى كافوراً، سنة 706 هـ / 1307م، أو عندما واجه **راواتات** فيرباندیا كافوراً عند مشارف بيردهول، بعد أربع سنوات[147]. غير أن رودراديڤا حرص على تجنب الالتحام في 721 هـ / 1321 ـ 1322م، كما يقال صراحة[148]. قد يكون السبب الكامن وراء هذا التفوق الإسلامي الظاهر بجلاء، متمثلاً بنوع من العجز المزمن لدى الكثير من الحكام الهندوس، على صعيد مضاهاة جيوش السلطان من حيث أعداد الجياد؛ وتوق عواهل شبه الجزيرة الهندية إلى اقتناء الجياد بأعداد كبيرة من الجزيرة العربية والخليج الفارسي، كان معروفاً على نطاق واسع[149]. ثمة مؤشرات تعود إلى منتصف القرن الثالث عشر، تدل على وجود نوع من الخلل، على هذا الصعيد، بين الحكام المسلمين والهندوس، كما حين يدعي الجوزجاني أن تشاهاداديڤا، ملك الجاجابيلا، لم يكن يتوفر إلاّ على

---

(146) FS، 230 (تر. 397 ـ 398)؛ انظر المصدر نفسه، 54 (تر. 108)، عن **غورها** (كذا) جمّد غزالاً في إحدى حملات محمود الغزنوي. أما الـ **غورهاي ـ ي مغرب ـ ي** المذكور في KF، 90، فقد تم إطلاقه بوضوح من منجنيق.

(147) KF، 65 ـ 66، عن ديوغير؛ 151 ـ 152 عن بيردهول.

(148) TFS، 446.

(149) ديغبي، **جياد الحرب**، 29 ـ 32. وينك، **الهند**، II، 83 ـ 87.

خمسة آلاف فارس مقابل مئتي ألف راجل، أو عندما لا يذكر سوى البايك (المشاة) والفيلة في الجيش الذي جلبه ملك أوريسا إلى قلب البنغال الإسلامي سنة 642 هـ / 1244م[150]. وبالمثل، فإن هاميراديڤا الرنثانبوري يجري امتداحه بامتلاك «قوات مشاة لا حصر لها» ولكن اثني عشر ألفاً، فقط، من الخيالة، عند نهاية القرن بالذات[151]. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأرقام قد توحي، بأن قوات دلهي كانت متمتعة بقوة ضاربة أكبر من خصومها الهندوس، فإن التناسب بين الخيالة والمشاة كان يبدو، في حالات أخرى، متماثلاً تقريباً بين الطرفين. فقد كان كارناديڤا الگوجراتي، مثلاً، يملك جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً من الخيالة، مقابل ثمانين ألفاً من المشاة، وكان جيش كوكا في مالوا يتألف من أربعين ألفاً من الفرسان، مقابل لاك (لاخ) (مئة ألف) من المشاة[152].

ومهما يكن، فإن الدافع الأساسي للحملات الخَلْجية والتُغْلُقية شمال مناطق الفينديا وجنوبها، هو فرض أشكال من الحصار. ثمة نقش يعود إلى 1261م، عُثر عليه في آجاياغاره، يصف ترايلوكيافارمان، ملك تشانديلا، بأنه «قادر فعلاً على توفير أماكن قوية»، وقد قيل إن من شأن ذلك تقديم دليلٍ مؤكدٍ على وجود التكتيكات الخاصة بمقاومة الإغارات الإسلامية[153]. ربما كانت حرب الحصار الإسلامية، العائدة إلى بدايات القرن الثالث عشر، تمثل خطوة متقدمة على الأسلوب الذي اتبع في الحقبتين الشمسية والغياثية، غير أن ما يدعو للأسف، هو أن مصادر القرن الثالث عشر من جهة، ونظيرتها العائدة لعهد علاء الدين، من جهة ثانية، تخفق في تقديم ما يكفي من المعلومات لتسويغ استنتاجات راسخة، وأطروحة البروفسور لال، التي تقول بأن المسلمين

(150) الجاجبيلا، TN، I، 485 (تر. 691): عن هذا وغيره من الشواهد، انظر ديغبي، **جياد الحرب**، 49، أوريسا: TN، II، 15 (تر. 739).

(151) TMS، 77.

(152) الأرقام مأخوذة من المصدر نفسه.

(153) ي. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 100 ـ 105 (بيت 7). راي، **تاريخ الأسر الحاكمة**، 727.

كانوا متمتعين بتفوق حاسم على هذا الصعيد، يجب اعتبارها أطروحة معلقة دون برهان[154]. يقول أمير خسرو، إن أسوار رنثانبور جرى دكها بالمجانيق **(المغاربة)** (المانغونيلات)؛ لكننا نعلم، من الناحية الأخرى، أن تشيتور استسلمت، وماندو أُخذت بفضل خيانة مرتد هندوسي هارب، دلّ علاء المُلْك على الطريق المفضية إلى قلب القلعة. أمّا في حصار سيوانا، فإن وحدات السلطان بادرت إلى إنشاء **باشيب**، منصة مدرجة مصنوعة من الطين، وصل ارتفاعها إلى مستوى الأسوار، كانت ذات أهمية بالغة وواضحة في نجاح هذه الوحدات[155]. كذلك أيضاً كانت المنصة **(الباشيب)** التي أقامها خسروخان لمحاصرة القلعة الداخلية في آرانغال سنة 718 هـ / 1318م، ذات جدوى في إجبار رودراديفا على التماس الصلح[156]. ومع ذلك، بقي دور **الباشيب** في أماكن أخرى، صعب التقويم، لأنه من الواضح، أن مثل هذه الوسيلة كانت قد استُخدمت من قبل، أيضاً، في رنثانبور، وكانت قد عانت قدراً غير قليل من الخراب، تحت تأثير ضربات مجانيق العدو[157]. ففي آرانغال سنة 709 هـ / 1309م، لم ينتظر المحاصرون استكمال **الباشيب** (المنصة) قبل الانطلاق في إغارتهم على السور الترابي الخارجي[158].

في ضوء الوضع الحالي لمعرفتنا، تبقى الأسئلة الدائرة حول قدرة جيوش السلاطين على سحق خصومها الهندوس، غير قابلة للإجابة. أمّا إذا جرى

---

(154) ك. س. لال، «القوة الضاربة في جيش السلطنة»، JIH، 55 (1977م)، ج: 3، 100 ـ 101.

(155) رانثانبور: DR، 65 ـ 66. تشيتور: KF، 62؛ FS، 281 (تر. 456). ماندو: KF، 58؛ DR، 68، تذكر «شاطئاً. سيوانا: KF، 50 ـ 51، 70؛ TMS، 78، توحي أن الحصن تم اقتحامه. هوديفالا، **دراسات**، I، 112، يجعل باشيب، بشيء من التصرف، تعني «أعمالاً ترابية»؛ عن هذا وغيره من الأساليب، انظر آثار علي «فنون الحصار لدى سلاطين دلهي في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر [كذا]»، OIHC، 51 . **كالكوتا 1990** م (دلهي، 1991م)، 217 ـ 226، ومقالة «التكنولوجيا العسكرية»، 172 ـ 173.

(156) NS، 111 ـ 114.

(157) KF، 50 ـ 51، TFS، 277.

(158) KF، 91.

التسليم بتخلف مثل هؤلاء الخصوم دون نقاش، أكثر الأحيان، فإن التطورات الجارية في أماكن أخرى، ما لبثت أن سلطت الضوء على الأمر، من منظور آخر. لقد سأل عصامي ساخراً: «أين وكيف يمكن لجيش يُلْحق الهزائم بجحافل المغول، أن يخاف مقاتلة الهندوس؟»[159]. أما السلاطين، فقد كانت لديهم أسباب أهم وأعظم للحقد على العدو الكافر الآخر، المتربص في الجهات الشمالية الغربية، فضلاً عن الخوف منه.

(159) FS، 284، (قارن تر. 459).

الفصل الحادي عشر

الغزوات الجغتائية

مغول آسيا الوسطى يزحفون جنوباً

قمتُ في الفصل السادس باستعراض تفكُّك الإمبراطورية المغولية الأحادية، هذا التفكك أوجه، في إيجاد نوع من التحالف بين الأمراء تحت قيادة قايدو حفيد أوغوداي، في آسيا الوسطى، في مواجهة الخاقان قوبيلاي. وعلى الرغم من أن حملات قايدو الخاصة تبدو على الدوام، كما لو كانت موجهة ضد أعوان وقادة ومؤيدي قوبيلاي في منغوليا، فإن قايدو هذا، دأب في الوقت نفسه، ولو بصورة أقل مباشرة، على اتباع سياسة توسعية جنوب نهر جيحون. ويبدو حكام الأمة (الدولة) الجغتائية الذين عيَّنهم، كما لو كانوا من مرؤوسيه هو: وقد كان آخرهم وأهمهم دوآ، ابن باراق، الذي ما لبث أن أصبح خاناً حوالى سنة 681 هـ / 1282م[1]. وبرعاية قايدو، حسب كلام رشيد الدين، تمكن دوآ «بصورة تدريجية، من تجميع جيوش جغتاي»[2]؛ وحرصت قواتهم على التعاون فيما بينها، في كل من إيران الشرقية وأفغانستان. تمركز ساربان، ابن قايدو، وياساؤر، أحد كبار قواد (نويانات)

(1) جمال القارشي، 138، JT139, II.، 192 ـ 193 (تر. بويل، 154 / تر. فيرخوفسكي، 100. بيران، قايدو، 32 ـ 33.

(2) JT, II، 172؛ (تر. بويل، 141 / تر. فيرخوفسكي، 92).

دوآ، إلى الجنوب من نهر جيحون، وراحا ينشران قواتهما مع حلول سنة 690 هـ / 1291م[3]. ومن الواضح أن الحلفاء كانوا قد بدؤوا يسعون، منذ هذا التاريخ المبكر، إلى فرض نفوذهم على النغودريين، إذ كان ثمة نوع من التعامل بين قايدو والجنرال الإيلخاني المرتد والمتمرد ناوروز، الذي كان يعمل لحسابه في أفغانستان منذ سنة 690 هـ / 1291م، وحتى عاد للالتحاق بالإيلخان سنة 694 هـ / 1294م[4]. ويقول وصّاف، الذي كانت روايته لقصة هذه الأحداث، أكثر تحديداً، على الصعيد الجغرافي، (من رواية رشيد الدين) إن ناوروز ما لبث أن اتخذ من «سجستان» (أي غور وغرشيستان) مقراً له، حيث كسب القوات النغودرية إلى صفّه، ويؤكد أنه كان شديد الاعتماد عليهم؛ وفي مناسبة أخرى، يرد ذكر ناوروز بوصفه زعيمهم (حاكمهم)[5]. ويبدو، بقوة، أن قايدو كان معتمداً على ناوروز، كعميل له يضطلع بمهمة الحفاظ على سيطرة مهزوزة وهشة، على أجزاء من أفغانستان. غير أن ذلك التحكم ما لبث، مع الاقتراب من نهاية القرن الثالث عشر، أن تكثف بصورة ملحوظة.

ربما جاءت التدبير العسكرية التي اتخذها قايدو، والتي لخّصها وصّاف، رداً على ارتداد ناوروز. تم تعيين ساربان قائداً عاماً للقوات المؤلفة من خمس فرق (تومنات) (خمسين ألفاً)، ثلاث منها من جيوش قايدو بالذات، واثنتان عائدتان إلى دوآ. وقد كان بين قواده، كل من الأمير الأوغودي كورَسْبَه؛ وتيمور، نجل إيبوغن، سليل أحد إخوة جنكيزخان؛

(3) ساريان، JT، تحقيق كارل يان، **مقدمة غازان خان**، XIV, ns, GMS، (لندن 1940م) 26 (أوفى من III, JT، تحقيق علي زاده). ياساؤور قرب بلخ: JT ,I، ج: 2، تحقيق إ. ن. برزين «سبورنيك ليتوبيسي» TVOIRAO، 15 (1888م)، 217؛ تر. أو. إ. سميرنوف، **سبورنيك ليتوبيسي**، ج: 2، (موسكو ولينتغراد، 1952)، 275.

(4) JT، تحقيق يان، **قصة غازان خان**، 24 ـ 26، 29، هنا أو في مما في III, JT، 268 ـ 272 (تر. آرندز، 150 ـ 152). عن ناورز، انظر عموماً بيران، **قايدو**، 57 ـ 59.

(5) وصّاف، 253؛ عن هذا المعنى للعبارة «سيستان»، انظر أوبان، «الجذور العرقية»، 91.

وقُطْلُغ قوتشا، أحد أبناء دوآ[6]. ومن زملاء ساربان، يبقى الأخير، بالنسبة إلينا، هو الأهم. يقول رشيد الدين إن دوآ قام باستدعاء الأمير الجغتائي عبد الله، ونصّب قُطْلُغ قوتشا قائداً للنغودريين في مكانه[7]. والقائد النغودري آباتش، الذي كان قد أطاع ناوروز أوائل تسعينيات القرن الثالث عشر، يظهر الآن مرؤوساً لقُطْلُغ قوتشا[8]. يقول رشيد الدين: إن قُطْلُغ قوتشا درج على قضاء فصل الصيف عند أطراف غوروغارتشيستان، والإشتاء في «منطقة غزنة وتلك الجهات»؛ أما قاشاني فيقول: إنه أقام في بيني غاو، التي تنسبها المصادر، كما سبق أن رأينا، إلى النغودريين تقليدياً؛ في حين يضع وصّاف مقر قيادته في وادي «الآرغانتوا» (آرغانداب)[9]. بات يحكم إمارةً مترامية الأطراف، امتدت من نهر جيحون نزولاً إلى المناطق الدافئة حوالي خط عرض قندهار[10]. ضَرَب قِطعاً نقدية باسمه في غزنه[11]، ومكانته الرفيعة والمبَجّلة تتجلى من تلميح رشيد الدين إليه بعبارات توحي بأنه كان عملياً

---

(6) وصّاف، 509 ـ 510. عن كورسبه، انظر JT ،II، 14 = II، ج: 1، تحقيق علي زاده، 38 ـ 39 (تر. بويل، 28 / تر. فيرخوفسكي، 17). عن تَمُر، انظر SP، ملف 103 ب ـ 104 أ؛ **معز الأنساب**، ملف 9 ب، 10 ب، 11 ب: هذا الفرع من الأسرة الحاكمة محذوف في JT ،I، ج: 2، تحقيق برزين، في TVOIRAO، 13 (1868م)، 86 ـ 97 (تر. سميرنوفا، 51 ـ 54). الأميران كلاهما رافقا جيش ساربان في 1302 ـ 1303 م: قاشاني، 18.

(7) JT، III، 152 (تر. آرندز، 94)، مع تاريخ 698 هـ / 1299، الذي قد يكون متأخراً كثيراً؛ في II، 117 (تر. بويل، 144)، النص مشوّه، وللاطلاع على القراءة الصحيحة، انظر أوباتن، «الجذور العرقية»، 84 هـ. 2.

(8) سيفي، 379 ـ 382. وصّاف، 368. كرماني **سمط العلا**، 89. أوبان، «الجذور. .» 88. ربّما كان الزعيم النَّغُودَري غير المسمى الذي قتلته جيوش الإيلخان في 1301 م: وصّاف، 417 ـ 418.

(9) JT، II، 173 (تر. بويل، 142 / تر. فيرخوفسكي، 93). قاشاني، 201. وصّاف، 367.

(10) المصدر نفسه، 368، مورداً «بلخ توابعها (**مضافاتها**) شابورغان، جوزجان، باداخشتان، كشم، تاياقان، دارا ـ ي سوف، دارا ـ ي غاز، فيروزكوه، علي آباد، ملك آباد، مرو، وملحقاتها (**لواحقها**) آندخوي، فارياب، طالقان، ماروتشاق وبانجديه». عن مواقع بعض هذه الأماكن، انظر الخارطة رقم: 2؛ أيضاً أوبان «الجذور. . .»، 92، هـ. 4.

(11) توماس، 175 ـ 176. إ. بلوشيه، «لي مونيه مونغول دولا كولكسيون ديكور دمانش» **ريفيو دو لورين كريتين** 11 (1906)، 119 ـ 120.

حاكماً مشاركاً للأمة الجغتائية، جنباً إلى جنب مع أبيه دوآ، وهو انطباع ملحوظ أيضاً في التراث التاريخي الهندي[12]. يبدو أنه كان قادراً على التصرف باحتياطات، ذات شأن، من القوة البشرية، لأنّ وصّافاً يقدر قواته بخمس فرق (تومنات)؛ على الرغم من أن عصامي يبالغ، حين يزعم، أن جيشه كان يضم مئتي ألف من الرجال، لدى قيامه بغزو الهند سنة 699 هـ / 1299 ـ 1300م[13].

من هذه القواعد المتقدمة، قام كل من ساربان وقُطْلُغ قوتشا، كما يقول رشيد الدين، بشن سلسلة من الهجمات المتكررة على الأقاليم الإيلخانية الشرقية[14]. ويعتبر وصّاف منطقة هراة موضوع النزاع والصراع فيما بين قوات الإيلخان من جهة، وقوات قُطْلُغ قوتشا المغولية، من الجهة المقابلة[15]. غير أن إغارات الأخير ما لبثت، مثلها مثل نظيرتها التي قام بها النغودريون من قبل، أن توغلت إلى مسافات أبعد بكثير في عمق إيران، كما حصل سنة 700 هـ / 1301م (بعد موت قُطْلُغ قوتشا في الحقيقة)، حين أقدمت فرقتان من قواته بنهب فارس وكرمان، بل وتقدمتا وصولاً إلى هرمز[16]. في تلك المناسبة، مثلها مثل ما حصل سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م، حين حاول ساربان أن يلتحق بقوات قُطْلُغ قوتشا لشن هجوم مشترك على خراسان[17]، تعرض مغول آسيا الوسطى،

---

(12) JT، I، ج: 2، تحقيق برزين، في TVOIRAO 13 (1868م) 125 (تر. سميرنوفا، 69). AHG، II، 796.

(13) وصّاف، FS367 ،، 256 (تر. 427).

(14) JT، II، 11 (= II، ج: 1، تحقيق علي زاده، 28)، 173 (تر. بويل، 25، 142 / تر. فيرفوفسكي، 14، 93).

(15) وصّاف، 368.

(16) التاريخ في JT، III، 152 (تر. 94)، ومؤيد بتاريخ هرمز المفقود: و. ف. سنكلير، **رحلات بيدور تيكسيرا**، HS، سلسلة ثانية، 9 (لندن، 1902م) 160 ـ 161 (غير أن سنكلير يقع، 161 هـ. 1، في خطأ استبدال قوات الإيلخان بقُطّاع الطرق). ثمة رواية أوفى في وصّاف، 368 ـ 371، مع تأريخ مشوش.

(17) JT، II، 11 ـ 12 = JT، II، ج: 1، تحقيق علي زاده، 28 ـ 30 (تر. بويل، 25 ـ 26 / تر. فيرخوفسكي، 14 ـ 15). قاشاني، 18.

الذين أرادوا الإفادة من غياب الإيلخان غازان في سورية، للهزيمة على يد أخيه، نائب الملك خربندا[18].

يصعب تحديد المرحلة التي شهدت انتقال مسؤولية عمليات الإغارة على السلطنة من العصابات النغودرية إلى جيوش قايدو ودوآ. يقول عصامي: إن كيخسرو، حفيد بلبان، لم يكن موفقاً حين حاول التماس العون من المغول في غزنة، غداة تنصيب ابن عمه كيقباد سنة 685 هـ / 1287م، لأن المغول كانوا مشغولين بنزاعات داخلية[19]. من المفهوم أن يكون هذا صحيحاً، بالنسبة إلى المراحل الأولى من تدخل قايدو وجنرالاته على المسرح، إذ ظلت هناك مبادرات صغيرة، وعلى نطاق محدود، من جانب ما يمكن الافتراض بأنها فصائل نغودرية عاملة بصورة مستقلة. وفي حوالي سنة 698 هـ / 1298 ـ 1299م بادر علاء الدين إلى إرسال قائده ظَفَرخان ضد جماعة مغولية كانت قد احتلت سيويستان، في السند الأسفل، ربما ساعياً إلى استغلال عملية الإطاحة الحديثة بأبناء جلال الدين خَلْجي ومؤيديهم في مُلْتان. ثم طرد الغزاة، وأمكن أَسْر زعيمهم سُغداي مع أخيه، وجُلبا إلى دلهي[20]. يعتبره عصامي «تركياً»، في حين يعتبر أحد مرافقيه «بلوشياً»[21]، موحياً بأن الحدث يمثل غارة محلية من الأجزاء الجنوبية من أفغانستان الحالية. نحن نعلم أن ناصر الدين، ملك (أمير) سجستان، كان قد أرسل

---

(18) وصّاف، 368. قاشاني، 19.

(19) FS، 196 ـ 197، **مغولرا دار آن وقت با أهلي خويش ماغاربود دينار مهمي باريش**، (تر. 329).

(20) TFS، 253 ـ 254، واضعاً الغزو في نفس سنة حملة السلطان على گوجرات، أي السنة الثالثة لحكمه (المصدر نفسه، 251)، 697 ـ 698 هـ / 1298 ـ 1299 م؛ عن تأريخ تلك الحملة، انظر ص 195 من هذا الكتاب هـ. AHG9 .، II، 787، 790، يحدد تاريخ احتلال سيوستان بسنة 697 هـ واستعادتها بسنة 698 هـ.

(21) FS، 251 (تر. 421 ـ 422). إن اسم الزعيم الغازي، الذي يرد عادة على شكل «سالدي»، يظهر في TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 133 أ، بصيغة س ك ن ي، ربما بدلاً من س ك ت ي، أي سَفوتي. في الأداة النقدية لطبعته لـ FS، يقترح أوشا في الحقيقة كلمة س غ د ي. وعن أصل الكلمة سوغتى / سوغَدي، انظر بليو وهامبيس، **تاريخ حملات جنكيزخان**، 129 ـ 130، 255 ـ 256.

حملة سنة 695 هـ / 1295 ـ 1296م إلى «البلد الحار (غرمسير) والمناطق المحيطة ببوست وتيغين آباد»، وكان قد طهّر الإقليم من «العصابات» (دوزدانو رونود)[22]. وربما كانت قوات سُغداي مؤلفة من الهاربين القادمين من المضارب الأبعد، جنوباً، للنغودريين، التي كانت في حالة غليان قبل مجيء قُطْلُغ قوتشا، وكانت قد أصبحت فريسة الإمارات المجاورة. وقد تكون الإغارات الآتية من هذه المنطقة قد بقيت مستمرة، حتى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر. ثمة اجتياح مغولي آخر لسيويستان سنة 703 هـ / 1303م، بالتزامن مع حصار ترنغي لدلهي، بل واجتياح ثالث كذلك، ما لبث أن رُد على أعقابه في منطقة ثاري (ثار) من قبل آلب خان، والي آيبك، من خلال التنسيق مع تُغْلُق، مُقطَع دَيْبلُپور وسلطان المستقبل[23].

مات قايدو في قازاخستان الحالية سنة 702 هـ / 1303م وخلفه نَجْلُه الأكبر تشاپار. كان الحاكم الجديد، الذي لم يمر اعتلاؤه العرش دون تحدٍّ، مستعداً للانقياد إلى أستاذه دوآ، الذي اقترح أن يبادر مغول آسيا الوسطى إلى الاعتراف بخليفة قوبيلاي، الخاقان تيمور، وتدشين عصر سلام عام عبر العالم المغولي. قوبلت المبادرة بالترحيب أيضاً من قبل أعداء أبيه. وحين وصل سفراء تيمورخان في 704 هـ / 1304م إلى بلاط الإيلخان، جنباً إلى جنب مع مبعوثي تشاپار ودوآ، لإعلام الأنباء السارة، جرى استقبالهم من قبل خربندا، الذي كان قد خلف غازان حديثاً، وبات حاكماً باسم السلطان أولجايتو[24]. ونتيجة لهذه البعثة، التي كانت تضم أيضاً، ممثلين عن مغول قُطْلُغ قوتشا

---

(22) مجهول المؤلف، تاريخ ـ ي سيستان، 408 (تر. سميرنوفا، 379).

(23) TFS، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 ب. FS، 288 ـ 289 (تر. 263 ـ 264). نظراً لأن گوجرات كانت للتوقد تعرضت لغزو ثان من جانب قوات دلهي، فإن الهجوم المغولي لم يحدث في وقت أبكر من سنة 1309 ـ 1310 م.

(24) انظر عموماً بيران، قايدو، 69 ـ 74. أفضلُ التاريخَ الذي يحدّده قاشاني، 32، والذي يؤيده تصريح رشيد الدين القائل بأن النبأ وصل غازان في العراق أوائل شعبان 702 / أواخر آذار / مارس 1303م، لموت قايدو: JT، III، 356 (تر. آرندز، 199).

وأمراء فرعيين آخرين[25]، جرى إقحام ممتلكات الإيلخان في السلام المتحقق بين حكام الخانيات (الإمارات) المغولية المختلفة. تلك هي المصالحة العامة التي كانت خراسان مدينة لها، بإبعاد العدوان الجغتائي الذي ضمنته منذ حوالي العقد من الزمن.

الأزمة: غزوات قُطْلُغ قوتشا وتراغاي

كانت حال سلطنة دلهي مختلفة. في رسالة وجهها إلى الخاقان تيمور، كان تشاپار قد أيد نوعاً من التسوية، في سبيل إطلاق طاقات ذرية جنكيزخان وتحريرها، من أجل مصارعة أعدائهم الخارجيين، وكان قد أتى على ذكر مناطق السند وهندوستان، بوصفها الهدف المحدد لمغول آسيا الوسطى[26]. فقوات قايدو ودوآ كانت قد اتجهت نحو اعتماد العمليات العسكرية، على حدود هذه المناطق، وبصورة لا تقل عن خراسان، مما تمخض عن تنامي الضغط المغولي على الهند، بشكل كبير. يقول رشيد الدين عن قوات قُطْلُغ قوتشا، إنها «محكومة إلى الأبد بأن تقاتل سلطان دلهي، وإن جيش دلهي قد ألحق الهزيمة بها عدة مرات»[27]. شهد عهد علاء الدين خَلْجي (695 ـ 715 هـ / 1296 ـ 1316م) عدداً من الغزوات المغولية، اثنتان منها كانتا على مستوى فاق كثيراً مستوى تلك العائدة إلى العقود السابقة، كما شكلتا تهديداً للعاصمة بالذات. يبدو أن المغول كانوا على اطلاع جيد بالنسبة إلى الأوضاع السائدة في السلطنة، كما يبدو أن قايدو ودوآ قد أفادا، تماماً كما فعلا في تعاملهما مع الإيلخان، من خلافات ناشبة على جبهات علاء الدين الأخرى، من أجل شن هجمات قوية على إمبراطوريته. وبالفعل، فإن سياسة السلطان القائمة على

(25) وصّاف، 475: التاريخ الوارد هنا، جمادى الأولى 705 هـ / تشرين الثاني / نوفمبر ـ كانون الأول / يناير 1305م، متأخر كثيراً، ويجب أن يكون، إلاّ إذا كان خطأ، مشيراً إلى بعثة لاحقة غير تلك التي كانت سبب رسالة أولجيتو إلى فيليب الرابع (بيران، قايدو، 71 ـ 72).

(26) وصّاف، 454.

(27) JT، 173 (تر. بويل، 142 / تر. فيرخوفسكي، 93).

التوسع والضم، على حساب القوى الهندوسية (انظر الفصل العاشر) زودتهما بالفرص المناسبة.

يعود الشاهد الأول، الذي لا جدال حوله، على حدوث عمليات في الهند من قبل مغول آسيا الوسطى إلى سنة 697 هـ / 1297 ـ 1298م، حين أَقْدَمَ قائد (نويان) قايدو، كَدَر، على اجتياح البنجاب، مستبيحاً المنطقة حتى أطراف قاشور. غير أن شقيق السلطان علاء الدين، أُلُغ خان، نجح في سحق الغزاة في موقع يدعى جاران مانجور، بالقرب من شواطئ نهر سوتلج، في الثاني والعشرين من ربيع الثاني / السادس من شباط / فبراير 1298 م. بلغ عدد قتلى المغول عشرين ألفاً، كما أن الأسرى سيقوا إلى دلهي لإعدامهم[29]. ثمة تهديد أكبر، كان متمثلاً بقوات قُطْلُغ قوتشا. جاءت أولى ضربات هذه القوات الرئيسية سنة 699 هـ / 1299 ـ 1300م، أثناء غياب جيش دلهي، منشغلاً بحملة آيبك الأولى، التي تقوم المصادر المصرية بالربط الصريح، بينها وبين الضربة الأولى[30]. ومصحوباً بأخيه تيمور بوقا[31]، زحف قُطْلُغ قوتشا على دلهي

---

(28) كان أحد مرؤوسي ساربان في خراسان سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م (قاشاني، 18) ويورده وصّاف بين قادة (نويانات) قايدو الذين عبروا نهر جيحون مع ساربان في 706 هـ / 1306م للالتحاق بخدمة الإيلخان. من المؤكد أن الاسم هو مو. كدر، «العنيد»، المشاكس: لسنغ، **قاموس مغولي ـ إنجليزي**، KF441 ،، 36، يطلق على قواته اسم «أكلة الجيف لدى قايدو» (موردار ـ خوار).

(29) المصدر نفسه، 33 ـ 36، للحصول على الرواية الأوفى؛ ثمة ملاحظة أكثر إيجازاً في DR، 59 ـ 60. TFS، 250، الذي يضع الغزو في 696 هـ / 1296 ـ 1297م، ولا يحدد القائد المغولي. يعطي اسم قائدي السلطان بوصفهما أُلُغ خان وظفرخان. أما جاران ومانجور اللذان يردان في هذه المصادر جميعاً فيظهران من إشارة لاحقة في TMS، 218، على أنهما واقعان في منطقة خاليندهار: هوديفالا، **دراسات**، I، 407؛ المصدر نفسه، 246 ـ 247، يعتبر العنصرين جاغراؤون وماتشيوارا، واقعين جنوب ـ غرب وجنوب ـ شرق لودهيانا على التوالي. وعن قاصور، على الضفة الشمالية القديمة للبياه، عند 31 درجة و8 دقائق شمالاً، 74 درجة و28 دقيقة شرقاً، انظر IG، XV، 149 ـ 150.

(30) ابن الدواداري، IX، 57؛ منه ابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشيه، 556 ـ 557. إن الربط بين حملات السلطان الخاصة القائمة على النهب وبين هجوم قطلغ قوتشا مضمر أيضاً في قاشاني، 189. توحي المصادر المصرية أنها سقطت في 699 هـ. TFS، 254، يحدد تاريخها «عند نهاية السنة المذكورة من قبل» أي (السنة الثالثة للحكم 697 ـ 698 هـ)، مما يوحي بأنه أواخر صيف 1298 م؛ غير أن المغول وصلوا بالتأكيد في الفصل البارد. يخطئ بيهامادخاني، ملف 386 ب، إذ يجعل الغزو متزامناً مع =

بصورة مباشرة. خرج علاء الدين للقاء المغول في كيلي، مكان غير معروف الآن، غير أنه كان، على ما يبدو، يقع على بعد حوالي خمسة عشر ميلاً إلى الشمال من العاصمة[32]. تمكن جناحه الأيمن، بقيادة ظَفَرخان، من سحق يسار المغول، لكنه ما لبث، في أثناء عودته من المطاردة، أن وقع في كمين نصبته مؤخرة العدو بقيادة النويان (القائد) تراغاي، حيث تعرض للإبادة. ومع ذلك، فإن الجيش المغولي ما لبث أن انسحب[33]. يبقى تفسير برني - وهو يقول إن شهية المغول للمزيد من الصراع، كانت قد تضاءلت جراء المقاومة الشرسة التي أبداها ظفرخان، الذي كان اسمه سيصبح شائعاً بين صفوفهم - عاجزاً عن الإقناع[34]. فالسبب الحقيقي يبدو، كما تقول مصادر معاصرة، كامناً في حقيقة أن قُطْلُغ قوتشا كان قد أصيب بجرح قاتل: وقد فارق الحياة في أثناء رحلة العودة الطويلة إلى قاعدته[35].

على امتداد السنوات القليلة التالية، تابعت عصابات مغولية مؤلفة من

= حملة راناثانبور. ويقوم وصّاف، 312، بتحديد 694 هـ خطأ؛ أمّا رشيد الدين، JT، تحقيق بان، **كتابات هندية**، النص العربي .Taf، 59، النص الفارسي 25 Taf (تر. ألمانية 50)، فيبقى غامضاً.

(31) ذلك هو اسمه في FS، 260 (تر. 431). هذا صحيح: على الرغم من أنه لا يظهر في JT أو في **معز الأنساب**، فإنه وارد في لائحة أبناء دوا في SP، ملف 120 أ.

(32) هوديڤالا، **دراسات**، I، 271، للاطلاع على نوع من المناقشة. عن المصادر التي لا يوردها يكتفي FS، 259 (تر. 430) بالقول إن كيلي هي في الدؤاب؛ غير أن مخطوطة بودليان، ملف 145 أ من TFS[1]، ومخطوطة RRL 219، يجعل السلطان يقطع 7 **كوروهات** (الكوروه الواحد يساوي حوالى ميلين) من دلهي إلى أرض المعركة. عن قوة اللعب بالألفاظ في DR، 60، تُرجح تهجئة «كايلي» في FD، III، 548 هـ. 4؛ غير أن هذا لا يكون حاسماً، نظراً لأن ألاعيب خسرو تبقى بصرية خالصة في الغالب.

(33) TFS، 260 _ FS261 .، 262 _ 265 (تر. 430 _ 441): المصدر نفسه، 265 _ 269 (441 _ 443)، يتحدث عصامي عن مجابهة أخرى في اليوم التالي بين المغول وقوة السلطان الرئيسية. إن تهجئة «تاريخي» الموجودة عادة في الأدبيات الثانوية غير صحيحة: إنها تو. تاراقاي، «أصلع» (بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 69، 568)، والمعنى يؤكده تلاعب خسرو اللفظي في KF، 37، **ساري أصلاً**.

(34) TFS، 261.

(35) قاشاني، 193، DR201 .، 61، **أغارتشي حالي آز شمشير جان بورد واليك آز ساهي حاربا رافتانامورد**: هذا التفصيل المحذوف من ED، III، 548، مثبت من جديد في بيهامادخاني، ملف 387 ب (مع النظم)، TMS، 72 _ 73، وبداؤوني، I، 185. عن معنى **رافتانا [ن]**، انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 268.

عشرة إلى خمسة عشر ألف فارس، القيامَ بغارات نهب وسلب على البنجاب، غير أنها لم تُحْدِثْ رعباً عاماً، وانسحبت في كل مرة، دون الالتحام في أية معركة[36]. أمّا عندما باتت قوات علاء الدين سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م، مبعثرة، مرة أخرى، على حملات نائية، شعر تراغاي، وقد أصبح قائداً لجيش قُطْلُغ قوتشا[37]، بامتلاك ما يكفي من القوة، لتهديد دلهي مرة ثانية. بدت هذه الغزوة خطراً، أكبر حتى من الذي شكلته غزوة قُطْلُغ قوتشا. اضطر علاء الدين لاعتماد التكتيكات الدفاعية، التي كان قد تجنبها خلال الهجوم السابق، متمترساً هو وجيشه، في سهل سيري. كان موقع المغول ممتداً من اليمونه وحتى سهل لوهراوات؛ غير أنهم، رغم إغاراتهم المتكررة على ضواحي المدينة القديمة، حيث توغلوا حتى الحوض الخاص (حوضي خاص)، عجزوا عن الاندفاع بقوة، خوفاً من تعريض جناحهم لخطر الانكشاف. دام هذا الجمود مدة شهرين تقريباً؛ ثم ما لبث تراغاي أن انسحب بصورة مفاجئة إلى مناطقه[38].

شكلت غزوات قُطْلُغ قوتشا وتراغاي أزمات كبرى. صحيح أن حجم جيوشهما يأتي شديد التباين في روايات برني، غير أن العدد الأقل الذي يورده هذا عن قوة قُطْلُغ قوتشا، هو عشر فرق (تومنات) أو **لاك** (مئة ألف جندي)؛ لا يقدم أية إحصائيات عن جيش علاء الدين، الذي ربما كان أقل عدداً، لأن تقارير وصلت مصر تجعل العدد ثلاثين ألفاً فقط[39]. وفي 703 هـ

(36) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 145 ب مخطوطة RRL، 220.

(37) وصّاف، 510 (واصفاً أحداث 705 هـ / 1305 ـ 1306م) **لاشغاري قطلغ خواجار ميدانيست**. قاشاني، 36، يعتبر تراغاي أمير (معسكر) أوردو قطلغ قوتشا.

(38) TFS، 301 ـ 302: TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 ب ـ 114 أ، ولكن مخطوطة بودليان، ملف 145 ب ـ 146 أ، تحذف فترة الحصار. FS، 285 ـ 286، 291 ـ 292 (تر. 460 ـ 461، 466 ـ 467)، يتحدث عن غزوين لتراغاي، دام الأول أربعين يوماً والثاني شهراً كاملاً. لقد رافق عملية إغارة لاحقة في 1305م، حين لم يتمكن، بالتأكيد، من الوصول إلى العاصمة.

(39) ابن الدواداري، IX، 57، وابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشيه، 557، عن جيش دلهي. عن =

/ 1303م، ربما جاء تراغاي على رأس جيش قوامه مئة وعشرون ألفاً من الرجال، في حين تقول إحدى مخطوطات الصياغة الأولى لكتاب برني، إن السلطان تصدى للحصار، وقاومه بجيش لا يزيد عن عشرة آلاف من الخيالة، وخمسين ألفاً من المشاة[40]. وعلى الرغم من أن مغول قُطْلُغ قوتشا، لم يصلوا في توغلهم إلى أطراف المدينة، فإن دلهي شعرت بوطأة الغزو، لأن لاجئين من الأرياف المحيطة تسببوا في رفع أسعار المواد الغذائية، حين صار التجار الحذرون عازفين عن المغامرة بالاقتراب من المدينة[41]. وفي أثناء هجوم تراغاي، كابدت دلهي متاعب أقسى أشكال الحصار. فعلاء الدين نفسه، وهو المشغول بتحجيم تشيتور وإخضاعها، لم يدرك، إلاّ متأخراً، مدى ضخامة الأزمة[42]. لم يكن ثمة أمل في الحصول على تعزيزات: لم تكن حاميات مُلْتان ودَيْبلُپور وسامانا مشغولة فقط بإغارة مغولية متوغلة في سيويستان، بل وكان تراغي قد أمّن جميع مخاضات اليمونه ومعابره، بما أجبر وحدات قوات علاء الدين، العائدة من تيلانغ، على التوقف في كول وبرن[43].

= المغول، انظر TFS، 256، مع أن الرقم من قبل، في 254، يكون عشرين تومناً؛ تكون مخطوطات TFS مختلفة ومخطوطات ديغبي متفقة هنا مع النص المطبوع في حين تقوم مخطوطات بودليان ملف 145، وRRL 219، بإعطاء عدد التومنات بالتتابع على أنه «عشرة أو خمسة عشر» و«عشرة أو اثنا عشر».

(40) المصدر نفسه، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 114 أ، عن قوات السلطان. عن جيش تراغاي، انظر المصدر نفسه، ملف 113، حيث الأول يقول «عشرة إلى اثني عشر تومناً» ثم «اثني عشر»؛ وتقول مخطوطة RRL، 220 لاك واحد وعشرين ألفاً» (العبارة المستخدمة فيما بعد في TMS، 73)؛ مخطوطة بودليان، ملف 145 ب، تقول عشرين إلى ثلاثين ألفاً موحية بأن عبارة سقطت. TFS، 300، يقول مرة اثني عشر تومناً (ولكن قارن مخطوطة BL مع «تومنين أو ثلاثة») و«30 أو 40 ألفاً» مرة أخرى (مخطوطة BL مختلفة ثانية، حيث يقال «20 أو 30 ألفاً»). FS، 285، (تر. 460) يورد الرقم العالي الباعث على السخرية 200000 للمغول.

(41) TFS، 254 ـ 255.

(42) TFS؛ مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 / مخطوطة بودلبان، ملف 145 ب مخطوطة RRL 220. قبل أن يمضي ما هو أقل من شهر وصل الجيش المغولي إلى اليمونه على بعد حوالى عشرة أميال إلى الشمال من العاصمة.

(43) TFS، 300 ـ 301.

كثيرون اعتبروا انسحاب تراغاي إحدى معجزات العصر[44]؛ وبالتأكيد، فإن المصادر لا تقدم أي تفسير. ثمة احتمال قوي أنه، استناداً إلى تجربته السابقة مع تكتيكات السلطان العسكرية، كان قد ترقب معركة التحام، وكان قد جاء دون استعداد لفرض الحصار[45]؛ والاحتمال الأقوى، هو أن اهتمامه كان مشدوداً إلى ما كان يجري فيما وراء النهر (جيحون)، إلى تلك الأحداث التي سنعاينها بعد قليل. أدى غزوُه إلى خضر علاء الدين، على إصلاح وترميم الكثير من القلاع المختلفة الواقعة على طريق الزحف المغولي؛ جرى تحصين كايتال من جديد، وثمة نقش على بوابة بارسي في هانسي، يمكّننا من تحديد تاريخ الترميم هنا بشهر ربيع الثاني من سنة 703 هـ / تشرين الثاني / نوفمبر 1303م[46]. وكذلك، فإن السلطان قام باستحداث سلسلة متنوعة من التدبير المالية والإدارية، وبالتخطيط لمضاعفة القوات المسلحة، وتجنب أي تكرار للأزمة (انظر الفصل الثاني عشر)؛ غير أن أهالي دلهي بقوا، بصرف النظر عن مدى نجاح كل هذه الإجراءات، محقين في التعبير عن الامتنان أيضاً، لذلك الصراع بين الإخوة، الذي نشب في هذا الوقت تقريباً في آسيا الوسطى.

انهيار تحالف قايدو وصعود الجغتائيين

من سخريات القدر أن تشاپاراً، وَحْدَه بين سائر الحكام المغول، هو الذي أخفق في جني أية فائدة من السلام الذي كان قد أرسى أساسه. فإذعانه للخاقان، ما لبث أن وضعه في مكانة موازية لمكانة مرؤوسه السابق، دوآ،

---

(44) المصدر نفسه، TFS302 .[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 114 أ / مخطوطة بودليان، ملف 146 أ / مخطوطة RRL، 221.

(45) بيران، **قايدو**، 89 ـ 90، يرى أن الجيوش الجغتائية «كانت قليلة المهارة نسبياً في فنون الحصار». لستُ مقتنعاً بحجة اقتدار علم خان «وصول البارود إلى العالم الإسلامي وشمال الهند: تسليط الضوء على دور المغول»، JAH 30 (1996م)، 27 ـ 45، عن قوة مرجع واحد في KF ثمة من يقول بأن المغول كانوا يستخدمون البارود في حرب الحصار في الهند مع حلول سنة 1300 م.

(46) وحيد ميرزا، «بعض المنقوشات العربية والفارسية من البنجاب الشرقي»، EIAPS (1953 ـ 1954م) 8 ـ 9. مَهرداد شوكوهي (محرراً) **هاريانا** I (لندن، 1988)، 31 ـ 33.

الذي دأب على مضاعفة تقويض مركزه، عن طريق تشجيع أمراء تشاپار المختلفين على النفور والتعبير عن الاستياء[47]. وفي الحرب التي اندلعت سنة 705 هـ / 1305م، حظي دوآ بالدعم، ليس فقط من جانب الكثير من الأمراء الأوغوديين، مثل كُورَسْبَه وأشقائه خصوصاً، بل ومن القوى الحدودية التابعة للخاقان في الشرق أيضاً: اضطر تشاپار للخضوع لدوآ، فيحصل على حصة أو إقطاعة أصغر بكثير[48]. يبقى اهتمامنا بهذه الحروب ككل، أقل من اهتمامنا بتبعاتها المتشعبة في أفغانستان وعلى امتداد جيحون الأعلى، حيث تمت الضربة الأولى، على ما يبدو، في صيف 705 هـ / 1305م، على يد تراغاي، تنفيذاً لأوامر سرية صادرة عن دوآ، إذ توجه نحو الهند[49] بعد أن صدته قوات ساربان. غير أن هذا الأخير ما لبث، غداة هجوم إيسَنْ بوقا، ابن دوآ، الذي كان والده قد أرسله ليتولى حكم قوم قُطْلُغ قوتشا، أن ارتحل عن قواعده في بغلان سنة 706 هـ / 1306م، مصحوباً بكل من تيمور بن إيوغن وكيدر، وتوغل في خراسان، طلباً لحماية الإيلخان أولجايتو[50]. ثمة تفصيلات مبعثرة في مصادرنا، تؤكد الانطباع القائل بأن أفغانستان كانت غارقة في بحر من الفوضى. يقول وصّاف، إن محاولة تراغاي، الذي كان يريد الهرب إلى الهند، أعاقتها أزواج قُطْلُغ قوتشا اللواتي رفضن السماح له بالمرور بسبب عدائه لساربان، مما دفعه إلى الالتحاق بركب النغودريين[51]. وبعد وقت غير طويل، قُتل، حين اضطر إيسن بوقا للذهاب إلى «هندوستان» ـ ربما الحدود الهندية ـ لإخماد المعارضة (مخالفَتْ) داخل صفوف جيش قُطْلُغ قوتشا[52].

---

(47) قاشاني، 33 ـ 35.

(48) انظر عموماً بيران، **قايدو**، 73 ـ 77.

(49) وصّاف، 510. قاشاني، 36، ما إن يبدأ بوصف هذا الصراع حتى يتوقف فجأة.

(50) وصّاف 510 ـ 511. قاشاني، 54، يتحدث عن وصول ساربان وتَمُر إلى بلاط أولجايتو في رجب 706 هـ / كانون الثاني / ديسمبر 1307م، ولكن، حسب كلام وصّاف، 512، فإن ساربان بقي في خراسان وقضى نحبه بُعَيْد ذلك.

(51) المصدر نفسه، 510، با ـ قراؤونس ملحق شود.

(52) المصدر نفسه، 517.

استمر الصراع في آسيا الوسطى غداة وفاة دوآ سنة 1306م، وفي أثناء الفترة القصيرة لحكم ابنه كونشك الذي مات سنة 1308م، ولم تتم استعادة السلام إلاَّ في 709 هـ / 1309م، حين جرى استدعاء إيسن بوقا من بيني غاو، ليكون خاناً لدولة، باتت الآن مؤلَّفَة ليس فقط من مناطق أبيه، بل ومن أكثرية أقاليم قايدو أيضاً[53]. غير أن هذا الهدوء ما لبث، في غضون بضع سنوات، أن تبدّد، جراء أحداث امتدت بجذورها، مرة أخرى، إلى منطقة أفغانستان الحدودية. فبعد الحكم الوجيز لشقيق إيسن، بوقا الأصغر، إيت قول للنغودريين[54]، نجد المنطقة خاضعة لسيطرة داود قوتشا، ابن أو ابن شقيق قُطْلُغ قوتشا. ومثله مثل قُطْلُغ قوتشا هذا، ظل داود قوتشا يتحرّك وينتقل بين ضفاف جيحون (آموداريا) و«أبعد أطراف شابورغان»، من جهة، والأقاليم الحارة (غرمسير) في غزنه وبيني غاو وبُست وتيغين آباد ووادي الأندوس، من الجهة الثانية. لقد أثبت أنه كان حاكماً مفعماً بالنشاط، دائباً على رسم الخطط الخاصة بهراة، وساعياً إلى إركاع اثنين من الزعماء، هما نَجْلا آباتشي: تيمور ولاكتشير. وبما أنهما يعتبران قائدي «الفلول المتبقية (**بقيات**) من النغودريين»، فقد يكون جزء من القوات النغودرية قد تمكن من استغلال الانتفاضات الأخيرة، للخلاص من دائرة النفوذ الجغتائي. ومهما يكن، بادر تيمور ولاكتشير إلى طلب العون من الإيلخان أولجايتو، الذي انقضت قواته سنة 712 هـ / 1312م على داود قوتشا، واستباحت مقر قيادته في تيغيناباد[55].

---

(53) المصدر نفسه، 513 ـ 514، 518 ـ 520. قاشاني، 147 ـ 150. بارتولد، **أربع دراسات**، ا، 131 ـ 133.

(54) قاشاني، SP150 ،. ملف 120 أ، **ومعز الأنساب**، ملف 32 ب، يعتبرانه من أبناء دوا. الاسم هو تو. إيت، «كلب» + كول، «مملوك ـ عبد»: كلاوسون، **قاموس. . .**، 34، 615.

(55) قاشاني، 152 ـ 153، 201 ـ 202، واصفاً هذه الأحداث مرتين. سيفي، 595 ـ 598، حوالى سنة 713 هـ، وواقعاً في خطأ اعتبار داود قوتشا أحد أبناء دوا: وحده يأتي على ذكر استباحة تيغين آباد. لا يرد أي ذكر لداود قوتشا في SP، غير أن يظهر في **معز الأنساب**، ملف 32 ب، بوصفه ابناً لأحد إخوة قطلغ قوتشا باسم قطلغ الزعماء الغودريين: قاشاني، 152. أيضاً 201 بقايا القراؤون النيكوداريين. عن اسم الأخ الثاني (ل كم ي ر في النص المطبوع)، استانبول، مخطوطة آياصوفيا 3019، ملف 67 أ، 89 أ، تورد ل ك هـ ي ر.

جاءت استجابة أولجايتو للاستغاثة النغودرية متناغمة مع الاهتمام الصريح، الذي كان قد عبر عنه من البداية بحدوده الشرقية، حيث استبدل الأسرة الحاكمة في كرمان، بموظف إيلخاني، وأعاد تأكيد السيطرة على قُهستان، وصولاً إلى احتلال هراة سنة 706 هـ / 1307م، وهي المدينة التي ظلت، لبضع سنوات، تتحدى سيادته. تقول التقارير التي وصلت إلى مصر، إن الهدف الرئيسي لحملة الإيلخان المشؤومة، في تلك السنة، والمتمثلة بإخضاع جيلان، كان مُنصَباً على تسهيل المواصلات مع خراسان[56]. ثمة قَدْرٌ من الإغراء في ربط هذه الطَّفْرة من النشاط العسكري، بالبعثة التي أوفدها أولجايتو إلى دلهي سنة 710 هـ / 1310 ـ 1311م، طالباً خضوع علاء الدين ويَدَ إحدى الأميرات الخَلْجيات للزواج. غير أن هذه لم تكن، على أية حال، سوى صلة منعزلة، ومن المؤكد أنها لم تثمر قط، لأن أعضاء البعثة احتُجزوا، وجرى سحق ثمانية عشر منهم تحت حوافر الفيلة[57].

أدى هرب داود قوتشا، عبر جيحون، واستنجاده بإيسَن بوقا، إلى اندلاع الحرب التي دامت عدداً من السنين، بين الأمة الجغتائية والدولة الإيلخانية. كذلك بادرت قواتُ الخاقان، الذي كانت حدوده قد زحفت مسافة لا يستهان بها غرباً، منذ انهيار إمبراطورية قايدو، إلى الاشتباك في معارك مع إيسَن بوقا، وعدد البعثات والسفارات المتبادلة بين إيران والصين يبيِّن أن التضامن الطولوي

(56) كيرمان: قاشاني، 43؛ قزويني، **تاريخ ـ ي غوزيدا**، 6، 5. قُهستان: قاشاني 54. هراة: سيفي، 461 ـ 497، 503 ـ 543؛ شبولر، **المغول في إيران**، 93 ـ 94. غيلان: ابن الدواداري، IX، 149؛ ابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشيه، 641؛ بويل «التاريخ العائلي والسياسي»، 400 ـ 401. قارن راي شبولر حول سياسته الخارجية: **المغول في إيران**، 89 ـ 90.

(57) وصّاف، 528؛ ثمة خطأ في تقديمها لسفارة ودية في عزيز أحمد، «الضغط المغولي»، 187 ـ 188، وكتابه، **دراسات**، 16. أما وزير أكبر أبو الفضل علامي فيتحدث عن سفارة أرسلها أولجايتو إلى قطب الدين مبارك شاه خلجي، برئاسة شخصية بمستوى رشيد الدين: **عيني أكبر**، تحقيق هـ. بلوشمان، BI (كالكوتا، 1872، 1877م، جزءان)، II، 206؛ تر. هـ. س. جاريت، BI (كالكوتا، 1891 ـ 1894، 3 أجزاء)، III، 348. غير أن من غير المحتمل أن يكون الإيلخان قد استخدم موظفاً أو وزيراً على هذا المستوى لمثل هذه المهمة. عن مراسلات رشيد الدين الخاصة.

كان قد عاد إلى البروز بوصفه عاملاً ذا شأن في سياسة العالم المغولي. وعند أحد المنعطفات، أصبحت القبيلة الذهبية، متورطةً هي الأخرى مع الأمة الجغتائية[58]. تخلى مغول آسيا الوسطى مؤقتاً عن سيطرتهم على أقاليم أفغانستان الاستراتيجية، التي كانت تمكّنُهم من الوصول إلى الهند. ونحن لا نعلم إذا كان داود قوتشا قد عاد ورسَّخَ وجوده في مضارب خيامه السابقة[59].

بعد وفاة أولجايتو، جوبه خَلَفُه الفتي أبو سعيد (716 ـ 736 هـ / 1316 ـ 1335م)، بعصيان دبره أمير جغتائي مرتد، يدعى: ياساؤر كان قد تشاجر مع إيسَن بوقا، وسمح له الإيلخان بالاستقرار جنوب نهر جيحون. قام الأمير المتمرد بتهديد هراة، والإغارة على سجستان حيث نجح سنة 717 هـ / 1317 ـ 1318م، في الإجهاز على نصير الإيلخان، الأمير النغودري تيمور. غير أن ياساؤر هذا، قضى في هجوم شنَّه كيبك، شقيق إيسن بوقا ونائبه فيما وراء النهر سنة 720 هـ / 1320م، قبل أن تتمكّن قوات أبو سعيد المتقدمة، من الاهتداء إلى مكانه. كانت طموحاته على درجة من الخطورة أدَّتْ لدفع أقربائه الجغتائيين والإيلخانيين إلى التعاون فيما بينهم موقتاً، في سبيل إزاحته[60].

لبعض الوقت، بدا وكأنَّ الإيلخانيين باتوا مؤهلين لممارسة السلطة في خراسان الشرقية وأفغانستان، إمّا من خلال قادة نغودريين مطواعين، مثل تيمور

---

(58) شبولر، **المغول في إيران**، 97 ـ 98. بارتولد، **أربع دراسات**، I، 133. ت. ت. آلسن، «أسرة يوان الحاكمة وأويغور طرفان في القرن الثالث عشر»، في موريس روسّابي (محرراً)، **الصين بين أنداد: المملكة الوسطى وجاراتها، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر** (بيركلي ولوس أنجلوس، 1983م)، 259 ـ 260. عن مشاركة الجحفل الذهبي، انظر MA، تحقيق ليش، 79 (تر. ألمانية 144 ـ 145).

(59) المتابعة (الذيل)، مجهول المؤلف، لـ JT، استانبول، مخطوطة مكتبه نور عثمانية، 2799 (الترقيم القديم: 3271)، ملف 25 ب، يزعم أن ذلك قد حصل ولكن قاشاني أو سيفي لا يؤيدانها.

(60) رسّل ج. كمبينرز، الابن، «**تجزئة الأمصار وتزجية الأعصار** لوصّاف مصدراً لتاريخ الخانية (الإمارة) الجغتائية»، JAH 22 (1988م)، 178، 185 ـ 186. كانو كازوهيده «كيبك وياساور ـ تأسيس الخانية الجغتائية»، **مذكرات قسم بحوث تويو بنكو** 49 (1991م)، 97 ـ 118. شبولر، **المغول في إيران**، 98 ـ 101. عن تمُر، انظر سيفي، 677.

نجل آباتشي، أو عن طريق الترتيبات التعاهدية مع عدد من الأمراء المهاجرين القادمين من آسيا الوسطى، مثل ياساؤر[61]. غير أن موت أولجايتو، وما أعقبه من إجهاز على تيمور أولاً، وياساؤر من بعده، ما لبث أن فتح الطريق أمام انتعاش النفوذ الجغتائي، مرة أخرى. قد يكون هذا التقدم الجديد عائداً إلى اجتياح لإيران الشرقية، نفذه سنة 722 هـ / 1322م، كوپك، الذي كان قد بات تابعاً لإيسَن بوقا، كخان للأمة الجغتائية (حوالى 718ـ 726 هـ / 1318 ـ 1326م)[62]. أما خَلَفه ترماشيرين (726 ـ 735 هـ / 1326 ـ 1334م)، وهو ابن آخر لدوآ، فقد تعرض لهجوم القوات الإيلخانية، وهُزم في منطقة كابُل وزابل حوالي سنة 726 هـ / 1326 م؛ وقد تعرضت غزنة لأعمال النهب والتخريب[63]. غير أن الهزيمة لم تتمخض، على ما يبدو، عن أي تغيير في السادة الحكام. فابن بطوطة الذي مر عبر أراضي الدولة الجغتائية، في طريقه إلى الهند سنة 733 هـ / 1332 ـ 1333م، يشير إلى غزنه بوصفها من ممتلكات ترماشيرين، رغم أنها كانت أطلالاً وأنقاضاً، بمعظمها. كانت خاضعة لكبير أمراء الخان، بورولداي، الذي كان يتخذ بروان في الهندوكوش، مقراً له، تاركاً غزنه لضباطه (**نوابه**)[64]. تقول المؤشرات، إن منطقة غزنه بقيت داخل دائرة النفوذ الجغتائي، حتى صعود تيمولنك (تيمور لانغ = تيمورلنك).

عمليات الاجتياح اللاحقة

لم تتوقف إغارات جيوش دوآ وقايدو على شبه القارة، خلال

---

(61) كمبينز، «**تجزئة الأمصار**...»، 184 ـ 185.

(62) العيني (متوفى في 855 هـ / 1451م)، **تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر**، مخطوطة BL، النص العربي، 985 (إضافة: 22360)، ملف 13 أ؛ أيضاً في ف. ج. فرهر، فون يزنهاوزن، **سبورنيك ماتريالوف أوتنو سياشيخسيا ك إستوري زولوتي أوردو**، ا سان بطرسبرغ، 1884)، النص العربي، 494، تر. 524 ـ 525. قارن **الذيل مجهول المؤلف** لـ JT، ملف 57 أ.

(63) قزويني، تاريخ ـ ي غوزيدا، 617.

(64) IB، III، 42، 82 ـ 83، 87 (تر. جيب، 561، 585 ـ 586، 589). أوبان، «خانية الجغتاي»، 17 ـ 18. عن حالة غزنة الخربة، انظر IB، III، 88 (تر. 590).

الاضطرابات التي أعقبت وفاة الأخير. ففي أوائل 705 هـ / خريف 1305م، توغلت قوات دوآ بقيادة علي بك[65]. وتَرْتَق في الهند. وغير ملجومة بعصيان تراغاي الذي ما لبث أن ارتد بعد عبور الجهيلام[66]، اندفعت عميقاً إلى قلب البنجاب، مستبيحة سفوح المرتفعات السيوالكية، ثم استولت على بداؤون وأوَذ. تمكّن أمير الاصطبل (**الآخور بك**)، ملك ناناك، والذي كان صاحب إقطاعي سُنّام وسامانا، والذي كان مصحوباً بعدد من الأمراء الآخرين، بمن فيهم تُغْلُق، من إلحاق الهزيمة بالغزاة في الثاني عشر من جمادي الثانية / الثلاثين من كانون الأول / ديسمبر، في أطراف آمروها. نُقل علي بك وتَرْتَق إلى دلهي، غير أنهما أُبقيا على قيد الحياة، وفي حالة كريمة من الأَسْر، لبعض الوقت[67].

تبقى تفاصيل الهجمات المغولية الأخيرة في عهد علاء الدين، مشوَّشة بعض الشيء. ويبدو أن أمير خسرو، الذي كتب بعد سنوات قليلة من الحدث، يصف إحدى الغزوات التي شنها جيش مؤلف من ثلاث فرق رئيسية، وأن مؤلّفين لاحقين، بدءاً ببرني، أخطأوا تفسيره، وافترضوا وجود عدد من عمليات الاجتياح المنفصلة، كل منها في سنة مختلفة. يبدو أن المغول كانوا تحت القيادة العامة لكوبك، الذي كان يضطلع بقيادة قوات دوآ جنوب نهر

---

(65) علي بك الذي يُعْتَبَر أحد أحفاد جنكيزخان في TFS، 320، كان منتمياً، في الحقيقة، إلى قبيلة قونقورات ومتزوجاً أميرة جنكيزية: ومن هنا لقب **كورغن صهر**، نسيب «الممنوح له من وصاف»، 526. أما زوجه فقد كانت ابنة حفيد أوغودي: SP، ملف 127 أ، مع إضافة **أكتون دار ديلي آست**؛ ومنه معز **الأنساب**، ملف 42 ب، **با ـ ديلي رافت**. يؤكد وصّاف أن قواته كانت لدوا (**تواتي**).

(66) KF، 37 ـ 38 «لقد سمح لسهام الغزاة (المجاهدين) باختراق تعميمه وقفل راجعاً»، هذه العبارة المجازية أُسيئت ترجمتها إذ اعتبرت أنها تقول إنه قُتل، كما في ED، III، 72، ولال، **تاريخ الخلجيين**، 144.

(67) وصّاف، 527 (مع سنة 708 هـ خطأ). KF، 38 ـ 39، يورد التاريخ. فقط TFS، 320، يحدد الموقع. انظر أيضاً FS، 303 ـ 305 (تر. 479 ـ 482)؛ وصّاف، 526 ـ 527. إحدى مخطوطات KF تقول ن ا ي ب خطأ بدلاً من ن ا ن ك، ويكون المؤلفون المتأخرون على صواب حين يطلقون على جنرال السلطان في هذه المناسبة اسم ملك نائب (كافور): ومثلهما كل من TMS، 73 وبداؤوني، I، 185، الذي يخطئ إذ يساوي بين ملك «ماناك» وملك نائب.

جيحون[68]، وزميلاه هما، إقبال وتايبو، كانا متوغلين في السلطنة، عند مواقع قريبة من مُلْتان، وعاكفين على أعمال النهب والسلب والتخريب على امتداد ضفاف نهر الراوي، تابع المغول زحفهم على كوهرام وسامانا، ولكنهم ما لبثوا أن انعطفوا جنوباً نحو نغوار[69]. تم إرسال كل من ملك كافور «هزارديناري» وتُغْلُق مع أمراء آخرين، للوقوف في وجه الغزاة الذين بوغتوا قُرب نهر يسميه خسرو «علي واهان»، وإن ظهر في رواية برني تحت اسم غغّار. جاءت هزيمة الطليعة المغولية كاملة، وأُخذ كوبك أسيراً. ثم أقدم كافور على سحق القوات التي كانت في المؤخرة، على مسافة معينة، غير أن إقبال وتايبو لاذا بالفرار، وعبرا الأندوس عائدين من حيث أتيا[70].

وبعد ذلك، يقدم برني تفاصيل اثنتين أُخريين من عمليات الاجتياح. أقدمت ثلاث أو أربع فرق (تومنات)، أولاً، على غزو منطقة سيواليك، ولكن جيش دلهي سيطر على معابر النهر، وقطع عليها طريق انسحابها. أمكن التغلب على المغول، الذين مدوا خطوط اتصالاتهم إلى عمق المناطق القاحلة والمهجورة بسهولة. وبأوامر من السلطان، ذُبح الناجون في قلعة نارايينا. أخيراً بادر إقبال، الذي يدعوه برني إقبالماندا، إلى غزو الهند، ولكنه هُزم وقُتل في مكان قريب من علي ـ واهان[71]. إن عباة «سيوالك»، التي تحتضن، بأوسع معانيها، المنطقة الممتدة من سفوح الجبال إلى نغوار في الأسفل؛ والإشارة إلى نارايينا غير البعيدة عن نغوار، وتكرر ورود اسم علي ـ واهان ـ إن هذه

(68) JT، II، 570 (تر. بويل، 313 / تر. فيرخوفسكي، 202). FS، 318، يدعوه ساره ـ آهانغي آن كيشوار («طليعي ذلك البلد»). كان مع ساربان في خراسان سنة 1302 ـ 1303 م: قاشاني، 18.

(69) KF، DR. 42، 61.

(70) يرد ذكرهما مع كوبيك في الرواية الموجزة، المصدر نفسه، 61 ـ 62. ثمة رواية أوفى في KF، 43 ـ 44. يقوم هوديڤالا في دراسات، ا، 248 ـ 372 بمناقشة الاسم الصحيح لتايبو... يرد ذكر نهر علي ـ واهان أيضاً في FS، 319 (تر. 496)؛ انظر TFS، 321، عن الغاجّار.

(71) المصدر نفسه، 321 ـ 322... انظر هوديڤالا، دراسات، ا، 397.

التفاصيل كلها توحي بأن الأحداث الثلاثة الواردة في كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لم تكن في الحقيقة إلاّ أجزاء من الغزوة نفسها، كما روى قصتها أمير خسرو[72].

وعلى الرغم من أنها توغلت أعمق في أراضي السلطان وباتت، بالذات بعد سنة 1305م، خَلْفَ الغانج، فإن هذه الهجمات الأخيرة، كانت أقل انطواء على التهديد والخطر، من نظيرتها التي شنها كل من قُطْلُغ قوتشا وتراغاي. يبدو الجيش المغولي أصغر حجماً مع كل مرة. فعلي بك وتَرْتَق قادا خمسين ألفاً من الفرسان، حسب كلام خسرو، وإن كانت مصادر أخرى تورد أرقاماً أصغر[73]. ومن الواضح أن رقم المئة ألف الذي يسوقه عصامي عن جيش كوبك وزميليه، مبالغ به، نظراً لأنهم ما لبثوا أن تحولوا جنوبياً، بعيداً عن سامانا، لافتقارهم إلى القوة اللازمة لمتابعة السير قدماً[74]. أما إشارة برني إلى «قادة ثلاث أو أربع فرق (تومنات)»[75]، رغم ورودها في فقرة ربما كانت مشوشة، فتقدم فكرة أكثر واقعية عن حجم هذه الجيوش الغازية. في تلك الأيام، كانت المواطن المغولية الأصلية في أعالي حوض نهر جيحون، وفي بلاد ما وراء النهر، ممزَّقة بالحروب الأهلية. ربما باتت إغارات الهاربين الباحثين عن الاستقرار الأكثر دواماً، كما كان يحصل في كل من خراسان وعلى الحدود الصينية طاغية، إلى حدود معينة، على الحملات المنظمة.

يقول خسرو، إن المغول انسحبوا، نتيجة انتصارات علاء الدين، إلى

---

(72) حُكْم لال، **تاريخ الخلجيين**، 147 ـ 149.

(73) KF، 38. وصّاف، 526، يقال ثلاثة تومنات، رغم صعوبة التوفيق بين هذا ورقم الـ 60000 لرؤوس المغول المذبوحين. TFS، 320، يقول ثلاثين أو أربعين ألفاً: عن مخطوطة TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 121 ب، نحصل على الرقم نفسه، في حين تكتفي مخطوطة بودليان، ملف 146 ب، ومخطوطة RRL، 221، بقول عبارة «عدد من الآلاف».

(74) KF، FS42 .، 318 (تر. 495)، عن الـ 100,000 المزعوم.

(75) TFS، 321.

أعماق «جبال غزنة»، وكانوا عاجزين عن العبور إلى عمق السِّنْد[76]. وفي هذه السنوات، ربما انتقلت قوات دلهي إلى مواقع الهجوم. فالغازي (المجاهد) ملك تُغْلُق، الذي حصل في إحدى المراحل على إقطاع لاهور الإضافي، نجح، حسب رواية برني، ليس فقط في صد المغول، بل وفي مهاجمتهم، متولياً رئاسة حملة إلى أعماق مناطقهم، مرة كل شتاء. وفيما بعد، يعزو لتُغْلُق فضل عشرين انتصاراً عليهم[77]. ليس ثمة أي تفاصيل، كما أنه من الممكن التشكيك بتأكيداته، لولا وجود شهادات أخرى عن مآثر تُغْلُق. ففي كتابه **تُغْلُق نامه** الذي كتب تخليداً لذكرى تنصيب تُغْلُق في 720 هـ / 1320م، يلمّح خسرو إلى ثمانية عشر انتصاراً، على المغول بأكثريتها؛ في حين رأى ابن بطوطة نقشاً في مسجد مُلْتان، يدعي فيه تُغْلُقُ نفسُه، بأنه أحرز تسعة وعشرين انتصاراً على المغول فقط[78]. وما إذا كانت هذه الحملات مسؤولة عن خراب مساحات شاسعة ممتدة بين غزنة والهند، خراب عزاه مخبرو العمري إلى الصراع بين «ملك الهند» و«ملك تركستان وما وراء النهر»[79]، يبقى معلقاً.

كانت قدرة السلطنة على التمتع، المؤقت، بنوع من الحصانة من أية هجمات مغولية كبيرة، ولو لبضع سنوات، مستندة، إلى حد كبير، إلى الأوضاع السائدة في أفغانستان، تلك الأوضاع التي سلّط عليها أمير خسرو في كتابه **رسائل الإعجاز**[80] أضواء مفعمة بالحياة، وإن بقيت مؤقتة. كان العمل

(76) KF، 113.

(77) TFS، 223 ـ 322؛ وانظر 416 عن الانتصارات العشرين. فيما بعد يَعْزو برني هذه الانتصارات العشرين إلى تُغلُق وأخيه (رجب) ـ في محاولة منه، دون شك، لخطب ود فيروزشاه ابن رجب.

(78) **تُغلُق ـ نامه**، IB138 .، III، 202 (تر. جيب، 649).

(79) MA، تحقيق سبايز، 8 (تر. ألمانية 30) / تحقيق فارق، 16 (تر. صديقي وأحمد، 32).

(80) RI، IV، 144 ـ 156؛ للاطلاع على تلخيص موجز، انظر ED، III، 566 ـ 567. قام عسكري بدراسة الوثيقة في «مادة»، 18 ـ 20 من مقال م. ي. ز. صديقي «آرزداشت بدر حاجب»، MIM 2 (1972م)، 291 ـ 297.

بمثابة مذكرة (**عرض داهش**) من الياور (**الحاجب**) بدر إلى خضرخان نجل السلطان علاء الدين، تروي قصة إحدى الحملات الشتوية ضد مغول غزنه. كانت قوات دلهي، بقيادة نبيل يرد ذكره على أنه الخان الأعظم (**خاني أعظم**)، على ذمة الرواة، قد احتلت مدينة غزنه، وباتت خطبة الجمعة تُقرأ باسم علاء الدين[81]. كان من المبرر أن تثير مذكرة بدر قَدْراً غير قليل من الشكوك في صفوف الباحثين[82]. فانتصار كبير بحجم الاستيلاء على غزنه ـ لم يرد تأكيد له في أي مصدر آخر ـ غير وارد. ومع ذلك، فإن الوثيقة تتضمن ما يكفي من التفاصيل الظَّرْفية للإيحاء بأنها مستندة إلى تقارير استخباراتية صحيحة عن الجبهة الشمالية الغربية، موجهة إلى حكومة السلطان[83]. يشير بدر إلى حرب الإخوة التي كانت مشتعلة بين دوآ وشعب قايدو[84]، ويصف كيفية انتشارها لتشمل الجيش المغولي المتمركز في هاشتناغار وبيشاور، بما أفضى إلى طغيان الفوضى على المناطق الممتدة بين غزنة والإندوس[85]. ويتابع كلامه ليقول، إن إيسَن بوقا كان قد تحرك شمالاً استجابة لرسالة تلقاها من كونشك: وقبل مغادرته، كان قد حمَّل بدراً عدداً من الهدايا لسيده خضرخان، عربون مصالحة. وبالتالي، فإن من المطمئن إرجاع الوثيقة إلى سنتي 706 ـ 707 هـ / 1306 ـ 1307م، حين كان كونشك رئيساً للأمة الجغتائية[86]. وعلى الرغم من

(81) RI، IV، 148، 150 ـ 151.

(82) انظر مثلاً داي، «الحدود الشمالية الغربية»، 106 ـ 107 هـ. 2، وفي **بعض جوانب**. . ، 55 هـ 22. عسكري، رسائل [كذا] الإيجاز، 122، يبدو مقتنعاً بأن التقرير صادر عن خسرو بالذات.

(83) انظر تعليق خسرو نفسه على الوثيقة: RI، IV، 18.

(84) المصدر نفسه، IV، 151 ـ 152. . .

(85) المصدر نفسه، IV، 153 ـ 154. . . ؛ عن هاشتناغار، 16 ميلاً إلى شمال ـ غرب بيشاور، انظر IB، تر. جيب 591 هـ. 212.

(86) RI، IV، 154، 155. يظهر اسم القائد المغولي هنا وفي المصدر نفسه على أنه ي س ب غ آ، وهي صيغة مَنَعْتْ عسكري («مادة»، 18 هـ. 50) من التعرف عليه؛ غير أن أفضل المخطوطات قد أوردت ي س ن ب غ ا بوضوح. إن اسمه هو تو. إيسن («ناصح» + بوقا، «فحل «ثور»): كلاوسون، **قاموس**. . .، 248، 312. يظهر اسم كونجك على شكل ق ب ج ك. يكون الهامش (على الصفحتين 1307 ـ 1314) الذي أجازه صديقي «آرزداشت»، 292، واسعاً بلا حاجة.

جملة المشكلات المرتبطة بها، فإن الوثيقة توفر، على الأقل، بيّنات مباشرة تؤكد أن الأمارة التي أسسها قُطْلُغ قوتشا إلى الجنوب من جيحون، كانت قد بدأت تتفكك.

كانت الهزيمة بالنسبة إلى الكثير من المحاربين المغول، تعني شكلاً بشعاً من أشكال الإعدام. فسحق الأسرى المغول تحت أقدام الفيلة، كان قد جعل علاء الدين سيِّئ الصيت، على الرغم من أن مثل هذه التكتيكات، ترد للمرة الأولى في عهد معز الدين كيقباد[87]. فغداة الإغارة التي شنها علي بك. وتَرْتَق أُقيمت حفلة رسمية (دُرْبار) تم فيها إعدام الأسرى المغول بهذه الطريقة، إظهاراً لمشاهد مثيرة لمواطني دلهي؛ كما أخذ الجزاء الشكل نفسه لاحقاً بالنسبة إلى ضباط كل من إقبال وكوپك[88]. وثمة ممارسة غير حميدة، تعود إلى التاريخ نفسه تقريباً تتمثّل بإقامة الأبراج في دلهي برؤوس وجماجم الأسرى المذبوحين. وحسب كلام برني، فإن بُرْجاً من هذا النوع، كان ما يزال موجوداً أمام بوابة بداؤون، في أيامه؛ على الرغم من أن المصادر تتباين حول ما إذا كان مبنياً بجماجم جنود كوپك، أم بجماجم جنود علي بك[89]. لا شك أن غارتين متعاقبتين، أتاحتا فرصة استكمال البرج في مرحلتين. وإذا صدقنا خسرو الذي يتوقف عند مصير قطاع الطرق واللصوص بفَرَحٍ استثنائي، ثمة أبراج مماثلة ارتفعت في مدن أخرى من السلطنة، كما تم إدخال أشلاء وبقايا الأسرى المغول في التحصينات الجديدة بدلهي[90]. أما ما إذا كانت مثل هذه

---

(87) QS، 96 ـ 98: لم يكن إلاّ واحداً من أشكال الموت البشعة.

(88) TFS، 321، FS322 .، 322، من جهة أخرى، يقول إن كوبيك كان قد أُنقذ في البداية ثم قُطع رأسه (أبيات محذوفة من ترجمة حسين، 500).

(89) قوات كوبيك: TFS، 321؛ KF، 45 ـ 46. قوات علي بك: FS، 305 (تر. 481)؛ وصّاف، 527. شيدت أبراج من قبل جماجم الهندوس المذبوحين: Taj، ملف 137 ب.

(90) KF، RI28 .، ا، 17، در أقاصي ـ ي مملك نيز بورجهاي ـ ي ديارهام بار إن ناهج ساراسار باراسي فالاق راسانيراند.

الممارسات ناجحة في ردع المغول، عن الإغارات المقبلة، كنجاحها في إمتاع أهالي العاصمة، فأمر لا نستطيع تأكيده أو نفيه.

يؤكد برني أن فترة الراحة من الهجمات المغولية دامت حتى نهاية عهد قطب الدين مبارك شاه (720 هـ / 1320م)[91]؛ ويزعم خسرو، أن قطب الدين فكَّر بفتح غزنة، غير أن أمراءه أقنعوه بالعدول عن هذه الفكرة[92]. أما كلام برني، الذي يقول إن المغول أصبحوا لا يجرؤون على غزو الهند خلال عهد تُغلُق، لأن الأخير كان قد زرع الرعب في قلوبهم[93]، فيأتي متناقضاً مع الأدلة التي يقدمها هو نفسه، لأنه يحدثنا عن غارة تمت بُعَيْد حملة الدِكّان لسنة 721 هـ / 1321 ـ 1322 م. ثمة رواية أشمل لقصة هذا الهجوم، أوردها عصامي الذي يقول إن السلطان أرسل التعزيزات إلى ابن أخيه وقائده في سامانا، بهاء الدين غارشاسب. ونجح هذا الأخير في مهاجمة مؤخرة الجيش المغولي، التي كانت قد تخلَّفَت في إحدى المخيمات القاعدية عند سفوح التلال، فألحق بها الهزيمة، وذبح قائدها شيرْ (شيرا). وبعد ذلك، ما لبث أن نَصَب كميناً لباقي الجيش الغازي، بقيادة ثلاثة جنرالات هم: هندو وزكريا وأوروس، وأجهز عليه، بالقرب من الضفة اليسرى لنهر بياه، في طريق عودته من نهب الدواب. وكان زكريا، الذي أُخذ إلى دلهي احتفالاً بالنصر، بين الأسرى[94].

محمد بن تُغلُق والمغول

بُعَيْد اعتلائه العرش (724 هـ / 1324م) قاد محمد بن تُغلُق حملة نحو الجهة الشمالية الغربية. وفيما بقي السلطان في لاهور، استولت وحداته على

---

(91) TFS، 322، 223؛ قارن أيضاً 387.

(92) NS، 54 ـ 55.

(93) TFS، 441.

(94) FS، 405 ـ 409 (تر. 611 ـ 618). تقول الرواية الموجزة في TFS، 450، إن القائدين المغوليين قد تم أسرهما.

كالاناور وبيشاور، وصارت الخطبة تُقرأ باسمه فيهما. وفي غضون بضعة أسابيع، اضطر قواد محمد للانسحاب، جراء الافتقار إلى الحبوب والعلف، والالتحاق ثانية بالسلطان الذي بقي في لاهور شهرين أو ثلاثة، لتهدئة المنطقة قبل العودة إلى دلهي. ربما في هذه الأثناء، أقدم السلطان على تحريك عملية ترميم قلعة كالاناور، التي يرد ذكرها في قائمة المناطق غير الكاملة لدى العمري[95]. يبدو أن هذه الحملة انطوت على نتيجة أخرى، ألا وهي إدخال منطقة بيشاور في ممتلكات محمد، لأن ابن بطوطة يعتبر هاشتنغاو «المكان المأهول الأخير على أطراف أراضي الأتراك (أي المغول)» ويشير في مكان آخر، إلى أنها كانت بقعة حدودية، يقوم فيها موظفو جمارك السلطان، بجباية المكوس المفروضة على الجياد المستوردة[96].

وهناك أيضاً، أثر ثالث ترتب على حملة محمد، كان متمثلاً بتعريض السلطنة لغزو شنّه عليها الخان ترما شيرين، الذي كان يقيم في النصف الغربي من الدولة الجغتائية، ربما في تيرميد (ترمذ) أواسط نهر جيحون. ظلت صحة هذه الغزوة موضع شك زمناً طويلاً، على أساس أنها ليست مذكورة في الفصل المتداول لكتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لبرني، وقد قيل إن ترماشيرين قام بزيارة ودية إلى الهند، ملتمساً مساعدة محمد. غير أن العثور على صياغة منقحة أبكر للكتاب، تضمنت وصفاً للغزوة في الحقيقة، ما لبثت أن نَسَفَتْ هذه الفرضية[97]. من الواضح أن ترماشيرين استفاد من الأوضاع المتدهورة

(95) FS، 423 ـ 424 (تر. 649 ـ 650). TMS، 101، عن كالاناور، وإن تم جعل تاريخ استعادتها في أعقاب غزو ترماشيرين. MA، تحقيق سبايز، 6 (تر. ألمانية 26) / تحقيق فارق، 14 (تر. صدِّيقي وأحمد، 30).

(96) IB، II، 373، وIII، 90 (تر. جيب، 478، «شاشناقار»، 591 «شاشناغار»).

(97) جاكسون، «المغول في سلطنة دلهي»، 119 ـ 126، مسوح البيانات. عن النظرة الأقدم، انظر خصوصاً أ. م. حسين، **صعود محمد بن تُغلُق وسقوطه** (لندن، 1938م)، 100 ـ 108، **والأسرة الحاكمة التُغلُقية**، 119 ـ 143.

للدفاعات الحدودية، غداة عصيان كوشلوخان في مُلْتان[98]. ففي تاريخ يضعه برني في إطار سنتين أو ثلاثة بعد نقل أهالي دلهي إلى دولت آباد، ويعتبره سرهندي مطابقاً لسنة 729 هـ / 1328 ـ 1329م[99]، استولت القوات الجغتائية على مساحة كبيرة، محتلةً عدداً من القلاع، وآخذة أسرى، عبر أقاليم لاهور وسامانا وإندري. ثم تقدمت وتوغلت في الدواب. جهز السلطان جيشاً كبيراً، نشره إلى الشمال من دلهي، متخذاً إندرابات القريبة من اليمونه، مقراً قيادياً له، وبالتالي فقد كان، خلافاً لحال علاء الدين في 703 هـ / 1303م[100]، متحكماً بأحد المعابر على الأقل. نجحت فرقة من قواته بقيادة يوسفي بوغرا، الذي كان قد أُرسل لتحرير ميرات، في هزيمة جزء من جيش ترماشيرين، وأسر ابن أخيه. ما لبث المغول أن انسحبوا بسرعة، ولكن محمداً وجيشه تعقبهم: يقول عصامي، إن السلطان توقف في تالنيسار، وأرسل قواته للمطاردة؛ أما سرهندي، فيقول إنه تقدم حتى وصل إلى كالاناور[101]. لقد كانت تلك آخر الغزوات الجغتائية الكبرى، قبل قيام تيمور باجتياح دلهي، وفتحها آخر القرن.

سعى محمد، بدأب، في سبيل تشكيل تحالف يقف في وجه الجغتائيين،

---

(98) TFS، 479.

(99) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160 ب / مخطوط بودليان، ملف 192 أ. TMS، 101.

(100) أفضل النصوص في TFS[1]، مخطوطة RRL، 287؛ قارن مخطوطة بودليان، ملف 192 أ / مخطوطة ديغبي، ملف 160 ب ـ 161 أ. بيهامادخاني، ملف 400 أ، يحدد إندرابات. تبدو هذه المحاولة للتحكم بالعبور أكثر إقناعاً مما قيل في FS، 463 (تر. 698)، عن أن جيش محمد كان منتشراً من سيري إلى باغي جود (جبل الملح).

(101) المصدر نفسه، 463 ـ 465 (تر. 699 ـ 701). TMS، 101. ثمة رواية أقل جدارة بالثقة عن الحدث في كلام أحد المؤرخين التَّمُريين ممن زعموا أن ترماشيرين كان قد اشتراه السلطان وأنه استباح گوجرات لدى انسحابه: يزدي، ZN، تحقيق آ. أورونبايف (طاشكنت، 1972م)، ملف 80 ب ـ 81 أ. عن إخفاقه في ميرات، انظر غياث الدين علي يزدي، **روزنامة ـ ي غزوات ـ ي هندوستان**، تر. آ. آ. سمنوف، **دنفنيك بوخودا تَمُرا ڤ أندو** (موسكو، 1958م)، 129، 131؛ شامي، ZN، I، 194؛ يزدي، ZN، تحقيق م. م. الأهداد، BI (كالكوتا، 1885 ـ 1888)، II، 129، 132 / تحقيق أورونبايف، ملف 328 أ ـ 329 أ.

مع الإيلخان: أبي سعيد. ثمة مؤرخ محلي كتب من جنوب إيران، بعد بضع سنوات، فروى قصة عن سفارة (بعثة) ودية أوفدها السلطان إلى الإيلخان سنة 728 هـ / 1327 ـ 1328 م؛ والرسالة التي حملتها البعثة، والتي كان يسعى محمد من خلالها إلى تحقيق تعاون عسكري ضد ترماشيرين، ما زالت هي الأخرى باقية(102). لم تسفر تلك المفاوضات عن شيء، بمقدار ما نعلم، عدا عن رد مماثل من حيث الود من جانب الإيلخان، غير أن محمداً، كما يُزْعَم، استمر في إيفاد البعثات السنوية حتى وفاة أبي سعيد(103). وفيما بعد، كان محمد وترماشيرين أيضاً، حسب كلام ابن بطوطة، على علاقات ودية، وقد تبادلا الرسائل والهدايا. والبروفسور صديقي، يعزو هذا إلى اعتناق الخان للإسلام، الأمر الذي يبدو أنه حصل بعد 729 هـ / 1328 ـ 1329م(104). غير أن المصالحة، ربما جاءت مرتبطة بصراعه في النصف الشرقي من الإمارة (الخانية) مع أخيه دُوره تيمور، الذي أطيح به أواخر سنة 1331م(105). وفي غضون سنوات قليلة، تمت الإطاحة بترماشيرين نفسه وقتله، مما دشن فترة من انعدام الاستقرار في (الخانية) الإمارة الجغتائية. يبدو أن الخان الجديد بوزون بن دوره تيمور كان يفضل، وإن اعتبره ابن بطوطة مسلماً، الدستور (القانون العرفي) [القانون المغولي] على الشريعة [الإسلامية]، كما لم يكن، بأي من الأحوال،

---

(102) شبان قاراني، 287 ـ 288 مورداً اسم اختسان بين أسماء أعضاء الفريق، ثمة ذكر موجز في فصيحي خوافي، **مجملي فصيحي**، 845 هـ / 1441 ـ 1442م)، تحقيق محمد فروخ (طهران، 1960، 3 أجزاء) III، 39 .**بياضي تاج الدين أحمد وزير**، تحقيق، إعراج آفشار ومرتضى تَمْري (أصفهان، 1974م)، 404 ـ 408، عن الرسالة؛ أيضاً إ. هـ. صدّيقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية: إعادة تقويم»، IC 62 (1988، ج: 4، 10 ـ 12. تفاصيل بعثة أخرى من اختسان إلى أبو سعيد في بيهامادخاني، ملف 405 ب، غير مؤكدة من حيث تسلسلها التاريخي.

(103) شبان قاراني، 88، 288. عن رد الإيلخان، انظر **بياضي**، 408 ـ 409.

(104) IB، III، 43 (تر. جيب، 562). صدّيقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية»، MA14 . تحقيق ليش، النص العربي 58، مكتفياً بتحديد تاريخ اعتناقه بعبارة «منذ سنة 725 هـ» (تر. 117 تقول «زايت 750 خطأ».

(105) **بوان شيه**، عنوان، 35، وارد في MA تحقيق ليش، 241 هـ. 167.

قادراً على بسط نفوذه وسلطته قبل أن يُستبدل، دوره، سنة 1335م بابن عم وثني يدعى تشانغشي كان معادياً للإسلام[106]. قيل للعمري إن هذه الاضطرابات وفّرت للسلطنة فترة من الراحة من الهجمات المغولية[107].

اعتبر محمد خان إخوته في الدين وسيلة أخرى لتوسيع دائرة نفوذه إلى ما وراء الأندوس. فالرسالة (المنشور) التي صيغت باسمه عام 634 هـ / 1333 ـ 1334م وأُرسلت إلى ما وراء النهر لدعوة الأسياد والمشايخ ورجال الدين «العلماء» والكتبة (البيروقراطيين) والجنود إلى الهند، للالتحاق بخدمة السلطان، محفوظة في مجموعة **الإنشاد** العائدة إلى أوائل القرن الخامس عشر التي تحمل عنوان **فرائدي غياثي**[108]. أما مدى نجاح ذلك (المنشور)، فواضح من إعداد المشاهد والأعيان الذين جاؤوا من ما وراء النهر إلى السلطنة، في الوقت نفسه الذي كان فيه ابن بطوطة على وجه التقريب. ذلك أيضاً هو السياق الذي يجب وضع التدفق الجديد للمغول على السلطنة فيه. فبعيد استيلاء بوزون على السلطة، كان محمد قد استقبل ابن ترما شيرين، باشاياتي مع ابنته وزوجها ناوروز كورَغَن بالترحيب؛ وفي غضون فترة قصيرة من الوقت، يصل تعداد المغول القادمين من المناطق الخاضعة لحكم ترماشيرين إلى السلطنة، حسب تقديرات ابن بطوطة، إلى أربعين ألفاً[109].

---

(106) بارتولد، أربع دراسات، I، 135 ـ 136. الصفدي، **الوافي**، X، 383، يجعل تاريخ موت تارماشيرين في 735 هـ. عن بوزون، انظر يزدي، ZN، تحقيق أورونبايف ملف 81 أ. .MA، تحقيق ليش، النص العربي، 22 (تر. ألمانية، 105) يتم وصف الخانية (الإمارة الجغتائية كما لو كانت في حالة ثورة حتى اعتلاء تشانغشي للعرش، وعن التاريخ، انظر أوبان «خانية الجغتائيين»، 24 ـ 25 هـ. 34.

(107) MA، تحقيق ليش، النص العربي 4...

(108) FG، مخطوطة SK، فاتح 4012، ملف 456 أ ـ 457 ب؛ في ملف 457 أ، يشير إلى منحهم. أوبان، «خانية الجغتاي»، 22.

(109) IB، III، 43، 46 (تر. جيب، 562، 564). عن ناوزر، انظر أيضاً TFS، 533؛ SFS، 4 (تر. باسو، JBORS، 22 [1936]، 96). يظهر اسم ابن ترماشيرين كباشاي في مخطوطة IB، غير أن الصيغة في **معز الأنساب**، ملف 32 أ، توحي بباشاياتي، «رجل الباشاي»، أحد أقوام منطقة هندوكوش الواقعة إلى الشمال من كابول: انظر بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 799 ـ 800.

ففي أربعينيات القرن الرابع عشر، كانت أفواج كبيرة من اللاجئين تصل إلى البلاد. ففي كل شتاء، كما يقول برني، كان قادة فرق (وحدات من ذوات الألف) وفصائل (وحدات من ذوات المئة) مغوليون مع أزواجهم (**خاتونان**) وأبنائهم (**أوغليان**) يصلون إلى الهند، ويحصلون على هبات من المال والمجوهرات والجياد(110). وفي موضع آخر يقول المؤلف نفسه، إن محمداً كان يجعل كل أمير من خراسان ومغولستان يلتحق بخدمته، يؤدي قسم الولاء للخلافة، قبل التكرم بالهدايا والمنح(111). ونظراً لأن السفارة العباسية لم تصل إلى دلهي حتى عام 744 هـ / 1343 ـ 1344م، كأبكر تقدير، فإن هذا يشير إلى أن مهاجرين من عالم المغول، كانوا مواصلين المجيء لسنوات غير قليلة بعد موت ترماشيرين. غير أن المغزى الأكبر الذي تنطوي عليه معلومات برني، يكمن في أن هؤلاء المهاجرين كانوا مسلمين؛ وإلاَّ، فلا معنى للأيمان المرتبطة ببراءة الخلافة وشهادتها التفويضية. قد يكون هروبهم مما وراء النهر، مرتبطاً بعملية الانقلاب والإطاحة، في حوالي 743 هـ / 1342م، بالخان المسلم العابر (الذي زال سريعاً)، خليل، وهو أحد أبناء ياساؤر كما زُعم، تلك العملية التي لا نملك عنها، للأسف، سوى الرواية المثيرة لبعض الشك، التي جاءت على لسان ابن بطوطة(112).

استفاد محمد من الاضطرابات الحاصلة داخل الدولة الجغتائية، واستغل إمكانيات الرعاية الهائلة الموجودة بحوزته، في سبيل توطيد علاقات تناغم ووفاق مع الزعماء المغول، والحكام الآخرين في خراسان. ففي

(110) TFS 499؛ وقارن أيضاً TFS، مخطوطة بودليان، ملف 199 / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 165 ب ـ 166 أ.

(111) TFS، 494 ـ 495.

(112) IB، III، 48 ـ 51 (تر. جيب، 565 ـ 567). حول هذا، انظر و. بارتولد، **12 محاضرة عن الترك في آسيا الوسطى**، تر. ث. منزل (هيلد سهايم، 1935م، طبع ثانية، 1962م)، 206 ـ 207؛ يورغن بول، «سلطة واقتصاد خانات الجغتائي»، مجلة إسلام67 (1990م) 284 ـ 291.

صياغته المنقحة الأولى، يصل برني إلى حد الزعم بأن «الأقاليم المغولية كلها (**مغولستان**) على هذا الجانب من بلاد ما وراء النهر، أصبحت تابعة مطيعة للسلطان محمد (**باندا ـ يي باروراردا**)»[113]. وإذا كنا سنصدق ابن بطوطة، فإنه حتى معز الدين حسين، ملك هراة الكرتي، أصبح عميلاً لمحمد، في وقت من الأوقات: من الواضح أن الملك، بقي حريصاً على الحيلولة دون تمخض اعتماده لقب السلطان في 750 هـ / 1349م، عن إلحاق أي ضرر بعلاقاته مع دلهي[114]. ربما كانت فائدةُ حسين كامنة، جزئياً، في سيطرته المتحققة حديثاً على مغول الإيلخان، الدُّمية طوغا تيمور، الذين درجوا على عادة الإغارة على الهند من قواعدهم في منطقة هراة[115]. ومع الوصول إلى نهاية حياته، كان محمد قد أقام علاقات ودية مع النويان (القائد) قازاغان، الذي كان قد أصبح، منذ 747 هـ / 1346 ـ 1347م، السلطة الحقيقية في النصف الغربي من الدولة الجغتائية. فقازاغان هذا، وهو مسلم من أصل قراؤوني (مثل التُغْلُقيين أنفسهم ربما)، زوَّده بأربعة إلى خمسة آلاف جندي مغولي، لحملته الأخيرة على متمردين في السند[116].

نهب وسلب أم فتح واحتلال؟

فيما يخص الأهداف الحربية للمغول، تبقى المصادر غامضة. ومم

(113) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 166 أ؛ النص في مخطوطة بودليان، ملف 199 ب، مشوه هنا ويورد و ب ر د هـ بدلاً من باروراردا، TFS، 505، يتحدث بقدر أكبر من الغموض عن مبايعة حكام مغولستان.

(114) IB، III، 74 (تر. جيب، 580) FG، I، 146 ـ 149، 182 ـ 185، ومخطوطة SK، فاتح 4012 ملف 196 ب ـ 197 ب. أوبان، «خانية الجغتاي»، 32 ـ 33. صديقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية»، 19.

(115) IB، III، 70 ـ 71 (تر. جيب، 578)؛ عنه، انظر ب. جاكسون، «توغاتَمُر». Enc. Isl[2].

(116) TFS، 524. عن قازغان، انظر بياتريس فوربس مانز، **صعود تيمورلنك وحكمه** (كامبردج، 1989م) 33 ـ 34، 43 ـ 44. بيهامادخاني، ملف 328 ب، يتحدث عن صداقتهما.

يلفت النظر، أن أمير خسرو لا يأتي على ذكر غَزْوَتي قُطْلُغ قوتشا وتراغاي في كتابه **خزائن الفتوح**، ربما لأن أية منهما لم تضف شيئاً إلى رصيد علاء الدين. ففي المناسبتين، كلتيهما، ظهر المغول بأعداد كبيرة على الساحة؛ وفي المناسبتين، أيضاً، زحفوا بقوة، وباغتوا السلطان في حال غفلة. يقال صراحة، إن قوات قُطْلُغ قوتشا، ما لبثت أن تخلّت عن ممارستها المألوفة لأعمال نهب المناطق الواقعة على طريقها[117]. ثمة إشارة معاصرة أو اثنتان توحيان، بأن قُطْلُغ وتراغاي كانا بالفعل، يرميان إلى إلحاق الهزيمة بالسلطنة والاستيلاء عليها[118]، وما لبثت الفكرة أن التُقطت من قبل المؤرخين الذين كتبوا في هذا القرن، بدورهم[119]. فسياسة قائمة على فتوحات طويلة الأمد، ربما كانت أكثر قابلية للتفسير، من خلال الرأي الذي يسوقه عزيز أحمد، والذي يقول إن الجغتائيين كانوا يحاولون فتح مَنْفَذٍ على الهند، لأنهم لم يكونوا مرتاحين في ظل وصاية قايدو، فضلاً عن وقوعهم بين مطرقة جيوش الخاقان في الشرق، وسندان الإيلخانيين في الغرب[120]. صحيح أن الخانية (الإمارة) الجغتائية العائدة إلى أواخر القرن الثالث عشر، تقدم صورة كيان مُحاصر ومخنوق، من قبل دول مغولية أخرى، وأن رشيد الدين يجعل من الخان برق، مثلاً، يتذمر في المؤتمر (القورولتاي) المعقود سنة 667 هـ /

(117) TFS، 254، **غيراغير**؛ قارن TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 94 أ، **كوتش با ـ كوتشي متواتر**، ولكن SFS اللاحق، 187 (تر. 34)، يشير إلى دخول قوات قطلغ قوتشا إلى منطقة توبرا، القريبة من تلال سيرمور.

(118) قطلغ قوتشا: وصّاف، 312؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي 59Taf، النص الفارسي، 25 Taf (تر. ألمانية 50)؛ قاشاني، 189. تراغاي: FS، 292 (تر. 467). انظر أيضاً AHG، II، 796؛ بداؤوني، I، 184.

(119) هيغ، في **تاريخ الهند، كامبردج**، III، 102. دهارام بال، «علاء الدين خلجي وسياسته المغولية»، IC 21 (1947م)، 258. لال، **تاريخ الخلجيين**، HN134 .، 338.

(120) عزيز أحمد، «الضغط المغولي»، 186، وفي كتابه **دراسات**، 15. قارن أيضاً بال، «علاء الدين خلجي وسياسته المغولية»، 257.

1269م شاكياً من أن دولته (أمته) (أولوسه)، خلافاً لحال تلك العائدة لأقربائه، محرومة من هامش المناورة[121]. ومع ذلك، فإن الرأي الذي يقول إن من شأن مثل هذا التقييد والحصار، أن يفسر النزعة التوسعية التي شاعت في السنوات اللاحقة، يتنافى مع الأدلة، على ثلاثة أصعدة. يبدو أن دوآ وقايدو كانا، أولاً، يتعاونان تعاوناً وثيقاً حتى اللحظة الأخيرة، من حياة الثاني. كانت الأقاليم الشرقية للإيلخان، ثانياً، توفر، مثلها مثل المناطق الحدودية الهندية، فرصة مثمرة للتوسع؛ والإيلخانات كانوا في حالة الدفاع، بصورة جلية، وقد دأب غازان، على الأقل، على إبداء قدر أكبر بكثير من الاهتمام بالحدود مع المماليك. وثالثاً، ليس ثمة أي سبب يدعو، في هذه المرحلة، إلى ممارسة الضغط على الشرق الأقصى. فقوبيلاي كان قد نبذ سياسته التوسعية في آسيا الوسطى، خلال ثمانينات القرن الثالث عشر ـ أي قبل أن يبدأ قايدو وحلفاؤه بتأكيد سيطرتهم على المناطق الحدودية من الهند ـ كما تُركت أويغورستان للجغتائيين مع حلول سنة 1300م تقريباً[122].

وبالتالي، فإن عمليتي الاجتياح المغولية للهند عامي 699 هـ / 1300م، و703 هـ / 1303م، ربما لم تكونا أكثر من عمليتي نهب وسلب، على المستوى الضروري من اجل الوصول إلى هدف عملاق مثل دلهي: على أن الغرض ربما كان، حتى في تلك المناسبة، متمثلاً بـ «تطويع المنطقة وإضعافها» تمهيداً لحملات فتح، واحتلال في سنوات قادمة. ومما يدعو للأسف أن الشواهد، لا تتيح لنا فرصة الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك. علينا، بالمناسبة، أن نتأثر بوجود نساء وأطفال في الجيوش المغولية، في عدد من المناسبات. يقال إن النساء كُنّ على ظهور الجياد، جنباً إلى جنب، مع قُطْلُغ قوتشا في أثناء

(121) JT، III، 110 ـ 111 (تر. آرندز، 72).

(122) داردس، «الإمبراطورية المغولية إلى أسرة يوان الحاكمة»، 142 ـ 143. آلسن، «أسرة يوان الحاكمة والأويغور في طرفان»، 255 ـ 258 ـ 259.

زحفه على دلهي؛ كما يقال إن جنود سوغودَي أُخذوا أسرى مع أزواجهم وذراريهم، حيث كان ثلاثة آلاف من الأسرى الثمانية عشر ألفاً، الذين وقعوا بأيدي آلب خان في تاري، كُنَّ نساء. وبعد ذلك بوقت غير طويل، تم الإبقاء على المزيد من النساء والأطفال، وإرسالهم للبيع في أسواق النخاسة، بعد ذبح الرجال في ترائين[123]. لا ينبغي لأي من هذا أن يدهشنا. فالمصادر الأوروبية والصينية، العائدة إلى القرن الثالث عشر، تصور نساء مغوليات ممتطيات ظهور الجياد جنباً إلى جنب مع رجالهن[124]. وإذا كانت الهجمات المغولية هجرات موسمية، أساساً، بين مراع صيفية، في مرتفعات غور وغزنة، ومنتجعات شتوية، في البنجاب وما بعده، فإن علينا أن نتوقع من «القبيلة» كله، لا المحاربين الذكور وحدهم، أن يكون متحركاً.

لقد بات واضحاً في القرن الثالث عشر، أن الحملات المغولية على الهند كانت تستهدف مراكمة أعداد كبيرة من العبيد والغلمان[125]. فحملات سالي نويان على كشمير والهند، أكسبت هولاكو غنيمة عظيمة من المماليك الهنود، حسب كلام رشيد الدين، الذي يقول إن ذراريهم كانوا ما يزالون موجودين في أيامه، في المزارع (**إنجو**) الملكية بإيران[126]. أما بالوصف غير المتملق

---

(123) قطلغ قوتشا: FS، 256 (تر. 427). سوغد: TFS، 254. ثاري: FS، 289 (تر. 464). نارايينا: TFS، 321 ـ 322. لاحظ أيضاً النساء والأطفال مع جيش عبد الله الغازي في 691 هـ/ 1292 م؛ المصدر نفسه، 219.

(124) بول راتشينيفسكي، «وضع النساء المغوليات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في فالتر هايسينغ وآخرين (محررين)، **تراكتاتا آلتايكا دنيس سينور سيكساجيناريو... ديديكاتا** (فيسبادن، 1976م)، 511. توماس سبالاتنسيس، «هيستوريا بونتيفيلوم سولينتاروم» في أ. ف. غومبوس (محرراً) **كاتالوج فونتيوم هيستور ياي هونغاريكابي** (بودابست، 1937 ـ 1943، 4 أجزاء مع ترقيم متواصل للصفحات)، 2236 ـ 2237.

(125) لاهور (639 هـ/ 1241م): TN، II، 165 (تر. 1135). تم ترك العديد من الأسرى المسلمين والهندوس في 643 هـ/ 1245 ـ 1246 م: المصدر نفسه، II، 55 ـ 56 (تر. 813).

(126) JT، I، ج: 1، 189 (تر. خيتاغوروف، 110). عمن وقعوا أسرى في الحملة الكشميرية، انظر أيضاً JT، III، 22 (تر. آرندز، 21) وتحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Taf. 61 (تر. ألمانية 56).

للمغول، من جانب أمير خسرو، فنحن مدينون لواقع تعرض الأخير للأسر سنة 684 هـ / 1285م، إثر هزيمة وموت ولي نعمته وسيده محمد بن بَلَبان[127]. ليس ثمة أي شك في أن اقتناص العبيد بقي واحداً من الأهداف المهمة. فرواية عصامي، لقصة إغارة المغول على منطقة تاري توحي، بأن الغزاة وقعوا فريسة سهلة بين براثن قوات آلب خان، لأنهم بالغوا في الانشغال بالغنائم والأسرى[128]. أما فيما يخص أشكال النهب والسلب الأخرى، فإن ما تقوله المصادر أقل. نحن نعلم أن المغول استباحوا ليس، فقط، مناطق المسلمين، بل تلك العائدة للخوخار، الذين تعرضت **تالواراتهم (تالوندياتهم)** [أكواخهم الخشبية] للنهب والحرق سنة 697 هـ / 1298م، خلال هجوم كيدر[129]. وقد نستطيع أيضاً أن نسلّم دون نقاش، بأن المغول جاؤوا، يحدوهم الأمل في الحصول على الذهب والفضة، وقد نهتدي، على هذا الصعيد، إلى تفسير لجاذبية الهند المضاعفة[130]. من المعروف أن حكام دلهي دأبوا، عبر سلسلة من الإغارات الطموح، على الكثير من الممالك الهندوسية في الجنوب، بدءاً بسنة 695 هـ / 1296م، على مراكمة كميات هائلة من المسكوكات النقدية، التي لا بد من أن تكون قد أَغْرَتْ المغول، لاحقاً، بتحرير أولئك الحكام من عبء تلك الكنوز.

---

(127) الرواية الأوفى في DR، 36 ـ 37. انظر أيضاً WH، مخطوطة IOL 412، ملف 87 (مذكور في بداؤوني، ا، 153)؛ والتلميح الموجز في DKG، 70، ميرزا، **حياته وأعماله**، 60 ـ 62.

(128) FS (تر. 464). للاطلاع على إشارات أخرى إلى الأسرى الهندوس، انظر ظفر الإسلام، **«فتاوى فيروز شاهي** كمرجع عن التاريخ الاجتماعي الاقتصادي لفترة السلطنة»، IC 60، ج: 2 (1986م)، 104 هـ. 27.

(129) KF، 33. قارن أيضاً التصريح الذي يُروىٰ عن لسان بلبان في TFS، 51.

(130) المصدر نفسه، 53؛ وانظر ديغبي، **جياد الحرب**، 27 ـ 28 وهـ. 63.

الفصل الثاني عشر

القوات المسلحة والاقتصاد والإصلاح الإداري

الجيش

في سنة 656 هـ / 1258م، حين كان العمل جارياً على قدم وساق، إعداداً لحملة تستهدف طرد جيش سالي نويان المغولي من السند، أخفق مُقْطَعا قارا وأوَدْ في سوق فصيليهما[1]. ومن اللافت للنظر، أن الجوزجاني يصور سلطان دلهي عاكفاً، في مناسبات أخرى أيضاً، على حشد قوات من «هندوستان» أو «من الأقاليم» (أز أطراف) من أجل صد هجمات مغولية[2]. بعبارة أخرى، ما زالت قوات السلطنة تبدو، في هذه المرحلة، غير متمايزة، من حيث ميادين عملياتها المتباينة. يعتبر السلطان بلبان صاحب الفضل في تأسيس جيش مستقل، مصمَّم تحديداً لمقارعة المغول. وقد كان الجيش مؤلفاً من فرقتين بقيادة نجليه محمد في السند، وبوغرا في سامانا، اللذين كان ثانيهما، على الأقل، مكلفاً بمهمة تجنيد وحدات جديدة، إضافة إلى قوات أخرى بقيادة **الباربك** بغبرس (بيبرس) من دلهي: يقال إن المجموع الإجمالي كان أقل من سبعة عشر أو ثمانية عشر ألفاً من الخيالة[3]. ومع ذلك، ثمة مؤشرات في

---

(1) TN، II، 76 ـ 77 (تر. 846 ـ 847).

(2) المصدر نفسه، I، 471، 486، وII، 171 (تر. 667، 692 ـ 693، 1156).

(3) TFS، 81؛ عن بوغراخان، انظر أيضاً 80.

المصادر، توحي بأن القوات التي واجه بها جلالُ الدين وعلاءُ الدين الجحافل المغولية الغازية في تسعينيات القرن الثالث عشر، لم تكن ذات خبرة بأي خصم غير الهندوس[4]. وربما كان ذلك هو السبب الذي بات علاء الدين، من أجله، يُعتبر صاحب فضل فيما يخص الجهود المبذولة لتجنيد قوات جديدة، يقف بها في وجه المغول. شكلت الحملات المتنقلة في قلب شبه الجزيرة الهندية مسألة أخرى، وقد كان إيجاد وتنظيم قوة أخرى، متميزة عن الوحدات التي كانت موجودة، لمواجهة التهديد المغولي[5]، من نصيب علاء الدين مرة ثانية.

تفترض البيّنات، على ندرتها، حدوث زيادة جوهرية ذات شأن، في الحجم الإجمالي لجيش السلطنة[6]. من المؤسف أن الأرقام المحددة، لتعداد القوات الموجودة في السجلات السلطانية، لا تتكرر بانتظام في المصادر، وقد لا تكون جديرة بالثقة حين ترد[7]. فحين قام مبعوثو هولاكو بزيارة دلهي سنة 658 هـ / 1260م، حاول بلبان إخافتهم، باستعراض حوالي مئتي ألف من المشاة وخمسين ألفاً من الفرسان. أما كَمْ من هؤلاء كانوا القوات المركزية المتمركزة في دلهي وحولها، وإلى أي مدى كان بلبان معتمداً على الأعداد التي يستجلبها من الإقطاعات، فلا أجوبة لدينا: فالجوزجاني يرى القوات مجلوبة «من الأقاليم كما من المناطق التابعة للعاصمة» (**آز أطراف وحوالي ـ ي أعلا**)[8]. وفي المحصلة فإن بلبان السلطان، كان قادراً على استعراض جيش قوامه مئتا ألف في أوَذ، في طريقه لسحق عصيان طُغرُل في البنغال. غير أن جميع هؤلاء لم يكونوا مقاتلين. فتوصيف برني لهم ـ ك «فرسان، مشاة، بايك،

---

(4) FS، 213 (تر. 376). TFS، 257، **حشمي هندوستان**.

(5) المصدر نفسه، 302، 326.

(6) جزء كبير مما يلي موجود في ب. جاكسون، «دلهي: مشكلة تكنات عسكرية واسعة»، في ر. إ. فريكنبرغ (محرراً)، **دلهي عبر العصور: مقالات في تاريخ المدن وثقافتها ومجتمعها** (أوكسفورد ودلهي، 1986م)، 20 ـ 22.

(7) انظر كولف **ناوكار**، 2 ـ 4، بشأن الأرقام الإشكالية الواردة عن الجيوش المغولية.

(8) TN، II، 83 (تر. 856 معدل).

رماة [**دهانوك**]، حَمَلَة سرادق [**كايواني**]، غير نظاميين [**خود اسبا**؛ «جيادهم ملك خاص لهم» حرفياً]، رماة، غلمان، خدم [تشاكر]، تجار وأهل بازار» ـ لا يوحي بالثقة. لا يسع المرء إلاّ أن يتذكر ملاحظة بيرنيه Bernier المنطوية على شيء من الاحتقار، فيما يخص أمبراطورية آورنجزيب، تلك الملاحظة التي تقول إن أعداد جيش «المغول» جرى تضخيمها عن طريق إضافة «الخدم والباعة [العاملين في دُور التعامل التجاري في الثكنات العسكرية]... وجميع الأفراد المنتمين إلى **البازارات** أو الأسواق، ممن يرافقون القوات المسلحة»[10]. ومع ذلك فإن الفكرة القائلة إن السلطنة كانت قوية، تمتعت بشعبية واسعة. فالجغرافي المغربي ابن سعيد المنتمي إلى أواخر القرن الثالث عشر، اعتقد أن المغول كانوا عاجزين عن احتلال الهند، بسبب وجود أعداد كبيرة من الرجال والفيلة، تحت تصرف السلطان[11].

يبدو أن العهود التالية، شهدت توسعاً مطّرداً لمؤسسة السلطان العسكرية. فقد سُمع في مصر المملوكية، عن تعاظم القوات العسكرية في ظل علاء الدين خَلْجي[12]. ربما نستطيع استبعاد **اللاكات** الستة أو السبعة (600,000 أو 700,000) من الفرسان الواردة في الصياغة المنقحة الأولى لكتاب برني، وهو رقمٌ يوازي العدد الإجمالي المتوافر لعلاء الدين (كما لعدوه، الأمير المغولي قُطْلُغ قوتشا) في زمن معركة كيلي، التي تفوح منها رائحة المبالغة دون ريب؛ أما حسب ما جاء في الصياغة الثانية، فقد كان السلطان قادراً على تجييش ما يتراوح بين المئتي ألف والثلاثمئة ألف من الخيالة[13].

(9) TFS، 86. عن **كايوانيس**، انظر IB، III 415 (تر. جيب، 753)؛ أيضاً TFS، 400؛ عفيف، 322.

(10) فرانسوا بيرنييه، **رحلات في الإمبراطورية المغولية، 1656 ـ 1668**، تحقيق، آرشيبالد كونستابل (لندن، 1891م)، 219 ـ 220.

(11) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية**، 163 ـ 164.

(12) ابن أبي الفضائل، تحقيق، كونتانتامر، النص العربي 29.

(13) TFS¹، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 96 أ. TFS، 267. غير أن من الضروري أن نلاحظ أن =

ثمة أرقام أخرى تأتي من إيران المغولية. كان وصّاف ورشيد الدين يعتقدان أن قوات دلهي، زادت عن ثلاثمئة ألف[14]؛ وفي مجلده الأخير المنجز بعد عشرين سنة ونيف، يورد وصّاف رقم 475,000 بوصفه الحجم الراهن لجيش السلطان[15]. أما رقم الـ 400,000 فارس، الذي يلتقطه الجغرافي المعرف باسم الدمشقي، (المتوفى سنة 727 هـ / 1327م) فيقع في مكان وسط[16]. وفي عهد محمد بن تُغْلُق، الذي يقال إنه بنى قوة غير مسبوقة من حيث الضخامة، في غضون فترة زمنية قصيرة نسبياً، نجد الأرقام التي رَشَحَتْ غرباً، كما سنرى، أكثر إثارةً للدهشة.

كانت الأولوية المعطاة للاحتفاظ بمثل هذه الجيوش، تنطوي على مشكلات معينة. كان لا بد، أولاً، من إبقاء فرق الجند مشغولة ومدربة. يحدثنا برني، عن قيام بلبان بتنظيم حملات صيد وقنص شتوية لهذا الغرض؛ يقال إنها أثارت إعجاب هولاكو؛ والقنص المغولي الذي كانت فيه الطريدة مسجونة داخل دائرة واسعة، ولكنها متقلصة (نيرغه)، والذي يقدم الجويني صورته الكلاسيكية، كان مصمَّماً، في الحقيقة، كشكل من أشكال المناورات الشتوية[17]. غير أنه علينا ملاحظة أن عمليات قنص شديدة الشبه بتلك المعروفة لدى المغول - بما فيها حتى **النيرغه** - كانت تنظم من الأسلاف الغوريين

= خسرو يجعل غياث الدين تُغلُق يقول إن عدد المسجلين في سجلات التجنيد وصل إلى 200 ألف رجل: **تُغلُق ـ نامه**، 71.

(14) وصّاف، 309؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي 54 Taf، النص الفارسي .18 Taf (تر. ألمانية 43)؛ قاشاني، 183.

(15) وصّاف، 528. في النهاية يقوم فيريشتا بإعادة إنتاج الرقم (ا، 199 ـ 200) فيما يخص إصلاحات علاء الدين: يبقى المصدر الوسيط غير واضح، ولا يبدو أنه خواند ـ أمير.

(16) **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، تحقيق، أ. ف. ميهرن، **كوزموغرافيا شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي** (سان بطرسبرغ، 1866)، 180.

(17) TFS، 55. كانت وفاة هولاكو في الحقيقة قبل اعتلاء بلبان العرش. عن القنص عند المغول، انظرTJG، ا، 19 ـ 21 (تر. بويل، 27 ـ 29)؛ مورغان، **المغول**، 84ـ 85.

لسلاطين دلهي[18]؛ وبالتالي، فإن التأثير المغولي يكاد يكون مطّرداً. ومهما يكن، فإننا نرى خلفاء بلبان في رحلات صيد واسعة النطاق، بين الحين والآخر[19]؛ وثمة في ظل فيروز شاه، الذي كان شديد الإدمان للقنص، فسحة كبيرة كانت محتجزة ومخصصة للمطاردة والقنص[20]. لعل الوسيلة الأفعل لإبقاء الجند مدربين كانت، على أية حال، متمثلة، دون شك، بتنظيم حملات منتظمة ضد الهندوس. وقد كانت إحدى شكاوى برني من الجيش العرمرم الذي جنده محمد بن تُغْلُق لغزو «خراسان» وفتحها، هي أن إشغاله بالجهاد، خلال الأولى من السنتين اللتين سبقتا تسريحه، لم يكن ممكناً[21]. من المؤكد أن برني يقع هنا في خطأ عدم الاتساق، لأن جزءاً من الجيش، كما سنرى، ما لبث أن تم إرساله إلى قراشيل؛ ولكن التعليق يظل يوحي بالأهمية المعلقة على المشكلة التي يطرحها جيش عامل كبير معطّل[22].

ثمة مشكلتان أخريان من مشكلات الاحتفاظ بجيوش كبيرة، كانتا مرتبطتين بالرواتب والتجهيزات. كان علاء الدين عازماً على الاحتفاظ بجيش محترف (**مستقيم**) من جهة، وعلى القيام بذلك، دون تسديد رواتب مرتفعة من جهة أخرى[23]. من الواضح أن المعاشات المذكورة ـ 234 **تانغا** لكل **مرتب**، 78 تانغا لكل **دواسبا** ـ لا تعني شيئاً بالنسبة إلينا، لأننا لا نملك أية بيانات عن مستوى المكافأة المتوفر، من قَبْلُ، لجند السلطان؛ فضلاً عن أن المراتب

(18) TN، ا، 364 ـ 365 (تر. 385 ـ 387). يستخدم برني كلمة نرغه بالارتباط مع إحدى رحلات الصيد لعلاء الدين: TFS، 272 ـ 273.

(19) مثل قطب الدين مبارك شاه: FS، 364 ـ 365 (تر. 563 ـ 564). محمد بن تُغلُق، مصحوباً أحياناً بـ «ما لا يزيد عن مئة ألف فارس»: MA، تحقيق سبايز، 19 (تر. ألمانية 144) / تحقيق فارق، 36 (تر. صديقي وأحمد، 44).

(20) عفيف، 321؛ وقارن 455.

(21) TFS، 477.

(22) انظر أيضاً FJ، 107.

(23) TFS، 303 ـ 304.

نفسها ليست محددة في الحقيقة. وغموض رواية برني هذا، لا يلبث أن يتضاعف جراء الأوهام المتزاحمة في النسخة المطبوعة من كتاب **التاريخ**. كان س. هـ. هوديڤالا، الأكثر قرباً من تسليط الضوء على ما يفترض أن يكون علاء الدين قد قاله بالفعل، إنه: «سأطالب كل **مرتب** بجوادين مع تجهيزاتهما اللازمة، وسأطالب كل **دواسبا** بجواد واحد وما يجب أن يرافقه من معدات»[24]. وفي صياغته الأولى، يضع برني إشارة المساواة بين **المرتب** وفارس مدرع ثقيل (**بر - غوست واني**) من جهة، وبين **الدواسبا** ومن ليس مجهزاً بدرع فرس[25]، من جهة ثانية. وبالتالي، فإن **المرتب** يبرز بوصفه جندياً مطالباً بتوفير راحلتين، و**الدواسبا** كان، للمفارقة، جندياً تقوم الدولة بتوفير مطيته الثانية. وهكذا، فإن مبلغ الثمانية والسبعين **تانغا** المدفوع **للدواسبا**، يجب أن يعكس التوظيف الأقل، الذي كان مطلوباً منه في المجهود الحربي الجوهري. كما أن حقيقة كون **المرتب** هو الأفضل تجهيزاً بين الاثنين، يتجلى أيضاً من تعليق برني البلاغي في مكان آخر، في سياق الدفاع الناجح ضد المغول، حيث يقول إن **دواسبا** واحداً، قادرٌ على جلب عشرة مغول تحت نير واحد، في حين بدا فارسٌ مسلم واحد (من الواضح أن **المرتب** هو المقصود هنا) قادر على سوق مئة [من المغول] أمامه[26].

في أيام إلتُتْمش وبلبان، كان الفرسان في المركز (**القلب**) يكافؤون بإعطائهم قرى في المناطق المحيطة بدلهي والدواب. تخلى علاء الدين عن هذا النظام. وإذا كنا سنصدق أحد المؤلفين اللاحقين، فإن السلطان كان، في الحقيقة، ضد ممارسة تخصيص القرى لخيالة عاديين على أساس أنها تعزز

---

(24) قارن بـ TFS، 303، مخطوطة BL، ملف 150 ب: **دو آسبو استعدادي آنذازاي - ي عن آز مرتب طالبان وياك آسبو استعدادي آنذازاي - ي ياك آسب آزدو آسب**. انظر أيضاً هوديڤالا، **دراسات**، I، XV و280. أجور كل مرتبة محددة مرة أخرى في TFS، 319.

(25) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 115 أ. عبارة **مرتب** هي الأخرى واردة في TN، II، 26.

(26) TFS، 320.

الترابط المحلي وتمهد للعصيان على الصعيد الإقليمي[27]. وما إذا كان هذا هو الدافع الكامن، حقاً، وراء إصلاحه، لسنا قادرين على أن نكون متأكدين، غير أن من شأنه أن يبقى متساوقاً مع هواجسه المعروفة حول التآمر والتمرد. وعلى أية حال، فإن الجند باتوا، منذ ذلك التاريخ، فيما عدا فترة قصيرة في ظل محمد بن تُغْلُق يحصلون على مرتباتهم نقداً حتى عهد فيروز شاه.

تمثلت المشكلة الأخيرة، بالكيفية التي كان علاء الدين سيدفع بها رواتب جنده. في وقت مبكر جداً من حكمه، كان قد صادر ممتلكات الأكثرية الساحقة من أمراء عمه، وأعاد إقطاعاتهم إلى الخالصة. وفي مرحلة متأخرة بعض الشيء، ربما غداة انتفاضة حاجّي مولى بدلهي، سار السلطان قُدُماً على طريق استرداد جميع الأملاك الخاصة وكل الهبات الممنوحة، بما في ذلك الأوقاف (**الوقوف**) (تلك المخصصة للمؤسسات الدينية والخيرية) وهبات **الإنعام** (التي كانت مستثناة من أي التزام بالخدمة). يقول برني، إن الوحيدين الذين بقوا، وبحوزتهم شيء من المال، هم الملوك والأمراء والموظفون والملتانيون و**الساهات** (الصرافون ومُقْرِضو الأموال [المرابون] الهندوس)[28]. وعلى الرغم من احتمال أن يكون السلطان قد نجح، بفضل هذه الوسائل، في تحقيق زيادة ذات شأن، في الموارد الباقية تحت تصرفه، فإن علينا، للسبب نفسه، افتراض أن جزءاً كبيراً من تلك الثروات كان مرشحاً لأن يُدفع ثانية إلى المقرَّبين والمحاسيب. وبالتالي فإن علاء الدين اضطر، في سبيل زيادة حجم قواته مع إبقاء رواتب جنده متدنية، لابتداع حيل أخرى منها: إدخال تغييرات كبيرة على النظام الضريبي، وعلى أسلوب جمع الحبوب، أولاً، واعتماد تدبير هادفة إلى ضمان أسعار متدنية، ثانياً.

---

(27) عفيف، 95.

(28) TFS، 283 ـ 284.

الضرائب ومخزون الحبوب

لا نعلم نسبة المحصول التي كان المزارع يسلّمها إلى الحاكم، قبل الفتح الإسلامي للهند الشمالية: فالشروط المعتمدة في فرض الضرائب والرسوم، النقدية منها والعينية، ضبابية غامضة، مثلما هي كثيرة ومتعددة[29]. خلال الفترة الأولى من حياة السلطنة، تُرِك **الرانات والراوتات** يجبون الواردات من وكلائهم [رؤساء العاملين] (**الخوتات، المقدمين**) لتحصيل الجزية المطلوب تسديدها لممثلي السلطان. وبالتالي، فإن **الخراج** الذي تتحدث عنه مصادرنا لم يكن، في تلك الفترة، ضريبة الأرض التي يدل عليها عادة. وقد قيل إن تلك الضريبة ربما كانت تُجبىٰ في الأقاليم الغزنوية السابقة في البنجاب الغربي، فجرى توسيع دائرة تطبيقها لتشمل الأماكن القريبة من دلهي، مع حلول آخر القرن الثالث عشر؛ وإذا كان الأمر كذلك، فإن مصادرنا لا تسجل تطوراً كهذا[30]. ومع ذلك، فإن علاء الدين فرض **الخراج** الإسلامي على مساحة ذات شأن من الهند الشمالية، جاعلاً إياه [الخراج] خمسين بالمئة[31]. ذلك كان الحد الأعلى المسموح به في المذهب الحنفي، الذي كان سائداً في السلطنة[32]؛ غير أن صرامة علاء الدين لم تكمن في النسبة المئوية المحددة **للخراج**، بمقدار ما كانت متجسدة في الطريقة التي اتبعت لجبايته مع جملة الضرائب الإضافية المفروضة على المزارعين.

يبقى برني مصدرنا الرئيسي فيما يخص تدبير علاء الدين المالية، على الرغم من أن كُتّاباً آخرين، يقدمون تفاصيل عَرَضية منفردة. وقد جادل

---

(29) لمعاينة مثل هذه العبارات، انظر غوبال، **الحياة الاقتصادية**، الفصل الثاني.

(30) ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 60 ـ 61.

(31) TFS، 287.

(32) نيكولاس ب. آغنيدس، **نظريات المال الإسلامية** (نيويورك، 1916 م؛ مطبوع ثانية، 1969)، 379 ـ 380. بالمثل IB، IV، 223 (تر. جيب وبكينغهام، 872)، يقول إن كُفّار «حبانق» (قرب سيلهت) كانوا يدفعون نصف إنتاجهم إلى حكامهم المسلمين.

البروفسور عرفان حبيب بصورة مقنعة قائلاً: إن شهاداتهم المتضافرة حول التحكم بالأسعار، على الأقل، تمنح برني درجة عالية من التأييد[33]. ثمة صعوبة واحدة، ألا وهي أن برني يشير إلى هذه الإصلاحات مرتين، في سياقين متمايزين تماماً: مرة كجزء من خطة سياسية مدروسة، هادفة إلى اختزال نفوذ الزعماء والرؤساء الهندوس، وأخرى حين يقوم، بعد عدد من الصفحات، بربط التغييرات بحاجة السلطان إلى الاستغلال الأكمل والأقصى لموارده، في سبيل توفير أسباب الاستمرار لجيشه، الذي لم يسبق لضخامته مثيل. ومع ذلك، فإن التدبير نفسها هي المعتمدة. وفي ظل النظام الجديد، كان الرسم المستحق يتحدد عن طريق المَسْح (**مساحات**) على أساس **البيسوا** (20/ 1 من **البيغا**): ذلك يعني أنه كان يتم تقويم محصول (**وفاء**) **البسوا**، ثم يجري التوصل إلى حساب ما يجب على المزارع دفعه بمضاعفة الرقم بعدد **البيسوات** التي يتصرف بها؛ ومن هذه الكمية الإجمالية، كان يؤخذ النصف. وفي أكثر الأحيان، كان يتعين تسديد **الخراج**، لا كجزء عيني من المحصول، بل نقداً، ويزعم برني أن الجباة كانوا شديدي الإلحاح في المطالبة، حتى أن الفلاحين كانوا يضطرون لبيع محاصيلهم إلى تجار الحبوب (**الكروانيان**) وهي بعد في الحقل **بر ساري كشت**)[34]. وقد تمثلت إحدى عواقب نظام التقويم الجديد بتحول مساهمة الفرد إلى مساهمة ذات أهمية بالغة. فالفلاح، كما يتضح من إحدى رسائل ابن مهرو في منتصف القرن الخامس عشر، بات الآن، رغم أنه حُرٌّ أساساً (**حر أصل**)، عبداً حقيقياً للأرض، لأن سعيه لإخفاء كامل **الخراج** المطلوب عن القرية، كان من شأنه أن يعرِّض الأخيرة للعقاب[35].

---

(33) عرفان حبيب «تشريعات الأسعار لدى علاء الدين خلجي ـ دفاع عن ضياء برني»، IESHR 21 (1984م)، 394 ـ 397.

(34) TFS، 287، 288، 305، 307. عن عبارة **وفاي بيسوا**، انظر هوديفالا، دراسات، II، 97 ـ 98؛ حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 61 .**البيغا** التي اعتمدت لاحقاً في الهند البريطانية كانت حوالى خمسة أثمان الفدان (الإيكر): يول وبورنك، **هوبسون ـ جوبسون**، 79.

(35) IM، 61 ـ 63. ع. حبيب، «التاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي»، 297 ـ 298، و«الاقتصاد الزراعي»، 54.

إضافة إلى **خراج** مقدَّر وفق أساس جديد، قام علاء الدين بفرض ضريبتين أخريين هما **الشرائي**، أو ضريبة الرعي، **والسكونت غري** أو **غرهي**، التي كانت تفرض على المساكن[36]. صحيح أن شيئاً ذا بال عن أية من الضريبتين لا يرد في الطبعة المتداولة من كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي**، غير أننا نحصل على معلومات أكثر عن **الشرائي** (ضريبة الرعي) في الصياغة المنقحة الأولى، حيث يقال إن أعداد المواشي المحصَّلة (عن كل قرية؟) تتألف من أربعة ثيران (**سوتور**) وجاموسين (غاوي ميس) وبقرتين (ماداغاو) واثني عشر رأساً من الغنم[37]. وما إذا كانت **الشرائي** تُجبىٰ ـ مع أشياء أخرى ـ من الأقوام الرعاة المتنقلة في البنجاب الشرقي، تلك الأقوام التي كان نمط حياتها السائد رعوياً، ليس مؤكداً. علينا افتراض أن ضريبة السكن كانت تقع على كواهل سكان الحضر، جنباً إلى جنب مع الفلاحين في الأرياف. ولا بد من ملاحظة أن مثل هذه الضرائب لم تكن تحظى، خلافاً لحال **الخراج**، بمباركة الشريعة الإسلامية.

نجد صياغتي كتاب برني مختلفتين لدى إيراد اسم الموظف، الذي كان مكلَّفاً بالاضطلاع بمسؤولية وضع الإصلاحات، موضع التطبيق. فهو ملك يكلخي في الأولى، وشرف الدين قايني في الثانية. وكلاهما يحمل لقب **نائب ـ وزير**[38]. وعلى امتداد فترة بضع سنوات (ست وفقاً لطبعة برني الأولى)، أشرفَ **نائب الوزير** على تطبيق **الخراج** وفق أساس المسْح والقياس، جنباً إلى جنب مع ضريبتي الرعي والسكن بصورة موحدة على مناطق واسعة، كما لو كانت قرية واحدة. والبقعة المعنية محددة بوصفها «جميع القرى الواقعة في أقاليم العاصمة، وسائر البلدات (**القصبات**) في أرياف الدواب، والأراضي الممتدة من بهايانا إلى جهاين، ومن بالام إلى دَيْبلْپور ولاهور، وكل أراضي

---

(36) TFS، 287، 288.

(37) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 112 أ.

(38) المصدر نفسه، TFS، 288..

سُنّام وسامانا، كما من ريواري إلى نغوار، ومن خور إلى غانوري، ومن آمروها وأفغانبور وكابار، ومن دامهاي إلى بداؤون وكاسراك وكوتلا، فضلاً عن كاتيهر كلها». وكذلك، فإن قايني يُعْتَبر مسؤولاً عن، وصاحب فضل في، جملة التدبير المتشددة والصارمة الرامية إلى استئصال الرشوة والاختلاس المتفشيَّيْن بين صفوف الموظفين المحليين، إلى حد تفتيش سجلات (**باهيات**) محاسب (**باتواري**) القرية[39].

جرى ضم جزء كبير من هذه المنطقة، إلى الخالصة، مثل أقاليم كول وبرني وميرات وآمروها وأفغانبور وكابار، كما تم استرجاع الدواب كله من المُقْطَع الموجود، ووضعه تحت إشراف وزارة الموارد لدى السلطان[40]. وفي خالصة الدواب، تحديداً، كان **الخراج** سيُدفع كله عيناً، حبوباً، لتحويله إلى احتياطات الحبوب العائدة للسلطان في العاصمة. أمّا في إقليم جهاين، فقد تقرر، بالمقابل، أن يتم دفع نصف الضريبة نقداً، والنصف الآخر حبوباً، يجري تخزينها (أي الحبوب) في جهاين وبلداته[41]. كانت مخزونات الحبوب الهائلة المحفوظة في دلهي، مثارَ دهشة قوية لدى ابن بطوطة، بعد بضعة عقود[42]. وكان الغرض من هذه الكميات الاحتياطية من الحبوب هو الاستعداد

---

(39) TFS، 287 ـ 289؛ TFS¹، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 112أ، تضيف «وكل هندوستان وصولاً إلى البنغال». تظهر خور (في مخطوطة BL على شكل ك هـ ر) خطأ في النص المطبوع بصيغة قارا. إن هذه المدينة القديمة خور مذكورة أيضاً في TFS، 485 وتقع عند نقطة 27 درجة / 39 دقيقة شمالاً، 79 درجة / 28 دقيقة شرقاً. هوديفالا، **دراسات**، ا، 296؛ IG، XXII، 229. عن دامهاي على الطريق من بداؤون إلى دلهي، عند نقطة 28 درجة / 12 دقيقة شمالاً، 78 درجة / 16 دقيقة شرقاً، انظر هوديفالا، **دراسات**، ا، 269. وبالتالي فإن كوتلا، من النص يجب أن تكون كوبيلا المراجع التَمْرية التي يتعرف عليها لال، **غروب**. . .، 34، بوصفها هاردوار.

(40) TFS، 323 ـ 324. عن أفغانبور، انظر ع. حبيب، **أطلس**، 27 وخريطة رقم 8 آ.

(41) TFS، 305 ـ 306. عن هذا التفسير لبيانات متضاربة ظاهرياً صادرة عن برني، انظر ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 61 ـ 62.

(42) IB، III، 148 (تر. جيب، 621): على أية حال كان متوهماً بأن المخازن كانت تعود بتاريخها إلى أيام بلبان.

لمواجهة فترات المجاعة، التي كانت تضرب العاصمة بين الحين والآخر، خصوصاً في عهد علاء الدين خَلْجي، حين كانت الاحتياطيات قد نفذت[43]؛ على الرغم من أن السلطان، ربما كان أيضاً، يتذكر الأزمة الأحدث التي أفرزها الغزو المغولي لسنة 703 هـ / 1303م، بقيادة تراغاي. هذا، ولا نستطيع استبعاد احتمال ألاّ تكون حملة علاء الدين العنيفة ضد تصنيع الخمور والمخدرات واستهلاكها، التي كان من شأنها، في حال نجاحها، أن تنطوي على فقدان بعض مداخيل الدولة، هي الأخرى، نابعة من دوافع دينية وأخلاقية فقط. وربما كان يرمي، في الوقت نفسه، إلى تشجيع التركيز، داخل القطاع الزراعي، على إنتاج الحبوب[44].

التحكم بالأسعار

لم تكن مراكمة مخزونات الحبوب ضماناً ضد المجاعة، إلاّ بصورة جزئية؛ وإذا كانت في الوقت نفسه عنصراً جوهرياً من عناصر سياسة علاء الدين القائمة على التحكم بالأسعار[45]. فللإبقاء على جيش عامل كبير برواتب متدنية

---

(43) FS، 217 ـ 219 (تر. 383 ـ 384). TFS، 212. عن فتح الصوامع خلال أيام المحل والقحط بإشراف علاء الدين بالذات، انظر KF، 21.

(44) TFS، 284 ـ 286. غير أن برني يزعم أن الهدف كان متمثلاً باختزال حصول الاجتماعات الإحيائية للنبلاء، تلك الاجتماعات التي قد تفضي إلى التآمر. حسب السير جورج واط، **قاموس المنتجات الاقتصادية للهند** (لندن وكالكوتا، 1889 ـ 1893، 6 أجزاء في 9)، VI، ج: ع 273 ـ 274، أعنابُ الأقاليم الشمالية الغربية وأوَدْ تكاد ألاّ تكون مناسبة لصناعة الخمور؛ وIB، III، 129 (تر. حبيب، 610)، يؤكد أن الكرمة كانت نادرة في الهند، غير موجودة إلاّ في منطقة دلهي مع منطقة أخرى طُمس اسمها في سائر المخطوطات. ومع ذلك، فإن مصادر أخرى توحي بأن إنتاج الخمر كان مزدهراً في أوَدْ وكول وميرات، وهي جميعاً أقاليم خضعت لإصلاحات علاء الدين الاقتصادية: TFS، 157؛ ميرزا، **حياته وأعماله**، 72. جدير بالملاحظة أن مشروباً مسكراً واحداً على الأقل هو **الباغني**، كان يُصنع من القمح: هوديفالا، **دراسات**، I، 276.

(45) انظر عموماً دهارام بال، «نظام علاء الدين لضبط الأسعار»، IC 18 (1944م)، 45 ـ 52؛ ب. ساران، «السياسة الاقتصادية وضبط الأسعار لدى علاء الدين خلجي»، **بهاراتيا فيديا** «(1950م)، 195 ـ 215؛ الشيخ عبد الرشيد، «ضبط الأسعار في ظل علاء الدين خلجي»، في **أعمال مؤتمر تاريخ كل** =

نسبياً، كان لا بد من تأمين أسعار منخفضة للمواد الأساسية. وبالتالي، فإن الحكومة بادرت إلى تحديد الحدود العليا لأسعار عدد من السلع التي اشتملت على المواد الغذائية الأساسية ـ مثل (**الحنطة**) القمح والشعير (**الجاو**) والأرز (**الشالي**) والحمّص (**الماسن، النوخود**) والبشارة (الموث)؛ إضافة إلى الأقمشة والسكّر وقصب السكر (**النبات**) والفاكهة والشحوم الحيوانية (**راوغاني سوتور**) والدهون (راوغاني شيراغ)؛ مع العبيد والخيل والماشية[46]. وللإشراف على بقاء أسعار الحبوب منخفضة، كان قد تم تعيين ملك قابل أُلُغخاني مراقباً للسوق (**شِحنه ـ ي ماندا**)، يساعده ضابط استخبارات (**بريد**)، وتم إخضاع جميع التجار (**الكاروانيان**) لإدارته. وحسب ما يقوله حميد قلندر، كان كبار التجار يحصلون على سُلف نقدية من الخزينة إضافة إلى النفقات التي يتكبدونها. ومن جهة أخرى، يقول برني، إنهم كانوا ملزمين بتقديم كفالات، فضلاً عن إجبارهم، هم وأزواجهم وأفراد عائلاتهم، على السكن في القرى الواقعة على ضفاف اليمونه. كذلك كانت أعمالهم خاضعة للإشراف. كان تخزين الحبوب (احتكارها) وعرضها من جديد ـ من جانب المزارع أو التاجر أو الوسيط (**البقال**) على حد سواء ـ من الأمور المحظورة والخاضعة لعقوبات شديدة، بما فيها المصادرة. ولضمان قيام المزارعين ببيع الكميات المطلوبة من الحبوب إلى التجار في الحقول (**بر ساري كشت**) ومبادرة الأخيرين إلى جَلْبها فوراً إلى أسواق السلطان، كان يجري إصدار شهادات أو بيانات من قِبَل

= باكستان، **الجلسة الأولى، عقدت بكراتشي**... 1951 (كراتشي [بلا تاريخ])، 203 ـ 210؛ ع. حبيب، «الإنتاج غير الزراعي والاقتصاد الحضري»، في رايتشاوذهوري وحبيب، **تاريخ كامبردج الاقتصادي**، 83، 86 ـ 87.

(46) المواد الغذائية الأساسية: TFS، 305. الأقمشة وإلخ، المصدر نفسه، 309، 310. الخيول: المصدر نفسه، 312 ـ 313. العبيد: المصدر نفسه، 314. المواشي، المصدر نفسه، 315. حبيب، «الإنتاج غير الزراعي»، 87، يشير إلى أن سعر القمح الذي يورده برني مؤيد من قبل حميد قلاندر، **خير المجالس**، تحقيق ك. أ. نظامي (عليكره، [1959 م])، 185 (قارن أيضاً 241).

الرسميين المحليين، تؤكد حصول التعامل[47]. أما تسويق السلع الأخرى، غير الحبوب، فقد تم تركيزه في مؤسسة جديدة أُطلق عليها اسم **ساراي ـ ي عَدْل**، أقيمت في فسحة خالية داخل بوابة بداؤون، وكُلفت مجموعة الملتانيين الميسورين بإدارتها. صدرت الأوامر التي تحظر بيع البضائع في أي مكان آخر غير **سراي عدل**، تحت طائلة المصادرة[48].

أما المسؤولية العامة عن الحفاظ على الأسعار المتدنية، فقد جرى تحميلها لشخص معين يدعى يعقوب، كان يجمع بين مختلف وظائف كبير مفتشي الدخل (**الناظر**) ورئيس العاصمة (أمين العاصمة؟) و**محتسب** الإمبراطورية كلها[49]. وهو بدوره، كان يعين مقيماً (**شحنة**) لكل سوق، يتولى مهمة إبقاء الأسعار تحت الإشراف والمراقبة[50]. تعين على مكتب الرئيس (**ديوان ـ ي رياست**) أن يفتح سجلاً (**دفتراً، تذكرة**) يتضمن أسماء جميع التجار، أولئك الذين هم في العاصمة ونظراؤهم في الأقاليم على حد سواء. فقد كانوا مطالبين بتعهدات مكتوبة تلزمهم بتقديم كميات متفق عليها من البضائع سنوياً، لتباع في السراي عدل[51]. قدمت الحكومة سلفة بلغت عشرين **لاكاً** (2,000,000) من **التانغات** إلى ملتانيين، التزموا بجلب بضائع من الأقاليم لضمان بقاء الأسعار متدنية، إذا ما حاول التجار تأخير إيصال بضائعهم إلى السراي عدل[52]. ولشراء سلع الترف، كان لا بد من الحصول على إجازة

---

(47) TFS، 305، 306 ـ 308. حميد قلاندر، **خير المجالس**، 241، أورده ع. حبيب، «الإنتاج غير الزراعي»، 83. عن ملك قابول، انظر هوديغالا، **دراسات**، II، 100: من المفترض أنه كان مملوكاً لشقيق السلطان: أُلُغ خان.

(48) TFS، 309 ـ 310. انظر أيضاً KF، 21 ـ 22.

(49) TFS، 317.

(50) المصدر نفسه، 317 ـ 318.

(51) المصدر نفسه، 310 ـ 311.

(52) المصدر نفسه، 309، 311.

(باروانا) من الرئيس، لمنع التجار أو الأغنياء من شراء البضائع برُخْصٍ في العاصمة، وإعادة بيعها في أماكن أخرى بأرباح عالية[53]. كان النظام، بمجمله، يقوم على شبكة من الجواسيس، الذين كانوا يكتبون التقارير عن المخالفات، ويوصلونها إلى السلطان[54].

جرى تعزيز سياسات علاء الدين بعقوبات قاسية. أما الضحايا فكانوا، إلى حدود معينة، من الوسطاء: فتجار الخيل وسماسرة الجياد الذين بدت عملياتهم مؤدية إلى تضخيم الأسعار، مثلاً، كانوا في أحيان كثيرة يُغرَّمون أو يُطردون من العاصمة ويسجنون في قلاع نائية[55]. أمّا الموقف الذي لم يكن يعرف معنى المساومة **للرئيس** يعقوب، فقد أدى إلى جعله منبعاً للرعب بالنسبة لأولئك الذين كانوا ينتهكون تشريعات السوق. كانت عقوبات الجَلْد والسجن شائعة. كانت أجزاء من وجوه بعض المخالفين، ولا سيما الباعة الذين كانوا يحاولون التعويض عن أرباحهم المتدنية، عن طريق الإخلال بالوزن، تُقطع [كأن تُجدع أنوفهم]؛ فضلاً عن إبعادهم عن البازار[56]. غير أن الحكومة أخفقت في استئصال الغش والتلاعب من التجارة، رغم كل هذه العقوبات الفظيعة[57].

أهداف سياسات علاء الدين ونتائجها

يصر برني على أن تحكم علاء الدين بالأسعار كان مبعث إعجاب بالنسبة إلى معاصريه[58]؛ وبالفعل، فإن السياسة ـ تلك القائمة على فرض حدود

(53) المصدر نفسه، 311 ـ 312.

(54) المصدر نفسه، 315، 319؛ انظر أيضاً 308 عن الجواسيس في الماندا.

(55) المصدر نفسه، 313 ـ 314.

(56) المصدر نفسه، 316، 319.

(57) المصدر نفسه، 317.

(58) المصدر نفسه، 305، 308، 312، 340 ـ 341.

قصوى لأسعار عدد كبير من السلع، والإجهاز على الوسطاء والسماسرة في بعض الحالات ـ تبدو أنها كانت تعبيراً عن قَدْر غير قليل من نزعة التدخل الحكومية، وبصورة مثيرة أكثر، في ظل الظروف التي سادت خلال العقود الأولى من القرن الرابع عشر. لا بد لنا، إذن، من أن نكون ميالين إلى مقاربة شهادة برني بحذر، إذا لم تأت شهادات أخرى لتؤكد أن نجاعة تحكم علاء الدين بالأسعار كانت مضرب مثل على ألسنة أجيال لاحقة. سمع ابن بطوطة، الذي زار السلطنة في ثلاثينيات وأوائل أربعينيات القرن الرابع عشر، إطراء لعلاء الدين على هذا الأمر، بوصفه أحد أفضل السلاطين السابقين، ويذكر بشكل خاص، أسعار اللحم والأقمشة المنسوجة والحبوب. وكذلك فإن حميد قلندر، الذي كتب حوالي 755 هـ / 1334م، يعزو فضل إنجاز السلطان على صعيد اختزال كلفة الحبوب، إلى الأجور المتدنية المدفوعة في عهده[59].

تَمثَّلَ الأثرُ الإجمالي لتدبير علاء الدين بتحويل حصة أكبر، بصورة ملحوظة، من الفائض الزراعي من الريف إلى المراكز الحضرية (البلدات) ومن الزعماء الهندوس إلى الطبقة الحاكمة المسلمة. غير أن برني، الذي يحدد أن مجموع الموارد المحصلة (**محصول**) من أراضي خالصة معينة، كانت تخصص لرواتي (**وجه**) الجيش (**حَشَم**) ونفقات المشاغل (**الكرخانات**) الإمبراطورية، يبالغ في إبراز التوجُّه العسكري لسياسة علاء الدين الاقتصادية[60]. وكذلك، فإنه يربط التحكم بالأسعار (في الصياغة المنقحة الأولى، وخاصة أسعار الخيل) بالحاجة إلى تجنيد عساكر برواتب متدنية[61]. وحقيقة أن متطلبات الجيش كانت تحتل المرتبة الأولى في سلّم أولويات السلطان، تتضح أيضاً من تصنيف

---

(59) III, IB، 184 ـ 185 (تر. جيب، 640 ـ 641). حميد قلاندر، **خير المجالس**، 240 ـ 241.

(60) ، 323 ـ 324. عن دلالة محصول على «الضريبة المستحقة» بدلاً من «الإنتاج، منذ أيام عفيف على الأقل»، انظر مورلاند، **النظام الزراعي**، 232 هـ. 1، 249.

(61) TFS، 304؛ قارن أيضاً 340. عن الجياد، انظر TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 115 أ.

الجياد في أربع طبقات، كانت الدنيا هي تلك التي لا تفوز في الاختبار الصارم[62]. هذا وقد مال الرأي الأكاديمي الحديث إلى افتراض وجود دوافع أخرى، وإن بقي الزخم المنسوب لكل منها مختلفاً. فالفرضية التي طرحها دَرَم بَلْ Dahram Bal، الذي رأى أن سياسة السلطان رد فعل أيضاً على قوى تضخمية متولدة عن تدفق الذهب الآتي من الجنوب، تفتقر إلى القدرة على الإقناع، نظراً لأن الإصلاحات جاءت، على ما يبدو، في غضون سنتين أو ثلاث، بعد اعتلاء علاء الدين للعرش، مما يجعلها سابقة لمآثر كافور فيما وراء الفيندهيا[63]. أما الشيخ عبد الرشيد فقد اعتقد أن تدبير علاء الدين كانت تستهدف تحقيق الفائدة لا للدولة فقط، بل و«للمستهلك بصورة عامة»؛ كما أن حميد قلندر يحاول إرجاع الأمر إلى دوافع إنسانية لدى السلطان، الذي كان يسعى، حسب زعمه، إلى إغراق مجمل شعبه بالنعم[64].

غير أن التحليل الأكثر إقناعاً هو ذلك الذي طرحه كيرر Kehrer. فتجنيد الفلاحين في الجيش واستنفارهم للعمل في مشروعات علاء الدين الإنشائية، ساهم في تقليص إنتاج الغذاء والكساء؛ في حين كان من شأن تجنيد عدد معين من المرتزقة الأجانب، أن يؤدي إلى حصول زيادة مطلقة في الاستهلاك. أضف إلى ذلك، أنه كانت ثمة مشكلة توزيع متنامية جاءت مصاحبة لتدهور المخزونات المتوفرة: ما لبث تمركز أعداد كبيرة من المستهلكين غير المنتجين - الجند - في العاصمة وما حولها، أن أفضى إلى مضاعفة الصعوبات على صعيد النقل من الأقاليم. ولعلاج هذه المشكلات، كانت الحكومة أمام أحد خيارين: إمّا التحكم بالأسعار بصورة مصْطَنَعَة، أو زيادة الكمية المعروضة من

---

(62) TFS، 313، آنشي دار ديوان ناغودهارد.

(63) بال، «نظام التحكم بالأسعار لدى علاء الدين»، 46. قارن ساران، «السياسة الاقتصادية»، 202. مؤشرات تاريخية: TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 109 أ.

(64) حميد قلندر، **خير المجالس**، 241. عبد الرشيد، «التحكم بالأسعار».

المال[65]. وفي حين لاذ علاء الدين بالخيار الأول، فإن محمداً بن تُغْلُق بادر فيما بعد، كما سوف نرى، إلى اعتماد الخيار الثاني.

قامت إصلاحات علاء الدين الضريبية على إخضاع **الخوتات** (المخاتير) **والمقدمين** للتقويم الذي طُبق على الفلاحين، في مناطقهم بالذات. كان لا بد من جباية الضرائب «دون تمييز» (**بي تفاوتي**)، بما يقضي بمعاملة الرأس (الخوت) بالطريقة نفسها التي يعامل بها أهالي القرية: يقول برني صراحة: لم يكن ثمة أي مجال للتفريق «بين **الخوت** **والبالاهار** (الكنّاس، الزبّال)»[66]. أضف إلى ذلك، أن امتيازات الرئيس (حقوقه)، بما فيها إعفاؤه من ضريبتي الرعي (**الشرائي**) والمسكن **الغاري**، جرى إلغاؤها، ولم يعد يستطيع أن يحول أعباءه الضريبية إلى من هم أفقر منه[67]. وبالتالي، فإن المخاتير (الرؤساء، الخوتات) عانوا من خسارتين. ويزعم برني مستحسناً ما حصل أن «الهندوس (وهو يعني الأرستقراطية الريفية الهندوسية). فقدوا فائض ثرواتهم وباتت نساؤهم مضطرات لكسب الأجور عن طريق العمل في خدمة العائلات المسلمة. تم اتخاذ خطوات لاختزال احتمالات التمرد والعصيان. جرى إجبار **التشاودورين** **والخوتات** **والمقدمين** على الإقلاع عن ركوب الخيل وحمل الأسلحة، كما لم يعودوا قادرين «على مضغ أوراق **التنبول**» في إشارة إلى احتفال كان يجمع **الراوات** (**الراواتات**) تأييداً لهذا الزعيم أو ذاك، أميراً هندياً كان أم أميراً مسلماً متمرداً مثل ملك تشهاجّو سنة 689 هـ / 1290م. تقول المصادر إن موظفاً واحداً من هيئة جباية الضرائب المحلية (**سارهانفي ديواني قَصَبات**) كان يستطيع أن يربط، عشرين أوأكثر من هؤلاء، بالحبل

---

(65) كَنث سي. كهرر، «سياسات علاء الدين الاقتصادية»، **مجلة الجمعية التاريخية بجامعة البنجاب** 16 (1963م)، 55 ـ 56.

(66) TFS، 287. عن خوت، عن معنى **بالاهار** «خادم القرية»، ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 48.

(67) TFS، 287، 291. ع. حبيب «الاقتصاد الزراعي»، 55.

ويقيدهم وينتزع منهم الضرائب تحت وابل من اللكمات والركلات. وفي صياغته المنقحة الأولى، يضيف برني أن أي بيت هندوسي يتم العثور فيه على أسلحة كان يصبح ملكاً للسلطان[68]. وفي موضع لاحق، يحاول التعبير عن هذا الإذلال للأرستقراطية الريفية، بعبارات لا تقل حيوية حين يصور أفرادها مكلَّفين بحراسة الطرق العامة تنفيذاً لأوامر سلطانية، وقائمين على توفير الخدمة للقوافل والمسافرين[69].

أن يكون إذلال الزعماء الهندوس الدافع الرئيسي الكامن وراء الإصلاحات، كما يزعم برني، أمر يدعو، على أية حال، لقَدْرٍ غير قليل من الشك: فالاحتمال الأقوى هو أنه كان نتاجاً جانبياً لجهود الحكومة، الرامية إلى زيادة الواردات، مع الحرص على عدم ترك أية جيوب محصَّنة. غير أن رواية عفيف لقصة نشوء سلطان المستقبل فيروزشاه تؤيد صحة الوقائع الكامنة وراء تعبيرات برني النابضة بالحياة، وصفاً للأوضاع السائدة في ظل حكم علاء الدين، مما يحول دون استغراقنا في الشك. فقد جاء الغازي (المجاهد) ملك تُغْلُق، وقد كان آنذاك (حوالى 706 هـ / 1306 ـ 1307م) مُقْطَعاً لدَيْبلْپور إلى الزعيم المحلي رانا مال بهاتي، طالباً يد ابنة الأخير للزواج من أخيه رجب. وحين قوبل برفض متكبر، قام تُغْلُق ـ بتوجيه مزعوم من جد عفيف، الذي كان ممثلاً له (لتُغْلُق) في منطقة أبوهار ـ باقتحام إقليم رانا مال (**نالواندي**) وأصر على انتزاع ضريبة (مال) السنة كلها نقداً دفعة واحدة، بدلاً من تقسيطها (**با ـ مارتا**) وفقاً لما كان مألوفاً. تعرض جميع **المقدمين والتشاودوريين** في المنطقة للضرب، ونزلت مصائب كبرى فوق رؤوس أبناء قوم رانا مال. وحين اكتشَفَتْ من جدتها الباكية أنها كانت هي سبب هذه المصائب، سارعت ابنة رانا مال إلى

---

(68) TFS[I]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 112 أ. TFS، 288؛ عن طقوس تناول ورق التنبول، انظر المصدر نفسه، 182، وهوديفالا، **دراسات**، I، 265.

(69) TFS، 324؛ قارن أيضاً 340.

مطالبة والدها بتسليمها إلى الأمير المسلم، مفترضاً أن ابنته تعرضت للاختطاف من قبل المغول (ومن غير السهل أن نتبين السبب الذي كان من شأنه أن يجعل مثل ذلك الافتراض عزاء للأب!). تلك هي الطريقة التي أصبحت بها هذه الفتاة الهندوسية زَوْجَ رجب وأمَّ فيروزشاه لاحقاً. يحاول عفيف أن يقنع قراءه بأن رانا مال لم يكن أمامه أي خيار، لأن «هذا كان عصر علاء الدين، ولم يكونوا في وضع يمكنهم من الغمغمة أو الصراخ»[70].

يتضح من هذه الحكاية، أن غازي ملك كان يغتصب الجزية (الضريبة) مباشرة من الرئيس. والبروفسور حبيب يعتبر هذا جزءاً من عملية، ما لبثت أن تمخضت عن الإجهاز على الأرستقراطية الريفية القديمة القائمة على الرانات والرواتات. ومع ذلك، فإن طبقة ريفية عليا جديدة كانت تبرز على السطح في الوقت نفسه، وقد اقترح أن **التشاودوري**، الذي اعتبره ابن بطوطة «زعيم الكفار» في كل **شادي** ـ وحدة مؤلفة من مئة قرية ومرادفة دون شك لكلمة **بارغانا**، التي كان عصامي وابن مهرو في طليعة من استخدموها في أواسط القرن الرابع عشر، كما قام عفيف باستعمالها بصورة أعم ـ، كان يحتل قمة هذه الطبقة الجديدة[71].

بالتوازي مع اختزال امتيازات الطبقة الوسطى الهندوسية، كان ثمة انقضاض وهجوم متزايدين على مواقع المُقْطَعين المسلمين، من جانب أجهزة

(70) عفيف، 37 ـ 38. ألاّ يكون فيروز شاه قد وُلد في 709 هـ / 1309 ـ 1310م (كما يزعم عفيف، 36) بل في 707 هـ / 1307 ـ 1308م، واضح من تصريحات عفيف الأخرى التي تقول بأنه أصبح سلطاناً في الخامسة والأربعين من العمر (المصدر نفسه، 20)، وبأنه كان في الرابعة عشرة لدى اعتلاء غياث الدين تُغلُق العرش، وفي الثامنة عشرة عند تولي محمد بن تُغلُق السلطة (المصدر نفسه، 41 ـ 42)؛ انظر أيضاً هوديفالا، **دراسات**، I، 390 ـ 391.

(71) ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 56 ـ 59. عن **التشاودوري**، انظر IB, III، 388 (تر. جيب، 741)؛ وعن **البارغانا**، FS، 450، 597 (تر. 680، 881)؛ IM، 23، 146؛ **عفيف**، 99، 236، 288، 295، 297، 339، 432، 437، 479، 483، 500؛ أيضاً 272 عن البَرْنغادار.

السلطان البيروقراطية. فتوسيع علاء الدين للخاصة، كان قد أدى إلى تقليص المساحات المعَدَّة للمنح كإقطاعات؛ رغم أن هذا جرى التعويض عن جزء كبير منه عبر توافر الإقطاعات في الأقاليم المفتوحة حديثاً، مثل گوجرات ومالوا والدكّان. غير أن تطبيق منهج تقويم **الخراج** الجديد على منطقة كانت ما تزال خاضعة لنظام الإقطاع مثل أوَدْ، كان من شأنه، بكل تأكيد، أن يؤدي إلى قَدْرٍ أكبر من الإشراف على الشؤون المالية المحلية، من جانب موظفي السلطان بالذات[72].

خلفاء علاء الدين

طبقاً لما يقوله برني، لم يستَبْقِ قطبُ الدين مبارك شاه من تدبير علاء الدين كلها، سوى تلك المتعلقة باستهلاك الخمر (وإن بات حتى هذا موضوعاً للهزء والسخرية)[73]. تم إلغاء نظام مراقبة الأسعار. فقد ثبت أن قطب الدين كان عاجزاً عن تطبيقه، وبالتالي فإن عهده شهد ارتفاعاً كبيراً في أسعار الحبوب والمواد الغذائية الأخرى؛ وراح الباعة يحددون أسعار مصنوعاتهم بأنفسهم؛ أما التشريعات المتعلقة بمؤسسة السراي عدل فقد عُلِّقت، وغرق الملتانيون في مصالحهم التجارية الخاصة[74]. باتت شبكة الجواسيس معطَّلة، كما لم تعد لديوان الرئاسة (**ديواني رياسات**) أية سلطة[75]. حتى **الخراج**، لم يبق على المستوى الذي كان علاء الدين قد أمر به، على الرغم من عدم اليقين الذي يحيط بمقدار التخفيض، يكتفي برني بالتأكيد على أن قطب الدين ألغى «ضرائب الأرض الباهظة (**خراجها**) والالتزامات الثقيلة المفروضة على

---

(72) ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 70.

(73) TFS، 384: بعد قليل (385) يناقض نفسه حين يقول بعدم الاحتفاظ بأي تدبير علائي.

(74) المصدر نفسه، 319، 384 ـ 385.

(75) المصدر نفسه، 385.

الشعب»، وعلى أن الهندوس (ربما بمعنى الرؤساء والزعماء مرة أخرى) باتوا، نتيجة لاختزال **الخراج**، متمتعين بالراحة والوفرة[76]. هذا، وقد تمت إزاحة ركيزتين أخريين من ركائز الصرح الذي كان علاء الدين قد أقامه، حين جرى منح أجزاء كبيرة من الأراضي الملحقة حديثاً بالخاصة وتوزيعها ثانية، فضلاً عن زيادة مرتَّبات الجند جنباً إلى جنب مع أعباء الموارد الحكومية الأخرى مثل معاشات رجال الدين «العلماء»، استجابة، دون شك، لارتفاع الأسعار[77].

حاذياً حذو علاء الدين، بدأ غياث الدين تُغْلُق عهده بزيادة محتويات خزانته. فعلى الرغم من تثبيت هِبات علاء الدين، بادر السلطان الجديد إلى شطب جميع المنح التي أعطاها سَلَفُه خسروشاه، وإلى اعتماد ما يشبه إجراءات **من أين لك هذا؟** بالنسبة إلى الباقي. أما عصامي الذي تعرض أجداده، جراء هذا الأمر، لفقدان قريتين في منطقة دلهي كانتا ممنوحتين لهم **(إنعاماً)** دون أية التزامات ضريبية من قبل سلاطين سابقين، فلا يخفي غضبه من هذا السلوك ـ الذي ما لبث السلطان أن دفع، وبسرعة، حياته ثمناً له[78]. ومع ذلك، فإن برني يصور عهد تُغْلُق على أنه تميَّز بالاعتدال مع الفلاحين والأمراء. لقد حرص السلطان على إبداء الاهتمام بمعيشة الفلاحين العاديين، وبتوسيع دائرة المساحات المزروعة[79]. لم يعد **الخراج** يجري تقديره من منطلق المحاصيل المخمنة، بل أصبح مستنداً إلى المحصول الفعلي: يقول برني إن المزارعين باتوا، بالتالي، متحررين من أعباء الفرق بين المنتوج الفعلي، وما ليس موجوداً **(بودونابود)**. تقرر ألاّ يزيد **الخراج** إلاّ بنسبة واحد بالعشرة أو بالأحد عشر

---

(76) المصدر نفسه، 383، FS385 .، 355 (تر. 552)، قد يوحي بأن قطب الدين اكتفى بإرسال **الخراج** عن السَّنة الأولى من ولايته.

(77) TFS، 282 ـ 283.

(78) المصدر نفسه، 438 ـ FS439 .، 390 ـ 391 (تر. 594 ـ 596).

(79) TFS، 442.

سنوياً. من الواضح، بالتالي، أن زيادة معينة لمعدل **الخراج** كانت مطلوبة؛ غير أن مثل تلك الزيادة كان ينبغي تحقيقها على مراحل[80].

سمح غياث الدين تُغْلُق للمقطعين أن يستكملوا معاشاتهم (**مواجبهم**) عبر استبقاء ما يصل إلى واحد من خمس عشرة أو واحد من عشرين من **الخراج** المجبي، داخل منطقة كل منهم، مكافأة إضافية[81]. غير أننا، من الجهة الأخرى، نجد السلطان منبهاً أمراءه إلى ضرورة الامتناع عن المساس بمرتبات جنودهم، مما يلقي الضوء على أن جزءاً من واردات الإقطاع كان يخصص لإعالة الجند من جهة، وعلى أن المقطع، في ذلك التاريخ، كان ما يزال قادراً على وضع اليد على الواردات المخصصة لرجاله، من جهة ثانية[82]. كان هذا سيتغير في ظل محمد بن تُغْلُق، الذي جاءت سياسته لتزيد من تقويض سلطات المقطع وصلاحياته ولتكون، ربما، سبباً للكثير من حركات التمرد والعصيان التي تفجرت في عهده.

الاقتصاد وتوسيع رقعة السلطنة

باتت الفكرة التي تقول بأن تأسيس سلطنة دلهي عَجَّل بعملية التحضر في جزء كبير من الهند الشمالية، فضلاً عن التشجيع على تطور اقتصاد نَقْدي، كما عن إحداث نوع من التوسع في الإنتاج الحِرَفي، مقبولة على نطاق واسع. ففي عهد علاء الدين الذي زاد نتاج دار ضَرْبه، على ما يبدو، عن نتاج أسلافه، جاءت الزيادة في **الخراج** وتحقيقه نقداً، لتشكل مساهمة إضافية في إسباغ الصفة النقدية على الاقتصاد[83]. لا نملك أرقاماً دالة على المحصول الضريبي

---

(80) TFS، 429 ـ 430.

(81) TFS، 431، 432.

(82) TFS، 431. عرفان حبيب، «التوزيع الاجتماعي لملكية الأرض في الهند ما قبل البريطانية»، **إنكوايري** 2، ج: 3 (شتاء 1965م)، 48؛ انظر أيضاً مقاله، «الاقتصاد الزراعي»، 70.

(83) ع. حبيب، «التاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي»، 289 ـ 298. هـ. سي. فيرما، **آليات الحياة** =

للإمبراطورية ككل، قبل عهد السلطان التُغْلُقي فيروزشاه. باتت السلطنة في الحقبتين الشمسية والغياثية تضم موانئ مزدهرة، مثل ميناء لاهري على الإندوس الأسفل الذي قيل لابن بطوطة إن دخله السنوي بلغ ستين لاكاً (أي ستة ملايين تانغا فضية) بالنسبة إلى محمد بن تُغْلُق[84]؛ وليس ثمة ما يدعو للاعتقاد بأنه كان ينتج أقل من نصف هذا المبلغ، مثلاً، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وعلى الرغم، بالطبع، من أن السلاطين فقدوا الموارد الوفيرة من البنغال بعد انفصاله سنة 685 هـ / 1287م، إلى أن استعاده غياث الدين تُغْلُق في 724 هـ / 1324م، كان من شأن هذا أن يكون قد جرى تعويضُه وأكثر، بفضل فتوحات علاء الدين خَلْجي، ومن جاؤوا بعده، تلك الفتوحات التي تمخضت عن زيادة كبيرة في الموارد المادية والمالية للسلطنة. فخصوبة أوَدْ وظَفَر آباد اللتين زادت قبضة السلطان عليهما قوة، كما رأينا من قبل، أوائل القرن الرابع عشر، كانت مضرب مثل، في وقت باتت فيه المناطق الواقعة إلى الغرب من اليمونه، رازحة تحت وطأة المجاعة، خلال عهد محمد بن تُغْلُق[85]. يعلق ابن بطوطة أيضاً، على كثافة الزراعة حوالي دهار وعلى ازدهار أوجّاين، كما على القيمة الكبيرة التي تنطوي عليها موارد الأرض في إقليم دولت أباد، بالنسبة إلى خزينة السلطان؛ وبالفعل، فقد حدد محمد واردات منطقة «مارهات» بست أو سبع كرورات (أي ستين أو سبعين مليوناً من التانغات)[86].

طالما جرى تصوير الهند بوصفها مستهلِكة شرهة، لا تعرف معنى

= **الحضرية في الهند ما قبل المغولية** (نيودلهي، 1986م)، الفصول 2، 4، 6. شيرين موسوي، «الشواهد النقدية والتاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي»، PIHC 50 غوراخبور 1989م (دلهي، 1990م)، 207 ـ 217.

(84) Ib, III، 112 (تر. جيب، 602).

(85) المصدر نفسه، III، 342 (تر. جيب 720 ـ 721). TFS، 485، 486.

(86) IB, IV، 42، 45، 49 (تر. جيب وبكنغهام)، 791، 793، 795). محمد بن تُغْلُق: TFS، 501. عن **الكرور** (= 100 لاك)، انظر يول وبورنل، **هوبسون ـ جوبسون**، 276.

الشبع، لثروات الأراضي الواقعة غرباً[87]. وقد أدى امتلاك موانئ گوجرات، خصوصاً، إلى تمكين حكومة دلهي من وضع اليد، على التجارة المزدهرة مع البحر العربي والخليج الفارسي؛ وقد لا يكون صدفة، أن يكون ظهور **ملك التجار** الذي كان مسؤولاً أمام السلطان عن الإشراف على النشاط التجاري، أو أن يكون أحد محدِّثي العمري تاجراً كارمياً ـ عضواً في تعاونية تجارية ذات شأن متمركزة في مصر ـ قد زار قطب الدين مبارك شاه مرتين، متزامناً مع أيام حكم علاء الدين[88]. فبنظر المؤلف المجهول لكتاب **سيرة فيروز ـ شاهي**، كانت كانبهايا «ملتقى للتجار ومنتجعاً للمسافرين براً وبحراً»[89]؛ وقد تجلى نفوذ طبقتها التجارية بأبهى صوره في روعة بيوتات وقصور أفرادها[90]. ففي بداية القرن، كانت گوجرات قد استحقت الإطراء في تاريخ رشيد الدين عن الهند، كما كان ماركوبولو، في وقت سابق، قد سمع حكايات مثيرة عن مصنوعاتها[91]. ونحن نعلم أن الإقليم كان ينتج أقمشة قطنية بديعة (كانت تصدر إلى الصين)؛ كما كان مركزاً لنقل الجواهر والأحجار الكريمة الأخرى

---

(87) وصاف، 300. انظر أيضاً JT, III، 493 (تر. آرندز، 281).

(88) TFS، MA352 .، تحقيق سبايز، النص العربي 35 (تر. ألمانية 62)/ تحقيق فارق، 64 (تر. صديقي وأحمد 60). إن **ملك [ملك] التجار في عهد إلتُتمِش المذكورة في** TN, II، 41 (تر. 790) لم يكن، بالطبع، عامل سلطان دلهي بالذات، بل كان ممثلاً لتجار كل من إيران والعراق وخوارزم وغيرها من المناطق من خارج الامبراطورية. عن **الكريمي**، انظر غاستون ويت، «تجارة التوابل في ظل المماليك»، **دفاتر التاريخ المصري** 7 (1955م)، 81 ـ 147؛ س. د. غويتاين، «بدايات تجار **الكريم** وطبيعة تنظيمهم»، في **دراسات التاريخ والمؤسسات الإسلاميين** (لايدن، 1966)، 351 ـ 360؛ م. س. لبيب، «تجار الكريم في المشرق وعبر المحيط الهندي»، في م. ملاط الجورداني (محرراً) **الجمعيات والشركات التجارية في المشرق والمحيط الهندي** (باريس، 1970م)، 209 ـ 214.

(89) TFS، 21، **مرجع التجار ومأمن السفار** (تر. باسو، في JBORS، 23 [1937 م]، 99). انظر أيضاً رد المؤلف على كانبهايا في IM، 133.

(90) IB, IV، 53، 55 (تر. جيب وبكينغهام، 797، 798).

(91) JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص الفارسي .Taf، 13 النص العربي .Taf 51 (تر. ألمانية 36). ماركو بولو، تر. مول وبليو، I، 420 ـ 421، 422 ـ 423 / تر. يول وكورديه، II، 393 ـ 394، 398 ـ 399).

من سفينة إلى أختها؛ وكان يستورد العبيد الزنوج من أفريقيا الشرقية. ثمة **فَرَمان** يعود إلى 709 هـ / 1309 ـ 1310م، ويورده أمير خسرو في كتاب **رسائل الإعجاز**، يضع قائمة لِعَددٍ كبير من السلع الثمينة الموجودة في كانبهايا[92]. أما حصيلة (**محصول**) **خراج** گوجرات في السنوات الأخيرة من عقد ستينيات القرن الرابع عشر، فتصل إلى **كرورتين** (عشرين مليوناً من **التانغات**) حسب تقدير عفيف؛ جدير بنا مقارنة هذا المبلغ بنظيره عن الدواب (ثمانين **لاكاً**، أي ثمانية ملايين **تونغا**) في الوقت نفسه تقريباً[93]. ومع ذلك، فإن السلطنة لم تكتف بالاستفادة من حيازة المنافذ على البحر العربي. فمع حلول أيام عهد محمد بن تُغْلُق، ثمة مؤشرات مبعثرة تدل على أن بلاده كانت تجتذب تجاراً من أماكن نائية جداً مثل أوروبا الغربية، ممن كانوا يستفيدون من تشجيع الحكام المغول لهم، على السفر براً عبر أورغنتش وغزنة، لأنه من المعروف أن فريقاً بندقانياً زار دلهي سنة 1338م[94].

تبدُّل الأولويات

جنباً إلى جنب مع الزيادة الملحوظة في الموارد الآتية من المناطق المفتوحة (المحتلة)، كانت حكومة السلطان، على أية حال، تعتمد على ثمار حملات النهب والسلب الجارية ضد القوى الهندوسية، في شبه القارة. غير أن التهديد المغولي أدّى، على ما يبدو، إلى تعديل سلَّم الأولويات في إطار السياسة العسكرية، إذ يُبْرِز الجوزجاني أُلُغ خان بلبان في وقت مبكر يعود إلى 645 هـ / 1246م، مشجِّعاً لعمليات نهب المناطق الهندوسية، ليس فقط لتأديب

---

(92) IV, RI، 141 ـ 143. انظر عموماً سيمون ديغبي، «تجارة الهند البحرية»، في رايتشاوْدهوري وحبيب، **تاريخ كامبردج الاقتصادي**، 39 ـ 140، 142، 149؛ ف. ك. جاين، **تجارة وتجار في الهند الغربية** (1000 ـ 1300م) (نيودلهي، 1990م)، 98 ـ 105.

(93) عفيف، 221، 296.

(94) ر. س. لوبيز، «تجار أوروبيون في بقاع هند العصر الوسيط: دلالات الوثائق التجارية»، **مجلة التاريخ الاقتصادي** 3 (1943م)، 174 ـ 180.

الكفار وتلقينهم دروساً، بل ولمراكمة الغنائم التي يمكن استخدامها لاحقاً لإعالة جيش دفاعي قادر على مواجهة الغزوات المغولية[95]. وكون الجوزجاني قد كتب كمعاصر، فضلاً عن قربه المعروف من أُلُغ خان، يجعل احتمال أن تكون هذه العواطف معبِّرة عن اعتماد سياسة مدروسة وواعية من قبل حكام دلهي، غداة تزايد حدة الضغوط المغولية بعد سنة 1241م، وارداً بقوة. إنها شديدة التناقض مع تحليل برني الأكثر اتصافاً بالنزعة التبسيطية، الذي يصور بلبان (وقد غدا سلطاناً) رافضاً شن الحملات ضد الهندوس، طوال استمرار التهديد المغولي[96]. غير أن هذا الكلام لا يلبث أن يصبح مثار شك بفعل الفقرة التالية: ثمة شجب صارخ للسياسة التوسعية المفضية إلى المبالغة في زيادة الضرائب، وربما إلى العصيان، وصولاً، آخر الأمر، إلى إراقة الدماء والعقوبات القاسية[97]. من الواضح أن ما كان برني يفكر به لم يكن عهد بلبان على الإطلاق، بل الفوضى الحديثة الناجمة عن مخططات محمد بن تُغْلُق التوسعية.

كانت درجة معينة من الفعالية العسكرية ضد الهندوس حيوية لإبقاء القوات المسلحة على مستوى مناسب من التدريب من ناحية، ولجني الموارد اللازمة لمكافأة هذه القوات من ناحية ثانية؛ وإلاَّ، فقد كان من شأن الاحتفاظ بجيش كبير لصد المغول أن يكون أكثر صعوبة. وبالتالي فإن هناك ما يدعو، بوجاهة، إلى عدم تصديق برني مرة أخرى، حين يصف كيفية قيام غزوة تَرْغاي بحمل علاء الدين خَلْجي على التخلي عن «شن الحملات والاستيلاء على القلاع» (**لاشفاركاشي ـ وحصارغيري**)[98]. ونحن نعلم، على أية حال، أن الأمر لم يكن هكذا ببساطة: حتى إذا صرفنا النظر عن الحملات التي قادها

(95) TN ،II، 57 (تر. 816).

(96) TFS، 50 ـ 51.

(97) المصدر نفسه، 51 ـ 52، 53.

(98) المصدر نفسه، 302.

علاء الدين، شخصياً، ضد كل من سيوانا وجالور، والتي يخفق برني في الإتيان على ذكرها، فإن الملاحظة التي يوردها عن حملات ملك نائب كافور في الجنوب، من شأنها وحدها أن تبين بوضوح الكلام المذكور من المعنى أو القيمة. كان من الممكن تفسيره بالقول إن علاء الدين اكتفى، في مواجهة الضغط المغولي، بإغارات النهب والسلب، وأقلع عن سياسة الضم المباشر كما يتضح من مصائر رنثانبور وتشيتور؛ غير أن هذا الاستنتاج لا يلبث أن يغدو مستحيلاً، مرة أخرى، جراء ضم مالوا من سنة 705 هـ / 1305م وصاعداً، وإلحاق ديوغير حوالي سنة 1314 م. ومهما يكن من أمر، نرى أن ذراعي السياسة العسكرية في عهد علاء الدين ـ أي ذراع عمليات النهب من جهة، وذراع فرض الحكم المباشر، من جهة ثانية ـ تم الإبقاء عليهما، على ما يبدو، في حالة من التوتر على الأقل. أما العهود اللاحقة فقد شهدت، على النقيض من ذلك، تحولاً مطرداً نحو استيعاب وهضم مساحات واسعة وإذابتها في بوتقة الإمبراطورية.

الفصل الثالث عشر

عالم فَقَدَ صوابَه: عهد محمد بن تُغْلُق

قد تكون المشكلات والمسائل التي يثيرها عهد محمد بن تُغْلُق، أكثر من تلك التي يثيرها أي عهد آخر في تاريخ السلطنة. فلدى صعود هذا السلطان كانت سلطة دلهي تمتدُّ على أوسع المساحات من شبه الجزيرة، مما في ظل أي عاهل آخر. وعملية التوسع هذه هي التي يشير إليها برني حين يقدم وصفاً للمدى والكفاءة غير المسبوقين لديوان الضرائب أو الخراج، في السنوات الأولى من حكم محمد[1]. ومع ذلك، فإن العهد يبدو مثقلاً بعدد استثنائي من حركات العصيان والتمرد. فلدى وفاة السلطان سنة 752 هـ / 1351م، كان كل من البنغال مع جميع البقاع الواقعة إلى الجنوب من الفيندهيا قد أعلنت استقلالها، ولم تتم استعادة أي من هذه الأقاليم قط، فيما بعد.

في الطبعة المنقحة لكتابه **التاريخ**، يضع برني اللوم، فيما يخص الكوارث التي شهدها العصر، على مخططات السلطان الخيالية القائمة على الأوهام[2]. غير أن علينا أن نتذكر أن سياسة قائمة على الحكم المباشر كانت، مع اعتلاء محمد بن تُغْلُق العرش، تحل تدريجياً محل السياسة القائمة على نهب الممالك

---

(1) TFS، 468 ـ 469.

(2) TFS، 471.

الهندوسية وفرض الجزية عليها. وقد جاء استيعاب مثل هذه المساحات الواسعة من الأراضي، مصحوباً بمشكلاته الخاصة، التي ربما شكلت عاملاً رئيسياً من عوامل الصعوبات الاقتصادية الحادة التي طَغَتْ على السلطنة وأثقلت كاهلها، في ثلاثينيات القرن الرابع عشر. فشن هجمات منتظمة على أراضي العدو، لا لشيء، إلاّ لتمويل جيش عامل كبير لتحقيق أغراض أخرى، في المقام الأول، كان شيئاً؛ أما المحافظة على حاميات وإدارة مدنية في الإقليم المفتوح (المحتل)، مع ما ينطوي عليه ذلك من إنفاق على شكل محاسبة ونقل للموارد بصورة سنوية، فقد كانت شيئاً آخر تماماً[3]. أضف إلى ذلك، أن الأقاليم التي يتم وضع اليد عليها حديثاً، كان يتعذر التعامل معها بالطريقة اللصوصية نفسها التي تُمَيِّز الحربَ في بلد معادٍ. وبالتالي، فإن سلاطين دلهي تكبدوا خسارة مزدوجة. لعل الإحساس الأكثر حدة بهذه الخسارة، كان ذا علاقة بالسبائك الذهبية التي كانت تشكل الجزء الأكبر من غنائم حملات علاء الدين وكافور. وقد زادت المشكلات تفاقماً جراء إنفاق محمد بن تُغْلُق غير الاعتيادي، وسخائه الذي كان مضرباً للأمثال[4].

ثمة توجهات اقتصادية أوسع أيضاً، لسنا مطلعين عليها إلاّ بصورة مشوهة، ربما ساهمت في المشكلات التي برزت أيام حكم محمد. يُنسى بسهولة أن قوتين مغوليتين عُظْمَيين ـ الدولتين الإيلخانية والجغتائية في آسيا الوسطى ـ تعرضتا أيضاً لموجات كبيرة من الاضطرابات، خلال الربع الثاني من القرن الرابع عشر، مثلهما مثل القبيلة الذهبية بعد قليل[5]، وأن السلطة

---

(3) TFS، 51 ـ 52، كما تأكد لبرني في الحقيقة.

(4) فيريشتا، ا، 239، يقول إنه كان ينفق الأموال التي راكمها علاء الدين خلجي.

(5) بويل، «التاريخ العائلي والسياسي»، 413 ـ 416. بارتولد، **اثنتا عشرة محاضرة**، 205 ـ 209، **وأربع دراسات**، ا، 134 ـ 138. ب. جاكسون، «الأسرة الجغتائية الحاكمة»، Enc. Ir. V، 346. بيرتولد شبولر، **القبيلة الذهبية: المغول في الروسيا 1223 ـ 1502**، طبعة ثانية (فيسبادن، 1965م)، 109 وما بعدها.

المملوكية (في مصر وسورية) كانت فريسة سلسلة من الأزمات النقدية خلال الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون (709 ـ 741 هـ / 1310 ـ 1341م)[6]. من شأن هذا أن يوحي بأن جارات سلطنة دلهي وشريكاتها التجارية الرئيسية ربما كانت مثقلة بنوع من الفوضى الاقتصادية العامة؛ غير أن على الاستنتاجات الحاسمة والثابتة انتظار نتائج المزيد من البحوث.

معارضة أنصار تُغْلُق السابقين

يبدو أن محاولات السلطان الأولى الرامية إلى توطيد سلطته في الأقاليم، جاءت رداً على ثلاث حركات تمرد خلال سنتي 727 و728 هـ / 1326 ـ 1328م، وعلى السطح من مجمل الوضع، تبقى ثورتا ابن عمه بهاء الدين غارشاسب، في ساغار الدكّانية، وكوشلوخان في السند، لُغْزَين. فالرجلان، كلاهما، كانا قد لعبا دوراً مركزياً في ثورة تُغْلُق ضد ناصر الدين خسروشاه سنة 720 هـ / 1320م، وكانا من المشايعين الكثيرين للنظام التُغْلُقي، الذين ما لبثوا أن جرى تثبيتهم في مناصبهم لدى صعود محمد. يبدو أن سياسات محمد بالذات ربما أدت إلى إبعاد هؤلاء الأمراء الكبار الذين كان محمد قد ورثهم عن أبيه. كان تُغْلُق قد أبعد المخبرين (**مونهيان**) عن الإقطاعات، غير أن ابن بطوطة يخبرنا أن محمداً استخدم شبكة من الجواسيس الذين احترفوا كتابة التقارير عن تحركات الأمراء إلى السلطان[7]؛ وإن كنا غير قادرين على التأكد من المرحلة التي تمت فيها استعادة هذه الممارسة. لعل الأهم، هو أن ما يقوله برني عن العمل، خلال السنوات الأولى من العهد،

---

(6) حسنين ربيع، النظام المالي لمصر 564 ـ 741 هـ / 1169 ـ 1341م (أوكسفورد ولندن، 1972م)، 189 ـ 197. جيره باكاراتشي، «تحركات نقدية في مصر العصر الوسيط 1171 ـ 1517 م»، في ج. ف. ريتشاردز (محرراً) **المعادن الثمينة في عوالم أواخر العصر الوسيط وأوائل العصر الحديث** (دِرَم، NC، 1984م)، 167.

(7) TFS، 429، عن تُغلُق. III, IB، 343 ـ 344 (تر. جيب، 721)، عن جواسيس محمد.

على إخضاع حسابات، حتى الأقاليم النائية للرقابة، وفقاً للأسس نفسها التي كانت متبعة مع حسابات الدواب، وعن وصول مئة أو مئتين من الأوامر إلى مكتب **الخريطة دار**، يومياً، لنقلها إلى الولاة والمُقْطَعين[8]، يشكل دليلاً على أن السلطان الجديد كان، من البداية، يمارس رقابة أشد بما لا يقاس على شؤون الأقاليم وشجونها، بالمقارنة مع ما كان يفعله أسلافه. ينبغي أن يكون كبار ولاة الأقاليم، الذين لم يكن غياث الدين تُغْلُق ينظر إليهم **أول الأمر، كأنداد**، قد راودهم إحساس مميز، بأن ابنه كان يتطلع إلى ترؤس نظام استبدادي مركزي.

وبصورة أكثر تخصيصاً، ربما لعب إيجاد عاصمة ثانية في دولت أباد (ديوغير سابقاً) في الدكّان، دوره الخاص في الحفز على هذين العصيانين. عما حدث في ساغار، لا نعلم إلاّ القليل؛ غير أن من المفهوم أن غارشاسب، نظراً لقربه من دولت أباد، قد أحس بالخطر جراء إقامة قاعدة جديدة للسلطة المركزية هناك. إننا مطلعون أكثر على انتفاضة كوشلوخان. بادر السلطان، حسب رواية سرهندي، إلى إرسال ضابط للإشراف على نقل أسرة كوشلوخان وبيته إلى البلاط (أي إلى دولت أباد)، وأدى سلوك الضابط المتغطرس إلى استفزاز صهر الأمير ودفعه إلى اغتياله[9]. جرى إخماد حركتي التمرد كلتيهما. فقد هُزم غارشاسب على يد أحمد بن آياز، فلاذ بحماية حاكم كامبيلا الهندوسي أولاً، وبحماية ملك الهويسالا ڤيرا باللالا الثالث الذي قام بتسليمه إلى قوات السلطان لإعدامه، بعد ذلك. وقد تحرك محمد شخصياً لمقاتلة كوشلوخان، الذي هُزم وقتل[10].

---

(8) TFS، 470.

(9) TFS، 99 ـ 100.

(10) غارشاسب: TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ (مخطوطة بودليان، ملف 192 ب؛ FS، 424 ـ 431 (تر. 651 ـ 659)؛ III, Ib، 318 ـ 321 (تر. جيب، 710 ـ 711)، كوشلوخان: TFS، 478 ـ 479؛ FS435 ـ 443 (تر. 663 ـ 672)؛ III, Ib، 321 ـ 324 (تر. جيب، 711 ـ 712)، عازياً الخلاف =

يبدو أن الانتفاضة الثالثة، انتفاضة غياث الدين بهادر بورا في البنغال، لم تكن أكثر من محاولة بذلتها الأسرة الحاكمة السابقة، في سبيل الخلاص من السيادة التُغْلُقية. لدى اعتلائه العرش، كان محمد قد أطلق سراح بورا من السجن، وأنعم عليه بمظلة (تشاتر) وأرسله إلى سونارغاؤون حيث كان مخوَّلاً بالتمتع بمرتبة الحاكم المشارك لمحمد، تحت المراقبة الحذرة لأخي السلطان بالتبني، بهرم خان، من لخناوتي. صحيح أن بورا تمرد ـ ربما في 728 هـ / 1327 ـ 1328م أو بعده، حيث لا تزال القطع النقدية تحمل اسم محمد ـ ولكن بهرم خان نجح، بمساعدة تعزيزات جاءت من دلهي، في الإطاحة به[11]. أما مصير شقيق بورا ناصر الدين، فيبقى مجهولاً: قد يكون ثمة نوع من الارتباط مع محاولة بذلها «أمراء لخناوتي ونبلاؤها»، الذين كانوا مع سلطان بلدهم لإشعال حركة عصيان[12]. غير أنه يبدو أن البنغال ظل على امتداد السنوات القليلة التالية خاضعاً، على أية حال، لإدارة ضباط معينين من قِبَل سلطان دلهي.

إيجاد عاصمة ثانية في دولت أباد، ووجود عسكري متعاظم في دلهي

في الصياغة الأولى لكتابه، يقوم برني، الذي لا يقدم أي تاريخ لما يُعرف

= مع السلطان إلى رفض كرشلوخان عرض جلدي غارشاسب وبهادور بورا؛ ولكن انظر ما يلي في هذا الكتاب: يعرف تاريخ تمرد غارشاسب من منقوش يعود إلى تشرين ثاني 1326 م: پ. ب. ديساي، «منقوش كاليانا عن السلطان محمد، ساكا 1248 م»، EI، 32 (1957 ـ 1958م)، 165 ـ 170. أما ثورة كوشلوخان فمؤرخة في «النصف الثاني من العام» [727 هـ] في TFS، مخطوطة بودليان، ملف 191 ب مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160 أ. يجب أن تكون حملة لاهور في جمادى الثانية 728 هـ نيسان/ أبريل 1328م (ميتر، 215) قد شكلت جزءاً من عمليات محمد ضد كوشلوخان.

(11) IB, III، 316 ـ 317 (تر. جيب، 709 ـ 710)؛ أيضاً IV، 213 (تر. جيب وبكينغهام، 869). إنه يخطئ إذ يجعله سابقاً على ثورة كوشلوخان لأنه يتحدث عن عرض جلدي غارشاسب وبورا في أنحاء الامبراطورية في الوقت نفسه. FS، 422، 444 (تر. 648، 673)، موجز. عن قطع نقدية باسم بهادور بورا، انظر CMSD، 130 (رقم: 505 سي). براساد أتراك قراؤون، 150)، حسين الأسرة التُغلُقية الحاكمة، 223) ونظامي (في HN، 506) تتفق جميعاً على جعل تاريخ ثورته في 730 هـ / 1329 ـ 1330 م.

(12) فقط في TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ.

بنقل العاصمة إلى دولت أباد في الطبعة المتداولة، بتحديد ذلك التاريخ، بعام 727 هـ / 1327م[13]. أما الإقلاع عن المشروع، فيمكن إرجاعه إلى تاريخ زيارة محمد لدولت أباد حوالي عام 736 هـ / 1335 ـ 1336م، في طريق عودته من حملته غير الموفقة، لإخماد التمرُّد في المَعْبر، حيث يقال لنا إنه أجاز لأولئك الراغبين، العودة إلى دلهي[14]. وعلى الرغم من أن عنصر الإكراه لا يمكن إنكاره، فضلاً عن أن ظروف الرحلة إلى دولت أباد كانت شاقة بالتأكيد، فحتى عصامي، يلمح ولو بصورة عابرة، إلى حقيقة أن مواطني دلهي المتعاونين حصلوا على مبالغ من الذهب الخزينة. ثم يأتي برني ليضيف قائلاً، إن المشايخ ورجال الدين «العلماء» والنبلاء في العاصمة، جرى تخصيصهم بمبالغ نقدية وقرى ومزارع في منطقة ديوغير، وإن الحكومة اشترت من المواطنين العاديين بيوتهم في دلهي[15]. صحيح أن المشروع ربما كان قائماً على التعسف والاعتباط؛ غير أن توطيده وترسيخه لم تتم إدارتهما بطريقة خالية من الإحساس والشعور.

أما هوية الذين كانوا مطالبين بالانتقال إلى الجنوب، وإلى أي مدى كان يجب الجلاء عن دلهي وإبقائها مهجورة، فقد بقيت موضوع نقاش وجدل. ففي صياغته المنقحة، يقوم برني بتصوير مرحلتين، انطوت الأولى على نقل أم السلطان، مخدومه ـ يي جهان، وحاشيتها، جنباً إلى جنب مع أسر النبلاء، في حين انطوى الخروج الثاني، في أعقاب ثورة كوشلو خان (الواقع بالتالي في 728 هـ / 1327 ـ 1328م، أو بعده)، على انتقال أهل البلدات (القصبات)

(13) المصدر نفسه، مخطوطة بودليان، ملف 190 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 159 ب.

(14) TFS، 481. عن تاريخ انطلاق محمد إلى الحملة المعبرية (9 جمادى الأولى 735 هـ / 5 كانون ثاني 1330م)، انظر IB ,III، 427، بالارتباط مع فنكاتا رامايا، «تاريخ حركات التمرد»، 141 وهـ 10 (تصحيحاً لعام 1341م الوارد في تر. جيب، 758).

(15) FS، 446 (تر. TFS676 .[1]، مخطوطة بودليان، ملف 191 ب، 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160. قارن أيضاً TMS، 152.

المحيطة بالعاصمة، فضلاً عن أهالي دلهي[16]. غير أن مزاعم المصادر التي تقول بأن المدينة أخليت بصورة كاملة من سكانها، يحيط بها قَدْر كبير من الشك. يقوم حسين بإيراد شهادة منقوشات سانسكريتية عائدة إلى 1327 ـ 1328م، تشير إلى أن الهندوس كانوا مستمرين في العيش بالقرب من العاصمة القديمة[17]؛ ويشير سر هندي إلى «العوام المبتذلين» (**ماردومي عوام وأوباش**) الذين تُركوا لنهب ممتلكات المواطنين[18]. يقول برني في صياغته المنقحة الأولى، إن السلطان أمَر بجلب «علماء» ومشايخ «المناطق والبلدات» (**خطط ـ وقصبات**) إلى المدينة، ومنحهم المعاشات والمرتبات[19].

لفهم ما يعرف باسم نقل العاصمة من قِبَل محمد، لا بدّ من الاعتراف بأن عبارة «الشعب» (خلق) كانت تعني، بالنسبة إلى مصادرنا، العائلات الإسلامية الأحسن حالاً في العاصمة[20]. وحتى كلمة «**شهر**»، «المدينة»، حين تستخدم في سياق دلهي، تكون قابلة للدلالة على معنيين. فحين يتحدث برني عن «المدينة»، لا يعني أحياناً إلاّ مدينة دلهي القديمة ـ قلاع راي بيثورا، مدينة آيبك وإلتُتْمش ـ مقابل المجمع الاستيطاني الكامل لأماكن الإقامة الملكية ـ كيلوخري وسيري وهزارسوتون وتُغْلُق آباد ـ الذي كان قد نشأ في العقود الفاصلة[21]. فخلال الفترة التي دأب فيها، كما هو معلوم، على نقل الكوادر والأجهزة من دلهي إلى الدكّان بالذات، كان محمد عاكفاً على الانشغال بمشروعات إنشائية

(16) TFS، مخطوطة بودليان، ملف 191، 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف TMS160 .، 102، يتحدث عن سكان دلهي و**القصبات** (البلدات).

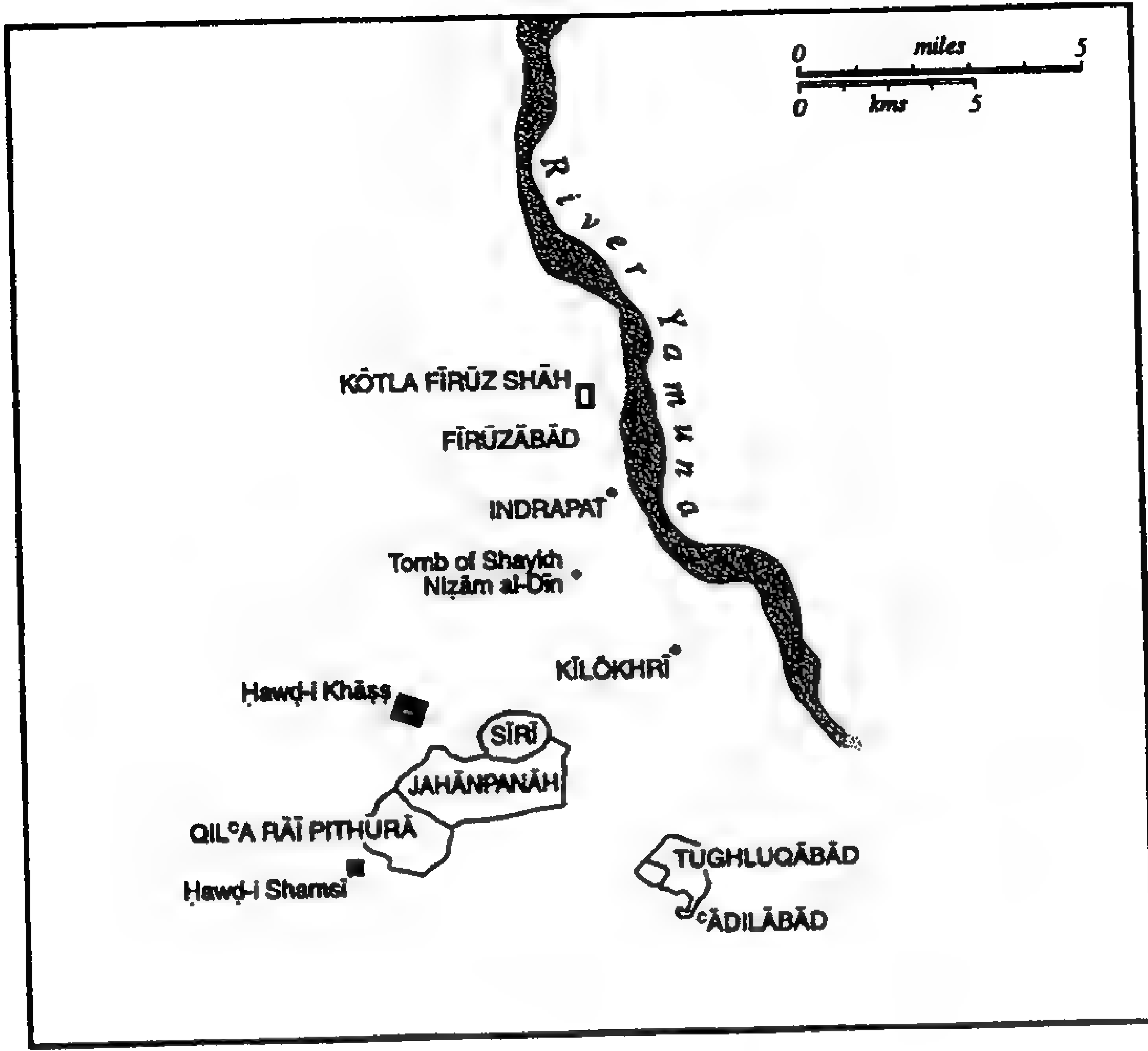
(17) حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 146 ـ 148؛ باتت هذه الكتابات في متناول الأيدي بسهولة فائقة عبر ب. براساد، **المنقوشات السنسكريتية**، 22 ـ 31 (رقم: I: 10 وI: 11). روي، «نقل العاصمة»، 170 ـ 171، أصر على أية حال، على استبعاد المنقوشات بوصفها غير ذات علاقة.

(18) TMS، 102.

(19) TFS، مخطوطة بودليان، ملف 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160 ب.

(20) كما لوحظ من قِبَل حسين في **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 149، 152 هـ. 2.

(21) مثل TFS، 449 ـ 450.



مُدُن دلهي

جديدة طموح، داخل إقليم دلهي. لقد أقام عام 727 هـ / 1326 ـ 1327م قلعة جديدة، عادل آباد، في مكان غير بعيد عن تُغْلُق آباد، وربط مدينة دلهي القديمة، بسيري، عن طريق أسوار أحاطت بالفسحة المعروفة، منذ ذلك الوقت، باسم جهان بناه[22]. يتضح من رواية ابن بطوطة أن محمداً، مثل أسلافه الخَلْجيين، أقام في قصر هزار سوتون، الذي كان قد أُنشئ من قِبَل علاء الدين خارج سيري، داخل إطار جهان بناه. وحسب كلام المؤلف نفسه، فإن

(22) هيلاري وادينغتون، «عادل آباد: جزء من دلهي الرابعة»، **الهند القديمة 1**، (1946م)، 60 ـ 76. أنطوني ولش وهوارد كرين، «التغالقة: صانعو أسياد سلطنة دلهي» **مقارنات 1** (1983م)، 128 ـ 129. عن تاريخ 727 هـ، انظر حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 167 وهـ. 2، مقتبساً عن بدري تشاتش.

السلطان كان قد اعتزم، في مرحلة من المراحل، تسوير «المدن» الأربع جميعاً (دلهي القديمة وسيري وجهان بناه وتُغْلُق آباد) بسور واحد، غير أنه ما لبث أن أقلع عن الفكرة، درءاً للتكاليف المتوقعة(23).

من الصعب التوفيق بين هذا البرنامج الموسّع، وبين الفكرة التي تقول بأن محمداً تصور التخلّي عن حاضرة دلهي كلها، وهجرها. فما يبدو أنه قد حصل فعلاً، هو أن المقيمين المسلمين الرئيسيين في المدينة **القديمة**، مع عائلاتهم الكبيرة، قد تم إبعادهم إلى دولت أباد(24). كما جرى استثناء العسكريين. ومن المعروف أن عملية الخروج شملت عائلات النبلاء والحكام المحليين؛ غير أن «الأمراء والملوك والجند» بقوا مع السلطان في دلهي، خلال العامين اللذين قضاهما في المدينة، غداة إخماد عصيان كوشلو خان، كما يقول برني، في حين كانت أسرهم في دولت أباد(25). لم يتم هجر المدينة القديمة، تحديداً، لأنها كانت دائبة على التحوّل إلى ثكنة عسكرية، في تطور وثيق الارتباط بتجنيد جيش بالغ الضخامة، استعداداً لما عُرف باسم «مشروع خراسان» عند محمد، ذلك المشروع الذي ستتم مناقشته لاحقاً. من المؤكد أن هذا هو ما يشير إليه عصامي، حين يؤكد أن المدينة عادت مأهولة بالسكان الذين يطلق عليهم باحتقار اسم: «الريفيين الغِلاظ» القادمين من المناطق المحيطة **(برغانات)**، الذين كانوا من الهندوس بشكل واضح(26). تعين على المشروعين ـ مشروع غزو خراسان من جهة، ومشروع الهجرة الجزئية إلى دولت أباد ـ أن يكونا متزامنين، كما يشير أحد المصادر إلى أنهما كانا فعلاً(27)، في سبيل تقليص

---

(23) عن هازار سلطان، انظر IB ,III، 220، 399 (تر. جيب، 660، 746)؛ عن السور، المصدر نفسه، III، 147 (تر. جيب، 619، 621).

(24) TFS، 473، **خواجي خلق... ماردوسي غوزيدا واتشيدا**. انظر أيضاً حسين، **صعود... وسقوط...**، 110 وما بعدها؛ **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 146 وما بعدها.

(25) TFS، 479.

(26) FS، 450، 453 (تر، 680 ـ 681، 684 ـ 685).

(27) سِيَر، 271.

زيادة الاستهلاك في دلهي إلى الحدود الدنيا، ووضع الأهداف المستحيلة أمام منتجي الحبوب. هذا ولا يبدو أن السلطان كان قد أخطأ في الحساب على هذا الصعيد، لأن برني يعزو تسريح قوة خراسان بعد عام واحد لا إلى نقص المؤن، بل إلى شح الأموال اللازمة لتسديد رواتب الجند[28].

أما فيما يخص حجم قوة خراسان، فإن برني يسوق تفاصيل متناقضة. ففي صياغته المنقحة الأولى، يورد رقماً يبلغ 470 ألفاً بشهادة **النائب العارض** (الحاجب)، ظاهر الجيوش نفسه؛ غير أن الصياغة الثانية لا تلبث أن تخفض الرقم إلى 370 ألفاً، دون الإتيان على ذكر اسم المصدر[29]. وقد اعتُبر هذا عدداً إجمالياً لسائر الرجال في جيش السلطان، الذي يذكِّرنا بالأرقام المماثلة العائدة إلى عهد علاء الدين، مما يجعل قوة خراسان المحمدية، أقل لفتاً للنظر[30]. مهما كان الرقم الذي يحلو لنا أن نعتمده، فإن هذه الأعداد تنطبق بوضوح، على قوة مشكَّلة لغرض خاص، إضافة إلى المجموع الاعتيادي المألوف لمجمل المؤسسة العسكرية[31]. قيل للعمري إن قوات محمد المسلَّحة في العاصمة وفي الأقاليم، كان يصل تعدادها الكلي إلى تسعمئة ألف من الرجال. غير أن الصفدي، الذي يعيد إيراد هذا الرقم بالاستناد إلى ما قاله مبعوث رسمي من دلهي، إلى السلطان المصري الناصر محمد (بن قلاوون)، يُدعى عبد الله «دفترخوان»، متشكك، مضيفاً أن الرقم الصحيح المعروف على نطاق واسع، أقرب إلى ستمئة ألف[32].

---

(28) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 167 أ. TFS، 477.

(29) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف TFS167 .، 477.

(30) ديغبي، **جياد الحرب**، 24 وهـ. 41 أ.

(31) تلك، على الأقل، هي شهادة فيريشتا، ا، 240.

(32) MA، تحقيق سبايز، 12 ـ 13 (تر. 37) / تحقيق فارق، (تر. صديقي وأحمد، 37). الصفدي، **الوافي**، III، 173 (تر. خان، 187)؛ ولكن قارن مع كتابه **أعيان العصر**، ملف 3 أ، حيث يقال 700,000 بدلاً من 900,000: ربما كان مخبره هو **الحاجب** عبد الله الذي جاء إلى إيران سفيراً لمحمد سنة 1327 ـ 1328 م: شبان قاراتي، 288. ابن حجر العسقلاني متوفى في 852 هـ / 1449م)، **الدرر الكامنة في أعيان** =

يبدو أن تجميع جيش هائل كهذا، كان منطوياً على صعوبات بالنسبة إلى الحكومة تُغزى خصوصاً، إلى حصول تغيير في نظام المكافأة (الرواتب). قيل للعُمَري إن الجند كلّهم باتوا يحصلون على معاشات من **ديوان خراج السلطان**[33]. وكذلك فإن قيام محمد باعتماد النقد الرمزي ـ القطع النقدية البرونزية ذات القيمة المتدنية في الحقيقة **(موهري ميس)** ـ الذي يربطه برني مرة أخرى، ولو بصورة مضمرة، بتجنيد أعداد كبيرة من الجند، ويُرْجعه سر هندي إلى الحاجة لسلف نقدية، من أجل سكان دلهي الجدد، كان هو الآخر في هذه السنوات[34]. تقرر أيضاً أن تتم مراجعة الخطة، في ضوء الوتيرة المتسارعة للتجارة والضغط الحاصل على التناسب بين الذهب والفضة 1/ 10، الذي كان يشكِّل أساس النظام النقدي. يبدو أن إخراج كميات كبيرة من الذهب من المخابئ، هو الذي أحدث خللاً في هذا التناسب، مؤكِّداً مشكلة نقص الفضة التي ازدادت تفاقماً مع مجيء محمد. ثمة مؤشرات ذات دلالة تتجلّى في إصداراته المبكرة **لتانغات** قليلة الفضة منذ عام 727 هـ / 1326م، وفي إلحاح قادر خان، واليه على البنغال (ذلك الإقليم الذي تمتع بفضل التجارة بميزة الوصول إلى كميات وافرة من الفضة في يونان وبورما) على مراكمة كميات كبيرة من الفضة المسكوكة لإرسالها إلى دلهي، قبل اغتياله وعصيان الإقليم حوالي سنة 736 هـ / 1335 ـ 1336م[35]. وقد كانت كل من حملة قرتشيل،

= **المثات الثامنة** (حيدر آباد، الدكّان، 1348 ـ 1350 هـ / 1929 ـ 1935م، 4 أجزاء)، III 461، يحذو حذو **الوافي** ولكنه لا يورد إلاّ الرقم الأقل 600,000. أما رقم الـ 40 **لاكاً** (4 ملايين) الوارد عن المشاة، أخيراً، على لسان ابن أبي الفصائل، تحقيق كورتانتامر، النص العربي 27 (الترجمة الألمانية 104)، هو دون شك ناتج عن التباس لوحدات وقد يكون من الضروري أن يتحدد بـ 400,000؛ وعدد الفرسان عنده هو 300,000.

(33) MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 37، 38) / تحقيق فارق، 24، 25 (تر. صدّيقي وأحمد، 37 ـ 38).

(34) TFS، 475؛ أيضاً TFS، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 167 ب، حيث يجري ربطها بهبات السلطان السخية جنباً إلى جنب مع تجنيد الجيوش. TMS، 102.

(35) سيمون ديغبي، «النظام النقدي»، في ريتشا ودهوري وحبيب (محررين) **تاريخ كامبردج الاقتصادي**، =

وغزوة محمد لناغاركوت عام 738 هـ / 1335 ـ 1336م، بدافع الحاجة إلى الفضة، دون أدنى شك. وقد تجلّى تعرّض التناسب بين الذهب والفضة للاختلال المؤقت، في الملاحظة الواردة في كتاب جغرافي مؤلف حوالي عام 740 هـ / 1339م في إيران، والتي تقول إن محمداً كان قد وضع حداً لتخزين الكنوز، وراح ينفق احتياطياته الذهبية. وما لبث إنفاقه الكثيف أن أفضى إلى تهاوي سعر الذهب، حتى بات تصديره إلى الهند عملاً غير اقتصادي، وصارت هذه الحركة التجارية معكوسة الاتجاه[36].

علينا تجاهل الجزء الأكبر من الرواية شبه الخالية من القيمة، التي يسوقها عصامي الذي يشير إلى قطع نقدية مسكوكة من الحديد والجلد، جنباً إلى جنب مع البرونز؛ على الرغم من أن تأكيده لحقيقة أن القطع النقدية كانت متداولة طوال فترة ثلاث سنوات، تؤيدها تلك القطع النقدية الكثيرة نسبياً الباقية، التي تحمل تواريخ تتراوح بين 730 هـ و732 هـ[37]. أما رواية برني الأوفى، فتظهر بأن الخطة أخفقت بسبب التزوير المنتشر على نطاق واسع للقطع النقدية في الأرياف، من قبل زعماء الهندوس وعملائهم، الذين كانوا يدفعونها بدورهم تسديداً لضريبة الأرض. وبهذه الطريقة، وصلت كميات كبيرة من القطع النقدية البرونزية إلى الخزينة، مما قوّض الثقة، وأحدث انهياراً في قيمة النقد؛ فاضطرّت الحكومة لاسترجاع القطع النقدية المتداولة، وإصدار **تانغات** ذهبية وفضية بدلاً منها[38]. ولكن ادعاءات برني المتكرّرة التي تزعم أن الخزينة جرى

= 97 ـ 98، خصوصاً ما اقتبس من TMS، 104 ـ 105. موسوي، «دلائل نقدية»، 215 ـ CMSD216 .، 162 ـ 166. عن مصادر الفضة، انظر جون ويل، «الرابط الصيني: مشكلات مؤونة الفضة في بنغال العصر الوسيط»، في ريشاردز (محرراً)، **المعادن الثمينة** ، 207 ـ 227.

(36) حمد الله مستوفي قزويني، **نزهة القلوب**، تحقيق وتر. غاي لوسترينج، **الجزء الجغرافي من نزهة القلوب**، XXIII, GMS، (لايدن ولندن، 1915 ـ 1919م، جزءان)، I، (النص)، 230، **عن زارهارا شَرَف ميكرناد**، وII (تر.)، 222.

(37) FS، 459 ـ 461 (تر. 693 ـ 695). CMSD، 139 ـ 146 (رقم: 574 ـ 616).

(38) TFS، 475 ـ 476؛ TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب ـ 202 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 167 ب ـ 168 أ.

إفراغها نتيجة المشروع (أو بسبب سياسات محمد الأخرى في الحقيقة)، يجب التعامل معها بحذر. فلو كان الأمر كذلك، لما كان محمد في وضع يمكِّنه من استعادة القطع النقدية البرونزية؛ بل، ولكان أقل قُدْرة على تقديم سلف كبيرة للفلاحين، بهدف استعادة الزراعة إلى سابق عهدها.

من المؤشرات الدالة على العبء الثقيل الذي شكَّله مشروع خراسان على مالية السلطان، على أية حال، ثمة التخلي عن نظام علاء الدين القائم على تسديد رواتب جيشه المتضخم، بصورة ملحوظة، وتحميل رعاياه في الدواب، عبئاً ضريبياً أثقل، حتى من ذلك الذي كان علاء الدين قد فرضه. وأية زيادة في الضرائب، وبهذه السرعة، غداة قيام ترما شيرين بتدمير الإقليم[40] كان من شأنها أن تثير سخطاً شديداً؛ غير أن الطابع الدقيق للتدبير غير واضح. لقد كان مورلاند، على حق، حين رفض ادعاء برني في الطبعة المتداولة لكتابه **تاريخ**، بأن **الخراج** تعرَّض لزيادة بلغت عشرة أضعاف أو عشرين ضعفاً (**ياكي با ـ داه وا ـ ياكي با ـ بيست**)، على أنه مجرَّد مجاز بلاغي[41]. فبمقدار ما نعلم، كان **الخراج** يصل إلى خمسين بالمئة، كما حدَّده علاء الدين، وهو الحد الأعلى الشرعي بموجب المذهب الحنفي. غير أن هناك تلميحات إضافية. ففي صياغته المنقحة الأولى (التي هي أكثر غموضاً فيما يخص نسبة الزيادة) يوحي برني، أولاً، بأن ما وجده الفلاحون أمراً لا يُطاق، هو أنهم باتوا، الآن، مطالبين بتسديد جزء على الأقل من الضريبة المقدرة نقداً (زار، «ذهباً»)؛ ويشير، ثانياً، إلى جملة من البنود (**الأبواب**) الكثيرة والثقيلة الأخرى[42]. إن الضرائب غير الشرعية التي ألغاها خليفة

(39) TFS، 476 ـ 477.

(40) مشار إليه صراحة في هذا السياق، TMS، 113.

(41) TFS، 473. مورلاند، 48 هـ. ؛ أيضاً إشواري براساد، **أتراك القراؤون**، 71 ـ TMS73 ، ، 101 ـ 102، يقول **ياكي با ـ بيست**، غير أنه فيما بعد (113) يقول واحد بالعشرة أو واحد بالعشرين.

(42) TFS، 479، **شدايدي مطاليت وبيسباري ـ ي أبواب**؛ انظر أيضاً TFS473 .[1]، مخطوطة بودليان، ملف 192 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ.

محمد، تتضمَّن سلسلة طويلة من الرسوم، إضافة إلى ضريبتي السكن **(غاري)** والمرعى **(شرائي)** اللتين كان علاء الدين قد استحدثهما[43]. وبالتالي، فإنه من المستحيل أن تكون كثرة من هذه الرسوم بِدَعاً عائدة إلى عهد محمد، وأن تكون الصياغة في الطبعة المنقحة اللاحقة، مشيرة إلى زيادة كبيرة في العدد الإجمالي للضرائب المحصلة، بدلاً من إشارتها إلى النسبة المئوية من الدخل التي تأخذها الدولة. يتحدث سر هندي، أخيراً، عن الضرائب الثلاث المحصلة جميعاً بقدر أكبر من الصرامة: كان المحصول المخمن مقداراً متعارفاً عليه، بدلاً من كونه موازياً للمحصول الفعلي، وكانت القيمة تحسب، وفقاً لأسعار محدَّدة، بأوامر إدارية، لا انطلاقاً من الأسعار السائدة في السوق[44].

مشروع خراسان والعلاقات مع المغول

كان هدف إنفاق محمد الكثيف على الجيش في السنوات الممتدة من 1329م فصاعداً، هو الانتقال إلى اتخاذ وضعية الهجوم ضد المغول. كان هناك نزوع لدى السلاطين نحو النظر بتوق وتوجس إلى احتمال التوسُّع إلى ما وراء الإندوس، نزوعٌ شجعه، دون شك، اللاجئون الكثيرون الآتون من تلك المناطق إلى بلاطهم. ومن المؤكد أن النجاح الباهر الذي حققته سلطنة دلهي في إخضاع وحكم أجزاء كبيرة غير مسبوقة من شبه الجزيرة الهندية، شكَّل إغراءً جديداً لمحمد بالتحديد، دفعه إلى تحويل اهتمامه نحو الجهات الشمالية ـ الغربية. سبق لنا أن رأينا كيف أنه بادر، منذ البداية الأولى لعهده، إلى قيادة حملة على الحدود المغولية؛ على الرغم من أن غزوة ترماشيرين، بدت كما لو كانت الدافع المباشر الكامن وراء «مشروع خراسان».

إن استخدام برني المضلِّل، في إحدى نقاط الصياغة المتداولة، لعبارة

---

(43) TFS، 5 (تر. روي، 453).

(44) TMS، 101 ـ 102: كان متوهماً أن محمداً هو الذي استحدث التشاري والغاري. ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 63.

«خراسان العراق» للدلالة على المناطق التي كانت هدف مخططات محمد[45]، أحدث تشويشاً لا لزوم له في المسألة. فعبارة «خراسان» ذاتها غامضة. لقد ظلّت تعني بالنسبة إلى سكان الهند خلال فترة السلطنة، بل وحتى إلى أحقاب متأخرة لاحقة، كحقبة بابُر، جملة المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر الإندوس، دون تحقيق دقيق[46]. لذا، فإن إيشواري براساد وآغا مهدي حسين استنتجا أن محمداً كان يخطّط للهجوم على الإيلخانية[47]. غير أن «خراسان» كانت، أيضاً تعني المناطق التي تشكّل، الآن، شمال أفغانستان، وكانت في ذلك الوقت خاضعة لحكم الخانات الجغتائيين. ويبدو برني أكثر تحديداً في صياغته المنقحة الأولى، إذ يشير إلى هدف طموحات محمد باعتبارها متمثلة بـ «المرتفعات» (**أقاليمي بالا أو بالا ـ دست**)؛ كما يحدث، في إحدى نقاط الطبعة اللاحقة، متفقاً مع مصادر أخرى، عن خطة السلطان الرامية إلى فتح وقهر «خراسان وما وراء النهر»[48]. ومن هنا، فإننا نستطيع أن نكون متأكدين من أن محمداً كان عازماً على مهاجمة الأعداء القدامى، الجغتائيين؛ أما مع الإيلخانيين، فإن علاقاته كانت ودية في الحقيقة. لقد قال البروفسور صديقي، إن أحد أسباب التخلي عن مخططات محمد، تمثل بقيام علاقات ودية بين السلطان وترماشيرين، على الرغم من أن برني، المصمّم على مسح سياسات السلطان الداخلية ومعاينتها بدقة، لا يأتي على أي ذكر لهذا الأمر.

---

(45) TFS، 476.

(46) III, IB، 229 (تر. جيب، 664). **بابور ـ نامه**، I، 202.

(47) إ. براساد **أتراك القراؤون**، 118 ـ 124؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 138 ـ 143. ولكن قارن عزيز أحمد، «الضغط المغولي»، 189، رغم أنه يقع في خطأ تأريخ مشروع خراسان فيما بعد موت تارماشيرين.

(48) TFS، 477، TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 200 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 5166، تقول «خراسان، العراق وما وراء النهر»، ولكن قارن ملف 201 ب / ملف 167 أ. **أقاليم ـ ي بالا ـ داست**، **سِيَر**، 271 («خراسان وتركستان») صدّيقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية»، 9 ـ 10.

يقول برني إن جزءاً من قوة خراسان أُرسل إلى قراشيل[49]، التي هي، مثلها مثل «خراسان» تسمية شديدة الضبابية وتتسم بعدم التحديد الواضح، والتي تدل، بأوسع معانيها، على مجمل سلسلة جبال الهيمالايا[50]. غير أن من الواضح أن المصادر تشير، في السياق الخاص لطموحات محمد وتطلعاته، إلى إمارة هندوسية كبرى. ففي مقال نُشر قبل بضع سنوات، اقترحتُ أن هدف جيش السلطان كان متمثلاً بكشمير، التي يُعرف، من مصادر محلية، أنها تعرَّضت لغزوتين على الأقل خلال الربع الثاني من القرن الرابع عشر[51]. يجب الاعتراف بأن هناك صعوبات ينطوي عليها مثل هذا التشخيص، غير أن الزعم بأن محمداً كان يفكّر بإرسال وليٍّ مسلم إلى كشمير، في هذا الوقت بالذات[52]، وبقعة ما في الجبهة الشمالية ـ الغربية يجب أن يكون موضع نقاش، نظراً للارتباط مع مشروع خراسان الذي يصر عليه برني، بقدر كبير من التأكيد:

> خطر للسلطان محمد أنه من الواجب إخضاع جبال قراشيل، الواقعة على الطريق المباشرة (دار راهي نزديك)، كحدود وستار بين امبراطورية الهند وامبراطورية الصين لراية الإسلام، حتى تصبح طريق تقدم الجيش، ودخول الفرسان، ميسَّرة، نظراً لأن مقدمات (بيش ـ نيهادها) فتح خراسان وما وراء النهر باتت متحققة[53].

يجب ملاحظة أن ذكر الصين، وهو الأمر الذي ضلَّل جامع القرن

---

(49) TFS، 477.

(50) مثل III, IB، 325، 438 ـ 439 (تر. جيب، 713، 763).

(51) جاكسون، «المغول وسلطنة دلهي»، 132 ـ 142؛ ولكن قارن، صدّيقي، «سياسة محمد بن تُغلُق الخارجية»، 15 وهـ. 45.

(52) سيَر، 228.

(53) TFS، 477 (مع التصحيح عن مخطوطة BL، ملف 236 ب).

السابع عشر فيرشتا، وأقنعه، خطأ، بأن محمداً خطّط لفتح ذلك البلد[54]، ليس إلاّ حدثاً عارضاً. فمن صياغة برني، يبدو أن أحد الأهداف، كان متمثلاً بحماية الطريق التي كانت تسهّل دخول فرسان القتال المحاربين القادمين من المرتفعات (البالادستي) إلى السلطنة. وبالتالي، فإنه من الصعب رؤية أن السلطان كان حريصاً، مثلاً، على إرسال جزء من قوة خراسان إلى داخل منطقة كوماؤون ـ غاهروال[55]. ومهما يكن، فإن قوات دلهي وقعت في مصيدة إغراء التوغل في الجبال، حيث أجهز عليها العدو؛ لم يعد من الجيش سوى حفنة صغيرة. يقول سر هندي، إن العدد الإجمالي للقوة كان يصل إلى ثمانين ألفاً من الفرسان، عدا الخدم (تشاكير)، والعبيد؛ أما عصامي، فيعطي رقم لاك واحد (مئة ألف) من الفرسان، عاد منهم خمسة إلى ستة آلاف[56]. يبقى العدد الذي أورده برني في سياق رواية شديدة الإيجاز، في صياغته المنقحة الأولى، أصغر بصورة لافتة للنظر، إذ يقول إنه كان ثلاثين أو أربعين ألفاً؛ أما تأكيده، في الطبعة المراجَعة، لأن مجموع الناجين لم يكن يتجاوز العشرة فرسان فقط، فليس إلاّ إسرافاً في الغلو[57]. ويزعم ابن بطوطة أن محمداً ما لبث، لاحقاً، أن بات قادراً على التصالح مع أهالي قراشيل، الذين التزموا بدفع الجزية: وحقيقة أنهم كانوا قد أصبحوا تابعين لدلهي، يؤكّدها العُمَري أيضاً، رغم عزوفه عن ذكر إخفاق السلطان في التغلب عليهم بالوسائل العسكرية[58].

(54) فيريشتا، I، 240. إ. براساد، أتراك لقراؤون، 126 ـ 128، 134 ـ 136، كان على صواب في تشككه.

(55) كما اقترح براساد، المصدر نفسه، 28 ـ 131، ونظامي (HN، 522) الذي يقوم (واقعاً في خطأ اقتباس برني) باستبعاد أي ارتباط بين مشروع خراسان ومغامرة قراشيل.

(56) TMS، 114، FS، 467 (تر. 703).

(57) TFS¹، مخطوطة بودليان، ملف 193 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 ب. TFS، 477 ـ 478.

(58) IB، III، 327 ـ 328 (تر. جيب، 714). MA، تحقيق سبايز، 5 (تر. ألمانية 23) تحقيق فارق، 11 (تر. صدّيقي وأحمد، 29).

ثورة فلاحية وفوضى اقتصادية

تمخضت مطالب محمد الضريبية المتزايدة، عن إثارة حركة تمردية واسعة بين صفوف مزارعي إقليم الدواب، الذين أحرقوا محاصيلهم وطردوا قطعان مواشيهم، تاركينها تهيم على وجوهها، ولاذوا بالأدغال. بادر السلطان الذي أمر موظفي الضرائب عنده (**الشِّقْدَران**) والقادة العسكريين (**الفوج دران**) بالسطو على المناطق المتمردة، ونهبها أول الأمر، إلى النزول شخصياً إلى الساحة، فيما بعد، ليشن هجمات تأديبية على برن وكول. من المحتمل أن تكون الانتفاضة قد حدثت حوالي سنة 1332 ـ 1333م، غير أن محمداً قاد، على ما يبدو، حملتين إلى داخل «هندوستان»، وأن عملياته في جوار قنّوج وإلماو (التي كانت فيها عند وصول ابن بطوطة إلى دلهي عام 734 هـ / 1334م) شكّلت هي الأخرى جزءاً من محاولته الرامية إلى إخماد الثورة الدوابية[(59)]. لقد أدّى عدم وصول الحبوب إلى دلهي من الدواب إلى المجاعة، وما لبث الوضع أن تفاقم جراء فترة طويلة من الجفاف، غداة عودة السلطان من حملته المَغبرية[(60)]. يتحدّث برني عن تأثير ذلك على دلهي، التي هلك كثيرون من أهلها أو هربوا إلى الأرياف؛ ومن المؤكد أن هذا (735 ـ 736 هـ / 1335 ـ 1336م) هو التاريخ الذي ينبغي أن نضع فيه تعليق ابن بطوطة القائل، إنه وجد العاصمة مهجورة نسبياً[(61)]. ومع ذلك، يبدو أن مساحة أوسع بكثير باتت مُبتلاةً

(59) هذا أوضح في TFS², مخطوطة بودليان، ملف 192 ب ـ 193 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، 161 ب، مما في TFS، 479، 480؛ عن حملة قنّوج، انظر IB ,III، 144، (تر. جيب، 617).

(60) TFS، 473؛ ثمة دلالة تاريخية أوضح في 482. لا أستطيع الاتفاق مع نظامي (في HN، 524)، حيث يعتبر فرض الضرائب العالية في الدؤاب تعويضاً عن المجاعة في دلهي بدلاً من كونه سببها آخر المطاف.

(61) TFS، IB482 ,III ،. 316 (تر. جيب، 708): تبدو الملاحظة الواردة في سياق نقل العاصمة منطبقة على دخوله الأولي إلى دلهي، بدلاً من أن تكون منسجمة مع أية زيارة لاحقة، مما دفع حسيناً في **صعود... وسقوط..**، 121 ـ 123، **والأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 171 ـ 173، إلى استبعاد الأمر باعتباره مستنداً إلى الأقاويل والإشاعات.

بالمجاعة، لأن محمداً كان، لدى مروره بمالوا في الطريق إلى المعبر، قد وجد شبكة المجاري **(الدهاوا)** الممتدة مع الطريق مهملة، وبالمثل، فإننا نقرأ عن المجاعة في بلدات (قصبات) البنجاب الشرقي، حيث اضطر السلطان لأن يشن حملة ضد الفلاحين العصاة لاحقاً، حوالي عام 738 هـ / 1337 ـ 1338م[62].

أما جهود السلطان الرامية إلى تشجيع الزراعة، بعد عودته من الجنوب، عبر الإيعاز بحفر الآبار في ضواحي دلهي، ومن خلال تقديم البذور والقروض **(سوندهار)** إلى الفلاحين، فقد ذهبت أدراج الرياح[63]. كما أن الحملات التي شُنَّت على كاتيهر للسطو على الحبوب، من أجل إطعام الجند وأهالي دلهي لم تكن سوى مهدئات قصيرة الأجل[64]. فبعد عامين من عودته من الجنوب إلى دلهي، اضطر محمد للسماح بحصول هجرة على نطاق واسع من العاصمة إلى إقليم أَوَذ الخصب، وقام هو نفسه، ببناء مقر إقامة مؤقت على الغانج، وموقع يعرف باسم سارغادواري[65]. ويبدو أن مكوثه هنا لفترة عامين ونصف العام تقريباً، قد أدّى إلى التخفيف من حدة المشكلات بعض الشيء؛ وإذا كان سر هندي على صواب حين يزعم أن الجفاف دام سبع سنوات[66]، فإن من شأن عودة السلطان إلى دلهي، أن تكون قد جاءت متزامنة مع انتهاء ذلك الجفاف، أي حوالي عام 741 هـ / 1340 ـ 1341م، وكانت التدبير الهادفة إلى إحياء الزراعة لا تزال تُعتبر ضرورية خلال السنوات الأخيرة من العهد، على الرغم من أن السُّلَف النقدية الهائلة، المقدمة إلى المزارعين، لم تُوظف بالشكل

(62) مالوا: TFS، 481 ـ 482. البنجاب الشرقي: TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 194 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 162 ب؛ TFS، 483 ـ 484، لا يشاء إلاّ إلى رفض الفلاحين لدفع **الخراج**، غير أنه لا يتم أي ربط بالمجاعة؛ IB ,III، 372 ـ 373 (تر. جيب، 734)، عن المجاعة في آغروها.

(63) TFS، 482، IB484 ,III .، 299 (تر. جيب، 700).

(64) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 195 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 أ؛ TFS، 484 ـ 485، لا يتحدث إلاّ عن المراعي (تشاراخور).

(65) المصدر نفسه، 485 ـ 486.

(66) TMS، 113.

المناسب، ولو تسنى لمحمد أن يعود حيًا من السند، حسب قناعة برني، لجرى إعدام المذنبين[67].

نعلم أن قيام محمد بتخفيض قيمة النقد تمخض عن قَدْر غير قليل من التضخم، مفضياً إلى زيادة في الأسعار بلغت ما يقرب من خمسة أضعاف[68]. ومما لا شك فيه، أن مشكلات السلطنة الاقتصادية زادت حدة بفعل سياسة الإمارة (الخانية) الجغتائية، لأن ترماشيرين كان، غداة اهتدائه إلى الإسلام، قد ألغى جملة الرسوم الجمركية التجارية غير المكرّسة بالشريعة، فاجتذب إلى ما وراء النهر أفواجاً من التجار، من كل من مصر وسورية بأعداد كبيرة[69]. ربما أدّى هذا إلى تحويل نسبة معينة من التجارة المصرية إلى شمال هندوكوش، وقد يفسر مبادرة محمد إلى إلغاء **المكوس** داخل المناطق الخاضعة لحكمه. وبالمثل، فإن الحافز ربما كان متمثلاً بتدهور عام في التجارة الخارجية، نتيجة لخفض قيمة النقد؛ غير أنه من اللافت للنظر، أن **الدينار** الجغتائي كان يتمتع بشهرة واسعة من حيث النقاء[70]. من الممكن أن تكون سياسة محمد النقدية قد فعلت فعلها في الميزان التجاري، بين الهند وآسيا الوسطى.

ضعف عسكري وعصيان مزمن

يتضح من شهادة برني أن الاضطراب المستديم في الدواب، ما لبث أن اضطلع بدور الحافز للموجة التالية من حركات التمرد والعصيان، في أقاليم

---

(67) TFS، 498 ـ 499. عفيف، 92. ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 65 ـ 66.

(68) ديغبي، **جياد الحرب**، 39 ـ 40.

(69) MA، تحقيق ليش، النص العربي، 41 (تر. ألمانية 119). الصفدي، **الوافي**، X، 383، وحده يأتي على ذكر الإلغاء. عن **مكوس**، رسوم جمركية أساساً، انظر عموماً و. بجوركمان، «مكس»، Enc. Isl.²؛ ب. غ. فوران، «ملاحظات عن المكس والعُشر، **آرابيكا** 13 (1966م)، 137 ـ 141.

(70) MA، تحقيق ليش، النص العربي 47 (تر. ألمانية 123).

أبعد منذ حوالى 1334م فصاعداً، ولا سيما في المَعْبَر والبنغال وتيلانغ[71].
ربما كانت ثورة السيد جلال الدين حسن، كوتوال مادورا على ما يبدو، الذي ما لبث أن تقلَّد لقب السلطان جلال الدين إحسان شاه، هي الأولى، ويُعتقد أنها اندلعت سنة 734 هـ / 1333 ـ 1334 م. قُتل ممثلو محمد، والقوات المسلَّحة التي يفترض فيها أن تكون حامية الإقليم، لم تفعل شيئاً[72]. وقد جاء فقدان البنغال بعد هذه الأزمة مباشرة. كان فخر الدين (ويعرف أيضاً باسم «فخرا») **سلاحداراً** عند أخي السلطان بالتبني، بهرم خان، وكان قد سبق له بذل محاولة فاشلة للاستيلاء على السلطة في سونار غاؤن، لدى وفاة ولي نعمته وسيده. تم إخماد الانتفاضة على يد قادر خان، ممثل محمد في لخناوتي؛ ولكن صراعاً طويلاً ما لبث، بعد وقت طويل، أن نشب في سبيل السيطرة على الإقليم. في البدء، تمرَّدت قوات قادر خان وذبحته، ثم انتقلت إلى صف المتمرِّد فخر الدين، الذي اتخذ من سونار غاؤون مقر إقامة له. ثم ما لبث أن قُتل عامل فخر الدين في لخناوتي على يد **العارض** (الحاجب) السابق لدى قادر خان، علي مبارك، الذي جاء قائداً لوحدة من القوات الملكية. وحين بدا السلطان عاجزاً عن تلبية طلبه القاضي بإرسال والٍ جديد من دلهي، وجد علي مبارك هذا نفسه مضطراً لتقلُّد اللقب الملكي بنفسه فيصبح السلطان علاء الدين علي شاه، من أجل حشد التأييد والدعم ضد نشاطات فخر الدين العدائية. ثمة مرشح ثالث للسلطنة، وهو خادم (تشاكير) سابق لدى علي مبارك، يدعى إلياس

---

(71) يكون الربط صريحاً في الصياغة المنقحة الأولى: TFS، مخطوطة بودليان، ملف 193 / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 ب ـ 162 أ.

(72) تفاصيل ضئيلة في TFS، 480، عدا عن القول بأن محمداً كان في حملة عند أطراف قنّوج حين وصلته الأنباء. FS، 469 (تر. 705). III, IB، 144 (تر. جيب، 617). عن التاريخ، انظر س. آ. ق. حسيني، «التسلسل التاريخي لسلطاني مادورا الأوَّلَيْن»، **أعمال مؤتمر تاريخ باكستان، الجلسة الخامسة، خابربور، 1955 م** (كراتشي [بلا تاريخ] [1958 م])، 193 ـ 197، و«تاريخ سلطنة مادورا»، JASP 2 (1957م)، 91 ـ 95، آتياً على ذكر قطعة نقدية تحمل اسم أحسان شاه مؤرخة في 734 هـ. ج. بورتون، بيج، «جلال الدين أحسان»، .Enc. Isl، يجب، بالتالي، ترهينه.

حاجّي، حَكَم باسم السلطان شمس الدين، كان سيطيح بكل من علي شاه، أواسط أربعينيات القرن الرابع عشر، ونجل فخر الدين وخَلَفِه، اختيار الدين غازي شاه أوائل خمسينيات القرن نفسه[73]. يبدو أن إلياساً هذا أعلن، حاذياً حذو علي شاه، اعترافه بسلطة دلهي، لأن **فَرَماناً** صادراً عن خليفة محمد، فيروز شاه سيزعم، لاحقاً، أنه كان قد بقي موالياً إلى ما بعد موت محمد[74].

لعل وجود قوات موالية حقاً في البنغال، هو ما أغرى محمداً بإعطاء الأولوية لقمع حركة إحسان شاه في المعبر. ففي عام 735 هـ / 1334 ـ 1335م، تحرك جنوباً على رأس قوة لا يستهان بها وعبر الدكّان. غير أن الجيش ما لبث، لدى وصوله إلى تيلانغ، أن أُصيب بنوع من الوباء، فاضطر السلطان للانسحاب؛ وقد مرض هو نفسه مرضاً شديداً، حين وصل إلى دولت أباد، ولم يتماثل للشفاء إلاّ بعد العودة إلى دلهي. كان واضحاً بالنسبة لابن بطوطة، الذي يعيد تساقط الأقاليم النائية والمتطرفة إلى هذا المنعطف[75]، أن الحملة كانت كارثة كبرى. فالإخفاق في استعادة المعبر، شكّل حافزاً لمن كانوا يفكّرون بالانشقاق والمعارضة، وشجّع على انتشار شائعات قوية عن موت محمد على نطاق واسع. فمنذ البداية، حين تحرّك السلطان جنوباً، كان أحد ضباطه، تاج الدين هوشنغ [ابن كمال الدين «غورغ» (الذئب)]، مُقْطع هانسي،

---

(73) TMS، 104 ـ 105، يقدم الرواية الأوفى وإن بتواريخ غير صحيحة. TFS، 480، وFS، 472 (تر. 709) محرفان. IB ,IV، 213 ـ 214 (تر. جيب وبكينغهام، 869)، يخلط التفاصيل ولا يأتي على ذكر إلياس الذي تجده في SFS، 47 (تر. باسو، JBORS، 27 [1941 م]، 92)؛ هذا المصدر الأخير يعتبر علي شاه حامل درع وسلاح دينار، أحد خصيان قادر خان. للاطلاع على عرض للأحداث، انظر عبد الكريم، «الظروف التي أفضت إلى استقلال البنغال (1338م)»، **أعمال مؤتمر تاريخ باكستان، الجلسة الخامسة**، 209 ـ 222. تستمر القطع النقدية لعلي شاه إلى عام 744 هـ: CCIM ,II، 150 (رقم: 22 ـ 23). أما غازي شاه فقد ضرب نقداً 751 هـ: المصدر نفسه، II، 149 (رقم: 21). كان إلياس قد بدأ يحكم مع حلول عام 743 هـ / 1342 م: داني، «شمس الدين إلياس شاه»، 55؛ إيتون، **صعود الإسلام**، 86.

(74) IM، 16.

(75) IB ,III، 334 ـ 335 (تر. جيب، 717).

قد فرَّ إلى الفيندهيا، ومنها إلى الكونكان؛ فتحرَّك قُطْلُغ خان، أستاذ محمد السابق ووالي الدكّان، ضده، وما لبث أن نجح في إغرائه بالاستسلام، واعداً إياه بضمان سلامته[76]. وفي الوقت نفسه تقريباً، أقدم قائد مغولي، يدعى هيليتشو، على احتلال لاهور بالتحالف مع غول تشاند زعيم الخوخار، حليف والد محمد ذات يوم؛ هُزم المتمرِّدون وتمَّت استعادة المدينة من قِبَل الوزير خواجا جهان[77]. أما استيلاء الزعيم الأفغاني تشاهو على مُلْتان، الذي يجعله عصامي جزءاً من هذه الحركة التمردية في البنجاب الغربي، فتراه مصادر أخرى، حدثاً منفصلاً. ومحمد، الذي كان الآن قد عاد إلى دلهي، اعتبر هذه الثورة منطوية على قَدْر من التهديد، يكفي لتسويغ مبادرته شخصياً إلى التعامل معها؛ غير أن تشاهو لاذ بالفرار، لدى اقتراب السلطان، وأرسل كتاب ولاء[78]. أما ضياع كامبيلا التي ما لبثت أن أصبحت نواة مملكة فيجاياناغارا، وتمرد في تيلانغ، حيث نجح كابايا ناياك في الإطاحة بالوالي ملك مقبول، الذي فرَّ إلى دلهي التي وصلها خلال أيام قليلة بعد السلطان نفسه، فقد كانا أكثر خطورة[79].

شكَّل ضياع تيلانغ، تلك المنطقة التي كان إخضاعها في العهد السابق إنجازه الشخصي، ضربة قاسية جداً بالنسبة إلى محمد. يقال إنه أراد شنّ حملة لاسترجاعها، غير أن المجاعة حالت دون ذلك[80]. وإذا كان عصامي جديراً

(76) FS، 469 ـ 470 (تر. 706 ـ 707). TMS، IB106, III، .، 335 ـ 336 (تر. جيب، 717 ـ 718).

(77) FS، 471 (تر. 707 ـ 708)، واقعاً في خطأ جعل هذا الجزء من الحدث ثورة شاهو نفسها. IB, III، 331 ـ 333 (تر. جيب، 716 ـ 717).

(78) TFS، 482 ـ IB483, III، .، 362 (تر. جيب، 729).

(79) إشارة موجزة إلى الثورتين في FS، 606، (تر. 902). تيلانغ: TFS، 484. عن المواد المحدودة حول ظهور فيجايا ناغارا، انظر حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 248 ـ 249.

(80) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 195 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 أ، تقول إنه كان مبتلياً من الداخل (**دار باطن**). TFS، 484، أكثر إيجازاً.

بالثقة، فإن نصف قادة الجيش وثلث الجند كانوا قد هلكوا، بسبب الوباء[81]؛ أما برني ومخبرو ابن بطوطة، فيرون أن حملة قراشيل كانت قد أدَّت إلى إضعاف جيش السلطان، بصورة بالغة الجدية[82]. نحن هنا بصدد حدثين ابتُليت بهما حكومة محمد، أثقلا كاهلها لسنوات كثيرة قادمة: ثمة اختزال شديد لعدد الجند الموجودين تحت تصرفه، مضافاً إلى خسارة ذات شأن على صعيد الموارد، جراء تدهور الزراعة، مما أدّى إلى بقاء السلطان عاجزاً عن إعادة بناء قواته المسلَّحة.

تفوح من سلسلة حركات التمرد في أواسط العهد، تلك الحركات التي استعرضناها إلى الآن، رائحةُ ردود انتهازية قوية على أزمة طال أمدها، سواء من جانب أفراد ساخطين، أو من قِبَل عناصر هندوسية على التخوم المتطرفة للسلطنة. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل ثمة دلائل على وجود علة أعمق تفعل فعلها في الطبقة الحاكمة نفسها؟ في تناقض صريح مع النظام الذي نشأ في الامبراطورية المملوكية، كان ثمة نوع من الربط المباشر بين الخزينة الملكية والجندي العادي، وكان الأمراء قد فقدوا القدرة على إلزام الجند بخدمة مصالحهم الخاصة، عبر هبات إقطاعية من مخصصاتهم، التي كانت موجهة، حصراً، إلى تأمين متطلبات حياتهم الشخصية[83]. أضف إلى ذلك، أن ابن بطوطة يكشف النقاب عن حقيقة، أن القيادة العسكرية باتت منفصلة تماماً عن الإدارة المالية للإقطاع، حتى بات والٍ للخراج، في منطقة آمروها مثلاً، مسؤولاً بصورة مباشرة أمام السلطان، جنباً إلى جنب مع الأمير[84]. لقد كان

---

(81) FS، 469، 471 (تر. 706، 708). IB, III، 334 (تر. جيب، 717)، يكتفي بقول إن الجزء الأكبر من الجيش الذي رافق السلطان قد تمت إبادته. قارن أيضاً FS، 472 (تر. 709)، حيث يُعْزَى فقدان الأقاليم لافتقار محمد إلى الجيوش، و510 ـ 511 (تر. 759).

(82) IB, III، 327 (تر. جيب، 714). TFS، 477 ـ 478.

(83) MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 37، 38 / تحقيق فارق، 24، 25 (تر. صدّيقي وأحمد، 37 ـ 38). عن الأوضاع في مصر الأيوبية والمملوكية، انظر ربيع، **النظام المالي**، 32 ـ 38.

(84) IB, III، 436، 439 (تر. جيب، 762، 763). كوزمان، **كتابات هندية**، 146، 147 ـ 148.

هذا الانقضاض على موقع القادة الإقليميين، كما قيل بصورة مقنعة، أحد العوامل الكامنة وراء سلسلة حركات التمرد والعصيان التي ابتُليت بها سنوات السلطان الأخيرة، في كل من گوجرات والدكّان[85].

جاء ضياع الموارد المصاحب لانفصال عدد من الأقاليم، هو الآخر، منطوياً على التأثير الغادر لتزايد الضغط على محمد، ودفعه إلى مطالبة الولايات التي بقيت موالية بمبالغ أكبر. يبدو أن الضباط الذين تعاقدوا على تحصيل الموارد، راحوا يلتزمون بتحويل مبالغ غير واقعية، من حيث ارتفاعها إلى السلطان. فقد قيل لابن بطوطة إن هندوسياً كان قد تعاقد على تحصيل موارد إقليم الدكّان كله، مقابل سبعة عشر **كروراً** (170,000,000، مئة وسبعين مليوناً من **التانغات**)، غير أنه أخفق في الوفاء بالتزامه، فجرى سلخ جلده وهو حي، بأمر من محمد[86]. صحيح أن القصة لا يمكن ربطها بأي حدث ورد في أي مكان آخر، غير أنها تسلِّط الضوء على التأثير الذي تركته مثل تلك التدبير على المعاصرين. فاستحالة تلبية حاجات الحكومة بهذه الطريقة، كان من شأنها أن تنطوي على التمرد، من جانب خدم طالما بقوا مخلصين. إن اثنتين من الانتفاضات التي اندلعت في أثناء إقامة محمد في سرغادواري، كانتا من هذه الفصيلة. فنظام مُعين الذي تعهَّد تحصيل موارد قارا، وشهاب سلطاني الملقب بنصرت خان، الذي كان قد التزم بتحصيل كرور واحد (عشرة ملايين من **التانغات**) من بيدار وإقطاعها، خلال ثلاث سنوات، دُفعا كلاهما إلى الثورة والتمرد، جراء إخفاقهما في جمع المبالغ الموعودة؛ قيل إن نصرت خان عجز عن تحصيل ثُلُث أو رُبْع مضمون العقد. أما محاولة نظام معين، البائسة، لنيل الاستقلال، فقد سُحقت على يد والي أوَدْ التابع للسلطان، عين الملك بن مِهرو إخوته، في حين تمت معالجة مشكلة نُصرت خان على يد كلّي الحضور

(85) حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 71 ـ 73.

(86) IB, IV، 49 (تر. جيب وكينغهام، 795).

قُطلغ خان الذي جنَّد جيشاً من دولت أباد، ولكنه ما لبث أن أقنعه بالاستسلام، ضامناً سلامته[87].

هناك دلائل أخرى تشير إلى أن نظام محمد الذي أصبح أسير شهرته وذيوع صيته، كان بالغ القسوة. يؤكِّد برني في أكثر من مناسبة، أن العقوبات الصارمة التي لا تعرف الرحمة، التي نزلت على دلهي، أفرزت الخوف والسُّخط في الأماكن الأخرى من الامبراطورية، اللذين لعبا دوراً ذا شأن في إنتاج الثورة[88]. تشكِّل انتفاضة عين الملك بن مهرو في أوَذ، مثالاً صارخاً. متشككاً في أن يكون موظفو قُطْلُغ خان متورِّطين في اختلاس جزء من الموارد في الدكّان، فكَّر السلطان باستدعاء أستاذه القديم وإرسال ابن مهرو، الذي كان مؤخراً قد أثبت إخلاصه وكفاءته عبر شحن كميات كبيرة من الحبوب والبضائع الأخرى، من أوَذ إلى سرغادواري ودلهي، في أوج المجاعة، إلى دولت أباد. وفي صياغته المنقحة الأولى، يجعل برني محمداً مترقباً الكميات الزائدة، التي يمكن لإداري من نوعية ابن مهرو تحصيلها من الدكّان الأغنى، بما لا يقاس[89]. ومما يدعو للأسف، أن السلطان سمع أيضاً أن أعداداً كبيرة من أهالي دلهي، كانوا قد هربوا من العاصمة إلى أوَذ، منجذبين بازدهارها وبحكم ابن مهرو القائم على الرحمة والرأفة، وطلب إعادتهم. وابن مهرو الذي حُذر من غضب محمد حول هذا، استخلص أن النقل المدروس إلى الدكّان، لم يكن إلاّ مؤامرة للخلاص منه، فقرَّر هو وأشقاؤه استباق إعدامهم بالتمرُّد. هزمهم محمد على الغانج، في موقع غير بعيد عن قنُّوج، قُتل إخوة ابن مهرو في المعركة أو اختفوا، أما هو، فقد أُخذ أسيراً؛ غير أن تقريبه من جديد، بعد فترة غير طويلة من الزمن، يشكِّل معياراً لمكانته، كما لتَفَهُّم السلطان لأسباب

(87) TFS، 487، 488.

(88) المصدر نفسه، 472، 484، 499 ـ 500، 517.

(89) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 196 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 ب.

ثورته[90]. جرى فيما بعد تعيينه، والياً على مُلْتان، في أثناء حملة محمد الأخيرة ضد المتمرد تاغاي وحلفائه السومرا في السند[91].

ويلمّح ابن بطوطة عند وصفه لتمركز قوات محمد بالقرب من قِنَّوج استعداداً لمجابهة ابن مهرو، إلى نفور «أمراء خراسان والأجانب» المرافقين للسلطان، من المتمرد الذي كان من أصول هندية[92]. فمنذ سنة 734 هـ / 1333 ـ 1334م، كما رأينا من قبل، كان محمد عازماً على تقريب حكام محليين من خراسان والمناطق المجاورة، محققاً عن طريق الرعاية والوصاية، ما أخفق في إنجازه عبر مشروع خراسان. وقد كان هذا بدوره جزءاً من سياسة أكبر، قائمة على تقريب الأجانب وتفضيلهم على الأرستقراطية المحلية.

صحيح أننا لا نستطيع تقرير ما إذا كان هذا بحد ذاته كافياً لدفع أعضاء من الأرستقراطية الإسلامية الهندية إلى الثورة، غير أنه من المحتمل بقوة، أنه لعب دوراً في عدم الاستقرار الذي ساد سنوات السلطان الأخيرة. قد نكون

---

(90) IB, III، 341 ـ 354، 357 (تر. جيب، 720 ـ 726، 727)، يقدم رواية تفصيلية لقصة الحملة التي شارك فيها، غير أنه غير مطّلع على الدوافع الكامنة وراء التمرد. يتكرر الشيء نفسه في FS، 472 ـ 475 (تر. TFS¹، 709 ـ 714). مخطوطة بودليان، ملف 195 ب ـ 196 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163، TFS، 486 ـ 487، 489 ـ 491، يجري تحليل دوافع مهرو. لا يتم ذكر الشكوك حول الموارد من الدكّان إلاّ في TFS، 500 ـ 501: هاردي، «الكتابة الوعظية للتاريخ»، 53 ـ 55، يقارن بين الصياغتين المنقحتين في هذه النقطة. ثمة سرد موجز لقصة العصيان في TMS، 109 ـ 110. عفيف، 406 ـ 408، عن استعادة ابن مهرو إلى الحظيرة.

(91) IM، 106، 107. رغم الشكوك التي يعبر عنها عبد الرشيد في مقدمته (27) فإن إشارة ابن مهرو إلى حرص السلطان على إنقاذه تؤكد أن هاتين الرسالتين تعودان إلى عهد محمد بدلاً من عهد فيروز شاه. يقول أيضاً إنه، لدى تعيينه، تلقى أمراً يقضي بتوفير الجيوش والسفن، مما يضع تاريخ الرسالتين في موعد قريب من زمن قيام محمد بعبور نهر الإندوس قُبَيْل وفاته: TFS، 523. إن تاريخ التاسع من شوال، تاريخ إرسال ابن مهرو إلى مُلْتان، يجب بالتالي أن يعود إلى عام 751 هـ (10 كانون أول 1350م). ومع ذلك فإن عفيف يستنتج أن فيروز شاه عين مهرو حاكماً للإقليم.

(92) IB, III، 344، 349 (تر. جيب، 721 ـ 722، 724).

واقفين على أرض أصلب، حين نرى السخط الموجه نحو عملاء محمد من الهنود الوثنيين واحداً من الأسباب الرئيسية الكامنة وراء النفور والكُرْه. ففي حوالي 1341م، كان ثمة تمرد في سيويستان، حيث قام الحاكم السومرائي المحلي أونار (ونار عند ابن بطوطة) مع ضابط عسكري يدعى قيصري رومي بذبح بيروقراطي هندوسي يدعى «راتان»، كان السلطان قد عينه مُقْطَعاً للإقليم. سارع أونار إلى التخلي عن أصحابه، وتم القضاء على قيصر وأتباعه، دون صعوبة، من قبل والي مُلْتان عماد الملك سرتيز[93]. وبالمثل، كما سنرى، فإن بهيران، المقطع الوثني لغولبارغا، كان الضحية الأولى لثورة علي شاه في الدكّان[94]. ومع ذلك، فإن محمداً ظل حتى أواسط أربعينيات القرن الرابع عشر متمتعاً، على ما يبدو، بتأييد الطبقة العسكرية ككل. يصر برني على اعتبار نصرت خان تاجر حبوب (**بقالاً**)، ومن منطلق الاحتقار، يقارن ابن مهرو وأنصاره الذين كانوا «كتبة وتجار حبوب» (**ناويسان ـ دغان ـ وبقّالان**)، بالسلطان والجند المخضرمين، الذين طالما خدموه وخدموا أباه تُغْلُق، والذين لا يمكن لأحد تصوّر إقدامهم على هَجْره والتخلي عنه[95]. ليس المعنى المضمر، إلاّ أن محمداً كان سلطاناً جديراً بأن يكون سيداً لرجال الجيش.

اتخذ محمد عدداً من الخطوات المختلفة خلال السنوات الأولى من أربعينيات القرن الرابع عشر، كانت دون شك، هادفة إلى حشد التأييد لنظامه. وعلى الرغم من أن برني يوحي بأن السلطان أقام علاقة مع الخلافة العباسية،

---

(93) موصوف فقط في المصدر نفسه، III، 105 ـ 108 (تر. جيب، 599 ـ 600). ينبغي لهذا الحدث أن يكون قد وقع لا قُبَيْل وصول ابن بطوطة إلى الهند، كما يوحي مكانه في السرد، بل قبل زيارة سيستان عام 742 هـ / 1341م المذكورة لاحقاً، III، 447 (تر. جيب، 766 ـ 767)، أحد أسباب جعل تمرد سيستان متأخراً هكذا هو أن سارتيز لم يتم تعيينه والياً على مُلْتان إلى ما بعد انتفاضة شاهو. أي حوالي 1337 م.

(94) TFS، 488. قارن أيضاً FS، 485 ـ 486، 487 ـ 488 (تر. 727 ـ 728، 730 ـ 731). نظامي (في HN، 565) يتوصل إلى استنتاجات مماثلة عن دور معاداة خدم السلطان الهندوس.

(95) TFS، 488، 490.

الألعوبة أو الدمية في القاهرة، خلال إقامته في سرغاردواري[96]، فإننا نعرف من المصادر المصرية، أنه كان على صلة مع الخليفة المستكفي بالله، في أوقات مبكرة تعود إلى سنة 731 هـ/ 1330 ـ 1331م، وأن دلهي كانت قد أوفدت لا أقل من ثلاث بعثات[97]. سنة 741 هـ/ 1340 ـ 1341م قام محمد بإحلال اسم المستكفي (الذي كان قد توفي في الحقيقة قبل سنة) محل اسمه هو، على القِطَع النقدية وخطبة الجمعة[98]. وفي هذه السنة بالذات، أقدم أيضاً، حسب ما يقوله ابن بطوطة، على إلغاء جميع الضرائب والرسوم (المكوس) غير الشرعية[99]؛ وربما تولى أيضاً، شخصياً، رئاسة محكمة **المظالم** المتخصصة بمعالجة شكاوى الرعية[100].

لم يعد مبعوث محمد، الحاج رجب بُرْقُعي، إلى دلهي مصطحباً الخلعة الشخصية للخليفة الحاكم بأمر الله، ابن المستكفي وخلفه، مع منشور يمنح السلطان لقب نائب الخليفة، حتى سنة 746 هـ/ 1345 ـ 1346 م؛ وقد رافقه كبير القضاة المصري، **شيخ الشيوخ** ركن الدين الملَطي، رئيس تكية سرياقوس. وفي الوقت نفسه، سنة 744 هـ/ 1343م، كان مبعوث غير رسمي من القاهرة، هو الحاج سعيد الصرصري، قد جلب لمحمد منشوراً وراية وخلعة. ومن الواضح أن الطقوس المحيطة بهذه الأمور، حيث أقدم السلطان على اعتماد موقف

(96) المصدر نفسه، 491 ـ 492.

(97) جاكسون، «المغول وسلطنة دلهي»، 131 ـ 132 هـ. 74.

(98) CMSD، 122 ـ 124 (رقم 491 ـ 491 هـ)، 147 ـ 148 (رقم 617 ـ 622 آ).

(99) III, IB، 288 (تر. جيب، 694)، عن إلغاء **المكوس**؛ في III، 117 (تر. جيب، 605)، يقال إن هذا تزامن مع اعتراف محمد بالخليفة، غير أنه يأتي بعد عامين من وصول ابن بطوطة إلى الهند، أي حوالي 736 هـ/ 1335 ـ 1336 م. ثمة قائمة بالضرائب التي ألغيت في عهد محمد ـ **ماندوح، تاركه، مالي موجود، تشهاهار بازار، ضرائب، غودهارها وخراجي متحرفاي ـ ي مسلم** ـ في IM، 79؛ وعن تلك التي ألغاها فيروز شاه، انظر SFS، 124؛ FFS، 5 (تر. روي، 453)؛ إ. هـ. قرشي، **إدارة سلطنة دلهي**، طبعة رابعة (كراتشي، 1958)، 244 ـ 247 (ملحق: هـ).

(100) III, IB، 288 ـ 289 (تر. جيب، 694 ـ 695).

التواضع المفرط، تركت لدى برني انطباعاً بالغ القوة[101]. وبمثل هذه الحركات الدعائية، ربما، كان السلطان يأمل في استعادة دعم رجال الدين «العلماء» وغيرهم من منتسبي «الطبقة الدينية» وصولاً، ربما مرة أخرى، إلى إضفاء الصفة الشرعية على وضعه، في مواجهة الأمراء المتمردين المحتملين.

مجابهة أمراء المئات (الأميران صدا)

غير أن الوضع ما لبث، في غضون السنة أو الاثنتين التاليتين، أن تدهور مرة أخرى. كان محمد قد أصبح مقتنعاً بأن القادة المحليين في گوجرات والدكّان، أمراء المئات (**الأميران صدا**)، كانوا مسؤولين عن المشكلات المالية الحكومية، فقرر تقويض نفوذهم عبر وضع الخراج والموارد، في الإقليمين، تحت مراقبة أشد وأكثر صرامة من جانب المركز. وكان السلطان سنة 745 هـ / 1345م يعتقد، حسب ما يرى برني، بأن مبالغ كبيرة بقيت محجوزة لسنوات من قبل الموظفين في بهاروش[102]؛ ويوحي عصامي، وهو صاحب اطلاع جيد على الأوضاع في الدكّان، مما يمكنه من إيراد تفاصيل أوفى بكثير من الكُتّاب الآخرين، في روايته لقصة عصيان علي شاه كر («الأصم») في بيدار، بأن العصيان أطلقته سلسلة جديدة من تدبير رفع الرسوم والضرائب.

يوصف علي شاه، وهو ضابط خَلْجي وابن أخ لجنرال السلطان علاء

(101) TFS، 492 ـ 496؛ وقارن أيضاً 460. ثمة رواية أوفى وأوضح في SFS، 280 ـ 282؛ تر. في الشيخ عبد الرشيد، «تطويب فيروز شاه من قبل الخليفة»، MIQ I (1950م) 69. انظر أيضاً IB ,I، 363 ـ 370، وIII، 284 ـ 289 (تر. جيب، 225 ـ 228، 274)، حيث يفرق بين مكانتي الرسولين حاجي سعيد، وحاجي رجب. عن وصول فريق رجب إلى القاهرة عام 744 هـ، وعن ركن الدين، انظر الشجاعي، **تاريخ الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده**، تحقيق وتر. بربارة شيفر، **تاريخ الشجاعي** (بالألمانية)، QGIA ,II، (فيسبادن، 1977 ـ 1985، جزءان)، I (النص)، 257 ـ 258، وII، (تر.) 290 ـ 291؛ أما تاريخ ربيع الأول 743 هـ لرحيل ركن الدين عن القاهرة كما يقول المقريزي (المتوفى 845 هـ / 1442م)، **السلوك لمعرفة الدول والملوك**، تحقيق م.م. زيادة وآخرين (القاهرة، 1934 ـ ما زال مستمراً)، II ج: 3، 887، يجب أن يكون خطأ.

(102) TFS، 513.

الدين ظَفَر شاه، بأنه أحد **أمراء المئات**، **أمير صدا**، لدى قُطْلُغ خان[103]، سبق له أن أدى خدمة مميزة في القتال ضد نُصرت خان، وإخضاع منطقة كُوِير. وقد ظل يخدم بإخلاص ويحول الأموال المطلوبة، إلى أن بات هندوسي يدعى بهيران، كان صاحب إقطاع غوليارغا، مطلعاً على حقيقة المبالغ المحصلة من كوير، وأقنع قُطْلُغ خان بتلزيمه جباية الخراج هناك، متعهداً بزيادته بنسبة خمسين بالمئة. جاء رد فعل علي شاه متمثلاً بالاستيلاء على بيدار وغولبارغا وقَتْل بهيران، ثم تقلُّد لقب السلطان علاء الدين المَلْكي. وبعد بعض الوقت، نجح قُطْلُغ خان، مدعوماً بتعزيزات من السلطان، في إغرائه بالاستسلام[104]. وانتفاضته، التي حدثت في منطقة كان محمد ينظر إلى ضباطها بعين الريبة، تبدو كما لو كانت تجربة (بروڤة) محلية لحركات التمرد الأوسع، التي واجهها السلطان في سنواته الأخيرة.

في منعطف يعود إلى أوائل 745 هـ / في ربيع ـ صيف 1344م، قرر السلطان أن يقسم إقليم الدكّان العملاق الخاضع لإشراف قُطْلُغ خان إلى أربعة أقسام (**شقق**). كان سيتم استدعاء قُطْلُغ خان إلى العاصمة، واستبدال عماد الملك سرتيز به، الذي كان، حتى ذلك الوقت، والياً على مُلْتان، وزيراً في دولت أباد؛ وفي أثناء المرحلة الانتقالية، كان شقيق قُطْلُغ خان: عَلَم الملك نظام الملك، والي باروش، سيتولى قيادة دولت أباد. وبرأي برني، كان جميع الرجال الذين اختيروا لقيادة **الشقق** (المقاطعات الأربع) ممن ذاع صيتهم على صعيد إراقة الدماء، ويزعم، ومعه عصامي، أن أهالي

---

(103) وبالتالي في المصدر نفسه فقط، 488، حيث يعتبر ابناً لشقيقة ظفر خان (كما في TMS، 108)؛ وإن كان TFS، 508، يعتبره ابناً لأحد الإخوة.

(104) الرواية الأوفى تفصيلاً بما لا يقاس تجده في FS، 483 ـ 500 (تر. 725 ـ 747(انظر 479 (تر. 718 ـ 720) عن خدمته ضد نُصرت خان. تبقى المعلومات الواردة في TFS، 488 ـ 489، وIB, III، 357 ـ 358 (تر. جيب، 727 ـ 728)، محدودة. يقوم برني بوضع تاريخ التمرد في أثناء إقامة محمد في سرغاوداري، في حين يضعه ابن بطوطة بعد عودته إلى دلهي.

الدكّان، الذين كانوا قد باتوا يعتبرون نظام قُطْلُغ خان، حماية وضماناً ضد المحن المعاشة في أقاليم محمد الأخرى، أصيبوا بالرعب لدى سماعهم نبأ رحيل الأمير(105).

غير أن الهدف الرئيسي للإدارة الجديدة كان متمثلاً: بأمراء المئات (**أميران صدا**). يقول برني إن أولئك الذين أرسلتهم دلهي، كانوا موجهين من السلطان بالذات باعتبار هؤلاء الضباط محرضين رئيسيين على عدم الاستقرار. قد نكون ميالين إلى استبعاد عدد من التقارير عن عمليات الابتزاز السابقة، التي مارسها سرتيز في إقليم مُلْتان، والتي بقيت معلقة دون تعويض، لبضع سنوات لاحقة، حسب ما جاء في مراسلات خَلَفه هناك، ابن مهرو(106)، غير أن إجراءات والي دهار المعين حديثاً من قبل السلطان، عزيز خمّار، وهو أحد القادة **للشقق** الأربع، وكان قد اشتهر بوصفه جابي خراج ظالم في منطقة آمروها، حيث تصادم مع القائد العسكري المحلي، لم تكن مصادفة بكل تأكيد(107). والآن، بُعَيْد وصوله إلى دهار، سارع عزيز هذا، إلى إعدام حوالي ثمانية من أمراء المئين (**أميران صدا**) دون محاكمة أصولية. وما أن وصلت هذه الأنباء إلى نظرائهم في گوجرات والدكّان، حتى بادروا إلى الثورة(108).

(105) TFS، 501 ـ 502، FS، 503 (تر. 749 ـ 750)؛ وانظر أيضاً 462 (تر. 696 ـ 697)، حيث يُعْزَى أمن أهالي الدكّان إلى وجود الشيخ القديس زين الدين في المقام الأول. IB ,III، 336 ـ 337 (تر. جيب، 718)، يعلق على الثقة التي نشرها قطلغ خان على ليبراليته. إن تاريخ استدعاء قطلغ خان إلى دلهي يرد على أنه الأول من شعبان 745 هـ / الثامن من كانون الأول 1344م، عند بدري تشاتش، **قصائد**، تحقيق هادي علي، 64 / طبعة حجرية تحقيق م. عثمان خان (رامبور، 1872 ـ 1873، جزءان)، II، 407.

(106) IM، 78 ـ 79، 88.

(107) IB ,III، 436 ـ 440 (تر. جيب، 762 ـ 763): يبدو أن هذا حدث في أثناء غياب محمد منشغلاً بحملته المعبرية.

(108) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 202 ب ـ 203 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 168 أ، أكثر صراحة هنا في TFS، 503 ـ 504، IB507 .، III، 364 (تر. جيب 730 ـ 731)، أيضاً يربط بين حركات التمرد في كل من گوجرات والدكّان. عن هذه الثورات، انظر عموماً، إ. براساد، **أتراك القراؤون**، 208 ـ 253؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 283 ـ 297؛ HN، 540 ـ 555.

وبالمثل، فإن ابن بطوطة يأتي على ذكر وجود توجيهات، تقضي بقتل القادة العسكريين، غير أنه يجعل حركة التمرد تبدأ في گوجرات، حيث يُزعم أن ملك مقبول قد تلقى أوامر تقضي بالإجهاز عليهم. لسنا ملزمين بقبول شهادة ابن بطوطة (الذي لا يستخدم عبارة «أمراء المئين») التي تقول إن الضحايا كانوا جميعاً من الأفغان: يبدو أنه وقع في الخطأ، جراء كون قائدي الثورة التالية ـ القاضي جلال في گوجرات، وإسماعيل مُخ في الدكّان ـ كليهما ينتميان إلى ذلك القوم. من المؤكد أنه مخطئ أيضاً حين يربط أوامر محمد القاضية بذبح «الأفغان»، بحملته ضد شاهو الأفغاني في السند، تلك الحملة التي كانت قد تمت قبل حصول هذه التطورات، بما لا يقل عن ثماني سنوات[109].

ما لبثت الممارسات الوحشية الفظيعة التي اقترفها عزيز خمار، أن قلبت الوضع المتفجر إلى عصيان مكشوف. ففي حين كان محمد، حتى ذلك الوقت، في مواجهة تمرد نبلاء أفراد وحواشيهم، بات الآن أمام حركة عصيان واسعة الانتشار، شاملة طبقة الضباط في اثنتين من الأقاليم الكبرى. فحين وصلت الأنباء إلى **الأميران صدا** «أمراء المئين» في دابوي وباروودا، بادر هؤلاء إلى مهاجمة ملك مقبول، **نائب الوزير** في گوجرات، وإلحاق الهزيمة به، وسطوا على قافلة كنوز كان يرافقها، للحراسة، في طريقها إلى دلهي. جرى تسليمهم كانبهايا، كما تمكنوا من احتلال آساوول[110]. أما عزيز خمّار، الذي

(109) FS، 504 (تر. 750)، عن الأوامر الملكية. IB، III، 362، 364 ـ 366 (تر. جيب، 729، 730 ـ 731). TFS، 514، يبدو في إحدى النقاط مؤيداً للمعادلة، عن طريق الحديث عن عصاة دولت آباد بوصفهم هؤلاء الأفغان؛ غير أن مخطوطة BL، ملف 254، تقول إن **أفغان لا أفغانان**، مستخدمة المفرد الدال على القائد إسماعيل موخ. SFS، 20، يطلق على الضباط المتمردين في گوجرات اسم «جيش الزعماء» (**ساراني غوروه**) ببساطة. عن ضباط أفغان آخرين في حركتي التمرد في گوجرات والدكّان، انظر صدّيقي، «الأفغان وبروزهم»، 255 ـ 256.

(110) FS، 503 ـ 506 (تر. 750 ـ 753) يقدم الرواية الأكمل؛ وانظر أيضاً TFS، TMS507 . 111، يورد ملاحظة وجيزة (حوالى سنة 748 هـ خطأ). IB لا يأتي على ذكر نهب القافلة.

تحرك ضدهم من دهار والتحق به مقبول، فقد هُزم ووقع أسيراً بأيدي المتمردين، الذين ما لبثوا أن أعدموه. وبعد عودتهم إلى كانبهايا، استقر رأي القاضي جلال وأتباعه على محاصرة المدينة[111]. أما محمد، الذي كان عاكفاً على الاستعداد لقيادة جيش ضد المتمردين، منذ اطلاعه على نبأ الإغارة على مقبول، في النصف الثاني من رمضان 745 هـ / أواخر كانون الثاني / يناير 1345م، فقد توقف في بهاروش، حيث فرض تدبير ظالمة لتحصيل متأخرات الخراج والجزية، عُنْوة، آمراً ملك مقبول، **نائب الوزير في الإمبراطورية**، الذي كان قد طارد العدو حتى ضفاف الناربادا، أن يقتل «أمراء المئات»، **الأميران صدا** الذين هم تحت إمرته في بهاروش. بدا كما لو أن العمود الفقري لثورة گوجرات، قد تعرض للتحطيم. وبقدر كبير من الصعوبة، تمكن القاضي جلال ومعاونوه، من النجاة من خطر قيام الراجا الهندوسي لباغلانا وسالهر ومولهر، نانادیڤا («مان ديو») بتسليمهم إلى السلطان، وفروا إلى دولت أباد، حيث كان أمراء المئات (**الأميران صدا**) قد بادروا، بالمثل، إلى حمل السلاح ضد السلطان[112].

كانت سياسات محمد قد أثارت أزمة كبرى في الدكّان. بات معروفاً أن اثنين من عملاء السلطان الرئيسيين، كانا على الطريق إلى دولت أباد، لإجراء تحقيقات حول مدى ولاء الإقليم؛ وبادر السلطان، إضافة إلى ذلك، إلى إرسال أميرين آخرين إلى عَلَم الملك نظام الدين، مزودين بأوامر تقضي بجلب أمراء المئين (**الأميران صدا**) الأكثر أهمية في المنطقة، إلى بهاروش، تحت الحراسة. صحيح أن ضحايا عملية التطهير المطلوبين انطلقوا من دولت أباد،

---

(111) FS، 506 ـ 510 (تر. 753 ـ 759). TFS، 509 يتحدث عن تلقي السلطان لنبأ هزيمة عزيز وموته. IB، III، 364 (تر. جيب، 730)، بالغ الإيجاز.

(112) FS، 512 ـ 514، 522 (تر. 760 ـ 764، 773 ـ 774). TFS، 511 ـ 513، يقول إن ملك مقبول هزم المتمردين بالقرب من مانِهُوِيْ وبارودا؛ وحده برني يصف سلوك محمد في بهاروش. عن هوية «مان ديو»، انظر هوديڤالا، دراسات، I، 299.

ولكنهم ما لبثوا أن عادوا حين أدركوا نوايا محمد. تم اعتقال عَلَم الملك، وإعدام العميلين الملكيين. بات الإقليم تحت سيطرة أمراء المئين؛ تم إعلان إسماعيل موخ، أحد أشقاء الأفغاني الملك مال، الذي كان قائداً في عهد تُغْلُق، سلطاناً باسم ناصر الدين[113].

مع تلقيه لهذه الأنباء، تقدم محمد بخطوات حثيثة نحو الدكّان، وألحق هزيمة كبرى بالمتمردين. اتخذ من القصر الملكي في دولت أباد، مقراً له، وقامت قواته بفرض الحصار على قلعة دهارغير، التي كان إسماعيل موخ وكبار أتباعه قد لاذوا بها[114]. وفيما كان السلطان مشغولاً بتنظيم أمور المنطقة وتسويتها، وصلته تقارير عن اندلاع انتفاضة جديدة في گوجرات، بقيادة مملوك تركي يدعى تغاي. كان تغاي هذا، وهو حامل راية، **شحنه ـ ي برغاه**، لدى محمد، قد أبعده السلطان إلى اليمن، عقاباً له على ارتكاب أمرٍ معين، غير أنه كان قد أُسر في أثناء القتال بمعركة كانبهايا، فيما كان ينتظر عملية الترحيل بحراً. ولأنه لعب دوراً حاسماً في الدفاع عن المدينة ضد القاضي جلال، كان قد جرى تقريبه من جديد. غير أنه، في غياب السلطان، ما لبث أن تشاجر مع تتار ملك، نائب محمد في آساوول، وانتقل إلى صف **أمراء المئين (الأميران صدا)** في گوجرات، تمكن المتمردون من دخول نهروالا، حيث ذبحوا الوالي، واستباحوا كانبهايا، وفرضوا الحصار على بهاروش. وحين زحف محمدٌ على بهاروش، لاذ تغاي بالفرار إلى كانبهايا، حيث هزم قوة، كان السلطان قد أرسلها لتعقبه، وقتل قائدها يوسف بوغرا، قبل أن يلوذ بالفرار، ثانية، لدى مسارعة محمد إلى اللحاق به[115].

---

(113) TFS، 512، 513 ـ 514. ثمة رواية أوفى في FS، 516 ـ 521 (تر. 766 ـ 773). IB، III، 365 ـ 366 (تر. جيب، 731)، موجز نسبياً ويعتبر قائد العصاة ابن ملك مول خطأ.

(114) FS، 530 ـ 536 (تر. 791). TFS، 514 ـ IB515, III ،. 368 ـ 369 (تر. جيب 732 ـ 733): تلك هي معلوماته الأخيرة عن حركة التمرد.

(115) ثمة معلومات قيمة عن أسباب انتفاضة تغاي في SFS، 19 ـ 21، 23 ـ 24 (تر. باسو، JBORS=

فيما كان مشغولاً بتلقي فروض الطاعة والخضوع من الرانات والزعماء المحليين المختلفين، في غيرنار (جوناغاده؛ كاتياواد الحديثة)، استُدعي محمد إلى الدكّان، إثر الأنباء التي تحدثت عن أن أميره عماد الملك سرتيز، الذي كان قد انتدبه لإخضاع غولبارغا غداة الانتصار على إسماعيل موخ، كان قد هُزم وقُتل، من قبل مجموعة أخرى من **أمراء المئين**، تحت قيادة حسن غانغو الملقب بظفر خان، الذي كان أحد معاوني إسماعيل. كانت القوات التي تركها السلطان في دهاراغير، قد تراجعت إلى دهار، وكان حسن غانغو قد دخل دولت أباد، دخولاً مظفراً. تخلى إسماعيل موخ عن اللقب الملكي لصالح منقذه: وبالتالي فقد أصبح حسن غانغو، الذي اعتلى العرش يوم الرابع والعشرين من ربيع الثاني سنة 748 هـ / الثالث من آب / أغسطس 1347م، باسم علاء الدين بهمان شاه، السلطان الأول من العائلة البهمانية المستقلة، التي حكمت في الدكّان حتى القرن السادس عشر. وحسب كلام برني، فإن محمداً استدعى عدداً غير قليل من القادة من دلهي، وخطَّطَ لإرسالهم من أجل استرجاع الدكّان، ولكنه ما لبث أن أقلع عن الفكرة، حين سمع التقارير التي تحدثت عن احتشاد أعداد كبيرة تحت راية حسن غانغو. كانت الحكمة تقضي، على ما يبدو، بالتعامل، أولاً، مع تغاي، وإرجاء تحويل الاهتمام بالجنوب، إلى وقت لاحق[116].

قضى محمد المواسم الثلاثة التالية وهو يطارد تغاي عبثاً، متنقلاً جيئة وذهاباً بين نهروالا وكايتاواد، قبل الإقدام على محاولة فاشلة لاقتحام ثاتّا، التي كان المتمرد قد احتمى بأمرائها السومرا. وقد كان السلطان عاكفاً على الإعداد

= 23 [1937]، 97 ـ 102). TFS، 515 ـ 516، 517 ـ 520، يروي القصة. FS، 538 ـ 539 (تر. 793 ـ 794)، موجز.

(116) TFS، 520 ـ 521، 522، ولكن مقدماً ملاحظة قصيرة عن أحداث الدكن؛ انظر أيضاً 515 عن إرسال سارتيز باتجاه غولبارغاه FS، 540 ـ 554 (تر. 811 ـ 828)، يقدم وصفاً وافياً لعمليات حسن غانغو، مع تاريخ إمساكه بزمام السلطة.

لهجوم ثان على ثاتّا، حين أصيب بمرض أودى بحياته، على ضفاف الإندوس في الحادي والعشرين من محرم 752 هـ / العشرين من آذار / مارس 1351م[117]. ولا يجوز الاستخفاف بإنجازاته خلال السنوات الأخيرة. فقد تمكن، عبر التركيز على الإطاحة بتغاي، وهي مهمة لم تنجز، في الحقيقة، أيام حياته، من توطيد إخضاع گوجرات ـ بما فيها مناطق، لا تبدو أنها كانت تعترف بأسلافه ـ على الأقل، ومن ضمان بقاء الإقليم جزءاً من السلطنة على امتداد جيلين آخرين. إلاّ أن أي مشروع كبير كان بعيداً عن متناول الموارد الناضبة التي كانت تحت تصرفه. ثمة حوار مزعوم بين السلطان وبرني شكا فيه محمد، من أن حركة عصيان جديدة كانت تندلع في إحدى الجهات، كلما توجه نحو جهة ثانية لإخماد حركة عصيان أخرى، يوحي بمدى سخط الرجل وغضَبه[118]. لقد كان استياء **أمراء المئين**، الذي كان محمد نفسه قد فعل الشيء الكثير لزيادته ومفاقمته، بالغ الحدة وواسع الانتشار، إلى درجة يتعذر معها التغلب عليه، نظراً لمشكلات السلطان ولتدهور أحوال المؤسسة العسكرية المبهرة التي كان قد اضطلع برئاستها في السنوات الأولى من عهده.

---

(117) باتت حركاته موضحة الآن على أساس المواد المتوافرة في TFS، من قبل ديغبي، «سنوات محمد بن تُغلُق الأخيرة في كاثياواد وغزواته لثاتّا» في خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون**، 130 ـ 138.

(118) TFS، FS521 .، 538 (تر. 794)، يضع يده بالمثل على المأزق الذي يواجه محمداً في دولت آباد حين يسمع بثورة تغاي للمرة الأولى.

الفصل الرابع عشر

السلاطين ورعاياهم الهندوس

كان سلاطين دلهي، أولاً وقبل كل شيء، حكاماً مسلمين. ففخري، مدبّر يعتبر إلتُتْمش «سلطان الإسلام» (**بادشاهي إسلام**)[1]. أما الجوزجاني، فيرى ناصر الدين محمود شاه على أنه «سلطان» (أو «سلطان سلاطين») «الإسلام»، أو هو «إمبراطور شعوب الأمة الإسلامية»[2]. كان من الممكن تحية العاهل أيضاً، باعتباره «سلطان الترك والعجم» («الأعاجم»)[3] ـ أي حاكم أمراء الحرب والجنود والوافدين، الذين كانوا يؤلفون الكتلة السكانية الإسلامية المهاجرة، بعبارة أخرى. ففي أعين كَتَبَة تاريخ السلطنة، كان المسلمون يشكلون ما بات يطلق عليه، في أزمان لاحقة، اسم **أبناء الحكومة** Staatvolk. لم يكن العاهل، بالتأكيد، سلطاناً للهندوس، أو لأهالي هاريانا، مثلاً؛ وقد لوحظ في مصادرنا الإسلامية، أن الهندوس «بحد ذاتهم ليسوا جديرين بالاهتمام، ولا يصبحون جديرين بمثل هذا الاهتمام، إلاّ كمهتدين إلى الدين

---

(1) AH، 15.

(2) TN، ا، 273، واا، 91، 166، 185 وهـ. 3؛ قارن أيضاً اا، 91، **باديشاهي أهلي أيمان**، 205، **باديشاهي مسلمانان**.

(3) Taj، ملف 217 ب. TN، ا، 297 (تر. 231)؛ قارن أيضاً ا، 275، 366 (تر. 183 ـ 388). شعيب، «منقوشات من بالوال»، 2، 3؛ يزداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 15؛ RCEA، X، 72 ـ 73 (رقم: 3703).

الإسلامي، أو كدافعين لضريبة الرأس أو قتلى»[4]. دأب جميع السلاطين، باستثناء وحيد، على إعلان الروح، التي كانوا ينطلقون منها في مقاربة رسالتهم عبر اعتماد لقب (كنية) **أبو المظفر** («والد المنتصر») على مسكوكاتهم النقدية ومنقوشاتهم؛ أما الاستثناء، محمد بن تُغْلُق، فقد أطلق على نفسه لقب **المجاهد في سبيل الله**. وبالنسبة إلى الكثير من المراقبين المسلمين، كان التسويغ الأقصى لأي حاكم في العالم الإسلامي، متمثلاً بحماية العقيدة، وتوطيد تقدُّمها. وقد انطوى هذا بالنسبة إلى السلاطين، مثلهم مثل أسلافهم الغزنويين والغوريين، على قمع المسلمين غير المتزمتين، وكان فيروزشاه، يعلق بعض الأهمية، على حقيقة أنه دأب على محاربة **أهل الإلحاد والابتداع**[5]. وانطوى أيضاً على نهب الإمارات الهندوسية المستقلة، وإرغامها على دفع الجزية. إن الفكرة القائلة بأن الحاكم المسلم مكلَّفٌ أيضاً بواجب استئصال الكُفْر وإذلال رعاياه الهندوس عبَّر عنها برني، بتكرار وإصرار استثنائيين، في كل من كتابيه **تاريخي فيروز ـ شاهي وفتاوى جهان داري**، مرايا الأمراء (نصائح الملوك)، الذي ألفه بعد بضع سنوات[6]. إن المدى الذي تم بلوغه على صعيد تطبيق هذه السياسات، بصورة فعلية داخل السلطنة، هو الموضوع الذي نلتفت إليه الآن.

الهندوس في خدمة الإسلام

ليس مفاجئاً وجود هندوسيين عاكفين على أداء وظائفهم الاعتيادية المألوفة في خدمة حكامهم المسلمين، ولفائدة هؤلاء الحكام ومصلحتهم.

---

(4) هاردي، مؤرخون. . .، 114.

(5) FFS، 6 ـ 8 (تر. روي، 454 ـ 456). SFS، 129 وما بعدها. انظر أيضاً KF، 20، وTFS، 336، عن معاملة علاء الدين **لأصحاب الإباحات**. **القرامطة** ـ ربما الإسماعيليين ـ الذين كانوا قد حاولوا القيام بانقلاب في دلهي في عهد رضيّة: TN، I، 461 ـ 462 (تر. 646 ـ 647؛ FS، 122 (تر. 236 ـ 237)، يبدو معيداً الأمر إلى حقبة إلتُتمِش.

(6) انظر خصوصاً FJ، 165.

فطبقة النبلاء التركية ـ الفارسية، راكمت في سلطنة القرن الثالث عشر ديوناً هائلة اقترضتها من الصرافين والسماسرة الهندوس، من «الملتانيين» **والساهات**، الذين كانوا ما يزالون يُعتَبرون من أغنى وأهم رعايا السلطان، في أعقاب إصلاحات علاء الدين خَلْجي الاقتصادية[7]. يقال إن زعيماً هندوسياً يدعى سادهارانا، عمل أميناً للصندوق أو وزيراً للمالية عند علاء الدين[8]. وعلى درجات أدنى من السلّم الاجتماعي اعتمد السلاطين، في مشروعاتهم الإنشائية الطموح، على جيش من العمال الهندوس (سبعون ألفاً في خدمة علاء الدين إذا صدقنا برني)[9]، الذين كانوا عادة من العبيد، دون شك. غير أن هذه المشروعات كانت، أيضاً، تعتمد على خبرة ومهراة أعداد أقل من معلمي الحرف من أمثال «موخاميهتا، ابن كيتاميهتا الهندي» الذي قام، عبر نقش حَفَرَه سنة 740 هـ / 1340م في جدار الجامع ببارودا، بتخليد ذكراه[10]، والبنّائين الذين جُندوا لإصلاح القطب مِنار[11]. يبدو أن أمثال هؤلاء الحرفيين المهرة، كانوا يكافؤون بالإعفاءات، كما حصل مع النجار الهندوسي الذي منحه والي السلطان في بيجابور سنة 1320م، مزرعةً معفاةً من الرسوم مع أشياء أخرى، مقابل خدماته في إنشاء الجامع الكبير[12]. وكذلك، فإن الحاجة كانت تدعو إلى الاستفادة من طبقة الكتبة الهندوس لملء شواغر الأجهزة الإدارية، ولو تحت إشراف وزراء

---

(7) TFS، 120، 284. عن أهل مُلْتان، انظر أيضاً المصدر نفسه، 311، 385؛ وعن **الساها** ديوغير، IB، IV، 49 (تر. جيب وبكينغهام، 794 ـ 795).

(8) بانديت رام كارنا، «منقوشة لاندو عن ساندهارانا من فكراماسامغات 1373»، EI 12 (1913م ـ 1914)، 19 (البيت 13).

(9) TFS، 341.

(10) ARIE (1963 ـ 1964)، 125 (رقم: 85)؛ عن الجزء السنسكريتي من هذه الكتابة المنقوشة انظر ARIE (1961 ـ 1962م)، 143 (رقم: 1311).

(11) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 21 ـ 22، 32 ـ 35 (رقم: I: 9 وI: 14).

(12) ناظم، **منقوشات بيجابور**، 25.

ومدراء مسلمين: ثمة موظف هندوسي في خدمة قطب الدين خَلْجي، كتب دراسة حول عمل دار الضرب في سنة 1318م[13]، وهناك آخر، يدعى غوجارشاه، كان مسؤولاً عن مراقبة استحداث قطع نقدية جديدة، هو **الشاشغاني**، في ظل فيروز شاه التُغلُقي[14]. وكان السلاطين، أخيراً، يعتمدون على أفراد من الطبقات الهندوسية الوضيعة، لإعدام المتمردين المسلمين والهندوس على حد سواء[15].

لم يكن الوضع مختلفاً في الميدان العسكري حيث احتفظ السلاطين، شأنهم شأن أسلافهم الغزنويين، بوحدات هندوسية كما بأخرى تركية، في قوام قواتهم المسلحة. فحرس المشاة المماليك والبايك في حاشية السلطان، ربما أصبح متمتعاً بذلك النوع من المكانة المرموقة والممتازة، التي كانت تخص الغلمان الأتراك، خلال جزء كبير من القرن الثالث عشر. وفيما قبل الحقبة الخَلْجية، تبقى الدلائل تخطيطية وغامضة: لا نعرف، مثلاً، سوى حقيقة أن فريقاً مؤلفاً من ألف بايك كان في خدمة بلبان، قبل اعتلائه العرش[16]. ومعروف أن علاء الدين خَلْجي قام بتجنيد حوالي ألفي بايك في قارا لحملته على ديوغير سنة 695 هـ / 1296م[17]، ومن المفترض أنهم بقوا في خدمته حين أصبح سلطاناً في وقت لاحق من السنة نفسها. وفي مواجهة مؤامرة دبرها ابن أخيه، إكت خان، لقتله والاستيلاء على العرش، تم الدفاع عن علاء الدين من قبل هندي اسمه ناناك (جرت ترقيته لاحقاً إلى مرتبة ملك مع آخرين من

---

(13) ف. س. آغاروالا، «بحث فريد حول القطع النقدية الهندية الوسيطة» في هـ. ك. شيرواني (محرراً)، **إحياء لذكرى الدكتوم غلام يزداني** (حيد آباد، AP، 1966م)، 187 ـ 101. ج. هـ. خير، «درافيا ـ باريكشا من تاكّورا فيرو ـ دراسة»، JNSI 28 (1966م)، 25 ـ 37.

(14) عفيف، 344 ـ 349.

(15) مثل TN، II، 82 (تر. 855)؛ IB، III، 298، 339 ـ 340 (تر. جيب، 700، 719 ـ 720).

(16) TFS، 55.

(17) المصدر نفسه، 222.

البايك العاملين عند السلطان[18]. وحين بادر وزيره ملك كافور، وهو نفسه مملوك هندوسي اهتدى إلى الإسلام، بعد وفاته، إلى استبعاد أبناء السلطان الراشدين، محاولاً أن يحكم من خلال أحد الأمراء الأطفال، فإن بايك علاء الدين كان من القدامى الذين تمكنوا مرة أخرى سنة 715 هـ / 1316م من قتل كافور وتأمين العرش لقطب الدين؛ على الرغم من أنهم راحوا، نتيجة لذلك، حسب زعم برني، يتصرفون بطريقة لا تُطاق وتعيّن وضع حد لهم[19]. غير أن قطب الدين نفسه، ربما احتفظ، حاذياً حذو أبيه، بفرقة من البايك[20]. حتى المسلم المتزمت فيروزشاه، الذي كانت أمه ابنة زعيم بهاتي من البنجاب، درج على عادة استخدام أفراد من أقارب أمه: وفي إحدى المناسبات، حين تعرضت حياته للخطر جراء مؤامرة مدبرة، كان برفقة خاله راي بهيرو الذي أسعفه بسيفه[21]. لا نعرف أن هؤلاء الخدم الهنود قد اعتنقوا الدين الإسلامي، إلاً في حالات قليلة ـ كما فعل خسرو خان مثلاً، في تناقض حاد مع أتباعه البرواري.

يجري ربط رعاية الهندوس، بصورة خاصة، بعهد محمد بن تُغْلُق. فمصادر جاين، تكثر من تكرار تفضيل السلطان علماء جاين الأكاديميين[22]. ومن الضباط ذوي الأنساب الوضيعة الذين أوردهم برني ممن عينهم محمد في مناصب إدارية، كان البعض هندوساً. وثمة احتمال قوي، بأن تكون أوضاع برهمانيي العاصمة، على الأقل، كممثلين للسكان الهندوس، قد تعرضت لشيء من التنظيم والضبط، بعد موت محمد، لأن هناك من يقول بأن البراهمانيين كانوا بين أولئك الذين سمح لهم بتقديم فروض الولاء والطاعة

(18) المصدر نفسه، 273.

(19) المصدر نفسه، 376 ـ 377.

(20) المصدر نفسه، 392.

(21) عفيف، 103 ـ 104.

(22) حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، الفصل الحادي عشر، مع هوامش كاملة.

للسلطان الجديد، لدى دخول فيروزشاه إلى دلهي[23]؛ وهذا الأمر لا يرد ذكره في أي حفل تنصيب سابق.

لا نملك إلاّ أدلة ضئيلة على طبيعة مواقف رعايا السلطنة الهندوس من حكامهم المسلمين. تبقى أهمية المنقوشات التي تمجد المآثر الظافرة (والوهمية أحياناً) لملوك الساكا مطروحة للنقاش[24]. ثمة نادرة رواها ابن بطوطة، قد تنطوي على قَدْر أكبر من الأهمية. يتحدث عن زعيم هندوسي أقام دعوى على محمد بن تُغْلُق نفسه، متهماً إياه بقتل أخيه، دونما سبب، ودعاه إلى المثول أمام القاضي. امتثل السلطان لما هو مطلوب أصولاً، وجاء راجلاً وبدون سلاح، بعد أن حَظَّر على القاضي محاباته بسبب موقعه، وظل واقفاً حتى أصدر القاضي الحكمَ ضده، وأمره بتقديم التعويض إلى المدعي[25]. صحيح أن هذه حادثة منفردة، وهدف الحكاية هو تسليط الضوء على تواضع الملك والتزامه بالعدل؛ غير أنها تأتي متناغمةً مع الصورة العامة لمحمد كحاكم دأب، في النصف الأول من عهده، على شمل الهندوس برعايته. وإذا كانت تجسد واقعاً فعلياً، فإنها تبين أن هندوسياً ذا مرتبة معينة، كان يعترف بسلطة القاضي المسلم[26].

في وقت مبكر يعود إلى عهد إلتُتْمِش، نجد السلاطين مبادرين، بسرعة، إلى تبني ممارسات كانت هندية مميزة، مثل امتطاء ظهور الفيلة في المناسبات الاحتفالية، واستشارة الفلكيين (المنجمين)، واستبيان ما تقوله النجوم قبل الأحداث الهامة، مثل حفلات الجلوس على العرش وما شابهها. لا يمكن بالطبع أخذ مثل هذه الاقتباسات الثقافية من جانب الحكام المسلمين، على أنها

---

(23) TFS، 546. عفيف، 88.

(24) منقوشة بالام باولي من 1276م، في ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 3 ـ 15 (رقم: ا، 4).

(25) IB، III، 285 (تر. جيب، 692 ـ 693).

(26) هاردي، «نمو نفوذ...»، 194.

دليل توافق مع المشركين؛ فهي لا تمثل إلاَّ نوعاً من التكيف مع الأوضاع الهندية (تماماً مثلما يقوم اثنان من طلائع المهاجرين هما فخري مدبر والجوزجاني باستخدام اسم الشهر الهندوسي آهار)[27]. غير أن من شأن نزوع الحكام المسلمين، ولو بقدر محدد، إلى تسيير حياتهم العامة بمصطلحات هندية، أن يكون قد سهّل قبول الزعماء الهندوس بهم[28].

مشكلة «الذِمَّة» والجزية

عموماً، إذن، يبدو أن هندوسيين من فئات مختلفة، أثبتوا استحالة الاستغناء عنهم، على صعيد ممارسة الحكم الإسلامي، كما من حيث الحفاظ على المؤسسات الإسلامية. غير أن السؤال هو التالي: ماذا كان وضعهم تحت الحكم الإسلامي؟ حسب الشريعة، كان لا بد من التعامل مع **«أهل الكتاب»** ـ أولئك الذين يمتلكون كتباً مقدسة اعتبرت تعبيراً منقوصاً عن الحقيقة المتضمنة في القرآن ـ بوصفهم «أناساً محميين» (**أهل ذمة أو ذميين**)بعد الاستسلام والقبول بالحكم الإسلامي[29]. كانت عبارة «أهل الكتاب» تنطبق أساساً على الموحِّدين المسيحيين واليهود، غير أن الإتيان على ذكر فريق ثالث، غامضٌ بعض الشيء، في القرآن، الصابئة، مكّن السلطات الإسلامية من توسيع دائرة الذميين، لتصبح شاملةً للمجوس (الزرادشتيين) في إيران. كان من حق الذميين ممارسة عقائدهم الخاصة، ولكن دون السماح لهم بالتبشير والوعظ، أو بناء أماكن جديدة للعبادة. وقد كانوا أيضاً خاضعين **للجزية**، التي هي ضريبة رأس، بدلاً من الخدمة العسكرية التي يؤديها المسلمون الذكور البالغون. أضف إلى ذلك، أن

---

(27) خرائط الأبراج وإلخ: TN، I، 449 (تر. 623)؛ TFS، 142، 456؛ FS، 393 ـ 394 (تر. 598 ـ 599)؛ TMS، 79، آهار: SA، 31 (ترد الكلمة في النص على شكل «هـ ا خطأ»)؛ TN، II، 21 (تر. 748).

(28) هاردي «نمو نفوذ. . .»، 201، و«نفوذ الملوك المسلمين»، 49.

(29) عما يلي، انظر سي ل. كاهن، «الذمة» $Enc. Isl^2$؛ بيرنارد لويس، **يهود الإسلام** (برنستون، 1984م)، الفصل الأول (عن **الجزية**، انظر 14 ـ 16 خصوصاً).

حكاماً معينين أقدموا، في أوقات مختلفة وأجزاء متباينة من العالم الإسلامي، على استحداث وابتداع قوانين تمييزية، تنظم ملابس الذميين، وتمنعهم من ركوب الخيل أو حمل الأسلحة، أو إلخ. . . اختلف الفقهاء المسلمون، فيما بينهم، بشأن الحقوق التي يمكن للذميين أن يتمتعوا بها: فالمذهب الحنفي، الذي كان سائداً في السلطنة، هو المذهب الوحيد الذي يجعل مقدار دية الذمي مساوياً لدية نظيره المسلم[30].

قد تبدو مسألة ما إذا كان من الممكن تصنيف المشركين (متعددي الآلهة) الذين واجهوا الفاتحين المسلمين في شبه القارة الهندية «أهل كتاب» أم لا، مسألة تجريدية غير ذات معنى، من النظرة الأولى. غير أن كتاب **فتوح البلدان** للبلاذري، وهو أحد المراجع الرئيسية عن فتح المسلمين للسند، أوائل القرن الثامن الميلادي، يخبرنا أن القائد العربي محمد بن القاسم تعامل مع هياكل الأصنام (**البُد**) تعامله مع الكنائس المسيحية والكُنُس اليهودية ومعابد النار الزرادشتية (المجوسية)[31]. جرى توسيع معنى كلمة ذمي، لتصبح قادرة على احتضان الأمراء الهندوس وأقوامهم ممن أذعنوا ووافقوا على دفع الجزية، حتى أننا نقرأ عن قبول وضع أهل **الذمة** من قبل أهالي دفاراسامودرا سنة 711 هـ / 1311 ـ 1312م، وحاكم تيلانغ في 718 هـ / 1318م، وراي نغاركوت حوالي 766 هـ / 1364 ـ 1365م[32]. إن قائمة أولئك المستعدين للاعتراف بذمية رعايا السلطنة الهندوس، تشمل، ليس فقط، كلاً من حسن نظامي والجوزجاني وعفيف وابن مهرو وعبد الحميد غزنوي

---

(30) إ. تيان، «الدية» Enc. Isl²، III، 341. للاطلاع على إعادة إعلان جملة القيود المفروضة على أهل الذمة بموجب «ميثاق عمر»، انظر سيد علي حمداني (متوفى 786 هـ / 1385م)، **ذاكرة الملوك**، تحقيق سيد محمود أنوري (تبريز، 1979)، 285 ـ 287؛ في دي باري، 489 ـ 490.

(31) البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق دي غويه، 439 / تحرير المنجد، 538.

(32) دفاراسامودرا: KF، 132، 135، 136. تيلانغ: nS، 116، 129. ناغاركوت: SFS، 82. قارن أيضاً DR، 46.

والمؤلف مجهول الاسم لكتاب **السيرة**، بل وكلاً من برني، الذي لم يكن، كما سنرى، ذا موقف ودي حتى تجاه الكفار الخاضعين المطيعين، والسلطان التُغْلُقي المعروف بمبالغته في التشدد، فيروز شاه، في كتابه **فتوحات**، الذي صيغ أساساً كنقش وبالتالي، للاستهلاك العام[33]. بل وثمة نص فقهي - قانوني يعود إلى عهد فيروزشاه، يتضمن عدداً من الإشارات إلى الذميين، التي يعني بها الهندوس بوضوح[34].

يبدو أن اعتبار المشركين الهنود الذين خضعوا للحكم الإسلامي «ذميين» أو «أهل ذمة» بات، بالتالي، مسلَّماً به بين كمٍّ، عريض نسبياً، من فئة المتعلمين المسلمين في شبه القارة (الهندية). غير أن الطابع الدقيق للقيود الواجب فرضها على الكافر، كان أمراً أكثر صعوبة. ففي أوائل القرن الثالث عشر، قام فخري مدبر، بإهداء إلتُتْمش كتابه **آداب الحرب والشجاعة أو آداب الملوك**، وهو كراس في فن السياسة للملوك، متركز على الشؤون العسكرية في المقام الأول. يستعرض مؤلف الكراس، في الفصل السادس والعشرين، مبادئ الحكومات الإسلامية وممارساتها، فيما يخص رعاياها من غير المسلمين، ويورد قائمة القيود التي يجب أن يعيش هؤلاء في ظلها: يجب أن تبقى زينتهم (**زين**) وملبسهم (جاما) وركوبهم (نيشاست) مختلفة عن نظيراتها عند المسلمين. ويورد أيضاً فئات الناس التي يتعين عليها أن تدفع الجزية، والتي تشتمل على اليهود والمسيحيين والصابئة والزرادشتيين (**المجوس**) و«الوثني» (**بُتبراستان**)[35]. من الممكن اعتبار هذا دليلاً على أن الهندوس كانوا مقبولين

---

(33) Taj، ملف 149 أ، 155 أ. TN، II، 79. عفيف، 180، IM264 .، 63، DA102 . ملف 32 ب، 33 ب - 34 أ (تر. رشيد، 64، 65 _ 66). TFS، 290، SFS586 .، 129، FFS167 .، 9، 10، 16 (تر. روي، 456، 458، 462).

(34) **فتاوىٰ ـ ي فيروز ـ شاهي**، مخطوطة IOL الفارسية 2987 (.Ethc، رقم: 2564)، ملف 410 أ، 412 أ، 414، 416 أ، 418 ب، 419 أ.

(35) AH، 404 _ 405.

بنظر الفاتحين الغوريين للهند، كدافعين للجزية (ضريبة الرأس)؛ على الرغم من أن هناك من يقول إن **آداب الحرب** ليس نصاً فقهياً، فضلاً عن أنه لا يتضمن أي إعلان صريح عن تصنيف الهندوس كذميين[36].

وانطلاقاً من الظروف السياسية السائدة في الهند، الخاضعة للحكم الإسلامي أيام فخري مدبر، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: كيف ومتى ومِمَّن، كانت تُحصَّل الجزية؟ قد نتوقع بعض العون في تناول المسألة من الروايات التي وصلتنا عن قصة الفتح الإسلامي للسند، في القرن الثامن الميلادي، والتي كان من شأنها أن تشكل سابقة بالنسبة لفاتحي القرن الثالث عشر. من المؤسف حقاً أن فتح السند جاء قبل بروز التمييز الواضح والصريح بين الجزية والخراج. وبالتالي، فإن أقدم التواريخ لا تقدم لنا أي عون حقيقي. **فتوح البلدان** للبلاذري لا يقول، في سياق قصة سردية كاملة غير ذات علاقة، إلاّ أن محمداً بن القاسم فرض الخراج - إما ضريبة الأرض أو الجزية الخالصة - على مدينة آلور المهزومة[37]. ثم لا نعود نصادف، إلاّ بعد انقضاء قرن كامل، في زمن خلافة المعتصم (218 - 227 هـ / 833 - 842م)، والي السند المسلم وهو يحصل الجزية، من الجات هذه المرة[38]. صحيح أن مصدراً لاحقاً هو **التشاتش نامه**، الذي يزعم أنه ترجمة فارسية، تمت في السند سنة 613 هـ / 1216 - 1217م ولتاريخ عربي عن الفتح الإسلامي للمنطقة، يبين أن الجزية كانت تجبى من البداية الأولى، ويُزعَم، هنا، أن محمداً بن القاسم قد وافق على اعتبار أهالي براهمان آباد ذميين، وإخضاعهم لضريبة متدرجة (تصاعدية) وفقاً لتقاليد (سنَن) النبي[39]، غير أن جدارة **التشاتش - نامه** بالثقة تبقى،

(36) هاردي، «غونفوذ...»، 205 - 206.

(37) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق دي غويه، 439 / تحرير المنجد، 538.

(38) المصدر نفسه، تحقيق دي غويه، 445 - 446 / تحرير المنجد، 544.

(39) CN، 158 - 159. انظر أيضاً ن. آ. بلوخ، «بدايات تقدم الإسلام وتعززه في أراضي باكستان»، HI 3 (1980م)، 66.

باعتراف الجميع، مفتوحة للنقاش. ومع ذلك، فإن هذا العمل الذي رفضه س. هـ. هوديڤالا سنة 1939م بوصفه «مناقضاً للتاريخ في كل ذرة منه، مثله مثل القصائد السانسكريتية الزلقة، وكلام شعراء الراجبوت الشعبيين الزاخر بالتزلف»[40]، ما لبث أن استعاد اعتباره في وقت لاحق، وبات يُعتقد بأنه يتضمن مادة مأخوذة من موروث تاريخي عربي مفقود، لعله تاريخ المدائني العائد إلى القرن التاسع، حسب أقوى الاحتمالات. غير أن البيانات المحددة لضريبة الرأس (الجزية) مثقَلَة، دون شك، بالمفارقات التاريخية؛ وقد رأى الدكتور بيترهاردي أن مثل هذه الشهادة في **التشاتش نامه**، كانت مصممة لتسويغ ما كان قد أصبح سلوكاً سائداً ومألوفاً، مع حلول القرن الثالث عشر. إذا كان ذلك صحيحاً، فإنه يعني، في الحد الأدنى، أن الجزية كانت تُجبى من السند، عشية إيجاد سلطنة دلهي بالذات[41].

من المؤشرات الدالة على المشكلات المحيطة بالجزية، أن أحد مصادرنا الأكثر أهمية، أعني به **طبقات** الجوزجاني، يهمل حتى الإتيان على ذكرها. صحيح أن العبارة تطفو على السطح بصورة متقطعة في المصادر، التي تتحدث عن القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر من حياة السلطنة، غير أنه من الواضح أنها تحمل جملة من المعاني المتباينة[42]. أحياناً يكون الاستخدام غريباً، كما حين يتم الزعم بأن الجزية أُخذت من قائد مسلم متمرد في سلطنة الدكّان المنفصلة، أو طولب (**درويش**) صوفي مسلم بها[43]. لقد ساهمت عبارة

---

(40) هوديڤالا، دراسات، I، 83 ـ 84.

(41) انظر هاردي «هل التشاتش ـ نامه قابلة لفهم المؤرخ كنظرية سياسية؟»، في خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون**، 116 ـ 117؛ المصدر نفسه، «الجزية، iii، الهند» Enc. Isl²، أيضاً بوهانان فريدمان، «**أصول التشاتش ـ نامه وأهميتها**»، في فريدمان (محرراً)، **الإسلام في آسيا**، I، 23 ـ 37؛ وينك، **الهند**، I، 192 ـ 196.

(42) عما يلي، انظر خصوصاً هاردي «الجزية»؛ ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 67.

(43) FS، 602 (تر. 888). أمير حسن دهلوي، **فوائد الفؤاد**، 233.

خراج وجزية في إحداث الالتباس، حيث يستخدمها أمير خسرو بمعنى عام، للدلالة على الرسم القابل للدفع، مثلاً، من قبل مشاة (أفراد، بايكات) العدو، وهو المعنى الذي يذهب إليه برني أيضاً، بوضوح، في كتابه **تاريخي فيروز ـ شاه**[44]. وحسب ما جاء في **فتاوى جهان داري**، فإن الرايات الهندوس يجبون الجزية والخراج من أهلهم هم[45]. وفي أي من هذه الأمثلة، لا نستطيع تمييز قسمات ضريبة الرأس (الجزية) الإسلامية.

يقوم فخري مدبر بتحديد نوعين من الجزية، أولهما ضريبة (غازيد) المتفق عليها بوصفها مقابل وَقْف الأعمال العدائية، والثاني هو المبلغ الذي يقوم أي حاكم مسلم بجبايته عن الثروة والممتلكات ـ البيوت والأراضي والحاجات القابلة للنقل (خانات ـ وضياع ـ وعقار) ـ العائدة للكفار الأفراد، وهو متدرج. أمّا المعدلات السنوية الواردة في **آداب الحرب**، فهي نفسها المحددة بدقة في **التشاتش نامه**، أي ثمانية وأربعون **درهماً** فضياً بالنسبة إلى الأكثر ثراء، وأربعة وعشرون درهماً عن متوسطي الحال، واثنا عشر عن الأكثر فقراً[46]. والغزنوي الذي نجده حاذياً هنا، بوضوح، حذو فخري مدبر، ويعطي الأرقام نفسها، يساوي بين الصنف الأول من الجزية والـ «**خراجي مقاسمة**» (أي ضريبة الأرض بالذات). يكتب هو أيضاً عن نوعين من الضرائب؛ نوع يتم أخذه حين يكون جيش مسلم قد تمركز في بلد للكفار، نوع يضعه في خانة الغنائم (**غنيمة**) من جهة، ونوع يكون مقدماً قبل الغزو الإسلامي، ويطلق عليه اسم **الجزية** من جهة ثانية. وفي مكان آخر، نجده مستعداً لتصنيف، حتى الأموال النقدية والهدايا التي يرسلها أمراء الكُفر بين الحين والآخر، في خانة الجزية[47]. من الواضح أن

---

(44) RI، I، 33، وIV، TFS140 .، 291، TMS574 .، 147. هذا هو ما ضلل لال.

(45) FJ، 166.

(46) AH، CN404 .، 158.

(47) DA، ملف 35 أ ـ 36 ب (تر. رشيد، 67 ـ 68).

ما فُرض، مثلاً، على ملك آرانغال: رودراديڤا في أثناء حملة ملك كافور سنة 710 هـ / 1310 ـ 1311م، ومرة أخرى، حين قام خسروخان بغزو ممتلكاته في 718 هـ / 1318م، هو جزية بالمعنى الضريبي ـ أي جزء من ريع الأرض، يقدمه راي هندوسي[48].

ثمة مؤرخون افترضوا، أن الجزية كانت تُجبى من السكان الهندوس على امتداد حقبة سلطنة دلهي[49]. غير أن هذا يبدو غير محتمل. فأحد الاعتبارات ذات العلاقة، يقول إن الجزية كانت ضريبة تعوض عن الخدمة العسكرية، وإن الهندوس ـ خلافاً لحال اليهود والمسيحيين (أقله خلال هذه الفترة) في الكيانات السياسية الإسلامية الأخرى ـ درجوا، كما رأينا، على القتال في صف الجيوش الإسلامية؛ وقد كان من شأن هذا أن يشكل تسويغاً لتعليق هذه الضريبة ووقفها في الهند المسلمة[50]. ومما ينطوي على قَدْر أكبر من الأهمية، أنه قيل إن التجهيزات اللازمة لعمليات جباية وتحصيل، تطال أعداداً هائلة من المكلفين، ونظراً للجهاز الإداري غير المتطور نسبياً، ولو لدولة إسلامية قروسطية، شكلت عقبة يتعذر التغلب عليها[51]. ومن مثل هذا المنطلق، فقد بدا استنتاج عدم وجود الجزية كضريبة متميزة، بل اعتبارها مندمجة بالخراج أو ضريبة الأرض،

---

(48) KF : 1311، 111. 1318 : NS، 84، 121. عن ضريبة **الجزية**، انظر أيضاً QS، 35، 63؛ NS، 84، 121؛ FS، 275، 402 (تر. 450، 608 ـ 609)؛ قارن أيضاً 35 ـ 37 (تر. 84 ـ 85)، عن استخدام مماثل قبل الحقبة الغزنوية، و596 (تر. 879)، حيث نكون عاكفين بوضوح على تناول دفع خراج عامين من جهة والوعد بضريبة (**ساو ـ باج**) مستقبلية من جهة ثانية. كذلك، IB، IV، 231 (تر. جيب وبكينغهام، 877)، يتحدث عن دفع **الجزية** إلى الحاكم المسلم في صوماطره من قبل جيرانه الكفار.

(49) لال، **تاريخ الخلجيين**، 184 ـ 185. يو. ن. داي، **النظام الإداري لسلطنة دلهي** (1206 ـ 1413م) (الله آباد، 1959م)، 106؛ يكون داي هذا في كتابه **حكومة السلطنة** (نيودلهي، 1972م، طبعة ثانية 1993)، 91 ـ 92، أكثر بعداً عن التشدد، وإن لم يضمر أن الضريبة فُرضت في مرحلة متأخرة. ظفر الإسلام، «موقف فيروزشاه من غير المسلمين، إعادة تقويم»، IC 64 (1990م)، ج: 4، 66، يرى أن الجزية فُرضت في حقبة فيروزشاه كـ«رسم جرى إحياؤه».

(50) عزيز أحمد، **دراسات في الثقافة الإسلامية**، 80 ـ 81: الإطار هو عهد الإمبراطور المغولي أكبر.

(51) هاردي «الجزية» و«نفوذ الملوك المسلمين»، 48.

أمراً طبيعياً"[52]. وبالفعل، فإن الغزنوي تصوَّرَ إمكانية توحيد الضريبتين في ضريبة واحدة؛ على الرغم من إصراره على ضرورة التحديد الواضح لنسبة كل منهما[53].

قد نستطيع التمييز بين الهندوس في المناطق الريفية، ونظرائهم المقيمين في المدن والقلاع الخاضعة للمسلمين. ففي حالة الفئة الأولى، ربما كان يُنظر إلى الجزية بوصفها جزءاً من ضريبة الأرض أو الرسم الذي يسدده الزعماء[54]؛ وكان من شأن هذا، أن يضفي شيئاً من المعنى على العبارة المحيِّرة الواردة من قبل، مقتبسة من **فتاوى** برني، والتي تقول بأن الملوك الهندوس (أي أولئك التابعين للسلطان المسلم) كانوا يحصِّلون خراجاً وجزية من رعاياهم بالذات. ومن ناحية ثانية، يقوم برني بنسبة كلام إلى جلال الدين خَلْجي، يشير فيه إلى المبالغ التافهة التي يقبلها **صدقةً** من هندوس العاصمة. وكلمة **صَدَقَة** تعني عادة الزكاة، التي يدفعها المسلمون، بالطبع، وليس استخدامها هنا، إلاَّ نوعاً من السخرية، للإيحاء بأن السلطان المسلم هو صاحب اليد السفلى التي تستجدي صَدَقَةَ الكُفّار. قد تكون الاستحقاقات المشار إليها هي الجزية[55]. من المفهوم أن الحَضَريين الهندوس ـ الحرفيين وأعضاء النقابات المهنية وأصحاب المحلات التجارية وإلخ. . . ـ الذين كانوا على اتصال مباشر بالسلطات المالية الإسلامية، كانوا ملزمين بأن يدفعوا من منطلق فردي، أي ضريبة رأس حقيقية. ليس صدفة، بالتأكيد، أن يتحدث فخري مدبّر، في الفقرة المقتبسة من قبل، عن فرض الجزية الشرعية في سياق استسلام المدينة[56]. وفيما أعلم، فإن هذا الحل للمشكلة لم يتم طرحه من قبل، غير أنني أسوقه لما يحمله من قيمة (وإن

---

(52) نظامي، **بعض جوانب الدين والسياسة**، 314 ـ 315. انظر أيضاً قرشي، **إدارة السلطنة**، 119.

(53) DA، ملف 34 أ (تر. رشيد، 66).

(54) هذا الاقتراح طرحه حبيب الله، **أساس**، 250.

(55) TFS، 217. قارن الملاحظة في FI، 167، حيث يقال إن الكُفّار يدفعون "**بضعة تانغات كجزية**".

(56) AH، 404.

لم تكن كبيرة في غياب الدعم النصي القوي). غير أننا، مهما كانت الحقيقة، لا نجد أنفسنا إزاء دليل لا لبس فيه عن الجزية بوصفها ضريبة تمييزية مفروضة على الأفراد من غير المسلمين، وللمرة الأولى، إلاّ في عهد فيروزشاه (752 ـ 790 هـ / 1351 ـ 1388م).

يؤكد الكاتب المجهول لسيرة حياة فيروزشاه، حِرْصَ ذلك السلطان على عدم فرض ما هو أكثر من المكوس الشرعية، بما فيها «جزية الهندوس» **(جزيا ـ ي هنود)**[57]. وبرأي عفيف، كان فيروزشاه هذا، أول عاهل يفرض الجزية على البراهمانيين، الذين كانوا مستثنين من قبل (ليس مؤكداً ما إذا كان هذا يعني أن الجزية كانت تُجبى بالفعل من الجماعات الهندوسية الأخرى، قبل عهد فيروزشاه، أم أن السلطان نفسه كان قد استثنى البراهمانيين في مناسبة سابقة، لدى فرض الضريبة على المجتمع الهندوسي). قام البراهمانيون بإثارة فضيحة كبرى، واجتمعوا خارج القصر مهددين بإحراق أنفسهم حتى الموت. غير أن السلطان نصحهم قائلاً، بأنه من الأفضل لهم أن يفعلوا (أي أن ينفذوا تهديدهم)، لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة التي من شأنها أن تجنبهم الدفع ـ في رد فروسي، بعض الشيء، لم يترك أي مجال للتفاؤل. غير أن أزمة مؤكدة أمكن تحاشيها حين تقدم أعيان سكان العاصمة الهندوس، بعرض تسديد الضريبة نيابة عن البراهمانيين. وقد كان فيروزشاه، بدوره، أكثر استعداداً للمصالحة، فجعل ضريبة البراهمانيين عند الحدود الدنيا من اللائحة، رغم استخدام **تانغا** ذات قيمة مختلفة[58]. ففي سيرته الذاتية، يأتي فيروزشاه على ذكر الجزية بين جملة المصادر الشرعية للموارد المسموحة بالنسبة إلى الحاكم المسلم، ويتحدث عن قيام الهندوس بتسديد الضريبة مقابل حماية ممتلكاتهم، ويزعم أنه كسب أعداداً كبيرة يتعذر إحصاؤها من الهندوس، إلى صف العقيدة

(57) SFS، 125.

(58) عفيف، 382 ـ 384. عن مغزى هذا المقطع، انظر هوديفالا، دراسات، I، 336 ـ 337.

الصحيحة عن طريق إصدار مرسوم يتضمن وعداً بتحريرهم من الجزية، إذا ما اهتدوا (اعتنقوا الإسلام)[59].

يبدو أن عفيفاً يحدد أن المعدلات التي يوردها (تلك المتراوحة بين عشرين وأربعين **تانغا**) كانت مطبقة في دلهي. غير أن هناك أدلة أيضاً، من إقليم واحد على الأقل، تشير إلى فرض الجزية في عهد فيروزشاه. يتم التلميح إلى الضريبة مرتين، في مراسلات والي السند عين الملك بن مهرو، الذي هو أحد ضباط السلطان. في المرة الأولى، يردُّ عين الملك على احتجاجات قوبلت بها زيادة في الجزية المحصَّلة من أصحاب المحلات التجارية الهندوس[60]. وفيما بعد، يشير إلى حقيقة أن السلطان كان قد خصص لأحد ضباط الجيش، كمعاش له، الجزيةَ المدفوعة من قبل فلاحي منطقة معينة. تقوم العبارات المستخدمة بتسليط الضوء على: آ ـ أن الضريبة كانت مرتبطة بحماية الذميّ، وب ـ أن **مالك** الأرض (وهم قضاة تانيسار في هذه الحالة) لم يكن صاحب حق في التصرف بها[61]، مما يلغي احتمال أن نكون بصدد ضريبة أرض عادية. فمحصلة الأدلة تشير، إذن، إلى أن الجزية كانت، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، إن لم يكن من قبل، تجبى كضريبة تمييزية من غير المسلمين[62]؛ على الرغم من صعوبة رؤية إمكانية تطبيق مثل هذا التدبير، حتى في ذلك الوقت، خارج المراكز الرئيسية للسلطة الإسلامية.

التساهل مع ممارسة الشعائر الدينية الهندوسية

ليس ثمة في المصادر إلاّ القليل من المعلومات، عن موقف السلاطين

(59) FFS، 6، 9، 16 ـ 17 (تر. روي، 453، 456، 462).

(60) IM، 48.

(61) المصدر نفسه، 62 ـ 63.

(62) انظر أيضاً ذاكر حسين، «بعض الوثائق التُغلُقية الأصيلة ومغزاها»، PIHC 50 (غوراخبور 1989) (دلهي، 1990م)، 222.

من ممارسة الشعائر الدينية الهندوسية عموماً؛ ومعظم ما يتوافر من أدلة، يأتي من عهد محمد بن تُغْلُق، الذي لا يمكن اعتباره نموذجياً. لقد كان محمد هذا، معروفاً بعادته السيئة المتمثلة باهتمامه بالممارسات الهندوسية. فعصامي، المعروف بأنه لم يكن صديقاً للسلطان، يتهمه بحضور الاحتفال الديني الهندوسي هولي، فضلاً عن التردد (وهو ما يؤكده ابن بطوطة) على حلقات اليوغا[63]. يلاحظ ابن بطوطة أن إجراء طقس **الساتي** («سوتّي»)، إحراق الأرملة فوق محرقة جنازة زوجها، كان يتطلب إذناً من السلطان[64].

وفيما عدا ذلك، ينصب اهتمام المواد المحدودة التي هي بحوزتنا على إنشاء المعابد الهندوسية أو ترميمها. مر معنا أن الهندوس كان محظراً عليهم، بموجب القانون الإسلامي الصارم، أن يقيموا معابد جديدة للأصنام، أو يرمموا تلك التي تعرضت للخراب والتدمير. غير أن غضَّ النظر عن مثل هذا الحظر في عهد علاء الدين خَلْجي، واضح من أعمال جانبية تكيل المديح لآلب خان، إلى علاء الدين في گوجرات، لأنه سمح بإعادة بناء معابد جرى تدميرها في أثناء الفتح الإسلامي[65]. وثمة شهادة أوفى يوفِّرها نقش يعود إلى 1326م من إقليم الدكّان. ففي أثناء حركة بهاء الدين غارشاسب التمردية، جرى استدعاء والي كالياني، أحمد جاجنري؛ وفي الانتفاضات اللاحقة، تم تدمير معبد هندوسي في كالياني، وتعرض **الشيفالِنغا** للتحطيم. جاء الأعيان المحليون الهندوس، برئاسة الشخص المسؤول عن إدارة المعبد لمقابلة الوالي لدى عودته، والتماس الإذن منه لترميم المعبد واستئناف عبادة الرب (الصنم). تشاور أحمد جاجنري مع أمين سره، الذي لم يكن اسمه اسماً إسلامياً بالتأكيد، ومنح الإذن، مضيفاً أن من الضروري تمكين الملتمسين من ممارسة العبادة،

---

(63) FS، 515 (تر. 765). IB، IV، 36، 38 ـ 39 (تر. جيب وبكينغهام، 788، 789 ـ 790).

(64) المصدر نفسه، III، 137 (تر. جيب، 614).

(65) ميسرا، صعود النفوذ الإسلامي، 68 ـ 69.

نظراً لأن عبادة الرب واجب. جرى إيراد هذه الشهادة كدليل على وجود درجة مدهشة من التسامح[66]. غير أنها تأتي، بالطبع، مثلها مثل المادة المنسوبة إلى آلب خان، من منطقة لم تصبح خاضعة للحكم الإسلامي إلاّ مؤخراً، منطقة كان نفوذ السلطان فيها، بالضرورة، بالغ الهشاشة. إنها لا تقول لنا شيئاً عما كان يمكن حصوله، لو نشأ وضع مشابه في منطقة مركزية مثل هاريانا.

عندنا في الحقيقة، أدلة أخرى، على التساهل الذي كان متاحاً للسلطات الدينية الهندوسية المحلية، في تلك الأيام. فابن بطوطة يحدثنا عن بعثة من «ملك الصين» (أي إمبراطور يوان المغولي) إلى محمد بن تُغْلُق، جاءت تلتمس الإذن لإعادة بناء معبد في منطقة سامبهال، زُعم أنه خُرِّب ونُهِب من قِبَل أحد الجيوش الإسلامية. قيل للمندوبين، رداً على الطلب، إن الإذن بترميم مثل هذه المعابد في البلاد الإسلاميّة لا يمكن منحه، إلاّ لأولئك الذين يدفعون الجزية (لا لكفرة يقيمون في دار الحرب، بعبارة أخرى)[67]. صحيح أن صحة قصة هذه السفارة قابلة للنقاش، ومفهوم، على أية حال، أن يكون ابن بطوطة، كأجنبي، قد أخطأ في فهم الأمور. غير أن الاحتمال الوارد، هو أن شهادته المتعلقة بإعادة بناء معابد الأصنام، جديرة بالثقة. ففيروزشاه يدعي حقاً أن معابد **جديدة** كانت قد شيدت، قبل اعتلائه العرش، في دلهي ومحيطها ـ في تناقض صارخ، بالطبع، مع الشريعة[68]. غير أن ما يدعو للأسف، أن ما نجا من ذلك، لا يشكل إلاّ نَزْراً يسيراً من الأدلة المباشرة. ثمة نقش يبين أن معبداً جديداً أُقيم في ريفاسا، بمنطقة نغوار، سنة 1326م[69]؛ وهناك نتفة من نقش

(66) ب. ب. ديساي، «منقوشة كاليانا عن السلطان محمد»، 165 ـ 170. انظر HN، 503؛ أيضاً و. هـ. صدّيقي، «التسامح الديني كما يُستَشَف من منقوشات وسيطة»، في PSMI، 54، حيث يقع خطأ اعتبار الوالي هو أحمدي آياز، وزير السلطان المقبل.

(67) IB، IV، 1 ـ 2 (تر. حبيب ويكينغهام، 773).

(68) FFS، 9 ـ 10 (تر. روي، 456 ـ 458).

(69) تقرير عن عمل ASI (الدائرة الغربية (1909 ـ 1910)، 52، وارد في ولش وكريم «التغالقة: صناعاً للأسياد»، 160 هـ. 11.

ثنائي اللغة، بالسانسكريتية والفارسية، يُرجِّح، بقوة، أنه يعود إلى فترة السلطنة، وإنْ لم يكن تاريخه مؤكداً، يتحدث عن شراء اثني عشر **بيغاً** من الأرض بالقرب من قلعة كوهنا في دلهي بالذات، وعن إقامة معبد شري كريشنابهاغوان[70].

ليس خارج إطار الممكن، أن تكون مثل هذه المؤسسات قد حصلت على أوقاف (تبرعات) من جانب السلطات الإسلامية. يقال إن آلب خان تبرع، بسخاء، لأعمال إصلاح معابد الجاين في گوجرات[71]؛ غير أن الأعداد الكبيرة من الوثائق المؤكدة للتبرع بالأرض وبالإعفاءات الضريبية، من قِبَل ملوك مسلمين، لصالح البراهمانيين والجاينيين وجماعات اليوغا والمجوس، كما لصالح معابد شيڤا وڤيشنو تميل، فيما عدا قصة آلب خان، أن تكون صادرة عن الأباطرة المغول، ومعاصريهم في الدول التي جاءت بعد سلطنة دلهي. وعلى الرغم من أن هذه تمنح موارد جديدة، فإن البعض ليس إلاّ تجديداً أو تمديداً لهبات قدمها حكام مسلمون من حقبة سابقة[72]. ثمة علامات تبرعات بأرض معفاة من الرسوم (**مدد ـ ي معاش**) قُدمت إلى براهمانيين، خلال فترة سلاطين لودي، على الأقل، وقد تكون هناك هبات منحها أسلافهم أيضاً. يرى البروفسور صديقي، هذا، استجابة من قِبَل السلاطين للحاجة إلى إدخال «الريف مع زعمائه المتنفذين في دائرة التحكم الفعال»[73].

على العموم، كانت سياسات فيروز شاه أثقل وطأة على السكان الهندوس من الرعية، بالمقارنة مع سياسات أسلافه. يروي عفيف قصة قيام السلطان

---

(70) ASIR (1909 ـ 1910م)، 131.

(71) ميسرا، **صعود النفوذ الإسلامي**، 69.

(72) أرنست، **جنة أبدية**، 48 ـ 49.

(73) إ. هـ. صدّيقي «هبات الوجهي معاش في ظل الملوك الأفغان (1451 ـ 1555م)»، MIM 2 (1972م)، 21، 36. عن الحقبة المغولية، انظر ب. ن. غوسوامي وج. س. غريوال (محررين)، **المغول والجوغي في جاخبار** (سيملا، 1967م): البيانات عن السلطات المحلية في فترة ما قبل المغول واردة في المصدر نفسه، 20.

بإحراق براهماني عند بوابات القصر[74]. وفيروزشاه نفسه يزعم، في معرض وصفه للمعابد التي كانت قد أقيمت في ظل سابقيه، أنه باشر بهدمها واستبدال المساجد بها، فضلاً عن أنه قام، في إحدى المرات، بإعادة إسكان إحدى البلدات (القصبات) بمستوطنين مسلمين[75]. لا بد من تأكيد نقطتين هنا. كانت هذه مباني جديدة أولاً: لم يكن ثمة أي احتمال لتدمير معابد وأديرة أو مزارات كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي، وعاش أصحابها بسلام في ظل الحكم الإسلامي. وقد جرت هذه الأحداث كلها، ثانياً، في الدائرة القريبة المحيطة بدلهي. من غير المحتمل أن تكون إرادة السلطان قد اتسعت لتشمل تطبيق مثل هذه السياسة على نطاق أوسع. وهذا واضح من سلوكه، حين أنقذ تمثال جاوالاموخي في نغركوت، في خطوة جاءت، في الحقيقة، متطابقة تماماً مع السياسة التي اعتمدها حكام مسلمون سابقون. غير أنه من الصعب التوفيق بين مثل هذا السلوك من جهة، وبين صورته المعروفة كمحطم أصنام، من جهة ثانية، وقد أدى إلى ظهور شائعات نشرها «كُفّار معينون» ـ وكان عفيف شديد الحرص على دحضها ـ قالت إن السلطان كان قد عبَّر عن آيات احترامه للصنم، وأسدل مظلة (تشاتر، خيمة) فوق رأسه[76]. ومع ذلك، مهما كانت التوصيفات التي تساق على صعيد المدى الذي وصلت إليه، فإن من غير الممكن إنكار حقيقة أن عهد فيروزشاه شهد ردة رجعية (نوعاً من رد الفعل) ضد الأنظمة السابقة. ربما زادت أحوال الهندوس سوءاً في أقاليم معينة بعد موته: ثمة معبد في كيتلاي، بإقليم غورغاؤون، جرى هدمه في 795 هـ / 1392م لاستبدال مسجد به[77].

---

(74) عفيف، 379 ـ 381.

(75) FFS، 9 ـ 10 (تر. روي، 456 ـ 458).

(76) عفيف، 186 ـ 187. عدم المساس بالصنم مذكور باختصار في SFS، 83.

(77) ARIE (1963 ـ 1964م)، 146 (رقم: د 286).

العلاقات الهندوسية ـ الإسلامية: تقويم

تزخر المصادر الأخبارية لدى سردها لقصص المجابهات العسكرية مع الهندوس، بتلميحات غير متملقة، وإن كانت معهودة وتقليدية: لعل أحد أكثر هذه التلميحات تكراراً، هو وصف العدو بصاحب «الوجه الغرابي» [نسبة إلى الغراب (زاغ ـ تشهيراً)][78]. غير أن لهجة أكثر اتصافاً بالحياد، كانت تُسمع أحياناً. فقد تمنى الجوزجاني أن تشفع ميزات ملك البنغال، لاكشاماناسينا، الذي كان قد اشتهر بالعدل والكرم، له على صعيد التخفيف من عذاباته في الجحيم[79]. يقول المؤلف نفسه، إن إقدام مُقْطَع لخناوتي، طُغرُل خان يوزبك على التنكر لسيادة السلطان ناصر الدين محمود (حوالي سنة 652 هـ / 1254م) قوبل بالاستنكار والشجب من جانب الهندوس والمسلمين على حد سواء، في السلطنة[80]. وقد اعتُبر أمير خسرو استثناء، حين قام في كتابه **نوح سفر** (سِفْر نوح) بلفت الأنظار إلى علاقة القربى بين معتقدات هندوسية دينية معينة ونظائرها في الإسلام[81]. ومما كتبه خسرو، بمناسبة السقوط المأساوي لمحمد بن بلبان في أرض المعركة في أثناء القتال ضد المغول، أن «الهندوس فقدوا سوادَه والأتراك بياضَه». قد يكون هذا كلاماً مشحوناً بالشعر؛ غير أن المغزى هو أن خسرو، مثله مثل الجوزجاني، كان يؤمن بأن من الممكن أخذ وجهة نظر الهندوسي مأخذ الجد. ويبدو أن الهندوسي كان جديراً بمكانة لا بأس بها في التدبير السماوي، لدى مقارنته بالوثنيين الآخرين. فالمغول الذين كانوا يعتبرون نموذجاً للأسوأ من الأعمال، وُصفوا بعبارات تحقيرية أقسى

---

(78) آن ماري شيمل: «تركي وهندوسي: صورة شعرية مطبقة على الحقيقة التاريخية»، في سبيروس فريونيس، الابن (محرراً)، **الإسلام والتغيير الثقافي في العصور الوسطى** (فيسبادن، 1975م)، 107 ـ 126: انظر خصوصاً 109 ـ 116.

(79) TN، I، 425 (تر. 555 ـ 556).

(80) المصدر نفسه، II، 32 (تر. 764).

(81) يوهانان فريدمان، «آراء إسلامية وسيطة حول أديان الهند»، JAOS 95 (1975م)، 216 ـ 217.

بكثير من تلك التي استُخدمت في وصف الهندوس في الكتابات الهندية ـ الإسلامية. استمد خسرو بعض العزاء من تدخل العناية الإلهية وقيامها بتوظيف علاء الدين غير المؤمن، ناناك، لإلحاق الهزيمة بالمغول غير المؤمنين(82). أما النصوص القانونية العائدة إلى القرن الرابع عشر، فتكشف النقاب عن نوع من القلق بشأن العلاقات بين المسلمين العاديين والسكان الهندوس. نجد كتاب **فتاوى ـ ي فيروز شاهي**، خصوصاً، مصراً على إصدار الأحكام بشأن السلوك القويم في التعامل الاجتماعي مع الهندوس، ومعاملة الابن المسلم للأبوين الهندوسيين، والحقوق المتكافئة للدائنين الهندوس والمسلمين وإلخ(83) . . .

قد يبرز هذا كله متناقضاً بشكل صارخ مع اللهجة التي اعتمدها برني. فإحدى الأطروحات التي تتكرر مرة بعد أخرى، في كتابات برني، هي الأطروحة التي تقول بأنه من الواجب، وجوباً مطلقاً، عدم إتاحة الفرصة للملاحدة بأن يعيشوا في راحة وبحبوحة. وفي مقدمة سيرته النبوية **نعت ـ ي محمدي**، يورد جَدَلاً يزعم أنه جرى في بلاط إلْتُتْمش قبل قرن وربع القرن. حين بادر «العلماء» (رجال الدين) إلى الإعلان عن عدم امتلاك الهندوس للتمتع بحق المعاملة مثل «أهل الكتاب»، وعن ضرورة إجبارهم على الاختيار بين الموت والإسلام فقط، يقال إن وزير السلطان، جنيدي، وافق على رأيهم. غير أنه يتابع فيقول إن سلوكاً كهذا، كان من شأنه أن يبدو شديد الحماقة والغباء، نظراً لأن المسلمين كانوا لا يزالون قليلي العدد، ولا بد من إرجاء وضعه موضع التطبيق، حتى يصبحوا في وضعية أقوى. وعندئذ أصر «العلماء» على ضرورة امتناع السلطان، على الأقل، عن معاملة الهندوس

(82) WH، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 135 أ. KF، DR38 .، 61. المقارنة مع معاملة المغول يقوم بها هاردي، «نموالنفوذ. . .»، 193.

(83) ظفر الإسلام، «فتاوى ـ ي فيروز شاهي كمصدر»، 105 ـ 107.

باحترام وحفاوة، أو السماح بعبادة الأوثان في العاصمة. ولكن هذا الإخفاق في ذبح الهندوس كان، بزعم برني، السبب الكامن وراء تجذُّر الشِّرك وعبادة الأوثان[84]. يتردد صدى هذا الرأي في حوار افتراضي آخر، يعود إلى الحقبة ذاتها، ونجده في كتاب **تاريخ** لبرني نفسه. ينصح السيد نور الدين غزنوي إلتُتمش قائلاً، إن ما يؤكد أن حاكماً معيناً يحرص على حماية العقيدة القويمة، هو أنه ما إن يلمح هندوسياً حتى يتورَّد وجهه ويمتلئ رغبة في دفنه حياً. وإذا كان المشركون كثيري العدد، بحيث قد لا يستطيع الحاكم المسلم أن يبيدهم، فإن عليه عندئذ أن يحرص على السعي، على الأقل، إلى إذلالهم وإغراقهم في بحر من المهانة والخزي والعار[85]. ويتكرر الموضوع نفسه في خطاب يُغزىٰ، إلى أحد مستشاري علاء الدين خَلْجي، هو القاضي مغيث الدين البهاياناوي. وجواباً على أحد أسئلة السلطان عن وضع الهندوس في الشريعة فيما يخص فرض الضرائب، يؤكد القاضي أن على الهندوسي، حين يطالب جابي الضرائب بالفضة، أن يبادر، بلطف واحتشام وتبجيل، إلى تسليمه الذهب؛ وإذا أقدم جابي الضرائب على قذف القذارة في فمه، فإن من واجبه أن يفتح فمه لتلقُّفِها[86].

من الشائع مواجهة مثل هذه الآراء في الكتابات الجدالية الموجهة ضد المشركين، في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي، في أزمان متباينة[87]. غير أن هناك أفكاراً أخرى، تخص برني بالذات. فبالنسبة إلى هذا الأخير، يبقى أحد واجبات الملوك المسلمين الرئيسية متمثلاً بغسل وتطهير الطبيعة الخاطئة والشريرة المتأصلة للملكية، عن طريق اجتثاث الوثنية والشرك وعبادة الأصنام

---

(84) برني، **نعتي محمد**، مخطوطة RRL 1295، ملف 195 ب ـ 196 أ؛ تر. في س. نور الحسن، «شفاء ـ ي نعتي محمدي لضياء الدين برني»، MIQ 1 (1950)، 101 ـ 103 (النص الفارسي، 104 ـ 105).

(85) TFS، 41 ـ 42.

(86) المصدر نفسه، 290.

(87) الأمثلة تجدها في لويس، **يهود الإسلام**، 32 وما بعدها.

من جذورها[88]. إن الهندوس هم أسوأ أعداء الله والرسول[89]. كان النبي، في الحقيقة، قد أمر بنهب ممتلكاتهم واستعبادهم وقتلهم[90]. يجب بشكل خاص ذبح البراهمانيين، الذين هم قادة عبادة الأصنام والمحرِّضين عليها[91]. وَحْدَه المذهب الحنفي يسمح باعتبار الهندوسي مكلفاً بدفع الجزية؛ أما مؤسسو المذاهب الأخرى، فيصرون، جميعاً، على أن الخيار الوحيد الذي يجب أن يُعرض على الهندوسي هو: إما الإسلام أو الموت[92]. يبقى كثير من هذا، غير تاريخي بصورة صارخة. ففي كتابه **فتاوي جهان داري**، الذي يتنكر مدعياً أنه وصية سياسية صادرة عن محمود الغزنوي، يطلق برني مزيداً من التصريحات التي تبقى، بالمثل، غارقة في بحر من الشك. ولو تسنى لمحمود أن يغزو الهند مرة أخرى، لما تردد في الإقدام على ذبح جميع البراهمانيين، وقطع رؤوس زعماء الهندوس المئتي أو الثلاثمئة ألف (يا له من إحصاء سكاني خادع!)[93]. يقال إن محموداً همس في أذن حاكم كاشغر القراخاني، قادر خان، معبراً له عن خشيته من التعرض يوم الحساب للمساءلة عن سبب قتله للبراهمانيين[94] ـ مع أن محموداً، الحقيقي، كان مُداناً من قِبَل المؤرخين المسلمين المعاصرين، على استخدام قوات هندوسية كافرة في محاربة أشقائه المسلمين خلال حملاته في إيران[95].

أضف إلى ذلك، أنه يبيح لنفسه التلميح المحايد العَرَضي إلى

(88) TFS، 41. انظر عموماً هاري «أواشيوركتا» خطاب الرابط المستقيم (الخطاب الحق)، 319.

(89) TFS، 42، 290؛ **نعتي محمدي**، ملف 195 ب ـ 196 أ، تر. نور الحسن، 102 (النص الفارسي، 104 ـ 105).

(90) TFS، 290 ـ 291.

(91) المصدر نفسه، FJ42 .، 165.

(92) المصدر نفسه، 291. قارن أيضاً FJ، 18.

(93) المصدر نفسه.

(94) المصدر نفسه، 230.

(95) بوزوورث، **الغزنويون**، 89، 110.

الهندوس[96]. يرى برني أنه من الجدير بالذكر، أن الهندوس في دلهي كانوا، خلال مجاعة سنة 1291م، يأتون في جماعات مؤلفة من عشرين أو ثلاثين شخصاً ليلقوا بأنفسهم في اليمونه[97]. ويلاحظ أن الهندوس جنباً إلى جنب مع المسلمين، كانوا يدعون لمحمد بن تُغْلُق لدى اعتلائه العرش، ويعبرون عن الفرح عند مجيء فيروز شاه سنة 752 هـ / 1351م، كما لدى عودته سالماً من حملته البنغالية الأولى، بعد بضع سنوات[98]. توحي هذه الملاحظات والتعليقات، بأن برني لم يصل إلى إصدار حكم حاسم يقول بأن القطاع غير المسلم، من المجموع الإجمالي لسكان السلطنة، هو دون مستوى ملاحظة واهتمام المؤرخ بصورة مطلقة، على الرغم من أنه لم يكن مستعداً لأن يعتبر ولو للحظة واحدة، كتابه **تاريخ فيروز ـ شاهي** تاريخاً لجميع سكان هذه السلطنة. لعل التعبير الأشد إثارة لنمط مختلف من التفكير، في مجمل الحوارات الجدلية الملَخَّصة قبل قليل، هو إعلانه عن استعداده لأن يعيش بعد الآن، حياة البراهمانيين[99]. بعبارة أخرى، لا يقوم، عند هذا المنعطف، كما يمكن للمرء أن يتوقع، بإعلان تبني حياة الصوفيين هدفاً له. من الممكن أن يكون برني، في شيخوخته، وفي مواجهة تدهور حاد في أوضاعه المادية، قد وجد شيئاً جديراً بالثناء في درجة نكران الذات، التي يبلغها بعض كبار المبشرين بالعقيدة المنافسة.

مهما يكن من أمر، لا بد من وضع شَجْب برني لحُسْن معاملة غير المسلمين، في إطاره الصحيح. لا يقف الأمر عند صياغة مؤلفاته بالاستناد إلى الذاكرة من قِبَل رجل طاعن في السن؛ كما لا يقف عند كون هذه المؤلفات

(96) ع. حبيب، «نظرية برني»، 111 ـ 113.

(97) TFS، 212.

(98) المصدر نفسه، 457، 547، 596. ع. حبيب، «نظرية برني»، 113.

(99) TFS، 200.

نتاج نديم بلاط، غدا منبوذاً بعد موت محمد بن تُغْلُق، ورجل شديد السُخْط والمرارة إزاء عبوس الأقدار في وجهة، وغَدْر الزمان له. أضف إلى ذلك، أن برني كان يكتب بوصفه ممثلاً لأسرة سبق لها أن خدمت ضباط بلبان وعلاء الدين خَلْجي. ربما كان أجداده من ناحية الأب، ذوو أصول تركية؛ لكن لعل الاحتمال الأقوى، هو أنهم كانوا ذوي جذور فارسية. كانت أم أبيه تنتمي إلى سلالة الأسياد الشهيرة والمرموقة المعروفة باسم كيثال[100]. وبالتالي، فإن برني يتباهى بنسبه الرفيع، وليس لديه وقتٌ يضيعه من أجل ذوي الأصول الوضيعة. ومن اللافت للنظر، أن لائحته بأسماء خدم محمد بن تُغْلُق وضيعي النسب، تضم ليس فقط الهندوس، بل وأولئك الذين كانوا، كما نستشف من أسمائهم، قد اعتنقوا الإسلام. لقد أشار البروفسور عرفان حبيب، في الحقيقة، إلى أن برني، خلافاً لما فعله عصامي، لم يهاجم السلطان بسبب تقريبه للهندوس وعَطْفِه عليهم، وقد كان اعتراضه على ترقية هؤلاء ـ هندوساً ومسلمين على حد سواء ـ مستنداً، قبل كل شيء، إلى أصولهم المتواضعة[101]. إلى حدود معينة، نرى تأكيدات برني بشأن وضع الكفار، جزءاً من حكمه الأعم القائل، بأن وضيعي النسب كانوا قد استفادوا أكثر منه هو نفسه، من رعاية ولي نعمته الراحل. غير أن برني يبدو، في الحقيقة، لدى رفضه لإمكانية غرس مبادئ الإسلام الأساسية في عقول المهتدين الهنود، مشاطراً عصامي، الذي يرى «أن أي غلام هندوسي سيهرب في النهاية، ولو بلغ مرتبة **الصدر** الأعظم»[102].

قد يكون التعرف على أسباب أعم، لما عبَّر عنه الكُتّاب والحكام المسلمون من عداء تجاه المشركين، ممكناً. ربما كان المرء يخشى من ارتداد

---

(100) TFS، 350.

(101) TFS، 504 ـ 505؛ وقارن FS، 486، 515 (تر. 728، 765). ع. حبيب، «نظرية برني»، 110.

(102) FS، 552 (ترجمتي)؛ قارن أيضاً 370 (تر. 571). FJ. 105.

المسلمين العاديين عن دينهم. ثمة حالة موازية تطرح نفسها، متمثلة بمواقف المسيحية الغربية من الإسلام في العصور الوسطى. فمن الأطروحات الطاغية على الكتابات الجدالية المسيحية التي تتناول الإسلام والمسلمين، أن العقيدة المنافسة قائمة على تشجيع المستوى الدنيء من الأخلاق الجنسية، على مختلف أصعدة تعدد الأزواج، ومعاشرة الجواري واستسهال الطلاق، والأفكار الدائرة حول الجنّة من جهة، مع شحنة الممارسات المظلمة وغير الطبيعية التي كانت البرهنة على وجودها أكثر صعوبة، غير أنها مثقلة بالخبث والنجس لبقائها غامضة من الجهة الأخرى(103). كان المؤلفون المسيحيون، الذين دأبوا على العزف على مثل هذه الأوتار، يشهدون، دون وعي، على القوة الجاذبة لدينٍ كان يُعتَبر، بنظرهم، قادراً على مخاطبة الشهوانيين والإباحيين. ونحن هنا نستطيع، كما أرى، أن نتحرى ظاهرة موازية لدى الأوساط الإسلامية في الهند. فتحت قشرة الأحداث السياسية التي تنصب عليها المصادر السردية، ثمة طبقة دنيا يشكلها التعامل اليومي بين المسلمين والهندوس.

لقد شارك الموسيقيون المسلمون والهندوس، على حد سواء، في عزف الألحان الموسيقية بمناسبة الاحتفال بزفاف الأمير خضرخان(104). ويقال إن الهندوس كانوا يندمجون بالمسلمين في بحر الجماهير المحتشدة، احتفالاً بعيد البراءة (النصف من شعبان)(105). وكثيراً ما كان الهندوس والمسلمون يتزاحمون عند مداخل تكايا (خانقاوات) مشايخ الطرق الصوفية(106). وبالمقابل، فإن عدداً غير قليل من المسلمين التحقوا بهذه الفرقة أو تلك من فرق اليوغا، في خاجوراهو (كاجّارا) سعياً وراء اكتساب مهراتها(107). لم يكن محمد بن تُغْلُق

(103) نورمان دانييل، **الإسلام والغرب**: صنع صورة (أدنبره، 1960م)، 135 ـ 161.

(104) TMS، 79.

(105) عفيف، 366.

(106) تْرُول (محرراً) **الأضرحة الإسلامية**، 7، 14.

(107) IB، IV، 40 (تر. جيب وبكينغهام، 790).

إلاً الشخصية الأبرز على صعيد مشاركة الهندوس احتفالاتهم ومهرجاناتهم: فقد رأى ابن بطوطة، مسلمين في الموكب المصاحب لإحدى الأرامل، وهي في طريقها إلى المحرقة (محرقة جنازة زوجها المتوفى)، كما أن كلاً من فيروزشاه وكاتب سيرته، يتهمان المسلمين العاديين بجريمة المشاركة في الطقوس الدينية الهندوسية[108]. لقد جرى اتهام البراهماني، الذي أُعدم بأمر من فيروزشاه، ليس فقط باستضافة طقوس وثنية في بيته بحضور مسلمين، بل وبإغواء إحدى المسلمات ودفعها إلى الارتداد (عن الدين)[109].

أضف إلى ذلك، أن المسلمين اشتهروا أيضاً بالهرب إلى مناطق الكفار. وبعض هؤلاء الفارين كانوا نبلاء مرموقين، مثل أولئك الذين تورطوا في المؤامرة خلال الحملة التيلانغية لسنة 721 هـ / 1321 ـ 1322 م؛ غير أن المرتدّين العصاة كانوا موجودين على الدوام، من أمثال أولئك المسلمين الذين يزعم ابنُ بطوطة أنه رآهم حين وقع في أسر الهندوس، بالقرب من جلالي[110]. فكما كانت قوات هندوسية تقاتل تحت راية السلاطين المسلمين، تماماً، كان جنود مسلمون يقاتلون في صف الحكام الهندوس ـ سواء أكانوا في خدمة باللالا الثالث، ملك الهويسالا، بعد حوالي ثلاثة عقود، أم مسلمين «تافهين» (ناباكار) تحت راية نارايان حين زحف ضد مؤسس الأسرة الحاكمة البهمانية[111]. وفي ظل مثل هذه الظروف، ربما كان هناك نوع من الشعور بعدم الارتياح أو الاطمئنان، من وجود أقلية مسلمة، في بلاد وثنية بأكثريتها الطاغية، أقلية مسلمة معرَّضة لخطر الإغواء بالكفر. **فحجة الهند** للمحرابي، التي هي

(108) IB، III، 137 (تر. جيب، 614). عفيف، FFS380 .، 9 ـ 10 (تر. روي 457). انظر أيضاً أرنست، جنة أبدية، 27 و289 هـ. 107.

(109) عفيف، 379 ـ 381.

(110) IB، IV، 10 ـ 11 (تر. جيب وبكينغهام، 777).

(111) KF، 149، وDR، 72، عن جيش بانديا؛ IB، IV، 195 ـ 196 (تر. جيب وبكينغهام، 861)، عن جيش بالالا الثالث؛ FS، 592 (تر. 873، عن نارايان). ثمة أمثلة أخرى في بوشون، «بعض وجوه...»، 30.

دراسة نجت من الضياع، ووصلتنا من نهاية القرن الرابع عشر، تستهدف مجابهة مثل هذه الردة بالذات، في المناطق الريفية(112).

لا شك أن السلاطين كانوا أيضاً ضحية ضغوط من نوع مختف. وقد أظهر مؤرخون كتبوا عن العالم الإسلامي، وخصوصاً البروفسور برنارد لويس، أن الحكام المسلمين لا يمكن اعتبارهم قط موحَّدين في نظرتهم إلى رعاياهم من غير المسلمين. فسياساتهم ظلت متأرجحة وفقاً للظروف: مثل وجود تهديد عسكري خارجي، متمثل بأشقاء في الدين للرعية المعينة؛ أو حاجة الحاكم إلى طمأنة السكان المسلمين، إذا ما ساد شعور بأن جماعات طائفية أخرى كانت قد أصبحت مستفيدة من الليونة المفرطة، أو العطف المبالغ فيه؛ أو الرغبة المجردة لدى سلطان جديد، في تدعيم سلطة ذات مشروعية ملتبسة عن طريق الحصول على دعم طبقة متزمتة وأصولية من الفقهاء والوُعّاظ(113). كذلك لا يمكن تجاهل مثل هذه الظروف، في أي تحليل لجملة العلاقات الهندوسية ـ الإسلامية، داخل سلطنة دلهي. انظروا إلى رعاية محمد بن تُغْلُق للهندوس، مثلاً. وقد دأب محمد أيضاً على بذل جهود أكبر مما بذله أي حاكم دلهوي (نسبة إلى دلهي) آخر، في اجتذاب مسلمين من جميع أصقاع العالم الإسلامي، لإدخالهم في خدمته. والمفارقة هنا ظاهرية، أكثر مما هي حقيقية. كان ثمة ذراعان لسياسة استهدفت خَلْق قوة موازية للأرستقراطية الإسلامية الهندية، لأن الأسرة الحاكمة التُغْلُقية لم تكن قد وصلت إلى الحكم، قبل عدد قليل من السنين، إلاّ بعد التغلب على معارضة إسلامية هندية بالغة التصميم. علينا أيضاً أن نتذكر، أن توسيعاً دراميأ مثيراً للنفوذ الإسلامي، كان قد حصل. فحروب العقود الثلاثة الماضية كانت قد أجهزت

---

(112) بيتر هاردي «الإسلام والمسلمون في آسيا الجنوبية»، في رافائيل إسرائيلي (محرراً)، **الهلال في الشرق: الإسلام في آسيا الصغرى** (لندن، 1982)، 43.

(113) لويس، **يهود الإسلام**، 32 ـ 61 في أماكن كثيرة.

على أكثرية تلك الممالك الهندوسية المستقلة الكبرى، التي كان من شأنها تشكيل مركز جذب منافس، أو بؤرة ولاء مناوئة. مفيدٌ على هذا الصعيد أن تتم مقارنة وضع المسيحيين في مصر أو الأناضول، مثلاً، حيث لم يستطع المسلمون نسيان علاقات هؤلاء، بقوى أجنبية مهتمة أو ذات مصلحة. كان سلطان دلهي قادراً على ترقية الكثير من العاملين الهندوس، كما فعل، أو رعاية مؤسسات دينية هندوسية، حين بدت مثل تلك الرعاية مناسبة له، تحديداً لأن الهند لم تكن فيها إمبراطورية منافسة شبيهة بالإمبراطورية البيزنطية، أو دول أوروبا الكاثوليكية[114].

ربما كان فيروز شاه، بدوره، شخصية أكثر تزمُّتاً وأشد وَرَعاً وتقوى من ابن عمه الراحل؛ غير أن عوامل خارجية كانت أيضاً كامنة، بالتأكيد، وراء سياساته. فعملية اعتلاء السلطان للعرش لم تمر دون تحدٍ؛ بل وكان، إضافة إلى ذلك، شاعراً بنوع من الحاجة إلى أن ينأى بنفسه عن المبالغات المتهورة لمحمد، الذي كان قد تصادم مع «المؤسسة الدينية» الإسلامية، وأعدم عدداً غير قليل من رموزها. من المهم أيضاً، على هذا الصعيد، ألاّ يتم النظر إلى السياسات المتَّبعة مع الذميين، بمعزل عن الإجراءات الأخرى. كثيراً ما جاءت مترابطة مع المحاولات الرامية إلى قمع المسلمين المعارضين (الشيعة)، أو مع إلغاء الضرائب غير الشرعية، وهما ما كان فيروز شاه حريصاً على القيام بهما، واللذان كانا سبب كَيْل المديح له من قِبَل كاتب سيرة حياته، عفيف[115]. ينبغي النظر إلى أي تشدد مع الذميين، كجزء من خط سياسي أَعْرَض، بدلاً من اعتباره هدفاً بحد ذاته.

عبْر معايَنة قَدْر بالغ الضآلة من البيِّنات والأدلة الموجوَدة في حوزتنا،

---

(114) نقطة أجادارنست في إثارتها، جنة أبدية، 50 ـ 51.

(115) TFS، 5 ـ 6 (تر. روي، 453 ـ 454). عفيف، 373، 379. انظر عموماً ظفر الإسلام، موقف فيروزشاه».

وتحت تصرفنا، حاولتُ تقديم منظور معين للعلاقات الهندوسية ـ الإسلامية، منظور من شأنه الإيحاء بأن الصيغ التقليدية لن تكون مجدية. من المستحيل معرفة المدى الذي بلغه برني، في موقفه من الهندوس، على صعيد تشكيل نموذج نمطي يمثل الطبقة المتعلمة المسلمة؛ فضلاً عن أن نظرته لم تكن، هي الأخرى، إلاّ خليطاً عجيباً. غير أن تشدده بالذات، يوحي أحياناً، كما تؤكد أدلة من مصادر أخرى، بوجود هوة سحيقة وواسعة بين الشرع الإسلامي من جهة، وتوجهات الحكام والطبقة العسكرية وممارساتهم من الجهة المقابلة. كان السلاطين في مواجهة وضع لم يسبق أن واجهه حكام مسلمون في الأماكن الأخرى، على امتداد بضعة قرون. نرى أن برني يجعل جلال الدين خَلْجي يطرح السؤال التالي:

«ألا ترى كيف أن الهنود باتوا... يمرون كل يوم بقصري، وهم يقرعون طبولهم، وينفخون في أبواقهم، ويتابعون مسيرتهم إلى اليمونه، لممارسة طقوسهم الدينية الوثنية، وكيف باتوا يؤدون فروض الشرك والإلحاد وعبادة الأوثان، أمام عيني... أنا الذي أطلقت على نفسي اسم حاكم المسلمين وسلطان الإسلام؟... عار علي، وعلى نظامي الملكي... أن أسمح بذكر اسمي من على المنبر، كل يوم جمعة، وأن يكرر الخطباء والوُعّاظ بألسنتهم الكاذبة، إعلاني مدافعاً عن الإسلام، فيما يعيش تحت حكمي، أمام عيني وفي عاصمتي بالذات، أعداءُ الله والعقيدة في وفرة وراحة محاطين بالمئين من أسباب الرفاهية والرخاء... ويتبخترون متباهين بين حشود المسلمين، ويمارسون عبادة الأوثان علناً...»[116].

صحيح أن الخطاب مشكوك فيه كسائر الخطب الأخرى جميعها، غير أن الكلمات التي وضعها برني في فم السلطان، تنطوي على رنّةِ صدق: إنها لا

(116) TFS، 216 ـ 217.

تصف ما ينبغي أن يكون، بل ما هو كائن، في الواقع. فالقرارات التي كان السلاطين يتخذونها حول السلوك الذي يتعين عليهم اعتماده في التعامل، مع المشركين الذين كانوا يشكلون أكثرية الرعية، كانت تقوم على اعتبارات أكثر تعقيداً بما لا يقاس، مما درجنا على الافتراض في الغالب. من المؤكد أن علينا أن ننطلق من الافتراض المسبق بأنهم، في إطار ممتلكاتهم، نجحوا، لبعض الوقت، في مقاربة المشكلة، لا كمقاتلين في حرب مقدسة دائبة على تحطيم الأصنام، بل بِقَدْرٍ معين من اللطف والرقة. لعل التمييز الرئيسي بالنسبة إليهم، لم يكن متمثلاً بالفرق بين المسلمين والهندوس (على أهمية مثل هذا الفرق) بل بين الرعية المسالمة من العاملين لدى الحكومة من جهة، ومثيري الشغب والمتاعب من المتمردين والعصاة، من جهة ثانية.

الفصل الخامس عشر

ركود فتدهور: فيروزشاه وخلفاؤه

السلطنة المتقلِّصة

استناداً إلى ملاحظات المؤرخ «الرسمي»، كانت حقيقة أن يكون إلياس شاه، سلطان البنغال المغرور، قد بدأ حياته العملية مجرد خادم أو وصيف، لضابط من عمال محمد بن تُغْلُق، مبعثَ شيء من الاعتزاز في بلاط فيروزشاه[1]. أضف إلى ذلك، أنه كان طاغية؛ لم يكن بوسع فيروزشاه أن يبقى عديم التأثر بنداءات رعاياه المعذبين الدائبين على التماس النجدة والإغاثة[2]. كذلك كانت البراءات التي حصل عليها السلطان الجديد من الخليفة العباسي - استناداً، مرة أخرى، إلى الطريقة التي عوملت بها في **السيرة** - منطوية على دور مهم في توطيد المشروعية الحصرية لحكمه. **فشيخ الشيوخ** المصري، ركن الدين المَلَطَى، الذي كان قد جلب شهادةً أو منشوراً لمحمد من الحَكَمِ (لعله الحاكم بأمر الله)، غادر الهند أوائل عهد فيروزشاه، ووصل القاهرة أوائل سنة

---

(1) SFS، 47.

(2) **فرمان** صادر عن فيروزشاه منشور في IM، 16؛ تر. في مولوي عبد الولي، «حياة ورسائل ملك عن الملك مهرو وأضواء جانبية على حملات فيروزشاه إلى لختاوتي وجاجناغار»، JASB ns I9 (1923م)، 34 (تر. باسو، JBORS 23 [1937 م]، 111). عفيف، 137 ـ 140، 143. ،SFS279

754 هـ / 1353م بعد غياب دام حوالي عشر سنوات[3]. غير أن سفارة أخرى، ما لبثت أن وصلت إلى دلهي في السنة نفسها، موفدة من الخليفة المعتضد بالله، ومعها تفويض (منشور) لفيروزشاه يخوِّله حكمَ الهند ويضفي عليه لقبي **سيف الخلافة** و**قسيم أمير المؤمنين**. وفي سنة 764 هـ / 1362 ـ 1363م، بادر الخليفة التالي، المتوكل على الله، إلى إرسال بعثة ثانية إلى دلهي، ومعها تفويض يخاطب فيروزشاه بوصفه **سيد السلاطين** ويعلنه **والياً**. ثمة بعثات مماثلة جاءت سنة 766 هـ / 1364 ـ 1365م، وكل سنة بعد ذلك، حسبما جاء في **السيرة**[4].

أبدى المتوكل قدراً كبيراً من الحرص على تأكيد الفكرة التي تقول، بأن طاعة السلطان تعني طاعة الخليفة نفسه؛ وأن السلطان مفوضٌ بخوض **الجهاد** ضد المتمردين؛ وأنه لا هو ولا سلفاه، كانوا قد أصدروا أي تفويض لأي حاكم هندي، عدا سلطان دلهي وسيدها[5]. وهكذا، فإن الخليفة قد نصّب فيروزشاه وسيطاً له في التعامل مع الأمراء المسلمين الآخرين، في شبه القارة. فالأقاليم المذكورة في شهادة المعتضد، شملت ليس فقط البنغال والمعبر وتيلانغ وكاولام (قويلون) وهيناور وباكاناور وباقي المناطق الساحلية (**سواحل ـ ي بحر**)، بل و«جزيرة سرنديب (سيلان) أيضاً» مع «الجاوات» (جاوا الكبرى وجاوا الصغرى) وجبال قراشيل، و«الأقاليم الأفغانية (**حدود ـ ي أفغانية**) وجبالها حتى كشمير، وزاوولستان حتى حدود الترك وما وراء النهر»[6]. لم يكن هذا، في أحسن

(3) المقريزي، سلوك. . ، II، ج: 3، 887. يجب أن يكون الرقم الذي أورده عن عشر سنوات وتسعة أشهر خطأ.

(4) SFS، 282 ـ 285 (تر. رشيد، «تطويب فيروزشاه»، 70 ـ 71). عفيف، 274 ـ 276، لا يذكر إلاّ بعثة خلافية واحدة من المعتضد إلى فيروزشاه. TMS، 126، يضع الأولى (ولكنها من الحكم) في 757 هـ / 1336 م؛ انظر أيضاً 127.

(5) SFS، 283 ـ 284 (تر. رشيد، 70 ـ 71).

(6) المصدر نفسه، 283 (تر. رشيد، 70، تُحذف ديوغير مع غيرها). ليست باكاناور إلاّ فاكانور =

الأحوال، إلاّ برنامجاً لفتح مستقبلي (ولنوع من إعادة الفتح).

عَلِمَ عفيف من أبويه، أنه كانت هناك في الجزء الأول من العهد، فترة امتدت سبع سنوات، لم يُمْضِ منها فيروزشاه في دلهي، إلاّ ما بلغ مجموعه ثلاثة عشر يوماً: ففي كل عودة له من إحدى الحملات المطولة، كان ينطلق مرة أخرى بعيد دخوله العاصمة بصورة شبه مباشرة[7]. قد يكون غياب الاستقرار والراحة هذا، ناشئاً عن نوع من الإدراك والإحساس بالخسائر الإقليمية التي تكبدتها السلطنة، في عهد محمد بن تُغْلُق. كانت الأنباء السارة لمقتل تغاي على يد قادة مُوالين في گوجرات، قد وصلت فيروزشاه يوم إذعان خواجاجهان[8]. غير أن حلفاء المتمرد من سومرا، كانوا لا يزالون طليقين؛ ويوحىٰ إلينا أن السلطان كان شديد الحساسية إزاء كؤوس الذل التي تجرعها ابن عمه في السِّنْد، فصمم على الأخذ بالثأر[9]. كما أنه لم يكن قادراً على البقاء غير آبهٍ لفقدان الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من الفينديا.

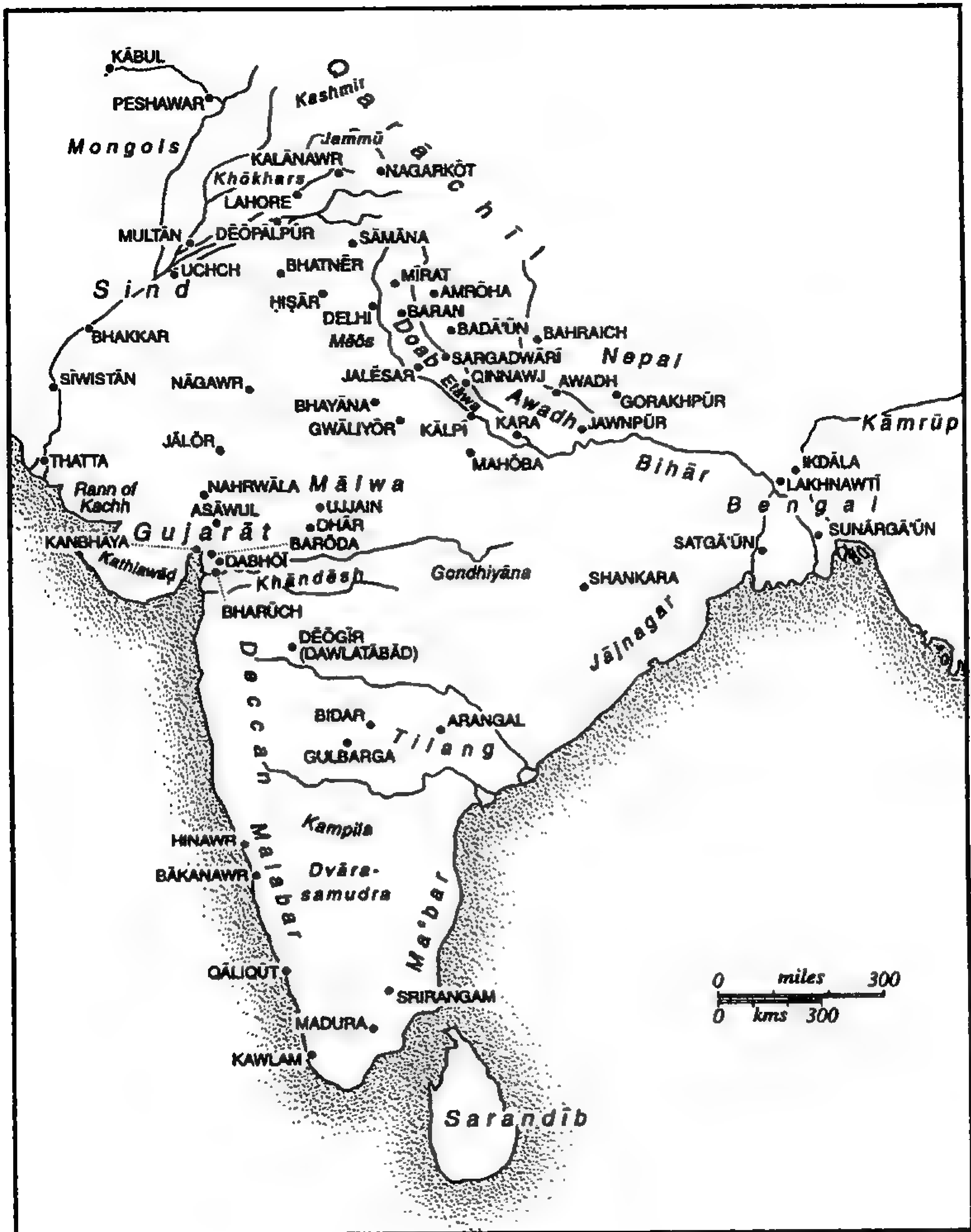
كانت الحقيقة، بالطبع، أن فيروزشاه لم يكن في وضع يمكّنه من استعادة المناطق التي ضاعت أيام حكم سَلَفه. كان لا بد من إيداع المعبر في سلة النسيان. زعم المبعوثون المعبريون الذين قابلوا السلطان غداة عودته من حملته على الثاتّا، أن حاكمهم كان قد هُزم وقتل على يد بوكّا، ملك فيجاياناغارا، وأن المسلمين باتوا في أوضاع عسيرة تبعث على اليأس. حاول فيروزشاه أن يطيل النقاش، كَسْباً للوقت، معلّقاً بفظاظة، أنه حين أرسل إليهم **فَرَماناً** لدى اعتلائه العرش، كان أهالي المعبر قد أخفقوا في الاعتراف بسلطته، وجاؤوا

= عند IB، IV، 78 ـ 79 (تر. جيب وبكينغهام، 808). عن الجاوتين أي صوماطرا وجاوا بالذات (وتسمى مول جاوا أحياناً في المصادر الإسلامية)، انظر المصدر نفسه، IV، 228 ـ 247 (تر. جيب وبكينغهام، 876 ـ 884)؛ بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 755 ـ 758.

(7) عفيف، 399.

(8) SFS، 19، 27 ـ 28، تر. باسو، JBORS 23 [1937م]، 105 ـ 106).

(9) عفيف، 191 ـ 192.



السلطنة في ظل التُغْلُقيين

الآن يتوسلون مستَنْجِدين مساعدته، لأنهم أصبحوا في ضيق شديد؛ كان سيزحف جنوباً بعد أن تنال قواتُه قسطاً من الراحة[10]. وفي مكان آخر، يُقال لنا إن السلطان خرج في رحلة صيد نحو جهات دولت أباد، غير أنه ما لبث أن تحول راجعاً إلى بهايانا، حرصاً منه على «مصالح المملكة»، واضطلع برئاسة حملة قادها إلى تاغاركوت، بدلاً من المعبر[11]. وفي أثناء هجومه الثاني على ثاتا، بعث بهرم خان مازنداراني، صهر حسن غانغو، في سياق صراع مع ابن الأخير، رسالة إلى فيروزشاه داعياً إياه إلى الجنوب لوضع اليد على دولت أباد؛ غير أن السلطان، الذي كان عاكفاً على إعادة تنظيم جيشه في گوجرات، قرر إعطاء الأولوية لثاتا، مما أدى إلى إضاعة الفرصة[12]. وفيما بعد، أعلن فيروزشاه عن اعتزامه الزحف على دولت أباد، أي الإطاحة بالبهمانيين، غير أن الوزير خان جهان، سرعان ما أقنعه بالعدول عن خطته، على أساس عدم جواز شن الحرب على مسلمين[13]. ومع ذلك، فإن البهمانيين ربما ظلوا يخشون حدوث هجوم من الشمال، لأن الإدارة الفعالة للوالي ظفرخان (الثاني) في گجرات (أواخر سبعينيات القرن الرابع عشر) أحدثت، برأي عفيف، ذعراً (لارزا) في دولت أباد[14].

قلما كانت تلك المشروعات العسكرية التي أقدم عليها فيروزشاه، مثار إعجاب أو إطراء لدى المؤرخين المُحْدَثين. فالدكتور بَنَرْجي يعتبره «بعيداً حتى عن أن يكون قائداً عسكرياً متوسطاً»؛ وبالنسبة للبروفسور ساكسينا «لم يكن من

(10) المصدر نفسه، 261 ـ 263. هوديفالا، **دراسات**، I، 326 ـ 327، يرى أن الحاكم الميت، ويعتبر أحد أقرباء حسن غانغو، كان هو فخر الدين مبارك شاه، سلطان المعبر ما قبل الأخير. وعن حكام المعبر خلال هذه الفترة، انظر س. عبد القادر حسيني، «سلطنة مادورا»، في HN، 1023 ـ 1025.

(11) عفيف، 185 ـ 186.

(12) المصدر نفسه، 224 ـ 225. انظر هوديفالا، **دراسات**، I، 322، عن التسلسل التاريخي.

(13) عفيف، 263 ـ 266.

(14) عفيف، 499.

طينَةِ الفاتحين»؛ أما البروفسور رياض الإسلام، فيعلن «أنه كان معدوم الكفاءة، كلياً، كجنرال (كقائد عسكري)»[15]. وثمة وفرة من الشواهد المؤيدة لوجهات النظر هذه، في عمليات السلطان في البنغال[16]. ففي سنة 754 هـ / 1353م، جرى حشد جيوش كبيرة ضد شمس الدين إلياس شاه، الذي كان قد اعتدى على أراضي سلطان دلهي، وفي 760 هـ / 1359م ضد ابنه وخلفه سيكاندر (اسكندر). وفي الغزوين كليهما، تمكنت قوات دلهي من إجبار العدو على الاختباء في قلعة إيكدالا الجزيرية[17]، غير أنها ما لبثت أن تخلت عن الحَمْلة. في المرة الأولى، نجح فيروزشاه في إلحاق الهزيمة بقوات إلياس في معركة التحام عنيفة، وفي احتلال بلدة إيكدالا، غير أنه ما لبث، تحت تأثير عويل النساء المسلمات في القلعة، أن رفض نصيحة جنرالاته القاضية باقتحامها[18]. أما في الحَمْلة على سيكاندر، فقد تمت رشوة فيروزشاه واستمالته بالهدايا، وقبل بالصلح، شرط تنصيب عميله ظفرخان حاكماً لسونارغاوون؛ غير أن القصة ما لبثت أن انقلبت إلى مسرحية هزلية، حين فضَّل ظفرخان، إدراكاً منه لافتقاره إلى أية قاعدة نفوذ حقيقية في سونارغاوون، أن يعود مع السلطان إلى دلهي، بدلاً من تولي المنصب[19]. وفي أثناء انسحاب جيش دلهي عبر جاجنَغَر، أضاع طريقه، ولم يتمكن السلطان من الاجتماع بأمتعته الثقيلة في قارا، إلاّ بعد ستة أشهر[20]. غداة كل حملة، كان حاكم البنغال يرسل أعداداً

(15) بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 28؛ انظر أيضاً 26، 32 ـ 33. ساكسينا، في HN، 582. رياض الإسلام، فيروزشاه تُغلُق، Enc. Isl², II، 924.

(16) حملات فيروزشاه البنغالية، انظر بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 28 ـ 36 وHN 582 ـ 585، 589 ـ 591.

(17) عن موقع إيكدالا، وهي الآن قرية في منطقة دناجبور وعلى مسافة 23 ميلاً إلى الشمال من باندوا، و42 ميلاً إلى الشمال من لخناوتي، انظر هوديفالا، **دراسات**، I، 311 ـ 312.

(18) عفيف، 118 ـ 119.

(19) عفيف، 156 ـ 158، 162.

(20) عفيف، 172 ـ 173. ساكسينا (في HN، 593) بغض النظر عن هذه القصة غير الموجودة في أي مصدر آخر).

من الفيلة وهدايا أخرى إلى فيروزشاه، ويزعم عفيف، أن السلطان بقي على علاقات ودية مع سيكاندر، متبادلاً معه الهدايا سنوياً، إلى أن قضى نَحْبَه[21].

أمّا ضد دلتا الإندوس، الذي بات خاضعاً لاثنين من أمراء السمّا هما علاء الدين جاونا الذي، كان يحمل لقب **جام**، وابن أخيه بانبهينا، فلم يتحرك السلطان حتى حوالي سنة 767 هـ / 1365 ـ 1366م[22]. كان فسادُهما قد دام، حسب ما جاء في **السيرة**، جيلاً كاملاً[23]. فمراسلات ابن مهرو تبين أن بانبهينا كان قد أغار على گجرات، كما هاجم البنجاب بمعونة مغولية، ربما في أثناء غياب فيروزشاه الثاني في البنغال. كانت الحكومة عاكفة على تعزيز مواقع أمير سومرا، هامّيردودا، الذي كان بالمثل مهدداً من السمّا[24]. يحلو لِكتاب **السيرة**، الذي جرى تأليفه بعد سنوات قليلة فقط، أن يقنعنا بأن جاما وابن أخيه أُجبرا على السعي إلى السلم، وكان فيروزشاه سخياً في الشروط معهما، غير أن كُتّاباً آخرين، يُبْدون قَدْراً أقل من التفاؤل والثقة. ففي رواية عفيف، التي تتكرر لهجتها لدى سرهندي، كانت عمليات فيروزشاه فاشلة. ثمة وباء كان قد أجهز على ثلاثة أرباع فرسانها، كما تسببت أسعار الحبوب المرتفعة بحصول مجاعة في صفوف القوات، مما اضطره، بعد بضعة أسابيع من المناوشات، للانسحاب إلى داخل گجرات، لإعادة تنظيم صفوف جيشه. وفي أثناء عملية

(21) عفيف، TMS161 .، 126، TFS128 .، 597، أيضاً يشير باقتضاب إلى هدايا من إلياس.

(22) عن العمليات في دلتا الإندوس، انظر عموماً بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 36 ـ 40؛ HN، 595 ـ 599. تتم مناقشة التاريخ في هوديڤالا، **دراسات**، 322، على أساس البيان الوارد في عفيف، 191، والذي يقول إن أربع سنوات كاملة كانت قد انقضت على عودة فيروزشاه من جاجتاغار (بتاريخ 762 هـ / 1361م في TMS، 130).

(23) SFS، 84.

(24) IM، 100 ـ 103، 230 ـ 235؛ تر. في رياض الإسلام، «صعود السّاما»، 361 ـ 362. ن. ب. راي، «أضواء جانبية مثيرة على حملة فيروزشاه تُغلَق على تاتّا»، JASB، **رسائل**، السلسلة الثالثة، 4 (1936م)، 285 ـ 292، تقدم أولى هذه الرسائل كاملة، غير أن اسم هامّير دودا ملتبس بما يفضي إلى قيام الترجمة باختزال أي ذكر له: انظر المصدر نفسه، 286 هـ. 2، عن تاريخ هذه الرسالة.

الانسحاب، وقع الأسطول كله بأيدي العدو، وقام المرشدون والأدلاّء بإدخال جيش دلهي في بادية ران كاتش المِلْحية، التي عانت منها القوات كثيراً، بدلاً من متابعة الطريق إلى گوجرات. وحين وصل فيروزشاه إلى گوجرات، أخيراً، جرى طرد واليها لإخفاقه في توفير التجهيزات اللازمة لجيش جديد[25]. غير أن السلطان نجح، مع مرور الزمن، في العودة إلى السند، ووقّت وصوله بما يتناسب مع وضع اليد على المحصول الذي كانت قوات السمّا قد عوّلت عليه. ومع ذلك، فإن هذه القوات بذلت مقاومة يائسة، ولم يتم تجنب صراع طويل، إلاّ بفضل تدخل الرجل الصالح المحلي جلال الدين بخاري، ذلك التدخل الذي جاء في الوقت الملائم بالنسبة إلى قوات دلهي، كما بالنسبة للسمّا. استسلم جام وبانبهينا فأخذهما السلطان معه لإبقائهما في بلاطه، تاركاً ابن جام وشقيق بانبهينا تاماتشي، شريكين في الحكم، لتمثيل مصالحه[26]. ولكن المشكلات استمرت في هذه البقاع، وتعين على فيروزشاه لاحقاً، أن يوفد جاماً لقمع عصيان قاده تاماتشي. يبدو أيضاً أن السمّا ما لبثوا أن سحقوا أمير السومرا، هاميّردودا، الذي نصادفه منفيّاً في گوجرات قبل انتهاء عهد فيروزشاه[27].

لم تكن انتصارات فيروزشاه العسكرية على القوى الهندوسية هي الأخرى على مستوى يكفي لتبييض صفحته، وتحسين سمعته. يقول عفيف في إحدى فقراته المشحونة مديحاً، إن أهل دار الحرب كانوا يتعرضون، سنوياً، لعمليات

---

(25) SFS، 86 ـ 87. عفيف، 200، 201، 207 ـ 208، عن الوباء والمجاعة؛ 203 ـ 205، 220، عن قرار إعادة تأهيل الجيش في گوجرات؛ 207 عن فقدان الأسطول؛ 208 ـ 219، عن الران؛ 219 ـ 220 عن طرد الوالي: TMS، 131. بيهامادحاني، ملف 410 ب (تر. زكي، 9).

(26) رياض الإسلام، «صعود السامّا»، 377 ـ 379، مورداً طبعتين عن موعظة القديس (الولي)، **ملفوظاتي مخدومي جاهنيان وسراج الهداية**.

(27) عفيف، 254. رياض الإسلام، «صعود السامّا»، 380. منقوش يعود إلى 784 هـ / 1382م في مسجد فاتح، بَرَنريج، منطقة ساباركانثا، في ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية، من گوجرات»، 21 ـ 22.

الإغارة والسلب[28]. كان الهدف، حاله غالباً في الماضي، هو تحصيل الجزية المستحقة المتأخرة. وعلى الطريق إلى البنغال في 754 هـ / 1353م، كان السلطان قد استغل الفرصة لتأكيد سلطته على الزعماء الهندوس، حين وصل إلى أوَذ، ولتحصيل مبالغ الجزية المتأخرة من رايات خارونسا وغوراخبور، الذين بادر الأخيرون منهم، كما يقول سرهندي، إلى تسليم عشرين **لاكاً** (20,000,000) من **التانغات** الفضية[29]. تتجلى الطبيعة المحدودة لأهداف السلطان، في أشكال تعامله مع جاجنَغر (أوريسّا). فبعد شن هجوم قصير على مملكة شانكار (سارانغاره)، التي هرب حاكمها[30]، تقدم ودخل جاجنَغر التي كان رايُها (أميرها ـ ملكها)، فيرابها نوديڤا الثالث، قد توقف عن إرسال الجزية[31]. وحين قام فيروزشاه باقتلاع تمثال (صنم) جاغانّاث، وتحصيل كمية ذات شأن من الغنائم، بما فيها عدد من الفيلة، أرسل الملك الهندوسي عَرْضاً بالاستسلام، فأقدم العاهلان على أداء رقصة مينويت دبلوماسية زعم فيها الراي، أنه تابع السلطان المطيع من البداية، وادعى السلطان أنه لم يدخل البلاد إلاّ لاقتناص الفيلة.

يبدو أن حملة فيروزشاه الأنجح ـ رغم صعوبة اعتبارها انتصاراً[32] ـ

---

(28) عفيف، 180.

(29) TFS، 587 ـ TMS588 ،، 124 ـ 125. عفيف، 111، يكتفي بإعلان أن السلطان أنعم على راي «تشابَرَن» بمظلة (تشاتر): عن جعل هذا الأمير الهندوسي متماهياً مع راي برني غوراخبور، انظر هوديڤالا، دراسات، ا، 311.

(30) TMS، 129. بيهامادخاني، ملف 409 ب ـ 410 أ (تر. زكي، 8)، معتبراً شانكارا «واحدة من مدن جاجنغار العظيمة». تم التعرف على المدينة من قبل هوديڤالا، دراسات، ا، 387، واا، 149، على أساس IM، 30. تقع سارانغاره على بعد 32 ميلاً شمال ـ غرب سامبالبور، عند نقطة 21 درجة / 26 دقيقة شمالاً، 38 درجة / 7 دقائق شرقاً.

(31) هو كذلك حسب **الفتح ـ نامه** المعاد إنتاجه في IM، 28. فكل من SFS، 54 وبعدها (تر. روي، «حملة جاجنغار»، 62، 63 ـ 64، وعفيف، 163، يعلق على ازدهار جاجنغار. عن هوية الراي، انظر هوديڤالا، دراسات، ا، 318. تتم مناقشة الحملة في بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 40 ـ 42. وفي HN، 591 ـ 593.

(32) ر. سي. جوهري، «غزو قروسطي لناغاركوت (1363م)»، JIIH 44 (1966م) 571 ـ 576.

كانت تلك التي استهدفت ناغاركوت. كان الأمير الهندوسي، الذي كان قد استسلم لمحمد بن تُغْلُق سنة 738 هـ / 1337م، قد مات، فبادر ابنه وخَلَفُه إلى التنكر لسيادة دلهي. تحرك السلطان ضده حوالي سنة 766 هـ / 1365م، وأخضع القلعة لحصار دام عدداً من الأشهر. وأخيراً أذعن الراي، والتزم باستئناف تسديد الجزية. تعامل فيروزشاه مع المكان باحترام، وأبدى عزوفاً لافتاً عن تحطيم صنم (تمثال) جوالا موخي تلبيةً لطلبٍ صريحٍ من الراي[33]. بقيت منطقة ناغاركوت خاضعة بعد ذلك، وكانت ستشكل قاعدة مهمة وقيّمة بالنسبة إلى محمد، نجل فيروزشاه، خلال الحرب الأهلية الناشبة في تسعينيات القرن الرابع عشر.

من الواضح أن اقتناء أعداد كبيرة من الفيلة كان أحد الأهداف المرجوة من هذه الحملات. تمت مصادرة سبعة وأربعين (فيلاً) من إلياس، وقام سيكاندر بتقديم أربعين، كما جرى الاستيلاء على ثلاثة وثلاثين في جاجنَغر. وحسب كلام ابن مهرو، كان راي جاجنَغر قد توقف عن تزويد السلطان بالفيلة، وقصة هذه الحملة في **السيرة** تعكس الأولوية الممنوحة لوضع اليد على الفيلة[34]. أضف إلى ذلك، أن إقليم البنغال كان غنياً على الصعيد الزراعي ـ يشهد زائر صيني في أربعينيات القرن الرابع عشر بأن عمليات الاستصلاح، كانت قد جعلت مساحات واسعة جديدة من الأراضي في الدلتا، قابلة للحراثة والزراعة[35] ـ وكان إلياس قد شن سنة 1346م غارة مربحة على نيبال[36].

(33) SFS، 82 ـ 83. عفيف، 186 ـ 190. عن التاريخ، انظر هوديفالا، **دراسات**، 1، 322.

(34) IM، SFS28 .، 54، 58، 63 (تر. روي، «حملة جاجنغار»، 61 ـ 62، 65). عفيف، 123، 161، 163، 167، 171؛ قارن أيضاً 172، 175، عن مجموع الفيلة الـ 73 من البنغال وجاجنغار. TFS. 592، 594، يعطي الرقم الإجمالي للفيلة التي أُخذت في الحملة البنغالية الأولى على أنه 44.

(35) و. و. روكهيل، «ملاحظات عن علاقات الصين وتجارتها مع الأرخبيل الشرقي وساحل المحيط الهندي في القرن الرابع عشر»، **تونغ باو** 16 (1915م)، 435 ـ 436.

(36) ك. ب. جاياسوال، «منقوش محمدي غير مسجل من نيبال»، JBORS 22 (1936)، ج: 2، 93ـ 95. داني، **منقوشات إسلامية من البنغال**، 129.

كذلك قام فيروزشاه بجلب كميات كبيرة من الفضة التي كان البنغال قادراً على توفيرها بكثرة، والتي كانت ما تزال تعاني من النُدرة في بلاده هو[37]. ربما لم يكن السلطان، الذي يُزعم أنه قال لتتارخان سنة 754 هـ / 1353م إن أسلافه كانوا قد أخضعوا البنغال، ولكنهم أخفقوا في فرض السيطرة عليه، نظراً لطبيعة المنطقة[38]، يرمي إلى ما هو أكثر من إعادة ملء خزانته و**البيلخانه** (حظائر الفيلة).

لم يشارك السلطان، في الأكثرية الساحقة من العمليات التي جرت ضد الهندوس، والتي يتحدث عنها عفيف، ربما لأن هذه العمليات تمت تحت إشراف المُقْطَعين المحليين؛ ولا يتردد سرهندي في كيل المديح لكبار القادة والأمراء في جهات «هندوستان»، لنجاحهم في تأديب «المشركين العصاة» والحفاظ على سلطة دلهي ونفوذها[39]. غير أن الأوضاع ربما شهدت تدهوراً خلال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حكم السلطان، حين أقلع، كما يُفترض، عن ممارسة النشاط العسكري، غير أننا لا نلبث أن نراه، فجأة، مضطلعاً، شخصياً، بقيادة حملة في كاتيهر وإيتاوا بهدف تأمين الجزية؛ وحاذياً حذو فيروزشاه نفسه، يقوم عفيف بإضفاء ثوب رحلات الصيد على هذه الحملات[40]. ففي 787 هـ / 1385 ـ 1386م أنشأ السلطان قلعة فيروزبور الجديدة في بيولي، على بعد حوالي خمسة عشرة ميلاً عن بداؤون، كجزء من تدبيره الدفاعية في المنطقة[41]. أما في إيتاوا، فقد جرى، خلال حملة تمت في 779 هـ / 1377 ـ 1378م، نَقْلُ **المقدَّمَيْن** (الزعيمين): السومرا وأودهاران إلى

(37) TFS، 597. سيمون ديغبي، «مخزون القطع النقدية دليلاً على استيراد الغالوتا عبر البحر العربي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر»، JRAS (1980م)، 129، 135 ـ 136 هـ. ع.

(38) عفيف، 119.

(39) TMS، 133.

(40) عفيف، 493، 497.

(41) TMS، 135. عن موقع بيولي، انظر هوديفالا، دراسات، ا، 389.

دلهي، كما تم بناء قلعتين في كل من آكهال (تُغْلُق بور الجديدة) وبتلاهي. ثمة قلعة جديدة في فيروزبور (بالقرب من كانار)، ما لبثت أن أصبحت مركز **شقة** جديدة، جامعة بين تُغْلُق بور ورابري، وُضعت بين يدي ملك زاده فيروز (وزير السلطان تُغْلُق شاه الثاني فيما بعد)، ابن تاج الدين ترك: كانت مرشحة لأن تغدو نواة أمارة كالپي[42].

السلطان والطبقة الأرستقراطية

يقوم كل من عفيف وسرهندي بتسليط الضوء على حقيقة أن حقبة فيروزشاه لم تشهد سوى ثورة واحدة (كانت بقيادة أمير مسلم)، ألاَ وهي ثورة شمس الدين دامغاني في 782 هـ / 1380 ـ 1381م، ويصر الأول، صراحة، على إبراز تناقضها مع الفوضى التي سادت عهد محمد بن تُغْلُق[43]. أخفق دامغاني، وهو النائب المعين لإقطاع گجرات في 778 هـ / 1377م، في تحصيل المبالغ الهائلة التي كان قد تعاقد عليها، وأوقف إرسال أية موارد سبق له تحصيلها إلى البلاد، وانتفض في عصيان مكشوف. غير أن تدبيره القمعية التي اتبعها في انتزاع الضرائب عنوة، كانت قد أثارت عداء أولئك، الذين كانت حركته التمردية معتمدة على تأييدهم ودعمهم، أي عداء **أمراء المئين (أميراني صدا)** في گوجرات، الذين ظلوا موالين للسلطان؛ ما لبث هؤلاء أن أغاروا عليه وقتلوه. إضافة إلى هذه الحادثة التي يستخف بها عفيف، واصفاً إياها بالمسرحية الهزلية[44]، يأتي غياب تمرد الأرستقراطية الإسلامية ليؤكد صحة الصورة التي قدمتها مصادرنا عن العهد، بوصفه حقبة تميزت بالقناعة التي عمت صفوف الأرستقراطية[45].

---

(42) بيهامادخاني، ملف 412 ب (تر. زكي، 13 ـ 14). TMS، 133 ـ 134.

(43) عفيف، 492 ـ 493 عن تاريخ العصيان الذي تجري مناقشته في هوديڤالا، دراسات، ا، 388 ـ 389. TMS، 132، يعطي سنة 778 هـ، تاريخاً لتعيين دامغاني.

(44) عفيف، 499 ـ 502.

(45) عفيف، 288، 297 ـ 298.

إلاّ أن هذا الهدوء الاستثنائي، لم يتحقق دون ثمن. ففيروزشاه لم يكن، خلافاً لحال سلفه، متحلّياً بالحرص والاهتمام بتفاصيل الإدارة المالية اليومية[46]، ومنذ البداية تقريباً، ترك تسيير الأمور للوزيرخان جهان، هذا الوزير الجديد الذي برهن على أنه مُرْتَكَز النظام وعماده. ففي أثناء فترات غياب فيروزشاه في الحملات، تعمد زرع الرعب والخوف في قلوب أهالي العاصمة عن طريق عرض العضلات العسكرية، وأخفى، بمهارة، عن المواطنين انقطاع الأخبار عن السلطان، حين تاه جيش دلهي وأضاع طريقه، في أثناء مسيرة العودة من جاجنَغَر، ومرة أخرى، حين وجد فيروز شاه نفسه في بيداء ران الكاتشية[47]. ولكن خان جهان كان، كما كان برني قد أبرز بجلاء، متمتعاً بسلطات، أوسع بكثير، من تلك التي سبق لأي وزير سابق الحصول عليها، ويورد عفيف عن لسان السلطان نفسه، أن خان جهان كان الحاكم الفعلي لدلهي[48]. وحين تصادم الوزير مع عين الملك ابن مهرو، الذي كان يعمل محاسباً عاماً آنذاك (**مشرفي ممالك**)، أصر على فرض رأيه مهدداً بالرحيل إلى مكة. أذعن السلطان، وأجاز لخان جهان استخدام أو استبعاد من يشاء. وهكذا، فإن ابن مهرو فقد وظيفته؛ رغم أنه حين مُنح، بعيد ذلك، إقطاعات مُلْتان وسيويستان وبهكّر، نجح في الحصول على تنازل من فيروز شاه، يقضي بإبقاء الشؤون المالية لهذه الأقاليم، خارج نطاق إدارة الوزير[49].

يبدو أن فيروزشاه كان قد جعل مساحات واسعة جداً من أراضي السلطنة، إقطاعاً، مما أدى إلى تقليص مساحة الخاصة. أضف إلى ذلك، أن الأرستقراطية ككل، باتت الآن متمتعة بقَدْر من الامتيازات أكبر مما في أيام

---

(46) عفيف، 341 ـ 342.

(47) عفيف، 173، 211 ـ 214، 398 ـ 399.

(48) TFS، 578 ـ 579. عفيف، 400؛ قارن أيضاً 411.

(49) عفيف، 408 ـ 414.

محمد بن تُغْلُق. قد نستطيع تفسير كون مرتَّبات الخانات والملوك، الآن، كانت أكبر مما في العهد السابق، باعتباره تدبيراً استهدف حمايتهم من التضخم[50]. ولكن برني كان، حتى في غضون السنوات الست الأولى من حقبة فيروزشاه، قادراً على ملاحظة عدم خضوع الواردات الآتية من الإقطاعات للتدقيق، بالقدر نفسه من الصرامة، كما من قبل؛ ويحدثنا عفيف، تحديداً، عن أن السلطان أقلع عن الممارسات السابقة، باعتماد قيام ولاة الأقاليم، بتقديم هدايا سنوية يجري تقويمها واحتسابها من الضريبة المفروضة على هذه الأقاليم. ثمة أمراء معينون، وخصوصاً **العارض** (الحاجب) عماد الملك بشير، راكموا ثروات طائلة[51].

ومن سياسات السلطان، أيضاً، السماح لوريث أي مير أو مُقْطَع أو موظف، أن يرث وظيفة أبيه مع لقبه أو إقطاعه أو مرتَّباته الأخرى. هذا النمط من الوراثة كان قد تحقق إلى حدود معينة في السابق ـ في القرن الثالث عشر بالتأكيد، حتى وإن جرى التخفيف منه في ظل علاء الدين، حتى أَبطَلَه التُغلُقيان. أما في ظل فيروزشاه، فقد أصبح مبدأ دون أدنى شك. فحين قضى خان جهان (الأول) نحبه، مثلاً، ما لبث منصبه كوزير وعنوانه، قد انتقلا إلى ابنه جاونان، الذي أصبح يعرف منذ ذلك التاريخ باسم خان جهان (الثاني)؛ أما ظفرخان، ذلك الأمير اللاجئ من البنغال، فقد خلفه في إقطاعه گوجرات، ابنُه دارياخان، الذي مُنح بالمثل لقب ظَفَرخان (الثاني)؛ وكذلك فإن مرتبة **العارض** (الحاجب) عماد الملك بشير ولقبه، انتقلا بعد وفاته إلى ابنه إسحاق[52]. يمكن مضاعفة مثل هذه

---

(50) عفيف، 296 ـ 297. حبيب؛ «الاقتصاد الزراعي»، 73.

(51) TFS، 555 ـ 556. عفيف، 268 ـ 269. عن ثروة بشير، انظر المصدر نفسه، 438، 439 ـ 440، 445.

(52) خان جهان، المصدر نفسه، 425 ـ 426. ظفرخان: المصدر نفسه، 286، 499؛ TMS، 131. عماد الملك: عفيف، SFS445.، 153 ـ 154، يقدم لائحة بمثل هذه التعيينات الوراثية، برئاسة خان جهان (الأول).

الأمثلة، وقد اتسعت لتشمل مختلف مستويات الرتب البيروقراطية[53]. حتى في حالات الطوارئ، كما لدى نقله لناصر الملك مردان دولت من الشرق إلى حدود مُلْتان، للتعامل مع الخطر المغولي، لم يهمل فيروزشاه المبدأ الوراثي: ببساطة، تم تخصيص إقطاعي ناصر الملك قارا وماهوبا، لابنه المتبنى سليمان[54]. ثم تبعه ابن ناصر الملك ملك شاه، لفترة وجيزة، في قيادة مُلْتان؛ وبعد موته، نقل سليمان إلى مُلْتان، حيث خلفه، بدوره، ابنُه هو، خضر خان[55].

يشير التلميح إلى نظام المناصب الوراثية في كتاب **فتوحاتي فيروز ـ شاهي**، إلى أن السلطان كان يفاخر به بعض الشيء، كما يعتبره مؤلفُ **السيرة**[56] من حَسَنات السلطان ومآثره. غير أن احتمال تأدية سياسة كهذه، إلى زرع موظفين غير أكفاء وغير مؤهلين لأداء مهماتهم المحددة في الأجهزة الوزارية، **ديواني وزارات**، مثلاً، كان مصدر شكوى شمس الدين أبو رجا، حين كان مراقباً عاماً (**مستوفي ممالك**)[57]. ولدى تطبيقه على الإدارات المناطقية، كان من شأنه الإفضاء، مع مرور الزمن، إلى خلق المصالح الإقليمية المتجذرة والإمارات المستقلة، التي ما لبثت أن برزت في حقبة أحفاد فيروز شاه.

الحرب الأهلية الأولى

يطلعنا اثنان من المؤلِّفين هما: سرهندي وبيهاماندخاني، على أشياء

---

(53) عن مثالين من ديواني وزارات، انظر عفيف، 482.

(54) TMS، 133.

(55) TMS، HN182 .، 632، قد يكون على خطأ في تأكيد كون تعيينات خلفاء ماردان قد بدأت بعد موت فيروزشاه؛ كان خضرخان الذي حصل على لقبه في 791 هـ / 1389م، فيما مضى، حين كان مُقْطَعاً لِمُلْتان، قد حمل هو نفسه لقب ناصر الملك: TMS، 146، 147.

(56) FFS، 18 ت. روي، 463). SFS، 153 ـ 155.

(57) عفيف، 474 ـ 475.

كثيرة عن أحداث الأزمة التي بدأت في سنوات انحطاط عهد فيروز شاه[58]. ولكن السبيل إلى تفسير تلك الأشياء، هو الأكثر مراوغة؛ وهنا نجد عفيفاً يزودنا، عبر سلسلة من الإشارات العابرة، إلى المشكلات في كتابه **تاريخ فيروز شاه**، برؤيا أكثر عمقاً. يبدو أن نشاطات شمس الدين أبو رجا، الذي كان قد عادى جميع الأمراء، والذي جاءت فضيحته عام 786 هـ / 1384م سابقة للأزمة، كانت قد أغرقت الدولة في بحر من الفوضى[59]، ربما لأن الأرستقراطية رأت استقلالها المالي مُعَرَّضاً للخطر. ولا بد أيضاً أن نتذكَّر أن فيرز شاه كان قد أصبح متقدماً، نسبياً، في السن (كان في الثالثة والثمانين من سنواته القمرية حين وافته المنية عام 790 هـ / 1388م) وكان طريح فراش المرض منذ عام 786 هـ / 1384م، كما كان معظم، أو جميع، مجايليه من النبلاء قد سبقوه، كما يقول عفيف، إلى دار الحق[60]. ربما كانت الروابط الجامعة بين السلطان والجيل الجديد من الأمراء، قد تراخت وضعفت. غير أن ما جلب الكارثة، خصوصاً، على الامبراطورية، كان، برأي عفيف، متمثلاً بالتنافس بين الوزير، خان جهان (الثاني) ومحمد بن فيروز شاه[61].

خلال سنوات السلطان الأخيرة، كان الوزير قادراً على ممارسة السلطة الفعلية غير المنقوصة، واستغل الفرصة لإزاحة وإبعاد عدد غير قليل من الأمراء والملوك المعارضين له[62]. شكّلت وفاة حفيد فيروز شاه، فاتح خان عام

---

(58) عما يلي، انظر عموماً HN، 618 ـ 622؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 441 ـ 450.

(59) عفيف، 455 ـ 456، 457، 459، 492، 498.

(60) عفيف، 444 ـ 445، 497 (حيث يقال إن الأكثرية ماتت في 781 هـ / 1379 ـ 1380م) 498. للاطلاع على لائحة أسماء كبار الأمراء الذين قضوا قبل 772 هـ / 1370 ـ 1371م، بمن فيهم خوداواند خان وداودخان بن بايَو، وابن مهرو واختيار الدين نوا، انظر SFS، 154 .

(61) عفيف، 427.

(62) TMS، 135 ـ 136.

778هـ / 1376م، ضربة موجعة بالنسبة إليه[63]. ويزعم بيهاماندخاني أنه اختار لوراثته ابن حفيده، ابن فاتح خان، تُغْلُق شاه (انظر الملحق رقم: 6)[64]. وحين حاول الوزير في 788 هـ / 1387م، أن يوغر صدر السلطان الدُّمية ضد ابنه الباقي الوحيد، الأمير محمد، نشأت أزمة؛ اضطر لأن يلوذ بالفرار، ولكنه ما لبث أن قُتل في إقليم ميو. ومن أولئك الذين أُعدموا من أتباع الوزير، بعد الإطاحة به، ملكُ بهزادي فاتح خاني، وربما مملوك سابق لدى الأمير فاتح خان[65]، كما قد نكون بصدد التعامل، ببساطة، مع جماعتين كانتا قد تحالفتا حول كل من محمد من جهة، وذرية شقيقه الأكبر، من جهة ثانية. جرى تعيين محمد وزيراً، ثم أُجلس على العرش كسلطان شريك في شعبان 789 هـ / آب 1387 م. وفي هذه المرحلة، يقال لنا، كان متمتعاً بتعاطف ليس فقط الأمراء وأهالي العاصمة، بل ومماليك فيروز شاه[66]. ربما التحقت هذه الجماعة بِرَكْبِه كُرهاً للوزير، لأن المماليك الرئيسيين كانوا قد شعروا بالخطر، كما قيل، في تاريخ سابق، جراء تزايد نفوذ خان جهان الأول[67]. إلاَّ أن المماليك ما لبثوا أن انقلبوا، بعد خمسة أشهر، على محمد، حسب رواية سرهندي، بسبب كرههم لبعض المقرَّبين، مثل سماء الدين (الملقب بمعين الملك الآن)، وكمال الدين (دستور خان) نجلي ملك عمر، الـ **عارضي ياندا‌غاني خاص**؛ وإن عفيفاً يعزو تغير الولاء، بغموض، إلى المبالغ الهائلة التي تركها **عارض** السلطان القديم ملك بشير عماد الملك[68].

ما لبث محمد، هو الآخر، أن طُرد من العاصمة فانسحب إلى

(63) عفيف، 494.

(64) بيهاماندخاني، ملف 414 أ (تر. زكي، 16).

(65) TMS، 137.

(66) TMS، 136 ـ 137.

(67) عفيف، 415.

(68) TMS، 139. عفيف، 400.

نغاركوت، وبات السلطان القديم معتَرَفاً به كحاكم شريك باسم تُغْلُق شاه، الذي جرى تنصيبه تحت لقب السلطان غياث الدين لدى وفاة فيروز شاه في الثالث عشر من رمضان 790 هـ / العشرين من أيلول 1388 م. إلاً أن تُغْلُق شاه ووزيره ملك زاده فيروز (فيروز خان) بن تاج الدين ترك (جد حكام كالبي اللاحقين)، قُتلا، يوم 21 صفر 791 هـ / 20 شباط 1389م، في انتفاضة قادها **نائب الوزير** ركن الدين جوندا، الذي نَصَّب أبا بكر شاه، أحد أحفاد فيروز شاه، على العرش. تم ترفيع جوندا إلى مرتبة وزير، غير أنه ما لبث أن سارع إلى التآمرلإزاحة أبي بكر أيضاً، ربما معلناً حفيداً آخر من أحفاد فيروز شاه، يدعى فيروز شاه بن ظَفَر حاكماً، ولكنه قُتل[69]. خلال العامين التاليين، قام محمد، الذي اتخذ مقراً له في سامانا أولاً، وفي جاليسار بإقليم الدواب بعد ذلك، بإرسال قوات لنهب وتخريب المناطق المحيطة بدلهي، كما بادر شخصياً إلى بذل ثلاث محاولات غير موفقة، لاحتلال العاصمة.

كان الوضعُ، كما لاحظ سر هندي، وضعَ استنقاع وجمود، لتعذُّر خلع أبي بكر، الذي بقي عاجزاً، حتى بعد الانتصار، عن مغادرة العاصمة لمطاردة عدوه؛ وفي الجهة المقابلة، كان يقف في صف محمد «جميع الأمراء والملوك والقوات (الحشم) والخدم مع رعية الامبراطورية»[70]. كانت قوة أبي بكر تكمن في حيازته للعاصمة، ولمجموعات الفيلة، كما في ولاء مماليك جدّه[71]. إن محمداً، الذي اعتبر هؤلاء العقبةَ الرئيسية على طريق نجاحه، أوعز إلى أنصاره في الأقاليم، أن يبادروا إلى اعتقال وقتل جميع مماليك السلطان القديم في

---

(69) «ملاحظة حول قطعة نقدية ذهبية تحمل اسم الأمير فيروزشاه ظفر، ابن فيروزشاه من دلهي»، JASB 40 (1871م)، 160. توماس، 300، غير أن المؤلفين، كليهما، يخطئان إذ يفترضان أن الأمير الذي ورد اسمه هو ابن السلطان العجوز ظفر وأن هذه الولادة الحاصلة سنة 791 هـ كانت بالتالي بعد موته. قارن أيضاً CMSD، 191 ـ 194 أ (رقم: 771 ـ 779 آ)، 223 ـ 224.

(70) TMS، 148.

(71) TMS، 146. بيهامادخاني، ملف 421 ب، 422 أ (تر. زكي، 30، 31).

التاسع عشر من رمضان 791 هـ / الحادي عشر من أيلول سنة 1389م[72]. يشكّل هذا الإعدام الجماعي، شاهداً على وجود تأييد واسع لمحمد بين صفوف الطبقة العسكرية، خارج مجمع دلهي. كان تُغْلُق خان قد نفى غالب خان، ابن وخلف ملك مقبول «قران خان»، وحرمه من سامانا؛ غير أن من عيَّنه مُقْطَعاً قُتل في صفر 791 هـ / شباط 1339م، على أيدي أمراء المئين **الأميران صدا** في تلك المنطقة، الذين قاموا بدعوة محمد، واستعادة غالب خان[73]. ومن القادة الذين التحقوا مع قواتهم بركب محمد، دعماً لهجماته المختلفة على دلهي، مُقْطَعا مُلْتان وبيهار، نجلا حاكمي قِنَّوج وأوَدْ، وزعماء المئين والبهاتي الذين كانوا يملكون إقطاعات في البنجاب الشرقي، و**مقدمون** من المرتفعات (سفوح جبال قراشيل ربما)، وعدد من الرايات والرانات من إيتاوا[74]. أما تأييد أبي بكر، فلم يكن موجوداً إلاّ في آلوار، حيث كان بوسعه التعويل على زعيم الميو بهادور ناهير[75]. وفي گوجرات كان النائب، المملوك الفيروز شاهي المعروف باسم ملك مفرّج سلطاني، قد أقدم سنة 789 هـ / 1387م على قتل سيكاندر خان، الواصل حديثاً بوصفه والياً عن محمد، وكان قد تم الاعتراف به من قبل تُغْلُق شاه والياً تحت اسم رشتي خان؛ غير أننا لا نعلم ما إذا كان قد حَوَّل ولاءه إلى أبي بكر[76].

ليس واضحاً لماذا حصل، في رمضان 792 هـ / 1390م، انشقاق في صفوف المماليك، وبادرت مجموعة منهم، برئاسة إسلام خان مبشري تشاب

---

(72) TMS، 146؛ عن المذبحة، انظر، 147.

(73) TMS، 140، 145؛ عن غالب خان المستعاد في سامانا، المصدر نفسه، 147، 156. ونَسَبَهُ وارد في بيهامادخاني، ملف 431 ب (تر. زكي، 45).

(74) TMS، 145، 146 ـ 147.

(75) TMS، 146، 149، 151؛ كان أيضاً قد دعم تُغلُق شاه (المصدر نفسه، 142). بيهامادخاني، ملف 423 أ، 426 (تر. زكي، 32، 35).

(76) TMS، 138؛ أيضاً 142 عن اعتراف تُغلُق شاه.

سلطاني، إلى دعوة محمد. قد تساعد حقيقة وجود مماليك فيروز شاهين ـ مثل ملك سروار، **شحنة** دلهي، الذي كان محمد قد استوزره منعماً عليه بلقب خواجا جهان، والذي يظهر، باستمرار، على أنه تابعه الوفي ـ في حزب الأمير الخاص[77]، على تفسير استعداد مماليك معينين في معسكر أبي بكر، لتمكينه من الاستيلاء على العاصمة. أضف إلى ذلك، أن بيهامادخاني يقول إن ملك شاهين سلطاني، الملقب بعماد الملك، القائد السابق **لبيلخانة** فيروز شاه، كان قد طُرد من المدينة من قِبَل الأمراء المسؤولين عن مبادرات انفتاح على محمد[78]، موحياً بأن الانقلاب في الولاء، ربما جاء مرتبطاً بالتنافس بين إسلام خان وعماد الملك. غير أن محمداً، وقد أصبح ممسكاً بزمام فرقة الفيالة (راكبي الفيلة)، وموفراً، ربما، ضمانة لحليفه الجديد إسلام خان. كان قد أمر بطرد جميع المماليك من دلهي أو إعدامهم[79]. سارع خواجا جهان ساروار، الذي كان إسلام خان قد خلفه وزيراً، سنة 794 هـ / 1392م، إلى سوق جملة من الاتهامات ضد منافسه وغريمه؛ وقد تم إعدام إسلام خان، رغم خدماته الكثيرة في الاشتباك الأخير مع أبي بكر[80]. ثمة نُتَفُ أنباءٍ بقيت تتردد بين الحين والآخر، بعد ذلك التاريخ، عن مماليك فيروز شاهيين[81]؛ إلاّ أن جلوس محمد على العرش، يشكل منعطف تدمير هذا العنصر سريع التقلب، كقوة قادرة على تنصيب السلاطين وعزلهم.

---

(77) TMS، 146، 147، 152 ـ 153. بيهامادخاني، ملف 421 ب (تر. زكي، 30). عفيف، 338، يقول إنه كان مسؤولاً عن مستودع مجوهرات فيروزشاه **(جواهر ـ خانه)**.

(78) TMS، 148، 149 ـ 150. بيهامادخاني، ملف 421 أ، 423 أ (تر. زكي، 29، 32). عن شاهين، انظر أيضاً عفيف، 338.

(79) TMS، 149 ـ 150، بيهامادخاني، ملف 425 ب، قائلاً إن السلطان **عهدو بايمان با ـ تا جديد دار آورد**، مع إسلام خان (تر. زكي، 34).

(80) TMS، 152 ـ 153. بيهامادخاني، ملف 430 ب (تر. زكي، 44)، يروي قصة أكثر إيجازاً عن المؤامرة ولكنه لا يأتي على ذكر دور الخواجاجهان.

(81) TMS، 160. يزدي، ZN، تحقيق إلاهداد، II، 64 / تحقيق أورونبايف، ملف 310 أ، يبدو، مع ذلك، عاطفاً العبارة (خطأ) على مالو إقبال خان وأصحابه.

برأي بيهامادخاني، جاء انتصار محمد بالسلم والهدوء[82]. أما أبو بكر المطرود من دلهي، فقد هرب إلى آلوار حيث هزمته قوات عمه في محرم من العام التالي / كانون أول 1390 م؛ وما لبث أن مات بعيد ذلك، وهو سجين في آمروها. سارع السلطان أيضاً إلى استعادة سلطته ونفوذه في گوجرات، حيث تم، في صفر 794 هـ / كانون الثاني 1392م، إلحاقُ الهزيمة بالخصم مفرّج (رشتي خان) وقَتْلِه من قِبَل عامل محمد، ظفر خان وجيه الملك[83]. غير أن مديح بيهامادخاني لا ينطبق إلاّ على العاصمة والمناطق الأبعد غرباً، لأن السلطان اضطر لقضاء باقي عهده، وهو يحارب الزعماء الهندوس في آلوار والدواب.

فقدان الأرض لصالح الكفار

يقول سر هندي «جراء الصراع بين المسلمين على السلطة، بات كفار هندوستان أكثر قوة، وعزفوا عن دفع الجزية والخراج وقاموا بنهب البلدات **(القصبات)** الإسلامية[84]. وكما رأينا، فإن السنوات الأخيرة للسلطان العجوز، لم تكن خالية من الاضطرابات، غير أن الأمراء الهندوس بادروا، على ما يبدو، إلى تأكيد ذواتهم بقَدْر أكبر من التصميم والحسم، غداة طرد محمد من دلهي عام 789 هـ / 1387 م. ثمة مؤشرات دالة على وجود صراع مع الهندوس المحليين حوالي نغوار في ذلك العام كما في 791 هـ / 1389م مرة أخرى، حين قُتل نائب **شقة** نغوار وجالور[85]. إن ما لدينا من معلومات عن الأوضاع في المناطق الجنوبية من الدواب، كما في إيتاوا مثلاً، والمناطق الواقعة إلى

---

(82) بيهامادخاني، ملف 424 ب (تر. زكي، 33).

(83) هاراوي، III، 83، 84 ـ 85. ميسرا، 141 ـ 142، مستشهداً بـ **طبقاتي ـ محمود شاه ومرآتي سيكانداري**، لعرض الأحداث التاريخية في گوجرات خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على التوالي.

(84) TMS، 147.

(85) ARIE (1975 ـ 1976م)، 163 (د 188). ARIE (1969 ـ 1970م)، 93، (د 167).

الجنوب من اليمونه، التي لن تلبث، فيما بعد، أن تشكّل إمارة كالبي المستقلة، أوْفَى وأكمل. ففي إيتاوا، عاد أودّهاران وسومرا، اللذان كانا قد دعما محمداً، إلى البلاد، وقادا حركة تمرد في أعقاب اعتلاء تُغْلُق شاه العرش، وألحقا هزيمة كبرى بملك محمود، الذي كان حاكماً لشقة فيروزبور، خلفاً لأبيه، الوزير فيروز خان بن تاج الدين تِرك. جرى تسليم تُغْلُق بور إلى العدو، في حين سقطت بلدات تشانداوار وبهونغاؤون، وريوا، مع غيرها بأيدي الأمراء الهندوس. آنياً، كان ملك محمود قادراً على فعل ما هو أكثر من احتلال كالبي، التي أعاد تسميتها مطلِقاً عليها اسم محمد آباد، عام 792 هـ / 1390م، وجعلها مقر قيادة له[86].

في 794 هـ / 1391 ـ 1392م، نزل محمد إلى الساحة لمحاربة العدو في إيتاوا، حيث كان أودهاران وسومرا قد استباحا بالارم. وبعد قيامه بمسح إيتاوا عن وجه الأرض، عاد محمد، عبر الغانج، وقام بتأديب هندوس قِنّوج ودالماو، بانياً قلعةً في جاليسار، التي أعاد تسميتها: محمد آباد. وفي آلوار، استمر بهادورناهير الذي كان، باطراد، في صف خصوم محمد شاه في تحدّي الأخير، فتوجب طرده من كوتلا؛ أما في الغرب، فقد ثار زعيم الخوخار: شايخا ونهب لاهور في 796 هـ / 1394م، وكانت حملة تأديبية قيد الإعداد، بقيادة ابن محمد شاه، همايون خان، حين قضى السلطان نحبه[87].

الحرب الأهلية الثانية

لم يدم استمتاع محمد بالعرش، الذي كان قد خاض في سبيله مثل هذا النضال العنيد والحاسم، طويلاً، لأنه تُوُفي في السابع عشر من ربيع الأول

(86) هذه الأحداث موصوفة فقط من قبل بيهامادخاني، ملف 418 ب ـ 419 ب.

(87) TMS، 154.

سنة 796 هـ/ العشرين من كانون الثاني 1394م[88]. أما همايون خان، الذي خلفه باسم علاء الدين سيكاندر شاه، فما لبث أن تبعه سريعاً إلى القَبْر، في الخامس من جمادى الأولى / الثامن من آذار، ليتم إعلان نجل أصغر سلطاناً باسم ناصر الدين محمود شاه. كان العاهل الجديد سيثبت أنه أكثر من مجرَّد صِفْر أو رمز أجوف. ثمة ما يوحي بأن تنصيبه لم يحظ إلاً بقدر قليل من التأييد والدعم، لأن الوزير خواجا جهان سروار كان قد اضطر لإقناع الأمراء الذين كانت أقاليمهم واقعة إلى جهة الغرب، مثل غالب خان الساماني والراي كمال الدين مائين، بعدم مغادرة دلهي، قبل الالتزام بالولاء[89]. غير أن الخواجا جهان أُرسل في رجب 796 هـ / 1394م، على رأس جيش نحو الشرق، مع عشرين فيلاً ولقب سلطان الشرق، مؤتمناً على الأقاليم الممتدة «من قِنَّوج إلى بيهار»، ليتمكن من تطهير المنطقة من الزعماء الهندوس العصاة والمتمرِّدين[90]. أقام مقر قيادته في جاوبور، ولم يعد إلى دلهي قط مرة أخرى. كانت السلطة في القصر، موضوع صراع بين عدد من أمراء الحرب، وخصوصاً محمد (تترخان)، ابن وجيه الملك ظَفَرخان والي گوجرات، ومجموعة يعتبرها بيهاماندخاني مماليك محمد شاه الأكثر أهمية **باندغاني كبيار**، ولا سيما مقرب المُلْك (المعروف بمقرَّب خان)، وعبد الرشيد سلطاني (الملقب بسعادات خان)، ومالّو (إقبال خان لاحقاً). تمَّت الإطاحة بسعادات خان عن طريق مؤامرة تواطأ معها مالّو، فلاذ بالفرار ولجأ إلى تترخان. وكان حِزْبُ تترخان، بعد فقدان السيطرة على السلطان، قد بادر في

(88) عن الحرب الأهلية الثانية، انظر عموماً HN، 623 ـ 625؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 452 ـ 60. لال، **غروب شمس**. . . 8 ـ 12.

(89) TMS، 156.

(90) المصدر نفسه، 156، 157. يجري تعقب حياته العملية في ميان محمد سعيد، **سلطنة جاونبور الشرقية** (كراتشي، 1972م) 20 ـ 35.

محرم 797 هـ / تشرين أول 1394م، إلى تنصيب ناصر الدين نُصْرت شاه، أحد أشقاء تُغْلُق شاه الثاني الأصغر سناً، سلطاناً[91].

مرة أخرى، برز على الساحة سلطانان متنافسان، لكل منهما عاصمته ومؤسسته العسكرية، وكلٌ منهما دُمْيَةٌ بأيدي مجموعة قوية من النبلاء. دام هذا الوضع ثلاثة أعوام، مع بقاء القتال بين الجانبين أمراً شبه يومي. لم يكن فريق محمود شاه يسيطر، برأي سر هندي، إلاّ على دلهي القديمة وسيري. أما في فيروز آباد، فإن نُصرت شاه وتترخان كانا متمتعين بولاء الدواب، جنباً إلى جنب، مع ولاء كل من سونبات وبانبيات وجهايهار وروهتاك[92]. إن من شأن حذف اسم أي من أقاليم السلطان الأخرى أن يسلط الضوء على مدى ضآلة تأثير الأحداث الجارية في المركز، علاوة على المناطق والولايات الرئيسية، على الرغم من أن القطع النقدية والمنقوشات، ظلّت تشي بنوع من الولاء الاسمي: فمحمود شاه كان معترفاً به في الأقاليم الخاضعة لسيطرة خواجا جهان، في حين كان ظفرخان في گوجرات موالياً لنُصْرت شاه[93].

لدى سرده لقصة غزو تيمور بعد بضع سنوات، كان المؤرخ التيموري شرف الدين يزدي، متوهماً أن مالوا وأخاه سارانغ خان كانا، منذ تولي محمود شاه لمنصب ولاية دَيْبلْپور، السيدين والحاكمين الفعليين لإمبراطوريته[94]؛

---

(91) المصدر نفسه، 158 ـ 159، بيهاماندخاني، ملف 432 ب ـ 433 أ (تر. زكي، 47 ـ 48)، وحده يشير إلى مالّو والآخرين بوصفهم مماليك لمحمد شاه؛ إنه لا يأتي على ذكر المؤامرة ضد سعادات خان، ويزيد من إبراز دور تترخان مقارنة مع سرهندي على هذا الصعيد. يبدو أن لقب نصر الدين هو شمس الدين في المنقوش العائد إلى سنة 797 هـ / 1395 م: ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 37 ـ 38.

(92) TMS، 159 ـ 161. بيهامادخاني. ملف 433 (تر. زكي، 48).

(93) ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 34 ـ 38. سيد يوسف كمال بخاري، «منقوشات من مانير»، EIAPS (1951 ـ 1952م)، 15 ـ 16.

(94) يزدي، ZN، تحقيق الأهداد II، 14 ـ 15 / تحقيق أورونبايف، ملف 296 أ (مكرر في 301 أ). عن تعيين سارانغ خان، انظر TMS، 156.

وقد بيَّنَ البروفسور هامبلي كيف أن الشراكة المطلوبة للسيطرة على السلطنة كانت هدفاً لقاعدتين متمايزتين، هما قاعدة سارانغ خان في البنجاب من جهة، وقاعدة مالّو إقبال خان في دلهي(95). فمن ديالبور، كان سارانغ خان قد أطلق سنة 798 هـ / 1395 ـ 1396م مسعى دؤوباً لإخضاع الأقاليم المجاورة لسيطرته وتحكُّمه هو (وسيطرة محمود شاه، بصورة غير مباشرة، بالتالي). تم إلحاق الهزيمة بشَيْخا، واحتُلت لاهور من جديد(96). بل وبقي سارانغ خان واضعاً يده على مُلْتان، لبعض الوقت؛ فالمُقْطَع: خضرخان أُسر، ولكنه ما لبث أن لاذ بالفرار، لاحقاً. أما حين شن سارانغ خان هجومه على سامانا، فقد بادر غالب خان إلى التماس معونة تترخان الذي نجح، في محرم 800 هـ / تشرين الأول / أكتوبر 1397م، في إلحاق الهزيمة بسارانغ خان، وإعادته مطروداً إلى مُلْتان، معيداً تنصيب صنيعته في سامانا(97). وفي ذي القعدة / تشرين الأول / أكتوبر ـ تشرين الثاني / نوفمبر 1398م تحرك مالّو، الذي كان في هذه الأثناء قد والىٰ نصرت شاه مؤقتاً، لا لشيء، إلاّ ليضع يده على فيَلَتِهِ، وكان بعد ذلك قد تولى قيادة المجموعة المنافسة، عبر الإجهاز على مقرّب خان، ضد قاعدة تترخان في بانيبات، التي تمكن من احتلالها. أما تترخان، الذي أضعفه تخلي كبار مؤيديه عنه، فلاذ بأبيه في گوجرات(98). وهكذا، فإن مالّو إقبال خان بقي مسيطراً دون منازع، على العاصمتين كلتيهما: دلهي وفيروز آباد،

---

(95) غافين ر. ج. هامبلي «غروب شمس دلهي التُغلُقية»، في فريكنبرغ (محرراً)، **دلهي عبر العصور**، 47 ـ 56.

(96) TMS، 157 ـ 158.

(97) المصدر نفسه، 161 ـ 162. لا يرد ذكر أسر خضر خان إلاّ على لسان يزدي، ZN، تحقيق الأهْداد، II، 175 (محذوف من الطبعة التي حققها أورونبايف، ملف 341 أ).

(98) TMS، 163 ـ 165. بيهامادخاني، ملف 433 ب ـ 434 ب (تر. زكي، 49 ـ 50). فضل الله بلخي ياوراً لمالّو في 801 هـ / 1398 م: غياث الدين يزدي، تر. سيمنوف، 121؛ شامي، ZN، I، 191؛ يزدي، ZN، تحقيق الأهْداد، II، 116 / تحقيق أورونبايف، ملف 324 ب. TMS، 160، يورده من قبل في قائمة أنصار نُصْرت شاه.

كما على السلطان محمود شاه. يوحي مسلسل تصرفاته المختلفة والمتعاقبة القائمة على النفاق والازدواجية، بأنه كان دائباً على تعزيز موقعه، رداً عى قضاء قوات تيمور على أخيه سارانغ خان في مُلْتان. غير أن مالوا نَفْسَه، ما لبث، بعد بضعة أسابيع فقط، أن تعرض للإزالة الفعلية من الوجود على يد تيمور[99].

الحدود الشمالية الغربية واجتياح تيمور

تقوم المصادر بتصوير عهد فيرزشاه متحرراً نسبياً من الهجمات المغولية[100]. غير أن مثل هذه الهجمات كانت، مع ذلك، لا تزال تشكل أحداثاً متكررة بانتظام. يكتفي برني بذكر غارتين ثانويتين، خلال فترة السنوات الست، التي سبقت توقفه عن الكتابة[101]. تمت الأولى، في مكان قريب من نهر السودرا (التشيناب)، في حين كانت الثانية في گوجرات، وهي التي صُدّت من جانب قوات السلطان جزئياً، ومن قِبَل مقدَّمي المنطقة من ناحية أخرى، وربما جاءت مرتبطة بتشجيع بانبهينا، أمير ساما، للمغول، ذلك التشجيع الذي يشكو منه ابن مهرو[102]. يحدثنا سرهندي، بإيجاز، عن أن المغول قاموا، نهاية سنة 759 هـ / 1358م، باجتياح إقليم دَيْبلْپور، ولكنهم ما لبثوا أن انسحبوا أمام تقدُّم قوات السلطان، بقيادة ملك قبول («قرآن خوان»)[103]. وأخيراً، فإن السيرة تزعم أن المغول درجوا على عادة التوغل في البياه، وإزعاج القرى، إلاّ

---

(99) هامبلي، «غروب شمس...»، 50 ـ 51، يرى بالمثل أن نشاطات مالو وسارانغ خان كانت وثيقة الترابط. غير أنني لست مقتنعاً بقوله إن تحرك سارانغ خان ضد سامانا كان جزءاً من خطة رامية إلى الالتحاق بأخيه في سبيل تحسين مقاومة الغزو الوشيك لبير محمد. فتأريخ سرهندي يوضح بجلاء أن سارانغ خان كان قد تم استئصاله قبل إقدام مالّو على تدبير دسائسه المعقدة بين السلطانين المتنافسين.

(100) عفيف، 321.

(101) TFS، 601.

(102) IM، 101؛ وانظر أيضاً 320.

(103) TMS، 127. ما لبث قران خوان أن أصبح، لاحقاً، مُقْطَع سامانا.

أنها تشير إلى هزيمة ألحقها بهم جيشُ دلهي، في سنة قيام فيروز شاه بحملته الناغاركوتية (أي حوالي 767 هـ / 1365 1366م)[104]. بلغ قلقُ السلطان بشأن الحدود المغولية مستوى جعله ينقل إليها، من الشرق، ناصرَ المُلْك مالكَ مردان دولت، لافتقاره المزعوم إلى أي شخص آخر، من النوعية أو الطينة الضرورية للتعامل مع الخطر المغولي[105].

لا تنبئنا المصادر بما هو أكثر من ذلك؛ فضلاً عن أن الهجمات التي نعلم عنها ليست سهلة الارتباط بأحداث جارية، في الأقاليم الجغتائية. فموت حليف محمد بن تُغْلُق، نويان القراؤونيين، قازاغان، سنة 759 هـ / 1358م كان قد دشَّن فترة مستديمة من الصراع، بين قادة العشائر واستجر عمليتي تدخل وجيزتين في بلاد ما وراء النهر، من جانب خان الجغتائيين الشرقيين، تُغْلُق تيمور. وتيمور هذا، وهو أحد أبناء عشيرة بارلاس التركية ـ المغولية، تعاون مع حفيد قازاغان، حسين، ضد الغُزاة؛ غير أن الحليفين سرعان ما تشاجرا، وأقدم تيمور، سنة 771 هـ / 1369 ـ 1370م، على سحق حسين والحلول محله، بوصفه الحاكم الفعلي للقبائل الجغتائية الغربية[106]. ترددت أصداء هذه الانتفاضات والاضطرابات في المناطق الحدودية الهندية، كما في بلاد ما وراء النهر. يقال إن جيشَ تُغْلُق تيمور قام سنة 763 هـ / 1361 ـ 1362م، بنهب المنطقة وصولاً إلى هندوكوش[107]. وكان أولاد قازاغان قد هربوا إلى كابُل وغزنة، إثر مقتل أبيهم، ويبدو أن المنطقة شكلت مركز انطلاق حسين الذي ركز نشاطه هناك في سنة 761 هـ / 1360م، وتمكن فيما

(104) SFS، 285 ـ 286.

(105) TMS، 133: يشير السياق بعقد سبعينيات القرن الرابع عشر.

(106) بياتريس فوربس مانز، «أمة (دولة) الجغتاي قبل صعود نفوذ تَمُر وبعده: التحول من اتحاد قَبَلي إلى جيش فتوحات»، CAJ 27 (1983م)، 86 ـ 95، وكتابها صعود وحكم. . . ، 41 ـ 57.

(107) شامي، ZN، ا، 18 ـ 19. يزدي، ZN، تحقيق الأهْداد، ا، 59 / تحقيق أورونبايف، ملف 100 أ. ب. جاكسون، «تُغلُق تَمُر»، Enc. Isl².

بعد، بمساعدة تيمور، من استعادة كابُل من خصومه[108]. لقد رأينا كيف أن الأمراء المغول لاذوا بما وراء الإندوس، بحثاً عن ملجأ، خلال السنوات الأولى من القرن؛ كما أن القادة الذين خرجوا خاسرين من هذه الصراعات الجديدة، توجهوا، بالمثل، نحو الهند، مثل ما فكر حسين أن يفعل في إحدى المنعطفات، وكما فعل أبناؤه غداة الإطاحة به سنة 771 هـ / 1369 ـ 1370م[109]. إلاّ أن مصادرنا الهندية لا توفّر، ما يكفي من التفاصيل، لتمكيننا من إقامة أية روابط، مع العدد القليل من الغارات المغولية التي تقوم بتسجيلها.

ما إن كان تيمور قد نجح في اقتلاع حسين كحاكم فعلي للنصف الغربي من الدولة (الأمة) الجغتائية، حتى بات حيوياً بالنسبة إليه أن يصرف طاقات القبائل على حملات خارجية؛ وقد شكل هذا، في الوقت نفسه، وسيلة لحرمان الأمراء (النويانات) المنشقين من أي ملجأ خارج الدولة (الأمة)[110]. إلاّ أن تيموراً، الذي لم تكن الدماء الجارية في عروقه دماء جنكيزية والذي كان يحكم الأمة عن طريق خان دُمْيَة (اختير من سلالة أغودي)، رأى أن من واجبه إعادة تأسيس إمبراطورية جنكيزخان، ولو على شكل محميات خاضعة للسيادة الجغتائية إلى حد كبير[111]. وانطلاقاً من هذه الفكرة، شنَّ سلسلةً من الهجمات على المملكة الكرتية في هراة، التي كان حاكمها «الطاجيكي» قد أظهر وقاحة تقلُّد لقب السلطان؛ على القوى الأخرى المختلفة، التي كانت قد

---

(108) ناتانزي، 197. شامي، ZN، ا، 51. يزدي، ZN، تحقيق الأَهْداد، ا، 48 / تحقيق أورونبايف، ملف 97 أ، 130 ب.

(109) شامي، ZN، ا، 31. يزدي، ZN، تحقيق الأَهْداد، ا، 71، 206 / تحقيق أورونبايف، ملف 103 أ، 139 أ.

(110) مانز «أمة (دولة) الجغتاي. . .»، 98.

(111) هانس روبرت رويمر، «تَمُر في إيران»، في پ. جاكسون ول. لوكهارت (محررين)، **تاريخ إيران، كامبردج**، VI، الحقبتان التَمُرية والصَفَوية (كامبردج، 1986م)، 52، 57، 72.

برزت من زحمة أطلال وأنقاض الإيلخانية؛ كما على القبيلة الذهبية[112]. وعلى الرغم من أن التبرير الذي يُساق لتسويغ غزوه للهند، أواخر القرن، كان دينياً وملفوفاً بذرائع نشر الإسلام، فإن ذلك لم يكن إلاّ قِناعاً: فجُلُّ ما يمكن قولُه على هذا الصعيد، هو أن الهدف ربما كان متمثلاً بمعاقبة حكام مسلمين، لإعطائهم كل هذا القَدْر من الحرية، للأعداد الكبيرة من رعاياهم وخدمهم الهندوس[113].

كان تيمور وفيروزشاه، حسب ما يقوله بيهامادخاني، قد تبادلا الرسائل، وقد يكون ذلك هو السبب الذي دفع محمداً بن تُغْلُق إلى التفكير، في إحدى اللحظات، بالتخلي عن النضال ضد أبي بكر شاه، والتماس مساعدة تيمور؛ وقد كان متوجهاً فعلاً إلى سمرقند مع مجموعة صغيرة من الأتباع، حين دُعي للقدوم إلى دلهي، من أجل الجلوس على العرش[114]. وعلى الرغم من أن الرحلة إلى ما وراء النهر، لم تكن ضرورية، فإن من الممكن أن تكون رسائل معينة قد تم إرسالها إلى سمرقند، بصورة مسبقة. غير أن الاحتمالات كلها تشير إلى أن تيمور لم يكن بحاجة إلى أية دعوة، ليبادر إلى التدخل في الفوضى السائدة داخل سلطنة دلهي، تلك الفوضى التي وفرت له فرصة مثالية للنهب، والسلب[115].

عَبَرَ حفيدُ تيمور، بير محمد، الذي حكم الجزء الأكبر من أفغانستان الحالية، من كابُل، نهر السِّنْد في ربيع أول 800 هـ / تشرين ثاني / نوفمبر ـ

---

(112) عن هذه الحملات، انظر المصدر السابق، 46 ـ 73؛ تيلمان ناغل، **تَمُر الفاتح والعالم الإسلامي أواخر العصور الوسطى** (ميونيخ، 1993م) 377 ـ 386؛ ثمة عرض موجز في مانس **صعود وحكم...** 76 ـ 73.

(113) انظر مثلاً، غياث الدين يزدي، **روز ـ مانه**، تر. سيمنوف، 60؛ شامي، ZN I، 170؛ يزدي، ZN، تحقيق إلاهْداد، II، 15 / تحقيق أورونبايف، ملف 296 أ.

(114) بيهامادخاني، ملف 422 ب ـ 423 أ (تر. زكي، 32)؛ عن فيروزشاه وتَمُر، انظر ملف 442 ب (تر. زكي، 59 ـ 60).

(115) وجهة نظر رويمر، «تَمُر في إيران»، 70.

كانون الأول / ديسمبر 1397م، وهزَم القواتِ المرسلة لتحرير أوتشش، من قِبَل سارانغ خان، الذي ما لبث أن أُجبِر على الخلي عن مُلْتان منتصف صفر 801 هـ / أواخر تشرين الأول / أكتوبر. ومُرْسِلاً قوتَه الرئيسية عن طريق دَيْبلْپور وسامانا، زحف عبر بهاتنر وسارساتي، مستبيحاً الموقعين الحصينين كليهما، قبل الالتحاق، ثانية، بباقي قواته المسلحة على ضفاف الغاغار. خاض في السابع من ربيع الأول 801 هـ / 16 أيلول / سبتمبر 1398م، معركة مع مالّو إقبال خان ومحمود شاه، في السهل الواقع خارج العاصمة(116). وعلى الرغم من أن الجيش الهندي قاتل بشجاعة، فقد هُزم. انسحب السلطان ومالو إلى داخل المدينة، ثم ما لبثا أن لاذا بالفرار، مالّو إلى داخل إقليم الدواب، ومحمود شاه إلى گوجرات، فيما كانت الخُطْبة في دلهي باتت تقرأ باسم السلطان الذي عينه تيمور، محمود خان الأوغودي(117). لم يكن العوض الذي حصل عليه مواطنو دلهي يعني شيئاً حين توغلت قوات تيمور في المدينة ونشبت أشكال الفوضى: بدأت أعمال النهب في التاسع من ربيع الثاني / الثامن عشر من كانون الأول / ديسمبر واستمرت لبضعة أيام. وبعد زَحْفه شرقاً إلى ما وراء اليمونه، حيث اجتاح ميرات (التي كانت قد نجحت في التصدي لترما شيرين قبل سبعين سنة) وشن هجوماً غير موفق على قلعة هاردوار، انسحب تيمور أخيراً إلى جهة الغرب، عبر سفوح الجبال، مهاجماً جامّو على الطريق (منتصف جمادي الثانية / أواخر شباط / فبراير 1399م)(118). ورغم كل تباهيه، فإن غَزْوَه كان قد أغرق الأمراء المسلمين، جنباً إلى جنب، مع الزعماء الهندوس، على حد سواء، في بحر مشترك وعام، من الدماء. يقول بيهاماندخاني إن سارانغ خان كان قد أُعدم؛ كما أن بهادورناهير، الذي كان قد

(116) TMS، 162، 163.

(117) شامي، ZN ,I، 192؛ وانظر وودز، «صعود التاريخ التَمُري»، 104 ـ 105.

(118) عن مسح تفصيلي لحملة الهند، انظر لال، غروب شمس، 16 ـ 40.

استسلم بعد استباحة دلهي، ربما جرى تقييده بالسلاسل، وزعيم الخوخار شيخا، الذي كان قد عمل مرشداً للغزاة، اعتُقل مع أفراد أسرته، خلال رحلة عودة الفاتح[119].

قد يكون من المناسب طرح سؤال: ما الذي مكّن تيموراً من النجاح ـ من إلحاق الهزيمة بجيش السلطة والاستيلاء على عاصمتها ـ حيث كان أسلافُه الجغتائيون قد أخفقوا. الأسباب كثيرة، منها أن الغازي (الفاتح) كان يتصرف بموارد مادية وبشرية لم تكن متوفرة للأمراء الجغتائيين من أمثال قُطْلُغ قوتشا وترماشيرين، لأن حملاته في إيران وضد القبيلة الذهبية، كانت قد أكسبته خَراجاً، وفصائل قوات مسلحة من مناطق وأقاليم واقعة خارج حدود الدولة (الأمة) الجغتائية، في العقود السابقة من القرن؛ وكان أيضاً قد تمكن من إذابة القوات القَبَلية الجغتائية في بوتقة آلة حربية، أكبر وأكثر جبروتاً بما لا يقاس[120]. غير أن ما ينطوي على قَدْر أكبر من الأهمية، وما يجب تسجيله هو التدهور الحاد، الذي كان قد أصاب المؤسسة العسكرية لدى سلطنة دلهي في ظل حكم فيروزشاه وخلفائه.

تناقص موارد السلطنة

يُقدِّر الكُتّابُ التيموريون ـ وهم غير ميالين على الإطلاق ـ ونستطيع أن نكون واثقين ممّا نقوله ـ إلى الإقلال من شأن المقاومة التي سحقها بطلُهم خارج دلهي ـ الجَيْشَ الذي قابله به محمود شاه ومالّو بعشرة آلاف فارس، وعشرين ألف راجل، ومئة وعشرين فيلاً[121]. ولا تشكل هذه الأرقام إلاّ قوة

(119) يزدي، ZN، تحقيق، الإهداء، II، 127 ـ 128 / تحقيق أورونبايف، ملف 323 ب ـ 328 أ. TMS، 166 ـ 167. بيهامادخاني، ملف 307 أ (تر. زكي، 93).

(120) مانس، صعود وحكم. . . ، الفصلان 4 و5.

(121) غياث الدين يزدي، روز ـ نامه، تر. سيمنوف، 115. شامي، ZN I، 189. يزدي، ZN، تحقيق الإهداء، II، 100 / تحقيق أورونبايف، ملف 320 ب، يعطي 40,000 من المشاة، ولا يحدد عند =

مثيرة للشفقة والرثاء مقارنة بتلك التي رافقت فيروزشاه في حملاته. فذلك السلطان كان قادراً، للإعداد لحملتيه على البنغال، على تجييش قواتٍ مؤلفة من ثمانين أو تسعين ألفاً من الفرسان، وأربعمئة وخمسين فيلاً[122]؛ ولحملته على الثاتا، تسعين ألفاً من الفرسان، وأربعمئة وثمانين فيلاً[123]. يخبرنا عفيف، وقد يكون مديناً بهذه الأرقام لأبيه الذي كان يعمل في **ديوان الوزارات**، في مناسبة أخرى، أن السلطان كان لديه ما مجموعة ثمانون ألفاً من الفرسان، عدا مماليكه[124]. ومع ذلك، فإن مثل هذه الإحصائيات تبقى صوراً باهتة عن الأرقام الموجودة في سجلات تجنيد علاء الدين خَلْجي أو في السنوات الأولى من حكم محمد بن تُغْلُق.

لا يمكن إلقاء اللوم كله، عن الحالة غير الجيدة التي وصلت إليها المؤسسة العسكرية أيام غزو تيمور، على فيروزشاه. فالانخفاض في عدد الفيلة يعكس، حسب جميع الاحتمالات، حقيقة أن تلك الحيوانات التي كانت تُرسَل إلى سلطان دلهي، كجزية من البنغال وجاجنَغَر، باتت الآن تُرسَل إلى خواجا جهان في جاونبور، بدلاً من السلطان[125]. حتى حيث يمكن تعقُّب آثار التدهور وإرجاعه إلى حقبته ـ حقبة فيروز شاه ـ فإن من الحماقة إغماض العين عن الظروف التي كانت خارج نطاق سيطرة هذا الرجل. فالاطمئنان إلى عدم وجود خطر هجوم خارجي، ينطوي على عقابه الخاص المتمثل، كما اعترف عفيف، بحصول نوع من التدهور والانحطاط في نوعية الجيش، ومواصفاته

= هذه المرحلة عدد الفيلة. غير أنه يخبرنا فيما بعد أن 120 فيلاً تم وضع اليد عليها: تحقيق الإهداء، II، 118 / تحقيق أورونبايف، ملف 325 أ.

(122) عفيف، 144؛ غير أن عليك معرفة شيء عن الحملة الأولى أن تقارن 115 (ثلاث فرق يتألف كل منها من 30,000 من الخيالة)، وهوديغالا، **دراسات** ، II، 123 ـ 124.

(123) عفيف، 197، 200.

(124) المصدر نفسه، 298. عن والد عفيف، انظر المصدر نفسه، 197. ديغبي، **جياد الحرب**، 24، 25.

(125) TMS، 157. ديغبي، **جياد الحرب**، 64، 76 ـ 77.

القتالية [جاهزيته القتالية بلغة عصرنا][126]. وعلى هذا الصعيد، فإن تراجع تواتر الهجمات المغولية كان من شأنه، دون شك، أن يكون قد لعب دوراً. علينا أيضاً، ألاّ نستبعد جملة من العوامل الخارجية الفاعلة في عملية توفير الخيول الحربية. ففي أيام رحلات ابن بطوطة، درجت سهوب وبطاح القبيلة الذهبية على تصدير مطايا رائعة في قطعان يصل تعداد كل منها إلى ستة آلاف جواد؛ غير أن وفرة مثل هذه الخيول، ربما تعرضت، بصورة شبه مؤكدة، للتقلص إلى حد كبير، جراء الصراع بين العدد الكبير من خانات البوكية أو الجوكية منذ سنة 759 هـ / 1358م[127]. ومما ينطوي على معنى، أن أحداً لم يعثر على مخزونات كبيرة من القطع النقدية السلطانية العائدة، لما بعد عهد فيروزشاه، في الأراضي الروسية[128].

إلى أي مدى يمكن إرجاع التدهور في الفاعلية العسكرية إلى الظروف الاقتصادية؟ يبدو أن شهرة الازدهار الواسع التي اكتسبها عهد فيروزشاه مستمدة من ظرفين مترابطين ترابطاً وثيقاً هما: استعادة الإنتاجية الزراعية بعد موت محمد بن تُغْلُق، وحصول انخفاض في أسعار الحبوب مع الكثير من السلع الأخرى. وفيما يخص السبب الأول، فإن جهود فيروزشاه الشخصية، الرامية إلى تحسين أحوال الزراعة، معروفة جيداً. فالكثير من قنوات الري التي أمر بحفرها حوّلت مساحات الرعي التقليدية إلى أرض زراعية مزدهرة[129]. يكرس عفيف مجالاً خاصاً لقناتين، كانتا ترويان مؤسسة السلطان الجديدة، المعروفة باسم حصار فيروزا، موفرتين إمكانية زرع محصول ربيعي للمرة الأولى، إضافة إلى المحاصيل الخريفية التي كانت

---

(126) عفيف، 23.

(127) عن تجارة الخيل، انظر IB II، 372 ـ 374 (تر. جيب، 478 ـ 479)؛ ديغبي، **جياد الحرب**، 35 ـ 36.

(128) ديغبي، «النظام النقدي»، 100؛ آ. آ. بيكوف، «لُقى قطع نقدية هندية من العصر الوسيط في شرق أوروبا»، JNSI، 27 (1965م)، 151 ـ 155.

(129) TFS، 566، 567 ـ SFS571 .، 74 ـ 75، 161 وبعدها، 216 ـ 217.

تُجنى تقليدياً في المنطقة[130]. ثمة أيضاً خطوات اتخذت لتحويل الأرض اليباب إلى زراعية، ولاستعادة المستوطنات والمزارع التي كانت مرتبطة بمؤسسات خيرية مثل أَضرحة المشايخ والسلاطين السابقين[131]. لقد مُنح **الدراويش** (**الفقراء**) وغيرهم من المحتاجين، مئة ألف **بيغا** من الأراضي البور[132].

ومع ذلك، لا يبدو أن التعافي الزراعي جَلَب معه انتعاشاً في القوة العسكرية التي كانت قد طَبَعَتْ العقد الأول من عهد محمد بن تُغْلُق؛ ويظهر أن السببين تمثلا، بتقلُّص في موارد الحكومة من جهة، وبزيادة في الإنفاق على الإنشاءات والأعمال الخيرية، من جهة أخرى. هناك ما يشير إلى أن ضريبة الأرض (الخراج) كانت، في تلك الأيام، قد خُفِّضَتْ إلى عشرين ـ بل وحتى عشرة ـ بالمئة[133]. أضف إلى ذلك، أن إجمالي الموارد كان، سنة 759 هـ / 1358م، قد حُدِّد، استناداً إلى جولة على الإمبراطورية قام بها حسام الدين جنيدي، بِستّ **كرورات** وخمسة وسبعين **لاكاً** (67,500,000 **تانغا**)، وبقي على هذا المستوى حتى النهاية، مما حال دون استفادة الحكومة من الإنتاج المتزايد في الأقاليم[134]. وقد قيل لعفيف أيضاً أن إلغاء الضرائب غير الشرعية في 777 هـ / 1375 ـ 1376م كلَّفَتْ فيروزشاه مبلغَ ثلاثين **لاكاً** (3,000,000) من **التانغات**[135]. وفي الوقت نفسه، يقال إن السلطان قام بوضع مبلغ إجمالي وصل إلى 3,600,000 **تانغا** لصالح رجال الدين «العلماء» والمشايخ

---

(130) عفيف، 127 ـ 128.

(131) عفيف، 130، 332 ـ 333.

(132) عفيف، 179؛ للاطلاع على القراءة الصحيحة للجملة، انظر هوديغالا، **دراسات**، II، 129 ـ 130.

(133) رياض الإسلام، «بعض جوانب اقتصاد شمال جنوب آسيا في القرن الرابع عشر»، JCA، ج: 2 (1988م)، 9 وهـ. 21 (مستشهداً بمطهّر). ولكن قارن عفيف، 484، ياكي باداه.

(134) المصدر نفسه، 94، قائلاً إن جنيداً جال في الامبراطورية ست سنوات؛ في 296 يكون الرقم ستة كرورات وخمسة وثمانين **لاكاً**. رياض الإسلام، «بعض جوانب. . .»، 17 ـ 18.

(135) عفيف، 378 ـ 379.

والأولياء[136]. ثمة رسالة لابن مهرو، تُلْقي بعض الضوء على الأوضاع في إقليم مُلْتان، ربما بعد بضع سنوات من اعتلاء فيروزشاه العرش. ففي معرض الرد على الانتقاد المتمثل، بين انتقادات أخرى، بأنه دأب على تخصيص أراض غير منتجة كمعاشات وهِبات، يقوم ابن مهرو بلفت الأنظار إلى حقيقة، أن إلغاء المكوس في ظل محمد بن تُغْلُق، إضافة إلى إخفاق فيروزشاه في إعادتها، ما لبث أن قلَّص موارد السلطان؛ كما يشير، في الوقت نفسه، إلى سخاء فيروزشاه في تخصيص، مبلغ مرتفع غير مسبوق، وصل إلى 300,000 تانغا لتسديد المعاشات والهبات[137].

تقوم رسالة ابن مهرو بإبراز مشكلة أخرى واجهتها الحكومة. إن قيمة الرواتب والمعاشات التي كانت قد حُدِّدَتْ عيناً في وقت فيه أسعار الحبوب عالية، كانت قد تعرضت لاختزال بالغ القسوة حين تهاوت تلك الأسعار ـ من مستوى مرتفع، يصل إلى ثمانين جيتالاً إلى ثمانية جيتالات للمان الواحد، إذا كانت أرقام ابن مهرو جديرة بالتصديق. وحتى بدون انحياز السلطان إلى صف الأسياد والمشايخ، وقضايا جديرة أخرى، كان لا بد من رفع مواز لمثل هذه المنح، بأسعار الحبوب لحماية المستفيدين من العوز[138]. من جهة أخرى، لم يشهد التضخم الحاد في أسعار أخرى، نتيجة قيام محمد بخفض قيمة النقد، أي تراجع معكوس، مما أبقى الحكومة في مواجهة فاتورة أعلى بكثير لشراء المواد الحربية الأساسية. فأسعار الجياد، مثلاً، زادت، كما يبدو، إلى ست بل ثمانية أضعاف ما كانت عليه، منذ أيام علاء الدين خَلْجي[139].

وهكذا، فإن المبالغ المتوفرة للإنفاق على الجيش، كانت قد تعرضت

(136) عفيف، 179، TFS، 559، يشير فقط إلى زيادة في المبلغ المخصص لتمويل صندوق التقاعد.

(137) IM، 79 ـ 80.

(138) IM، 74.

(139) ديغبي، جياد الحرب، 37 ـ 40.

للتقليص من نواح كثيرة. لعل ذلك هو السبب الذي كان قد دعا فيروزشاه ـ في تاريخ مبكر، لأن ذلك مذكور عند برني ـ لأن يعود إلى سياسة تسديد رواتب الجنود النظاميين بمخصصات من الأرض؛ وقد يكون عفيف مشيراً إلى هذا حين يزعم أن السلطان تخلى عن إمبراطوريته كلها على شكل إقطاعات[140]. وهو يطلق على الجنود المعنيين اسم **وَجْهْدارات**، مقارنة بمن هم (**غير وَجْهيين**) ممن كانوا يتلقون رواتبهم، إما نقداً أو على شكل (**براءات**) شيكات مسحوبة على الإيراد المحلي. معلقاً على رفض علاء الدين خَلْجي اعتماد مثل هذه الطريقة، بحجة تمخُّضها عن خلق مصالح محلية راسخة، يقوم عفيف بإيراد الأمر، وكأنه رأيُه الخاص، زاعماً مع ذلك، استحالة تحري أية آثار سلبية على امتداد السنوات الأربعين من حكم فيروزشاه[141]. غير أن مشكلات قصيرة الأجل كانت موجودة بالتأكيد. لعل أحد الفروق بين نمطي الجنود هو أن **الوَجْهْدار** كانوا مطالبين بتوفير جيادهم، مما جعلهم في وضع أسوأ، مقارنة **بغير الوَجْهيين** وأَحدث في صفوفهم قَدْراً غير قليل من الضيق والعوز. في أثناء انسحاب السلطان من ثاتا إلى گوجرات، حين فُقدت أكثرية الجياد جراء النفوق: تعين تسليف هؤلاء مبالغ كبيرة من القروض، نظراً لأن مخصصاتهم من الأرض كانت بعيدة جداً عن متناولهم[142]. غير أن آثاراً سلبية طويلة الأَجَل كانت هي الأخرى موجودة. يحدثنا عفيف عن جنود لم يكونوا يحصلون، لدى تقديم براءاتهم (شيكاتهم) إلى الإقطاعات، إلاَّ على نصف المبلغ المستحق. وفي هذه الظروف كان كثيرون منهم مستعدين لبيع شيكاتهم في دلهي، بثلث القيمة الإجمالية المستحقة موفِّرين على أنفسهم الجهود والنفقات اللازمة للسفر

---

(140) عفيف، 94 ـ 95، TFS279 .، 553.

(141) عفيف، 96. عن نمطي الجنود المختلفين، انظر أيضاً المصدر نفسه، 193 ـ 194، 296؛ هوديغالا، دراسات، ا، 321 ـ 322.

(142) عفيف، 220 ـ 221.

إلى الإقطاع، مما أدى إلى نشوء سوق بالغة الخفة والرشاقة للاتجار بشيكات رواتب الجنود، فغدا عدد كبير من الأشخاص، أغنياء عن طريق شراء الشيكات بثلث القيمة الاسمية وصرفها في الإقليم المعني مقابل خمسين بالمئة من تلك القيمة[143].

في الوقت الذي تم فيه استحداث دفع الراتب عن طريق التخصيص، كان السلطان قد اعتمد إجراء آخر يجيز **للوجَهْدار** نقل مؤسسته (**استقامته**) إلى ابنه أو صهره: وفي حال عدم توفرهما كان لا بد لها من الانتقال إلى مملوكه أو بعض الأقارب، وفي غياب هؤلاء، أخيراً، إلى نسائه (**آورات**)[144]. إن العواقب السلبية التي ينطوي عليها مثل هذا الإجراء من وجهة النظر العسكرية، واضحة للعيان. فالشكوى التي قدمها ملك إسحاق، وهو ابن **العارض** بشير عماد المُلك، إلى السلطان، قائلاً إن كثيرين من الجنود باتوا أكبر سناً من أن يكونوا صالحين للخدمة، تردّد صدى رواية برني لقصة محاولة بلبان الرامية إلى تغيير حال الأمور في الأطراف (الحوالي)، والدواب بُعَيْدَ اعتلائه العرش. وقد أصدر فيروز شاه أمراً قضى بأنَّ على كل جندي لا يستطيع القيام بواجبه أن يؤمّن بديلاً (وكيلاً)[145]. ومع ذلك فإن هدف نظام السلطان ربما كان متمثلاً بتشجيع استثمار الأرض عن طريق إعطاء كل أسرة حصة دائمة في المساحة المحددة المخصصة لها. ورسالة ابن مهرو التي سبقت الإشارة إليها، تؤيد منح مساحة مؤلفة من أرض زراعية وأخرى بور، كراتب أو معاش تقاعدي[146]. من المؤكد أن ذلك كان منسجماً مع اهتمام السلطان الشخصي وحِرْصه على توسيع الرقعة المزروعة.

مهما يكن، لا بد لعدد قوات محمود شاه المسلَّحة سنة 1398م من إعطاء

(143) عفيف، 296 ـ 297.

(144) عفيف، 96. يحول ذكر النساء دون اعتبار **استقامات** «مرتبة».

(145) عفيف، 302 ـ 303.

(146) IM، 79 ـ 80.

فكرة عن الضربات التي تلقّتها موارد السلطان جراء عقود من سوء الإدارة أولاً، ونتيجة سنوات من الصراع الداخلي بعد ذلك. وفي السنوات الأولى من عهد فيروزشاه، كان برني قد علق على مبالغة السلطان في محاباة الجيش[147]. أما عفيف فقد كان أكثر صراحة حين وصف كيف أصبح فيروزشاه يغُضُّ النظَرَ عن تقديم جياد وأسلحة دون المستوى، في الاستعراضات السنوية، وأعاد سَرْد قصة عن سعي السلطان نفسه لمساعدة جندي كان قد تأخر عن الموعد المحدد[148]. من المؤسف أن الأدلّة التفصيلية ضئيلة؛ غير أننا نبقى ميالين للاقتناع بأن مؤسسة السلطنة العسكرية كانت قد تدهورت وأصبحت في الحضيض. ومثل هذا النزوع لم يكن بوسعه إلاّ أن يزداد تفاقماً وسوءاً، جراء الصراعات الداخلية وحركات التمرد الإقليمية التي طبعت السنوات التي أعقبت وفاة السلطان. يكتب عفيف بلغة غنائية رعوية عن الوضع المزدهر للدوآب في ظل فيروزشاه[149]؛ غير أن جزءاً كبيراً من الإقليم كان قد تعرض، في غضون بضع سنوات، للتدمير والخراب جراء سلسلة الحملات التي شنها الرايات (الأمراء) الهندوس والأمراء التُغْلُقيون المنافسون.

الدول الوريثة

يحدد سرهندي تاريخ ظهور حكام إقليميين مستقلين على المسرح بزمن الحرب الأهلية الثانية، حين «بات أمراء الإمبراطورية وملوكُها»، كما يزعم، «سادة مستقلين وقادرين على تحصيل الضرائب والإنتاج بأنفسهم»[150]. كانت العملية قد بدأت، في الحقيقة، قبل ذلك بوقت غير قصير، في عهد فيروزشاه، مع إيجاد إمارة مستقلة في خانَدْش سنة 782 هـ / 1380م تحت حكم ملك

(147) TFS، 553.

(148) عفيف، 298 ـ 302.

(149) عفيف، 295.

(150) TMS، 160 ـ 161.

راجا، الذي لا نعرف عنه إلاّ الشيء القليل[151]. ومن الحقائق المثيرة، بعيداً عن ملك راجا ومع الاستثناء الموصوف لمؤسس كيان كالبي السياسي، محمود ابن فيروزخان، الذي كانت أسرتُه في البداية قد أيدت تُغْلُق شاه الثاني، أنَّ مؤسسي سلسلة الأُسر الحاكمة الإقليمية[152] ـ خضرخان في مُلْتان، ظَفَرخان وجيه الملك في گوجرات، عميد شاه (ديلاورخان) في مالوا، شمس خان أوحدي في بهايانا، وخواجا جهان في سارواز وجاونبور ـ كانوا جميعاً من مرشحي السلطان محمد شاه بن فيروز، أو مؤيديه في الأساس[153]. حتى محمود بن فيروزخان كان بالضرورة قد تصالح مع محمد شاه، الذي كان لدى زيارته للمنطقة سنة 794 هـ / 1391 ـ 1392، قد أنعم عليه بإقطاع ماهوبا، إضافة كامل شقة فيروزبور التي كانت بيده من قبل[154]. يذهب بيهامادخاني بعيداً إلى حد المساواة بين بروز الممالك الجديدة وصدور قانون إداري مناسب عن محمد شاه، قانون يقضي رسمياً بتقسيم أراضيه إلى وحدات إدارية، غداة انتصاره على أبي بكر[155]. وحَذْه تسلسلُ حياة ملك محمود العملية يبين بأن بوسعنا أن نعتبر هذه القصة منطوية على شيء من الحقيقة (يحتوي على ذرة ملح).

لعل خضرخان في مُلْتان حالةٌ خاصة. كان الرجل، كما رأينا من قبل، قد فقد السيطرة على منطقته لصالح سارانغ خان، ولم يعد يشعر، دون شك، بأي قَدْر من الولاء ـ اللهم إذا كان قد فعل ذلك من قبل ـ تجاه السلطان محمود

(151) ب. هاردي، «الفاروقيون»، Enc. Isl².

(152) ترد أسماؤهم بأكثريتها في TMS، 168 ـ 169.

(153) مشار إليهم جميعاً من قبل بيهامادخاني، ملف 416 أ، 421 ب ـ 422 أ، 426 ب (تر. زكي، 19، 30، 36)، عدا شمس خان الوارد في TMS، 147. كذلك كان خضر خان أحد أنصار محمد شاه، المصدر نفسه، 14، 147.

(154) المصدر نفسه، 152. بيهامادخاني، ملف 429 ب ـ 430 أ (تر. زكي، 42 ـ 43).

(155) المصدر نفسه، ملف 426 ب، 429 (تر. زكي، 36، 42). ربما كان مصدر الرواية المماثلة في هاراوي، III، 288.

شاه، الذي كان ألعوبة بيد مالّو شقيق سارانغ خان. هارباً من قبضة سارانغ خان هذا، كان قد فر إلى بهايانا، ومن هناك شق طريقه إلى مضرب خيام تيمور وعرض عليه الطاعة والخضوع. من المؤكد أن زعم سرهندي القائل بأن تيموراً ولاّه على دلهي باطلٌ، وهو ليس أكثر من محاولة لترسيخ مشروعية أسرة السيد الحاكمة، التي كان يكتب لصالحها، والتي كانت قد اعترفت بسيادة تيمور عن طريق فرمان صادر عن الفاتح. غير أننا لا نملك ما يدعونا إلى الشك بصحة كلامه عن أن تيموراً ثبّت خضرخان والياً على مُلْتان ودَيْبلْپور(156). فمن منطلق ولاء خضرخان هذا، كانت هاتان المنطقتان قد توقفتا عن كونهما جزءاً من سلطنة دلهي.

وفيما عدا ذلك، لم يكن الحكام الجدد، على أية حال، يمثّلون أناساً كانوا قد وصلوا إلى السلطة والنفوذ من خلال أية عملية عصيان رسمية. فخواجا جهان سروار، وزير كل من محمد شاه ومحمود شاه بالتتابع، ونائب الثاني عبر الأقاليم الشرقية، ربما كان المثال الأبرز لنصير، يدين بالولاء، وجد الاستقلال مُقْحَماً عليه عُنوة. وجدير بالملاحظة، أيضاً، أن هؤلاء الحكام المحليين كانوا شديدي التردد في الإعلان عن سيادتهم، وفي رفض سلطة السلطان في دلهي. لم يُقْدم خواجا جهان قط على اتخاذ لقب السلطان؛ وابنه المُتَبنىٰ وخَلَفُه في جاونبور، لم يبادر، حتى موته في 802 هـ / 1399م (إلى ما بعد استباحة دلهي بالتالي)، إلى اعتماد لَقَب السلطان مبارك شاه، مستثيراً حَمْلَة فاشلة جَرَّدها ضدَّه مالو إقبال خان من دلهي(157). أما في گوجرات، فإن ظفرخان بن وجيه الملك قد أظهر، رغم قول بيهامادخاني العكس، نوعاً من

(156) TMS، 166 ـ 167. يازدي، ZN، تحقيق إلاهداد، II، 175 (مبسطاً في طبعة أورونبايف، ملف 341 أ)، لا يشير إلاّ إلى حكومة مُلْتان.

(157) TMS، 169. هراوي، III، 274. سعيد، **السلطنة الشرقية**، 32 ـ 33، يقال إنه حوالي زمن غزو تَمُر تقلّد لقب **الأتابك الأعظم** وجعل الخطباء يخطبون باسمه هو؛ غير أن بيهامادخاني، وهناك مرجع تم الاستشهاد به، لا يؤيد هذا الكلام. قارن أيضاً نظامي، في HN، 713.

التمنع إزاء تبني اللَّقب السلطاني، وهو أمر يثير قدراً أكبر من الاستغراب من شخص كان قد اعترف بنُصرت شاه، وكان ابنه تتارخان وزير ذلك السلطان. قد يفيد هذا في تفسير حرج ظفرخان حين برز محمود شاه، منافس نصرت شاه، في گوجرات بعد سنة أو نحوها، غداة غزو تيمور؛ يبدو أن السلطان الهارب لم يكن قد حصل على أية مساعدة بل شَدَّ الرحال إلى مالوا[158]. وفي سنة 806 هـ / 1404م، كان ظَفَرخان، الذي يصوره نقش يعود إلى تلك السنة «وزيراً» فقط، قد أُزيح لفترة وجيزة من قبل ابنه الطموح تترخان، الذي كان يخطط للاستيلاء على دلهي وتقلَّد لقب السلطان ناصر الدين محمد شاه. ولكن ظفرخان بقي مصراً، حتى بعد وفاة تترخان واستعادته للعرش بعد شهرين، على تسمية نفسه بِمُقْطَع گوجرات؛ ولم يعتمد لَقَب السلطان حتى سنة 810 هـ / 1407م[159]. ثمة مزاعم تقول إن ديلاورخان فعل ذلك [اعتمد لقب السلطان] في 804 هـ / 1401 ـ 1402م، بعد زيارة محمود شاه لمالوا، غير أن الدليل الوحيد على الأمر يبدو متمثلاً بنقش يعود إلى سنة 807 هـ / 1405 م؛ في حين تبقى البينة الدالة على قيام خلفه هوشانغ شاه بتقلد اللقب الملكي أو السلطاني، أقوى بكثير[160].

تبقى قضية التقلّد اللاحق لمرتبة السلطنة الملكية من قبل محمود شاه بن

(158) بيهامادخاني، ملف 427 ب (تر. زكي، 38). TMS، 166، 170. هراوي، III، 89. سيكاندار، «مانجهو» 20 (تر. بايلي، 79 ـ 80). لال، **غروب. . .**، 47.

(159) ج. هـ. يزداني، «سبعة منقوشات جديدة من ولاية بارودا»، EIM (1939 ـ 1940م)، 2 ـ 3. ز. أ. ديساي، «منقوشات عن سلاطين گوجرات»، EIAPS (1963م)، 6 ـ 10؛ **أيضاً**، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 32 ـ 33، 38 ـ TMS40 .، 172. هراوي، III، 90 ـ 93، مضمراً أنه اعتمد اللقب الملكي بعد وفاة تترخان. سيكاندار «مانجهو»، 21 ـ 25 (تر. بايلي، 80، 81، 83 ـ 84). ميسرا، **النفوذ الإسلامي**، 152 ـ 156.

(160) يو. ن. داي، **مالوا الوسيطة: تاريخ سياسي وثقافي، 1401 ـ 1562 م** (دلهي، 1965م)، 21؛ HN، 898، 899. عن المنقوشات، انظر EIM (1909 ـ 1910م)، 11 ـ 12، تلخيص داي، 435. عن هوشانغ، انظر المصدر نفسه، 25.

فيروزخان، مؤسس أمارة كالپي الذي حكم تحت اسم ناصر الدين محمود شاه، قَضية محيِّرة جداً بالنسبة إلى المؤرخ المحلي بيهامادخاني، الذي يزعم أن سلطان دلهي محمود شاه بن محمد زوّده بمظلة (تشاتر) وصولجان (دورباش) مع لقب سلطان مرة؛ ثم لا يلبث، بعد قليل، أن يقول إن محموداً قد نَصَّب نفسه على كالپي بعد وفاة محمود شاه ـ وهو مستحيل لأنه مات سنة 813 هـ / 1410 ـ 1411م، وعاش سلطان دلهي بعده سنتين أخريين. ومع كلام بيهامادخاني التالي مباشرة حيث يقال إن محمود شاه تبنى لقب السلطنة غداة غزو تيمور، نكون قد بلغنا أقصى ما يمكن بلوغه قرباً من الحقيقة، دون شك[161].

لقد كان انقضاض تيمور على دلهي حاسماً. فالحرفيون والعمال المهرة الآخرون الذين كانوا قد ساهموا في تزيين أماكن إقامة فيروزشاه وتجميلها كانوا قد نُقِلوا لتزيين مقر قيادة الغازي في سمرقند[162]. وكان الكثير من أهالي المدينة الآخرين قد لاذوا بالفرار إلى أماكن أخرى، طلباً للأمن ولم يعودوا ثانية. من المؤكد أن بيهامادخاني يوحي بأن أَمْنَ كالپي وازدهارها قد تعززا كثيراً جراء تدفق المهاجرين القادمين من دلهي، غداة تعرضها للاستباحة من قِبَل المغول الجغتائيين[163]. لم يكن انهيار سلطنة دلهي، مثله مثل انفصال أكثرية أقاليمها الباقية، إلاَّ ضربةً قاتلة بالنسبة إلى المدينة ـ العاصمة.

---

(161) بيهامادخاني، ملف 436 (تر. زكي، 52، 53)؛ وانظر أيضاً ملف 412 ب (تر. 15). عن موت محمود شاه من كالبي، انظر المصدر نفسه، ملف 445 ب (تر. 62).

(162) غياث الدين يزدي، روز ـ نامه، تر. سيمنوف، 124 ـ 125. يزدي، ZN، تحقيق الأهداد، II، 124 / تحقيق أورونبايف، ملف 326 ب. عن بلدات أخرى تعرضت للاستباحة والنهب (انظر فيرما، آليات الحياة الحضرية، 65 ـ 66.

(163) بيهامادخاني، ملف 436 ب، 442 ب ـ 443 أ (تر. زكي، 35، 59 ـ 60). عن كيان كالبي السياسي، انظر عموماً إقتدار حسين صديقي، «كالبي في القرن الخامس عشر»، IC 61 (1987م)، ج: 3، 90 ـ 120.

تذييل (1400 ـ 1526م)

نهاية آل تُغْلُق

خلال العقد الذي أعقب هجوم تيمور، عادت السلطنة واحدة فقط من عدد من القوى المتنافسة في النصف الشمالي من شبه القارة، مع انقسام إمبراطورية فيروزشاه إلى دول مختلفة. فلسنوات ثلاث، بعد إغارة تيمور، بقيت دلهي دون سلطان. فنُصْرت شاه الذي عاد من الدواب ليقيم في فيروز آباد في رجب 801 هـ / آذار / مارس ـ نيسان / أبريل 1399م، هُزم من قبل مالوا إقبال خان وأُجبر على الفرار إلى قلب منطقة الميو، حيث قضى نحبه. ثم أقام مالوا مقر قيادته في سيرى، التي يقال إنه انطلق منها لاستعادة السيطرة على «شقة الدواب وإقطاعات الأطراف (**الحوالي**)»[1]. غير أنه، على الرغم من تغلبه على سومر وحلفائه في موقع قريب من باتيالي سنة 803 هـ / 1401م، بقي عاجزاً عن استعادة غواليور من خليفة فيراسينها زعيم التومارا، الذي كان قد احتلها في أثناء فترة الفوضى التي جاءت مع اجتياح تيمور للبلاد[2]. تمكن مالوا من أن يحكم لبعض الوقت عبر محمود شاه الذي أقنعه بالالتحاق به ثانية؛ إلاّ

(1) TMS، 167 ـ 168.

(2) TMS، 169 ـ 170، 171 ـ 172.

أن السلطان ما لبث أن راودته الشكوك حول الرجل في أثناء حملة ضد جاونبور فاتخذ قِنَّوج مقراً له، ولم يعد إلى دلهي إلاَّ بعد مقتل مالوا في ساحة القتال مع خضرخان سنة 808 هـ / 1405م، واحتفظ هناك بما يشبه ظِلَّ سلطة حتى وافته المنية هو الآخر سنة 815 هـ / 1412 م. وبعد العهد الوجيز لكبير الأمراء دولت خان، تمكن خضرخان، أخيراً، من الفوز بمدينة دلهي.

الأسرتان الحاكمتان: السيِّد ولودي

تولى حكام ما يُعرف بأسرتي السيد (817 ـ 855 هـ / 1414 ـ 1451م) ولودي (855 ـ 932 هـ / 1451 ـ 1526) الحاكمتين[3] رئاسة إمبراطورية لم تكن إلاَّ ظلاً لكيانها السابق والتي استمرت تتمزق. فالسلطنة المقلَّمة كانت محاطة، وأحياناً مهددة، بسلطنات إسلامية منافسة مثل جاونبور وگوجرات، مالوا والبنغال، كما بإمارات هندوسية عادت إلى الحياة مجدداً في كل من ميوار وآلوار والدواب. وفي عدد من المناسبات، بقيت دلهي معرضة لتهديد غزاة من هذه المملكة الإسلامية أو تلك، كما حصل مع سلطان مالوا سنة 844 هـ / 1440م ومع سلطان جاونبور في 810 هـ / 1407م، وفي 856 هـ / 1452م، وفي سنة 1466م، وفي 883 هـ / 1479م، قبيل الإطاحة بسلطنة جاونبور من قبل بهلول لودي. باتت شهادات الخلافة الآتية من القاهرة تُرسل إلى عواهل مسلمين آخرين في شبه القارة[4].

يستند لَقَبُ «السيد» (مفرد سادة أو سادات) المعطوفة على أسرة خضرخان الحاكمة (817 ـ 824 هـ / 1414 ـ 1421م) إلى التحدُّر عن النبي

---

(3) عن هذه الأسرة الحاكمة، انظر عموماً ك. أ. نظامي «الأسياد»، (السادة؛ السادات)، Enc. Isl.²؛ المصدر نفسه، «الأسياد (1414 ـ 1451م)»، في HN، 630 ـ 663؛ أيضاً «اللودي (1451 ـ 1526م)»، المصدر نفسه، 664 ـ 709؛ إمام الدين، «اللودي»، Enc. Isl.²؛ لال، **غروب**...

(4) أوتو سبايز، «خليفة عباسي في القاهرة ينصب ملكاً هندياً»، في س. م. عبد الله (محرراً) **كتاب تقديم البرفسور محمد شافعي** (لاهور، 1955)، 241 ـ 253.

الذي يضفيه عليها سرهندي بالاستناد إلى أسباب وجيهة. لم يُقْدِم خضرخان قط على ارتداء ثوب السلطنة، مفضلاً لقب **رايتي أعلى** («الراية المرفوعة»). وبما يتناسب مع حاكم مدين بمنصبه لتيمور، كان يدفع الخراج لشاه رُخ، أصغر أبناء الفاتح، الذي أصبح مهيمناً على القسم الشرقي من العالم الإسلامي من عاصمته هراة، وحصل مقابل ذلك على خلعة شرف وراية. وعلى الرغم من أن خضرخان يحيى بن خضرخان وخلفه، مبارك شاه (824 ـ 837 هـ / 1421 ـ 1434م) باعتباره سلطاناً[5]، فإننا نعلم أنه، هو أيضاً، حصل من هراة على عباءة ومظلة (تشاتر)[6]. يبقى سرهندي صامتاً إزاء هذه الصلات، كما أن القطع النقدية الصادرة عن **السادة** لم تحمل اسم شاه رُخ، جراء الاكتفاء بالإصدارات التُغْلُقية المعدّلة. ولولا بيهاماندخاني الذي يؤكد لنا أن أوامر شاه رُخ بقيت نافذة في دلهي طوال ما يقرب من أربعين سنة، وأن الحاكم الراهن، محمد شاه، ابن شقيق مبارك (837 ـ 849 هـ / 1434 ـ 1445م)، كان لا يزال تابعاً مطيعاً لشاه رُخ هذا وقت الكتابة، لما علمنا شيئاً عن ولاء حكام دلهي[7]. غير أن إذعان خضرخان وخلائفه، واستعدادهم للخدمة لم يضمنا لسلطنة دلهي البقاء بمنأى عن هجمات المغول. فالشيخ علي الذي كان يحكم كابُل باسم ابن شاه رُخ ما لبث أن استغل مصاعب **السادة** للانقضاض على الهند عدداً من المرات، محتلاً لاهور لفترة وجيزة سنة 836 هـ / 1432 ـ 1433م.

يبدو أن نفوذ شاه رُخ في شبه القارة كان واسعاً. فبهامادخاني، الذي ينظم شعراً في مديح ملوكية (**سَلْطَنَتْ**) ذلك العاهل، ويطلق عليه لقب «**خاتم الملوك**»[8]، يزعم أن السلطان هو شانغ المالوالي [نسبة إلى مالوا] التمس منه

---

(5) TMS، 193.

(6) بيهامادخاني، ملف 311 ب ـ 312 أ (تر. زكي، 95).

(7) المصدر نفسه، ملف 312 أ (تر. زكي، 95).

(8) المصدر نفسه، ملف 312 ب ـ 313 أ (ليس موجوداً في تر. زكي).

العون ضد غزو تعرض له من گوجرات؛ في حين يقوم المصدر التيموري بوصف سلطان البنغال، هو الآخر، ساعياً إلى الحصول على المساعدة من هراة للوقوف في وجه جاونبور[9]. من المحتمل جداً أن تكون هذه السيادة قد تعرضت للانقطاع، مع اندلاع الحرب الأهلية غداة موت شاه رُخ في 850 هـ / 1447م، وبروز الخطر التركماني الذي بات يهدد التيموريين في إيران الغربية[10]. غير أن بابُر، سليل تيمور، كان لدى قيامه بشن غزواته الخمس على الهند بالانطلاق من كابُل أوائل القرن السادس عشر، يعيد إحياء ادعاءات أجداده القائمة على المطالبة بالسيادة على شرق السند، رغم أنَّ فَتْحَ دلهي نفسها والاستيلاء عليها، كان هدفه ولكن في الوقت المناسب[11].

كان سلاطين أوائل القرن السادس عشر عاجزين تقريباً عن فرض سلطتهم على مقطعاتهم بالذات من جهة، أو على الأمراء الهندوس المحليين من جهة ثانية. ما لبثت مُلْتان، معقل خضرخان يوماً، أن انفصلت سنة 847 هـ / 1443م، بزعامة الشيخ يوسف قريشي، أحد أحفاد الشيخ بهاء الدين زكريا، الذي ما لبث، بدوره، أن جرى اقتلاعه واستبدال أسرة اللانغاه الأفغانية الحاكمة به. ليس مَسْخُ سرهندي للعقود الأولى من أسرة السادة الحاكمة أكثر من إطراء مستمر باعث على الملل لسلسلة من الحملات ضد الخوخار والميو ومقدَّمي كاتيهر، وتشاوان إيتاوا وتومار غواليور، الرامية إلى تحصيل «الموارد» على شكل جزية وخراج. فسلطنة دلهي لم تكن تضم أكثر من المناطق المحيطة مباشرة بالعاصمة نفسها، تلك المناطق المعروفة باسم الأطراف (**الحوالي**) منذ زمن بعيد. ثمة لَفْتَةٌ معاصرة لمؤرخ من القرن السادس عشر، اعتبرت دائرة نفوذ

---

(9) المصدر نفسه، ملف 312 ب (تر. زكي، 96). عبد الرزاق سمرقندي، **مطلع السعدين**، تحقيق م. شافعي (لاهور، 1941 ـ 1949م جزءان)، II، 782 ـ 783، وارد في HN، 719.

(10) انظر هـ. ر. رويمر، «خلفاء تَمُر»، في جاكسون ولوكهارت (محررين) **تاريخ إيران**، **كامبردج**، VI، 105 وبعدها.

(11) **بابور ـ نامه**، تر. بيفريدج، II، 377، 380، 382، 478.

آخر الحكام السادة، علاء الدين عالم ـ شاه (**شاهي عالم**، «**ملك العالم**») ممتدة من دلهي إلى بالام[12].

سعياً منه لتنفيذ مخططاته المتعلقة بدلهي، كان خضرخان قد جنّد أعداداً كبيرة من الزعماء الأفغان وحواشيهم. فمنذ أيام عهده هو كان الزعيم اللودي، سلطان شاه (إسلام خان لاحقاً)، الذي كان قد قَتَل مالّو إقبال خان، حاكماً لسرهندي؛ غير أنه سقط في المعركة سنة 834 هـ / 1431م وهو يقاتل قوة تيمورية غازية. وخلال عقد الأربعينيات من القرن الخامس عشر، أصبح النبلاء الأفغان أصحاب السلطة الفعلية في السلطنة. فابن شقيق إسلام خان وخلفه في ولاية سرهندي، بهلول لودي، الذي كان قد مُنح لاهور ودَيْبلُپور مقابل مساعدة قدمها ضد قوات مالوا الغازية، خرج لاحتلال الجزء الأكبر من البنجاب، وبذل محاولتين لفتح دلهي. قرر عَلَم شاه أن يهجر العاصمة ليرحل إلى بداؤون في 852 هـ / 1448م، وما لبث بهلول أن دخل المدينة بعد ثلاث سنوات، حيث جرى تنصيبه على العرش سلطاناً.

شهدت الحقبة اللودية نوعاً من الإحياء أو الصحوة. ثمة مبارزة طويلة مع جاونبور ما لبثت أن انتهت بضمها (جاونبور) (في 884 هـ / 1479م)؛ ثم جرى منح المنطقة لنجل السلطان بهلول الأصغر، الباربك شاه؛ هرب السلطان الشرقي الأخير إلى أعماق بيهار، حيث بقي محافظاً على منصبه حتى تم طرده وضم تلك المنطقة من قبل سيكاندر شاه بن بهلول (894 ـ 923 هـ / 1489 ـ 1517م)، الذي كان من قَبْلُ قد أزاح أخاه باربك عن جانبور. وفي ظل سيكاندر هذا، تحققت أيضاً مكاسب ذات شأن جهة الجنوب. تم أخيراً، سنة 898 هـ / 1492م، طرد الأوحديين، الذين استمروا يحكمون بهايانا تحت سيادة دلهي،

---

(12) أحمد يادغار، **تاريخي شاهي أو تاريخي سلطنتي أفغانية** تحقيق م. هدايت حسين، BI (كالكوتا، 1939م)، 5، وارد في لال، **غروب**. . ، 124 هـ 64.

حين جرى إخضاع المكان لسلطة شخص عَيَّنه السلطان. أما ناروار فقد تم انتزاعها من قبضة أمير غواليور في 914 هـ / 1508م، كما انتُزعت منطقة تشاندري من سلطنة مالوا سنة 921 هـ / 1515 م؛ وكذلك فإن نغوار أصبحت، سنة 915 هـ / 1509م، تابعة لدلهي. نجح ابن سيكاندر وخلفه، إبراهيم (923 ـ 932 هـ / 1517 ـ 1526م) في اجتياح غواليور التي طالما راوغت أباه، غير أنه خسر تشاندري ونغوار لصالح أمراء ميروار وماروار الهندوس على التوالي. ومن أعراض انشغال السلطان المهووس بإخضاع آلوار وغواليور وبهايانا، أن سيكاندر كان قد أقدم في 911 هـ / 1505م على نقل مقر إقامته من دلهي إلى أغرا. غير أن النتيجة الطبيعية التي ترتبت على هذه السياسة الجريئة والطموح في الجنوب، تمثلت بإهمال الحدود المعرضة للخطر في البنجاب.

بقيت هجرة الزعماء الأفغان وأتباعهم متسارعة على قدم وساق في ظل الحكامين اللوديين الأولين، خصوصاً حين حاول بهلول، في مواجهة التهديد القادم من جاونبور، أن يعزز قوته العسكرية، عبر استدعاء رجال القبائل الأفغان من عشائر الروه[13]. كان مركز الزعماء الأفغان، مع واحدة أو اثنتين من العشائر غير الأفغانية الآتية من الجهة الشمالية الغربية، التي كانوا يشاطرونها السلطة، أقوى بما لا يقاس من مركز أسلافهم خلال القرن الرابع عشر: جدير بالذكر أن السلطان، في هذه الأيام تقريباً، فَقَد احتكاره المفضل، منذ زمن طويل، لاقتناء الفيلة[14]. لقد حكم بهلول بوصفه **أولاً بين أنداد** ليس إلاً. وقد قام سيكاندر، الذي كانت طموحاته أكثر فردية (دكتاتورية)، بتعزيز موقعه تدريجياً وبمهارة؛ أما إبراهيم فقد أثبت، من البداية، أنه غير قابل للمساومة على مخططاته الرامية إلى لجم وكبح نفوذ الأرستقراطية القديمة، وبناء نخبة

---

(13) تاريخي شير ـ شاهي، وارد في HN، 679 ـ 680.

(14) HN، 665. عن وضع الأفغان في سلطنة اللوديين (السلطنة اللودية)، انظر اقتدار حسين صدّيقي، «تركيبة الطبقة الارستقراطية في ظل حكم السلاطين اللوديين»، MIM 4 (1977م)، 10 ـ 66.

يمكنه التعويل عليها[15]. ما لبثت تصرفاته المتعسفة ضد عدد من الشخصيات القيادية، أن تمخضت عن انفصال بيهار بقيادة منافس، تمكن من السيطرة على المنطقة الممتدة حتى قِنَّوج غرباً[16]، وعن مبادرة دولت خان لودي، والي البنجاب، إلى دعوة الأمير التجوري بابُر لشن غزوتيه الأخيرتين على الهند. في الحملة الرابعة تم احتلال لاهور (930 هـ / 1524م)، وفي الخامسة نجح بابُر في إلحاق الهزيمة بسلطنة دلهي وفتحها. ففي الثامن من رجب 932 / العشرين من نيسان / أبريل 1526م، تمكنت مدفعيَّةُ بابُر، عند موقع بانيبات، من إحراز التفوق على الأعداد الأضخم لقوات إبراهيم، الذي سقط في أرض المعركة. وعلى الرغم من أن طرد همايون بن بابُر، والتأسيس المؤقت لكيان سياسي جديد خاضع للحكم الأفغاني، على يد شير شاه، سنة 947 هـ / 1540م، يتمتع بشيء من الجدارة بأن يُعْتَبر إحياء السلطنة دلهي، فإن الاشتباك في بانيبات يشكل بداية الإمبراطورية المغولية.

يحرص بابُر على مقارنة انتصاره هو على حاكم الجزء الأكبر من الهند الشمالية، بانتصارات الفاتحين السابقين: محمود الغزنوي وعز الدين محمد الغوري، اللذين واجها خصوماً أضعف وأقل شأناً (وجبة أسهل على الازدراد والهضم). وبرأيه، فإن جشع إبراهيم هو المسؤول عن بقاء جيشه محدوداً بما لا يزيد عن مئة ألف رغم قُدْرَته على تجييش ضعف ذلك الرقم أو ثلاثة أمثاله[17]. غير أن هذا قد لا يكون منصفاً لغياب المساعدة من ولايات السلطان اللودي الشرقية المتمردة، مع اغتراب أكثر انتشاراً بين صفوف جيشه كما ورد

---

(15) عن علاقات السلاطين اللوديين بأمرائهم وأعيانهم، انظر عموماً اقتدار حسين صدّيقي، **بعض جوانب الاستبداد الأفغاني في الهند** (عليكره، 1969م)، الفصلان الأول والثاني.

(16) **بابور ـ نامه**، تر. بيفريدج، 523.

(17) **بابور ـ نامه**، 470، 480؛ انظر أيضاً تعليقه على ثروة الهند من الذهب والفضة، المصدر نفسه، 518، 519.

في مصدر لاحق[18]. ممكن أيضاً أن بابُراً كان يبالغ في تقويم ثروة خصمه. يشكل عدم استمرار سك القطع النقدية الفضية والذهبية في ظل السلاطين السادة واللوديين، واستخدام معادن أرخص مثل خليط البلّور والنحاس دليلاً على الضعف الاقتصادي لسلطنة القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وهي السلطنة التي فقدت السيطرة على الجزء الأكبر من مواردها، ولم تعد متمتعة بالقدرة على الوصول إلى المبالغ الهائلة التي كانت تُحصَّل على شكل غنائم، أو كخراج وجزية أيام الخَلْجيين والتُغْلُقيين.

(18) أحمد يادغار، **تاريخي شاهي**، 96.

الملحق رقم: 1

عبارة «ترك» واستخدامها من قبل الجوزجاني

أحياناً يستخدم الجوزجاني كلمة «ترك»، كإثنية (مجموعة عرقية) عامة، كما حين نقرأ عن خان «الأتراك»، (أو خاقانات الترك) .I.T.N، 230، 231 (ترجمة 84، 85)؛ انظر أيضاً، I، 281 (ترجمة 194)، عن «قبّعة الأتراك». وبأوسع معانيها يمكن للكلمة، حتى أن تحتضن بالنسبة إلى الجوزجاني، كما بالنسبة إلى مؤلفين مسلمين آخرين، القره ـ خطائيين والمغول من غير الأتراك، كما في المصدر نفسه، II، 94، 98 (تر. 900، 935). ويشير أيضاً إلى سكان المناطق الواقعة شمال وشمال شرق لخناوتي، الذين قاد محمد بن بختيار ضدهم، حملته الكارثية، على أنهم أتراك: المصدر نفسه، I، 429، والهامش: ط (تر. 566، 567). ويبدو أن السبب كامن في الظن، بأن ملامح الوجه شبيهة بنظيرتها عند الأتراك: المصدر نفسه، I، 427 (تر. 560)؛ أ. ب.، د، 216 (تر. جيب وبكينغهام، 869).

غير أن هناك ما يشير إلى أن كلمة «تُرك»، بالنسبة إلى الجوزجاني، كانت تعني مملوكاً أو غلاماً تركياً. ولعل الدليل الأوضح على هذا، هو أنه في مقطعه عن السلطان الغزنوي الأخير، يستخدم عبارة «تركي وحر» (ترك ـ وأحرار): .I. TN، 243 (تر. رافيرتي، 114، لا تبرز المعنى تماماً). وفي أماكن أخرى يدل

السياق عادة، بأن الحراس المماليك الأتراك لدى الغزنويين، مثلاً، هم المعنيون: المصدر نفسه، I، 234 (تر. 95، 97)؛ أيضاً، I، 230، 235، 236، 250، 258، 286، 314 (تر. 83 ـ 84، 98، 100، 129، 131، 149، 180، 204 ـ 205، 282). وعلى النقيض من ذلك، تدل كلمة «ترك» على الجماعات التركية البدوية المتنقلة، بقدر يتجاوز الحصر. أما الجوزجاني فلا يستخدم كلمة «ترك»، إلاّ للدلالة على الزعيم التركي الحر، مؤسس أسرة الخوارزم شاهيين المالكة (رغم أن هذا كان، هو الآخر، غلاماً أو مملوكاً في الحقيقة): TN I، 297 (تر. 233). حين لا يتم إطلاق اسم السلاجقة، أو الغزنويين تحديداً على بداة السهوب الأتراك الرحل، تجري تسميتهم بـ «التركمان» (II، 94، مثلاً)، وهذه تسمية تطلق، مثلاً، على سلجوق بالذات: المصدر نفسه، I، 213 (**تركان** وتقرأ **تركمانان** كما في مخطوطة BL، ملف 93 أ)، 245 (تر. 45، 116). يبدو أن **تركمان** مستخدمة من قبل كاتب القرن الثامن عشر المروزي للدلالة على القبائل التركية البدوية، التي اعتنقت الإسلام: **طبائع الحيوان**، طبعة جزئية وترجمة ف. مينورسكي، **شرف الزمان طاهر مروزي عن الصين والأتراك والهند** (لندن، 1942) النص العربي، 18، تر. 29 (وهوامش على 94 ـ 95). غير أن نص إ. قفص أوغلو موجود في مجلة Oriens 11 (1958)، 146 ـ 150 تحت عنوان «أبروبو دونوم تركمن A propos du nom Türkmen».

الملحق رقم: 2

قيلج خان مسعود بن علاء الدين جاني

يعود الالتباس الواسع، حول هذا النبيل المرموق، الذي عاش في منتصف القرن الثالث عشر، إلى تقلبات التراث المخطوط: **طبقات ناصري**، وصياغتيه المطبوعتين من قبل كل من ناسّاو ليز وحبيبي. فـ «قيلج» ترد أحياناً على شكل «قُطْلُغ»، مما يدفع نظامي إلى اعتباره، عدو بلبان اللدود: قُطْلُغ خان (HN، 262، 271، 272)؛ نيفام، 41، 198 ـ 199، 203، يخلط بالمثل بين الرجلين. ويجري تبني شكل قُطْلُغ نفسه، من قبل عزيز أحمد في **التاريخ السياسي**، 245، 246، 258، على الرغم من أنه، يميز مسعودي جاني عن قُطْلُغ خان. يمكن تحديد اسم قيلج خان الكامل، بالاستناد إلى I, TN، 476 (تر. 673)، حيث يرد في قائمة ملوك (أمراء)، ناصر الدين محمود شاه، على أنه ملك جلال الدين قيلج خان ـ ي ملك جاني (يرد في النص خ ل ج؛ مخطوطة BL. ملف 188 ب، تورد «طُغرُل» خطأ، وI. TN، 495 (تر. 712) حيث يطلق عليه اسم ملك جلال الدين مسعود شاه ـ ي ملك جاني. أما في II, TN، 35 (كما في مخطوطة BL، ملف 208 أ). غير أنه يعود في II, TN، 78 (كما في مخطوطة BL، ملف 223) ليظهر على شكل قيلج (ق ل ج) خان (قارن مع

قُطْلُغ [قيلج] التجريبي على الصفحتين 848 ـ 849). إن اللقب مأخوذ من تو.
قيلج «سيف»، سوفاجيه، «الأسماء والألقاب» (Noms et surnoms)، رقم: 178.

الملحق رقم: 3

القراؤون والنغودريون

عبر النص كله قبلتُ المطابقة، التي طرحها أوبان بين القراؤون والنغودريين («الثنوجينيز»، 84 ـ 85، L'ethnogénèsé, 84 - 5)، ولا أنوي تكريس مزيد من المجال، لأصول هذه المجموعة. لا تأتي مصادرنا الهندية قط على ذكر النغودريين، غير أنها تصر بين الحين والآخر، على استخدام كلمة القراؤون. والأمثلة التالية، مأخوذة من كاتبين، ألفا في القرن الرابع عشر. ففي سرده لقصة موت، ابن بلبان محمد في المعركة مع المغول عام 683 هـ / 1285م، يقول عصامي إن الأمير قُتل، بيد فارس قراؤوني. قُرئت الكلمة خطأً في طبعة أوشا، 179، 180، على شكل **فوزونا** (ترجمة معجمية إلى «جندي غائب عن الاستعراض، وغير وارد في سجل التجنيد»)، إلاّ أن الشكل الصحيح، موجود في نص أقل قيمة من النواحي الأخرى حققه حسين (آغرا [1938]، 174، 175). يستخدم أمير خسرو، هو الآخر، عبارة المحارب المغولي الذي، كان قد أسره لفترة وجيزة، غداة الإطاحة بمحمد بن بلبان (DGK، مخطوطة IOL، 412، ملف 78 ب، مع هـ ر و ن هـ خطأ؛ والتهجئة الصحيحة موجودة في بداؤوني، ا، 153). وفي وصف العقوبة المفروضة على المغول الأسرى، خلال غزو إقبال وكوپك وتايبو سنة 1306، يقول (RKF، 46)

«وعبر اندماج القراؤون مع المغول، تبدى في كل قلعة ذلك التزاوج، بين زحل والمريخ [بين السلم والحرب]».

ثمة عدد من المجازات اللفظية الكلامية في هذه الجملة، وهو أمر ناجم عن المعنى المزدوج لكلمة **برج**، التي تعني «الحصن»، و«علامة بروج السماء أو الفلك». كما أن من الممكن أن تُقرأ **قراؤون** على شكل **قارونا**، التي تعني «روح» و«موغال» على شكل **ماغال** بمعنى **«نيام»**. ممكن أخيراً أن نستشف من كلمة «زحل»، المستخدمة من قبل كتاب مسلمين هنود، للدلالة على الهندوس الملحدين، تلميحاً إلى النسب المغولي ـ الهندي المختلط للقراؤون ـ مع افتراض جدارة تعريف ماركوبولو (غواسميل، **«هجناء»** جديراً بالتصديق، بالطبع (أوبان، «لثنوجينز»، 66 ـ 69)؛ غير أن هذا مجرد تخمين.

جنباً إلى جنب مع أدلة III, IB، 201 (تر. جيب، 649)، الذي سمع من الشيخ ركن الدين الملتاني، أن القراؤون، كانوا «تُركاً» ممن «عاشوا في الجبال بين السند، والأتراك [أي بلاد ما وراء النهر وتركستان]»، توحي هذه الأمثلة، بأن كلمة قراؤون، كانت متداولة على نطاق واسع في الهند الإسلامية، وعبارة نغودريين لم تُستخدم إلاَّ من قبل المغول أنفسهم، ومن جانب مؤلفين كتبوا في إيران المغولية.

الملحق رقم: 4

عَيْن المُلْك مُلْتاني وعين المُلْك بن مهرو

نشأ بعض اللبس بين عين الملك ملتاني، الذي فتح مالوا لصالح علاء الدين خَلْجي، وعين المُلك بن مهرو، الذي حكم مُلْتان في ظل محمد بن تُغْلُق، وفيروز شاه بالتتابع، والذي وصلتنا مراسلاته. للاطلاع على وضع إشارة المساواة بين الرجلين، انظر عبد الولي، 254 ـ 255؛ مقدمة عبد الرشيد لـ IM، 1 ملفات؛ لال، **تاريخ الخَلْجين**، 340؛ حسين، **الأسر التُغْلُقية الحاكمة**، 80 ـ 81، 87، إلخ، والفهرس؛ نيغام، 13، 18، 79، 82، 88، 158 ـ 159، 171، 173، 174، 179 (رغم التمييز بينهما في الفهرس!)؛ نظامي، **عن التاريخ والمؤرخين**، 211 ـ 216، خصوصاً 212 هـ. 1، وفي **تتمة لتاريخ الهند تأليف: إيليون ودوسون**، ج، 64 ـ 65؛ كونرمان، **أوراق هندية**، 163 ـ 164. أما ب. ب. ساكسينا، في HN، 615 هـ. 67، وإ. هـ. صديقي، «عين الملك ملتاني»، **الموسوعة الإسلامية** Enc. I.L^2، تتمة، 104، 105، فيجعلانهما شخصين منفصلين.

من المعروف، أن عين الملك بن مهرو كان هندياً: IB, III، ج، 344 (تر. جيب، 722). ربما كان اسمه الثاني، الذي يمكن أن يتعقبه في المصدر السابق، III، 342 (تر. 721)، مؤشراً يدل على أن أباه، كان من المهتدين إلى

الإسلام. ويظهر اسمه بشكل أكمل، مرتين في مراسلاته. في المرة الأولى تقول الشهادة، التي تتضمن تعيينه، والياً على مُلْتان، إنه «ملك الشرق والوزراء عين الملك عين الدولة والدين. . . عبد الله ـ ي مهرو (إ.م.، 12؛ كذلك SFS، 154، «عين الملك عين الدين ـ ي مهرو»). وفيما بعد يسمّي المؤلفُ نَفْسَه «عبد الله ـ ي محمد شرف، المعرف بـ (**المدعو**) عين ـ ي مهرو (إ.م.، 1762). يبدو أن هذا ينفي تماهيه مع عين الملك مُلْتاني، الذي جاء اسمه الكامل على نحو عين الملك شهاب ـ ي تاج مُلْتاني في TMS، 77، 87، والذي لم يعد له أي ذكر بعد عهد تُغْلُق شاه. يجري في **تُغْلُق نامه**، 67، جعل عين الملك الأقدم هذا يدعي لنفسه نسباً إسلامياً يعود إلى عشرة أجيال (**با ـ داه بوشت**)، مما يوحي بأنه كان ينتمي إلى عائلة إسلامية مرموقة. فملك ناصر الدين، نجل عين الملك، الذي قضى، حسب ما قاله IV, IB، 45 (تر. جيب وبكينغهام، 793)، وهو يشارك في الهجوم على سندابور (غوا)، كان ابنه هو، لأن هناك من يُخبرنا بأنه عاش في أوجاين.

الملحق رقم: 5

تاريخ وفاة غياث الدين تُغْلُق شاه

تقليدياً جرى تحديد تاريخ وفاة غياث الدين تُغْلُق في أفغانبور، واعتلاء محمد للعرش من قبل المؤرخين بعام 725 ـ ، وفقاً للتاريخ الوارد في TFS، 456، بالنسبة إلى الحدث الثاني وشهر ربيع الأول للعام نفسه (شباط ـ آذار 1325) الوارد تاريخاً لما حدث في أفغانبور في TMS، 96 ـ 97. غير أن المصادر بعيدة عن الإجماع. فعصامي ـ مثل برني، وهو معاصر (ولو لم يكن، باعتراف الجميع، جديراً بالثقة فيما يخص التواريخ) ـ يضع موت تُغْلُق في 724 (FS، 421)، ويحدد حسام خان آخر أيام ذلك العام (AHC, III، 862)؛ وكذلك فإن ما لدينا من معلومات عن مدة عهد تُغْلُق يلفها الغموض. يعتبرها عفيف، 41، أربع سنوات ونصف السنة؛ وبرني يقول «أربع أو خمس سنوات» (TFS، 438) مرة، غير أنه يورد أكثر الأحيان عبارة «أربع سنوات وبضعة أشهر» (المصدر السابق، 22، 445)؛ ويتبعه سر هندي في هذا، على الرغم من أن **تشاند معدل إلى هاشت**، في إحدى المخطوطات (TMS، 97 وهـ 1). إلاّ أن صياغة برني المنقحة الأولى، وهي مرجع لم يتم اعتماده قبل الآن على هذا الصعيد، تورد رقماً أكثر دقة إذ تقول «أربع سنوات وأربعة أشهر» (TFS، مخطوطة بودليان، ملف 11أ). أما أمير خسرو فيحدد تاريخ اعتلاء تُغْلُق للعرش في الأول من

شعبان 720 هـ / السادس من أيلول 1320م (تُغْلُق ـ نامه، 135)، ومن شأن الرقم الوارد في TFS[1]، أن يضع موته في يوم من أيام ذي الحجة 724 ـ نهاية العام تحديداً بعبارة أخرى كما أشار حسام خان. وهذا الاستنتاج يدعمه **فرمان** صادر عن محمد بن تُغْلُق، يحمل تاريخ الرابع عشر من ذي الحجة 724 هـ / الثاني من كانون أول 1324م، يوضح بجلاء أنه السلطان الحاكم كما لا يأتي على أي ذكر لأبيه (نظامي، «بعض الوثائق»، 308 ـ 309)، محتمل بقوة أيضاً أن يكون منقوش على مسلة فيروز شاه في فتح آباد يحدد تاريخ وفاة تُغْلُق برجب 725 واعتلاء محمد للعرش بالأول من شعبان، قد أخطأ بعام كامل، نظراً لأن المنقوش نفسه يجعل فترة حكم السلطان أربع سنوات وشهرين (أي من منتصف 720 هـ إلى أواخر 724 هـ): للاطلاع على النص، انظر شوكوهي، **هاريانا** آ، 21، وفارسيات 28 أ، 29 ب ـ هـ؛ قارن مع عرض جاكسون JRAS، (1990)، 171 ـ 172.

لدينا أيضاً منقوش عن محمد كسلطان من كانبهايا يعود إلى الثامن عشر من محرم 725 هـ / الرابع من كانون ثاني 1325 م: وقد حرره حسين («ستة منقوشات»، 29 ـ 33)، الذي يغوص عميقاً كي يبرهن على أن هذا التاريخ كان يقع داخل عهد تُغْلُق وبالتالي ينطبق على تاريخ الشروع بالبناء، الذي يجب أن يكون قد أُنجز بعد بضعة أشهر. ومن المعروف أن منقوشاً من باتيهاغاره الواقعة شمال ـ غرب داموه يحمل تاريخ 725 هـ ويسمي تُغْلُق سلطاناً حاكماً (فيرما، «منقوشات من المتحف المركزي، ناغبور»، 111 ـ 112) ومع ذلك فإن هذا قد يكون عائداً، نظراً لعدم ورود الشَّهر، إلى بداية العام. لعل الخلاصة المتوازنة هي أن السلطان قضى نحبه آخر عام 724 هـ، مما جعلني أعتمدُ هذا التاريخ.

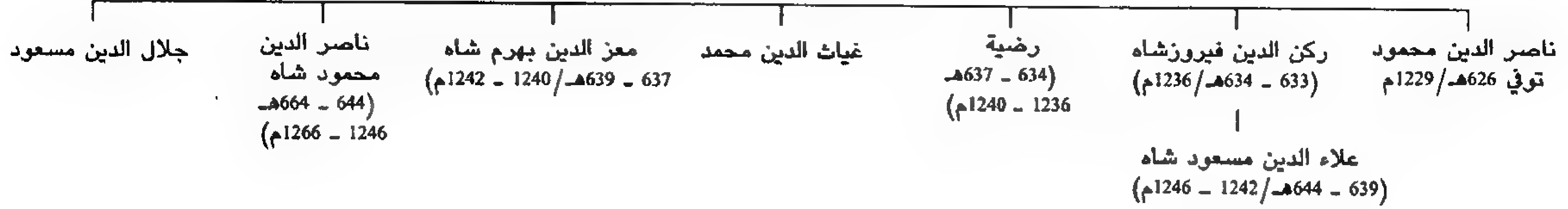
الملحق رقم: 6

أسلاف تُغْلُق شاه الثاني

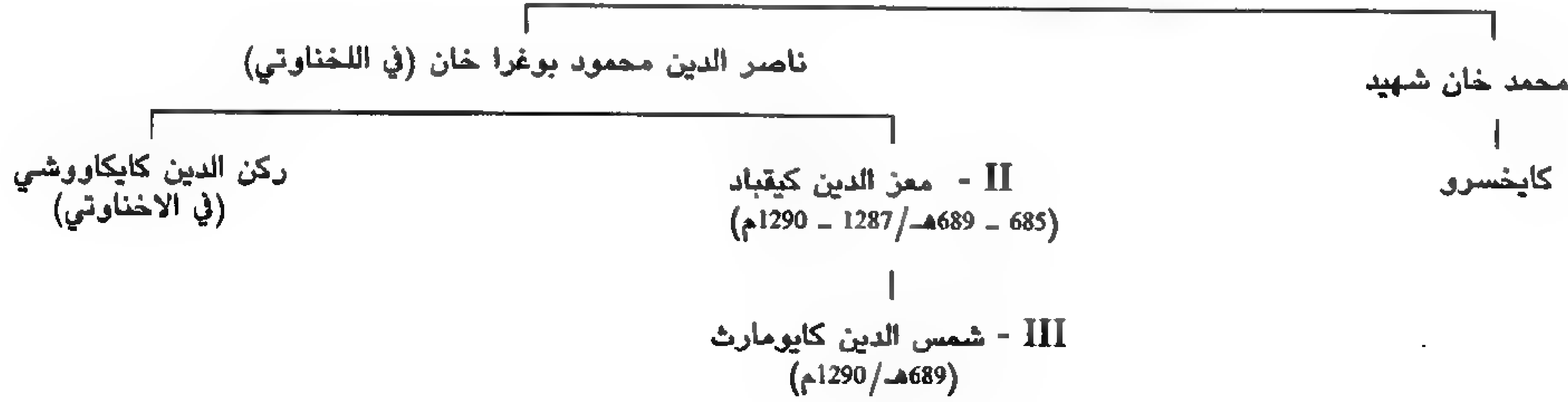
تُجمع المصادر على اعتبار تُغْلُق شاه الثاني ابن فتح خان. وعلى الرغم من أن بيهاماندخاني، ملف 416 أ (تر. زكي، 19)، وTMS، 140، يعتبرانه أيضاً حفيد فيروز شاه، فإن هذا خطأ على ما يبدو. لقد كان في حقيقة الأمر ابنَ حفيد السلطان العجوز، ويبقى التسلسل التاريخي المتداول عن الطغالقة اللاحقين (أي في هايغ، **تاريخ كامبردج للهند**، ج، 189، 692؛ بنرجي، **تاريخ فيروز شاه**، 47؛ لال، **غسق**، 2) بحاجة إلى تصحيح وتنقيح. كان لفيروز شاه أربعة أبناء هم فيروز خان (عُرف بلقب **شاهزاده ـ ي بزرك**، «الأمير الكبير»)، وظفرخان، ومحمد خان (سلطان المستقبل)، وشادي خان، كما جاء في TFS، مخطوطة BL، ملف 260 ب (إن العبارة التالية في النص المطبوع، 527، مشوهة وتحذف الأميرين الأخيرين) وعند بيهاماندخاني، ملف 416 ب (تر. زكي، 20). يشار صراحة إلى فتح خان على أنه ابن فيروز خان عند بيهاماندخاني (المصدر السابق) وTFS، 527 (وعبارة **أعني سلطان محمد**، ينطبق على محمد خان، وقد جرت إزاحتها)؛ قارن أيضاً مع عفيف، 65، حيث يقال إن فتح خان قد وُلِد في بيت فيروز خان. وبما أن ولادته حدثت سنة 752 هـ / 1351م، (TMS، 122)، من السهل أن يكون فتح خان قد أصبح أباً لمولود صغير قبل

تاريخ وفاته ـ تُعلّق المصادرُ على شباب تُغْلُق شاه: بيهامادخاني، ملف 418 أ، 419 ب (تر. زكي، 25، 27)؛ TMS، 142. ومما ساهم في التشويش أنَّ فتح شاه كان عملياً أكبر سناً من عمه محمد بعام واحد، وللاطلاع على تاريخ ميلاد الأخير في الثالث من جمادى الأولى 753 هـ / السابع عشر من حزيران 1352م، انظر TMS، 123.

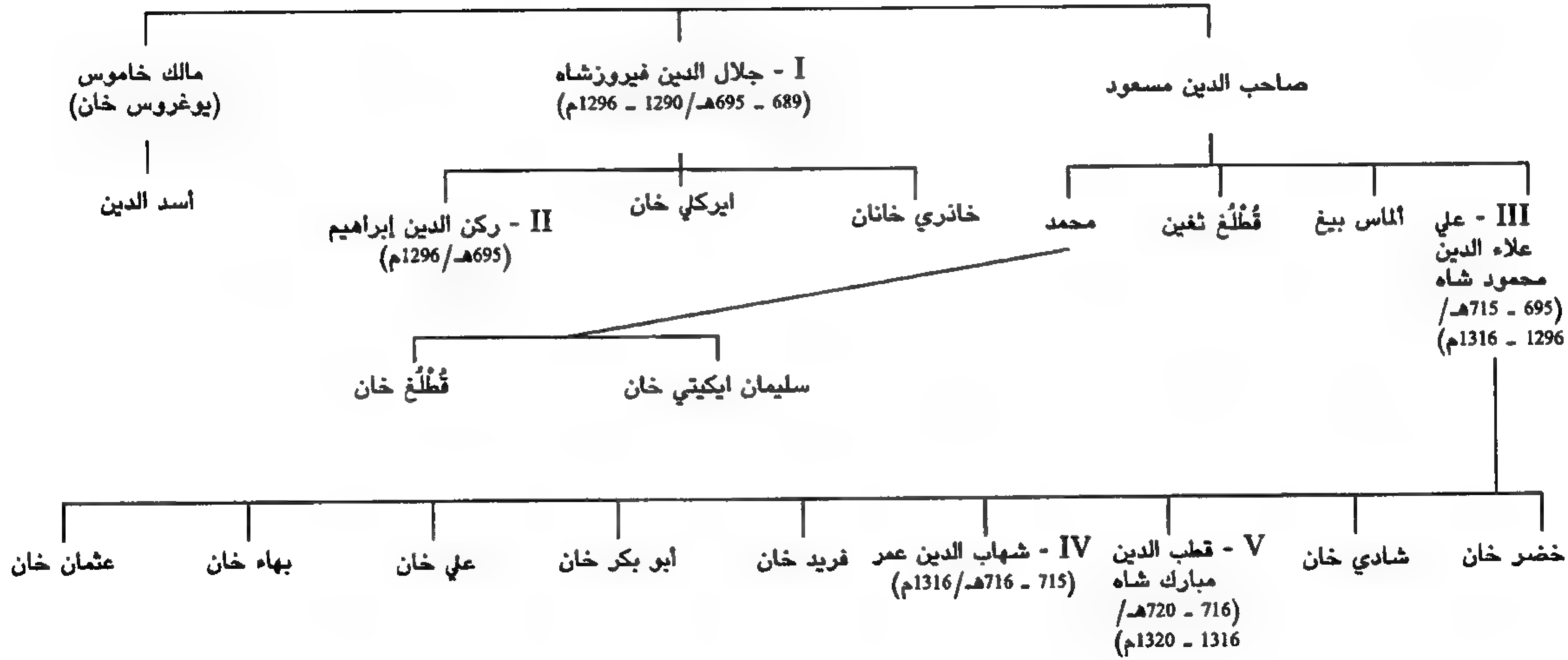
الشمسيون



الغياثيون

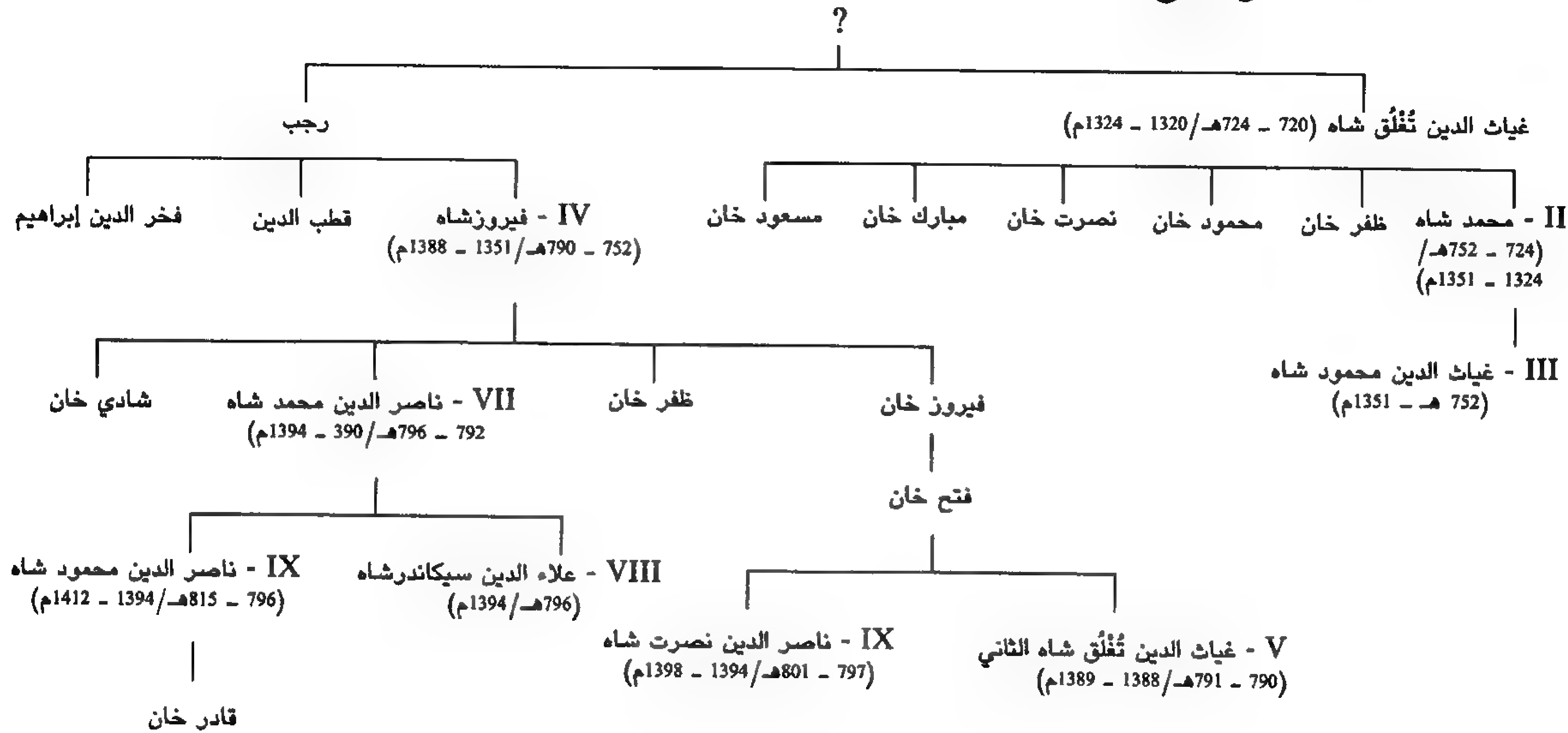


الخلجيون



يوغروش
مالك خاموس (يوغروس خان)
أسد الدين
I - جلال الدين فيروزشاه (689 ـ 695هـ/1290 ـ 1296م)
II - ركن الدين إبراهيم (695هـ/1296م)
ايركلي خان
خانري خانان
صاحب الدين مسعود
محمد
قُطْلُغ ثغين
الماس بيغ
III - علي علاء الدين محمود شاه (695 ـ 715هـ/ 1296 ـ 1316م)
سليمان ايكيتي خان
قُطْلُغ خان
عثمان خان
بهاء خان
علي خان
أبو بكر خان
فريد خان
IV - شهاب الدين عمر (715 ـ 716هـ/1316م)
V - قطب الدين مبارك شاه (716 ـ 720هـ/ 1316 ـ 1320م)
شادي خان
خضر خان

آل تُغْلُق


?
غياث الدين تُغْلُق شاه (720 ـ 724هـ/1320 ـ 1324م)
رجب
II - محمد شاه (724 ـ 752هـ/ 1324 ـ 1351م)
ظفر خان
محمود خان
نصرت خان
مبارك خان
مسعود خان
IV - فيروزشاه (752 ـ 790هـ/1351 ـ 1388م)
قطب الدين
فخر الدين إبراهيم
III - غياث الدين محمود شاه (752 هـ ـ 1351م)
فيروز خان
ظفر خان
VII - ناصر الدين محمد شاه 792 ـ 796هـ/390 ـ 1394م)
شادي خان
فتح خان
V - غياث الدين تُغْلُق شاه الثاني (790 ـ 791هـ/1388 ـ 1389م)
IX - ناصر الدين نصرت شاه (797 ـ 801هـ/1394 ـ 1398م)
VIII - علاء الدين سيكاندرشاه (796هـ/1394م)
IX - ناصر الدين محمود شاه (796 ـ 815هـ/1394 ـ 1412م)
قادر خان

المراجع

Primary sources

(a) Literary sources

Anonymous, *Bayāḍ-i Tāj al-Dīn Aḥmad Wazīr*, ed. Īraj Afshār and Murtaḍā Taymūrī (Isfahan, 1353 Sh./1974)
Anonymous, continuation of Rashīd al-Dīn, *Jāmiʿ al-Tawārīkh*, Istanbul ms. Nuruosmaniye Kütüphanesi 2799 (old numbering: 3271)
Anonymous, *al-Ḥawādith al-Jāmiʿa* (wrongly attributed to Ibn al-Fuwaṭī), ed. Muṣṭafā Jawād (Baghdad, 1351/1932)
Anonymous, *Ḥudūd al-ʿĀlam*, facsimile edn by V. V. Bartol'd (Leningrad, 1930); tr. V. Minorsky, 2nd edn, GMS, ns, XI (London, 1970)
Anonymous, *Muʿizz al-Ansāb*, BN ms. Ancien fonds persan 67
Anonymous, *Sīrat-i Fīrūz-Shāhī*, SOAS ms. 283116 (copy of ms. in Bankipore Library, Patna); extracts tr. K. K. Basu, 'An account of Firoz Shāh Tughluq', *JBORS* 22 (1936), 96–107, 265–74; 23 (1937), 97–112; K. K. Basu, 'Firoz Tughluq and his Bengal campaign', *JBORS* 27 (1941), 79–95; N. B. Roy, 'Jajnagar expedition of Sulṭān Fīrūz Shāh', *JRASB, Letters* 8 (1942), 57–98; J. A. Page, 'A memoir on Kotla Firuz Shah', *MASI* 52 (1937), 33–42; Sh. Abdur Rashid, 'Firoz Shah's investiture by the Caliph', *MIQ* 1 (1950), 66–71
Anonymous, tr. of Rāzī's *Sirr al-Makhtūma*, BN ms. Suppl. persan 384
Anonymous, *Ta'rīkh-i Sīstān*, ed. Malik al-Shuʿarā Bahār (Tehran, 1314 Sh./1935); tr. L. P. Smirnova (Moscow, 1974)
ʿAfīf, Shams-i Sirāj, *Ta'rīkh-i Fīrūz-Shāhī*, ed. Maulavi Vilayat Hosain, BI (Calcutta, 1888–91)
Aḥmad Yādgār, *Ta'rīkh-i Shāhī* or *Ta'rīkh-i Salāṭīn-i Afāghina*, ed. M. Hidayat Hosain, BI (Calcutta, 1939)
Amīr Ḥasan Dihlawī, *Fawā'id al-Fu'ād*, ed. M. Laṭīf Malik (Lahore, 1386/1966)
Amīr Khusraw Dihlawī, *Dībacha-yi Ghurrat al-Kamāl*, ed. Sayyid Wazīr al-Ḥasan ʿĀbidī (Lahore, 1975); IOL Persian ms. 51 (Ethé, no. 1186)
Diwal Rānī-yi Khaḍir Khān, ed. Rashīd Aḥmad Sālim Anṣārī (Aligarh, 1336/1917)
Ghurrat al-Kamāl, IOL Persian ms. 412 (Ethé, no. 1187)
Khazā'in al-Futūḥ, ed. M. Wahid Mirza, BI (Calcutta, 1953)
Miftāḥ al-Futūḥ, ed. Sh. Abdur Rashid (Aligarh, 1954)
Nuh Sipihr, ed. M. Wahid Mirza (London, 1950)

Qirān al-Sa'dayn, ed. Maulavi Muḥammad Isma'īl and Sayyid Ḥasan Baranī (Aligarh, 1337/1918)

Rasā'il al-I'jāz, lithograph edn (Lucknow, 1876, 5 vols. in 2); IOL Persian ms. 570 (Ethé, no. 1219) and BL mss. Add. 16841, Add. 16842

Tughluq-Nāma, ed. Sayyid Hāshimī Farīdābādī (Aurangābād, 1352/1933)

Tuḥfat al-Ṣighār, IOL Persian ms. 412 (Ethé, no. 1187)

Wasaṭ al-Ḥayāt, IOL Persian ms. 412 (Ethé, no. 1187)

'Awfī, Sadīd al-Dīn Muḥammad b. Muḥammad Bukhārī, *Jawāmi' al-Ḥikāyāt*, I (preface), ed. Muḥammad Mu'īn, 2nd edn (Tehran, 1350 Sh./1971); BL mss. Or. 4392 and Or. 2676; BN ms. Anc. fonds persan 75

Lubāb al-Albāb, ed. E. G. Browne and M. M. Qazwīnī (Leiden and London, 1903–6, 2 vols.)

Bābur, Ẓahīr al-Dīn Muḥammad, *Bābur-Nāma*, tr. Annette S. Beveridge, *The Bābur-nāma in English* (London, 1921–2; repr. 1969)

Badā'ūnī, 'Abd al-Qādir, *Muntakhab al-Tawārīkh*, ed. Maulavi Aḥmad 'Ali, BI (Calcutta, 1864–9, 3 vols.)

Badr-i Chāch, *Qaṣā'id*, lithograph edn by M. Hādī 'Alī (Kānpūr, n.d.); lithograph edn by M. 'Uthmān Khān (Rampur, 1872–3, 2 vols.)

Balādhurī, *Futūḥ al-Buldān*, ed. M. J. De Goeje, *Liber expugnationis regionum* (Leiden, 1866); ed. S. al-Munajjid (Beirut, n.d.)

Baranī, Ḍiyā', *Fatāwā-yi Jahāndārī*, ed. Afsar Saleem Khan (Lahore, 1972)

Na't-i Muḥammadī, RRL Persian ms. 1895; extract tr. in S. Nurul Ḥasan, 'Sahifa-i-Na't-i-Muḥammadi of Zia-ud-din Barani', *MIQ* 1 (1950), 100–6

Ta'rīkh-i Fīrūz-Shāhī, ed. Saiyid Aḥmad Khán, BI (Calcutta, 1860–2); BL ms. Or. 2039

Ta'rīkh-i Fīrūz-Shāhī, first recension: Bodleian ms. Elliot 353; RRL Persian ms. 2053; ms. in private collection of Simon Digby

Bihāmadkhānī, Muḥammad, *Ta'rīkh-i Muḥammadī*, BL ms. Or. 137; partial tr. (from 755/1354) Muḥammad Zaki (Aligarh, 1972)

Fakhr-i Mudabbir (Muḥammad b. Manṣūr b. Sa'īd Qurashī), *Ādāb al-Ḥarb wa'l-Shajā'a* (or *Ādāb al-Mulūk*), ed. Aḥmad Suhaylī Khwānsārī (Tehran, 1346 Sh./1967)

Shajarat (or *Baḥr*) *al-Ansāb*, partial edn by Sir E. Denison Ross, *Ta'rikh* [sic]*-i Fakhr al-Dín Mubárakshâh* (London, 1927)

Firishta (Muḥammad Qāsim Hindū Shāh Astarābādī), *Gulshan-i Ibrāhīmī*, lithograph edn (Bombay, 1247/1831–2, 2 vols.)

Fīrūz Shāh b. Rajab (Sultan), *Futūḥāt-i Fīrūz-Shāhī*, ed. Sh. Abdur Rashid (Aligarh, 1954); tr. N. B. Roy, 'The victories of Sulṭān Fīrūz Shāh of Tughluq dynasty', *IC* 15 (1941), 449–64

Ghaznawī, 'Abd al-Ḥamīd Muḥarrir, *Dastūr al-Albāb fī 'Ilmi'l-Ḥisāb*, RRL Persian ms. 1231; partial tr. Sh. Abdur Rashid, 'Dastur-ul-Albab fi 'Ilm-il-Hisab', *MIQ* 1 (1950), 59–99

Ḥamīd Qalandar, *Khayr al-Majālis*, ed. K. A. Nizami (Aligarh, [1959])

Harawī, Niẓam al-Dīn Aḥmad, *Ṭabaqāt-i Akbarī*, ed. B. De *et al.*, BI (Calcutta, 1931–5, 3 vols.)

Ḥasan-i Niẓāmī (Tāj al-Dīn Ḥasan b. Niẓāmī Nīshāpūrī), *Tāj al-Ma'āthir*, IOL Persian ms. 15 (Ethé, no. 210)

Ibn Abi'l-Faḍā'il, al-Mufaḍḍal, *al-Nahj al-Sadīd*, partial edn and tr. E. Blochet,

'Moufazzal Ibn Abil-Fazaïl. Histoire des Sultans Mamlouks', *Patrologia Orientalis* 12–20 (1919–29) (references are to the separatum); partial edn and tr. Samira Kortantamer, *Ägypten und Syrien zwischen 1317 und 1341*, IU 23 (Freiburg i. Br., 1973)

Ibn al-Athīr, 'Izz al-Dīn, *al-Kāmil fi'l-Ta'rīkh*, ed. C. J. Tornberg, *Ibn-El-Athiri Chronicon quod perfectissimum inscribitur* (Leiden, 1851–76, 12 vols.); repr. (with different pagination) Dar al-Sader (Beirut, 1386/1966, 12 vols.) (references are to both editions, in that order)

Ibn al-Dawādārī, Abū Bakr b. 'Alī b. Aybak, *Kanz al-Durar wa-Jāmi' al-Ghurar*, ed. Sa'īd 'Āshūr *et al.*, *Die Chronik des Ibn ad-Dawādārī*, QGIA, I: VII (Cairo, 1392/1972); VIII (Cairo, 1391/1971); IX (Cairo, 1379/1960)

Ibn Baṭṭūṭa, Abū 'Abd-Allāh Muḥammad b. 'Abd-Allāh al-Lawātī al-Ṭanjī, *Tuḥfat al-Nuẓẓār fī Gharā'ibi'l-Amṣār*, ed. Ch. Defrémery and B. S. Sanguinetti (Paris, 1853–8, 4 vols.); tr. H. A. R. Gibb, *The travels of Ibn Baṭṭūṭa A.D. 1325–1354*, HS, 2nd series, 110, 117, 141, 178 (Cambridge and London, 1958–94, 4 vols. of 5 so far; vol. IV ed. by C. F. Beckingham)

Ibn Māhrū, 'Ayn al-Mulk 'Abd-Allāh-i Muḥammad Sharaf, *Inshā-yi Māhrū*, ed. Sh. Abdur Rashid (Lahore, 1965)

Ibn Sa'īd al-Maghribī, *Kitāb al-Jughrāfiyya*, ed. Ismā'īl al-'Arabī (Beirut, 1970)

Ibn Zarkūb, Mu'īn al-Dīn Aḥmad b. Abi'l-Khayr Shīrāzī, *Shīrāz-Nāma*, ed. Bahman Karīmī (Tehran, 1310 Sh./1932); ed. Isma'īl Wā'iẓ Jawādī (Tehran, 1350 Sh./1971)

Ikhtisān-i Dabīr (Tāj al-Dīn Muḥammad b. Aḥmad b. Ḥasan), *Basātīn al-Uns*, BL ms. Add. 7717

'Iṣāmī, 'Abd al-Malik, *Futūḥ al-Salāṭīn*, ed. A. S. Usha (Madras, 1948); tr. A. M. Husain (Aligarh, 1967–77, 3 vols. with continuous pagination)

Ja'far b. Muḥammad b. Ḥasan Ja'farī, *Ta'rīkh-i Yazd*, ed. Īraj Afshār (Tehran, 1338 Sh./1959)

Jājarmī, preface to his tr. of Ghazālī's *Iḥyā' 'Ulūmi'l-Dīn*, BL ms. Or. 8194

Jamāl al-Qarshī, *Mulḥaqāt al-Ṣurāḥ*, ed. in V. V. Bartol'd, *Turkestan v epokhu mongol'skogo nashestviia* (St Petersburg, 1898–1900, 2 vols.), I (texts)

Juwaynī, 'Alā' al-Dīn Aṭā Malik, *Ta'rīkh-i Jahān-Gushā*, ed. Mīrzā Muḥammad Qazwīnī, GMS, XVI (Leiden and London, 1912–37, 3 vols.); tr. J. A. Boyle, *The history of the world-conqueror* (Manchester, 1958, 2 vols. with continuous pagination)

Jūzjānī, Minhāj al-Dīn Abū 'Umar 'Uthmān b. Sirāj al-Dīn, *Ṭabaqāt-i Nāṣirī*, ed. 'Abd al-Ḥayy Ḥabībī, 2nd edn (Kabul, 1342–3 Sh./1963–4, 2 vols.); tr. H. G. Raverty, *Ṭabaḳāt-i Nāṣirī: a general history of the Muḥammadan dynasties of Asia*, BI (London, 1872–81, 2 vols. with continuous pagination); BL ms. Add. 26189; IOL ms. 3745; Berlin ms. Petermann 386 (Pertsch, no. 367)

Kirmānī, Muḥammad b. Mubārak (Mīr-i Khwurd), *Siyar al-Awliyā' fī Muḥabbati'l-Ḥaqq jalla wa-'Alā'*, lithograph edn (Delhi, 1302/1885)

Kirmānī, Nāṣir al-Dīn, *Simṭ al-'Ulā li'l-Ḥaḍrati'l-'Ulyā'*, ed. 'Abbās Iqbāl (Tehran, 1328 Sh./1949)

Kūfī, 'Alī b. Ḥāmid b. Abī Bakr, *Chach-Nāma*, ed. N. A. Baloch, *Fathnāmah-i Sind* (Islamabad, 1403/1983)

Maqrīzī, Taqī' al-Dīn Aḥmad b. 'Alī al-, *al-Sulūk li-Ma'rifat Duwali'l-Mulūk*, ed. M.M. Ziada *et al.* (Cairo, 1934– in progress)

Marco Polo, *Le divisament dou monde*, tr. A. C. Moule and Paul Pelliot, *The description of the world* (London, 1938, 2 vols.); tr. Sir Henry Yule, *The book of Ser Marco Polo the Venetian*, new edn by H. Cordier (London, 1920, 3 vols.)

Nasawī, Muḥammad b. Aḥmad b. ʿAlī, *Sīrat al-Sulṭān Jalāl al-Dīn*, ed. Octave Houdas (Paris, 1891); tr. Z. M. Buniiatov, *Zhizneopisanie Sultana Dzhalal ad-Dina Mankburny* (Baku, 1973)

Naṭanzī, Muʿīn al-Dīn, *Muntakhab al-Tawārīkh*, partial edn by Jean Aubin, *Extraits du Muntakhab al-tawarikh-i Mu'ini* (Tehran, 1957)

Nizami, K. A. (ed.), 'Some documents of Sultan Muḥammad bin Tughluq', *MIM* 1 (1969), 305–13

Qāshānī, Jamāl al-Dīn ʿAbd-Allāh b. ʿAlī, *Ta'rīkh-i Uljāītū Sulṭān*, ed. Mahin Hambly (Tehran, 1348 Sh./1969)

Qazwīnī, Ḥamd-Allāh Mustawfī, *Ta'rīkh-i Guzīda*, ed. ʿAbd al-Ḥusayn Nawā'ī (Tehran, 1339 Sh./1960)

Rashīd al-Dīn Faḍl-Allāh al-Hamadānī, *Jāmiʿ al-Tawārīkh*, divided as follows:

A. History of the Mongols:

I, part 1 [account of the Turkish and Mongol tribes], ed. A. A. Romaskevich *et al.* (Moscow, 1965); tr. A. A. Khetagurov, *Sbornik letopisei*, I, part 1 (Moscow and Leningrad, 1952); I, part 2 [history of Chinggis Khan], ed. I. N. Berezin, 'Sbornik letopisei', *TVOIRAO* 13 (1868), 1–239, and 15 (1888), 1–231; tr. O. I. Smirnova, *Sbornik letopisei*, I, part 2 (Moscow and Leningrad, 1952);

II [history of Chinggis Khan's successors], ed. E. Blochet, GMS, XVIII, part 1 (Leiden and London, 1911); tr. J. A. Boyle, *The successors of Genghis Khan* (New York, 1971); tr. Iu.P. Verkhovskii, *Sbornik letopisei*, II (Moscow and Leningrad, 1960); II, part 1 (only), ed. A. A. Alizade (Moscow, 1980);

III [history of the Ilkhans], ed. A. A. Alizade and tr. A. K. Arends (Baku, 1957); partial edn by Karl Jahn, *Geschichte Ġāzān Ḫān's*, GMS, ns, XIV (London, 1940);

B. History of India, ed. and tr. Karl Jahn, *Die Indiengeschichte des Rašīd ad-Dīn*, 2nd edn (Vienna, 1980)

Shuʿab-i Panjgāna, TSM ms. III Ahmet 2937

Ṣafadī, Khalīl b. Aybak al-, *Aʿyān al-ʿAṣr*, SK ms. Aşir Efendi 588

al-Wāfī bi'l-Wafayāt, ed. H. Ritter *et al.* (Damascus, 1931–in progress); extract tr. M. S. Khān, 'An undiscovered Arabic source of the history of Sulṭān Muḥammad bin Tughlaq', *IC* 53 (1979), 187–205, with addenda (comprising Arabic text), *IC* 54 (1980), 47–8

Sayfī (Sayf b. Muḥammad b. Yaʿqūb al-Harawī), *Ta'rīkh-Nāma-yi Harāt*, ed. M. Z. as-Siddíqui (Calcutta, 1944)

Sayyid Ashraf Jahāngīr Simnānī, *Maktūbāt-i Ashrafī*, BL ms. Or. 267

Shabānkāra'ī, Muḥammad b. ʿAlī, *Majmaʿ al-Ansāb*, ed. Mīr Hāshim Muḥaddith (Tehran, 1363 Sh./1984)

Shāmī, Niẓām-i, *Ẓafar-Nāma*, ed. Felix Tauer, *Histoire des conquêtes de Tamerlan intitulée Ẓafarnāma*, Monografie Archivu Orientálního, V (Prague, 1937–56, 2 vols.)

Sikandar b. Muḥammad, alias Manjhū, *Mir'āt-i Sikandarī*, ed. S. C. Misra and Muḥammad Luṭf al-Raḥmān (Baroda, 1961); tr. in Sir E. C. Bayley, *The local Muḥammadan dynasties. Gujarat* (London, 1886)

Sirhindī, Yaḥyā b. Aḥmad, *Ta'rīkh-i Mubārak-Shāhī*, ed. S.M. Hidayat Husain, BI (Calcutta, 1931)
Ulughkhānī, 'Abd-Allāh Muḥammad al-Makkī, *Ẓafar al-Wālih bi-Muẓaffar wa-Ālih*, ed. Sir E. Denison Ross, *An Arabic history of Gujarat* (London, 1910–28, 3 vols.)
'Umarī, Shihāb al-Dīn Abu'l-'Abbās Aḥmad b. Yaḥyā ibn Faḍl-Allāh al-, *Masālik al-Abṣār fī Mamālikiʼl-Amṣār*, (section on India), ed. and tr. Otto Spies, *Ibn Faḍlallāh al-'Omarī's Bericht über Indien in seinem Werke* ..., Sammlung Orientalischer Arbeiten, XIV (Leipzig, 1943); ed. Khurshīd Aḥmad Fāriq (Delhi, [1961]); tr. Iqtidar Husain Siddiqi and Qazi Muḥammad Aḥmad, *A fourteenth century Arab account of India under Sulṭān Muḥammad bin Tughlaq* (Aligarh, [1975]); (section on the Mongol empire) ed. and tr. Klaus Lech, *Das mongolische Weltreich: al-'Umarī's Darstellung der mongolischen Reiche in seinem Werk* ..., AF, XXII (Wiesbaden, 1968)
Van den Wyngaert, Anastasius (ed.), *Sinica Franciscana*, I. *Itinera et relationes Fratrum Minorum saeculi XIII et XIV* (Quaracchi-Firenze, 1929)
Waṣṣāf (Shihāb al-Dīn 'Abd-Allāh b. 'Izz al-Dīn Faḍl-Allāh Shīrāzī), *Tajziyat al-Amṣār wa-Tazjiyat al-A'ṣār*, lithograph edn (Bombay, 1269/1853)
Yazdī, Ghiyāth al-Dīn 'Alī, *Rūz-Nāma-yi Ghazawāt-i Hindūstān*, tr. A. A. Semenov, *Dnevnik pokhoda Tīmūra v Indiiu* (Moscow, 1958)
Yazdī, Sharaf al-Dīn 'Alī, *Ẓafar-Nāma*, ed. M. M. Ilahdād, BI (Calcutta, 1885–8, 2 vols.); facsimile (including *muqaddima*) edn by A. Urunbaev (Tashkent, 1972)
Yūnīnī, Quṭb al-Dīn Mūsā b. Muḥammad al-, *al-Dhayl 'alā' Mir'ātiʼl-Zamān* (Hyderabad, AP, 1374–80/1954–61, 4 vols. so far); TSM ms. III Ahmet 2907/e.3
Yūsuf-i Ahl, Jalāl al-Dīn, *Farā'id-i Ghiyāthī*, ed. Hishmat Mu'ayyad (Tehran, 2536 Shāhanshāhī/1977 and 1358 Sh./1979, 2 vols. so far); SK ms. Fatih 4012

(b) Epigraphy and numismatics

Abdul Karim (ed.), *Corpus of the Arabic and Persian inscriptions of Bengal* (Dacca, 1992)
Aḥmad, Q. (ed.), *Corpus of Arabic and Persian inscriptions of Bihar (AH 640–1200)* (Patna, 1973)
Bühler, G., 'A Jaina account of the end of the Vaghelas of Gujarat', *IA* 26 (1897), 194–5
Dani, Aḥmad Ḥasan, *Muslim inscriptions of Bengal*, Appendix to *JASP* 2 (Dacca, 1957)
Desai, P. B., 'Kalyana inscription of Sultan Muḥammad, Śaka 1248', *EI* 32 (1957–8), 165–70
Desai, Z. A., 'Inscriptions of the Mamlūk Sulṭāns of Delhi', *EIAPS* (1966), 4–18
'Khaljī and Tughluq inscriptions from Gujarat', *EIAPS* (1962), 1–40
'The Chanderi inscription of 'Alau'd-din Khalji', *EIAPS* (1968), 4–10
'The Jālor 'Īdgāh inscription of Quṯbu'd-Dīn Mubārak Shāh Khaljī', *EIAPS* (1972), 12–19
'Two inscriptions of Ghiyāthu'd-Dīn Tughluq from Uttar Pradesh', *EIAPS* (1966), 19–26

Diskalkar, D. B., 'Inscriptions of Kathiawad', *NIA* 1 (1938–9), 686–96
Husain, A. M., 'Six inscriptions of Sulṭān Muḥammad bin Tughluq Shāh', *EIAPS* (1957–8), 29–42
Moneer, Q. M., 'Two unpublished inscriptions of the time of Sulṭān Muḥammad bin Tughluq', *EIM* (1939–40), 23–6
Nāẓim, M., *Inscriptions of Bijapur*, MASI 49 (Delhi, 1936)
Prasad, Pushpa (ed.), *Sanskrit inscriptions of Delhi Sultanate 1191–1526* (Delhi, 1992)
Shokoohy, Mehrdad (ed.), *Haryana I*, Corpus inscriptionum Iranicarum, part IV: Persian inscriptions down to the early Safavid period, XLVII (London, 1988)
Rajasthan I, Corpus inscriptionum Iranicarum, part IV: Persian inscriptions down to the early Safavid period, XLIX (London, 1986)
Shu'aib, M. M., 'Inscriptions from Palwal', *EIM* (1911–12), 1–5
Sircar, D.C., 'Inscriptions of the time of Yajvapala Gopala', *EI* 31 (1955–6), 323–36
Thomas, Edward, *Chronicles of the Pathan kings of Delhi* (Delhi, 1871)
Verma, B. D., 'Inscriptions from the Central Museum, Nagpur', *EIAPS* (1955–6), 109–18
Wright, H. Nelson, *Catalogue of the coins of the Indian Museum, Calcutta*, II (Oxford, 1907)
The coinage and metrology of the Sulṭāns of Dehlī (Delhi, 1936)
Yazdani, Ghulam Husain, 'Inscriptions of the Khaljī Sulṭāns of Delhi and their contemporaries in Bengal', *EIM* (1917–18), 8–42
'The inscriptions of the Turk Sulṭāns of Delhi – Mu'izzu-d-dīn Bahrām, 'Alā'u-d-dīn Mas'ūd, Nāṣiru-d-dīn Maḥmūd, Ghiyāthu-d-dīn Balban and Mu'izzu-d-dīn Kaiqubād', *EIM* (1913–14), 13–46

Secondary sources

'Abdu'l Walī, Maulavī, 'Life and letters of Malik 'Aynu'l-Mulk Māhrū, and sidelights on Fīrūz Shāh's expeditions to Lakhnautī and Jājnagar', *JASB* ns 19 (1923), 253–90
Aḥmad, Aziz, 'Mongol pressure in an alien land', *CAJ* 6 (1961), 182–93
Studies in Islamic culture in the Indian environment (Oxford, 1964)
'The early Turkish nucleus in India', *Turcica* 9 (1977), 99–109
'The sufi and the sultan in pre-Mughal Muslim India', *Der Islam* 38 (1962), 142–53
Aḥmad, Laiq, 'Kara, a medieval Indian city', *IC* 55 (1981), 83–92
Aḥmad, Muḥammad 'Azīz, *Political history and institutions of the early Turkish empire of Delhi (1206–1290AD)* (Lahore, 1949)
Ali, Athar, 'Military technology of the Delhi Sultanate (13–14th C.)', in *PIHC* 50 *(Gorakhpur 1989)* (Delhi, 1990), 166–82
Allsen, T. T., *Mongol imperialism: the policies of the Grand Qan Möngke in China, Russia, and the Islamic lands, 1251–1259* (Berkeley and Los Angeles, 1987)
'The Yūan dynasty and the Uighurs of Turfan in the 13th century', in Morris Rossabi (ed.), *China among equals: the Middle Kingdom and its neighbours, 10th–14th centuries* (Berkeley and Los Angeles, 1983), 243–80
Askari, S. H., 'Material of historical interest in I'jaz-i-Khusravi', *MIM* 1 (1969), 1–20

'Risail (*sic*)-ul-Ijaz of Amir Khusrau: an appraisal', in *Dr. Zakir Husain presentation volume* (Delhi, 1968), 116–37

Aubin, Jean, 'L'ethnogénèse des Qaraunas', *Turcica* 1 (1969), 65–94

'Le khanat de Čaġatai et le Khorassan (1334–1380)', *Turcica* 8 (1976), 16–60

'Les princes d'Ormuz du XIII[e] au XV[e] siècle', *JA* 241 (1953), 77–138

Ayalon, David, 'Aspects of the Mamlūk phenomenon, I. The importance of the Mamlūk institution', *Der Islam* 53 (1976), 196–225; repr. in his *The Mamlūk military society* (London, 1979)

Studies on the Mamlūks of Egypt (1250–1517) (London, 1977)

'Studies on the structure of the Mamluk army – II', *BSOAS* 15 (1953), 448–76; repr. in his *Studies*

'The Wafidiya in the Mamluk kingdom', *IC* 25 (1951), 81–104; repr. in his *Studies*

Banerjee, Jamini Mohan, *History of Firuz Shah Tughluq* (Delhi, 1967)

Barthold, W., *Four studies on the history of Central Asia* (Leiden, 1956–62, 4 parts in 3 vols.)

Turkestan down to the Mongol invasion, 3rd edn by C. E. Bosworth, GMS, ns, V (London, 1968)

Zwölf Vorlesungen über die Türken Mittelasiens, tr. Th. Menzel (Hildesheim, 1935; repr. 1962)

Bhandarkar, D. R., 'The Chahamanas of Mārwār', *EI* 11 (1911–12), 26–79

Biran, Michal, *Qaidu and the rise of the independent Mongol state in Central Asia* (Richmond, Surrey, 1997)

Bosworth, C. E., *The Ghaznavids. Their empire in Afghanistan and eastern Iran 994:1040*, 2nd edn (Beirut, 1973)

The history of the Saffarids of Sistan and the maliks of Nimruz (247/861 to 949/1542–3) (Costa Mesa, California, 1994)

The later Ghaznavids, splendour and decay: the dynasty in Afghanistan and northern India 1040–1186 (Edinburgh, 1977)

The medieval history of Iran, Afghanistan and Central Asia (London, 1977)

'The political and dynastic history of the Iranian world (A.D. 1000–1217)', in Boyle (ed.), *Cambridge history of Iran*, V, 1–202

Bouchon, Geneviève, 'Quelques aspects de l'islamisation des régions maritimes de l'Inde à l'époque médiévale (XII[e]–XVI[e] s.)', in Gaborieau (ed.), *Islam et société*, 29–36

Boyle, J. A., 'Dynastic and political history of the Īl-khāns', in Boyle (ed.), *Cambridge history of Iran*, V, 303–421

'The Mongol commanders in Afghanistan and India according to the *Ṭabaqāt-i Nāṣirī* of Jūzjānī', *IS* 2 (1963), 235–47

Boyle, J. A. (ed.) *The Cambridge history of Iran, V. The Saljuq and Mongol periods* (Cambridge, 1968)

Chakravarti, Monmohan, 'Notes on Gaur and other old places in Bengal', *JASB* ns 5 (1909), 199–235

Clauson, Sir Gerard, *An etymological dictionary of pre-thirteenth-century Turkish* (Oxford, 1972)

Conermann, Stephan, *Die Beschreibung Indiens in der 'Riḥla' des Ibn Baṭṭūṭa: Aspekte einer herrschaftssoziologischen Einordnung des Delhi-Sultanates unter Muḥammad Ibn Tuġluq*, IU, 165 (Berlin, 1993)

Cunningham, Sir Alexander, 'Report of a tour in Bundelkhand and Rewa in 1883-84', *ASIR* 21 (1885), 1-137
Dani, Aḥmad Ḥasan, 'Shamsuddīn Ilyās Shāh, Shāh-i Bangālah', in Gupta *et al.* (eds.), 50-8
Dardess, John W., 'From Mongol empire to Yüan dynasty: changing forms of imperial rule in Mongolia and Central Asia', *Monumenta Serica* 30 (1972-3), 117-65
Day, U. N., *The government of the Sultanate*, 2nd edn (New Delhi, 1993)
'The north-west frontier of the Sultanate', in his *Some aspects of medieval Indian history* (New Delhi, 1971), 29-57
'The north-west frontier under the Khalji Sultans of Delhi', *IC* 39 (1963), 98-108
De Bary, W. T. (ed.), *Sources of Indian tradition* (New York, 1958)
Derrett, J. Duncan M., *The Hoysaḷas: a medieval Indian royal family* (Oxford, 1957)
Deyell, John S., *Living without silver: the monetary history of early medieval North India* (Oxford and Delhi, 1990)
Digby, Simon, 'Iletmish or Iltutmish? A reconsideration of the name of the Dehli Sultan', *Iran* 8 (1970), 57-64
'The currency system', in Raychaudhuri and Habib, (eds.), *Cambridge economic history*, 93-101
'The sufi *shaykh* and the sultan: a conflict of claims to authority in medieval India', *Iran* 28 (1990), 71-81
'The sufi shaikh as a source of authority in mediaeval India', in Gaborieau (ed.), *Islam et société*, 55-77
War-horse and elephant in the Delhi Sultanate: a problem of military supplies (Oxford and Karachi, 1971)
Dikshit, R. K., *The Candellas of Jejākabhukti* (New Delhi, 1977)
Doerfer, Gerhard, *Türkische und mongolische Elemente im Neupersischen* (Wiesbaden, 1963-75, 4 vols.)
Eaton, Richard M., *The rise of Islam and the Bengal frontier, 1204-1760* (Berkeley and Los Angeles, 1993)
Ernst, Carl W., *Eternal garden. Mysticism, history, and politics at a South Asian sufi center* (Albany, New York, 1992)
Friedmann, Yohanan, 'A contribution to the early history of Islam in India', in M. Rosen-Ayalon (ed.), *Studies in memory of Gaston Wiet* (Jerusalem, 1977), 309-33
Friedmann, Yohanan (ed.), *Islam in Asia*, I. *South Asia* (Jerusalem, 1984)
Gaborieau, Marc (ed.), *Islam et société en Asie du Sud*, Collection Puruṣārthe 9 (Paris, 1986)
Golden, P. B., 'Cumanica II. The Ölberli (Ölperli): the fortunes and misfortunes of an Inner Asian nomadic clan', *AEMA* 6 (1986 [1988]), 5-29
Gopal, Lallanji, *The economic life of northern India, c. A.D. 700-1200*, 2nd edn (Delhi, 1989)
Gupta, Hari Ram, *et al.* (eds.), *Essays presented to Sir Jadunath Sarkar*, Sir Jadunath Sarkar commemoration volume, II (Hoshiarpur, 1958)
Gupta, Satya Prakash, 'Jhain of the Delhi Sultanate', *MIM* 3 (1975), 209-15
Habib, Irfan, 'Agrarian economy', in Raychaudhuri and Habib (eds.), *Cambridge economic history*, 48-76
An atlas of the Mughal empire (Delhi, 1982; repr. 1986)

'Baranī's theory of the history of the Delhi Sultanate', *IHR* 7 (1980–1), 99–115
'Economic history of the Delhi Sultanate – an essay in interpretation', *IHR* 4 (1977), 287–303
'Formation of the Sultanate ruling class of the thirteenth century', in I. Habib (ed.), *Medieval India 1*, 1–21
'Non-agricultural production and urban economy', in Raychaudhuri and Habib (eds.), *Cambridge economic history*, 76–93
'The price regulations of 'Alā'uddīn Khaljī – a defence of Ẓiā' Baranī', *IESHR* 21 (1984), 393–414
Habib, Irfan (ed.), *Medieval India 1. Researches in the history of India 1200–1750* (Oxford and Delhi, 1992)
Habib, Moḥammad, and Nizami, Khaliq Aḥmad (eds.), *The Delhi Sultanat (A.D. 1206–1526)*, A comprehensive history of India, V (Delhi, 1970)
Habibullah, A. B. M., *The foundation of Muslim rule in India*, 2nd edn (Allahabad, 1961)
Haig, Sir Wolseley, 'Five questions in the history of the Tughluq dynasty of Dihli', *JRAS* (1922), 319–72
Haig, Sir Wolseley (ed.), *The Cambridge history of India*, III. *Turks and Afghans* (Cambridge, 1928)
Hambly, Gavin R. G., 'Twilight of Tughluqid Delhi', in R. E. Frykenberg (ed.), *Delhi through the ages: essays in urban history, culture and society* (Oxford and Delhi, 1986), 47–56
'Who were the Chihilgānī, the Forty Slaves of Sultan Shams al-Dīn Iltutmish of Delhi?', *Iran* 10 (1972), 57–62
Hardy, Peter, 'Didactic historical writing in Indian Islam: Żiyā al-Dīn Baranī's treatment of the reign of Sultan Muḥammad Tughluq (1324–1351)', in Friedmann (ed.), *Islam in Asia*, I, 38–59
'Dihlī Sultanate', *Enc.Isl.*[2]
'Djizya, iii. India', *Enc.Isl.*[2]
'Force and violence in Indo-Persian writing on history and government in medieval South Asia', in Milton Israel and N. K. Wagle (eds.), *Islamic society and culture. Essays in honour of Professor Aziz Aḥmad* (Delhi, 1983), 165–208
Historians of medieval India (London, 1960)
'The authority of Muslim kings in mediaeval South Asia', in Gaborieau (ed.), *Islam et société*, 37–55
'The growth of authority over a conquered political elite: the early Delhi Sultanate as a possible case study', in John S. Richards (ed.), *Kingship and authority in South Asia* (Madison, Wisconsin, 1978), 192–214
'The *oratio recta* of Baranī's *Ta'rīkh-i Fīrūz Shāhī* – fact or fiction?', *BSOAS* 20 (1957), 315–21
Hodivala, S. H., *Studies in Indo-Muslim history* (Bombay, 1939–57, 2 vols.)
Husain, A. Mahdi, *The rise and fall of Muḥammad bin Tughluq* (London, 1938)
Tughluq dynasty (Calcutta, 1963)
Irwin, Robert, *The Middle East in the middle ages: the early Mamluk Sultanate 1250–1382* (London and Sydney, 1986)
Islam, Riazul, 'Some aspects of the economy of northern South Asia during the fourteenth century', *JCA* 11 (1988), no. 2, 5–39.

'The rise of the Sammas in Sind', *IC* 22 (1948), 359–82
Islam, Ẓafarul, 'Fīrūz Shāh's attitude towards non-Muslims – a reappraisal', *IC* 64 (1990), part 4, 65–79
'The *Fatāwā Fīrūz Shāhī* as a source for the socio-economic history of the Sultanate period', *IC* 60 (1986), part 2, 97–117
Jackson, Peter, 'Jalāl al-Dīn, the Mongols and the Khwarazmian conquest of the Panjāb and Sind', *Iran* 28 (1990), 45–54
'Ḳuṭb al-Dīn Aybak', *Enc.Isl.*[2]
'The dissolution of the Mongol empire', *CAJ* 22 (1978), 186–244
'The fall of the Ghurid dynasty', in Carole Hillenbrand (ed.), *Festschrift for Professor Edmund Bosworth* (Edinburgh; forthcoming)
'The *Mamlūk* institution in early Muslim India', *JRAS* (1990), 340–58
'The Mongols and India, 1221–1351', unpublished PhD thesis, Cambridge, 1977
'The Mongols and the Delhi Sultanate in the reign of Muḥammad Tughluq (1325–1351)', *CAJ* 19 (1975), 118–57
Jackson, Peter, and Lockhart, Laurence (eds.), *The Cambridge history of Iran*, VI. *The Timurid and Safavid periods* (Cambridge, 1986)
Jahn, Karl, 'Zum Problem der mongolischen Eroberungen in Indien (13.–14. Jahrhundert)', in *Akten des XXIV. internationalen Orientalisten-Kongresses München . . . 1957* (Wiesbaden, 1959), 617–19
Joshi, P. M., and Husain, A. Mahdi, 'Khaljis and Tughluqs in the Deccan', in Sherwani and Joshi, *History of medieval Deccan*, I, 29–55
Kehrer, Kenneth C., 'The economic policies of Ala-ud-Din Khalji', *Journal of the Panjab University Historical Society* 16 (1963), 55–66
Kempiners, Russell G., Jr, 'Vaṣṣāf's *Tajziyat al-Amṣār wa Tazjiyat al-Aʿṣār* as a source for the history of the Chaghadayid khanate', *JAH* 22 (1988), 160–87
Khuhro, Hamida (ed.), *Sind through the centuries* (Oxford and Karachi, 1981)
Kolff, Dirk H. A., *Naukar, Rajput and Sepoy: the ethnohistory of the military labour market in Hindustan, 1450–1850* (Cambridge, 1990)
Lal, Kishori Saran, *History of the Khaljis A.D. 1290–1320*, 3rd edn (Delhi, 1980)
Twilight of the Sultanate, revised edn (New Delhi, 1980)
Lessing, F. D., *A Mongolian–English dictionary* (Berkeley and Los Angeles, 1960)
Lewis, Bernard, *The Jews of Islam* (Princeton, 1984)
Majumdar, R. C., *Chaulukyas of Gujarat* (Bombay, 1956)
History of medieval Bengal (Calcutta, 1973)
Manz, Beatrice Forbes, *The rise and rule of Tamerlane* (Cambridge, 1989)
'The ulus Chaghatay before and after Temür's rise to power: the transformation from tribal confederation to army of conquest', *CAJ* 27 (1983), 79–100
Mirza, M. Wahid, *The life and works of Amir Khusrau* (Calcutta, 1935)
Misra, S. C., *The rise of Muslim power in Gujarat*, 2nd edn (New Delhi, 1982)
Moosvi, Shireen, 'Numismatic evidence and the economic history of the Delhi Sultanate', in *PIHC* 50. *Gorakhpur 1989* (Delhi, 1990), 207–18
Moreland, W. H., *The agrarian system of Moslem India* (Cambridge, 1929)
Morgan, D. O., *The Mongols* (Oxford, 1986)
Morgan, D. O. (ed.), *Medieval historical writing in the Christian and Islamic worlds* (London, 1982)
Nigam, S. B. P., *Nobility under the Sultans of Delhi A.D. 1206–1398* (Delhi, 1968)
Niyogi, Roma, *The history of the Gāhaḍavāla dynasty* (Calcutta, 1959)

Nizami, K. A., 'Early Indo-Muslim mystics and their attitude towards the state', *IC* 22 (1948), 387–98; 23 (1949), 13–21, 162–70, 312–21; 24 (1950), 60–71
On history and historians in medieval India (New Delhi, 1983)
Some aspects of religion and politics in India in the thirteenth century (Aligarh, 1961)
Studies in medieval Indian history (Aligarh, 1956)
Supplement to Elliot and Dowson's History of India, II–III (Delhi, 1981)
'The impact of Ibn Taimiyya on South Asia', *JIS* 1 (1990), 120–49
Nizami, K. A. (ed.), *Politics and society during the early medieval period. Collected works of Professor Mohammad Habib* (New Delhi, 1974, 2 vols.)
Niẓámu'd-Dín, M., *Introduction to the Jawámi'u'l-ḥikáyát*, GMS, ns, VIII (London, 1929)
Pal, Dharam, '"Alā'-ud-Dīn Khiljī's Mongol policy', *IC* 21 (1947), 255–63
'"Alā'-ud-Dīn's price control system', *IC* 18 (1944), 45–52
Parry, V. J., and Yapp, M. E. (eds.), *War, technology and society in the Middle East* (Oxford and London, 1975)
Pelliot, Paul, *Notes on Marco Polo* (Paris, 1959–73, 3 vols. with continuous pagination)
Notes sur l'histoire de la Horde d'Or (Paris, 1950)
Pelliot, P., and Hambis, L. (eds.), *Histoire des campagnes de Gengis Khan. Cheng-wou Ts'in tcheng-lou* (Leiden, 1951, vol. I only)
Petech, Luciano, *Mediaeval Nepal (c. 750–1480)*, Serie Orientale Roma, X (Rome, 1958)
Prasad, Ishwari, *A history of the Qaraunah Turks in India* (Allahabad, 1936, vol. I only)
Qureshi, I. H., *The administration of the Sultanate of Dehli*, 4th edn (Karachi, 1958)
Rabie, Hassanein, *The financial system of Egypt A.H. 564–741/A.D. 1169–1341* (Oxford and London, 1972)
Rashid, Shaikh Abdur, 'Price control under Alauddin Khilji', in *Proceedings of the All-Pakistan History Conference. First Session, held at Karachi ... 1951* (Karachi, [n.d.]), 203–10
Rásonyi, L., 'Les noms de personnes impératifs chez les peuples turques', *AOH* 15 (1962), 233–43
Ray, H. C., *The dynastic history of northern India* (Calcutta, 1931–5, 2 vols. with continuous pagination)
Raychaudhuri, T., and Habib, I. (eds.), *The Cambridge economic history of India*, I. *c. 1200– c. 1750* (Cambridge, 1982)
Richards, J. F. (ed.), *Precious metals in the later medieval and early modern worlds* (Durham, North Carolina, 1984)
Roemer, Hans Robert, 'Tīmūr in Iran', in Jackson and Lockhart, 42–97
Roy, N. B., 'The transfer of capital from Delhi to Daulatabad', *JIH* 20 (1941), 159–80
Saeed, Mian Muḥammad, *The Sharqi Sultanate of Jaunpur* (Karachi, 1972)
Saran, P., 'Politics and personalities in the reign of Nasir-ud-din Mahmud the Slave [*sic*]', in his *Studies in medieval Indian history* (Delhi, 1952), 223–48
'The economic policy and price control of Alauddin Khalji', *Bhāratiya Vidyā* 11 (1950), 195–215; repr. in his *Studies* (above)
Sauvaget, Jean, 'Noms et surnoms de Mamelouks', *JA* 238 (1950), 31–58

Sharma, Dasharatha, *Early Chauhān dynasties*, 2nd edn (Delhi, 1975)
Sherwani, H. K., and Joshi, P.M. (eds.), *History of medieval Deccan (1295–1724)* (Hyderabad, AP, 1973, 2 vols.)
Siddiqi, M. Y. Z., 'Arzdasht of Badr Hajib', *MIM* 2 (1972), 291–7
Siddiq[u]i, Iqtidar Husain, 'Historical information in the thirteenth century collections of Persian poems', *Studies in Islam* 19 (1982), 47–76
'The nobility under the Khalji Sultans', *IC* 37 (1963), 52–66
'Fresh light on Ḍiyā' al-Dīn Baranī: the doyen of the Indo-Persian historians of medieval India', *IC* 63 (1989), 69–84
'Social mobility in the Delhi Sultanate', in I. Habib (ed.), *Medieval India 1*, 22–48
'Sultan Muḥammad bin Tughluq's foreign policy: a reappraisal', *IC* 62 (1988), part 4, 1–22
'The Afghāns and their emergence in India as ruling elite during the Delhi Sultanate period', *CAJ* 26 (1982), 241–61
'The Qarlūgh kingdom in north-western India during the thirteenth century', *IC* 54 (1980), 75–91
Smail, R. C., *Crusading warfare 1097–1193* (Cambridge, 1956; 2nd edn, 1995)
Spuler, Berthold, *Die Goldene Horde: die Mongolen in Rußland 1223–1502*, 2nd edn (Wiesbaden, 1965)
Die Mongolen in Iran: Politik, Verwaltung und Kultur der Ilchanzeit 1220–1350, 4th edn (Leiden, 1985)
Stapleton, H. E., 'Contributions to the history and ethnology of north-eastern India – IV. Bengal chronology during the period of independent Muslim rule. Part I, 686–735 A.H. (1286–1334 A.D.)', *JASB* ns 18 (1922), 407–30
Troll, Christian W. (ed.) *Muslim shrines in India* (Oxford and Delhi, 1989)
Venkata Ramanayya (Venkataramanyya), N., 'The date of the rebellions of Tilang and Kampila against Sultan Muḥammad bin Tughlaq', *Indian Culture* 5 (1938–9), 135–46, 261–9
The early Muslim expansion in South India (Madras, 1942)
Verma, H. C., *Dynamics of urban life in pre-Mughal India* (New Delhi, 1986)
Welch, Anthony, and Crane, Howard, 'The Tughluqs: master-builders of the Delhi Sultanate', *Muqarnas* 1 (1983), 123–66
Wink, André, *Al-Hind: the making of the Indo-Islamic world*, I. *Early medieval India and the expansion of Islam, 7th–11th centuries* (Leiden, 1990)
Al-Hind: the making of the Indo-Islamic world, II. *The Slave Kings and the Islamic conquest, 11th–13th centuries* (Leiden, 1997)
Woods, John E., 'The rise of Tīmūrid historiography', *Journal of Near Eastern Studies* 46, part 2 (1987), 81–108
Yule, Sir Henry, and Burnell, A. C., *Hobson-Jobson: a glossary of colloquial Anglo-Indian words and phrases*, new edn by W. Crooke (London, 1903)

الفهرس